حقائق عن

نظام الحكم الشيوعي

كتبه بالألمانية

ف. ليونهارد

نقله إلى العربيّة

الدكتور محمد شامة

(الطبعة الأولى)

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

يطلب من : مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين

تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

رمضان سنة ١٤٠١ هـ ــ يوليو سنة ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة العربية

اشتد الصراع الأيديولوجى ، وازداد حدة فى العالم الاسلامى بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ عندما لاح فى الأفق أن الاستعمار القديم قد أدار ظهره ، وأن قواته تستعد للرحيل عن المناطق ، التى احتلتها سنين طويلة ، ظن أصحاب الأيديولوجيات ، أن الفرصة سانحة للانقضاض على السلطة ، وتثبيت عقيدتهم فى المجالات المختلفة •

تبلور هذا الصراع ، فاتخذ شكلين رئيسيين ، أحدهما تيار يمينى والآخر يسارى ، واستمر الكفاح بينهما مدا وجزرا فترة من الزمن ، ولكن سرعان ما أصيب التيار اليمينى بنكسة أخرجته من ميدان الصراع ، وكان السبب فيها عدة عوامل منها :

١ ــ نقص خبرة قادته ، وقلة تجاربهم فى المجال السياسى •

٢ ــ نشوء الخلاف بينهم ، ويرى بعض الخبراء أن هذه الظاهرة كانت نتيجة لتسرب عناصر انتهازية ، الى داخل صفوف القيادة ، ظنا منها أن هذا التيار أصبح قاب قوسين أو أدنى من تولى السلطة •

٣ ــ اصطدامهم اصطداما مباشرا مع القوى الوطنية الجديدة التى تسلمت السلطة من الاستعمار ، وهى بطبيعة الحال لا تميل الى هذا التيار نتيجة تأثير موجات دعائية أجنبية •

٤ ــ اجماع المعسكرين ، الشرقى والغربى على ضرورة القضاء على التيار اليمينى ، لأن كلا منهما يجد فيه خطرا على وجوده فى منطقة العالم الاسلامى •

خلت الساحة من اليمين ودعاته ، فتهيأ الجو لليسار ، فتغلغل بين صفوف الجماهير ، ولكن لم يرجع انتشار ايديولوجيته بين شعوب العالم الاسلامى الى هذا السبب فقط ، بل كان هناك عامل آخر ــ وهو عامل رئيسى على ما أعتقد ــ ، ألا وهو طبيعة الظروف الدولية ، التى نشأت عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد هيأت تلك الظروف المجال للشيوعية ، ودعاتها ليلعبوا دورا نشطا فى الساحة الاسلامية سياسة وتوجيها ، اذ تولى السلطة شباب ، رأوا من الوطنية معاداة المعسكر الذى قاست منه الشعوب أيام الاستعمار ، غير أن قوتهم لم تكن كافية للوقوف أمام

دول كبرى ، فاستعانوا بالمعسكر الشرقى ، فلبى الطلب بسرعة ، لينشر أيديولوجيته بين شعوب العالم الاسلامى ، الذى كان — حتى ذلك الحين — منطقة مغلقة فى وجهه •

فتح الباب ، وأعطيت له اشارة الضوء الأخضر ، فدخل بمساعداته العسكرية والفنية ، ثم تغلغل حتى وصل الى مراكز التوجيه والاعلام ، فركز نشاطه فى هذا المجال ، ليحول المجتمع الاسـلامى الى اعتناق أيديولوجيته وسلك فى ذلك طرقا ملتوية — تجنبا لرد فعل الجماهير ، التى تعتقد أن الشيوعية تحارب الأديان — متخفيا وراء شعارات وطنية ، ومع ذلك لم يستجب له الا القليل ، فأوهم العامة أن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، وكانت هذه مجرد مناورة تخفى وراءها الحقيقة الصارخة ، فالشيوعية كانت — ولا زالت ، وستظل — تحارب الاسلام ، فقد نشرت الجمعية الاتحادية لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ م كتيبا(١) بقلم : « كليموفيتش » تحت عنوان : « الاسلام : نشوءه ومستقبله » جاء فيه :

« ان شعوب الاتحاد السوفييتى العائشين مع بعضهم بمودة أخوية ، قد تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى ، الذى كان مستوليا عليهم فى الماضى ، وأحرزوا تقدما اقتصاديا لم يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شـأن البلاد الاشتراكية • وقد تغير أيضا المظهر الأدبى للشـعب السوفييتى ، فأصبحت تعاليم « ماركس » و « لينين » العظيمة الخاصة بطبقة العمال ، أساسا — لا ينقض — لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية • ولكن لا يمكن الانكار بأنه لا يزال راسخا فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى ، التى لا تلاءم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى ، المستند على العلم والاختبار •

« ان محاربة هذه البقايا التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجيا من الاشتراكية الى الشيوعية • ومن ضمن هذه البقايا الخرافات الدينية المخالفة للعلوم •

---

(١) وزع هذا الكتيب فى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، فقد أطلعنى أحد الطلبة فى جامعة أحمد بلو بنيجيريا على نسخة منه ، وأخبرنى بأنه يباع فى العاصمة « لاجوس » •

« ويمثل **الدين الاسلامى** احدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى فى القوقاز ، والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفييتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية •

وينتشر هذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عدد من البلاد الآسيوية والافريقية » •

ولم يكتف « كليموفيتش » بهذا ، بل هاجم القــرآن ، والسنة النبوية هجوما مباشرا حيث قال :

« يعتبر القرآن والسنة والشريعة كتب الاسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب فى القرون الوسطى فى زمن سيادة الاقطاع ، وتبرز تعاليم هذه المؤلفات الجور الطبقى ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات الدليل الوحيد على الماضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها تطبق كقوانين فى البلاد التى تتخذ الاسلام دينها الرسمى »(١) •

ثم بين الموقف الحقيقى للشيوعيين فى الشرق فقال :

« وقد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم كليا مع تعاليم القرآن »(٢) • ورمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية :

« ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الا مجهودا لمعاضدة التأخر الاجتماعى ، الذى أصبح — أو على وشك أن يصبح — من ذكريات الماضى »(٣) •

وادعى أن الايمان بالله لا قيمة له فى المجتمع :

« ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ، وأوضح لينين المعنى الحقيقى لهذه البيانات فقال :

« ان فكرة وجود الله كان مفعولها دائما ، اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى بشىء ميت ، وما هى الا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم ترتبط فكرة الله الفرد بالمجتمع ، بل قيدت الطبقات المظلومة بالاعتقاد بالهية الظالمين » (ص ٩٣ مجلد ٣٥ من مؤلفات لينين)(٤) •

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ •
(٢) المصدر السابق ص ٣٩ •
(٣) المصدر السابق ص ٤٥ •
(٤) المصدر السابق ص ٤٥ •

ثم أفصح عن مراده ، ألا وهو بيان أن الاسلام يقف حجر عثرة فى سبيل نشر المبادىء الشيوعية :

« ويستنتج من دروس تاريخ ظهور الاسلام وماهيته الاجتماعية بأنه كغيره من الأديان الأخرى ، عبارة عن فكرة محافظة تناقض العلوم ، وتغل أيدى الناس عن النشاط والاقدام على العمل المثمر ، وتعارض نشر المبادىء السوفييتية الحيوية فى العـالم ، أى « الماركسـية » و « اللينينية » ، ويمكن نسب تلك المميزات الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه وزياراته للأماكن المقدسة ، وعبادة الأئمة وغيرها من العادات • وتتعلق جميع هذه القواعد والعادات ببقايا الآراء الشرقية القديمة ، القائلة بعزل الانسان عن الانسان ، والمشبعة بالفكرة الضالة ، المضرة بأن الله هو الذى يضمن برحمته حياة هادئة ، ومرفهة للبشر ، لا اجتهاد الانسان »(١) •

وأوضح أن الشيوعية مستمرة فى كفاحها ضد الدين :

« ويستمر الحزب فى الكفاح ضد المعتقدات الدينية(٢) باعتبارها منافية للفكرة العلمية عن الدنيا •

« ومن المستحيل احراز التقدم الحقيقى ، قبل التغلب على البقايا الدينية وغيرها من الآراء ، التى أصبحت بالية ، وكذلك النظريات التى تضلل ذهن الانسان •

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ •

(٢) ولهذا يطرد الحزب الشيوعى كل عضو ، يثبت أنه يحافظ على اقامة شعائر الاسلام ، فقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية فى عددها الصادر فى ١٩٧٤/٧/١٧ م ما يلى :

« موسكو — رويتر : ذكرت الأنباء الصحفية ، التى وصلت الى موسكو اليوم أن عددا من الأعضاء العاملين فى الحـزب الشيوعى بمنطقة قوقازية نائيـة ، قد طردوا من الحزب بسبب مشاركتهم فى الاحتفالات الدينيـة الاسـلامية •

وجاء فى مقال نشرته صحيفة « زوربا فيتكا » بعددهـا الصـادر يوم الجمعـة المـاضى ، أن عدد المؤمنين فى منطقة « أزهاريا » الواقعة على البحر الأسـود ، بالقرب من الحدود التركية ، قد تزايدوا بدرجة كبيرة فى العام المـاضى • وذكرت الصحيفة أن مدير احدى المزارع الجماعية قد فصـل من الحزب ، كما تعرض بعض رجال الحزب الآخرين لتأنيب قاس بسبب انخفاض مستوى الدعاية الالحادية ، التى يقدمونها بسبب مشاركتهم فى الطقوس الدينية •

« ان الغاء الدين ، الذى ما هو الا سعادة وهمية للناس ، عمل ضرورى لجلب سعادتهم الحقيقية »(١) • (صفحة ٤١٥ المجلد الخامس من مؤلفات ك • ماركس و ف • انجيلز الطبعة الثانية)(٢) •

ألا تدل هذه النصوص على أن الشيوعيين فى الشرق الاسلامى يناورون ، ويلعبون بعقول الجماهير حين يدعون أن الشيوعية لا تحارب الدين ؟

أما دعواهم « التقدمية » ، فمغالطة أيضا ذلك أن ظروف القرن التاسع عشر — الذى ظهرت فيه دعـوة « ماركس » — الاقتصادية والاجتماعية ، قد تغيرت الآن كلية ، فاذا نودى اليوم بتطبيق مبادىء « ماركس » كحل لمشاكل المجتمع فهى دعوة رجعية ، لأنها كانت لمعالجة مشكلة ، لم يعد لها وجود الآن •

وقد وضح ذلك الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه : « تهافت الفكر المادى التاريخى »(٣) ثم قـال :

---

(١) أى سعادة تلك التى يعد بها ماركس المجتمع الشيوعى ؟
أهى التعذيب والارهـاب ؟
أم كبت الحريات ، واشاعة الرعب والفزع بين المواطنين ؟
أم هى الفقر والحرمان التى تعانيه الشعوب الخاضعة لنظام الحكم الشيوعى ؟؟؟

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ •

(٣) رسم الدكتور صورة للمجتمع الأوروبى فى دول غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، فبين أن رأس المـال كان يوجه السلطة العسكرية ، التى امتد سلطانها على مستعمرات فى افريقيا وآسيا •

وعلى امتداد سنوات الاستعمار الغربى ، تكدست ثروة القـارتين الاقتصادية فى أوروبا ، وتحكم فيها رجال الصناعة فى البلاد الغربية ، ورجال المـال والتجارة الذين توسعوا فى الأعمال التجارية • وعندما دخلت الآلة مجال الصناعـة ، نافسـت العمـل اليدوى ، فتحول أصحابه الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآليـة الكبيرة •

تحول رأس مـال الصناعة — نتيجة المنافسة — فأصبح فى يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، وبالتالى تجمعت لديهم الأرباح الواسعة :
من استعمار القارتين الافريقية والآسيوية •
وتسخير المواطنين فيهما فى خدمة الصناعة الأوروبية •

وأصبح هنا فى أوروبا الغربية ثراء فاحش ، يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء ، ووقف مد هذا الثراء عند هذه القلة من أصحاب رؤوس الأموال =

« ان كارل ماركس قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضـــاع القرن التاسع عشر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية ، ولذا فصلاحية اتجاهه فى حلول المشاكل يقصر عن أن يتجاوز هذه الأوضاع ، ويقصر عن أن يمتد الى القرن العشرين ، فيعالج مشاكلها .. واذا نودى اليوم فى المجتمعات الماركسية اللينينية فى شرق أوروبا — أو فى أى مجتمع يفرض فلسفة ماركس ولينين فى افريقيا وآسيا — بـ« التقدمية » فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا ثورية الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعـــوة الى الرجـــوع بـ« التطور

= وكلما زاد ثراؤهم ، قوى نفوذهم فى السياسة الدولية ، وازداد من عداهم فقرا وحرمانا ، وضعفا فى رعاية صحتهم ، وأحوالهم الاجتماعية .

كانت هذه هى مشكلة القرن التاسع عشر ، ورأى ماركس أن حلها يجب أن يكون :

(أ) فى مزيد من اثارة حقد العمـــال على أصحاب رؤوس الأموال .

(ب) وفى دعوتهم الى تكبيدهم الخسائر ، والحاق الضرر بأموالهم ، ومصانعهم عن طريق الاضراب .

(ج) وفى الدعوة الى الانقلاب ، والاطاحة بأصحاب رؤوس الأموال وبالنظام السياسى فى الحكم .

ولكن طرأ تقدم اجتماعى على المجتمع الصناعى فى الغرب فى القرن العشرين — وبالأخص فى بداية النصف الثانى منه — قلل كثيرا من الفجوة فى العيش والمتعة بالحياة ، والنظرة الى الانسان التى ساءت حاله على عهد فلسفة ماركس :

فارتفعت أجور العمال .

وزادت الخدمات العامة التى تقدم لهم .

وتحددت ساعات العمل اليومى والاسبوعى .

وأصبح لهم الحق فى الاجازات السنوية .

وزادت الرعاية الاجتماعية ، فتأمين ضد العجز والشيخوخة وفرص لتعليم أبنائهم فى المراحل المختلفة ... الخ .

وكاد وضع العامل الحالى يجعل المصنع شركة بينه وبين صاحب رأس المـــال ، وليس بينهما فارق ، الا أن أحدهما يستخدم كل طاقاته فى الادارة ، والثانى يستخدمها فى الانتاج .

ان وضع العامل فى النصف الثانى من القرن العشرين يختلف تماما عن وضعه فى القرن التاسع عشر ، على عهد كارل ماركس ، فلا مجال اليوم لدعوته ، الا اذا رجعت عجلةالتاريخ الى القرن التاسع عشر ، أى فهى دعوة رجعية مضى زمنها (انظر : تهافت الفكر المـــادى التاريخى ص ١٥ — ٣٤) .

الاجتماعى » والتكنولوجى ، والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب رأس المـــال فى الحياة ، والشقاء والاستمتاع فيها ، وحتى يمكن أيضا أن ترى الحاجة الشديدة الى العمل اليدوى ، وسيطرته على المجهود الانسانى فى مجالات الانتاج الصناعى على الأخص ، مع رفاهية أصحاب رؤوس الأموال ، دون أن يكون لهم أثر سوى أنهم يملكون المـــال •

« وعندئذ فقد يكون لفكر ماركس مكان فى حل ما بين العامل ، وصاحب رأس المـــال من مشاكل ، هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المـــال ••

« ان من التناقض أن تلتمس حلا ، كان بالامس لمشكل لم يعد له وجود اليوم •••

« ان ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ، ويصفان التمسك به بأنه « رجعية » — أى رجوع الى الخلف والوراء — مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة البشرية ، بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفى أى وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السلوك سواء فى المـــال ، أو فى العلاقات البشرية ، بينما فلسفتهما قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع معروفة ، خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين •

« أفلا يوصف ذلك الذى ينادى بالماركسية اللينينية — وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن ، وذهبت تلك الأخرى التى حملت على الفكر الفلسفى الماركسى — بأنه رجعى ؟

« وأنه يريد أن يعيد عجلـــة تاريخ القرن العشرين الى القرن التاسع عشر[١] ؟

* * *

(١) تهافت الفكر المـادى التاريخى ص ٣٤ — ٣٦ •

وكتاب « حقائق عن نظام الحكم الشيوعى »[1] من أهم الكتب — ان لم يكن أهمها — ، لأنه يبين حقيقة هذا النظام ، ويوضح لنا التناقض بين الأحلام التى ترسمها الدعاية الشيوعية ، وبين الواقع الأليم الذى يعيش فيه مواطنو الدول ، التى تطبق الأيديولوجية الماركسية ، نظاما فى الحكم والتوجيه ، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب ، أنه ظهر منه ثلاث عشرة طبعة باللغة الألمانية فى الفترة من عام ١٩٥٥ م الى عام ١٩٦٢ م ، بلغ مجموع ما وزع منها ١٤٦ ألف نسخة ، فقد اهتم به القراء اهتماما ، قل أن يناله كتاب فى القرن العشرين ، وذلك لأهمية القضايا التى عالجها •

ويجب على كل من يواجه التيار الشيوعى ، البراق فى مظهره ، الاطلاع عليه ، ليعرف الحقيقة واضحة ، فهو بقلم شيوعى أصيل هو : « فولفجانج ليونهـــار » نشأ فى أحضان الشيوعية ، اذ كان يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عندما غادر ألمانيا — منفيا — مع أمه متوجها الى موسكو ، فتربى فى مدارسها ، ودرس المذهب الماركسى ، والتحق بمنظمة الشباب فى الحزب الشيوعى ، وتدرج فيها حتى وصل الى مراكز القيادة حيث عاد — بعد الحرب العالمية الثانية — مع أول فوج الى ألمانيا ، ليتصدر مراكز التوجيه والقيادة ، لكنه ما لبث أن ضاق ذرعا بالدكتاتورية الشيوعية ، فهرب ، وسجل أحاسيسه ، واتجاهاته الفكرية ، فى هذا الكتاب ، وفى بعض تعبيراته عن هذا التحول يقول :

« لقد حاولت — وأنا مدرك ما أقدمت عليه تمام الادراك — أن أقدم صورة المقابلات والمناقشات ، والأحداث ، والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها •

وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب « ستالين » بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم فى قضية

---

(١) العنوان الأصلى للكتاب هو : « الثورة تطرد أبناءها » ، فغيرته الى أنه كان ابنا من أبناء الثورة ، فضاق ذرعا بالاجراءات التى تنفذها السلطة باسم الشيوعية ، فهرب منها ، ووصف هروبه بأن الثورة هى التى طردته ، « حقائق عن نظام الحكم الشيوعى » لأن المؤلف نظر الى الموضوع من ناحية اذ لم تحقق أمله فيها ، أما العنوان الذى اخترته فيرمز الى أن ما ورد فى الكتاب هو بيان وشرح لطبيعة النظام الشيوعى ، على لســان شيوعى •

الشك ، التى اعترتنى سنين طويلة ، وسبب لى من الآلام ، والمضايقات ما ناء به كاهلى .

« لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أغلق باب التراجع ، وعجزت المبررات عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل — وان كان يعانى فى أثناء ذلك من صراع داخلى حاد — الذى يصل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه مذهب ستالين »(١) .

وليس كفره بالنظام السوفييتى حالة فردية ، بل هى ظاهرة عامة لدى كثير من الشبان الذين اعتنقوا هذه الأيديولوجية ، أملا فى الوصول الى جنة على هذه الأرض ، فاذا هى عذاب وحرمان ، فكفروا بها وعارضوها :

« استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية (يعنى منظمة الشباب) ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعتقد أننى الوحيد ، الذى يعتنق هذه الأفكار ، التى تعتبر زندقة ، وكفرا بالنظام السوفييتى ، لكنى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان ، وارتفعت الكلفة بيننا ، فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتنق مثل هذه الأفكار .

« وضحت الأمور شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذ اضطرتنى الظروف الى عدم ذكر شىء ، أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعنيهم ، حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم فى مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض ، اعترف لى أحد هؤلاء ، بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التى تعتنقها الدولة ، وتعرفت على آخرين ، كانوا ماركسيين ، ولينيين ، اعتنقوا تعاليم ماركس وقدسوها ، أما اليوم فيقفون مع الجبهة المعارضة للنظام فى كثير من المسائل والمبادىء الأساسية »(٢) .

ويكشف النقاب عن التناقض فى المذهب الشيوعى ، بين الدعاية

---

(١) المؤلف ص ٤ — ٥ .

(٢) المؤلف ص ٨٢ .

والتطبيق ، اذ تعد الشيوعية بازالة الطبقات ، فى حين أن الطبقية موجودة فى نظامها ، فالحكم مقصور على طبقة معينة لا يتعداها :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة ، التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير ، التى امتدت من عام ١٩٣٦ م حتى عام ١٩٣٨ م ، والتى أطاحت بـ« المجموعة القديمة » ، بدأت هذه الطبقة الآن فى عام ١٩٤٠ م فى اتخاذ وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة ، والامتياز الطبقى وقفا على أبنائهم ، يرثونه من بعدهم »(١) •

ووضحت ظاهرة الطبقية أيضا فى معرفة أخبار الدولة ، فقد فرضت الرقابة الشديدة على تسرب الأخبار الى الجماهير ، فهم لا يعلمون شيئا عن الأحداث التى تقرر مصيرهم ، اللهم الا النذر اليسير ، فاذا علا الفرد درجة فى سلم الطبقات ، انكشفت له أسرار أكثر ، ونتج عن ذلك حرص كل واحد على توطيد علاقة بينه وبين من يطلعون على ما يجرى خلف الكواليس :

« نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات ، بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعات لا تنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيـات بارزة فى الحزب هـام جدا ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام ، من صحافة واذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار الا النذر اليسير ، أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة »(٢) •

ومن مظاهر الطبقية أن أعضاء الحزب لا يتحملون ما يقاسيه الشعب اذا أصيب الوطن بكوارث ، أو مر بأزمات ، بل يحصلون على كل ما يريدون ، ولو كان الشعب يموت جوعا ، يبدو ذلك فى وصف المؤلف بؤس الحياة فى الأحياء القديمة وبيان طبيعة حياة القادة فى الفنادق الكبيرة ، ثم يعقب على ذلك قائلا :

« وبدا التباين شاسعا بين الجو فى هذا الفندق ، وبين الأحياء

---

(١) المؤلف ص ١١٣ •

(٢) المؤلف ص ١٩٦ •

القديمة فى « كاراجندا » ، والأكواخ المبنية من الطين للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعه ، لو لم يره فى الاتحاد السوفييتى »(١) •

وتعد الشيوعية — عن طريق أبواقها الدعائية — بالديمقراطية الشعبية ، فللأفراد حرية تامة — ان هى تولت السلطة — فى التعبير ، وابداء الآراء ، ولجميع أفراد الشعب حرية فى الانتخابات ، وفى اختيار ممثليه فى السلطة ، بل له الحرية أيضا فى توجيــه دفة الحكم وفى التشريع ، وفى تحديد أهداف الدولة ، ولكن الواقع يؤكد أن الدكتاتورية سمة من سماتها ، وتقديس الزعماء ، وعبادتهم ركن أساسى فى تكوين سلطتها ، فلا حرية فى الآراء ، ولا فى الانتخابات ، ولا تسمح السلطة الشيوعية الحاكمة بحرية الاجتماعات ، والصحافة مقيدة فى مجتمعاتها ، تردد ما يقوله الزعماء ، فتموت القدرات الخلاقة ، بينما تعيش الطفيليات تصفق للزعماء ، ويكون فى ذلك قضاء على فاعليــة المجتمع فى الخلق والابداع :

« ••• وبكبت الحياة السياسية فى جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، والحرية الاجتماعية ، وحرية الصحافة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحيــاة فى كل مؤسسة عامة ، وتصبح حيــاة ظاهرية ، تكون البيروقراطية فيها هى العنصر الوحيد الذى يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المستوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لا حد لها ، وتقود حفنة من بينهم — يتمتعون بذكاء خارق — جماهير العمال من وقت لآخر الى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالاجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة هى مجموعة نفعية ، وهو ديكتاتور لا شك فى هذا ، ولكنه ليس ديكتاتور البوليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين »(٢) •

ولم يقتصر أثر الديكتاتورية الشيوعية على سلب الأفراد حريتهم ، بل سلبهم الطمأنينة ، فأشاع الرعب والهلع فى صفوفهم ، ففقدوا القدرة على اختيار الطريق الذى يحميهم من جبروت السلطة وبطشها :

---

(١) المؤلف ص ١٧٤ •

(٢) المؤلف ص ٥٧١ •

« انقلبت موازين العقل واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ، اذ من المعروف أن الذين يعيشون فى ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط ضدها ، يحاولون بشتى الطرق انكار هذا أمام المحقق — عندما يساقون بتهمة عدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن فى الاتحاد السوفييتى يفكر المرء فى خلق قصة طويلة خيالية تدينه ، يقولها أمام المحقق اذا ما اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئا ضد نظام الحكم »(١) •

لأنه اذا لم يعترف سيوقع عليه العقاب الصارم ، فليختلق قصة يكون من شأنها ، ايهام المحقق أن عقوبة ما ارتكبه من أعمال ضد السلطة ، أخف نوعا من الأحكام الصارمة ، وهكذا يعترف الأبرياء بارتكاب أعمال لم يرتكبوها ، أملا فى تخفيف العقوبة •

ولا يدين الشيوعيون بالولاء لأوطانهم ، بل هواهم مع الاتحاد السوفييتى — أو مع الصين — ينفذون ما يرسم لهم ، فهم كقطع الشطرنج ، صورهم فى الأوطان ، أما محرك تلك الصور فهو فى موسكو أو بكين ، اقرأ معى هذا الحوار الذى دار بين المؤلف وبين أحد زعماء الحزب الشيوعى الألمانى ، حين ثار المؤلف على ربط ألمانيا الشرقية بعجلة الاتحاد السوفييتى ، ونادى بالمساواة بينهما :

« ولكن يا « فولف جانج » ! فلنقف على أرض الحقيقة العارية ! ما معنى المساواة هنا ؟

أعرنى انتباهك ! فالنضال الذى انتشر فى العالم ، هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة » •••

وأشار بيده الى لوحة الشطرنج •

« ••• يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة عن الأخرى باختلاف شكلها ، وطريقة حركتها على اللوحة ، ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط ••• يجب أن نقترب من الموضوع مجردين من أى اتجاه ، فلست

---

(١) المؤلف ص ٤٢ •

قياديا جديدا فى الحزب . هل لاحظت مرة شيئا خاصا فى سمات الاتحاد السوفييتى ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية ؟

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال !

« لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات . وليس هذا من باب المصادفة ... وبهذا مهد الطريق للبلاد التى تتحول فيما بعد الى الاشتراكية للانضمام لهذا الاتحاد » .

« هل تعتقد أننا — اذا وصلت بلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية — نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا ترتبط بالاتحاد السوفييتى ؟

يجب أن نمارس سياسة واقعية فى هذه الأشياء . لا نستطيع هنا — فيما بيننا — أن نتحدث بصراحة ... من الممكن — لا أقول يجب أن يكون هذا — أن تنضم بلاد الديمقراطية الشعبية فيما بعد — كجمهوريات جديدة — الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الشعبية . وطبعا لن نقول هذا اليوم ، ولا ينبغى أن تذكر ذلك لأحد اطلاقا ، ولكن يجب أن تعلم ذلك على الأقل .

« هذه هى الحقائق ، وليست المناقشة على أسس متساوية بين البلاد الاشتراكية »(١) .

وأكتفى بهذه المقتطفات لأترك القارىء يعيش مع أحداث الكتاب كاملة ، كى تتضح أمامه طبيعة نظام الحكم الشيوعى ، حتى لا ينخدع اذا ما سمع أبواق الدعاية الشيوعية تبنى له قصورا خيالية ، لا صلة لها بالواقع المر .

ويجب على كل مسلم — بل على كل من يستطيع قراءة العربية ، أيا كانت جنسيته ودينه — أن يقرأ هذا الكتاب ، حتى لا يقع فريسة للأخطبوط الشيوعى ، فيسلبه حريته ، وانسانيته .

كما يجب على المعاهد التى تخرج الدعاة أن تعيد النظر فى مناهجها ، فتقرر على طلبتها دراسة التيارات الفكرية الحديثة ، وفى مقدمتها الشيوعية — بما فى ذلك ما يجرى داخل البلاد التى تسيطر عليها —

---

(١) المؤلف ص ٥٩٨ .

والا فستخرج دعاة غير قادرين على القيام بمهمة الداعية فى هذا العصر الذى يتعرض فيه الاسلام لحملات متوالية من زنادقة العصر الحديث .

وهذا الكتاب هو من أحسن الكتب التى تزود الداعية بمعلومات ، هو فى أشد الحاجة اليها ، لمواجهة هذا التيار الالحادى ، اذ هو يمده بحقائق تكون له :

— سلاحا عندما يواجه دعاة الشيوعية .

— ومصباحا يزيل به الغشاوة عن أعين الذين خدعوا بالدعاية الشيوعية البراقة ، كى يروا واقع المجتمع الشيوعى المر ، فيدركوا مدى افتراءات أبواق الدعاية الشيوعية فى العالم العربى والاسلامى .

ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ...

كانو فى : ١٣ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ
١٤ مارس ١٩٧٦ م

محمد عبد الغنى شامة

مقدمة الكتاب

كان مقررا فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٩ أن ألقى محاضرة فى المعهد العالى للدراسات الاشتراكية ، التابع للحزب الاشتراكى الألمانى ، وفى قاعة المحاضرات جلس المشتركون فى الدورة وأمامهم قراطيسهم ينتظرون المحاضر يتجهون بأبصارهم كلما بدت حركة تدل على قدومه ، طال انتظارهم الى أن بدا لهم أن لا فائدة .

أين الزميل ليونارد ؟

بحثوا عنى فى مسكنى الملحق بالمعهد ، ولما لم يجدونى اضطروا الى اعلان الغاء المحاضرة ، فساور الشك بعضهم ، وتهامسوا :

هل ولى « وولف جانج » ؟

ثم كلفت سكرتيرة المعهد بالبحث عنى فى مسكنى فى برلين ، فلم تهتد هى الأخرى الى أى أثر يدل على . وسرعان ما أصبح الشك يقينا ، فتحدثوا بنبرة الواثق المتأكد :

« هرب وولف جانج ليونهارد » .

انتشر نبأ هروبى انتشار النار فى الهشيم ، فساد الارتباك جو المعهد ، وأصيب أعضاء الحزب بالدوار ، فقد كان الهاربون — حتى ذلك الحين — عددا قليلا من قادة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ومعظمهم كان عضوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى(١) ، ولكن المسألة الآن تتعلق بهروب مسئول فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، تربى فى موسكو ، فشرب لبن الشيوعية وتربى فى أحضانها ، أضف الى ذلك أمرا آخر ، ذلك أن الهاربين السابقين ، كانت وجهتهم برلين الغربية ، وتحدثت عنهم صحافتها باسهاب ، أما هروبى فلم تذكر صحافة برلين الغربية عنه شيئا ، فهى كبرلين الشرقية ، كلاهما لا يعرف أين ذهبت ، وفى أى مكان أنزلت رحالى .

أين ذهب « ليونارد » ؟

هل حط رحاله فى يوغوسلافيا ؟

---

(١) أرغمت السلطات العسكرية الروسية أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى على الاندماج مع الحزب الشيوعى الألمانى فى حزب واحد يسمى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى S. E. D. وكان ذلك فى ٢١ /٤/١٩٤٦ م ولا زال الحزب الوحيد الذى يحكم ألمانيا الديمقراطية حتى اليوم . (م . ش)

ترددت مثل هذه الأسئلة على الألسنة ، همسا ، ومن وراء حجاب ، ومر أسبوع وراء آخر ، ولم يسمع أحد شيئا عن أخبار « ليونارد » فزادت التكهنات ، وانتشرت الشائعات •

وكنت أثناء ذلك كله فى بلجراد أكتب بيانا اذاعيا ، ومذكرة عن الأسباب السياسية التى دفعتنى الى الهروب من المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الحكم السوفيتى (ألمانيا الديمقراطية) •

تركت برلين الشرقية فى ١٢ مارس ، ووصلت الى بلجراد فى ٢٥ منه ، بعد رحلة هروب ، حفت بالمخاطر ، واكتنفها العديد من المواقف المثيرة ، واللحظات الحرجة ، وبعد وصولى بأربعة أسابيع سجلت فى أحد استوديوهات الاذاعة اليوغوسلافية حديثا ، وضحت فيه معارضتى لأسلوب مكتب استعلامات الحزب الشيوعى ، فى التضليل الاعلامى ، وتعاطفت مع الشيوعيين اليوغسلافيين ، الذين أعلنوا فى صيف عام ١٩٤٨م ، انفصالهم عن موسكو ، رغبة فى تطبيق نظام يتفق وطبيعة مجتمعهم ، أى أنهم آثروا الاستقلال عن موسكو فى تطبيق الاشتراكية فى بلادهم •

لم يستطع زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى — بعد أن أذيع حديثى مساء ٢٢ أبريل فى الاذاعة اليوغوسلافية باثنتى عشرة لغة ، ونشر فى اليوم التالى فى جميع صحف يوغسلافيا — أن يفرضوا السرية على نبأ هروبى ، اذ بعد أربعة أيام — أى فى ٢٦ أبريل ١٩٤٩ — نشرت الجريدة الرسمية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى قرار اللجنة المركزية بطردى من الحزب •

ثم بدأت أعمال هيستيرية ، تسببت فى اصابة جو المعهد العالى للدراسات الاشتراكية بحمى لم تهدأ نارها وتسكن ، الا بعد أن أصابت جميع أفراده ، اذ تعاقبت الاجتماعات ، ما انفض واحد الا ليجتمع الآخر ، بحثا عن شركاء « ليونهارد » الهارب فى التفكير ، أو الشعور ممن لا يدينون بالولاء الكامل للماركسية ، فتعرض الدارسون لسلسلة من الاجراءات ، من استدعاءات للمثول أمام المحققين ، وأسئلة ، وتحقيقات على انفراد محاولين الكشف عمن له ميول لمذهب « ليونهارد » الذى لم يعلن عنه الا عند هروبه ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، اذ صدر الأمر — بعد مدة قصيرة — باتخاذ اجراءات أكثر صرامة ، ألا وهى تسريح جميع الذين درسوا على « ليونهارد » فى المعهد ،

وتوزيعهم على كليات أخرى ، ورفض كل المقترحات التى قدمتها ـ بصفتى مدرسا فى المعهد ـ للنهوض بالدراسة ، ورفع مستوى الدارسين ، مع تقرير ما يناقضها على طول الخط ، بصرف النظر عن مراعاة المصلحة العامة ، فعلى سبيل المثال :

كنت قد أوصيت أن يعين خريجو المعهد فى المعاهد العلمية ، رفضت هذه التوصية وأرسل الخريجون الى الأقاليم ليخدموا فى أجهزة الحزب .

ألقى « هاينز ابراهام » ـ وهو مدرس فى المعهد تلقى دراسته فى الاتحاد السوفيتي ، وكان يطلق على نفسه « البلشفى المتعصب » ـ عدة محاضرات فى المعهد تحت عنوان « حول مسألة ليونهارد » .

تكرر عقد الاجتماعات لسماع النقد الذاتى من كل انسان كانت له بى صلة قريبة ـ أيا كانت نوع هذه الصلة ـ وتطرق الحديث أثناءها الى ذكر أحاديث السمر التى كانت تدور بيننا فى أمسياتنا ، سواء كان ذلك « نكاتا » أم حل ألغاز ، أو غير ذلك مما يدور عادة بين المتسامرين ، فقدذكروا ـ على سبيل المثال ـ أننى استعملت كلمة « كومينفورم » تلك الكلمة التى لا يتلفظ بها ـ فيما يزعمون ـ الا المحرض على العصيان ، لأن الاسم الرسمى هو « مكتب استعلامات حزب العمال الشيوعى »[1] فتسميتى له بـ « كومينفورم » كان ـ على حد قولهم ـ استهزاء به ، واستخفافا بالمؤسسات الشيوعية ، كانت مثل هذه الأشياء موضع نقاش فى اجتماعات استمرت ساعات ، لأنهم اتخذوها « دليلا على الموقف العدائى للحزب » وأكد خطباؤهم مرارا ، وتكرارا ـ لدرجة الملل ـ أن عدم التيقظ فى جهاز الحزب ، حال دون اماطة اللثام عن « ليونهارد » وبيانه على حقيقته فى الوقت المناسب .

حدث هذا كله ، لأنى كنت قد أعطيت منشورات الحزب الشيوعى اليوغوسلافى لبعض مدرسى ، وطلبة المعهد العالى ، ليطلعوا عليها ،

---

(١) أنشأته الأحزاب الشيوعية الأوروبية فى عام ١٩٤٧ م فى بلجراد ـ تحت زعامة الحزب الشيوعى السوفييتى ـ لتبادل المعلومات ، ولمساندة بعضها البعض ضد الرأسمالية الغربية ، انتقل مقره الى بوخارست فى عام ١٩٤٨ م ، بعدما وقع الخلاف بين يوغوسلافيا وروسيا ، ثم حل فى ابريل سنة ١٩٥٦م . (م . شامة) .

وكان خوف زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى من هذه المنشورات بالغا ، لأنهم كانوا مرغمين على السير فى فلك الاتحاد السوفيتى ، لدرجة أنهم كانوا يخشون غضب الروس اذا بدا أنهم قصروا فى احكام الحصار ، ضد الآراء التى تخرج عن هذا الخط .

كان غضب زعماء الاتحاد الاشتراكى له أسبابه ، فلأول مرة يهرب أحد قادة الحزب الذى قضى عشر سنوات فى الاتحاد السوفيتى ، نشأ فى جو شيوعى ، وتربى فى مدارس ماركسية ، وتدرج فى الخلايا الشيوعية حتى وصل الى مركز القيادة .

سوف أتحدث فى هذا الكتاب عن :

— تجاربى أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفيتى — من ١٩٣٥ الى ١٩٤٥ — ونشاطى مدة أربع سنوات — من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩م — كادارى فى الجهاز المركزى لزعماء الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

— المدارس السوفييتية ، وجامعاتها ، والطلبة ، وأعضاء منظمة « الكمسمول »[1] .

— موسكو وقت اندلاع الحرب ، والحياة زمن الحرب فى مدينة « كاراجندا » .

— تثقيف القادة الأجانب فى « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » .

— اللجنة القومية المسماة « ألمانيا الحرة » .

— « مجموعة أولبريخت » التى وصلت الى ألمانيا فى مايو سنة ١٩٤٥م .

— الخطوات الأولى للسياسة السوفييتية فى ألمانيا بعد الحرب .

— تكوين نظام دولة القطاع السوفييتى فى ألمانيا .

— الحزب الوحيد الذى يتولى السلطة فى القطاع السوفييتى ، ويحدد مصير ١٨ مليون نسمة فيه .

لم يكن الغرض من تناول هذه النقاط ، تلبية للبواعث التقليدية المعروفة ، الى شرح جوانب نظام « ستالين » ، وتوضيح السياسة

---

(١) منظمة تعد الشباب — من سن ١٤ الى ٢٦ — اعدادا خاصا يهيئهم للدفاع عن الأيديولوجية الشيوعية . (م . شاه ة) .

السوفييتية ، التى لم يعرف عنهما شىء حتى الآن (١) الا النزر اليسير ، بل كان الدافع الأول نابعا من الرغبة فى أن أبين للانسـان الذى يعيش خارج الاتحاد السوفييتى :

كيف يفكر الجيل الجديد من قادة الحزب الشيوعى ، الذى أعـد أفراده اعدادا خاصا فى المعسكر الشرقى !

وماذا يشعر !

وكيف يحكم على الأشياء ، ويفهم الحوادث الجارية حوله !

والى أين يتجه نقده !

لقد حاولت — وأنا مدرك تماما ما أقدمت عليه — أن أقدم صورة المقابلات ، والمناقشات ، والأحداث ، والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها . وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هـذا كله ، معنى الكفـر بمذهب « ستالين » بالنسبة لانسان تربى على هـذا المذهب ، فهو حكم فى قضية الشـك التى اعترتنى سنين طويلة ، وسببت لى من الآلام ، والمضـايقات ما ناء به كاهلى . لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد ، والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أغلق باب التراجع ، وعجزت المبررات ، عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحـرك تجاه الحد الفاصل — وان كان فى أثنـاء ذلك يعانى من صراع داخلى حاد — الذى يصـل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه مذهب « ستالين » .

* * *

(١) أى حتى عام ١٩٥٤ م .

الباب الأول

في المدرسة السوفييتية

كان يوم ١٨ يونية ١٩٣٥م هو اليوم الأخير لنا فى السويد ، خرجنا فى مسائه نتجول فى شوارع « ستوكهولم » بصحبة بعض أصدقاء والدتى ، وهم ألمانيون طردوا من ألمانيا كما طردنا • صحبونا الى الباخرة التى سوف تقلنا الى الميناء الفنلندى « توركو » •

حانت لحظة وداعهم ايانا ، فتمنوا لنا رحلة موفقة الى موسكو • لم أتذكر شيئا مما رأيته فى رحلتنا عبر فنلندا ، لأنى كنت متشوقا الى رؤية موسكو ، نهاية هذه الرحلة ، وقد غطى هذا على أحداث السفر ، فلم أحفل بها ، اللهم الا شذرات قليلة •

ففى اليوم التالى جلسنا فى القطار الذى كان يغادره المسافرون كلما اقتربنا من الحدود الفنلندية ـ السوفييتية ، حتى لم يبق فى العربة الا أنا وأمى • اتجه كمسارى القطار نحونا قائلا : « بعد ربع ساعة سيصل القطار الى الحدود » وذكر اسما لم أستطع نطقه ، لاشتماله على كثير من حروف العلة • مثل ا ، ت ، واى ، كان اسم محطة الحدود الفنلندية آنذاك ، واليوم ، بعد أن فقدت فنلندا بعض مناطقها على الحدود ، فمن المحتمل أن يحمل هذا المكان اسما سوفييتيا •

* * *

الرحلة الى موسكو

وقفنا على المحطة الصغيرة ـ التى بدت كالمهجورة ـ حيارى ، لا ندرى الى أين نتجه ! ثم تقدم الينا موظف فى المحطة ، فشرح لنا كيفية مواصلة الرحلة الى موسكو : توجد مواصلة صغيرة بين آخر محطة فى فنلندا ، وأول محطة فى روسيا • بعد ربع ساعة تقريبا سيصل القطار الذى يقلكم الى الحدود السوفييتية • ومن هناك تأخذان القطار المتجه الى ليننجراد •

لم تكن هذه أول رحلة لأمى الى موسكو ، فقد زارت الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٢٥م • اذ كانت أثناء الحرب العالمية الأولى عضوا

فى « جمعية سبارتاكوس »(١) ، ثم انضمت فى عام ١٩١٨م الى الحـزب الشيوعى • عملت مدة طويلة وكيلة صحفية للمكتب التجارى السوفييتى فى برلين ، ولكنها خرجت فى عام ١٩٢٥ من الحزب الشيوعى الألمـانى ، فاعتبرت منذ ذلك الحين من اليساريين الذين لا وطن لهم • اشتغلت — بعد أن تولى « هتلر » السلطة — فى برلين بطريق غير قانونى حتى ربيع عام ١٩٣٥ حيث ذهبت الى السويد •

أما أنا ، فقد كنت آنذاك غلاما يبلغ الثالثة عشرة من عمـره ، استولت عليه أحاسيس غامضة ، أضفت عليه سرورا بالغـا ، لأنه سيسافر الى الاتحـاد السوفييتى • نشـأت فى برلين وكنت تلميـذا فى مدرسة « كارل ماركس » وفى نهاية عام ١٩٣١م التحقت بمنظمـة الشباب فى الحزب الشيوعى الألمـانى ، ثم أرسلتنى أمى فى خريف عام ١٩٣٣ م الى السـويد حيث أقمت فى أحـد بيوت الطلبة ، الأمر الذى ساعدنى على تعلم اللغة السويدية بسرعة ، اذ استطعت فى هـذه المدة اتقانها والتحدث بها بطلاقة •

وعندما جاءت أمى الى السويد ، والتقت بى ، كان علينـا أن نتخـذ قرارا يحـدد البلد التى ينبغى أن نعيش فيها ، فقد تفرقت المجموعة السرية التى كانت أمى أحد أعضـائها ، وألقى القبض عليهم ، ولا زالت المخابرات العامة الألمـانية تبحث عن أمى ، ولهذا لا تستطيع أن تعـود الى ألمـانيا ، أما اقامتها فى السـويد فلأجل محدد ، لأن تصريح الاقامة محدود بزمن معين •

نزلنا ذات يوم بعد العصر نتجـول فى أحد ضواحى ستوكهولم الجميلة فدار بينى وبين أمى حديث فهمت منه ما يدور فى رأسها ، اذ وجهت الى الحديث قائلة :

أنت الآن غلام يافع ، — هكذا كانت بداية الحديث — ولذا فأنا أريد أن أتحدث معك عن مستقبل حياتنا •

---

(١) اتحاد يسارى تكون عام ١٩١٧ م تحت زعامة « كارل ليبكنيشت » و « روزا لوكسمبرج » • وهو يمثل الاتجاه البلشفى منذ ثورة أكتوبر فى روسيا • وفى مؤتمر الحزب الذى عقد فى عامى ١٨ — ١٩١٩ م غير الاسم ، وأصبح الحزب الشيوعى • ويرجع اسم « سبارتاكوس » الى الخطابات التى كان ينشرها « كارل ليبكنيشت » تحت اسم خطابات « سبارتاكوس » •

أومأت رأسى مظهرا ملامح جادة ، كما يفعــل كل الشبان الذين بلغوا الثالثة عشرة حين يعاملون كما لو كانوا فعلا فى سن الرشد •

واصلت حديثها :

لا أريد أن أتخذ قرارا دون موافقتك ، فالموقف يبدو كما يلى :

لا نستطيع الاقامة فى السويد ، لأنى لن أتمكن من الحصــول على عمل هنا • وقد راسلت كثيرا من المعارف والأصدقاء ، وفكرت فيما كتبوه لى فوجدت أننا أمام أمرين :

اما أن نسافر الى انجلترا ، وعلى وجه التحديد الى مانشيستر حيث يعيش أصدقاء أعزاء • ويمكنك فى هذه الحالة أن تلتحق بمدرســة انجليزية ، وتبقى فى انجلترا طالمــا النازيون متسلطين على الحكم فى ألمــانيا •

فسألتها متعجلا : والأمر الآخر ؟

صمتت لحظة ، ثم قالت : نسافر الى الاتحاد السوفييتى •

فقلت مصمما ومؤكدا : أنا أفضل الاتحاد السوفييتى •

لا أدرى ! أكان موقفى هــذا سببا فى تحــويل وجهتنا شــطر الاتحاد السوفييتى ، أم دخلت اعتبارات أخرى ، وعلى كل فقد قررنا الرحيل •

لم ندرك ــ آنذاك ــ المصائب التى سوف تحــل بنا بســبب اتخاذنا هذا القرار ، اذ لم يكن فى مقدرو أمى أن تتنبأ بأنها سيقبض عليها بعد سنة ونصف من تاريخ اختيارها الاقامة فى الاتحاد السوفييتى، ولم تتخيل اطلاقا أن الذى سيلقى القبض عليها هو جهــاز مخابرات وزارة الداخلية السوفييتية المختص بتعقب أعداء الحزب • ألقى القبض عليها ، فاختفت فى معسكرات العمــل السوفييتية اثنتا عشرة سنة ، حيث عادت الى برلين فى عام ١٩٤٨م •

كذلك لم أتصور ــ آنذاك ــ أننى ســوف أقضى فى الاتحــاد السوفييتى عشر سنوات بين مدارسها ، وأنظمة الحزب فيها ، وأننى سأكون ضمن طلبة احدى المدارس السياسية العليا فى روسيا التى تخرج القادة الشيوعيين •• ثم أكفر بهذا النظــام الذى اتخذته عقيــدة لى منذ طفولتى •

كان هذا كله فى علم الغيب ، فى المستقبل البعيد ، فحديثنا نحن الآن لازال فى أحد أيام يونيو عام ١٩٣٥م حيث كنا ننتظــر القطار على

محطة الحدود الفنلندية — الذى سيقلنا الى داخل الاتحـــاد السوفييتى •
دخل قطار صغير على رصيف المحطة فى الموعد المحـــدد • فرأيت صورة
المنجل والمطــرقة مرسومة على قاطرته وعرباته ، ولم أكن قد رأيتها من
قبل الا على الأعلام التى يحملها المتظاهرون ، لذا اعترانى اضطراب ،
بينما كان السائق يطـــل من النافذة ويحيينا مبتســـما • ثم تقدم الينا
موظف المحطة الفنلندى قائلا :

هذا هو قطاركم الذى سيوصلكم الى محطة الحدود السوفييتية
« بلوستروف » •

وصلنا الى الحدود بعد بضع دقائق ، على الرغم من أن سرعة
القطـــار لم تزد على سرعة عربة تجرها الخيل ، فرأينا من النافذة حاجزا
ضخما من الجرانيت ، يقف على أحد جانبيه جندى فنلندى ، وعلى
الجانب الآخـــر أحد جنود الجيش الأحمـــر — وهو أول جندى سوفييتى
تقع عليه عينى — يلمع النجم السوفييتى على قلنسوته ، ملتفتا النظر
الى رسم المنجل والمطرقة •

اتجه الينا مجموعة من الرجال — بعضهم عسكريون ، والبعض
الآخـــر يرتدى الملابس المدنية — المكلفين بمراقبة الحدود السوفييتية ،
فاقتادونا الى مبنى المحطـــة حيث فتحوا حقائبنا ، وفتشوها تفتيشـــا
دقيقا ، لم يهتموا بالملابس والأطعمة ، بل ركزوا عملهم على الكتب ،
فحصوها بعناية رغم أنها كانت كتبا شيوعية ، بل تصفحوا بعضها صفحة
صفحة •

وأخيرا انتهت عملية التفتيش ، وبعد أن ركبنا قطار « لينينجراد »
أطلقت الصفارة مؤذنة بالتحرك • كان القطار مزدحما بالركاب ، غير أنهم
أفســـحوا لنا مكانا ، فقد كنا الأجنبيين الوحيدين بينهم ، ولهذا كانوا
ينظرون الينا مستغربين ، ودارت أحاديثهم — هكذا لاحظت — علينا ،
ولكنى لم أفهم كلمة واحدة ، ولم يتبادل أحد منهم كلمة واحدة معنا •

توقفنا فى « لينينجراد » بضع ساعات ، فكانت فرصة لالقـــاء
نظرة على أول مدينة سوفييتية •

تعلو الكآبة كل مظاهر الحياة ، ويخيم البؤس الشديد على هذا
المجتمع ، اذ تبدو واجهات المنازل قاتمة ، ليس لها رونق وأبهة منازل
« استوكهولم » ولا يرتدى الناس هنا ملابس جديدة ، فلا وجـــه
للمقارنة بينها وبين الناس فى « استوكهولم » •• رأيت أطفـــالا

كثيرة يسيرون حفاة ، وهو منظر لم أره من قبل ، لهذا كان وقعه فى نفسى غريبا ، اذ اعترانى انقباض ، لكن سرعان ما نسيت هذا كله ، لأن ما مر أمام عينى لم ينسجم اطلاقا مع الصورة التى أرغبها •

واصلنا السفر بقطار الليـل الى موسكو ، ولمـا كنت مجهدا بسبب ما مر بى من صور وأحداث خلال النهار ، فقد استسلمت لنوم عميق فى القطار ، ولم أستيقظ الا فى موسكو •

تلك المدينة التى كتب على أن أقضى فيها أعواما كثيرة ، وأن تكون وطنى الثانى •

❋ ❋ ❋

مدرسة « ليبكنيشت » فى موسكو

لم يكن وصولنا الى موسكو عن طريق مكتب سياحى ، ولم نأت اليها ضمن وفد رسمى ، ولهذا لم تقم لنا الاحتفالات ، ولم نستقبل استقبالا رسميا ، ولم يحجز لنا فى حجرة فى فندق ، لكن كان فى انتظارنا بعض أفراد ، ربطتهم بأمى صلة صداقة قديمة •

اتجهنا من المحطة — مخترقين موسكو — الى المنزل رقم ٥ بشارع « جرانوفسكى » حيث نزلنا فى شقة أحدمعارفناوتسميتهاشقةفيهبعض المبالغة ، فقد كانت عبارة عن حجرة واحـــدة فقط • دار الحديث فى هذه الشقة حول الخطط التى تتعلق بحياتنا فى موسكو • وكان أول ما فكرت فيه أمى مسألة التحاقى بمدرسة ، اذ قالت :

« يجب أن يلتحق الغلام بمدرسة ، كيف وهو لا يعرف الروسية ؟ »

فأجاب الحاضرون :

ليس ذلك أمرا ضروريا • فعدم معرفته الروسية ليست مشكلة ، اذ يوجد فى موسكو مدرستان أجنبيتان ، احداهما انجليزية ، والأخـــرى ألمـــانية •

على فكرة ! ابنك محظوظ ، لأن المدرسة الألمـــانية ستنتقل فى أول سبتمبر القادم الى المبنى الجديد الجميل رقم ١٢ فى شارع « كربوتكن » •

سألت مندهشا :

هل يوجد ألمـــانيون فى موسكو ؟ • تبسم الحاضرون وقالوا :

طبعا ! يعيش فى موسكو بضعة آلاف من الألمـــانيين والنمساويين المنفيين ، كان كثير منهم أعضـــاء فى رابطة الدفاع الذين اشـــتركوا فى

الثورة ضد « دلفوس »(١) فى فبراير ١٩٣٤ ، وبعد فشلها لجأوا الى موسكو .

كذلك يوجد هنا نادى ألمانى ، وجريدة يومية تصدر باللغة الألمانية تحت اسم « الجريدة المركزية الألمانية » ودار نشر للعمال الأجانب فى الاتحاد السوفييتى وهى تنشر كتبا باللغة الألمانية .

هكذا بدأت حياتنا فى موسكو ، كان البحث عن سكن هو أول ما يجب عمله ، فقد أقمنا فى الأيام الأولى عند أصدقائنا ، يوما هنا ، وآخر هناك حتى وجدنا حجرة مفروشة ، ثم بحثت أمى عن عمل ، أما أنا فلم يكن لدى ما يجب عمله ، لأن المدارس لم تفتح بعد أبوابها ، اذ لا زلنا فى فترة الاجازة الصيفية .

كان أول سؤال وجه الى فى اليوم التالى لوصولنا الى موسكو :

ألا تريد أن ترى مترو الأنفاق ؟ لأنه كان حديث المجتمع الذى لا ينتهى ، وكان الكلام عنه وسيلة للفخر والاعتزاز بالنفس ، فغطت أخبار افتتاحه — بدأ العمل به كوسيلة للمواصلات فى ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ م — على كل ما عداه من أحداث ، وطبعت صيغة الكلام بين الناس على نحو يكاد يكون واحدا فى جميع المستويات الثقافية .

هل ركبت مترو الأنفاق ؟ يليه مباشرة :

هل أعجبك ؟ كيف كان شعورك ؟ ثم ينساب حديث طويل عن مدى أهميته فى حركة المواصلات ، وعن مزاياه العديدة . مرة واحدة قابلت فيها أحد الذين لم يتحمسوا لمترو الأنفاق هذا ، بل على العكس ، أبدى ملاحظة تنم عن معارضته للنظام الحاكم ، وذلك حيث قال :

« لو أن موسكو تتمتع فوق أرضها بواحد على عشرة من نظافة ما تحت أرضها لكان أحسن وأولى » كانت ملاحظة فى غاية الدقة ، فقد كان الاختلاف بين شوارع موسكو وأنفاقها واضحا جدا .

لم يكن من السهل أن يهتدى المرء الى أى عنوان فى موسكو ، فليس هناك خريطة للمدينة تبين مواقع شوارعها ، وما تقدمه لنا الخريطة التى كانت مع أمى ضئيل الفائدة ، لأنها طبعت فى عام ١٩٢٤ ، فلا يتطابق ما فيها مع واقع المدينة ، اذ غير هدم المنازل القديمة ، واقامة

---

(١) « انجيلبيرت دولفوس » (١٨٩٢ — ١٩٣٤) تولى رئاسة الوزراء فى النمسا فى مايو سنة ١٩٣٢ وظل فيه الى أن اغتاله الاشتراكيون .

العمارات الحديثة ملامحها ، واختفى كثير من أسماء الشوارع القديمة ٠ وكان من السابق للأوان أن يجد المرء فى جميع المكتبات آلاف الخرائط التى تبين ما ستكون عليه المدينة فى عام ١٩٤٥م ٠ فنحن الآن فى عام ١٩٣٥م ، ونحتاج الى ما يقدم لنا المساعدة فى موسكو على حالتها الراهنة ٠ لذا تساءلت أمى باستغراب :

أليس هذا اغراقا فى الخيال ؟ ان من المعقول أن يقدم لى ما أحتاجه الآن لا ما سوف أطلبه بعد عشر سنوات !!

فكانوا يجيبون بكل بساطة !! سيبدأ العمل بمشروع السنوات العشر فى أوائل يوليو ، ويستلزم هذا تجنيد كل وسائل الاعلام للدعاية له ، ولهذا طبعت المنشورات التى توضح الصورة التى ستؤول اليها موسكو فى عام ١٩٤٥م ، أما حالتها اليوم فيعلمها الجميع !!

اذن لا مفر من أخذ الخريطتين معنا ، عندما نتجول فى الشوارع رغم أن كلتيهما لا يتصل بواقع المدينة ، فاحداهما تقدم صورة الماضى والأخرى ترسم الأمل الذى لازال خطوطا متخيلة ٠

جسمت لنا تجربتنا مع خرائط المدينة نموذجا حيا لحقيقة الظروف التى يمر بها الاتحاد السوفييتى ، فقد كان عام ١٩٣٥م من أعوام فترة الانتقال التى خلفت وراءها ثورة وحربا أهلية ، وفترة الخطة الخمسية الأولى ، أما أعوام التطهير والاعتقال بالجملة ، والأحداث التى أدت الى عقد معاهدة بين « ستالين » و « هتلر » والحروب التى وقعت بين روسيا وفنلندا فلا زالت فى علم الغيب ٠ ألغيت بطاقات التموين فى مستهل عام ١٩٣٥م ، وأعلن فى مؤتمر سوفييتى — اجتمع اجتماعا فوق العادة — أن لجانا خاصة تعكف الآن على وضع دستور يضمن الحرية للشعب ، ويؤكد أن الديمقراطية هى اطار العمل السياسى ٠

اجتزنا المراحل الصعبة — كان هذا طابع معظم أحاديث المسئولين وأعضاء الحزب آنذاك — وأحوالنا آخذة فى التحسن لا محالة ٠ كذلك سيصبح النظام السياسى أكثر ديمقراطية ، اذ يرى المرء هذا واضحا فى مسودة الدستور ٠

كان الكل متفائلا الا نفر قليل أبدوا شكوكهم فى حقيقة هذه الوعود ٠ وسرعان ما أثبتت الأحداث أنهم كانوا على حق فى موقفهم هذا ٠ ففى الأسابيع الأولى سمعت أكثر من مرة اسم « كيروف » فمن هو كيروف ؟ كان عضوا فى المكتب السياسى ، واغتيل فى لينينجراد

فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤م ، فقامت السلطات بالقاء القبض على الناس بالجملة دون تمييز ، اذ لم يقتصر ضحاياها على أعضاء أحزاب وتجمعات أخرى معادية للحزب الشيوعى ، أو على أولئك الذين لم ينضموا الى هيئات سياسية البتة ، بل تجاوزت اجراءاتهم هذا الأسلوب الذى كان معروفا عندهم من قبل ، فشمل قادة بلشفيين .

اذا تناول الناس حديث « كيروف » خفتت الأصوات ، وارتعدت مخارج الحروف ، وبدت على الوجوه معالم الكفر بكل اتجاه . وقد عبر عن هذا أحد أصدقائنا بقوله :

« لقد هزتنى حالة « كيروف » من الأعماق ، لأن البلشفى القديم كان بالنسبة لنا حتى قبل أسابيع قليلة اسم شرف ، وكان الانتماء الى مجموعة البلشفيين ينظر اليه من عل ، اذ كان وساما رفيعا لا يناله الا من ابتسم له الحظ .. واليوم ! حلت هذه المجموعة فى ٢٦ مايو ، دون ابداء سبب سياسى وصودر مقرهم » .

دارت معظم الأحاديث فى الأسابيع الاولى لوصولنا حول هذا الموضوع فانتشرت هذه الدعابة :

ألم تسمع آخر خبر ؟ لقد حلت المنظمة الثورية المساعدة !

أى منظمة تقصد ؟

الهيئة البلشفية القديمة .

كانت دعابة ، ولكن لها مغزى سياسى مر .

سمعت هذه الأحاديث عندما كنت غلاما يهتم بالسياسة رغم صغر سنه .

وكانت الآراء مختلفة ، فهناك المتفائل ، والمتشائم ، المؤيد ، والمعارض ، المدافع ، والناقد ، اذ كان المرء يستطيع آنذاك أن يتكلم بحرية فى بعض الموضوعات ، لأن حملة التطهير — التى امتدت من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨م — لم تكن قد بدأت بعد .

التحقت فى ١ سبتمبر ١٩٣٥م بالمدرسة الألمانية « مدرسة كارل ليبكنيشت » فى موسكو . وكان مقرها مبنى جميلا أقيم على أحدث طراز ، وهو مكون من أربعة طوابق ، وحجراته واسعة تدخلها الشمس . هو واحد من اثنين وسبعين مبنى جديدا ، شيدت فى عام ١٩٣٥ م فى موسكو . يبدو من الخارج كأى مبنى مدرسى حديث فى غرب أوربا ،

ولكن عندما دخلته تطلعت مندهشا الى أحد الأركان حيث أقيم تمثال ضخم لستالين كتب على قاعدته :

لا يوجد حصن ، يصعب على البلشفيين اقتحامه • « ستالين »

وفى المدخل الرئيسى للمدرسة رأيت شعارا جديدا ، كتبت كلماته باللون الأبيض على قماش أحمر :

تعلموا ، تعلموا ، ومرة أخرى تعلموا • « لينين »

دخلت عند الناظر — وكان يدعى الزميل « شيلاسكو » لانهاء الاجراءات ، ولم يكن الالتحاق بالمدرسة سهلا ، لأن نظام التعليم فى الاتحاد السوفييتى يختلف اختلافا كبيرا عن أنظمة التعليم فى البلاد الأخرى • فالتعليم الالزامى هناك لا يبدأ الا عند بلوغ الطفل سن الثامنة ، ويستمر سبع سنوات ، تليها ثلاث سنوات لمن يريد الالتحاق بالجامعة أو المعاهد العليا •

قال الناظر موجها خطابه لى :

« طبقا لنظام التعليم السوفييتى ستتقبل فى السنة السادسة » •

صعدت سلم المدرسة متخاذلا • وقدمنى المدرس للتلاميذ باسم : « التلميذ الجديد » ، فرمقونى بنظرات فضولية وتهامسوا مع بعضهم • جلست على مقعدى وأنا مرتبك بادى الخجل • وعندما تأملت زملائى فى الفصل رأيتهم جميعا يلبسون مناديل الجوالة الحمراء ، وعندما أجلت النظر مرة أخرى رأيت فتاة تجلس فى الصف الأمامى على اليمين ، وهى الوحيدة فى الفصل التى لا ترتدى هذا المنديل •

كان التدريس باللغة الألمانية الا أن المناهج سوفييتية ، ومعظم المدرسين كانوا من اللاجئين السياسيين مثلنا ، جاءوا من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا مارين بالسويد •

كانت مادة التدريس وخططه متطابقة تماما مع ما يطبق فى المدارس الروسية ، فكل الكتب المقررة — حتى كتب الرياضة والكيمياء — مترجمة من اللغة الروسية • كان الاختلاف كبيرا بين هذه المدارس وبين مثيلاتها فى الغرب وان بدا فى بادىء الأمر مماثلة ظاهرية بينهما ، فالواجبات فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » أكثر مما كان يطلب منى فى أى مدرسة زرتها ، اذ يجب على التلميذ أن يعمل واجبات منزلية كثيرة ومتعددة مما يضطره الى بذل مجهود كبير والا تخلف عن متابعة الدراسة •

نأخذ كل يوم تقريبا ساعة لغة روسية بالاضافة الى اللغة الانجليزية كلغة أجنبية ثانية ، وتحظى المواد الرياضية ، والعلوم الطبيعية باهتمام كبير ، اذ يبدأ فى السنة السادسة تعليم الجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، وبدلا من الرسم يتعلم التلميذ ما يعرف باسم : رسم الهندسة الميكانيكية. وفى مادة التاريخ أخذنا التاريخ القديم كله ، وفى الجغرافيا درسنا جغرافية البلاد الرأسمالية (يدخل تحت هذا جميع البلاد عدا الاتحاد السوفييتى) ، وتتناول هذه المادة البناء الاقتصادى ، والعلاقات السياسية لكل دولة على حدة . وفى الأدب درسنا الأدب الروسى والأدب الألمانى . خصصت ساعة واحدة لمادة المجتمع . درسنا فيها التطور السياسى ، والهيكل الحكومى للدولة فى الاتحاد السوفييتى . استبدلت هذه المادة فى السنوات اللاحقة بمادة « علم الدستور » .

كانت رقابة تحصيل التلاميذ فى هذه المدرسة — اذا قيست بالمدارس الحديثة التى زرتها من قبل — شديدة ، فكل اجابة تسجل مرتين : احداهما فى سجل الفصل الذى يحتفظ به المدرس ، والأخرى فيما يسمى السجل اليومى ، ويظل مع التلميذ . ويجب على أولياء الأمور التوقيع عليه أسبوعيا ، بما يفيد أنهم يتابعون أعمال التلميذ فى المدرسة .

قسم العام الدراسى الى أربعة أقسام ، يعقب كل قسم مراجعة وامتحان ، وفى آخر العام يعقد امتحان تحريرى فى جميع المواد ، وفى معظمها شفوى ، وتحريرى .

* * *

التحاقى بالجوالة السوفييتية

اتبعت كل الأساليب لحملنا على بذل أكبر مجهود لتحصيل العلم ، فالتلميذ الذى كان يحصل على درجة ضعيف ، أو على تعبير « ملاحظة » — وهى كلمة تأنيب لمن يبدو منه التخاذل فى التحصيل — يجب عليه أن يشرح أسباب ذلك أمام جميع تلاميذ السنة الدراسية . اذ يبدأ الاجتماع بكلمة افتتاح يلقيها المدرس ، ثم يوجه — الأستاذ أو زعيم السنة — الى التلميذ السؤال التالى :

ما هى الأسباب التى جعلتك تحصل على درجة ضعيف ؟

وعندما يبدأ التلميذ فى ابداء الحجج التى تحفظ ماء الحياء فى وجهه ، يقاطعه التلاميذ المجدين بنبرة حادة لاذعة :

« انه لعار عليك أن تحصل على تعبير « ملاحظة » ، وليس من الجدارة أن تحاول التخلص من هذا بابداء أى علة مهما كانت » كان هذا أقل صور النقد ، والنقد الذاتى الذى كان منتشرا فى الاتحاد السوفييتى •

بينوا لنا فى كل مناسبة ضرورة انزال العقاب الصارم على من يهمل ، فلا ينبغى أن تطيع الأوامر فحسب ، بل تكافح فى سبيل تعميقها وتحسينها • اذ يوجد نوعان من الطاعة — هكذا قالوا لنا — نوع يعتمد على الخوف والاضطهاد وهو ما يطبق فى البلاد الرأسمالية ، والآخر وهو نظام الاتحاد السوفييتى يقوم على الاختبار والفهم ، وهما من أسس تشييد الاشتراكية(١) •

اهتموا اهتماما بالغا بتعويد التلاميذ على النظام التربوى السوفييتى ، عن طريق اشعال روح المنافسة فى المدرسة ، فالفصل الذى يكون عدد الحاصلين فيه على ضعيف أو تعبير « ملاحظة » أقل ، يحتل مرتبة أعلى من غيره ، وتلعب الجوالة دورا فاصلا فى ميدان الالتزام بعمل ما يطلب من التلاميذ •

جاءتنى تلميذة بعد أسبوعين من بدء الدراسة وقالت لى :

ألا تحب أن تلتحق بالجوالة ؟

فقلت : طبعا ! ولكنه ليس ضروريا بالنسبة لى ، فأنا عضو فى جوالة برلين منذ عام ١٩٣٢ م •

قالت : عضويتك فى برلين لا تنفع هنا ، فيجب أن تنضم الى جوالة الاتحاد السوفييتى •

قلت : حسنا ! أين أقيد اسمى ؟

قالت : مهلا •• مهلا •• لا تؤخذ الأمور هنا بمثل هذه السهولة ، فلا تستطيع أن تقيد اسمك ، فتصبح ببساطة عضوا ، فاذا كنت مستعدا للالتحاق بالجوالة ، أقيد اسمك فى هذه القائمة ، ثم يعلن قبولك فى حفل مجموعة المدرسة ، بعد أن يقرأ زعيم الجوالة أمامك القسم ، وتردده ورائه ، وبعدها تأخذ منديل الجوالة •

أقيم احتفال رسمى بعد هذه المقابلة بمدة قصيرة ، حيث دخلت

---

(١) فى هذا التقسيم مغالطة وقلب للحقائق ، ويبدو من استدراك المؤلف بقوله : « هكذا قالوا لنا » أنه لا يقر هذا التفسير • (م • شامة) •

مجموعة الجوالة كلها فى صالة المدرسة بالخطوة العسكرية المنتظمة ، ثم صف الأعضاء الجدد فى الوسـط ، ووقف حامل العلم فى المقـدمة ، والعازفون على الآلات الموسيقية فى المكان المخصص لهم ، ثم بدأ زعيم الجوالة فى قراءة القسم :

« أتعهد مختارا أمام الزميل ... (وكنا نردد القسم كلمة كلمة) بأن أدافع باخلاص وشجاعة عن الطبقة العمالية ، وأن أحمى مبادىء « لينين » المقدسة ، وأن أكون مثلا يحتذى به فى تنفيذ واجبات الجوالة » .

بعد الانتهاء من المراسيم العامة أقيم احتفال خاص لتقليدنا منديل الجوالة ، وربطه بسوار ، لمحت شعلة مرسومة عليه وعبارة : « كن مستعدا دائما » وهى الصيغة الروسية التى كنت أعرفها من قبل كتحية للجوالة . وتشير هيئة المنديل والسوار الى معانى رمزية ، فأطراف المنديل الأحمر الثلاثة ترمز الى : الحـزب ، ومنظمـة الشباب الشـيوعى ، وشباب الجوالة . والنتوءات الخشبية الخمسـة المرسومة على السوار تشير الى قارات الأرض الخمسة . وثلاث شعلات ترمز الى التنظيمات الشيوعية العـالمية الثلاث[1] ، وقد تنوسى الرمز الأخير فيما بعد فلم يذكره الرسميون فى أحاديثهم .

تعلمنا تاريخ حيـاة « لينين » و « ستالين » وتاريخ الجـوالة السوفييتية ، فعرفنا أن أول مجموعة للجـوالة تكونت فى عام ١٩٢٢م ثم صدرت جريدة لها فى عام ١٩٢٥م وهى جريدة برافدا للجـوالة . وتضم المنظمة ــ أى منظمة الجـوالة ــ الأطفال من ١١ ــ ١٦ سنة ، بلغوا فى ذلك الوقت ــ وهو عام ١٩٣٥م ــ عشرة ملايين عضوا .

وتتلخص واجباتهم ــ هكذا علمونا ــ فى حماية المدرسة ، والمحافظة على النظام ، وحماية المدرس ، وتربية النشء على الشعور بالمسـئولية تجاه الوطن الاشتراكى .

---

(١) يقصد بذلك الاتحادات التى جمعت الأحزاب الشيوعية فى العالم ، فقد كان الأول بزعامة « كارل ماركس » ، وتنفرق فى عام ١٨٧٢ م أثر الخلاف بينه وبين « بوكانين » (١٨١٤ ــ ١٨٧٦) ثم أقيم الثانى فى باريس عام ١٨٨٩ م لكنه تفرق أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتأسس الثالث بزعامة روسيا ، وضم كل الأحزاب الاشتراكية فى العالم وكان مرتبطا ارتباطا كليا بالسلطة فى الاتحاد السوفييتى ، لكن فكرته انهارت فى عام ١٩٤٣ م بسبب تحالف روسيا مع المعسكر الغربى فى الحرب العالمية الثانية . (م . شامة) .

ظهرت انحرافات فى صفوف المنظمة فى المـاضى ، فقد قـام بساريون بدعوة استهدفوا من وراءها اشراف المدرسة على توجيـه الجوالة ، ولم يكن هذا الاتجـاه خطيرا جدا فقط — هكذا بينوا لنا — بل كان أيضا اتجاها معاديا للحزب ، وعدم وضع قيادة المدرسة فى وضعها الصحيح ، ولم يقتصر الانحـراف على اليساريين بل تعداهم الى اليمينيين المتخاذلين الذين رأوا أن منظمة الجوالة يجب أن تكون ضمن ادارات المدرسة ولا يقل هذا الرأى خطرا عن سابقه ، لأن معنـاه تصفية هذا التنظيم • وقهرنا كلا الاتجاهين بقرار أبريل سنة ١٩٣٣م وهو « القضـاء على الانحراف اليمينى واليسارى » •

درسنا مظاهر التقدم ، والظواهر الطبيعية ، والأحـوال التى تبدو لأول وهلة متشابهة ، ولكنها مختلفة كل الاختلاف ، تبعا للبيئة ، سواء كان ذلك فى البلاد الرأسمالية أو فى الاتحاد السوفييتى •

انطبعت أفكارنا بعد مدة قصيرة بالتفسير الاشتراكى ، وجرى منا مجرى الدم فى العروق ، واتحد بحواسنا لدرجة أننا لم نعد نرى غير هذا الاتجاه فمثلا :

— رفع أسعار المـواد الغذائية فى البلاد الرأسمالية دليـل على الاستغلال الفاحش للعمال • وتفسر ظاهرة رفع أسعار المواد الغذائية فى الاتحاد السوفييتى تفسيرا مغايرا تماما ، فهو « مساهمة ضرورية للاقتصاد الوطنى فى بناء الاشتراكية » •

— وجود المنازل الآيلة للسقوط فى الغرب ، « علامة — هكذا فسرنا هذه الظاهرة — على انحطاط مستوى معيشة العمال » • ووجود مثل هذه المنازل فى موسكو « أثر من آثار المـاضى » •

كنا نمدح الوقائع أو نقبحها تبعا للبلد التى ظهرت فيها ، اذ طبعتنا التربية الاشتراكية بطريقة التفكير هذه ، التى رسخت فى ذهنى لدرجة أنه لم يكن يخطر ببالى مطلقا — على مدى أعوام طويلة — أن أفكر بأسلوب آخـر •

* * *

بيت الأطفـال رقم ٦

غير سير الأحداث فى صيف عام ١٩٣٦ م مجرى حياتى ، فقد كنت أسكن مع أمى فى حجرة مفروشة فى المنزل رقم ٦ بشارع « جوركى »

فساكنها الأصلى — وهو مهندس — مكلف بعمل فى مدينة « اجاركا » وهى مدينة صغيرة فى شمال سيبيريا ، يجرى العمل فيها على قدم وساق لتشييدها وتطويرها • وقد انتهى الآن من عمله ، ويجب أن يعود الى موسكو •

استمرت أمى أسابيع عديدة تبحث عن حجرة غيرها ، ولكن لم تجد ، وضاع عليها كثير من الفرص ، اما بسبب أننا ألمانيون ، أو أن أصحاب الشقق لا يريدون أن يسكن مع أمى أيضا غلام يبلغ الرابعة عشرة من عمره • ولهذا حاولت بكل ما تملك من جهد أن تجد لى مأوى •

عادت أمى ذات يوم مسرورة الى البيت وقالت لى :

« عندى لك أخبار سارة ! سوف تدخل بيت الطلبة رقم ٦ ، التابع لرابطة الدفاع النمسوية ، وأعتقد أن جميع سبل الراحة ، سوف تهيأ لك هناك » •

لم تكن أمى مبالغة فى هذا ، فالبيت فى حارة « كلاشنى » رقم ١٢ ، وهو موقع فى وسط المدينة ، بين ميدان « أربات » وبوابة « نيكيتسكى » • وكان ملكا لأحد أغنياء الروس السابقين ، يتميز على ما حوله من أبنية بفخامته وضخامته •

خصص هذا المبنى لأبناء رابطة الدفاع عن الشيوعية فى النمسا ، اذ عندما انتكست ثورتهم فى فبراير سنة ١٩٣٤ م ، لم يكن اللاجئون الى الاتحاد السوفييتى رجالا فقط — وهم مئات — بل كان معهم عديد من الأطفال ، بعضهم فقد والديه فى الثورة •

ففى ١٨ أغسطس ١٩٣٤ — وهو يوم يحتفل به كل عام فى بيت الطلبة — وصل قطار خاص الى حدود الاتحاد السوفييتى ، يحمل هؤلاء الأطفال ، فتوالت الاحتفالات بهم ، ونشرت كل الصحف السوفييتية مقالات ، وتحقيقات مطولة عنهم ، ثم دعاهم معسكر الجوالة المسمى « أرتك » — وهو أحسن معسكر فى الاتحاد السوفييتى ، ويتخذ شبه جزيرة القرم مقرا له لقضاء الصيف فى القرم •

انتهت اقامتهم فى القرم ، فعادوا الى موسكو ، واتخذوا المنزل رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » مقرا دائما لهم • لم ينفرد أطفال الديمقراطيين الاشتراكيين النمسويين ، وأطفال أعضاء رابطة الدفاع النمسوية بهذا المنزل بل شاركهم فيه أيضا أطفال الشيوعيين الألمانيين •

لم يشبه هذا البيت — رغم تسميته المتواضعة « بيت الأطفال رقم ٦ » — بيوت الأطفال المعروفة فى الاتحاد السوفييتى فى أى شىء ،

فقد عومل سكانه ، كما لو كانوا أعضاء وفود أجنبية ، جاءوا لزيارة الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة ، اذ تحاك ملابسهم فى محلات الخياطة الممتازة ، وتقوم طباخة نمساوية بتجهيز الطعام لهم ، وللبيت أتوبيس خاص ، يوصل الأطفال الى المدرسة فى الصباح ، ويعود بهم بعد انتهاء اليوم الدراسى ، ويقوم لهم بسفرات أخرى • ولهم مستوصف خاص تحت رئاسة طبيبة ألمانية ، يراقب الحالة الصحية للأطفال ، فتقاس الحرارة كل صباح • وأينما ذهب أطفال أعضاء رابطة الدفاع ، يقابلون بالترحاب ، والابتهاج • وفى كل العروض الأولى فى الأوبرا والمسارح ترسل لهم أعداد هائلة من التذاكر ، كانت تفيض عن الأشخاص الذين يريدون حضور تلك الحفلات •

كان المدير شيوعيا ألمانيا يدعى « بايس » ، والمشرفون لاجئين سياسيين ، ألمانيين ، ونمسويين ، أو من الروس الذين يتكلمون الألمانية بطلاقة ، اختارتهم اللجنة المركزية لمنظمة الشباب للقيام بهذا العمل •

انقضى عامان على افتتاح هذا المقر ، عندما دخلته فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦ م كان قد أدبر زمن الاحتفالات المتكررة ، والمقابلات الرسمية ، وبدأت فترة سحب الامتيازات ، اذ اختفى الأتوبيس الخاص ، وعلى الأطفال أن يذهبوا الى المدرسة سيرا على الأقدام ، وتوقفت الرعاية الطبية ، فلم تقس الحرارة للأطفال يوميا ، كما كان من قبل ، وتلاشت أنواع الطعام الفاخر ، فصارت وجبات عادية ، وان كان لا يزال أحسن بكثير مما يقدم للأطفال الروس ، غير أنه لا زالت بعض الدعوات تقدم بين الحين والآخر ، ولكنها أقل بكثير من دعوات السنتين الأوليين ، كذلك حل مدير روسى محل الألمانى •

تراوحت أعمار الأطفال فى البيت — آنذاك — بين الثامنة والسادسة عشر ، فأطلق على تلاميذ السنوات الأربع الأولى « الصغار » وعلى تلاميذ الفصل الخامس والسادس « المتوسطون » وعلينا نحد تلاميذ الفصل السابع ، والثامن ، والتاسع « الكبار » •

أيقظت وسائل النشاط المتعددة ميولنا الفطرية ، وطورتها ، اذ كان لأصحاب المواهب الموسيقية دروس خاصة ، وتكونت جمعية تمثيل لهواته ، أشرف عليها الممثل « فايلاند رود » ، وهو زنجى لاجىء فى الاتحاد السوفييتى ، مثل فى فيلم « السيرك » ، كما مثل فى أفلام سوفييتية أخرى • أما نحن أصحاب الميول الأدبية ، فقد كونا جمعية

الأدب ، كان الأدباء الالمانيون الذين اتخذوا الاتحاد السوفييتى مقراً لهم يرعونها ويوجهون أعضاءها .

زارتنا الوفود الأجنبية ، وغالبا ما تفقد حالتنا ممثلون عن قطاعات الحزب الشيوعى الألمانى ، أو النمسوى ، واشترك معنا « كوبلنج » السكرتير الأول للحزب الشيوعى ، أو « فيلهلم بيك »(١) فى احتفالات أول مايو ، و ٧ نوفمبر ، ورأس السنة الميلادية . وكان لنا — بجانب الأعياد الرسمية — أعيادنا الخاصة : ١٢ نوفمبر ، وهو ذكرى ثورة رابطة الدفاع ، و ٨ أغسطس وهو يوم وصول الأطفال الى الاتحاد السوفييتى . وتقدم الجوائز فى هذه الاحتفالات للتلاميذ المتفوقين ، وكانت جوائز تفوق بكثير ما كان يقدم فى بيوت الطلبة السوفييت .

كانت توجه الينا الدعوة لحضور الاحتفالات الرسمية الكبرى فى موسكو ، حيث كنا نستقبل « كضيوف الشرف » بالهتاف والتصفيق من كل الحاضرين .

كذلك كانت لنا بعض الحقوق الخاصة فى اظهار الشعارات السياسية ، فقد اختلفت الشعارات المعلقة على الحوائط عن الشعارات المعروفة فى الاتحاد السوفييتى : اشادة بالمناضلين الألمانيين والنمسويين ضد النازية ، والفاشيستية ، أو تحية للفرق العالمية التى اشتركت فى الحرب الأسبانية ، كذلك لم تعلق صورة أحد من أعضاء المكتب السياسى السوفييتى ، بجانب صورة « لينين » و « ستالين » ، بل علقت صورة لـ« يوحنا كوبلنج » و « ديمتروف » و « أرنست تيلمان » و « فيلهلم بيك »

كنا مشهورين فى موسكو آنذاك ، فاذا خرجنا نتجول فى المساء — وغالبا ما كانت هيئتنا تبدو أحسن بكثير من الأطفال السوفييت — سمعنا أحيانا من يقول لصاحبه :

انظر ! هؤلاء أطفال رابطة الدفاع . كنا سعداء ، ولم نكن ندرك أحوال الأطفال السوفييت .

كانت علاقتنا بالمشرفين والمدير الروسى طيبة ، ما طلبنا شيئا الا وسارعوا بتنفيذه ، كلما كان ذلك ممكنا . كذلك تكون منا عن طريق

---

(١) ١٨٧٦ — ١٩٦٠ م ، انضم فى ١٨٩٥ للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا ، ثم للحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٨ م . نفى الى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٣٣ م ، وأصبح عام ١٩٤٥ م سكرتيرا للحزب الشيوعى الألمانى ، ثم تولى رئاسة ألمانيا الديمقراطية فى عام ١٩٤٩ م . (م . شامة) .

الانتخاب مجلس شورى ، كان له نوع من حق تقرير المصير (يقصد بذلك أنه كان يتمتع بنوع من المشاركة فى ادارة البيت) •

كان اتصالنا بالعالم الخارجى عن طريق مكتبة الأدب الأجنبى فى « ستوليشنيكوف برويلوك » على بعد خمس عشرة دقيقة من بيتنا •

ضمت هذه المكتبة — التى وضعت فى كنيسة صغيرة ، أغلقت فى وجه المصلين فى السنوات الأولى بعد قيام الثورة — كتبا ألمانية ، وانجليزية ، وفرنسية ، وأسبانية ، وايطالية •

كنت أذهب كل يوم تقريبا ، مع أصدقائى ، وأقضى بضع ساعات فى قاعة المطالعة ، فقد كان يوجد هناك — بجانب الكتب الألمانية القديمة — كثير من الكتب الحديثة لـ « فرانس فيرفيل » و « توماس مان » و « هاينزيش مان » و « يعقوب فاسرمان » و « ستيفان زفايج » و « ماكس برود » و « اميل لودفيج » و « ليون فوختفانجر » و « أرنولد زفايج » ولكل الكتاب المنفيين الذين يتعاطفون مع الاتحاد السوفييتى أمثال : « يوحنا ر • بيخر » و « آنا سيجرس » و « فريدريش فولف » و « فريتس اربين بيك » و « بودو أوزى » و « ايريش فاينر » و « فيلى بريديل » •

بدت لنا قاعة المطالعة فى أول الأمر ، كما لو كانت فردوسا ، ولكن سرعان ما تعرفت على الظلال الداكنة فيها ، اذ عندما تناولت كتابا لـ « ترافن »(١) • أسقط فى يدى ، وعقدت الدهشة لسانى ، ذلك أنى وجدت فقرات بأكملها لا تقرأ ، لأن الرقابة طبعت على الحروف حبرا من نوع خاص يجعل القراءة متعسرة ، ولا يفهم القارىء أنها مطموسة أو ممسوحة بل يخيل اليه أنها من الاهمال فى الطبع • باءت محاولاتى — فمثلا كنت أضع الصفحة فى مواجهة النور الساطع لقراءتها — بالفشل ، فقد كانت هندسة وضع الحبر على الحروف فى غاية الدقة والاتقان •

لم تستعمل الرقابة هذه الطريقة على الكتب فقط بل فى الصحف والمجلات ، وكذلك أيضا حيث تتنافى رقابتهم مع المنطق ، اذ يمارسونها مع المجلات التى يصدرها الحزب الشيوعى الألمانى ، أو يصدرها أشخاص يتعاطفون معه • كنا نقرأ فى قاعة المطالعة — ما عدا المجلات السوفييتية —

---

(١) أديب يقال انه ألمانى الأصل ولد فى عام ١٨٨٢ م وكتب بثلاث لغات : الألمانية ، والفرنسية ، والأسبانية • (م • شامة) •

المجلة التى كانت تصدر آنذاك فى تشيكوسلوفاكيا : « العلم الأحمر » ، والصحيفة اليومية الباريسية Die neue أو (Periser Tageblatt Weltbühne) وهى صحف تسير فى اتجاه الخط السوفييتى ، ومع ذلك طمست فقرات منها على النحو السابق ، لأنها تتحدث عن أحداث وقعت فى الاتحاد السوفييتى ، ولم تنشر فى صحفها .

لم نهتم — نحن الذين أطلق عليهم فى بيت الطلبة اسم « الكبار » — فقط بالكتب الأدبية ، بل بالمطبوعات والأحداث السياسية أيضا ، ولا يعد هذا من الأمور المستغربة ، اذ تتدخل التنظيمات السياسية فى توجيه الحياة فى الاتحاد السوفييتى ، على نحو لا يوجد فى أى بلد آخر فى العالم ، فمن النادر أن يمر حدث ، دون أن تثار حوله ضجة اعلامية ، فتنظم مسيرات شعبية ، وتعقد مؤتمرات ، واجتماعات ، وتنشر الصحف أخبارها بالبنط العريض فى صفحاتها الأولى ، وتذيعها محطات الاذاعة ، والتليفزيون بأسلوب تجعلها تغطى على غيرها من الأحداث التى لا تخدم أهداف الأيديولوجية الاشتراكية .

تدل معظم التقارير الغربية على أن حالة المواطن السوفييتى الذى كتب عليه أن يعيش فى ظل هذا الاطار الاعلامى ، تدعو الى الأسى والحسرة ، ولئن صح هذا بالنسبة لقطاع كبير من الجماهير ، فليس هو حال جميعهم ، لأن نسبة كبيرة من الشباب تهتم بالمشاكل السياسية ، وتحاول بمجهودها الذاتى أن تصل الى تصور خاص لما يدور حولها ، وتكوين رأى خاص فيه ، لم ينتظر معظم المجموعة المتقدمة فى السن — من ١٤ الى ١٧ — فى بيت الطلبة ، حتى يقدم لها المسائل السياسية — طبقا للاتجاه الرسمى فى الدولة — فى المدرسة أو فى معاهد منظمة الشباب « الكمسمول » ، بل اهتمت قبل ذلك فى أوقات فراغها بقراءة الماركسية اللينينية . كنا اذا فرغنا من عمل واجباتنا المنزلية ، قرأنا الكتب السياسية التى كنا نستطيع الحصول عليها لـ« ماركس » و « انجلز » و « لينين » و « ستالين » . لم يجبرنا أحد على قراءتها ، ولم يطلب منا أحد أن نتثقف سياسيا ، وانما كان ذلك بحريتنا واختيارنا ، دفعنا اليه اهتمامنا بالأيديولوجية الاشتراكية ، اهتماما جعلنا نتناقش فيما قرأناه أثناء تجولنا فى شوارع موسكو .

لم يكن عندنا — نحن سكان المنزل رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » — فكرة عما كان يدور فى ذلك الوقت على مسرح الأحداث فى الاتحاد

السوفييتى ، غير أنه من الصعب جدا أن يعيش المرء فى هذه الدولة ، دون أن يصيبه ما يكدر عليه صفو الحياة ، اذ لا توجد بقعة ينعزل فيها الانسان ، ولا مكان يستطيع المرء أن يهتم فيه بحياته الخاصة دون أن تلاحقه شظايا الأحداث •

* * *

القبض على أمى

عندما دخلت بيت الطلبة رقم ٦ ، أقامت أمى فى « زنزانة » صغيرة حقيرة — فلا يستطيع المرء أن يسميها حجرة — كانت فى منزل قديم يقع بالقرب من بوابة « نيكيتسكى » • والحقيقة أن تسميتها « زنزانة » فيه شىء من المبالغة ، اذ هى عبارة عن جزء صغير من دهليز « ممر » مسور بحائط من الخشب ردىء النوع •

اهتدت أمى الى هذا المأوى الحقير ، بعد طول بحث كاد يبعث فيها اليأس ، لذا قبلته ورضيت به • كانت تلتقى بى مرة أو مرتين فى الأسبوع ، نتجول فيها عبر شوارع موسكو ، فكان وقتا جميلا ، فكما كنت معجبا ببيت الطلبة ، كذلك كنت أنتظر بفارغ الصبر لقاء أمى كل مرة ، فقد كان يسرنى رؤيتها و الحديث معها •

التقيت بها فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ م — أى بعد دخولى بيت الطلبة بأسابيع قليلة — وبينما كنا نسير فى هذا اليوم المطير فى شوارع موسكو نأكل حلوى اشتريناها من محل تعودنا أن نشترى منه دائما « حلويات شرقية » عند بوابة « نيكيتسكى » قلت لها : لى رجاء آخر عندك يا أمى !

قالت : وما هو يا بنى ؟

قلت : أنت تعلمين أن أصعب شىء عندى ، هو مادة الرسم الميكانيكى ! ونحن مكلفون بأن نرسم رسما صعبا جدا ، ويجب أن ننتهى منه بعد غد ، ولن أنجح فى رسمه رسما صحيحا مهما بذلت من مجهود •

وعدتنى أمى أن تعطينى الرسم كاملا غدا ، ثم اضطررت الى توديعها حتى لا أتأخر عن الموعد المسموح به خارج بيت الطلبة •

نظرت الى ورائى ، فرأيت أمى ، لازالت تقف فى مكانها تتأبط حقيبتها ، ولوحة الرسم المطلوبة ، وتلوح لى مبتسمة •

وقفت فى اليوم التالى ، أنتظرها فى المكان الذى حددناه للقائنا ،

لم تكن أمى هناك • انتظرت ، مضت عشر دقائق •• ربع ساعة •• نصف ساعة ، فقررت أن أذهب اليها فى البيت ، فى تلك « الزنزانة » الخشبية • ربما تكون مريضة ، هذا ما دار فى رأسى ! دققت الجرس بعصبية ، ففتح لى أحد السكان ، ونظر الى بدهشة ، ثم تركنى أدخل • اخترقت الممر الى أن وصلت الى « الحجرة » ، فوقفت مندهشا أمام الهيكل الخشبى الردىء • ماذا أرى ؟ الباب مغلق ، ومختوم بالشمع الأحمر ، وكذلك الألواح الخشبية مختومة أيضا بالشمع الأحمر •

لم أفهم شيئا أكثر من هذا • وفى هذه اللحظة فتح باب الحجرة المجاورة :

— ماذا تريد ؟

— أريد أمى ، فهى تسكن هنا •

— لم تعد أمك تسكن هنا •

— كيف هذا ؟

— اختفت •

— كيف ؟ ألم تترك شيئا ؟

— لا •• لم تترك شيئا •

— اختفت فجأة !

— يحتمل أنها ذهبت للقيام بمهمة ، وستعود قريبا ، فعد الى منزلك بهدوء •

رجعت الى بيت الطلبة مهموما ومضطربا ، فقد عشت مدة طويلة فى روسيا تكفينى أن أعلم : ما معنى القيام بمهمة ! فالتكليف الفجائى من مكتب رسمى ، هو قيام بعمل معين فى مكان آخر • ولكن ممن حصلت أمى على هذا الأمر الرسمى ؟ والى أين سافرت ؟ ومتى تعود ؟ دارت هذه الأفكار فى ذهنى عندما وصلت الى بيت الطلبة ، واستولت على عقلى التأويلات ، والاحتمالات : يحتمل أنها تلقت أمرا باعطاء دروس فى اللغة الأجنبية ، لمن ؟ لضباط الجيش ؟ وفى هذه الحالة ربما لا يسمح لها بالكتابة لى عن طبيعة عملها • هدأنى هذا الافتراض فهيأ لى الجو لعمل الرسم الميكانيكى •

مر أسبوع وراء آخر ، وأنا أتردد على مسكن والدتى ، ولكن لم أستطع فى كل مرة الا رمى الشمع الأحمر بنظراتى المتسائلة عن مصير أمى • وكان سكان الحجرة المجاورة يقابلوننى فى بادىء الأمر بوجه غير

عبوس ، ولكن سرعان ما تغيروا ، وقال لى أحدهم بنبرة حادة تقترب من الغضب :

لماذا تعاود المجىء هنا • لقد قلنا لك ان أمك فى مهمة ، وعندما تعود سنخبرك ، فلست فى حاجة الى المجىء هنا •

لم تطأ قدمى هذا المنزل بعدها • وكنت أقابل أصدقاء والدتى ، فلا يخبرونى هم أيضا الا بأنها فى مهمة ، وبدا لى أن لا أحد يعرف أين هى ! قال أحدهم :

لقد سمعت أنها فى « تيفليس » •

قلت : ولكن ، لماذا لم تكتب لى ؟

فأجاب : توجد مهمات رسمية ، لا يستطيع المرء فيها أن يكتب شيئا •

هذا ما فهمته ، ولأنى سمعت هذا التفسير مرارا وتكرارا لم أعد أسأل أحد •

لم يمض وقت طويل على اختفاء أمى ، عندما وقعت حوادث أخرى ، عكرت علينا هدوءنا فى بيت الطلبة ، ففى يناير ١٩٣٧ م حوكم « أنصار تروتسكى » ، ونشرت وسائل الاعلام على لسان المدعى العام ، أنها منظمة متآمرة ضد نظام الحكم ، ومن بين زعمائها :

« بياتاكوف » و « رادوك » و « سوكولنكوف » و « سيربيرياكوف » وكنا نعتبرهم جميعا — وكانوا أعضاء بارزين فى الحزب — مثلا عليا للبلشفيين •

أثرت هذه القضية على كل أنشطة الدولة ، فغيرت اتجاهاتها ، فالجريدة الألمانية التى كانت تكتب — وهو صورة طبق الأصل لما ينشر فى برافدا — عن نجاح البناء الاشتراكى ، وتنشر صورا للمصانع الجديدة ، والمزارع الجماعية المثالية ، غيرت اتجاهها ، وتحولت الى مسرح لتوجيه أفظع الشتائم وأشنعها « للجواسيس التروتسكيين » ومن بين الأوصاف التى كانت تكتب بالخط العريض : « المنافقون » « خونة الوطن » « المنتكسون الى الرأسمالية » •

كذلك تحول أسلوب التعليم فى المدرسة ليتناسب مع تيار القضية السياسية التى كانت تشغل الرأى العام ، فانساق مع وسائل الاعلام فى الهجوم على « الخونة » و « أعداء الشعب » ، وامتدح — بل وشجع — محاكمتهم وانزال أشد العقوبات بهم •

أخبرونا أن هؤلاء الذين كانوا الى وقت قريب زعماء الحزب

النموذجيين هم فى الحقيقة جواسيس ، وخونة ، ومنافقون ، كانوا على اتصال سرى بألمانيا الهتلرية واليابان ، واستهدفوا من وراء ذلك اعطاء ألمانيا منطقة أوكرانيا ، واعطاء اليابان المنطقة الشرقية السوفييتية ، واعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفييتى .

كان المتهمون — هكذا قالوا لنا — منذ سنوات مخربين ، وخونة ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من المهارة والحذق بحيث استطاعوا خداع من حولهم . وقد تمكنوا عن طريق تقلدهم مناصب قيادية أن يخربوا خطط الانتاج ، فأشعل تنظيمهم السرى الحرائق فى المصانع ، ووضع المتفجرات هنا ، وهناك ، وارتكبوا أنواعا عديدة من الجرائم : تخريب قطارات السكك الحديدية ، وموت العمال ، والفلاحين بالجراثيم بواسطة مراكز الصحة والوحدات العلاجيـــة للأمراض المعدية ، وفى نفس الوقت كونوا جهازا ارهابيا لاغتيال قادة الحزب والحكومة السوفييتية .

انتهت القضية فى ٣٠ يناير ١٩٣٧ م ، وحكم على « بياتاكوف » و « سيربيرياكوف » وآخرين بالاعـــدام ، وعلى « سوكولنكوف » و « رادوك » بالسجن عشر سنوات . ونشرت الصحف صورا لمؤتمرات العمال فى المصانع والمزارع الجماعية ، يرفعون فيها أيديهم ، اشارة الى استحسانهم ، وتأييدهم الأحكام الصادرة على أعداء الشعب ، واندلعت مظاهرات ضخمة تهتف :

« اقتلوا الكلاب الفاشيين » « امسحوا أعداء الشعب من الوجود »

لم نستطع آنذاك أن نقدر أهمية هذه القضية ، فقد كنا — سكان ببت الطلبة — نعيش ، كما لو كنا فى جزيرة يخيم عليها الهدوء والسكينة ، ولم نعلم شيئا عن موجة الاعتقالات الجماعية ، التى نفذها رجال المخابرات فى ذلك الوقت . كنا نذهب الى المدرسة كالعادة ، نحضر الدروس ، ونناقشها ، ونقرأ الكتب ، لكننا لاحظنا التغيير فى دروس المجتمع ، ووجهت الينا تحذيرات متعددة — فى تجمعات المدرسة ، وفى بيت الطلبة — من الوقوع فى حبائل الخونة ، وأعداء الشعب ، فيجب علينا أن نبتعد عن أعمالهم الشائنة .

بدأت أكبر موجة اعتقال فى خريف عام ١٩٣٦ ، ولم نشعر بها الا فى أوائل عام ١٩٣٧ م عندما أصبح من المستحيل عدم تسرب أخبارها الينا ، فارتفع من أمامنا الحاجز الذى فصل بيننا وبين ما يجرى فى الدولة .

لم تبتعد موجة الاعتقالات عن مدرسة « كارل ليكنيشت » ، فقد بدأ من أول مارس ١٩٣٧ م اعتقال المدرسين ، فاختفى واحد وراء الآخر • اختفى أولا مدرس اللغة الألمانية وكان يدعى « جرشنيسكى » شيوعى ألمـانى تخرج فى مدرسة « كارل ماركس » الواقعة فى حى « كولونيـا الجديدة » فى برلين ، جاء الى الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩٣٣ م • ثم تبعه مدرس التاريخ والجغرافيا : « لوشين » وهو أيضا خريج مدرسة « كارل ماركس » السالفة الذكر • وأخيرا قبض على مدرس الرياضة : « كاوفمان » •

لم يقتصر الاعتقال على مدرسى فصلنا فقط — على هذا النحو — بل شمل مدرسى جميع الفصول الأخرى • أنهك التعب المدرسين الذين لم يعتقلوا — وكانوا قلة — ، لأنهم ألزموا بأخذ حصص اخوانهم المعتقلين • ولم يكن مصدر تعبهم كثرة العمل فقط ، بل ظروف الارهاب التى كانوا يعيشون فيها أتلفت أعصابهم أيضا • اذ أدرك كل منهم أن من المحتمل أن يقبض عليه اليوم أو غدا ، ولهذا فقدوا الطمأنينة ، فأدوا دروسهم بعناء ومشقة ، ولم يكن هذا خافيا على التلاميذ •

أثر عليهم خوفهم ، فأوقعهم أحيانا فى أخطاء ، دون أن يدركوا ما يقولون ، فذات مرة — عندما كنا فى حصة المبادىء الدستورية — تحدث المدرس بحماس عن معالم الديمقراطية فى الدستور ، وعن فضائل الوحدة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وأراد أن يستشهد فى تفسيره بجملة « ستالين » المشهورة :

« ولكن هؤلاء الذين يفكرون فى مباغتة بلدنا ، سيمزقون اربا ، ويقضى على آمالهم وتغرس أنوفهم الخنزيرية (أى التى تشبه أنوف الخنازير) فى حديقة الاتحاد السوفييتى » •

ولكنه أخطأ فى هذه الجملة بالذات ، فرفع صوته عاليا فى الحجرة قائلا : « ••• وبهذا يقضى على آمالهم ، وتغرس أنوف السوفييت فى حديقة خنازيرنا » •

تهامس التلاميذ ، وانحلت أعصاب الآخرين • وكنت منهم ، ثم ماذا ؟ ماذا يحدث بعد الآن ؟

لاحظ المدرس خطأه بعد ثوان ، فاصفر وجهه ، وارتعشت جميع أعضاء جسمه ، فظهر عليه الارتباك الشديد ، حاول بذل كل ما فى وسعه — كمن يعانى من سكرات الموت — للسيطرة على أعصابه حتى انتهت

الحصة • رثينا لحاله ، فقد كنا نعلم أن نهايته فى هذه الغلطة ، لأن من المسلم به أنه يجب أن يقوم نفسه بتبليغ الحزب بهذه الحادثة • اختفى هذا المدرس بعد أيام قليلة ، ولم نره بعدها ، ولم نسمع عنه شيئا اطلاقا •

أدينا الامتحان فى ظل هذا الرعب ، رعب القبض ، والاعتقال ، والتطهير ، جلسنا فى الفصل صباح يوم من أيام شهر يونيو ، كى نؤدى امتحانا تحريريا فى اللغة الألمانية ، وكما هى العادة فى كل امتحان ، فقد استولى الاضطراب علينا عندما دخل المدرس ، ابتدأ بتسجيل الحاضرين ، ثم شرح لنا كيفية الامتحان :

« سأقرأ عليكم نصا من كتاب أحد الكتاب الذين كرسوا جهودهم ضد الفاشـــية ، ألا وهو « جورج بورن » وعليكم أن تكتبوا ما أقرأه بأسلوبكم الخاص • والزمن المحدد هو ثلاث ساعات ، أظن أنه كاف للتفكير والكتابة فى هدوء تام » •

ثم فتح حقيبته ليخرج كتاب « بورن » ، وفجأة انتشر الهمس فى أحد أركان الحجرة ، فرفع المدرس رأسه قائلا : ماذا حدث ؟

وقف أحد التلاميذ وقال :

« أيها الرفيق المدرس ، لقد روى والدى أنه قد تم القبض منذ أيام قليلة على « جورج بورن » بتهمة أنه من أعداء الشعب » •

اسود وجه المدرس وأعاد الكتاب الى الحقيبة ، وفرائصه ترتعد ، وقلب محتوياتها ، وأخرج كتابا آخر ، ثم أعاده الى الحقيبة بسرعة خاطفة ، وفى النهاية أخرج كتابا من تأليف « كيش » ، الذى كان يقيم فى ذلك الوقت فى المكسيك ، يمكن أن يؤخذ منه نص لأنه لم يصبح بعد من أعداء الشعب !

هدأ روع المدرس نوعا ما ، وتمالك أعصابه ، ثم قال :

« لا تؤاخذونى على هذا الخطأ الفادح ، فمن المسلم به أنه لا يجوز لنا أن نرجع الى كتاب أحد المعادين للشعب ، الذى يأخذ الآن جزاء ما اقترف من اثم ، وبدلا من هذا سأقرأ عليكم تقريرا صحفيا كتبه « اجون ارمن كيش » ، وعليكم أن تعيدوا كتابته بأسلوبكم » •

قرأ علينا النص ، فكان صوته يرتعش ، اذ كان خائفا أكثر منا نحن الذين نؤدى الامتحان •

وصلت حركة التطهير الى ذروتها فى أيام الامتحان ، أى فى يونيو

سنة ١٩٣٧ م . ففوجئنا — وفوجىء معنا أيضا كل الشعب السوفييتى — فى أوائل يونيو بحادثة هزت أعصابنا وهى :

اعتدى أحد أساتذة الطب المشهورين فى الاتحاد السوفييتى ، وهو الأستاذ « بليتنوف » ، على المواطنة السوفييتية « ب » اعتداء فاحشا ، وأدانه وكيل النيابة فى هذه القضية . ولأن الصحافة السوفييتية لا تذكر اطلاقا المسائل الجنسية ، وما يتعلق بها من فاحشة وغيرها ، فقد استدعى هذا الأمر دهشة عامة لدرجة أن « برافدا » وصفت ظروف الاعتداء وملابساته ، وأشارت بنوع خاص الى أن الأستاذ عض المواطنة « ب » فى ثدييها مرارا ، مما ألحق بها تشوهات لا تبرأ منها أبدا .

اتبع هذا مباشرة النتائج المعتادة لمثل هذه القضية فى معاهد الطب المختلفة ضد « منتهك الأعراض » و « الشهوانى بليتنوف » وأعلن أنه ستجرى محاكمة علنية ، انتظرها الشعب بفارغ الصبر ، ولكن مضى ما يقرب من عام ولم يسمع شىء عن هذه القضية ، بل حلت محلها أخبار أخرى ، قرأها الناس يوميا فى الجرائد ، وسمعوها فى المنتديات والمجتمعات :

« تزداد المخابرات العامة قوة ، ويكبر سلطانها باستمرار ، ولها من المهارة ما يمكنها من تتبع كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، فلترتعد فرائص الجواسيس والخونة ، وسفاكى الدماء . ان المخابرات العامة ستثبت مدى قدرتها وكفاءتها » .

نشر هذا بعدها بأيام قليلة — على وجه التحديد فى ١١ يونية سنة ١٩٣٧ م — اكتشاف مؤامرة — مزعومة على ما بدا لى — كانت بزعامة قائد الجيش ، مارشال « توخاتشفسكى » وسبعة جنرالات آخرين من الجيش الأحمر . اتهم هؤلاء — وكانوا يتولون أعلى المناصب فى الجيش ، وهم من الأعضاء القدامى فى الحزب ، ومن الزعماء البارزين فى الحزب والدولة — بأنهم جواسيس لاحدى القوى الأجنبية . وأنهم مارسوا أعمالا تخريبية فى الجيش رغبة فى اضعافه ، وأنهم أرادوا — هكذا ادعوا عليهم — أن يمهدوا السبيل لهزيمة الجيش الأحمر ، كى يمكنوا القوى الاقطاعية والرأسمالية من العودة الى السيطرة على الاتحاد السوفييتى .

تعودنا فى الشهور الأخيرة على أشياء كثيرة ، عن طريق القضايا التى تودد تهديدا مستمرا — وتطعن بأسلوب لا حياء فيه — من يراد تنحيتهم ، وتصفهم بـ« الأعداء الألداء » و « الخونة » و « أعداء الحزب »

و « أعداء الشعب » و « الجواسيس » و « الانتهازيين » و « الغادرين » و « المخربين » ، اذ دأبت الصحف على التشهير بهم ، وتحذير الشعب من أساليبهم الخادعة ، وطلبت من كل فرد أن يكون يقظا ، يحرس الاشتراكية من أعدائها • غير أن اكتشاف مؤامرة « توخاتشفسكى » المزعومة غطى على ما سبقها من قضايا ، اذ لم يضارعها — فى التهويل بها وتضخيم ما ارتكبه زعماؤها — أى حدث وقع قبلها حتى الآن •

نشرت جريدة برافدا فى ١٢ يونية سنة ١٩٣٧ م حوادث هذه القضية فى خمس صفحات كاملة من صفحاتها الستة • وكانت المرة الوحيدة فى تاريخ الصحافة السوفييتية أن يتصدر كل صفحة من الجريد عنوان بالخط العريض : الجواسيس ، — العملاء الحقراء للفاشية — خونة الوطن : اقتلوهم !

كان هذا عنوان الصفحة الأولى ، أما الصفحة الثانية فعنوانها بالخط العريض :

الجواسيس الذين لطخوا شرف الخدمة العسكرية خونة الوطن والجيش الأحمر : اقتلوهم !

أما الصفحة الثالثة فكان عنوانها :

جواسيس ، أولئك الذين أرادوا تقسيم وطننا ، واعادة قوى الاقطاع والرأسمالية الى الاتحاد السوفييتى : اقتلوهم !

وفى صدر الصفحة الرابعة :

جواسيس ، أولئك الذين مارسوا التخريب ليقضوا على قوة الجيش الأحمر : اقتلوهم !

وفى الصفحة الخامسة :

جواسيس ، أولئك الذين دبروا لهزيمة الجيش الأحمر : اقتلوهم !

كان عنوان المقال الافتتاحى :

للجواسيس ، للجاسوسية ، وخيانة الوطن •

وختم بتلك الكلمة التى تتكرر مئات المرات :

ستثبت المخابرات العامة السوفييتية مدى قدرتها وكفاءتها •

أسرفت الجريدة — على نحو يكاد يتكرر فى كل سطر فيها — فى المطالبة بسرعة الحكم فى هذه القضية ، وهاجمت الخائنين — على حد وصفها — بطريقة مسفهة ، وصبت عليهم اللعنات • وجاءت مطالبة الجماهير بضرورة توقيع أقصى العقوبات على المتهمين متأخرة ، فقد

نشر خبر صغير مختصر فى زاوية أحد أعمدة الجريدة أن « توخاتشفسكى » وزملاءه قد حكم عليهم فى مساء اليوم السابق بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ الحكم .

رغم أن هذه الأحداث لم تمسنا مسا مباشرا ، فقد وصل أثرها الى بيت الطلبة أيضا ، ففى مساء اليوم الذى حكم فيه على « توخاتشفسكى » جاء أحد التلاميذ — ولم يكن من مجموعة « الكبار » فعمره كان يتراوح بين ثلاثة عشر وأربعة عشر — مكفهرا ومضطربا وقال لى :

— ماذا أفعل ؟ لقد ارتكبت خطأ كبيرا !

— ماذا فعلت ؟

— كتبت فى امتحان الانشاء فى موضوع الجيش الأحمر ، فرفعت من قدر « توخاتشفسكى » بالذات .

— أكتبت هذا فى ورقة الاجابة ؟

— نعم ، وأسوأ ما فى الأمر أننى ختمت موضوعى بهذه الجملة :

« لقد انتصر الجيش الأحمر فى الحرب الأهلية ، بفضل قيادة « ستالين » و « توخاتشفسكى » ولن يهزم أبدا ما دام هذان الزعيمان يتوليان قيادته » ماذا سيحدث لى ؟

كان الحظ حليفه ، فلم يحدث له شيئا ، وان ظل فترة أسير الخوف ، وشاركه فى هذا كثير من التلاميذ — وعلى الأخص « الكبار » — فقد علت وجوههم فى تلك الأيام سمات القلق والاضطراب ، والخوف مما يأتى به الغد ولم يتحرروا من هذا الكابوس الا عندما وجهت اليهم الدعوة للاجتماع ذات مساء ، وأعلن عليهم خبر ، أدخل عليهم السرور وذلك حين قال المتحدث :

« سنسافر فى هذا الصيف الى القرم للاستجمام »

حدث لى فى نفس المساء حادث ، لم أفهم مغزاه ، اذ اتجه الى أحد المشرفين فى البيت ، ورمقنى بنظرات حادة ، ثم مد الى يده ، وسلم بحرارة ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، لم أفهم شيئا اطلاقا من هذه الحركة ، وسألت نفسى : ماذا جرى له ! ولكن سرعان ما تناسيت هذا ، ولم أفكر فيه .

مضى أسبوع ونحن منهمكون فى الاستعداد للسفر ، وقبل الرحيل

بيوم واحد ، جاءنى نفس المشرف مرة أخرى ، ولكنه كان مبتسما فى هذه المرة وقال : « لقد عاد كل شىء الى ما يرام » وربت على كتفى •

فقلت له : « لم أفهم شيئا ! ماذا حدث ؟ »

أجابنى مترددا : كانت مسألة شائكة ، ولكنها وضحت الآن ، لا تطل التفكير فى هذا ، واذهب لتعد حقيبتك ، فنحن مسافرون الى القرم •

نزلنا فى مساكن جميلة ، أقيمت فى منطقة « جورسوف » على شاطىء البحر الأسود ، وقضينا فيها ، أياما جميلة ، اذ سحرتنا المناظر الطبيعية • بنخيلها ، وأزهارها ، وحشائشها ، ومياهها المنعشة ، وأضفت علينا جوا هادئا ، خيل الينا فيه ، أن ما مر بنا من أحداث فى الشهر الماضى ، كان حلما مزعجا ، فاعتقدنا — وتمنينا — أن الأمور ستعود الى حالتها الطبيعية ، وأننا عندما نعود الى موسكو ، سنعيش كما كنا قبل بضعة شهور •

أصابنى المرض بعد ثلاثة أسابيع من وصولنا الى « جورسوف » ، فلزمت الفراش ، وكنت تحت رعاية طبيبة ألمانية ، كانت تتفانى فى خدمتنا • وعندما تحسنت حالتى ، جاءتنى هذه الطبيبة فوقفت عند السرير وقالت :

جاءتك رسالة ، هاهى ذى !

تناولتها ، فقرأتها وأنا مضطرب الأنفاس ، فقد كانت من أمى ، أرسلتها الى بيت الطلبة ، فحولوها الى حيث نقيم فى القرم • قرأت فى المكان المخصص لكتابة عنوان المرسل (L.P. Schor, Tschibiju, Komi ASSR) وتحتها هذه الملاحظة (KRTD) خمسة أعوام •

أدركت الآن ما حدث ، فوقع على هذا الخبر كالصاعقة :

لم تكن أمى فى مهمة ، كما كنت أتصور ، بل قبض عليها ، فأنا أعلم أن حرفى (L.P.) هما اختصار لاسم معسكر العمل ، والحروف (KRTD) اختصار لكلمة : نشاط هدام ضد الثورة •

فهمت الآن أيضا :

لماذا أغلقت الحجرة بالشمع الأحمر !

ولماذا كان جيرانها ينظرون الى نظرة ريبة وشك !

وأن أصدقائنا أوهمونى أنها فى مهمة رسمية حتى لا أنزعج •

بلغ تأنيب الضمير ذروته ، عندما قارنت بين حالتى وبين ما تعانيه

الآن فى معسكرات العمل ! مضى عليها الآن عشرة أشهر فى السجن ، وتعيش تحت ظروف قاسية فى القطب الشمالى ، أما أنا فأقيم فى بيت الطلبة فى الاتحاد السوفييتى ، أتمتع بالكماليات ، وأستجم الآن هنا فى ظل نخيل القرم •

اشتركت مكرها فى الرحلات الى « سمفروبول » و « ليفاديا » ، و « يالتا » وفى زيارة الأماكن الأثرية ، وفى تسلق الجبال ، فقد كانت صورة أمى ماثلة — فى معظم الأوقات — أمام عينى ، وكنت أفكر مكتئبا فيما حدث لها ، وأسائل نفسى : ترى ! ماذا يفعلون معها فى هذه اللحظة !

لم أخبر أحدا بما أوضحته الرسالة من القبض على أمى ، ونفيها ولكنى كنت متأكدا أن مدير بيت الطلبة ، والمشرفين يعلمون ذلك • وقبل رحيلنا بوقت قصير تذكرت مرة أخرى موقف المشرف الذى لم أفهمه وتساءلت : هل كانت له علاقة ما بالقبض على أمى ؟ حاولت أن أتحدث معه حول هذا الموضوع ، ولكنه رفض ، ولم أفهم موقفه الا بعد مضى عام آخـــر • لم تكن أمى هى الوحيدة — من بين آباء وأمهات المقيمين فى بيت الطلبة — المقبوض عليها ، بل كان هناك عدد يتراوح بين ثمانية ، وعشرة من التلاميذ ، دخل آباؤهم أو أمهاتهم — أو كلاهما — المعتقل • ثم صدر قرار يقضى بأن يغادر كل من اعتقلت المخابرات العامة آباءهم أو أمهاتهم بيت الطلبة ، ويلحقـــوا بأحد بيوت الطلبة التابعة للمخابرات العامة ، وفى نفس اليوم جاءنى المشرف وودعنى دون أن يقول لى شيئا •

ألغى هذا القرار بعد أيام قليلة ، فسمح لنا بالبقاء فى مسكننا ، وجاءنى المشرف — ولكنه كان مسرورا فى هذه المـــرة — وأخبرنى بأن الأمور عادت الى مجراها الطبيعى •

لم أعلم حتى اليوم ، لمن يعود الفضـــل فى انقاذنا ! هل كان الغـــاء القرار بناء على وساطة اللجنة الشيوعية العالمية ؟ على أى حال ، فقد كان الغاؤه وقاية لنا من مصير سىء ، كان ينتظرنا فى بيوت الطلبة ، التابعة للمخابرات العامة ، التى أعدت لاستقبال أبناء المقبوض عليهم • كتب علينا ألا نرى أباءنا سنوات عديدة ، ولكننا فى الوقت نفسه منحنا هبة ، ألا وهى عدم مغادرة مسكننا ، فلدينـــا الآن شىء نركن اليه : بيت الطلبة ، فهو بالنسبة لنا وطن ، وأسرة ، ومكان نحتمى فيه •

ماذا يحدث لو صدر قرار بالغاء هذا البيت وتسريح من فيه ؟ •

* * *

فى المدرســة الروسية

عدنا من القرم فى النصف الثانى من شهر أغسطس ، وبعد مضى ستة أســابيع ، دعانا — نحن الكبار — ناظر المدرسة الى اجتمــاع خاص فى مكتبه ، ثم وجه الينا الحديث :

« أيها الرفقــاء ! لقد أتممتم دراسة السنة السابعة ، ونريد اليــوم أن نناقش مستقبلكم بصراحة ، فأنتم الآن تجيدون اللغة الروسية ، لذا أعرض عليكم اقتراحا يجب أن تفكروا فيه جيــدا : أليس من الأفضل أن تتركوا مدرسة « ليبكنيشت » ، وتلتحقوا بمدرسة روسية ؟ وطبيعى أن هذا ليس اجبارا • ويمكن أن نتحدث فى هــذا الموضوع مرة أخرى فى الأيام القليلة القادمة » •

وافق فريق منا فى الحال على التحاقه بالمدرسة الروسية ، وتباطأ آخــرون ، وكنت من المتباطئين ، كنت أجيد الروسية ، ولكن لم تبلغ درجة اجادتها اللغة الألمانية ، فلو كان الأمر يتعلق باللغة فقط ، لاخترت البقاء فى المدرسة الألمــانية ، اذ كان واضحا أن اقتراح « سيميونوف » رغم أنه لم يذكر الدوافع التى دفعته الى أن يقترح مثل هذا الاقتراح — له جذور سياسية • ومن المحتمــل أن يكون الآخــرون قد فهموا هذا المعنى أيضا ، لأنهم وافقوا جميعا فى الاجتماع الثانى — الذى عقد بعد يومين فقط — على أن يلتحقوا بالمدرسة الروسية •

التحق — فى أول سبتمبر ١٩٣٧ م — اثنا عشر تلميذا — منا نحن مجموعة الكبار فى بيت الطلبة — بالمدارس الروسية ، ولم يدخلوا جميعا مدرسة واحدة ، بل وزعوا على عدة مدارس • أما المجموعتان الأخريان — « الصغار » و « المتوسطين » — فقد ظلتا « مؤقتا » فى مدرســة « ليبكنيشت » الألمــانية •

دخلت المدرسة رقم ٩٣ الكائنة فى حارة صغيرة بالقرب من ميدان «أربات » • كان مبناها حديثا مثل معظم المدارس فى موسكو ، وأثاثها فاخرا ، فرحب بنا التلاميذ ، والمدرسون ، وأبدوا استعدادهم لمساعدتنا فيما لا نستطيع فهمه فى اللغة الروسية ، ولم نصادف منهم موقفا معاديا لنا •

لم يكن من السهل علينا متابعة الدروس ، رغم أننا كنا نفهم ما يقال باللغة الروسية ، كانت المرحلة الأخيرة فى المدارس — وهى ثلاث سنوات — مقصورة على أولئك الذين يرغبون فى مواصلة الدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا • فالمناهج فى هذه المرحلة مزدحمة جدا ، اذ يطلب من التلميذ فى هذه السنوات الثلاث الأخيرة ، تحصيل مواد تكاد تبلغ حد الاعجاز • ولا زلت مقتنعا بأن ما يتعلمه التلميذ فى مدارس الاتحاد السوفييتى لا يقل — ان لم يكن أكثر — عما يتعلمه التلاميذ فى أى مدرسة فى غرب أوربا وأمريكا ، الا أن التلميذ فى الاتحاد السوفييتى لا يعرف الا وجها واحدا من الحياة ، ألا وهو ما تصوره له الأيدلوجية الشيوعية •

لم نتعلم اللغة اللاتينية ، ولا اليونانية — كان يوجد لغة أجنبية واحدة فقط — ولكن المطلوب فى المواد الأخرى — وخاصة فى مواد العلوم الطبيعية — كان كثيرا • فبينما كان معظم المواد فى الفرقة الثامنة يعتبر امتدادا عضويا لما درسناه فى الفرقة السابعة ، وجدت بعض التغييرات فى بعضها ، اذ انقسمت الرياضة الى ثلاث مواد : جبر ، وهندسة ، وحساب المثلثات • أما الطبيعة والكيمياء فامتدت فيها الدراسة كما هما ، وتحولت الجغرافيا الى تفسير لجغرافية الاتحاد السوفييتى الاقتصادية • وفى علم الاحياء درسنا التشريح ووظائف الاعضاء والخلايا الحية فى الانسان •

اقتصرنا فى التاريخ على دراسة التطور التاريخى لشعوب الاتحاد السوفييتى ، وهى دراسة لا تبدأ بأحداث التاريخ الروسى ، بل بدولة « أورارتو » التى قامت فى القرن التاسع حتى القرن السادس قبل الميلاد ، فى المنطقة الموجود فيها الآن الأرمن السوفييت • أعتنى فى حصة التاريخ فى هذا العام — ١٩٣٨/٣٧ الدراسى — بدراسة القيصر ايفان « المرعب » • وكان أسلوب التحليل التاريخى لهذا القيصر ينبىء عن تغير هام ، اذ لم نتوقع اطلاقا أن يصبح هذا القيصر فجأة حاكما تقدميا ، وموحدا لروسيا ، وأن المؤرخين الرجعيين لم ينصفوه ، ولم يعطوه حقه ، بل صوروه بصورة لا تليق به ، فأطلقوا عليه « المرعب » • ثم أبرزت باسهاب انجازاته التقدمية ، فى توحيد المملكة ، وفى تطهير روسيا من الخونة ، وأشير الى ذلك — بنوع خاص — الى « أوبريت

شنينا » التى تتخذ رأس الكلب والمقشة رمزا لها ، اذ فسر رأس الكلب بأنه اشارة الى الخونة ، والمقشة تطهر روسيا منهم •

لم ندرس فى الفرقة الثامنة علم الاجتماع ، ولا مادة « علم الدستور » ، واستبدل بذلك مادة التربية العسكرية ، وكنا نأخذها مرتين فى الأسبوع •

درسنا — بجانب التدريب العسكرى — هيكل الدفاع المدنى ، واجراءات الحماية من الغارات الجوية ، فسيطر علينا الرعب والخوف من الرسم الميكانى الذى كان يزداد صعوبة كل أسبوع ، اذ كان الاهتمام بهذه المادة شديدا — وهم على حق — لأن كثيرا ممن يجتازون امتحان الفرقة العاشرة (الثانوية العامة) يلتحقون بكليات الهندسة •

كان الاتجاه واضحا فى أنهم يعدوننا للكليات والمعاهد العليا ، اذ وضع لهذا الغرض برنامج اتصال بالجامعة أطلق عليه « أيام الباب المفتوح » وهو عبارة عن دعوة التلاميذ — ابتداء من الفرقة الثامنة — لزيارة كليات مختلفة ، حيث يقابلهم أعضاء هيئة التدريس (أساتذة ، وأساتذة مساعدون ، ومدرسون ، ومعيدون) وممثلو اتحاد الطلبة ، ليشرحوا لهم سير الدراسة فى الكلية ، وطبيعة المواد التى تدرس ، وأسلوب الحياة الجامعية • فسهلت هذه الزيارة على التلاميذ اختيار الكلية التى يريدون الدراسة فيها •

ساعدنا التحاقنا بالمدارس الروسية على التعمق فى هذه اللغة ، فتقدمنا فيها لدرجة أننا بدأنا — نحن الألمانيين — نتحدث بها مع بعضنا حتى ولو لم يكن بيننا أحد من الروس ، وكان ذلك خطوة أولى على طريق اندماجنا فى الحياة الروسية ، ذلك الاندماج الذى بدأ فى عام ١٩٣٧ وقوى يوما بعد يوم •

ثم تلتها الخطوة الثانية فى بداية عام ١٩٣٨م : فقد أغلقت مدرسة « ركارل ليبكنيشت » الألمانية ، لأنها لم تستطع مواصلة العمل بعد القاء القبض على المدرسين وعلى الناظر — ألقى القبض على الناظر « شلاسكو » ، وعلى خليفته أيضا « كرامر » ، فتحول جميع التلاميذ — الألمانيين والنمسويين — الى مدارس روسية •

ازداد تقارب بيتنا — بيت الطلبة رقم ٦ — ببيوت الطلبة الروسيين، فعلى الرغم من استمرار زيارة ممثلى تنظيمات الحزب الشيوعى النمسوى ، وعدم انقطاع القاء المحاضرات عن المقاومة ضد الفاشية فى

ألمـانيا والنمسا ، وعما يجرى من الأحداث فى أسبانيا ، الا أنه يزداد يوما بعد يوم عدد الروس الذين يأتون الينا ليتحدثوا فى قضايا سياسية تتعلق بالاتحاد السوفييتى •

تعلمنا أن ننظر الى المسائل كلها من الزاوية السياسية ، أو على حد تعبيرنا فى معظم الأحيان « من زاوية موقف معين » ، فقد تعودنا أن نبرر كل ما يفعله الاتحاد السوفييتى ، ولو كان هذا التبرير شاذا ، كأن يتعلق بعمل يتنافى مع المبدأ الأساسى لمفهوم الاشتراكية •

ابتعدنا شيئا فشيئا عن أوطاننا الأصـلية ، ففى البداية ، كتب التلاميذ فى بيت الطلبة كثيرا من الخطابات الى أهليهم وأقاربهم فى النمسا وألمانيا ، ثم قلت الى حد كبير ، اذ تضاءل التفكير فى ألمانيا والنمسا ، بينما ازداد الاهتمام بالاتحاد السوفييتى • كان المتحدثون يذكرون فيما سبق الاتحاد السوفييتى فى خطاباتهم على أنه وطننا الثانى ، ثم اختفت كلمة « الثانى » وبدأنا نشعر شيئا فشيئا ، كما لو كان الاتحاد السوفييتى وطننا الحقيقى والأوحد •

اختفت كلمة النمسا وألمـانيا فى أحاديثنا ، فلم تعد تذكر الا نادرا ، فبهتت الذكرى ، وهوت الى وادى النسيان العميق ، اذ صرنا شـبابا سوفييتى الشعور والتفكير ، شبابا ليس عنده شعور وطنى نحو ألمانيا أو النمسا ، بل يميل بتفكيره وشعوره نحو الاتحاد السوفييتى•

وهكذا تحول وجه بيت الأطفال (بيت الطلبة رقم ٦) فى الفترة من ١٩٣٤ الى ١٩٣٨م ، فاتخذ طابعا آخـر ، والحقيقة أنه لم يعد بيت أطفال لأن مجموعة « الصغار » صارت « متوسطة » ومن أطلق عليهم قبلا « متوسطون » أصبحوا « كبارا » ، بينما تجاوز من أطلق عليهم فى المـاضى « كبارا » عهدالطفولة ، فأقاموا احتفالات للرقص فى يومى السبت والأحد ، ولا يمكن أن يفكر أحد من الزائرين أن القاطنين فى هذا البيت أطفال •

كان واجب المشرفين — قبل شهور مضت — ومن يقوم بورديات الليل ينحصر فى مراقبة مسائل الأطفال العادية ، كغسل الأسنان بالفرشاة والمعجون •• وغير ذلك ، ولكن تصادفهم الآن مشاكل أخرى من نوع خاص فقد وقع معظم الغلمان فى بيت الطلبة فى حبائل الحب ، وأحلامه • ولكن !! صادفت أيام شبابنا المتفتح عهدا كئيبا •

***

مراقبة التطهير من بيت الطلبة

استمرت حركة الاعتقالات حتى بدا لنا أنها لن تتوقف ، بل زادت بعد عودتنا من القرم فى نهاية أغسطس ١٩٣٧م حتى اكتوى الكل بنارها فى خريف هذا العام •

أصبح مألوفا لى أن أرى عند زيارة الأصدقاء بابا مغلقا بالشمع الأحمر ، أو أسمع أن أسرة بكاملها ألقى القبض عليها ، وشمع مسكنها ، فقد صار مفهوم كلمة « الاعتقال » — الذى كان مخيفا ونادرا وقوعه نسبيا قبل بضع سنوات — شائع الاستعمال ، وكنت أرى فى الطريق الى المدرسة يوميا السيارات ذات اللون الأخضر المخصصة لنقل المعتقلين •

تواردت الأنباء — دون انقطاع — عن اعتقال المزيد من قادة الحزب الشيوعى ، الذين قدمتهم لنا وسائل الاعلام من قبل على أنهم نماذج وأمثلة يجب الاقتداء بهم • ولم يختف ليلا مدرسو مدرسة « كارل ليبكنيشت » فقط ، بل أيضا محررو « الجريدة المركزية الألمانية » • وكذلك العاملون فى « نادى العمال الأجانب » ، وكنا نسمع يوميا عن حركة اعتقال جديدة بين صفوف المنفيين السياسيين ، ومنهم أعضاء رابطة الدفاع أيضا • لم يخف على أحد حالة الرعب التى سيطرت على حياة المدرسين فى المدرسة ، والمشرفين على بيت الطلبة ، وحتى على أعضاء لجنة الفكر والدعوة فى الحزب الشيوعى ، عندما كانوا يتحدثون فى الاجتماعات التى كانت تعقد فى المدرسة ، أو فى سكن الطلبة •

أطلق على من لم يعتقل اسم « الفضلات » ، ولم يكن حالهم أحسن من حال المعتقلين ، فقد أصيب معظمهم بلوثة نفسية نتيجة وقوعهم تحت تأثير الخوف المستمر ، وكانوا أقرب الى الحيوان الوحشى الهائج من شدة الخوف من حلقة الصياد التى تضيق عليه الخناق شيئا فشيئا منهم الى البشر ، وعجزوا عن الوسيلة الصحيحة التى تنقذهم من هذا الخطر الداهم ، ولكن أى الوسائل يمكن أن تؤدى الى بر النجاة ! تفاوتت آراؤهم فى تحديدها فبدت كما يلى :

— الصمت واجب الآن ، فان أمكن الانسان ألا يفتح فمه فليفعل ، وعلى الأخص فيما يمس السياسة ، فلا تبد رأيك اطلاقا ، حتى ولو كنت من المخلصين « للينين » ، الصمت ، والصمت فقط هو النصيحة الذهبية فى هذه الأيام •

— لا يوجد اليوم أشد خطـرا على المرء من الصمت ، لأنك بصمتك تشير للمخابرات أنك تحاول اخفاء أمر سرى ، أو تريد عـدم اظهار أفكارك المعادية للنظـام ، وسوف يقودك هذا الى أن تصبح عندهم من أعداء الشعب ، فالأحسن فى الظروف الراهنة أن تكون نشطا ، ومتحدثا ، وداعيا بكل ما تملك للأفكار التى تنشرها جريدة برافدا •

— لا أحد يدرى ، على من يلقى القبض غـدا بتهمة « العـداء للشعب » !! لهذا يجب على المرء ألا يلقى التحية على أحد ، والأفضـل أن ينعزل ويعيش وحيدا •

— يجب على المرء الآن أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع الناس كلما أمكن ، وأن يتصرف بالضبط كما كان يفعل قبل ذلك ، لا يغير من أسلوبه شيئا ، حتى يظهر أن حركة التطهير لم تؤثر عليه ، اذ ليس أخطر على الانسان من أن يعزل نفسه فى حجرة صغيرة بعيدا عن أعين الناس •

— من أهم الأشياء الآن ، أن ينظم المرء مكتبته ، فكل الكتب التى يحتمل أن يكون فيها شىء لا يتفق مع الاتجاه السياسى ، يجب حرقها فورا •

— لا يوجد فى أشهر حركة التطهير هذه أخطـر من أن يضـع المرء ورقة فى النار ، لأن الجيران يلاحظـون هذا بسرعة ، فيؤول هـذا العمل ، بأن وثائق أحرقت ، فيتهم المرء تلقائيا بالخيانة ، فوجود عشرات الكتب المعـادية فى المكتبة أهون من القاء ورقة فى النار •

خرج المرء من هذه الآراء صفر اليدين ، لا يدرى ماذا يفعل ، ولم يختلف حال من أخذ برأى عمن أخذ بضده ، بل تسـاوت ظروف كل الناس جميعا ، من التزم الصمت فى غدوه ورواحه ، فصار أبكم مثـل السمك ، بمن رفع صوته فى مناسبة ، وغير مناسبة بترديد ما نشرته « برافدا » فى مقالها الافتتاحى • ووقع فى يد المخابرات العامة أولئك الذين انسحبوا من الميدان الاجتماعى ، واختفوا بسرعة ، بعد بدء حركة التطهير ، عملا بمبدأ الانعزال ، كما وقع فى أيديهم أيضا من التزم بأسلوبه السابق فى الحياة ، رغبة فى ايهام من يراقبه بأن حركة التطهير لم تؤثر عليه • وألقى القبض على من أحرق نصف كتبه — حتى الكتب التى لا غبار عليها — كماألقى القبض على الآخرين الذين لم يلقوا ورقة واحدة فى النار ، خوفا من اتهامهم بأنهم أحرقوا الوثائق • وجمـلة

القول ، لم يكن هناك تذكرة طبية « روشتة » للأبرياء ، تحدد لهم المسار الصحيح ، حتى يثبتوا للمخابرات بأنهم أبرياء حقا •

انتشرت شائعات فى بيت الطلبة مفادها أن ٩٩ فى المائة من المقبوض عليهم لم يرتكبوا اثما ، ولم يفعلوا شيئا ضد السلطة السوفييتية ولو ترك التحقيق يسير سيرا طبيعيا ، ما اعترف أحد بشىء مما نسب اليه • وسمعت آنذاك أن معظم القضايا استندت على أشياء تافهة ، لأن المخابرات العامة كانت تبحث عن أى شىء لتبرير القبض — ولو صوريا — كأن يتلقى المرء خطابا من الخارج ، أو يجلس فى المقهى الوطنى ويتصادف فى نفس الوقت أن يكون هناك أحد أعضاء السلك الدبيلوماسى الأجنبى ، حتى ولو كان على منضدة بعيدة عنه • أتخذ مثل هذه الأمور التى لا وزن لها أساسا ينبنى عليه اتهام متخيل بالاشتراك فى مؤامرة ضد « ستالين » •

كان موضوع حديث الذين لم يقبض عليهم بعد هو : هل ينبغى أن يمتنع المرء — باصرار — عن الاعتراف بجريمة ملفقة ، ويعارض التوقيع على أقوال لا أساس لها من الصحة ، أو يساعد المحقق فى حبك مثل هذه القصة ، ويوقع عليها حتى يظهر له — على الأقل — استعداده للتعاون معه •

اختلفت آراء من أعرفهم :

— أنا لم أفعل شيئا اطلاقا ضد السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ولذا — لو قبض على — لا أفكر فى الاعتراف بجريمة لم أرتكبها ، لن أقول شيئا ، ولن أوقع على شىء •

— ليس للقبض أدنى علاقة بمذنب أو غير مذنب ، فالامتناع عن القول لا يفيد أحدا ، بل بالعكس ، يكون سببا فى توقيع عقوبة قاسية — هكذا قال أحد المعارضين للرأى الأول — ، ولهذا سوف أفكر من الآن فى قصة يمكن تصديقها ، لأحكيها للمخابرات العامة — عندما أعتقل — كى أحصل على أخف عقوبة •

لم يكن قد مضى على هذا الحديث وقت طويل ، حين قابلت أحد الأصدقاء الذين يتمتعون بذكاء حاد ، فأخبرنى بأنه رأى أحد الذين قبضت عليهم المخابرات العامة— ولم يذكر اسمه — ثم أفرجت عنه ، وعلق على ذلك بقوله :

— أنا أعتقد أنى توصلت الى الحل ، وهو أنه يجب أن يفكر الانسان قبلها فى قصة ، هراء ، فى هراء ، وينظم أحداثها ، بحيث تقنع المحقق أنها اعتراف مقبول ، وفى الوقت نفسه تتضمن هذيانا ، بحيث يبدو عدم احتمال وقوعها عند التدقيق فيها .

— كيف تبدو هذه الاعترافات ؟

— لم أفكر فى قصة لنفسى ، اذ لم تزل بعد خواطر ، ولكن ذكر صديق لى بعض أمثلة فقد اعترف كيميائى أمام المحقق ، بأنه باع للمخابرات النازية معادلة كيميائية هامة . فسأله المحقق باهتمام عن نوعية المعادلة ، فكتب له : هـ٢ ، س و ٤ . وهنا اعتبر الاعتراف «هذيانا» .

« ألا تعرف ! لقد حكى لى أحد الأصدقاء ، أن كثيرا من أفراد جهاز المخابرات العامة المثقفين اعتقل ، ولهذا تتألف — فى غالب الأحيان — هيئة التحقيق من شباب الفلاحين ، الذين لا خبرة لهم . أتعرف قصة ميناء ليننجراد ؟

وحين أجبت بالنفى ، استمر فى حديثه :

« اعترف أحد المعتقلين ، بأنه اشترك فى مؤامرة خطيرة ضد الأسطول الحربى وذلك بأن اتفق مع آخرين بأن يقذفوه بالحجارة فى ميناء « كرون شتات » كى يتلفوا السفن الحربية ، والميناء الراسية فيه .

فقلت متعجبا : وماذا حدث له ؟

قال : حكم عليه بالسجن ثمانية أعوام ، ولو لم يعترف لحكم عليه بعشرة ، أو اثنتى عشر . لكنه تأكد أنه عند مراجعة الأحكام كلها — أى التى صدرت من هذه الدائرة — سوف يبرأ .

انقلبت موازين العقل ، واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ، اذ من المعروف أن الناس الذين يعيشون فى ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط ضدها ، يحاولون بشتى الطرق انكار هذا أمام المحقق — عندما يساقون بتهمة عـدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن فى الاتحاد السوفييتى يفكر المرء فى خلق قصة طويلة خيالية تدينه ، يقولها أمام المحقق اذا اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئا ضد نظام الحكم .

انتشرت الشائعات آنذاك ، كما هو الحال دائما فى مثل هـذه الظروف ، فتهامس الناس — متفائلين — بأن « يشوف » سيعزل من

منصبه قريبا ، وانتشرت شائعة أخرى فى شهر أكتوبر تقول : سيصدر عفو كبير فى ٧ نوفمبر ، بمناسبة مرور عشرين سنة على قيام الثورة فسوف يفرج عن جميع المعتقلين •

جاء يوم ٧ نوفمبر ، ولم يصدر عفو ، ولكن أفرج عن بعض مئات من المجرمين الذين لا علاقة لهم بالمحكوم عليهم سياسيا فى حركة التطهير ، كذلك لم يعزل « يشوف » من رئاسة جهاز المخابرات ، بل تلاشت هذه الشائعات ، فى ظل الثناء عليه ، والتمجيد به •

لم تختف الشائعات التى تحدثت عن مارشال « بلوشر » الذى كان يتولى قيادة المنطقة الشرقية • كنا قد سمعنا عنه فيما سبق أنه كان يتردد فى العشرينات على الصين ، وعمل مع « صن يات صن » القائد السابق للثورة الصينية ، وعندما أنشئت رتبة « المارشالية » كان هو واحدا من أول خمسة حصلوا عليها ، ثم تولى قيادة المنطقة المعروفة باسم « المنطقة العسكرية لاقليم الشرق الأقصى » ، وهو مركز هام • كان أحد أعضاء المحكمة التى أصدرت الحكم بالاعدام على المارشال « توخاتشفسكى » فى يونيو سنة ١٩٣٧م — هكذا يتهامس الناس الآن — ، ولكنه عاد الى الشرق الأقصى بسرعة • وبعد انتشار هذه الشائعة ، تلتها أخرى فقد قال لى أحد الأصدقاء :

— ان المارشال « بلوشر » غير راض على ما تقوم به المخابرات ، ولذا لم تمتد حركة التطهير الى الشرق الأقصى •

— ليس هناك اعتقال اطلاقا •

— يوجد اعتقال ، ولكنه فى حدود الظروف العادية ، فهو لم يأخذ الصورة التى نشاهدها نحن الآن هنا •

— ولكن ، هل يمكن هذا ؟

— ولم لا يكون ذلك ممكنا ؟ فهو — أى « بلوشر » يملك السلطة العليا هناك ، ولا يسمع بهذا فى منطقته ••• آه !! ليت المرء يستطيع السفر الى « فلاديفوستك » •

وتألقت عيناه لورود هذه الفكرة — ••• ولكنى أعتقد ، أن الأمر ينكشف قبل الرحيل بلحظة ، ويلقى القبض عليه •

حكيت هذه الشائعة بأسلوب جديد ، وأضيفت اليها أشياء أخرى :

قررت المخابرات العامة ، قبل بضعة أيام « القاء القبض على المارشال « بلوشر » الخارج على الطاعة ، فسافر قطار خاص ، ملىء

برجالها لهذا الغرض ، وبعد مجاوزتهم حدود منطقة الشرق الأقصى بمسافة قصيرة ، أحيط القطـار بقوات المـارشال « بلوشر » الخاصة ، يعززها سلاح المدفعية ، فاضطر رجال المخابرات العامة الى التسليم ، فاعتقلوا جميعا ، وهم الآن فى سجن « فلاديفوستك » • ثم يعقب الراوى بهذه الكلمة :

(دا ولد عظيم ! انه المـارشال بلوشر) •

ظننت آنذاك — ولم يصـل هذا الظن الى اعتقاد الا اليوم — أن هذه الشائعة ، كانت حلما من أحلام اليقظة التى تسيطر على أعصاب الناس ، وكان آخر شعاع من الأمل ، فى ظروف اليأس ، والقنوط • ولكن تلاشت أيضا هذه الشائعة ، حين تحدث الناس أن المـارشال « بلوشر » قد اعتقل ، واختفى كأن الأرض انشقت وابتلعته ، اذ لم يعد يذكر فى صحافة الاتحاد السوفييتى ، ولا فى اجتماعات الحزب •

استمرت حركة الاعتقالات دون توقف ، واستسلم الناس لقضائهم ، وقدرهم كما لو كان ذلك من الكوارث الطبيعية ، التى ليس فى الامكان تغييرها • وأكثر من هذا ، فقد تبادلوا فى هذا الوقت العصيب — ربما لأنهم رأوا أنه لا يمكن تجنب ما يقع ، مهما فعل المرء — الدعابات « النكات » :

تقابل اثنان — يدعى أحدهما « بول » والثانى « ايفان » من سكان موسكو فى شارع « جوركى » :

أ — كيف الحال يا « بول » ؟

ب — ماذا تتوقع أن يكون يا « ايفان » ! الحال واقف كما فى الأتوبيس •

أ — كما فى الأتوبيس ؟؟

ب — نعم ، كما فى الأتوبيس ، واحد فقط جالس ، والآخـرون يرتعدون •

كانت دعابة الساعة الرابعة صباحا منتشرة انتشارا واسعا ، وفى اسمها اشارة الى حركة الاعتقالات التى تتم غالبا فى هذا الوقت :

فى تمام الساعة الرابعة صباحا دق جرس أحد الشقق حيث يسكن خمس أسر ، فنهضوا كلهم مفزوعين من الفراش ، ولكن لم يجرؤ أحد أن يفتح الباب ، اذ وقفوا جميعا ، كل وراء باب حجرته ترتعد فرائصه ، وفقدوا السيطرة على أعصابهم •

ثم اشتد دق الجرس ، فتمالك أحدهم نفسه ، وفتح باب الشقة ، وسمعه باقى السكان يتكلم مع رجل عند الباب ، ولكنهم لم يفهموا الحديث ، وعندما لاحظ أنهم يستعجلونه الخبر التفت وراءه الى أحد الساكنين الذى لا زالت فرائصه ترتعد وقال له :

هدىء أعصابك ، فلم يحدث شىء اطلاقا •

(ما فيش حاجة غير أن البيت يحترق) •

* * *

الشـــكوك الأولى

لم أكن الوحيد فى بيت الطلبة الذى اعتقلت أمه ، فقد أخبـــر تلاميذ آخـــرون عن طريق الرسائل ، بأن آباءهم أو أمهاتهم اعتقلوا أيضـــا • انفكت عقدة الألسنة شيئا فشيئا ، فبدأ يعترف واحد بعـــد الآخـــر بأن أباه ، أو أمه ، ـــ أو كلاهما ـــ اعتقل •

ومن الغريب أننا كنا نتصرف ازاء هذه الظاهرة بطريقة متشابهة :

فقد عرف كل منا ، منذ وقت بعيد ، أن أباه ، أو أمه اعتقل بدون ذنب جناه ، ولكننا طبعنا بالطابع السوفييتى فى التربية ، لدرجة أننا لم نتأثر فى اصدار أحكامنا على الأحداث ، بما يلحقنا شخصيا ـــ حتى ولو أصابت آباءنا ـــ رغم تأكدنا من براءتهم •

لم يتأثر أحد منا ـــ وكنا عشرة اعتقل أحب الناس اليهم ـــ بما أصابه شخصيا من تعسف السلطات تأثرا يحوله الى معارضة النظام الحاكم • بل كنا نبتعد تلقائيا عن الأفكار التى تصـــور لنا ، أن حركة الاعتقالات الواسعة التى وقعت فى الفترة من ١٩٣٦ ـــ ١٩٣٨م تتعارض بطريق مباشر مع مبادئنا الاشتراكية ، ونحاول دائما ـــ آنذاك ـــ أن نبرر هذا العمل بأنه يتعلق فى حد ذاته بأسلوب اتخاذ اجراءات حتمية وهامة •

جلسنا ذات مساء معا ، فى بيت الطلبة نتجاذب أطراف الحديث ، وكانت معنا فتاة ، اعتقلت المخابرات العامة أباها ، وحكم عليه بعشر سنوات • بدأت الفتاة حديثها بقولها :

« أنا أعتقد أن المرء يمكنه شرح هذه المسألة بمثال : فلنتصور أن واحدا منا معه تفاحة واحدة ، وهو معتز بها لأنها الوحيدة ! ولكن يوجد فى هذه التفاحة جزء فاسد ، أو مسمم ، فاذا أراد انقاذ التفاحة ،

فهو مضطر الى قطع الجزءالفاسد ، أو المسمم ، كي يحتفظ بالباقى سليما • ولكى يتأكد من أن كل الأجزاء الفاسدة قد أبعدت ، فلابد من قطع بعض الأجزاء السليمة أيضا ، وربما ينطبق مثل هذا على حركة التطهير » •

وافقها تلميذ آخر وقال :

« من المؤكد أنه يوجد فى الاتحاد السوفييتى عدد من الجواسيس ، والعملاء ، والخونة ، وربما تعلم السلطات السوفييتية ذلك ، ولكنها لا تدرى بالضبط ، أين ؟ ومن ؟ • ولأجل أن تؤمن نفسها ، وتنقذ الدولة السوفييتية ، اضطرت — سواء كان ذلك محمودا أو مذموما — الى اعتقال بعض الأبرياء ، وهذا بلا شك ، يؤلم كثيرا من الأفراد ، ولكن لا ينظر اليه من ناحية العدالة ، بل يدور الأمر حول انقاذ الدولة الاشتراكية الوحيدة فى العالم !! » •

وقال الثالث :

« تتعلق المسألة أولا وأخيرا بقضية تاريخية ، لقد قرأت بعض الكتب عن الثورة الفرنسية ، وعلى الأخص ما كتب عن ديكتاتورية يعقوب(١) ، فقد وجد آنذاك قضايا ، وأحكاما بالاعدام ، ربما كانت — اذا نظرنا اليها من الناحية القانونية — غير سليمة ، ولكنها على الرغم من هذا أدت الى انتصار الثورة » •ولكنه — أى التلميذ — اصطدم بمعارضة حيث وجه اليه الحديث :

« هذا مثال خطير جدا ، ألم تضيق الديكتاتورية اليعقوبية الخناق على نفسها بقضاياها ، وعنفها الثورى ، فجرها الى نهايتها — أرادت أم لم ترد — ، مما ساعد على انتصار الثورة المضادة !! » •

استمرت المناقشات وقتا طويلا ، تتأرجح ذات اليمين ، وذات الشمال ، والكل يحاول توضيح حركة التطهير من « الناحية التاريخية » ، اذ كانت معلومات مجموعة « الكبار » فى بيت الطلبة واسعة ، لأنهم قرأوا كثيرا من الكتب ، وخاصة تلك التى كانت تعالج ظاهرة الديكتاتورية اليعقوبية فى فرنسا ، فقد كنا مهتمين بهذه الناحية اهتماما كبيرا ، لدرجة أنه كان يطلق علينا من باب الدعابة « جمعية عام ١٧٩٣م » •

---

(١) سياسى فرنسى ، كان عضوا بارزا فى الجمعية الثورية الفرنسية التى تكونت عام ١٧٩٣ م والتى حلت فى ١٧٩٤/١١/١١ م (م • شامة) •

كنت أتجول فى المساء مع أصدقائى — وغالبا ما كنا اثنين أو ثلاثة — على الشاطىء فى موسكو ، وكان الحديث يدور بحماس حول مشاكل الثورة الفرنسية ، ولكن لم توصلنا مناقشتنا الى نتيجة .

لا يستطيع الانسان الغربى أن يتصور صعوبة مناقشاتنا ، فقد كنا نعجز عن مواصلتها ، لأننا لا نقرأ سوى ما يكتب فى الصحافة عن قضايا الاتحاد السوفييتى ، لم نسمع صوتا واحدا معارضا ، بل لم نقرأ مرة واحدة ملاحظة نقد ، فلا نقرأ من الجرائد الا « برافدا » ، ولا من الكتب الا تلك التى تسير مع الخط الاشتراكى السوفييتى — وعلى هذا الأساس سمحوا بدخولها — وليس لدينا امكانية سماع الاذاعات الأجنبية ، حيث يسمع المرء تحليلات ، وآراء حول هذا الموضوع ، ولم نعلم أن كل الجرائد السيارة فى الخارج مهتمة بالقضاء ، وبالاعتقال الجماعى داخل الاتحاد السوفييتى ، وأن كثيرا من الكتب عالجت هذه الظاهرة ، وحللت النظريات المختلفة لهذه القضية . كنا ندور فى أفكارنا ، ومناقشاتنا حول أنفسنا ، وعلاوة على هذا ، لم نتكلم — حتى فى جلساتنا الخاصة التى لا تضم غير الأصدقاء — بصراحة ، بل أخذت أحاديثنا — بدون ارادة — طابع الرمز ، والاشارة .

حاولنا مرارا وتكرارا تبرير حركة التطهير حتى نحافظ على نظرتنا المثالية ، واعتقادنا فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه البلد الاشتراكى الوحيد . ربما — هكذا كنا نقول لأنفسنا — كانت هناك أسباب لا نعرفها حتمت على السلطة ، اجراء هذه المحاكمات ، وأجبرتها على تنفيذ تلك الاعتقالات الجماعية ، ويحتمل أن يكون المتهمون التزموا السلبية ، فلم يكونوا خونة ، ولا جواسيس ، بل أعاقوا « بدون قصد » تطور الاشتراكية .

ألم يتحدث « ماركس » نفسه عن القوة ، فوصفها بأنها العامل المساعد على ميلاد مجتمع جديد ؟ أليس ممكنا . أن بعض المقبوض عليهم كانوا حقيقة جواسيس ، وأنه يجب — طالما لم يكن هناك تقارير مضبوطة — أن تطهر كل الوزارات والمصالح ؟

وأخيرا ، ألم يتعلق الأمر بحماية الدولة الاشتراكية الوحيدة فى العالم ؟

كان بعضنا ينظر الى هذه الأحداث كحتمية تاريخية ، ربما

اقتضتها أسباب ضرورية لا نعرفها ، ولأهميتها البالغة لا يجوز لأحد من المسئولين كشف النقاب عنها واذاعتها •

وقع فى يدى — عن طريق الصدفة — فى ذلك الوقت الكتاب الذى هز العالم وقت نشره : « عشرة أيام » • ألفه الشيوعى الأمريكى : « جون ريد » ، وصف فيه أحداث ثورة نوفمبر ١٩١٧م التى شاهدها بنفسه فى « بتروجراد » (ليننجراد) • لاحظت متعجبا أنه لم يذكر فى هذا الكتاب اسم « ستالين » اطلاقا ، فى حين أنه ذكر كل أولئك الذين وصفوا فى هذه القضية بـ « الجواسيس » و « العملاء » على أنهم من قادة الثورة •

ثم قارنت ذلك مرة أخرى ، بما نشر فى الجرائد حول القضية •• لا !! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة •• لم يكن ممكنا عندى أن نفس الشيوعيين الذين قاموا بثورة أكتوبر ، واحتلوا مراكز القيادة فى الحزب منذ عام ١٩١٧م ، وقادوا الطبقة العاملة فى روسيا الى الانتصار على البورجوازيين ، والعملاء الأجانب ، وأشرفوا فى مراكزهم العليا على بناء الاشتراكية ، ليس من الممكن أن يقدم هؤلاء الآن ، على أنهم عملاء الاستعمار ، وجواسيس للقوى الأجنبية منذ العشرينات •

كلما طالت حركة الاعتقالات ، ازداد شكى فى دوافعها ، وتضاءلت ثقتى فى سلامة اجراءاتها • وكنت كل مساء أتأمل — وأفكر — فى الأحداث الجارية ، وأحاول البحث عن تفسير لها • أيقظتنى حركة التطهير ، فأصبحت أنظر الى بعض الأحداث نظرة انتقادية ، واهتزت عقيدتى بعض الشىء ، فهدأ حماسى ، ولكنها لم تكن كافية فى دفعى الى الكفر بالنظام الاشتراكى ، لأنها الشكوك الأولى ، ولم أكفر بنظام « ستالين » الا بعدها بعشر سنوات •

* * *

الاعتقال فى بيت الطلبة

كنا ذات يوم ربيعى جميل — كان فى مارس ١٩٣٨ م — مجموعة صغيرة ، اندمجت فى حديث شيق ، عقب تناول الغداء ، فبقينا فى صالة الطعام حتى خرج الجميع • وعندما تركنا الصالة مخترقين الردهة ، انفتح الباب الكبير ، ودخل منه رجلان بملابس مدنية ، ونزلوا السلم

الصغير بخطوات بطيئة • مال أحد الزملاء الى ، وأسر فى أذنى : رجال المخابرات !! ولم أكن محتاجا لهذه الاشارة ، فقد عرفتهم من أول نظرة •

فتح باب صالة المذاكرة لحظة دخولهم ، ودلف منه المشرف النمساوى « كارل زهتنر » — كان عضوا فى رابطة الدفاع الشيوعية فى النمسا — وبصحبته تلميذ الى الردهة ، فرأيا رجال المخابرات أيضا ، وسمعنا التلميذ يقول له مداعبا : آه !! احترس يا « كارل » فسيأخذوك ، فأجابه « كارل » : لا مكان للمداعبة فى مثل هذه الأشياء ! أنت تعلم بالتأكيد ، أن السلطة السوفييتية لا تلقى القبض على برىء ، وحاول أن يضغط على مخارج الحروف ، حتى لا تبدو مهتزة • توجه اليه رجلا المخابرات ، وقالا له : نحن نبحث عن « كارل زهتنر » فأجابهم بالروسية بصوت خافت ومرتعش : أنا كارل زهتنر ، فقالا له : « أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » •

لم يفتح « كارل » فمه ، وبدون أن يلتفت سار مع الرجلين الى الباب المؤدى الى الشارع ، ثم سمعنا صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت •

لو وقع هذا الحادث قبل بضعة أشهر ، لانفجرت بسببه موجات من المناقشة الحامية ، والأحاديث المستمرة التى لا تنقطع ، ولكنه الآن — فى بداية عام ١٩٣٨ م — لم يؤبه له ، حتى لم نعرف شيئا من المدير ، يزيح النقاب عن مسألة اعتقال « كارل زهتنر » ، بل سكت عنه ، ولم يذكر اسمه اطلاقا • والنتيجة الوحيدة التى تلت هذا الحادث ، هى أن البعض أخذ حذره ، فلم يتكلم بالصراحة التى كان يتحدث أو يناقش بها من قبل •

وقعت بعد أيام قليلة مشادة بين أكبر اثنين من التلاميذ فى عنبر النوم ، كانا يبلغان السابعة عشرة من العمر • قال أحد التلاميذ وهو يدخل عنبر النوم :

« هل سمعتم أن السيد / فلان قد قبض عليه ؟ هو ذلك الرجل الذى كنا نراه فى نادى العمال الأجانب • وحينئذ نهض أحد التلميذين بسرعة ، وذهب الى صالة المذاكرة ، ثم عاد وفى يده « نوتة » • فقال له زميله « رولف جايسلر » : ماذا تفعل ؟ •

أجابه : سترى حالا ماذا أفعل ! وأخذ قلما وشطب فى « نوتته » على اسم وعنوان الرجل الذى أخبر القادم بأنه اعتقل ، وظل يسطر عليه خطوطا حتى أصبح من المستحيل معرفته ، ثم تفحص الورقة ،

ولكنه لم يكن مطمئنا ، فأحضر شفرة حلاقة وقطع الورقة كلها وقال مبررا تصرفه : يجب على المرء أن يأخذ حذره •

فضحك « رولف » ضحكة استهزاء وقال :

أنت ضعيف الشخصية ، وجبان ، هل تسمى هذا شيوعيا ، أنا أحتقر كل حقير جبان مثلك • لن تكون فى يوم ما مكافحا اطلاقا •

فأجابه : ليس هذا جبنا اطلاقا ، بل هو مما يجب عمله لتكون حذرا ومتيقظا •

ثم اندلعت مشادة بين « رولف جايسلر » وبين ذلك التلميذ الخائف وفى النهاية صاح هذا التلميذ فى وجه صديقى « رولف » :

انتظر ! سوف نرى أينا سيقبض عليه أولا ، أنا أم أنت ؟ •

ثم رحنا فى النوم بعد هذا الحديث الذى لم يحدث مثله من قبل فى بيت الطلبة ، وفى الصباح الباكر — حوالى الساعة الرابعة — استيقظنا جميعا على دق شديد على باب عنبر النوم ، ثم دخل رجلان يرتديان الملابس المدنية الى العنبر ، كما لو كانا من أصحاب البيت ، ووراءهما المشرفة الليلية ، يبدو على وجهها الخوف والارتباك ، ثم نادى أحد الرجلين بصوت عال : « أين رولف جايسلر » ؟

فأجاب « رولف » وهو فى سكرات النوم :

نعم ، أنا هنا ، وعندما رأى الرجلين ، أعاد اجابته باللغة الروسية ، ثم سمعت الجملة المعهودة للمرة الثانية :

« أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » وأردف صاحب الصوت قائلا : أين حاجتك ؟

أشـــار « رولف » الى صندوق بجوار السرير ، فســـأله رجل المخابرات : هل عندك سلاح ؟

فتدخلت المشرفة : ولكن أيها الرفيق ، هذا بيت يسكنه تلاميذ !

فرد عليها رجل المخابرات :

لم نسألك ! ثم التفت الى « رولف » : هل عندك سلاح ؟

فأجاب « رولف » : لا ! •

فقال رجل المخابرات : حسنا ! احزم أشياءك ، ولكن ضع أولا كل ما عندك من كتب ، وكراسات وأوراق على هذه المنضدة !

طار النوم فى هذه اللحظة من أعيننا ، وانتبهت أعصابنا ، فسرى الرعب فى كل خلية فينا ، عندما سمعنا الجملة الأخيرة ، لأننا لعبنا

بالأمس — فنحن لا زلنا أطفالا — لعبة التصوير ، والتلوين بالأوراق ، وكان أحدنا عبقريا فى فن الكتابة والزخرفة ، فرسم لنا خاتما من الشمع ، بداخله علامة بريد خيالية ، وصورة عملة نقدية خيالية أيضا ثم عمل أوراق كثيرة للعب ..

وضع « رولف » كل هذا على المنضدة ، وفى هذه اللحظة فكر كل منا ، أن رجال المخابرات لن يهتموا اطلاقا بأوراق اللعب هذه ، لأنها لا قيمة لها ، ولا يمكن أن يفكروا فى أنهم اكتشفوا رموزا لجهاز سرى .

وقع ما لم نتوقعه ، فعندما وضع « رولف » الخاتم وكروت اللعب على المنضدة ، انتبه رجلا المخابرات ، وبدا على وجهيهما ما يدل على أنهما فهما أن هذه الأشياء — التى لعب بها الأطفال أمس — تدل على أسرار خطيرة .

انتهى « رولف » من ارتداء ملابسه ، ثم وضع بعض الملابس الداخلية فى حقيبته الصغيرة ، فقال له أحد الرجلين :

يجب أن توقع على كل ورقة قبل أن تذهب .

وقع « رولف جايسلر » على كل خطاباته ، وكراريسه ، ونوته ، ثم جاء الدور على ورق اللعب ، فحاول أحد التلاميذ أن يبين أن هذه أوراق لعب : أيها الرفيق ! هذه ....

فالتفت اليه أحد الرجلين قائلا :

لم نسألك .. لا يفتح أحد هنا فمه . ثم انتهت الاجراءات بعد دقائق ، واقتيد « رولف » ، ومرة أخرى سمعنا — بعد أن أغلق الباب — صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت .

اجتاحت البلد فى هذه الآونة — أى عندما امتدت حركة الاعتقالات الى بيت الطلبة — من جديد حمى قضية كبرى ، وكانت هذه المرة ضد ما أطلق عليه « كتلة المناوئين للاتحاد السوفييتى من اليمينيين ، والمتظاهرين بالشيوعية من أنصار تروتسكى » . فاقت هذه القضية كل ما سبقها ، سواء فى عدد المتهمين ، أو فى كثرة التهم ، الموجهة اليهم .

كان على رأس المتهمين المخطط الادارى المشهور للحزب « نيكولاى بوخارين » ، وهو عضو اللجنة المركزية ، والمكتب السياسى منذ عام ١٩١٧ ، ورئيس تحرير جريدة برافدا . كذلك وقف معه على رأس المتهمين البلشفى القديم « ريكوف » كان المسئول عن الشئون الداخلية ، فى أول حكومة عسكرية بعد ثورة نوفمبر عام ١٩١٧ ، ثم تولى رئاسة

الهيئة التنفيذية الشعبية فى الاتحاد السوفييتى بعد موت « لينين » ، وظل سنوات طويلة عضوا للجنة العليا لاتحاد الأحزاب الشيوعية العالمية • بدأ نجم « ريكوف » يأفل بعد أن تولى « ستالين » السلطة ، اذ أبعد تدريجيا عن المناصب الهامة حتى وصل الى رئاسة شئون البريد والتلغراف ، ثم أعفى من هذا المنصب فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ م ، دون ابداء أى سبب ، ولم يسمع عنه أحد شيئا منذ ذلك الحين •

ان من الأمور التى يعجز العقل عن ادراكها أن يجلس فى قفص الاتهام « ياجودا » الذى تولى منصب وزير الداخلية ، ورئيس المخابرات العامة سنوات طويلة ، وكان رئيسا لمجلس الأمن القومى • أعفى من تلك المناصب الهامة فى خريف عام ١٩٣٦ م ، وتولى شئون البريد والتلغراف خلفا لـ« ريكوف » ، وكان هذا آخر محطة له فى سلم المناصب ، ومقدمة لاعتقاله ، ففى ابريل عام ١٩٣٧ م أعلن تنحيته من وزارة البريد ، وعندما نشر خبر صغير فى منتصف مايو ، يفيد رفع اسم « ياجودا » من على كوبرى السكة الحديد المقام بين « فولوتشايفسك » ، وبين « كومسومولسك » أصبح واضحا أن « ياجودا » وزير الداخلية ، وقائد المخابرات ورئيس مجلس الأمن القومى سابقا ، اقتيد الى المعتقل عن طريق وزارة البريد • ثم نراه الآن — فى مارس عام ١٩٣٨ م — مرة أخرى فى قفص الاتهام •

جلس مع هاتين الشخصيتين فى مقاعد المتهمين ثلاثة وزراء سابقين ، وثلاثة من أمهر ، وأشهر الأطباء السوفييت ، من بينهم البروفيسور « بليتنوف » الذى اتهم فى يونية عام ١٩٣٧ م بهتك عرض مواطنة سوفييتية وعضها فى ثدييها ، ولكن لم تذكر هذه الحادثة فى قائمة اتهامه ، بل وجه اليه أنه اشترك مع الأساتذة الأطباء : « ليفين » و « كازاكوف » ، بأمر من « ياجودا » ، فى قتل الشاعر « مكسيم جوركى » ، ورئيس المخابرات السابق « مينشينسكى » ، وعضو المكتب السياسى « كيروف » • كذلك تجاوزت الاتهامات الأخرى الموجهة اليهم الحدود الزمنية للقضية السابقة — قضية هتك عرض المواطنة السوفييتية المزعوم — حيث ادعوا عليهم — ليس فقط الأطباء ، بل جميع المتهمين — أنهم دبروا فى عام ١٩١٨ م مؤامرة ضد « لينين » ، وأنهم يتجسسون منذ أول العشرينات لحساب دول أجنبية ، وبالذات مع ألمانيا الهتلرية ، بغية اقتطاع منطقة أوكرانيا عن الاتحاد السوفييتى ، وضمها الى ألمانيا ،

ومع اليابان ، لتمكينها من أخذ المناطق الساحلية فى الشرق الأقصى •
ولم تنته قائمة الاتهامات عند هذا الحد ، بل وجه اليهم أيضا أنهم حاولوا تحقيق أهداف معينة ، وهى تسليم المناطق المتاخمة لبولندا اليها ، وفصل الجمهوريات السوفييتية فى آسيا الوسطى — وهى جورجيا ، وأرمينية ، وأذربيجان — لتمكين بريطانيا منها ، وتفتيت أوصال الاتحاد السوفييتى ، ليعود الاقطاع والرأسمالية الى السيطرة على السلطة فيه مرة أخرى •

لم تكتف السلطات بهذه الاتهامات ، فوجهت اليهم أيضا تهمة التآمر لتخريب المصانع الحربية ، وتدبير فتنة بين قواد القطاعات العسكرية • ووجه الى « تشيرنوف » — وكان وزيرا للزراعة لفترة طويلة — أنه أفسد الجهاز الذى يتولى الاشراف على تربية الخيول ، مما سبب فى موت ٢٥٠٠٠ حصانا ، وأمر بحقن الخنازير ، فانتشرت فيها مرض الحمرة ، والطاعون • كذلك انخفض توريد البيض الى موسكو ، وساءت خدمة تجهيز الزبدة ، فوجد الناس فيها زجاجا ومسامير •

لم توجه الى هؤلاء البلشفيين القدامى ، ورفقاء « لينين » فى الكفاح تهمة الاتصال بالمخابرات الأجنبية التى تعمل لحساب اليابان فقط ، بل وجهت الى وزير الداخلية ، ورئيس مجلس الأمن القومى السابق تهمة الاتصال بألمانيا ، وبولندا ، واليابان أيضا ، والى وزير الخارجية السابق « روزينجولس » ، أنه كان منذ عام ١٩٢٣ م عميلا للمخابرات الألمانية ، ومنذ عام ١٩٢٦ م اتصل أيضا بالمخابرات الأمريكية • أما « راكوفسكى » رئيس حكومة أوكرانيا السابق فقد ذكر الادعاء أنه يعمل لحساب المخابرات الانجليزية منذ عام ١٩٢٤ م ، ولحساب المخابرات اليابانية منذ عام ١٩٣٤ م • كذلك اتهم وزير المالية السابق « جرينكو » بأنه يعمل لحساب المخابرات الألمانية ، والبولندية معا منذ عام ١٩٣٢ م •

فرضت ضخامة الادعاء ، وكثرتها أسلوبا معينا على وسائل الاعلام ، فانطلقت الأبواق الدعائية تصفهم بأوصاف لم تسمع من قبل ، فلم يطلق « فيشينسكى » على المتهمين الأوصاف المعهودة فقط مثل : « عصابة الجواسيس المجرمين » ، بل سماهم أيضا : « فقس الأفاعى الملعون » ، و « أكوام متعفنة من فضلات الانسان » كذلك وصف « فيشينسكى » المتهم الرئيسى « بوخارين » — وكان « لينين » يسميه

« ابن الحزب البار » — بـ« الخنزير الملعون » ثم طالب فى آخر مقاله بأن يرمى هؤلاء بالرصاص ، كالكلاب المسعورة .

نظمت المظاهرات — كعادتهم ازاء أى حدث — ضد المتهمين ، وانعقدت المؤتمرات مطالبة برؤوسهم ، وازداد كل يوم اصدار البيانات — التى أعدت من قبل فى صيغ تكاد تكون متقاربة — التى تطالب باسم الجماهير بالاسراع باعدام أعداء الشعب . ونشرت الصحف صور المتظاهرين وهم يرفعون أيديهم ، مؤيدين الاجراءات التى اتخذتها السلطات ضد المتهمين .

أذيعت الأحكام رسميا فى ١٥ مارس ١٩٣٨ م فحكم على زعماء الحزب ، وقادة السلطة السابقين « كريستينسكى » و « ياجودا » و « بوخـــارين » و « جرينكو » و « ريكــوف » و « تشيرنوف » و « روزينجولس » ، وعلى طبيبين هما « كاساكوف » و « ليفين » ، وبعض المتهمين الآخرين بالاعدام ، وعلى كل من رئيس حكومة أوكرانيا السابق « راكوفسكى » والبرفيسور « بليتنوف » بالسجن عشرين عاما .

لم يسر برنامج الحصص فى اليوم التالى كعادته ، بل سقط منه درسان . تناولنا فى الزمن المخصص لهما دراسة القضية ، والأحكام التى صدرت فيها . بدأت المدرسة بافتتاح المناقشة ، واعتمدت فيما قالته — وهو من الأمور المسلم بها — على ما نشرته « برافدا » فى مقالها الافتتاحى ، ثم طلبت — وهو ما حدث فى جميع قطاعات الشعب فى هذا اليوم — أن نبدى رأينا فى هذه القضية .

كانت نتيجة المناقشة معروفة ، ومحددة قبل أن نبدأ فيها ، اذ تحدث التلاميذ واحدا بعد الآخر مستعملين أقوال الرسميين التى يرددها كل فرد لاظهار استنكاره مما ارتكبه هؤلاء « الجناة الخونة » . ثم وجه كل منهم فى كلمته شكره العميق لجهاز الأمن وأعضاء المحكمة على مجهودهم فى تنقية الشعب من هذه « القذارة » .

ثم قالت المدرسة :

هل يرغب أحد فى ابداء ملاحظات أخرى ؟ فصاح أحد التلاميذ من الصفوف الخلفية :

« نعم أريد أن أضيف الى هذا ، أننى لست موافقا على بعض أحكام هذه القضية » .

انكمش كل التلاميذ من الخوف ، والتفتوا الى التلميذ ، ينظرون اليه نظرة اشفاق ، لأنهم اعتقدوا أنه قضى على حياته بهذه الكلمة وسأل معظم التلاميذ أنفسهم : هل أصابه جنون ؟ هل اختل عقله ، فصار لا يدرك خطورة ما يقول ؟

اضطربت المدرسة ، وبدا عليها الخوف أكثر منا ، لأنها مسئولة عما يحدث فى هذه المناقشة ، وحاولت بأسلوب خفى أن تمنع التلميذ من الكلام ، ولكنها تخلت عن هذه المحاولة ، ربما أدركت فى هذه اللحظة ، أنها لو منعته ، لوجه اليها اتهام التستر على « تلميذ من أعداء الشعب » •

واصل التلميذ حديثه :

« لقد تتبعت القضية بدقة من أولها ، وأوافق على أن يرمى بالرصاص هؤلاء الجواسيس المخربون أعداء الشعب ، ولكن بصراحة ، لا أفهم اطلاقا : لماذا لم يحكم على ثلاثةمن المتهمين بالاعدام ، بل حكم عليهم بالسجن • خمس عشرة سنة أو عشرين سنة • كان ينبغى أن يضرب بالرصاص كل من ••• » •

تحدث التلميذ — وهو من الأذكياء ، وأحد المتفوقين فى الفصل — بحماس بالغ ، كما لو كان معتقدا من قلبه فى صدق أحداث هذه القضية •

تنفست المدرسة الصعداء ، فعاد اليها بعض الاطمئنان ، فهو وان ابتعد فى اعتراضه عن منطقة الهلاك الا أنه — نسبيا — خطير أيضا • ثم لخصت ما دار فى المناقشة ، ولم تنس أن توجه الحديث الى هذا التلميذ المتحمس قائلة :

« لقد أشار الرفيق « فيشينسكى » الى أن مسئولية المتهمين فى القضية لم تكن متساوية ، ولهذا صدرت الأحكام على كل بحسب ما اقترف • كذلك ليس من حقنا أن نوجه النقد الى قرار المحكمة العليا فى الاتحاد السوفييتى التى أصدرت أحكامها بعد دراسة طويلة ، وفحص شامل ودقيق • وأحب أن أشير هنا الى أن الاختلاف فى الأحكام ، طبقا لاختلاف الاثم الذى ارتكبه المتهمون ، دليل على عدالة القضاء عندنا فى الاتحاد السوفييتى •

* * *

معاهدة هتلر ــ ستالين

لم تتوقف حركة الاعتقالات بانتهاء هذه القضية ــ كانت احدى ثلاث قضايا كبرى شغلت الرأى العام فى فترة التطهير من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٨ م ، فقد ازدادت مرة أخرى موجة الاعتقالات الجماعية فى خريف عام ١٩٣٨ م واستمرت حامية الوطيس بضعة أسابيع ، ثم نشر فى آخر هذا العام خبر صغير فى « برافدا » يعلن تنحية وزير الداخلية « يشوف » من منصبه وتعيين « بيريا » مكانه •

انتهت أفظع حركة ابادة ، اذ لم توجد مصلحة ، ولا هيئة حكومية ، لم يتعرض العاملون بها أكثر من مرة لحركة اعتقال واسعة النطاق • أرسل الملايين ــ ومن بينهم آلاف من المختصين فى الفروع المختلفة ، الذين بلغوا هذه الدرجة بشق الأنفس ــ الى معسكرات العمل فى سيبريا ، وكازاخستان ، أو فى الشرق الأقصى •

ارتفع عدد الضحايا بنوع خاص فى صفوف البلشفيين القدامى ، وقواد الحرب الأهلية ، فقد اعتقل كل رفقاء « لينين » تقريبا ، الذين قاموا معه بالثورة • كان أعضاء المكتب السياسى فى عهد « لينين » سبعة ، انتحر « تومسكى » فى نهاية عام ١٩٣٦ م ــ أى عند بداية حركة التطهير ــ ، وأعدم رميا بالرصاص فى سجن المخابرات العامة أثناء فترة حركة التطهير كــلا من « سينوفييف » و « كامينييف » و « ريكوف » • ثم اغتيل « تروتسكى » فى صيف عام ١٩٤٠ م فى منفاه بالمكسيك ، على يد أحد رجال المخابرات السوفييتية ، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى « ستالين » •

وكذلك أعدمت المخابرات العامة كلا من « بوخارين » و « بياتاكوف » اللذين وصفهما « لينين » فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى وصيته المكتوبة بأنهما من أكثر شباب الجيل الجديد مهارة ، اذ يتمتعان بذكاء خارق •

كان أعضاء اللجنة المركزية العليا للحزب الشيوعى فى عام ١٩١٧ م واحدا وعشرين عضوا ، اختفى منهم فى حركة التطهير ستة عشرة ، اعتقلوا وأعدموا بالرصاص ، أما الباقون فقد مات ثلاثة منهم قبل التطهير موتا طبيعيا وامتد عمر اثنين فقط الى ما بعد التطهير وهما « ستالين » و « الكسندر كوللونتاى » •

لم يكن عدد الضحايا قليلا بين قواد الجيش ، فقد سقط ثلاثة

مارشالات — من الخمسة الذين كانوا آنذاك فى الجيش — ضحايا حركة التطهير وهم : « توخاتشفسكى » و « بلوشر » و « ييجوروف » • وأخذ معهم جنرالات الصف الأول المعروفين فى الجيش الأحمر • كذلك انتحر رئيس الادارة السياسية للجيش ، ووكيل وزارة الدفاع ، وهو « جرمانك » •

لم تنحصر موجة الاعتقالات فى أصحاب المناصب العليا فقط ، بل امتدت الى كل ركن من أركان الجمهوريات السوفييتية المختلفة ، وارتفع العدد ارتفاعا رهيبا فى المناطق الشرقية ، وفى منظمات الحزب ، وخاصة الأعضاء العاملين ، اذ اعتقل كل البلشفيين القدامى — ما عدا أفراد قليلين جدا — الذين ناضلوا ضد القيصرية قبل الثورة الشيوعية ، ودخلوا السجون آنذاك ، أو عاشوا فى المنفى • ألقت سلطات الحكم فى عهد القيصرية بهم فى السجون ، أو نفتهم الى خارج البلاد ، وهاهم الآن يعودون الى السجن مرة أخرى ، لكن سجانهم فى هذه المرة هم رفقاء النضال فى المرة السابقة •

اضطهد الشيوعيون الأجانب الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى اضطهادا عنيفا ، فقد اعتقل فى مدى شهور قليلة من قادة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ما يزيد — فى عددهم — على ما اعتقلته جميع الحكومات الأخرى من مواطنيها الشيوعيين ، وتملأ كتابة أسماءهم فقط عشرات الصفحات •

أريد أن أذكر هنا بعض أسماء قادة الحزب الشيوعى الألمانى الذين راحوا ضحية حركة التطهير : « هيرمان شوبارت » و « أوجست كريتسبرج » و « فيللى ليون » و « هيرمان ريميل » و « هوجو ايبرلاين » و « هانز كيبينبرجر » •

ولحق بهم فى مصيرهم : « فيرنر هيرش » رئيس تحرير مجلة : « العلم الأحمر » السابق ، و « فيللى كوسكا » الأمين الاول للجنة الرعاية الطبية الحمراء[1] فى ألمانيا ، و « كورت زاورلاند » رئيس تحرير مجلة التعمير الأحمر و « روتر أوفباو » كذلك اعتقل معهم مئات من الشيوعيين الألمان ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا فى الاتحاد السوفييتى ملجأ يحتمون فيه من اضطهاد النازية •

---

(١) أطلق الشيوعيون عليها هذا الاسم بدلا من الصليب الأحمر ، لأنهم لا يعترفون بالكنيسة ، وما يتصل بها • (م • شامة) •

توقفت حركة التطهير الدموية فجأة فى أواخر عام ١٩٣٨ م ، أو أوائل العام التالى ، كما بدأت فجأة قبل عامين • وأتذكر اليوم متعجبا ، كيف اتجه الناس فى موسكو — وأنا أيضا — بسرعة الى تناسى جميع صور الرعب ، التى كتمت أنفاسهم طول هذه المدة ، فقد قاسينا كثيرا فى هذه الشهور المرعبة ، التى أماتت شعورنا ، وقضت على حواسنا البشرية • كذلك اختفت الاشاعات والمناقشات — حول ما يجب على المرء عمله حتى ينجو — بسرعة كما ظهرت قبل عامين • وان ظهرت بين الحين والآخر فى الأحاديث اشارات قليلة ذكرت بالتطهير • وبدت هذه الاشارات كما لو كان الانسان يتحدث عن حوادث تاريخية قديمة مضى عليها قرون طويلة •

قضينا صيف عام ١٩٣٩ م فى مدينة « يجسـك » على بحر « أسوفش » ضيوفا على أكاديمية عسكرية كبرى ، وكنا نرى العسكريين وعلى رأسـهم قـلانس مكتوب عليـها (W.M.A.U. imoni Stalon) ومعناه « مدرسة الأسطول الحربى للسلاح الجوى » وكانت مدرسة فخمة جدا فسكان المدينة — كلهم تقريبا — كانوا ضباط وجنود السلاح الجوى البحرى •

نزلنا فى بعض أبنية جميلة خارج المدينة ، لم تكن قريبة من الشاطىء ولهذا وضعت المدرسة البحرية أتوبيسا تحت تصرفنا لينقلنا يوميا الى الشاطىء صباحا ويعود بنا فى المساء الى مقر اقامتنا •

استمتعنا بهذه الرحلة استمتاعا أزال عنا ما خلفته أعوام التطهير السوداء ، فهدأت أعصابنا ، ولكن لم نتحرر التحرر الكامل من مشاكل الحيـاة •

كنا نعد أنفسنا فى أيام الرحلة لدخول مدرسة منظمة الشباب الشيوعى ، وذلك بعقد اجتماع كل يومين بعد الظهر مع المرشد السياسى « اجور سبيرامسكى » لتثقيفنا سياسيا • وليس من الأمور الصعبة معرفة الموضوعات التى تناولها معنا ، اذ لم تكن سوى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، فقد نشر فيه كتاب فى خريف عام ١٩٣٨ م ، درسنا معه هذا الكتاب صفحة صفحة ، وكانت المرة الثانية لى ، فقد قرأته قبل ذلك • (قرر علينا فيما بعد ، فدرسته للمرة الثالثة) •

وجهت الينا الدعوة فى منتصف أغسطس لحضور حفلة فى قصر

الثقافة الكبير التابع للمدرسة البحرية ، ودارت المحاضرة التى ألقيت فى هذه الليلة حول الوضع العالمى ــ كما كانت العادة آنذاك ــ فاشتملت على هجوم عنيف ضد الفاشية ، وألمــانيا الهتلرية وكان مما قال المحاضر حرفيــا :

« أيها الرفيقات والرفقاء ! يوجد معنا فى هذه الصالة ضيوف أجانب هم أبناء المناهضين للفاشية من الألمــانيين والنمسويين ، الذين كافحوا ضد ديكتاتورية « هتلر » الطاغية » • التفت الحاضرون الينا ، وأصبحنا منذ ذلك الوقت أعلاما فى هذه المدينة • كنا سعداء ، وكانت تلك الفترة حلما جميلا فى حياتنا ، فمضيفوننا يزوروننا ، ويسألون عما نحتاج اليه ، وعما اذا كنا مسرورين بهذه الاقامة • ذكرتنا هذه الحفاوة البالغة بالأوقات السعيدة التى قضيناها فى حفاوة الهيئات السوفييتية فى بداية اقامتنا فى الاتحاد السوفييتى •

مرت ثلاثة أيام على هذا الاحتفال يوم استدعى المشرف السياسى الى الذهاب الى المدينة ــ ظهرا ــ لأنه مطلوب على التليفون فقال لنا :

« سافروا بهدوء الى الشاطىء ، واستمتعوا بالسباحة ، وسأعود اليكم فى المساء ، فالمسألة لا تعدو أنى مطلوب على التليفون •

فسألناه : ماذا حدث ؟

ــ لا أدرى ! لا أعتقد أنه شىء مهم •

ذهبنا للسباحة ، يحدونا النشاط ، ويملؤنا السرور •

ولم يمض نصف ساعة حين عاد الينا المشرف السياسى مضطربا ونادى بصوت عال :

ــ أخبار مهمة جدا ، لقد أحضرت معى الملحق الخاص للجريدة الصباحية •

سألناه بصوت واحد : ماذا حدث ؟

ــ لقد عقدنا معاهدة عدم اعتداء مع ألمــانيا •

نظرنا اليه بأفواه فاغرة ، فقد كنا نتوقع كل شىء الا هذا ! تابعنا ــ قبل ذلك ــ الصحافة ، وما تقوله وسائل الاعلام الأخرى باهتمام شديد ، وكنا متأكدين أن المحادثات مع الغرب ــ على الرغم من تعثرها وتعقدها ــ ستؤدى الى عقد تحالف مع انجلترا وفرنسا ضد المعتدين الفاشيين •

قرأ المشرف السياسى أمامنا — بصوت عال ، يبدو على نغماته الرضا ، بما توصلت اليه حكومته ! — نصوص المعاهدة بين الاتحـــاد السوفييتى وألمـــانيا الهتلرية • فاعتقدنا بعد سماع المقدمة أن الأمر لا يعدو التزام الطرفين بعدم الاعتداء على بعضهما ، ثم واصل « اجور » قراءته ، فأصابنا الذهول جين قرأ :

« تستمر حكومتا الطرفين المتعاقدين فى الاتصال ببعضهما ، لتبادل المعلومات حول مصالحهما المشتركة ، ويؤكد كل من الطرفين المتعاقدين أنه لن يشترك فى حلف يكون موجها — بطريق مباشر أو غير مباشر — ضد الطرف الآخر » •

لم يكن هذا — بالتأكيد — معاهدة عدم اعتداء فقط ، بل تغييرا جذريا لسياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية برمتها ! تبادل معلومات حول « المصالح المشتركة » مع نظام هتلر ؟ عدم المشاركة فى أى حلف يكون موجها ضد هتلر ؟ لن يكون هذا سوى رفض نهائى لكل صور المقاومة للاعتداء الفاشستى !!

جلسنا — كمالو كنا قد أصابتنا صاعقة — صامتين ، لا نستطيع حراكا ، ثم قطع الصمت أصغر التلاميذ وهو « اجون ديرن باخر » فقال بنبرة حزينة :

« وا أسفاه ! لن يسمح لنا بمشاهدة فيلم شابلن « الدكتاتور » •

فهم هذا التلميذ الصغير الظروف فهما دقيقا ، اذ سرعان ما أثرت هذه المعاهدة — كما رأينا فى الأيام التالية — على السياسة الداخلية •

لم يعقد اجتماع لاجراء مناقشة حول هذا الموضوع ، لأنه لم يوجد أحد — حتى المشرف السياسى — يستطيع أن يعطى تفسيرا لهذه المعاهدة •

حاول المشرف السياسى تهدئتنا فقـــال :

« ان من المؤكد أن تنشر الصحافة غدا تفسيرا مفصلا وواضحا ومع ذلك فسوف أسافر غدا الى مقر الحزب فى « جيسك » ، ثم أبلغكم بتقرير مفصل ، ثم نتناقش فى مساء الغد بالتفصيل فى كل صغيرة وكبيرة •

هذا اذا لم يحدث شىء آخر يبدد خططنا المرسومة !!!

* * *

حل بيت الطلبة

أيقظنا المشرف السـباسى فى الصباح الباكر لليوم التالى لعقد المعاهدة وقـال :

ــ لقد وصلت توا برقية لاسلكية من موسكو ، تطلب عودتنا فورا

ــ حالا ؟ اليوم ؟

ــ نعم ، لقد أخبرت بهذا بعد أن استفسرت بوضوح ، وسنتحرك بعد ساعتين الى موسكو عن طريق « رستوف » .

استولى الحزن علينا فى القطار ، ولعبت بأفكارنا الهواجس ، ودارت فى أذهاننا أسئلة لم تجد اجابة : ما معنى هذه العودة الفجائية ؟ على أى نحو سوف تتشكل حياتنا بعد أن عقد الاتحاد السوفييتى معاهدة مع ألمـانيا الهتلرية ؟

انتظرنا بفارغ الصبر وصولنا الى موسكو لنقف على حقيقة هذا التغيير ، وآثار ذلك بالنسبة لنا ، ولم نحتج الى الانتظار طويلا ، فقد قابلنا بعض زملائنا الذين قضوا اجازاتهم فى مكان آخر وعادوا بسرعة قبلنا ، على محطة السكة الحديد وصاحوا فى وجوهنا : لقد حل مسكننا !!

لم يوجد خبر آخر هزنى وأظلم الدنيا أمام عينى مثل هذا الخبر .

مسكننا ؟ لقد كان كل شىء بالنسبة لنا : فهو مأوانا ، وحياتنا وحامينا وصديقنا ! والآن ! يختفى بين يوم وليلة !

وقفنا فى مفترق الطرق ، لا نستطيع أن نتصور ما يخبئه المستقبل لنـا !

ــ ماذا يفعلون بنا ؟

ــ لا نعرف شيئا حتى الآن ، سوف يتقرر ذلك بعد الظهر .

سافرنا ــ بقلوب منقبضة ــ من المحطة الى بيت الطلبة فى المبنى رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » ، فرأينا أساسه مبعثرا ، كما لو كان مخلفات معركة ، انتهت قبل ثوان ، وعمال نقل الأثاث والنقاشين وعمال السباكة يتنقلون هنا وهناك ، هذا يحزم الأمتعة وآخر يصلح هذه أو تلك . أما أمتعتنا الشخصية فقد جمعت ، وألقيت فى احدى الصالات ،

ولاحظنا أن بعض زملائنا قد حزم أمتعته ، واستعد للرحيل ، ولكنهم لا يعرفون الى أين ؟ أما الآخرون فمشوا من حجرة الى أخرى ، فاقدين الوعى ، يرزحون تحت عبء ألقى عليهم من حيث لا يدرون ، ولا يعرفون طريقا للخلاص منه .

سوف يعقد اجتماع ! أين ، ومتى ؟ لا أحد يعرف مصيرنا بالضبط ! لم يجب المشرفون على استفساراتنا الا بهز الأكتاف ثم يقولون :

« لا نعرف شيئا ، فنحن وأنتم سواء فى الجهل بما سيتخذ بالنسبة لكم ، وعلى كل فالناظر فى مقابلة الآن مع المسئولين » .

وعندما عاد الناظر نادوا جميع التلاميذ :

« تعالوا الى الصالة الكبرى ، سيبدأ الاجتماع بعد لحظات » .

اختلف هذا الاجتماع عن الاجتماعات السابقة ، اذ اختفت منه جميع مظاهر التكريم ، والتبجيل ، فجلسنا على صناديق وأكياس ، وبعضنا وقف مستندا على الحائط .

بدأ الاجتماع — كما هو العادة — بكلمة سياسية ، ثم « شرح » لنا الناظر المعاهدة ، فأشار الى أن القــوى الغربية رفضت المحادثات على أساس المساواة بين الأطراف كلها ، لأنهم أرادوا استغلال الاتحاد السوفييتى لخدمة مصالح الاستعمار الغربى ، وفهم « ستالين » العظيم هذه اللعبة ، فقرر معاهدة مع ألمــانيا تتيح للاتحاد السوفييتى أن يعيش فى سلام ويواصل التشييد والبناء .

ثم جاء دور الكلام عن بيت الطلبة فقال : « ونشــأ عن السياسة الخارجية الجديدة ادخال بعض التعديلات فى الأنظمة » .

انطوى مسح بيت الطلبة ، من الوجود بهــذه السرعة تحت هذا التعبير « بعض التعديلات فى الأنظمة » . ثم بين الاتجاهات الجديدة باختصار ، وبعبارات تنم عن القســوة ، والشعور باللامبالاة ، فلم يبذل أدنى جهد لتهيئتنا من الناحية النفسية ، لتقبل التغييرات الجديدة ، فأحسست تلقائيا بأننا « مسحنا » من الوجود .

ثم واصل حديثه :

سيرسل التلاميذ الذين لم يتجاوزوا الفرقة السابعة اليوم بعد الظهر الى بيت الطلبة الروسى المعروف باسم « سبارتاك » أما التلاميذ

الأكبر سنا فيمكنهم الذهاب الى احدى المؤسسات التى ترعى شئون الايواء (الملاجىء) ، ومن يريد منهم مواصلة التعـليم حتى الثانوية العامة يرسلون مع الصغار الى بيوت يعيشون فيها مع التلاميذ الروس ، ويجب عليهم أن يخضعوا هناك للتعليمات التى تسرى على غيرهم من تلاميذ الاتحاد السوفييتى •

انتهت كل التعليمات فى مدى نصف ساعة ، ثم أرسل فى نفس اليوم أربعون تلميذا الى بيت الطلبة « سبارتاك » • لم يبدو من الناحية الظاهرية اختلاف كبير بينه وبين بيتنا القديم ، فالمبنى جميل وان كان أصغر من بيتنا السابق •

دخلنا المنزل الجديد بخطى متباطئة ، ثم سمعنا صوتا ينادى :

« ادخلوا جميعا بسرعة الى الصالة » • بدت اللهجة شـديدة ، لم نتعودها ، فوقفنا مذهولين فى الصالة ، ثم دخل رجل فارع الطول ذو شعر أسود ، ووجه صارم ، فقال بلهجة أشد من سابقتها :

« اصطفوا فى صف واحد » فأطعنا الأمر ونحن خانعون ، ثم نزلت علينا الأوامر ، كما لو كانت هراوات تسقط بشدة على أكتافنا : « لا يجوز لأحد مغادرة المنزل الا بتصريح من المشرف • ويجب أن تعمل الواجبات المدرسية تحت رعاية المشرف ، كما يجب عليكم أن تلتزموا بتنفيذ قواعد وأنظمة المنزل ، فالتدخين ممنوع منعا باتا ، حتى فى فناء المنزل ، وينبغى على المدخنين أن يسلموا فورا ما معهم من سجائر ، ومن لا يفعل الآن ، سينزل به أقصى العقوبات فيما بعد » •

كانت أعمارنا تتراوح بين سبعة عشر وتسعة عشر عاما ، ويملك بعضنا — وأنا منهم — علب سجاير فى جيبه ، فقد كان مسموحا للكبار منا فى مسكننا السابق بالتدخين •

ثم أردف مهددا :

« أدعوكم مرة أخرى ، سلموا السجاير التى معكم طوعا ، فمن لم يفعل هذا الآن ، ينتظر العقاب الصارم فيما بعد » •

تقدم أحدنا فسلم ما معه من السجاير ، ثم تبعه الآخرون مكرهين واحدا بعد الآخر •

ثم أرسلنا الى الأماكن التى سوف ننام فيها •• انزعجنا عنـدما

رأينا صالة النوم ، فقد صفت فيها سراير بدائية حقيرة ، لا يفصلها عن بعضها الا مسافة ضيقة جدا ، وهنا بان لنا أن الاختلاف بين هذا المنزل وبين بيتنا السابق كبير جدا • وقلت لنفسى — لو اطلعت على هذه الأفكار المخابرات العامة لاعتبرتها مناوئة للسلطة :

« من المسلم به أن الوفود الأجنبية لا تأتى هنا ، فزيارة مثل هذا البيت لا توضع فى برنامجهم » •

حان موعد العشاء ، وليس من الضرورى القول بأنه كان سيئا !!

لم يضايقنى التغيير فيما يتعلق بالماديات ، بقدر ما ضايقنى الحجر على حريتى الشخصية •• بأن أخضع خضوعا كاملا لهذه الأنظمة فلا يسمح لى بأن أتجول فترة قصيرة للترويح عن النفس الا بتصريح خاص !! وشاركنى فى هذا كل التلاميذ ، لدرجة أنهم كادوا يذرفون الدموع •

قال أحدهم شاكيا :

« ما أردأ هذا المنزل ، فهو يختلف اختلافا كليا عن بيتنا السابق ، لم أكن أتصور اطلاقا أن الفرق بين بيتنا وبين بيوت الطلبة الروس كبيرا الى هذا الحد » •

كتبنا فى مذكراتنا :

« آخر أغسطس ١٩٣٩م ، استمر بيت الطلبة رقم ٦ — وكان مأوى أطفال مناضلى رابطة الدفاع النمسوية ، وأطفال الألمانيين اللاجئين الى الاتحاد السوفييتى — خمسة أعوام تقريبا — قضيت فيه منها ثلاث سنوات — ، تعرفنا فى هذه المدة على الاتحاد السوفييتى ، ولكن من نظرة جانبية لشباب يافع ، عاش فى مسكن مجهز بأدوات الراحة ، لم يشعر بمتاعب الحياة اليومية ، فاق مستواه المعيشى مستوى الطبقة المتوسطة فى الاتحاد السوفييتى ، فنحن وان كنا عاصرنا سنوات التطهير القاسية ، الا أننا لم نكتو بنارها ، مثل أولئك الذين كانوا يعملون فى مؤسسات ، أو تنظيمات أخرى •

انتهت الآن كل هذه الامتيازات ، اذ بدلت معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية أسلوب حياتنا ، فألغى بيت الطلبة رقم ٦ ، وطردنا منه ، وتحولت حياتنا بين يوم وليلة الى حياة انسان سوفييتى عادى •

ان من يرى حالتنا الآن ، لا يمكن أن يصدق أننا قبل اسبوعين كنا نستعمل أتوبيسا خاصا تابعا للأكاديمية العسكرية فى الذهاب الى الشاطىء والعودة منه ، وأن مئات من الضباط أقاموا لنا حفـــلا كبيرا ، امتلأ بالعواطف ، والمشاعر عبروا بها عن تقديرهم لآبائنا الذين كافحـــوا فى سبيل الاشتراكية .

لعل هذه الأحداث تبين للقارىء العربى أن الأحداث السياسية تشغل حيزا كبيرا فى مجال الحياة فى الاتحاد السوفييتى — وبالتالى ستأخذ صفحات هذا الكتاب — ، وتوضح له مدى تأثيرها على حياة الفرد الخاصة ، وكيف يتوقع المرء خلاف هذا فى بلد تقتحم فيه الأحداث السياسية مجال الحياة الخاصـــة مباشرة ؟ ، فقد قاسيت أكبر حركة اعتقالات وأنا فى سن الرابعة عشرة ، كانت أمى احدى ضحاياها .

ولمـــا بلغت الخامسة عشرة شاهدت اعتقال المدرسين والمشرفين ، وقرأت أخبار القضايا السياسية ، والهجوم العنيف على شخصيات ، كانت الصحافة تتحدث عنهم قبل بضعة أشهر على أنهم نماذج وأمثلة ينبغى الاقتداء بها .

وفى سن السادسة عشرة رأيت بعينى ، كيف قبض رجال المخابرات العامة على تلميذ من زملائى فى بيت الطلبة ، واقتادوه من عنبر النوم .

ثم فى سن السابعة عشرة والنصف تبين لى أن مصير بيت الطلبة الذى كان مأوانا الوحيد ، تحكمت فيه معاهدة — نشـــأت عن تغيير فى اتجاه السياسة الخارجية — مع قوى عظمى أخرى .

* * *

الباب الثاني

حياتي كطالب سوفيتي

قال لي مدير بيت الطلبة بنبرة حادة :

« لو وجدت عملا في ظرف خمسة أيام ، أو قبلت في أي مدرسة تدبر لك مأوى ، فلن يكون هنـــاك اعتراض على تركك بيت الطــلبة « سبارتاك » ، والا فستظل هنا ، ويجب أن تلتزم — مثلك في هذا مثل الآخرين كلهم — باتباع جميع لوائحنا » •

وكان قراري بيني وبين نفسي :

لن أمكث في « سبارتاك » مهما كانت الظروف ، فهو بيت تخيم عليه الكآبة ، ولابد أن أخرج منه • لأني أشعر فيه وكأني أرتدي رداء يكتم أنفاسي •

وهكذا بدأت البحث عن مدرسة ، تقبل من أتم دراسة الفصل التاسع (الاعدادية) ، ويمكن أن تعطيني منحة دراسة ، وتهيء لي مكانا للاقامة •

* * *

الدروس التجهيزية المنقذة

اتجهت الى مدرسة للمعلمين في موسكو ، تتخذ لها مبنى قديما قرب محطة مترو الأنفاق « كيروفسكايا » ، ملتمسا قبولي فيها ، فكان ردهم علي : « لا نستطيع قبول أحد اليوم ، لأن العدد كاملا في هذه الدورة ، ولكن لدينا قائمة انتظار لمن يلتحقون في شهر أغسطس ، يمكنك أن تسجل اسمك فيها » •

وحين قدمت لهم شهادتي التي توضح بأني طالب ممتاز قالوا لي : « ربما نستطيع أن نستثنيك ، مر علينا بعد غد » •

بعد غد ! كان هذا آخر يوم يحدده ناظر المدرسة •

مررت في طريق عودتي من المدرسة على المسكن الجميل الذي

كنت أسكن فيه فى « كلاشنى » ، وكان قد تحـــول آنذاك الى مأوى لأطفال سوفييت ، الا حجرتين تركوهما لسكنى بعض الشباب النمسويين والألمـــانيين الذين لم يستطيعوا تدبير مأوى آخر لهم ، وقد قيل لى يوما أننى أستطيع الاقامة معهم مؤقتا ، اذا لم أحصل فى المدرسة التى قبلت فيها على مكان للنوم •

طلع نهار اليوم الخامس ، الذى سوف يتقرر فيه مصيرى •• دخلت مبنى مدرسة المعلمين متوتر الأعصاب ، فقال لى الموظف :

« بناء على بحث مسألتك ، قررنا قبولك » •

أردت شكره ، والشعور بالسرور يملأ جوانحى ، وكيف لا ، فقد أحسست بأنى أصبحت فعلا طالبا فى المدرسة ، وتخلصت من « سبارتاك » ، ولكن هذا الاحساس كان سابقا لأوانه ، اذ سمعت كلمات تدق فى أذنى :

« انتظر أسبوعا على الأقل ، حتى تنتهى الاجراءات ، وبعـــدها يمكن أن تأخذ تصديقا من المدرسة بأنك قبلت للدراسة فيها » •

« أسبوع آخـــر ! لا أستطيع أن أنتظر هذا الوقت الطويل ، ألا يمكن أن يوافق المدير اليوم على قبولى ؟ فأنا مضطر أن آخذ شيئا فى يدى ! ورقة رسمية تثبت قبولى ! لأن فى هذه الورقة انقاذى » •

« هل تريد أن تلتحق بدورة دراسية تجهيزية ؟ اذا وافقت فيمكن قبولك فى هذه اللحظة ، ولكن سوف تضيع عليك سنة » •

بدت لى الأمور فى هذه اللحظة متساوية ، لم أهتم بشىء سوى الابتعاد عن بيت الطلبة الروس • لم أعرف بالضبط فائدة هذه الدورة التجهيزية ، وكان عندما سمعت أنه يمكن قبولى فى هذه اللحظة ، لم أتردد فى الموافقة ، لأن كل شىء يهون فى سبيل خروجى من بيت الطلبة •

ولم تمض بضع دقائق حتى كنت أمسك فى يدى تصديقا فيه أن الزميل « وولف جانج ليونهارد » تلميذ فى الدورة الدراسية التجهيزية فى مدرسة المعلمين للغات الأجنبية فى موسكو •

غادرت المدرسة وأنا أطير فرحا • وبعد نصف ساعة كنت فى بيت الطلبة « سبارتاك » ، وبعد وصولى ببرهة قصيرة كنت أقف أمام المدير ، حاول أن يكون لطيفا معى ، لدرجة أنه هنأنى على قبولى بمدرسة المعلمين •

ثم ودعنى أصدقائى ، من الألمــانيين والنمسويين ، أصدقاء بيت الطلبة السابق رقم ٦ ، الذين قضيت معهم أعواما طويلة ، وكانوا قد حولوا معى أيضا الى بيت الطلبة الروسى « سبارتاك » • تمنوا لى الخير كما فعل المدير ، ولكن كان فى كلماتهم حرارة ووضوح على عكس ما كان فى كلمات المدير من برود وتكلف •

وهكذا بدأت حياتى فى صيف عام ١٩٣٩م طالبا فى القسم التجهيزى فى معهد المعلمين للغات الأجنبية فى موسكو •

كانت الدورات التجهيزية — التى تستغرق عاما — بالنســبة للمعاهد العليا آنذاك منتشرة فى الاتحاد السوفييتى ، وكان الغرض منها تجهيز الشــباب لمعهد عال معين ، وتمكين الطــلبة الراغبين فى الالتحاق بتلك المعاهد من الالمــام بالعلوم التى يريدون التخصص فيها ، ويؤدى الطالب امتحانا فى آخر العام يكون بمثابة امتحان قبول فى المعهد الذى يرغب الالتحاق به • وبناء على قبولى بهذه الدورة ، فقــد كنت متأكدا أننى بعد سنة — أى فى صيف عام ١٩٤٠م — سوف ألتحق بمعهد المعلمين للغات الأجنبية الذى يسمى « موليــا » •

لم تكن الدروس صباحية فى مبنى المعهد ، بل بعد الظــهر — وفى المساء — فى حجرات احدى المدارس فى وسط موسكو • وعلى الرغم من أننا كنا — تقريبا — طلبة ، الا أن الدراسة فى هذه الدورة التجهيزية كانت تشبه الى حد بعيد الدراسة المدرسية • فالبرنامج الدراسى يســير بالضبط كما فى المدرســة ، حصص مقررة كما فى المدارس ، أعمال فى الفصــل ، حل تمارين ، وواجب منزلى — وكان يرصد لنا درجات على هذه الأعمال • وأثقل كاهلنا بالاختبارات الكثيرة ، كما هى العادة فى كل المدارس السوفييتية • كان أكثر من نصف الوقت الدراسى مخصصا للغة الانجليزية ، وكنا ندرس بجانبها مواد فرعية مثل : اللغة الروسية ، والأدب الروسى ، والتاريخ • وكنت مسرورا بهذا المنهج ، لأنى تحررت من دراسة الرياضة والطبيعة والكيمياء ، فقــد أعطانى هذا فرصة للتركيز على المواد الأدبية التى أهتم بها •

يتقدم المرء فى الدورة التجهيزية بأسلوب دراسى منظم وشامل ، الا أنه بطىء جدا ، ففى الثلاثة أو الأربعة شهور الأولى من الســنة تتركز الدراسة كلية على الصوتيات ، لأنهم يهتمون بالنطق اهتمــاما

كبيرا • كتبت كل قواعد الاملاء بالطريقة الصوتية العالية ، فكرسنا وقتا طويلا لنطق العلامات الصوتية ، وكان يجب علينا أن نتمرن أمام المرآة لنتبين بالضبط مواقع اللسان وحركات الفك عند النطق • ولم نبدأ فى لغة الكتابة الانجليزية بألفها وبائها الا فى بداية النصف الثانى من العام •

ربما تبدو هذه الطريقة التعليمية مملة للمفكر فى أوربا الغربية ، ولكن لها محاسن ، ذلك أن الدارس عندما يبدأ قراءة النص الانجليزى يكون لديه قدرة على اتباع القواعد الصحيحة — عموما — فى نطق اللغة ومما لا شك فيه أن هذا هو الطريق الوحيد لتعليم اللغات الأجنبية فى بلد نادرا ما يسمع فيه المرء اذاعة انجليزية ، أو يرى فيه أفلاما أمريكية أو انجليزية ، وما يوجد من الكتب الأمريكية أو الانجليزية فقليل ، ومن الأمور التى ينبغى ألا تخفى على القارىء أن المواطن الروسى أو المقيم اقامة دائمة مثلى ليس لديه اطلاقا امكانية التحدث مع زائرين أمريكيين أو انجليز ، ولهذا كانت طريقة تعليم اللغة الانجليزية التى شرحتها آنفا هى التى تتناسب مع الحياة السوفييتية •

اهتممت كثيرا بدراسة مادة التاريخ — وفضلتها على المواد الأخرى — التى تغيرت فى كثير من أبحاثها ، ومنهجها ، بعد عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا ، فقبل عام واحد كان انتصار « ألكسندر نيوسكس » على جمعية المحاربين الألمان فى معركة « بحيرة بايبوس » فى أبريل سنة ١٢٤٢م حديث فخر واعتزاز ، وحدث هام فى التاريخ الروسى ، أما الآن — بعد توقيع المعاهدة مع ألمانيا — فلا تذكر هذه المعركة الا فى جملة أو جملتين ، وقفز الى مكان الصدارة فى دراسة التاريخ القاء الضوء على المغزى التاريخى لسياسة بطرس الأكبر الخارجية ، فقد انتهج سياسة مساندة قيام الدولة البروسية فى عام ١٧٠١م ، وبهذه المساندة وضع الحجر الأساسى للتعاون بين ألمانيا البروسية وروسيا ، ذلك التعاون الذى يعود اليوم الى الظهور مرة أخرى ••• ثم يلى هذا التحليل الوصف المعهود للمعنى التاريخى للمعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا •

كذلك لم يكن التغيير بعد المعاهدة خافيا فى المجالات الأخرى ، ففى مكتبة الأدب الأجنبى ، والمنشورات الدورية الاجنبية ، اختفت

الجرائد والمجلات التى يصدرها الهاربون من الحكم النازى وحلت محلها الصحف النازية • ورفع من المكتبة روايات كتبها لاجئون سياسيون لتصوير طغيان النازية • ولم يعد المرء يسمع كلمة « الفاشية » فى الاتحاد السوفييتى اطلاقا ، وكأن لم تكن — ولم توجد من قبل — فاشية على الاطلاق •

تغيرت السياسة الداخلية أيضا تغييرا مفاجئا ، فغيرت مسارها — بزاوية حادة — بعد عقد المعاهدة ، ففى مساء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩م رفعت من دور العرض كل الأفلام السوفييتية التى تعارض الفاشية مثل فيلم « بروفيسور مملوك » و « أسرة أوبنهايم » وهو عن قصة كتبها « ليون فيوشت فاجنر » • كذلك رفع فى نفس المساء كل المسرحيات التى تضمنت اتجاها مضادا للفاشية ، مثل مسرحية : « بحارة من جتارو » على الرغم من أن أحداثها تدور حول ثورة البحارة فى عام ١٩١٨م وكانت ضد الحكم الملكى فى النمسا والمجر ، الا أن الرقابة على المسرح احتاطت أكثر مما يجب ، فمنعتها خوفا من أن يغفل المشاهد تاريخ أحداثها •

عندما بدأ الهجوم الهتلرى على بولندا فى الحرب العالمية الثانية — وكان ذلك فى أول سبتمبر ١٩٣٩م — انطلقت الدعاية السوفييتية معبرة عن الرأى الرسمى للحكومة تحلل وجهة نظرها فى هذه الحرب :

تدور المسألة حول حرب امبريالية من كلا الجانبين ، وقد نجح الاتحاد السوفييتى أن يقف على الحياد فى هذه الحرب ، طبقا لسياسته الخارجية التى تتسم بالعبقرية وبعد النظر •

ثم انتشرت بعد أيام قليلة أول حكاية هزلية ، فى اطار الدعاية السوفييتية :

— هل سمعت عن نهضتنا الجديدة فى انتاج الطائرات ؟

— لا ! كيف ؟

— سقط أمس متحطما فوق أوربا الغربية اثنتا عشر طائرة انجليزية، وثمانى طائرات ألمانية •

— ولكن ،ما علاقة هذا بانتاجنا فى الطائرات ؟

— هذا واضح جدا ، فسقوط هذا العدد عندهم ، معناه ارتفاع فى عدد ما عندنا •

وبعد ما انهارت بولندا كلها تقريبا أمام جيوش هتلر ، أعلنت وسائل الدعاية عن دخول قوات سوفييتية أرض بولندا • ثم عقدت فى نفس اليوم اجتماعات جماهيرية فى كل مكان — وبالطبع فى معهدنا أيضا — شرحت فيها الاجراءات التى اتخذتها الحكومة السوفييتية لحماية حياة وممتلكات اخواننا فى الدم ، شعوب غرب أوكرانيا ، والأجزاء الغربية من روسيا البيضاء • كان هذا هو السبب الذى أعلنه المتحدث الرسمى لدخول قوات سوفييتية أرض بولندا ، ونسوا أن الاتحاد السوفييتى أعلن قبل بضعة أسابيع — بل أكد ذلك تأكيدا — أنه سيحمى بولندا من أى هجوم يفكر فيه هتلر ، وسيدافع عنها •

أوشكت القوات الألمانية على اتمام غزو بولندا فى ٢٨ سبتمبر يوم أن أعلن أنه بالاضافة الى معاهدة عدم الاعتداء التى عقدت مع ألمانيا ، فقد تم الآن عقد معاهدة صداقة ، بعد ما اتفق على الحدود الجديدة فى المنطقة التى كانت تسمى قبل ذلك بولندا • ظلت سياسة الحزب الرسمية — حتى بعد عقد معاهدة الصداقة — تدور حول تفسيرها السابق ، وهو أن المسألة تتعلق بحرب امبريالية من كلا الجانبين •

لقد علمتنا التجارب منذ أمد طويل ، ودربتنا الأحداث على أن نمعن النظر فيما يقال ، ونفكر تفكيرا دقيقا فى كل اشارة — مهما كانت صغيرة — تظهر فى الجرائد ، أو تذاع فى وسائل الاعلام المسموعة ، ولهذا لم يكن فى الامكان أن يغيب عنا أن تقارير وزارة الدفاع الألمانية تكون دائما فى المقدمة ، سواء فى الاذاعة أم فى الصحافة ، أما بيانات انجلترا وفرنسا عن سير المعارك فتأتى فى المرتبة الثانية • كذلك كانت المساحات التى تشغلها خطب « هتلر » فى جريدة « برافدا » أكثر من المساحات التى تحظى بها الفقرات المنشورة من خطب « تشرشل » • ولهذا لم يكن من الصعب علينا أن نتبين انحياز الدعاية الرسمية لهتلر وأن ميولها تميل الى جانبه أكثر مما هى الى جانب القوى الغربية •

***

فى الكمسومول

غرس أسلوب السياسة الخارجية فى نفسى الشك فى بعض الظواهر فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن لم يهز بعد موقفى كلية من

الأعماق ، ولهذا لم أتردد فى أن أحاول فى هـذه الفترة الالتحـاق « بالكمسمول » (منظمة الشباب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى) • لقد تمنيت مخلصـا أن أكون عضـوا فى هذه المنظمة (أى أن أكون كمسموليا) ، لأنى قرأت كثيرا عن أعضائها ، وعن أعمالهم البطولية فى الثورة ، وفى الحرب الأهلية ، واطلعت على ما قاموا به من جهد خارق فى الخطة الخمسية الأولى • ومن الأعمال التى أثرت فى نفسى أكثر من غيرها كتاب « نيكولاى أوستروفسكى » وهو بعنوان « كيف اخشوشن الصلب » وهى قصة الشباب السوفييتى فى المنظمة ، أثرت على كثير منهم ، كانوا يقرأونها كلما اعتراهم شك ، فتخلق فيهم الثقة بالنفس ، وتبعث فيهم قوة جديدة ، وتبث فيهم طاقة وحيوية •

كان « الكمسمول » آنذاك يستعد للاحتفال بمرور ٢١ عاما على انشائه ، ففى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلن فى أول مؤتمر روسى عام لشباب العمال والفلاحين ارتباطه الكلى بالحزب الشيوعى ، وأطلق عليه منذ ذلك الوقت « منظمة الشباب الشيوعى فى روسيا » • ثم عرف بالاسم المختصر « كمسمول » •

تعتبر سنوات الحرب الأهلية فترة شاعت فيها قصص البطولات التى قام بها أعضـاء المنظمة ، وهى فى الوقت نفسه فترة النمو الهائل فى عدد الأعضـاء ، اذ ارتفع من ٢٢ر٠٠٠ عند تكوينها فى نوفمبر سنة ١٩١٨م الى ٤٠٠ر٠٠٠ عضو فى بداية عام ١٩٢٠ م • لم تكن « كمسمول » آنذاك مؤسسة سياسية توجهها قيادات عليا فى الحزب ، بل كانت اتحادا ثوريا للشباب يموج بتيارات معارضة متعددة الاتجاهات داخـل تنظيماته فقد قام فى عامى ٢٠/١٩٢١م فى « كمسمول » أوكرانيا جبهة معارضة دعت الى تأسيس منظمة شباب خاصة بها تتمتع بالاستقلال عن موسكو ، واستند هذا التيار المعارض الى ما كان يسمى « بورت بيستن » ، وهى مجموعة يمينية داخل الحزب البولشفى الأوكرانى ، كانت تنادى بتطبيق أسلوب اشتراكى خاص بأوكرانيا ، يكون مستقلا عن موسكو • وأهم من هذه الجبهة وأخطر منها كان هناك تيار آخـر فى « الكمسمول » يسمى نفسه « شباب الاقتصاد » ارتكن الى جبهة العمال المعارضة • عارض هذا الاتجاه الزيادة المطردة لمركزية الاقتصاد وأجهزة الدولة ، ووقف ضد قيادة المؤسسات الاشتراكية بواسطة المديرين الذين تعينهم الدولة ، فطالبت بأن تكون الادارة من داخل مواقع العمل ، على معنى

أن يتولى العاملون فى المؤسسة ادارتها ، اذ ينبغى أن تكون ادارة المؤسسات الاشتراكية لهيئة مجلس عمالى منتخب ، يكون نشاطه منسقا على مستوى عال مع مجلس انتاج منتخب • وهذا المشروع يشبه فى كثير من جوانبه نظام مجالس العمال الذى طبق فى يوغسلافيا بعد ربع قرن عندما تصدعت العلاقات مع موسكو •

وصفت هذه التيارات المعارضة بأنها انحراف خطير ، ولذا جرى تصفيتها بالقضاء عليها ، ولم يعد لها ذكر اليوم على الاطلاق •

ازداد عدد المنضمين الى المنظمة بسرعة كبيرة بعد موت « لينين » فى يناير سنة ١٩٢٤م ، اذ وصل عدد أعضائها فى أكتوبر سنة ١٩٢٤م ٧٠٠ر٠٠٠ عضو ، وارتفع فى مايو سنة ١٩٢٨م الى ٢ مليون ، ولكن أعضاءها فقدوا الحماس الثورى ، اذ قضت السلطات العليا فى الحزب على حركتهم التى فاضت حيوية ، وأوقفت تياراتهم المتدفقة ، وأماتت الأفكار البناءة فازداد خضوعها للحزب ، ووضحت هذه الاجراءات بنوع خاص بعدما قال « ستالين » : « ان منظمة الشباب هى الساعد الأيمن للحزب ، وأداته فى تنفيذ ما يريد » •

دبت الحياة مرة أخرى فى « الكمسمول » ، فاندفع بقوة فى خضم الحياة السوفييتية ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٨م عندما بدأت الخطة الخمسية الأولى ، اذ تسابق أعضاؤها — تماما كما كان فى الحرب الأهلية — الى المشاركة فى تنفيذها ، بذلوا كل ما عندهم من طاقة وجهد ، فاشترك عشرات الآلاف منهم فى بناء المصانع الضخمة فى « ستالينجراد »، وفى « دنيبير » وفى « أورال » و « سيبيريا » بل انهم بنوا مدينة بأكملها فى الشرق الأقصى ، ولذا أطلقوا عليهم اسم « كمسموليسك » تكريما لهم •

كان « الكمسمول » فى منتصف الثلاثينات — وكان عدد أعضائها آنذاك ٤ مليون تقريبا — تجتاز نقطة تحول ، شأنها فى ذلك شأن المؤسسات الأخرى ، فقد تغير أسلوب تنظيماتها جوهرا وعرضا ، فبعد أن كانت انعكاسا للثورية فى حياة « لينين » ، استبدلت بآخر ، حيث احتلت أفكار الثورة ، والنظرة العالمية ، والكفاح من أجل ظلم كل الشعوب — حيثما كانت — المكان الخلفى ، وتقدمت أفكار اقليمية مثل حب الوطن السوفييتى ، والولاء للدولة ، والحفاظ على نظامها •

لم يعد الولاء للاشتراكية ، ولا الحرص عليها ودراسة تاريخها من المقومات التى يعول عليها فى الالتحاق « بالكمسمول » بل أصبح الفيصل فى هذا الولاء للنظام القائم ، والحرص على مساندته وتدعيمه •

اهتم النظام التربوى فى « الكمسمول » على التثقيف السياسى ، والرياضة البدنية والتدريب العسكرى وبجانب هذا دراسات أدبيـــة ، وحفلات موسيقية ، وحفلات رقص •

كتب على شباب المنظمة ألا ينعمـوا بهذه الحياة طويلا ، اذ بدأت بعد وقت قصير حملة التطهير الكبرى التى امتدت من سنة ١٩٣٦ ، حتى سنة ١٩٣٨م ولم تسلم « الكمسمول » منها ، بل أثرت فيها تأثيرا مدمرا • فلم يسلم منها « كوساريف » الذى تقلد منصب الأمين العام « للكمسمول » سنوات عدة فقد انضم هذا الشاب — الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ٣٥ عاما — الى « الكمسمول » بعد انشائها مباشرة فى عام ١٩١٨م ، واشترك وهو شاب لم يتجاوز من العمر ١٦ عاما بصفته عضوا فى المنظمة فى الدفاع عن « بيتروجراد » ثم اشترك فى جبهة القتال المتقدمة ، وبعد رجوعه اختير أمينا لحى « باومان » فى موسكو ، ثم أمينا لرابطة موسكو ، ومنذ مارس ١٩٢٩م يحتل قمة « الكمسمول » كأمين أول لها •

وجه اليه البوليس السرى قبل نهاية حركة التطهير بقليل ضربة قاضية ، فاتهم « كوساريف » ومساعديه المقربين اليه بأنهم مخادعون ، ومنافقون ، ومنحلون أخلاقيا ، قاموا بأعمال ضد مصالح الشعب ، وذلك بمسخ ، وطمس أهداف « الكمسمول » •

كانت حركة التطهير قد انتهت عندما التحقت « بالكمسمول » فى عام ١٩٣٩م وكان عددها آنذاك ٩ مليون عضوا • وقبل أن ألتحق بها بعام بدأت فى اعداد نفسى سياسيا لامتحان القبول ، فدرست نظامها ولوائحها الدستورية ، وقرأت أهم ما كتبه « لينين » و « ستالين » ، وألممت — بالطبع — بتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى وعندما شعرت بالقدرة على اجتياز الامتحان ، كتبت طلبا وأرسلته الى الجهة المسئولة ، والمكلفة بتلقى طلبات الالتحاق ، وشرحت فى هذا الطلب — كما هو متبع — سبب الرغبة فى الالتحاق ، وعللت ذلك بدوافع سياسية •

وبعد بضعة أسابيع كنت أجلس فى حجرة هادئة ، يحيط بى

مجموعة من شباب المنظمة الروسيين ، فحصونى بنظراتهم من أم رأسى الى أخمص قدمى ، ثم قال الأمين : أمامنا الآن طلب الالتحاق المقدم من الزميل « ليونهارد » ، وهو معروض عليكم لدراسته واتخاذ قرار بشأنه ، ثم قرأ الطلب أمامهم ، وبعد الانتهاء من قراءته ، ساد الصمت ، وشعرت كما لو كنت فى لجنة من لجان الامتحانات المدرسية ، ثم استمر الأمين فى حديثه قائلا : وكما هو متبع فان من الأحسن أن يقص علينـــا الزميل « ليونهارد » تاريخ حياته ، وأرجو من الزملاء أن ينصتوا جيدا ، ثم يوجهون أسئلتهم فى نهاية حديثه •

كتب على أن أروى للشباب الروسى بصوت رخيم بين المقاطع ، شيئا من حياتى غير العادية • دارت بخاطرى أفكار شدتنى الى ما قبل سنتين فقط ، وقلت لنفسى ، لو تقدمت بطلب الالتحاق قبل ذلك بعامين لرفض طلبى بالتأكيد ، اذ لا يوجد أحد فى منظمة الشباب ، له من الشجاعة ما يدفعه الى تزكية طلب الالتحاق من شاب نفى فى أيام طفولته من ألمـــانيا واعتقل جهاز أمن الدولة فى وزارة الداخلية السوفييتية أمه • أما الآن فى خريف عام ١٩٣٩م فالوضع — مهما كانت الظروف — متغير تماما • طردت هذه الأفكار وبدأت فى سرد تاريخ حياتى دون أن يقاطعنى أحد • ثم قال الأمين العام : « أتحبون أن توجهــوا أسئلة للزميل « ليونهارد » » ؟

— ما هى الأنشطة الاجتماعية التى قمت بها ؟

— كنت مدير تحرير مجلة الحائط فى المدرسة لمدة سنة كاملة ، وعضوا فى هيئة تحرير مجلة الحائط فى بيت الطلبة لمدة سنتين •

— كيف يبدو تحصيلك الدراسى ، ماذا تعلمت ، وكيف ؟

— التحقت بالفصل السادس فى العام الدراسى ٣٥ — ١٩٣٦م ، نجحت بدرجة مقبول فى الفصل التاسع ، أما فى الفصل السابع والثامن فنجحت بدرجة جيد فى معظم المواد •

لم يؤخذ على ضعفى فى شهاداتى الدراسية فى ٣٧ — ١٩٣٨ م ، فقد كانت حالة عامة عند كل التلاميذ فى سنوات التطهير ، اذ كانت النتائج عموما سيئة •

— هل قرأت تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ؟

— نعم ! ومستعد للاجابة على أى سؤال يوجه الى فى هذا المجال •

لم يوجه الى أحد منهم سؤالا ، ويبدو أنهم لم يكونوا معتدلى المزاج للدخول فى هذا الموضوع الذى أصبح بالنسبة لهم منفرا ، وداعيا للاشمئزاز • وبدل أن يوجهوا الأسئلة فى تاريخ الحزب الشيوعى ، تتاطرت أسئلتهم حول منظمة الشباب ، وكانت اجابتى طبقا لما جاء فى اللائحة • فأهم واجبات عضو منظمة الشباب هى :

* أن يدرس مؤلفات « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » •

* أن ينمى معلوماته السياسية باستمرار •

* أن ينشر التعاليم « الماركسية اللينينية » بين جماهير الشباب العريضة •

* أن ينفذ قرارت الحزب البلشفى وقرارات منظمة الشباب •

* أن يشارك بحماس ، ونشاط دءوب فى الحياة السياسية للدولة •

* أن يكون نموذجا يحتذى به فى المواقف الاشتراكية •

* أن يحافظ على الممتلكات الاشتراكية ، ويتصدى لمن يعتدى على نظام الدولة الاشتراكى •

* أن يكون نفسه علميا ، وتكنولوجيا ، ويساهم فى الحياة الثقافية •

* أن ينمى نفسه جسمانيا ، وذلك بممارسة الرياضة البدنية •

* أن يكون دائما مستعدا لبذل ما لديه من قوة — وفى حالة الضرورة يضحى بحياته فى سبيل الدفاع عن « الوطن الاشتراكى » •

* أن يساهم بجد واخلاص فى جميع أنشطة « الكمسمول » ، وأن يحضر اجتماعاتها بانتظام •

* أن ينفذ كل ما تسنده اليه المنظمة برباطة جأش ، وبسرعة ودقة •

* أن يبدأ عمل ما يسند اليه فى ساعة الصفر المحددة له ، ولا يتوقف حتى يحقق ما رسم له ، ويصل به الى نهايته •

— ما هى شروط القبول فى « الكمسمول » ؟

— يقبل فى « الكمسمول » الشباب الذى تتوفر فيه الشروط الآتية :

* ألا يقل سنه عن ١٦ ولا يزيد عن ٢٦ عاما •
* أن يكون مؤمنا بالنظام الأساسى لها ، وأن يعترف بلوائحها •
* أن يكون له نشاط فى احدى منظماتها التى تخضع للوائحها •
* أن يقدم طلبا للالتحاق ، يتعهد فيه بأن يدفع اشتراكات العضوية بانتظام •

— ما هو نوع النظام الذى تدار به « الكمسمول » ؟

— نظام المركزية الديمقراطية ، فالمراكز القيادية بالانتخاب ، وتخضع القيادات الصغيرة لمن هو أعلى منها ، كذلك تخضع الأقلية لرأى الأغلبية ، بعد أن تضع تقاريرها أمام هيئة « الكمسمول » •

فقال الأمين :

حسنا ! هذا كاف • سؤال آخر ؟

وساد الصمت لحظة ، أردف بعدها الأمين قائلا :

اذا لم يكن هناك أسئلة ، فلننتقل الى عملية أخذ الأصوات •

فمن يوافق على قبول السيد « ليونهارد » فى « الكمسمول » ، ويزكيه يرفع يده •

فرفع كل الحاضرين أيديهم • ولم تنته اجراءات قبولى بهذا التصويت اذ قيل لى أن طلبى سوف يرسل الى لجنة « الكمسمول » الموجودة فى الحى حيث أسكن ، وستصلنى أخبار من هناك ، وعندها يجب أن أذهب الى لجنة الحى فى الوقت الذى تحدده لى •

طلبتنى لجنة الحى للمثول أمامها بعد أسبوعين تقريبا ، وسألنى أمين اللجنة بعض الأسئلة ، وتحدث معى عن الشرف الذى يناله المرء اذا التحق « بالكمسمول » وعن الثقة التى وضعوها فى عند موافقتهم على عضويتى • ثم تطرق الحديث الى شرح الواجبات الملقاة على عاتقى ، لأكون عند حسن ظن من وثقوا بى ، ثم قدم لى — بطريقة رزينة تعلوها سيماء السرور — الكتيب الرمادى بعنوان: (WISKM)

(Wososjusnij Loninskij Sojus Kommunistitschokoj Molodjoshi)

وعندما أجبته بأنني سوف أبذل كل ما فى وسعى لأقوم بما تحتمه على هذه الثقة ، استعملت فى حديثى الأساليب المعروفة التى يجب على عضو شيوعي التعبير بها فى مثل هـذا المجال ، وقلتها بحماس وعن اقتناع بما أقول • وربما يبدو هذا غريبا للقارىء الغربى ، فأمى مقبوض عليها ، ورأيت بعينى عمليات القبض على مدرسين نشأت بينى وبينهم عاطفة أبوية ، وقاسيت الكثير عندما كان يختفى أصدقائى واحدا بعد الآخر من جراء ما تقوم به سلطات الأمن ، وغنى عن البيان أننى لاحظت أيضـا أن الحقائق كانت شيئا آخـر مغايرا لما تنشره جريدة « برافدا » ، ولكن كيف أفصل عن هذه الأشياء وكذلك انطباعاتى الشخصية ، وما قاسيته فى سنى اقامتى فى الاتحاد السوفييتى عن عقيدتى السياسية • لقد بدا لى أن هناك فصلا بين ناحيتين فى الأحداث ، أولهما يتعلق بالمرء ، وما يصيبه من جراء سلطات الأمن ، وتلك كانت محلا للنقد والاعتراض ، والأخرى تتعلق بالخطوط العريضة للمبادىء التى كنت أؤمن بها ، وكانت فى نظـرى آنذاك — رغم بعض التحفظات التى كانت تثير الشك فى نفسى أحيانا — سليمة لم يجانبها الصواب •

أعتقد أن كثيرا من أعضاء « الكمسمول » ، فصلوا أيضا بين هذين المستويين وكان هذا النوع من التفكير منهجهم ، وأنا متأكد أن بعض الشباب لم يلتحق « بالكمسمول » عن اعتقاد بمبادئها ولا عن ايمان بنظمها ، وقد وضحت لى هذه الظاهرة بعد التحاقى بوقت قصير ، عرفت ذلك عن طريق اشتراكى فى الجلسات والاجتماعات بصفة مستمرة ، وسرعان ما تعرفت من خلالها على أنواع مختلفة من الشباب ، الذين يمكن أن يقسمهم المرء — حسب رأيى — الى أربع مجموعات :

١ — « المتحمسـون » وهم شباب يافع يفيض نشاطا وحيوية ، يبذل كل وقته فى عمل « الكمسمول » ويتفانى فى القيام بما يسند اليه عن طيب خاطر ، فهو مطيع ، يضحى بكل ما يملك • ولكن هؤلاء الأعضاء لا يفكرون فى المشاكل السياسية ، ولا يظهر عليهم أنهم يلاحظـون التضارب فى سياسة الدولة والحزب ، ولا يدركون التحول السياسى المفاجىء • لقد كان « الكمسمول » بالنسبة الى هؤلاء الفرصة الوحيدة لممارسة ما يحتاج اليه الشباب فى مثل هذا العمر • وكان رأيى فى تحليل موقف هؤلاء ، أنه لو كانت هناك منظمة أخرى تختلف عن

« الكمسمول » عقيدة ومذهبا لما تردد هذا النوع من الشباب فى الالتحاق بها • فلا يهمه ان كانت المبادىء متجهة يمينا أو يسارا •

٢ — كان هناك نوع آخر من الشباب — وكنت واحدا منهم آنذاك — دخل المنظمة عن اقتناع سياسى ، شعر بأنه مشدود اليها ، فقد أثر فيه الجهاز التنظيمى والمناقشات السياسية • كان هؤلاء نشطين أيضا ، وان كان نشــاطهم لا يرقى الى درجة نشاط المتحمسين ، فقد لاحظوا بعض المتناقضات ، وكان يعتريهم أيضا حالة من التردد ، وامعان التفكير جديا فيما يدور حولهم من أحداث ، غير أنهم حاولوا — بطريقة أو بأخرى — تذليل ما يصادفهم من متناقضات ليهدأوا نفسيا •

٣ — « النفعيون » وقد لاحظت أن هذا الصنف — بنوع خاص — من أبناء وبنات قادة الحزب والدولة ، ورؤساء المؤسسات الاقتصادية ، فهم يريدون الوصول الى المراكز العليا — ولا يخفون مقصدهم ، بل يعبرون عنه بشكل سافر — ووجدوا أن « الكمسمول » سلم يستطيعون الوثوب عليه كى يتمكنوا من الوثوب بقفزات واسعة ليتبوأوا الوظائف العليا الحساسة فى الدولة والحزب •

٤ — قابلنى نوع من الشباب حيرنى أمره ، فليس لديه أدنى اهتمام بما يجرى فى المنظمة ، لذلك أطلقت عليه « مجموعة اللامبالين بطبعهم » فهم شبان لم يخطر ببالهم يوما ما أن يلتحقــوا « بالكمسمول » وانما دفعتهم الظروف الى الدخول فى المنظمة تقليدا لأصدقائهم ، أو لعب القدر دورا فى التحاقهم بالمنظمة دون أن يكون لهم أدنى مجهود فى ذلك • ومعظم هؤلاء من البنات •

استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعتقد أننى الوحيد الذى يعتنق هذه الأفكار التى تعتبر زندقة وكفر بالنظــام السوفييتى ، لكنى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان وارتفعت الكلفة بيننا فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتنق مثل هذه الأفكار •

وضحت الأمور لى شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذا اضطرتنى

الظروف الى عدم ذكر شيء أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعنيهم حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم فى مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض • اعترف لى أحد هؤلاء بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التى تعتنقها الدولة • وتعرفت على آخرين كانوا ماركسيين ولينينيين اعتنقوا تعاليم ماركس وقدسوها ، أما اليوم (أيام لقاء المؤلف بهم فى المنظمة) فيقفون مع الجبهة المعارضة للنظام فى كثير من المسائل والمبادىء الأساسية ، وهم بنوع خاص ضد السلطة المطلقة التى تتمتع بها مخابرات أمن الدولة فى وزارة الداخلية ، وضد حركة التطهير التى ذهب ضحيتها الزعماء البلشفيين القدامى •

قرأ على أحد أعضاء المنظمة قصيدة شعر — كتبها بخط يده ، ونسخها الكثير واحدا بعد الآخر — كانت ثورية فى تمجيد الحرية والتغنى بفضائلها • وسمعت فيما بعد أن أحد الشبان المعارضين كتب قصة بخط يده ، ونسخها الآخرون لأنها تصور لهم ما يدور فى ذهنهم من معارضة لنظام الحكم وكانت بعنوان « رحلة جوليفير » الى بلد للهواء فيه آذان •

* * *

مفاجأة فى حرب فنلندا

قرأنا فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ فى جريدة « برافدا » أن فنلندا رفضت عرضا من الاتحاد السوفييتى لعقد معاهدة دفاع مشترك • ثم قيل لنا ان اتحاد الجمهوريات السوفييتية عرض على فنلندا أن تنقل الحدود عند « لينينجراد » مسافة ٣٠ ك•م • وهو مستعد أن يتنازل لفنلندا فى مقابل هذا عن خمسة أضعاف هذه المساحة •

ظهر لى موقف فنلندا فى بادىء الأمر غير مفهوم ، لأنى لم أسمع أخبارا أو تحليلا حول هذا الموضوع من مصدر آخر ، كما لم يعرف كل المواطنين السوفييت « البعيدين عن السلطة » سوى ما كتبته « برافدا » ، ولم أعلم شيئا عن المناقشات التى دارت فى البرلمان الفنلندى ، ولا عن موقف غرب أوربا وأمريكا ازاء هذه المسألة • ولم يكن عندى — بنوع خاص — أية فكرة عن خوف الشعب الفنلندى من أن المعاهدة ستكون بداية لنهاية استقلال فنلندا ، كما أكد ذلك ما حدث بعد أشهر قليلة فى « استلاند » و « ليتلاند » و « ليتاون » •

ازدادت نغمة « برافدا » ضد فنلندا حدة ، فلم تعد تذكر فى النصف الثانى من أكتوبر اسم الحكومة الفنلندية ، بل تصفها بالمراهقين الفنلندنيين ، والمغامرين ، والمقامرين ، ونعتت أسماء الشخصيات الفنلندية المتزنة بأوصاف السخرية والاستهزاء .

وانفجر الموقف فى ٢٩ نوفمبر ، اذ عبرت القوات الروسية الحدود الفنلندية ، وزعم فى بلاغ رسمى ، أن القوات الفنلندية قامت بسلسلة من الأعمال الاستفزازية عبر الحدود السوفييتية . ولكن لم يؤخذ الموقف مأخذ الجد ، حتى من أعضاء الحزب « المخلصين » . فاذا استعمل المرء فى حديثه معهم التعبيرات الرسمية عن « الاعتداء الفنلندى » كانوا يعلقون على هذا فى غالب الأحيان بغمزة العين المعروفة ، وقد لاحظت استعمال هذه الاشارة كثيرا فيما بعد .

أعلن بعد أيام قليلة من بدء الحرب الفنلندية الروسية عن استيلاء الجيش الروسى على المدينة الفنلندية الأولى « توريوكى » وعن تكوين حكومة فنلندية شعبية برئاسة « كوزينين » وأصدرت الحكومة الجديدة نداءات الى الشعب الفنلندى ، ووضعت كذلك شكل الأعلام التى سترفعها القوات المكلفة بالزحف على « هلسنكى » .

اصطدمت القوات الروسية — بعد التقدم السريع الذى حققته فى بادىء الأمر باستيلائها على مدينة « تريوكى » — بدفاعات الجيش الفنلندى أمام خط « مانرهايم » ، وسمعنا الكثير عن الخسائر التى تكبدتها ، اذ تحولت « الحملة الصغيرة لقوات منطقة « لينينجراد » — كما وصفوها — الى حرب . وكان من الصعب علينا أن نتصور ، أن الجيش الروسى الكبير ، ذا الشهرة الذائعة بأنه الذى لا يقهر ، والذى وصفته لنا دوائر الاعلام والدعاية السوفييتية بأنه أقوى جيش فى العالم ، هذا الجيش يقف الآن فى حرب ضارية ضد فنلندا الصغيرة التى لا يتجاوز تعدادها ثلاث ملايين ونصف نسمة .

كان تعثر القتال على الجبهة أسابيع عدة بالنسبة لنا غريبا ، وأشد منه غرابة ارتباك وسائل النقل والمواصلات ، واختفاء المواد التموينية ، ففى أيام الحرب الأولى كانت قطارات الركاب تتأخر بالساعات ، وبعضها لم يصل على الاطلاق . وبعد بدء الحرب بأيام قليلة كنت أرى فى موسكو الطوابير الطويلة أمام محلات الخبز ، واختفت بعض السلع ، لأنها لم تورد للمحلات .

تساءل الناس آنذاك فى موسكو :

اذا أدى الأمر فى اصطدامات محلية مع بلد صغير الى ارتباك فى ادارات الدولة ، ونقص فى المـواد التموينية ، فماذا يحدث لو اضطر الاتحاد السوفييتى الى الدخول فى حرب ضد احدى القـوى العظمى ؟ وعبر الناس عن خوفهم بكلمات هزلية انتشرت فى موسكو بطريق الهمس :

لم يصل شىء بعد ، ولن يصل •

وسوف يصل ، عندما يوجد •

مضت ثلاثة أسابيع على بدء القتال ، عندما انتشرت اشاعة تفيد بأن الحرب سوف تنتهى قبل يوم عيد ميلاد « ستالين » ، أى فى ٢١ ديسمبر ، ولكن جاء هذا اليوم ولم تنته ، ومضت شهور فصل الشتاء ، ونحن نقرأ كل يوم على الصفحة الأولى من « برافدا » فى جانبها الأيسر ، بلاغات القوات العسكرية لمنطقة « لينينجراد » ، ولم تتحدث هذه البلاغات الا عن هجوم القوات السوفييتية على « نقط حصينة » ، غير أنها لم تذكر فى أى منطقة ، لأن الجيش عاجز عن الاستيلاء على مناطق ، يمكن ذكرها فى البلاغات •

وعلى الرغم من أن الحرب لم يكن لها تأييد شعبى ، فان كثيرا من أصدقائى كانوا يعتقدون — وكنت أوافقهم فى هذا — أن القتال سوف يستمر حتى تحقق القوات السوفييتية نصرا حاسما • وأخيرا وصفت حكومة شعبية فنلندية جديدة أعضاء حكومة فنلندا الشرعية بأنهم قتلة ، وقطاع طرق ، وفاشيين ، وأنهم — أى أعضاء الحكومة الشعبية — يعتقدون أن الاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يتفاوض مع هؤلاء اطلاقا •

بلغت دهشتنا ذروتها ، عندما تم فجأة فى ٢١ مارس سنة ١٩٤٠ توقيع معاهدة سلام مع فنلندا • وطبقا لهذه المعاهدة حصل الاتحاد السوفييتى على منطقة « مضيق الكاريلى » ومدينة « فيبورج » ، كما عدلت الحدود فى بعض المناطق لصالح الاتحاد السوفييتى ، كذلك استأجر نصف جزيرة « هانجو » كل هذه المكاسب أقل بكثير مما كان متوقعا عند بدء الحرب •

عقدت الحكومة السوفييتية معـاهدة سلام مع نفس الزعمـاء

الفنلنديين الذين وصفتهم « برافدا » قبل بضعة أسابيع بأنهم مغامرون ، ومقامرون • ثم عقد فى كل مكان — كما هى العادة — اجتماعات جماهيرية ، حيث شرح للشعب أن انهاء الحرب دليل على سياسة الاتحاد السوفييتى السلمية ، وبرهان على أن قائده « ستالين » لا يريد سوى السلام ، وكما هو متبع فى كل الاجتماعات أعلن أن المتحدثين مستعدون للرد على أى سؤال يوجه من المواطنين • وكان هناك فى هذه المرة أسئلة :

سمعت طالبا يسأل : سيدى المتحدث ، هناك شىء غير واضح لى ، منذ بضعة أشهر قامت حكومة شعبية فى فنلندا ، ولكنها لم تذكر اطلاقا فى توقيع اتفاق السلام • ماذا حدث لهذه الحكومة الشعبية ؟

أسقط فى يد المتحدث ، وبدا عليه الارتباك حين قال :

« لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال الآن ، لأن المرء لا يجد شيئا فى البلاغات الرسمية عن هذا الموضوع ، غير أن من المؤكد أن حكومتنا السوفييتية ستأخذ على عاتقها اتخاذ الخطوات اللازمة فى هذا الخصوص » •

وعلمت من صديق يعمل فى مصنع أن هذا السؤال طرح هناك أيضا أمام المتحدثين ، ولكن المتحدث الذى ينتمى الى طبقة العمال أجاب عليه اجابة تتسم بالبساطة :

« آه ! هذا صحيح ! الحكومة الشعبية ! أين ذهبت ؟ لم يقولوا لنا عنها شيئا على الاطلاق فى اجتماع التثقيف السياسى » •

ذكر ظهور هذا السؤال فى معظم الاجتماعات الجماهيرية فى احدى المقالات المنشورة فى « برافدا » ، وكان ذلك بعد بضعة أيام من تاريخ هذه الاجتماعات ، بين الكاتب فيها أن توقيع المعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا أرسى قواعد علاقات طيبة ، وفتح صفحة جديدة ، ولهذا حلت الحكومة الشعبية نفسها •

وبهذه الجملة القصيرة اختفى اسم الحكومة الشعبية عن الوجود فالحرب قد انتهت ، ولم يعد يذكر شىء منها الا نادرا ، وهذا طبيعى ، لأن الحرب السوفييتية الفنلندية التى جرت أحداثها فى عامى ٣٩ / ١٩٤٠ كانت أكبر هزيمة للاتحاد السوفييتى سياسيا وعسكريا •

تحدثت بعد انتهاء الحرب مع بعض أصدقائى الذين كنت أتبادل

معهم الأفكار بحذر أثناء فترة حركة التطهير ، فذكر كل منا سببا لهزيمة القوات السوفييتية :

« لم يكن الجيش الأحمر مستعدا لهذه المعركة » •

« كان تقدير القوة العسكرية لفنلندا أقل بكثير من حالتها الحقيقية »

« لم تكن الرغبة السياسية فى تكوين حكومة شعبية سليمة فى جوهرهـــا » •

« ان القبض بالجملة على الجنرالات والرتب العليا والمتوسطة فى الجيش فى حركة التطهير التى شهدتها البلاد أصاب الجيش فى الصميم ، وتركه هزيلا » •

لازلت أعتقد أنه يجب البحث عن الأسباب الحقيقية لنكسة القيادة العسكرية فى فنلندا فى عامى ٣٩ / ١٩٤٠ م •

سمعت تفسيرا عجيبا بعد مضى سنوات عديدة — عندما ألقيت رحالى فى الغرب — يقول هذا التفسير : ان الاتحاد السوفييتى قاد الحرب فى فنلندا بطريقة تظهر ضعفه ، وكان متعمدا ذلك ، كى يضلل القوى الأجنبية ، فى اعطائهم صورة غير حقيقية عن القوات العسكرية السوفييتية ، امعانا فى اخفاء قوتها الحقيقية عنهم • وانى أرى أن هذا التفسير باطل من ألفه الى يائه ، لأنه لم يحــدث أن الاتحـــاد السوفييتى كان حريصا على اظهار قوته ، مثل حرصه فى ذلك الوقت لأن الحرب اندلعت فى أوروبا منذ وقت قصير ، وهو يريد أن يظهر كحليف قوى لألمـــانيا الهتلرية ، وكان مهتما فى هذا الوقت أكثر من أى وقت مضى بانتزاع الاعتراف به كقوة عظمى ، قادرة على الردع ، وباقناع الآخرين ، بأنه يقف على قدم المساواة مع حليفه ألمـــانيا الهتلرية ، وبتقوية مركزه — كقوة عظمى لم يشترك فى الحرب العالمية آنذاك — للدعاية لنفسه كى يحصل على امتيازات من وراء ذلك •

ومما يدل دلالة واضحة على أن الحرب الفنلندية أظهرت ضعف الجيش الأحمر ، — وكان هذا هو الحقيقة ، وليس اظهار الضعف عن عمد كما يدعون — بدء اعادة تنظيم الجيش على نطاق واسع بعد نهاية الحرب بأسابيع قليلة ، اذ لم يتهيبوا اخراج الضباط من السجون ، واسناد قيادة الوحدات اليهم •

عزل « فوروشيلوف » فى أوائل مايو سنة ١٩٤٠ بعد ما تولى أمانة الدفاع الشعبى سنين عدة ، وحل محله الماريشال « تيموشينكو » •
أنشئت رتب جديدة فى قيادة الجيش الأحمر ، والأسطول ، وفى أوائل يوليو شددت العقوبة على الهاربين من الخدمة العسكرية ، وعلى المتهاونين فى أداء الواجب ، فالتحية العسكرية لا يتهاون فيها ، وتوقيع العقوبة — بالحجز ، أو منع الأجازات أو ••• أو ••• — أمر يجب على كل مسئول أن ينفذه حرفيا • وهذا يعنى أنه يجب أن يسود الضبط والربط •

وأخيرا ألغيت فى خريف عام ١٩٤٠ م لائحة النظام والقانون العسكرى التى كانت تطبق فى الجيش منذ عام ١٩٢٥ م ، ووضعت لائحة جديدة أشد وأقسى منها ، ففيها — مثلا — وجوب طاعة المرؤوس — أيا كانت رتبته — لرئيسه ، واعتبار عدم طاعة الأمر من أكبر الذنوب التى لا تغتفر فى الجيش وأفحشها مهما كان سبب رفض الأمر •

لم تكن الفترة من ربيع عام ١٩٤٠ م حتى خريفه فترة التعديل الواسع الشامل فى قيادات ، وأنظمة الجيش الأحمر فحسب ، بل كانت تعتبر أيضا فترة الصداقة مع ألمانيا الهتلرية ، كما أكدت ذلك وسائل الاعلام والدعاية آنذاك •

* * *

موسكو أثناء تحالف ستالين وهتلر

كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لمعاهدة عدم الاعتداء التى عقدت فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ومعاهدة الصداقة التى عقدت فى ٢٨ سبتمبر من نفس العام ، هو خفوت رنينها ، فالناس فى الاتحاد السوفييتى — وأنا كذلك — تعودوا على « الوضع الجديد » ، وقد وقر فى نفوسنا — بصورة لا تقبل الشك — أنه لن توجد أقلام معادية للنازية ، أو كتب تهاجمها • غير أن وسائل الاعلام استمرت تردد بفخر واعتزاز ، أن الاتحاد السوفييتى لم يتورط فى النزاع بسبب سياسته السلمية الحكيمة ، وفى بعض الأحيان كانوا يصرحون — بطرق تختلف فى درجة وضوحها — بأن من الممكن أن تكون الحرب بين القوى الغربية العظمى وبين ألمانيا الهتلرية وايطاليا مفيدة للاتحاد السوفييتى ، وقد ظهرت أيضا أحاديث هزلية ، واستفسارات عن طريق اللعب بالألفاظ بين الناس حول مركز الاتحاد السوفييتى الممتاز ، بسبب عدم اشتراكه فى الحرب :

« حاول أن تخمن ! من سيكسب الحرب » وجه الينا هذا الكلام طالب فى المعهد ، يتولى أبواه مناصب قيادية فى الدولة ، وهو متعود أن يزودنا بألغاز وأحاجى — الغرض منها بطبيعة الحال الدعاية للاتحاد السوفييتى — لا تنشر فى الجرائد • ثم توجه هذا الطالب الى السبورة ، وكتب بالحروف اللاتينية أسماء زعماء الدول المشتركة فى الحرب آنذاك تحت بعضها :

« موســوليني »
« هيتلر »
« تشامبرلين »
« دالادير »
« تشينج كاى شيك »
« مانرهــايم »

ثم اتجه الينا ضاحكا فقال : والآن ! من سيكسب الحرب ؟

لقد كانت هذه بالتأكيد نكتة ، ولكن لم يحلهــا أحد منا لأننا لم ندرك مقصده ، فقال الطالب :

« ان الاجابة فى غاية البساطة » ، وقبل أن ندرك مراده ، عاد الى السبورة ، ووضح كتابة الحرف الثالث من كل اسم ، ووضع تحته خطا ، ثم أشار الينا ضاحكا الى حل لم نكن نتوقعه •

انتشرت اشاعة منذ بداية عام ١٩٤٠ م تفيد بأن العلاقة مع ألمانيا سوف تتوطد أكثر ، ونقل الى الأسماع من هنا وهناك كلام حول قرب قيام كتلة حربية بين ألمــانيا والاتحاد السوفييتى ، واعتقد ذلك آنذاك كثير من الناس فى موسكو •

وفى منتصف فبراير ١٩٤٠ م امتدحت وسائل الاعلام بحرارة ابرام اتفاقية اقتصادية بين ألمــانيا الهتلرية والاتحاد السوفييتى ، وكتبت المقالات عن خطط انجلترا وفرنسا الاستعمارية للتحكم فى العالم ، ونشر الكثير من خطب « هتلر » وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٠ م — وعت ذاكرتى هذا التاريخ بدقة — فوجىء القارىء السوفييتى بأن صفحة كاملة من صفحات « برافدا » احتوت على موضوعين فقط ، فقرات طويلة من خطبة لهتلر ، ومقال تناول الموقف الشيوعى من الحرب •

نشطت الدعاية السوفييتية فى حملتها ضد انجلترا وفرنسا ، وحملتها

مسئولية استمرار الحرب ، فقد كتبت « برافدا » فى أوائل مارس سنة ١٩٤٠ م تقــول :

« مضت الآن ستة أشــهر على الحرب الدائرة التى أشــعلها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ، كى يدعموا تسلطهم ، واستبدادهم فى العــالم • فعندما لم ينجح هؤلاء الاستعماريون فى تنفيذ مخططاتهم لتقسيم العالم من جديد ، فكروا فى وسيلة للخروج من هذا المأزق ، ولم يجدوا سوى العكوف على تدبير القيام بمغامرة يستهدفون من ورائها تطوير الحرب الاستعمارية الدائرة رحاها اليوم الى حرب عالمية جديدة » •

وانطلقت أجهزة الحزب تعمق هذا « الخط » الجديد لسياسة الدولة فى نفوس الجماهير السوفييتية فى اجتماعات شعبية لا حصر لها •

ونشرت صحيفة « برافدا » فى أوائل ابريل فقرات طويلة من كتاب حكومة هتلر وكان بعنوان « الكتاب الأبيض لوزارة الخارجية » ، وعلقت على ما جاء فى هذه الفقرات مؤيدة لهــا ، وموافقة على مضمونها • كذلك بررت هجوم « هتلر » على الدانمارك والنرويج ، فقالت : « كانت الاجراءات التى اتخذتها ألمــانيا فى هذه الحالة اجراءات ضرورية ••• هم يدعون أن ألمــانيا خرقت القانون الدولى بعملياتها العسكرية فى البلاد الاسكندنافية ، ومزقت معاهدة عدم الاعتداء مع الدانمارك •••• ولكن اليوم ، وبعد أن اعتدت انجلترا وفرنسا على حريــة البــلاد الاسكندنافية ، للاضرار بمصالح ألمــانيا ، اقتضى الأمر أن تتخذ ألمــانيا اجراءات مضادة • ولا يدل تباكيهم حول شرعية أو عدم شرعية العمليات العسكرية الألمانية الا على انزلاقهم الى مواطن السخرية والاستهزاء » •

والى هنا أصبح واضحا وضوحا لا شك فيه أن الخط الرسمى للدولة ، لم يعد ينتهج سياسة الحياد المطلق ، بل يقترب رويدا رويدا من موقف ألمــانيا الهتلرية ، فسياسة الحياد استمرت عموما فى الأسابيع الأولى عقب توقيع المعاهدة ، أما التغيير الذى طرأ على الموقف الآن فقد بعث شكوكا فى نفوس الكثيرين • دفعت الشجاعة طالبا فى احدى المعاهد العليــا فى موسكو أن يصرح علنا بما اعتراه من شك فيما طرأ على سياسة الدولة تجاه الحرب ، وحدث هذا فى محاضرة ماركسية لينينية تحت عنوان : « شرعية وعدم شرعية الحرب » • بين المحاضر الفرق بين الحرب الشرعية ، وغير الشرعية على الوجه التالى :

« الحرب الشرعية لا تكون للغزو ، وانما هى حرب تحريرية ، هدفها الدفاع عن الشعب ضد الاعتداء الخارجى ، أو ضد محاولة الضغط عليه من الداخل ، بمعنى تحرير الشعب من عبودية رأس المال أو تحريره من تحكم الاستعماريين • أما الحرب غير الشرعية ، فهى على الضد من هذا ، حرب غزو ، تستهدف السيطرة على بلاد أجنبية ، واستعباد الشعوب الأخرى » • ثم حلل عددا من الحروب المعروفة فى التاريخ ، واختتم محاضرته بالاشارة الى أن من واجب الماركسية اللينينية تحليل الحروب دائما ، ثم بيان موقفها من الحرب المعاصرة • وكما هو متبع أعلن المتحدث بعد انتهاء محاضرته استعداده للاجابة على أسئلة الطلبة ، ثم أعطيت الكلمة لأحد الطلبة ليقول سؤاله :

« أيها الزميل المحاضر ! منذ بضعة أيام بدأت قوات ألمانيا عمليات عسكرية ضد الدانمارك والنرويج ، وهى خطوة ضرورية اضطرت ألمانيا اليها ، كما نشرت ذلك « برافدا » • ما هى طبيعة هذه العمليات العسكرية ؟ هل يمكن أن نسميهاحربا شرعية ؟ وهل تكون الحرب — اذن — من جانب قوات الدانمارك والنرويج حربا غير شرعية ؟

ساد القاعة صمت رهيب ، وخيل الى أن تنفس الحاضرين قد توقف ، فقد كان السؤال سهما فى مقتل المحاضر ، ولكنه إعتقد أنه أخرج نفسه من المأزق ، عندما قال : « لا يجوز أن ينظر الانسان الى الأمور نظرة رياضية ، واحد + واحد = ٢ ، بل يجب علينا ألا ننسى الظروف والملابسات ، فتصنيف الحرب فى هذه الحالة الى شرعية وغير شرعية تعبير خاطىء وغير علمى ، ولا يمكن الاجابة عليه بهذه الصيغة •

بينما تطرق الينا نحن الطلبة — وكذلك بالتأكيد الى طبقات الشعب الأخرى — بعض الشك فى صحة « هذا الاتجاه لسياسة الدولة » ، لاحظت مندهشا أن موقف الدولة ازاء ألمانيا الهتلرية أثر من ناحية أخرى على تفكير المواطن السوفييتى ، فعندما وقفت يوما قبل الظهر أمام أحد أكشاك بيع الصحف ، سمعت اثنين — يبدو من هيئتهما أنهما من طبقة فقيرة — يتحدثان عن الحرب فى أوروبا الغربية ، قال أحدهما :

« هتلر •• ولد جدع » ، انظر ! كيف أعاد النظام الى أوروبا !

فقال الآخر مؤمنا على كلامه :

« يضرب الاستعماريين الانجليز والفرنسيين ، ويدك عظام دعاة الحرب » .

وسمعت مرة أخرى هذا السؤال :

« أصحيح أن هتلر أقام معسكرات الاعتقالات التى نسمع عنها ، أم أن المسألة كذبة دعائية أطلقها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ؟

لم ألتق آنذاك بالمنفيين الألمانيين الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى الا نادرا ، وشاءت الظروف يوما أن أتحدث مع الشاعر الشيوعى « ايريش فاينرت » الذى صار فيما بعد عضوا فى اللجنة المركزية للتنظيم القومى الذى أطلق عليه « ألمانيا الحرة » لقد كنت صديقا لابنته « مارينا » منذ طفولتى فى برلين ، وكنت أزورها فى المنزل الجديد للكاتب الواقع فى « لافروشنسكى بروبلوك » عندما دخل « ايريش فاينرت » الحجرة علينا ، سألته عن رأيه فى الموقف بصفته ألمانى يعارض الفاشية ، فتحدث « ايريش فاينرت » — الذى كنت أحس أنه انسان لطيف جدا — عن « موقف مغاير تماما ! » ، عن « الالتزام بواجب جديد ! » ، عن « رؤية جديدة » مغايرة تماما لما كنا نفكر فيه قبلا ؛ ثم قال :

« ربما تكون معاهدة عدم الاعتداء — وكذلك معاهدة الصداقة المعقودة فى سبتمبر ١٩٣٩ — هى البداية فقط ، فنحن نتوقع — ويكاد يكون ذلك مؤكدا — قيام تعاون أوسع مع ألمانيا » .

كان هذا هو الرأى الذى سمعته مرارا وتكرارا فى النصف الأول من عام ١٩٤٠ ، فقد تحدث كثيرون آنذاك عن توقع قيام تحالف عسكرى مع ألمانيا الهتلرية ، حتى أن البعض أخبر أيضا عن توقع اشتراك فى العمليات العسكرية ضد « الامبريالية الغربية » .

وعندما بدأ الهجوم فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ على بلجيكا ، وهولندا ، وفرنسا ، تابعت الجماهير فى موسكو أنباء القتال فى فرنسا باهتمام كبير ، اذ كان الناس يقفون فى طوابير أمام أكشاك بيع الصحف ، صابرين ، متحملين ألم انتظار جرائد الصباح أو الجريدة المسائية الوحيدة فى موسكو .

كان معظم الناس يقرأون الجرائد دون ابداء أى تعليق ، فقد تعلموا منذ حركة التطهير ، ألا يعلقوا على الأحداث التى تمس الخط السياسى للدولة من قريب أو بعيد ، غير أن هناك حالات نادرة —

لا زلت أذكرها ــ عبر فيها بعض الناس فى موسكو عن رأيهم بوضوح ، من ذلك أن أحد المثقفين قال لى يوما :

« أحدث هجوم هتلر على فرنسا تحولا فى صفوف المثقفين ، فطالما كانت الحرب محصورة فى بولندا ، والبلاد الاسكندنافية ، كان معظمهم محايدا ، والبعض كان متعاطفا بعض الشىء مع « هتلر » ولكن هجومه على فرنسا غير كل شىء رأسا على عقب ، اذ يظهر التنافر تدريجيا من « هتلر » ، وليس هذا ناشئا من تعاطفهم مع انجلترا ، بل من تأثرهم بمصير فرنسا المؤلم ، اذ أن كثيرا منهم يشعر بأنه مرتبط ثقافيا مع فرنسا بالذات • شعرت بتغيير مماثل بين صفوف الطلبة ، ولكننى لست متأكدا من أن هذا التحول قد ظهر أيضا آنذاك فى قطاعات شعبية أخرى •

طلعت علينا صحف موسكو فى صباح يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٠ م بأنباء استيلاء الجيش الألمانى على باريس ، فاشتريت الصحيفة ، وركبت الترام متجها الى ميدان « تاجانكا » وجلس بجوارى رجل متقدم فى السن ، يبدو من هيئته أنه فلاح ، جاء الى موسكو للزيارة • التفت الى هذا الرجل وسألنى : هل من جديد عن الحرب فى فرنسا ؟

فأجبته : استولت القوات الألمانية على باريس •

فصفق فرحا وقال : سيلقن « هتلر » الفرنسيين درسا لن ينسوه •

لفتت حركته ، وتعليقه انتباه الجالسين فى العربة ، ولكن لم يجد أى تعليق من أحد ، بل لم ينبس أحد ببنت شفة •

وبعد دقائق كنت أقف مرة أخرى أمام أحد أكشاك بيع الصحف ، فرأيت غلاما يبلغ الرابعة عشرة من عمره تقريبا ــ ويبدو من ملامحه أنه يهودى ــ يقرأ الجريدة وهو فى غاية الاضطراب ، ويردد بصوت حزين « سقطت باريس •• سقطت باريس ••• » وتساقطت الدموع من عينيه • ثم أسرع الى بيته ، ربما ليخبر والديه بالأنباء المفجعة ، هكذا كانت ردود الفعل مختلفة من شخص لآخر آنذاك فى موسكو •

فتر الاهتمام بأنباء القتال فى مرحلة انتهاء القتال فى فرنسا ، وبداية الغارات الجوية على بريطانيا ، لأن الحوادث الداخلية ــ التى انفجرت فجأة بطريقتها المعهودة ــ باغتت الشعب كله ، واحتلت المكان الأول فى الصحف ووسائل الاعلام الأخرى شهورا عديدة •

نشرت « برافدا » فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤٠ على صفحتها الأولى نداءا من اللجنة المركزية لنقابة العمال السوفييت تقترح فيه أن تزاد

ساعات العمل فى المصانع والشركات من ٧ الى ٨ بالنسبة للعمال ومن ٦ الى ٨ ساعات بالنسبة للمستخدمين • كذلك تزاد ساعات عمل الأحداث الذين تتراوح أعمارهم من ١٦ الى ١٨ ، من ٦ ساعات فى اليوم الى ٨ ساعات •

كذلك اقترحت أن تكون أيام العمل الأسبوعية ٧ أيام — كما هو مطبق فى جميع أنحاء العالم — بدلا من ستة ، وهو النظام الذى كان مطبقا فى الاتحاد السوفييتى حتى ذلك الحين (١) •

لم يقتصر زعماء نقابة العمال على المطالبة بزيادة ساعات العمل ، وزيادة عدد أيام العمل الأسبوعية فقط ، بل اقترحوا أيضا الغاء حرية اختيار أماكن العمل ، ونص هذا بالحرف الواحد :

« ترى اللجنة المركزية لنقابات العمال السوفييت أن العمال مجندون فى ادارات الدولة ، وشركاتها ، ومؤسساتها الاشتراكية ، ولذا فلا يجوز أن يترك العامل عمله ، أو ينتقل من شركة الى أخرى ، أو من موقع عمل الى آخر » •

ومن الطبيعى أنه كان واضحا أن الدولة ستضع « اقتراحات » اللجنة المركزية لنقابة العمال فى صورة تعليمات — وقوانين — واجبة التنفيذ ، بل نشرت فى اليوم التالى التعليمات المطابقة لهذه الاقتراحات ، ثم جاءت بعدها « المظاهرة » المصطنعة التى وافق فيها الحاضرون على المقترحات بالاجماع •

أصبحت القواعد التى « اقترحتها » نقابة العمال — زيادة ساعات العمل الى ٨ ساعات ، وتحويل الأسبوع الى ٧ أيام عمل ، وتحريم ترك أماكن العمل — قوانين ، أصدرتها رئاسة مجلس السوفييت الأعلى ، فقد صاغت المـــادة الخامسة — مثلا — اقتراح تحريم ترك العمل على النحو التالى :

« يقدم العامل — أو الموظف — الذى يترك عمله بدون عذر قهرى ، الى المحاكمة ، وتعاقبه محكمة الشعب بالحبس مدة لا تقل عن شهرين ولا تزيد عن أربعة أشهر » •

---

(١) اختلف نظام العمل حتى ذلك الحين فى الاتحاد السوفييتى عنه فى كل البلاد الأوروبية الأخرى ، فقد كان خمسة أيام عمل ، ويوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، ولهذا أطلق عليها : هذا يوم عمل ، وذلك يوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، وطبقا لهذا الاقتراح بطل هذا التعريف فأصبح اليوم الأول ، واليوم الثانى ... الخ •

لم تهدد بعقوبة الحبس العمال فقط ، بل مديرو المؤسسات أيضا ، اذا لم يكونوا حازمين فى ادارة ما يوكل اليهم ، أو أهملوا فى معاقبة من يخالف التعليمات •

على الرغم من أن هذه التعليمات والقوانين لم تتعلق بنا مباشرة ، فقد انعقد عندنا — نحن طلبة الدورة التجهيزية — اجتماع شعبى لمناقشة هذا القانون ، بعد أن نشرته الصحافة ، ومما قيل فى هذا الاجتماع أن هذا القانون — الذى صدر فى ٢٦ يونيه — يعتبر بالنسبة لنا أيضا — نحن الطلبة — المنهج الصحيح لرفع مستوى التحصيل الدراسى ، فنحن « نوافق » عليه بالاجماع •

ولم تمض مدة قصيرة حتى أضيفت اليه اضافات أقسى وأشد ، فقد قرر المدعى الاشتراكى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٤٠ أن من يتأخر عن العمل عشرين دقيقة ، لا يقبل له عذر فى هذا التأخير ، بل يعاقب طبقا لما جاء فى « لائحة نظام العمل » ، بخصم ٢٥ ٪ من مرتبه مدة قد تصل الى ستة أشهر •

ولا زال هذا القانون القاسى ضد العمال سارى المفعول حتى اليوم •

أحدث « قانون الـ ٢٠ دقيقة » آثارا فظيعة ، فقد علمت من التلاميذ الذين كانوا يسكنون معنا فى بيت الطلبة السابق ، ويشتغلون الآن فى مصانع ، ما يحدث هناك من مآسى ، فالمواصلات كانت سيئة لدرجة أن بعض العمال كانوا يتأخرون عن أعمالهم أكثر من عشرين دقيقة ، ولم تنفعهم أى حجة فى رفع العقاب عنهم ، فمديرو المصانع أنفسهم يرتعدون خوفا من توجيه الاهمال اليهم فى تنفيذ قوانين العمل ، ولهذا قدم العمال بالجملة الى المحاكمة ، وكان عدد من يعاقب طبقا « للائحة نظام العمل » مستمرا فى الارتفاع بشكل رهيب •

انتشرت فى موسكو — على الرغم من فظاعة الوضع ، وجدية الموقف — نكتة عن هذا القانون :

— هل سمعت أن المسرح الكبير قد شبت فيه نارا ، التهمته عن آخره ، فأصبح رمادا ؟

— كيف حدث هذا ؟ ألم تستطع المطافىء أن تحصر النيران ، فتحول دون هذا الدمار ؟

— لا ، فالمطافىء فى السجن •

— فى السجن ؟

— نعم ، لقد حضرت متأخرة عشرين دقيقة ، فلم يسمح لها بمباشرة اطفاء الحريق ، بل زج بها فى السجن ، تنفيذا لمـــا جاء فى « لائحة نظام العمل » فى عقوبة من يتأخر عن العمل •

سببت موجات القبض ، واجراءات المحاكمة تنفيذا لقانون العمل الجديد ارتباكا فى المحاكم ، فلم تعد قادرة على انهاء هذا السيل الجارف من القضايا ، ولهذا رؤى طبقا لمنشور الرئاسة الصادر فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ م أن تقوم المحاكم الشعبية وحدها باجراءات المحاكمة ضد المخالفين « للائحة نظام العمل » دون الرجوع الى هيئة محلفين •

احتلت هذه الأحداث مكان الصدارة فى حياة المواطن السوفييتى لدرجة أنه لم يهتم بمتابعة الأحداث الأخرى ، بسقوط فرنسا ، والغارات الجوية على بريطانيا ، واحتلال القوات السوفييتية لدول البلطيق ، ودخولها فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية ، وضم ولاية « بسارابيا » والجزء الشمالى من « بوكوفينا » الى الاتحاد السوفييتى ، ضاعت كل هذه الأحداث فى دوامة الاجراءات الداخلية ، اجراءات « محاربة المتعطلين ، والكسالى المهملين ، والمدمرين للنظام » •

لا زلت أذكر حدثا وحيدا خارجا عن مجال الأحداث الداخلية التى ذكرتها ، ألا وهو موت « تروتسكى » ، فقد طلعت علينا كل الصحف السوفييتية فى يوم ٢٤ أغسطس بخبر صغير عن موته ، فى مكان ظاهر يقول الخبر :

« ذكرت الصحف الأمريكية أن أحد أتباع « تروتسكى » اعتدى عليه ، فأصابه بكسر فى الجمجمة ، ومات فى أحد مستشفيات المكسيك » •

اقتصرت كل الصحف على هذا الخبر الصغير ، الا « برافدا » — بوق الحزب — ، فقد هاجمت رفيق « لينين » بعد موته فى مقال طويل تحت عنوان : « موت أحد الجواسيس العالميين » • فاض هذا المقال بكلمات السباب ، وبالحقائق التاريخية المزيفة ، فقد جاء فيه بالحرف الواحد :

« كان « تروتسكى » عميلا لأحد أجهزة المخابرات الأجنبية منذ عام ١٩٢١ » ، وختم مقال « برافدا » عن أمين اللجنة الشعبية فى « بتروجراد » الآن : « لينينجراد » منذ عام ١٩١٧ م ، ومؤسس الجيش الأحمر ، بهذه الكلمة : « لقد ختم هذا الانسان حياته بالعار ، وذهب الى القبر موصوما على جبينه : هذا جاسوس عالمى ، هذا سفاح » •

قابلت فى مساء ذلك اليوم — أثناء تجولى — أحد المتحمسين الذين

يعملون فى أحد المصانع السوفييتية ، وتطرق حديثنا بدون قصد الى موت « تروتسكى » ، فكان كلامه تعبيرا عن نفس الأفكار التى دارت بخاطرى أثناء قراءة الخبر فى الصباح :

« لا أدرى ، أصحيح أن المعتدى على « تروتسكى » من أتباعه ؟ » .

واصلنا سيرنا ، فرأينا على عمود الملصقات اعلانا كبيرا عن احتفال شعبى (VOLKSFEST) (يشبه الى حد ما الاحتفالات التى تقام فى الموالدعندنا) (١) فعلق عليه قائلا :

« ألا تعلم أن بعض العمال عندنا فى المصنع يقولون : ان اقامة هذا الاحتفال الشعبى هو بمناسبة موت « تروتسكى » ولم أجبه بكلمة واحدة ، لأنه على الرغم من نهاية حركة التطهير فقد كان من الخطر جدا ، أن يتحدث المرء برأيه صراحة فى موت « تروتسكى » .

بدا لى مهما للغاية فى أغسطس سنة ١٩٤٠ — أى بعد ١٣ سنة من طرد « تروتسكى » من الحزب ، و ١١ سنة من نفيه خارج الاتحاد السوفييتى — أن بعض العمال لا يصدقون الرواية الرسمية لموت « تروتسكى » ، ويعتقدون أن « ستالين » يأمر بالاحتفال بموت هذا الثائر .

* * *

فى المعهد العالى للغات الأجنبية

انتهت الدورة التجهيزية فى المعهد العالى فى صيف عام ١٩٤٠ م ، واقتربت امتحانات آخر العام من نهايتها .

وبعد مضى أيام قليلة كنت أقف متوتر الأعصاب فى المعهد العالى للمعلمين فى المبنى رقم ٣٨ فى شارع « متروويسكا أوليتسا » وهو مبنى قديم يتكون من ثلاث طوابق ، ويقع بين محطتى مترو الأنفاق : محطة « القصر السوفييتى » و « منتزه الحضارة » . وسمعت من الطلبة أن هذا المبنى يضم أيضا معهد عال ، درس فيه « جوجول » ، وشعراء روسيون آخرون .

قيل لى فى المعهد :

— « لقد أنهيت الدورة التجهيزية فى معهد المعلمين ، فلم لا تكمل دراستك فيه » ؟

---

(١) (م . شامة) .

— أنا عندى ميل خاص لمعهدكم •

فضحك رئيس قسم شئون الطلبة وقال :

— « اذن فلنر ما عندك ، أمستعد لدخول امتحان القبول » ؟

— نعم ! فأنا على استعداد كامل ، متى أحضر لعمل هذا الامتحان ؟

— مهلا ! لا تسير الأمور بهذه البساطة ! املأ — من فضلك — هذه الاستمارة أولا ، وأجب على ما فيها من أسئلة ، ثم أحضرها غدا ، وبعد ذلك نبحث فى طلبك •

لقد كانت أسئلة الاستمارة تفصيلية ، تناولت كل صغيرة وكبيرة ، وبالطبع كانت هناك مجموعة من الأسئلة تدور حول الوالدين ، وللاجابة على ما يتعلق بأمى ، كتبت الجملة المعهودة التى أكتبها دائما فى مثل هذه الاستمارة : « قبضت عليها المخابرات العامة » • لقد كانت استمارة رسمية يضمن الموقع عليها كل ما كتبه من معلومات ، وقبل أن أسلمها سألت أحد الطلبة الذين كنت أعرفهم معرفة جيدة :

— « ما رأيك ؟ هل يضرنى لو كتبت فى الاستمارة أن أمى مقبوض عليها ؟ » •

— « كما لو كنت الوحيد الذى يكتب مثل هذا فى استمارته ، انه من الأمور العادية اليوم ، لو أراد المتحنون فى المعهد اعتباره أمرا يحول دون دخول الطالب لأفلس المعهد » •

وأنبأنى طالب آخر بما يشبه هذا الكلام :

« لوحظ أن كل الاستمارات التى ملئت فى عام ١٩٣٧م وجزء من ١٩٣٨م لم تخل من علامة × أمام السؤال عن الوالدين لأنهما — أو أحدهما — فى المعتقل ، فقد أشيع أن لجنة الامتحان تشتد فى الأسئلة ، لو عرف أعضاؤها أن الوالدين أو أحدهما مقبوض عليه ، ولكن سرعان ما رؤى عدم كتابة × لأن ذلك يلفت نظر المتحنين الى كثرة أعداد المقبوض عليهم » •

وكان الحق فى جانب هذين الطالبين ، فقد قرأ رئيس شئون الطلبة الاستمارة — وفيها أن أمى مقبوض عليها — ، ولم يبد عليه أن شيئا غير عادى استوقفه • ثم قال :

« سوف تؤدى امتحان القبول بعد أسبوعين تقريبا ، وفى غضون هذين الأسبوعين ستحصل على بطاقة شخصية (كارنيه) ليسمح لك

بالأكل هنا ، كذلك لن تكون هناك عقبات تحول دون قبولك فى مساكن الطلبة لو نجحت فى الامتحان » •

ودعته فرحا مسرورا • ثم انشغلت فى الأسبوعين التاليين — كما هى العادة — بالاستعداد للامتحان • وفى منتصف أغسطس تلقيت خطابا قصيرا تقول كلماته : « نقر هنا أن الزميل « ليونهارد » قد قبل فى الدورة الدراسية الأولى فى معهد المعلمين الحكومى للغات الأجنبية فى موسكو » • ثم انتهت بعد أيام قليلة اجراءات قبولى فى مساكن الطلبة •

وكما هو متبع فى كل المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى ، يستطيع كل طالب أن يحصل على مكان فى مساكن الطلبة ، ان قدم طلبا ، اذ أن لكل معهد عال مساكن خاصة لطلابه • وكانت مساكن معهدنا فى « بتروفيريجسكى برويك » رقم ٦ — ٨ • كانت هذه المجموعة من العمارات تابعة سابقا للجامعة الشيوعية للشعوب الغربية ، ولما حلت آلت هذه المبانى الى معهد المعلمين للغات الأجنبية • أعدت الحجرات بمعدل طالبين أو ثلاثة فى الحجرة الواحدة ان كانت كبيرة ، وهى فى مجموعها ممتازة نسبيا عن مساكن الطلبة الأخرى •

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٤٠ — عندما بدأنا نحن الجدد عامنا الدراسى — طلب منا أن يحدد كل منا الكلية التى يريد الدراسة بها : انجليزية أو فرنسية أو ألمانية ، فاخترت الكلية الانجليزية •

اشتمل جدول المحاضرات الجماعية — التى تضم الكليات الثلاث — على تربية ، وعلم نفس ، وتاريخ تربية ، والمذهب الماركسى اللينينى ، والتربية العسكرية . وبجانب هذا كانت محاضراتنا التخصصية : تاريخ انجلترا ، وأدب انجليزى ، وعلم الصوتيات ، وقواعد اللغة الانجليزية ، وعلم اللغات • تسلمنا جدول المحاضرات عقب اختيارنا للكلية مباشرة • وكان حضورها الزاميا ، يؤخذ الغياب فى كل محاضرة ، وكان عندنا فى اليوم من ٢ — ٣ محاضرات عامة ، تستغرق المحاضرة ٩٠ دقيقة وتقسم فى علم الأصوات ، والقواعد ••• الخ الى مجموعات صغيرة •

قسم طلاب السنة الواحدة الى ١٢ مجموعة ، ويبلغ عدد كل مجموعة من ١٥ الى ٢٠ طالبا تقريبا ، يدرسون فيها على هيئة

« سكاشن »[١] ولكنها لاتقارن بمثيلاتها فى الجامعات الغربية ، اذ أنها لا تخرج عن كونها درسا ، يشبه الى حد كبير حصة فى مدرسة .

يوجد هنا أيضا العديد من الامتحانات والاختبارات ، فكل طالب يحمل معه كراسة الفصل الدراسى وعليها صورته الشمسية ، يحملها معه دائما ويبرزها عند دخول المعهد ، وبجانبها كراسة صغيرة يسجل فيها درجات الاختبارات والامتحانات .

يعقد فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى نوعان من الامتحانات : ما يسمى بـ« ساتشوت » ، وفيه يمتحن الطالب فى كل المـواد التى عليه ، ولا يحصل على درجة،بل يكتفى بالكتابة فى كراسة الامتحانات التى يحملها بأنه أدى هذا الامتحان . وللطالب الحق فى أن يحاول أكثر من مرة فى وقت معين تأدية هذا الامتحان ، فهو يعتبر اذن مقـدمة للامتحان « الأصلى » (أو امتحان تأهيلى) ، فاذا أداه الطالب ، وأطلع أستاذه على ما يفيد ذلك مكتوبا فى كراسته ، يسمح له بدخول الامتحان « الصحيح » . ويعقد فى آخر الفصـل الدراسى فى أهم المـواد ، ويكون عادة أصعب من الامتحان الأول ، ولا يسمح بتأديته الا مرة واحدة ، ويحصل الطالب فيه على درجات .

اذا قارنا بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الغربية يبدو لنـا أن الرقابة على الطلبة ، ونظام الامتحانات فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى أشد ، وأصعب وأدق تنظيما . وتختلف أيضا عنها فى جامعات البلاد الأخرى بالتخصص الدقيق ، نعم يوجد فى بعض المدن السوفييتية الهامة جامعات تضم كليات مختلفة ، غير أن نظام الجامعات ليس هو الغالب ، بل نظام المعاهد التخصصية ، اذ لا يوجد — على سبيل المثال — فى الاتحاد السوفييتى كلية للهندسة ، بل معاهد متخصصة ، كل فى فرع ، مثل : المعهد العالى لصناعة آلات التبريد ، والمعهد العالى للتخطيط الهندسى ، والمعهد العالى للتعدين ... الخ .

يتناسب التخصص الدقيق فى معاهد الاتحاد السوفييتى مع الظروف التى تمر بها الدولة ، اذ تستطيع — بواسطته — فى وقت قصير جدا أن تخرج الأخصائيين فى كل المجالات ، وخاصة فى المجال الاقتصادى .

---

(١) نظام تنفذه الجامعة لدراسة المواد التى تحتاج الى مناقشة ، يستحيل اجراؤها فى محاضرة تضم أعدادا كبيرة من الطلاب . (م . شامة) .

وليس هناك خلاف فى أن هذا النظـــام أفاد الاتحاد السوفييتى — فارتفاع عدد الطلبة (ارتفع عددهم بعد الحرب عما كان عليه فى عام ١٩٤٠م) ضمان لاستمرار تخريج المتخصصين فى كل المجالات — غير أنه تسبب فى أن الخريجين ، وان كانوا على درجة عالية فى منطقـــة تخصصهم الا أن معلوماتهم فى المجالات الأخرى لا تساوى شيئا .

يكلف كل طالب بعد تخرجه بالعمل فى مجـــال تخصصه سنتين أو ثلاثة (كفترة تدريب عملى) وتتكفل الدولة أيضا بتعيينه بعد أداء الامتحان النهائى .

لقد أدهشنى الاستعداد الكامل فى المعهد العالى ، اذ يوجـــد فيه قاعات كبيرة للمحاضرات ، ومكتبة عامة ضخمة ، مزودة بالمراجـــع الهامة ، وبجانبها يوجد « مكتبة » لكل مادة تدرس فى المعهد (وتتبـــع القسم) مثل : علم النفس ، والتربية ، وعلم الصوتيات ، والتاريخ ، والأدب . ويجد الطالب فى « مكتبة المـــادة » (مكتبة القسم) المراجع الهامة فيها ، ويساعده فى الحصول على ما يريد رئيس القسم أو أحد مساعديه .

كانت مكتبة « مـــر » فخـــر المعهد ، نســـبت الى « نيكولاى جاكوفليفتش » تكريما له ، فقد كانت مؤلفاته بالنسبة لنا آنذاك حقائق لا تنقض فى علم اللغة ، فقضاياه اللغوية ، تشترك مع مؤلفات « ستالين » فى عدم نقدها أو نقضها ، صورت لنا على أنها قضايا أسست على النظرية « المـــاركسية اللينينية » ، فوجهت ضربة قاضية للآراء السطحية فى مجال علم اللغة ، اذ رأى « مر » أن اللغة جـــزء من البناء الطبقى ، لا يفهم تطورهـــا الا فى اطار تطور المجتمع ، فقد خلقت الانســـانية لغتها فى ظل مؤثرات العمل ، وتحت ظروف ارتباطات اجتماعية معينة ، ولذا فهى تتغير باستمرار ، طبقا لظروف نموذج الحياة الاجتماعى .

لم يفكر أحد منا — اللهم الا ان كان هذا فى منامه — آنذاك ، فى أن « مر » المنزه عن النقـــد ، سيتعرض بعد عشر سنوات لنقـــد « ستالين » وهجومه العنيف .

بلغ عدد الدارسين فى المعهـــد العالى للغات الأجنبية فى موسكو آنذاك حوالى ٢٥٠٠ دارسا ، منهم ٢٤٤٠ طالبة ، و ٦٠ طالبا ، فقـــد كان المعهد العـــالى الوحيد فى الاتحاد السوفييتى الذى يزيد فيه

عدد الطالبات عن عدد الطلبة بنسبة كبيرة جدا ، ولهذا أطلق عليه الطلبة تفكها « معهد الفتيات العفيفات » ولم يكن هذا المعهد مشهورا فقط باطلاق اسم « الفتيات العفيفات » عليه ، بل لأنه ضم أيضا طلبة أجانب هم أبناء وبنات اللاجئين السياسيين ، وكذلك أبناء وبنات زعماء الحزب والدولة وأبناء الدبلوماسيين الذين قضوا مدة طويلة فى الخارج .

أنشأت صداقات مع طلبة المعهد ، ولم يكن أصدقائى من الروسيين فقط ، بل من الطلبة الأجانب ، فقد كان من بين أصدقائى طالب بولندى ، اشترك فى الفرقة العالمية التى قاتلت فى الحرب الأهلية الأسبانية ، وفتاة أمريكية ، وأخرى كورية ، وطالبة سوفييتية ، قضت زمنا طويلا فى « خربين » لأن أبويها كانا مستخدمين فى هيئة السكك الحديدية المنشورية (نسبة الى منشوريا) ، كذلك صادقت كثيرا من التلاميذ السابقين الذين كانوا معى فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » .

رغم تمييز معهدنا بهذه الصفات الفريدة ، فقد كان ذا طابع روسى ، اذ كان فيه — كما هو الحال فى كل المعاهد العليا — بجانب الدراسة نشاط أطلق عليه « العمل الاجتماعى » ، وتحدده منظمة الشباب ، وترسم خططه فى اجتماعات الحزب (كان كثير من الطلبة أعضاء فى الحزب) . لم تختلف اجتماعات منظمة الشباب فى المعهد عنها فى المؤسسات الأخرى ، اجتماعات مملة ، ليس فيها ما يثير ، اذ لم تخرج عن مناقشة ما أسند الى الأعضاء ، وبيان أن هذا العضو أو ذاك نفذ التعليمات .. أو .. أو ..الخ ولم تناقش المسائل السياسية الا فى مناسبات العطلات الرسمية مثل : قبل أول مايو ، وفى يوم الثورة ٧ نوفمبر ، أو قبل ٢٣ فبراير ، وهو يوم الجيش الأحمر . وكنا نسمع فى هذه الاجتماعات الخطب المعروفة التى تلقى فى جميع المؤسسات والمصانع ، ومن الغريب أن بعض أعضاء منظمة الشباب المتحمسين للاتجاه السياسى كانوا يسمعون نفس الخطبة مرتين فى مناسبة واحدة .

كان أقل من هؤلاء تحمسا أعضاء ما يسمونه « التنظيم الشعبى » الذى ينتمى اليه أيضا — بالضرورة — كل عضو من أعضاء « الكمسمول » . كونت المنظمة « جمعية واجبات الدفاع » فى مجال الطيران والكيمياء ، ومن أهم الواجبات ، تنظيم دروس للشباب فى القفز بالمظلات ، والتدريب على الرماية ، وتعليم وسائل الدفاع الجوى ، واستعمال المواد

الكيماوية فى مجالات الدفاع ... الخ . لكن اقتصر واجبنا — نحن أعضـاء الجمعية — من الناحية العملية ، على دفع الاشتراك ، وسماع ثلاث محاضرات أو أربعة فى السنة عن الدفاع المدنى .

تكون فى معهدنا تنظيم آخر ، أطلق عليه « التنظيم العالمى لرعاية المناضلين من أجل الثورة » كان يرعى كثيرا من اللاجئين السياسيين ولكنه لم يكن له نشـاط يذكر فى معهدنا ولا فى المعاهد العليا الأخرى ، الا أنه انعقـد فى ٨ مارس — وهو يوم الجمعية الباريسية ، اتخذه التنظيم عيدا له ، يحتفل فيه — اجتماع عام بناء على دعوة هـذا التنظيم العالمى . وتحدث فى اجتماعنا — يوم ١٨ مارس ١٩٤١م — « فلهلم بيك » فعرض لنا فكرة عامة عن الموقف الدولى .

كان التنظيـم الثـالث الـذى كنت عضـوا فيـه — كما كان ينتمى اليه كل أعضاء منظمة الشباب فى المعهد — يسمى « اتحـاد الملحدين المناضلين » . فقد هذا التنظيـم — بمرور الزمن — أهميته كلية ، وأصبح لا لزوم له ، فقد لوحظت سياسة جديدة تجاه الكنيسة فى نهاية الثلاثينات ، وكانت أكثر وضوحا أثناء الحرب . ومن جانب آخر كانت مهمة هذا التنظيم بالنسبة لنا — أعضـاء منظمة الشباب والطلبة — لا مكان لها من الناحية العملية ، فقد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب ، لم يمسسها أى تيار دينى ولهذا لم نشغل فكرنا اطلاقا بهذا الجانب . وأقل ما يتصور أن مهمة هذا الاتحاد لم يعد لها وجود ، اننى لم أقابل — فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى — انسانا واحدا من جيلى ، ليس ملحدا .

انتشر خبر مقتضب جدا فى أوائل عام ١٩٤٢م — لم أكن فى هذا الوقت مقيما فى موسكو — مفاده أن اتحاد الملحدين المناضلين قد حل ، دون اعطاء تفسير لهذه الخطـوة ، بل لم تنشر وسائل الاعـلام شيئا عن قرار الحل اطلاقا . وطبقا لطبيعة الأسلوب السوفييتى — كلمـا رجع الاتجاه السياسى الى ما كان عليه فى المـاضى — فى طمس معالم التاريخ لخدمة الأيدلوجية السياسية ، لم يعد يذكر — حتى فى الطبعات الجديدة لدائرة المعارف السوفييتية — أن هذا التنظيم « اتحاد الملحدين المناضلين » كان له وجود فى يوم من الأيام .

* * *

حيـــاة الطالب الســـوفييتى

أصبحت فى غضون هذا العام أحد الـ ٦٠٠ر٠٠٠ طالبا الذين كانوا يدرسون آنذاك فى الاتحاد السوفييتى ، وكان برنامجى اليومى مماثلا لبرنامج كل طالب آخر •

كنت أحضر المحاضرات المقررة ، و « السكاشن » حتى وقت متأخر من بعد الظهر (أى حتى بعد العصر)(١) ، وأتناول طعام الغداء فى مطعم المعهد ، ولا أعود — فى معظم الأيام — الى حجرتى الا فى المساء •

كانت مساكن معهدنا تعتبر أحسن من مساكن المعاهد العليا الأخرى ، ولكنها اذا قيست بالمدن الجامعية فى البلاد الغربية ، فهى بدائية جدا ، اذ يوجد فى الحجرة دولاب صغير ، بسيط جدا ، نحفظ فيه معاطفنا ، وأحذيتنا الطويلة (أحذية برقبة طويلة ومصنوعة خصيصا لحماية القدم من برد الشتاء ، ومن رطوبة الثلوج)(٢) التى نلبسها فى فصل الشتاء فى موسكو • أما « الكراكيب » الأخرى ، التى فى حوزتنا ، فكنا نضعها — مثلنا فى هذا مثل كل الطلبة الآخرين — فى حقيبة صغيرة ، وضعت تحت السرير •

كان البرد فى الشتاء قارسا ، ولم تكن التدفئة كافية ، مما كان يضطرنا — فى غالب الأحيان — الى الجلوس فى الحجرة ، مرتدين المعاطف الشتوية ، كى نستطيع تحضير الدروس ، ومراجعة ما أخذناه •

كان « الكيس الدافىء » المنقذ الوحيد لنا فى مثل هذه الليالى الباردة وهو عبارة عن قربة مملوءة بالمـــاء الساخن (وللأسف لم يكن ساخنا فى بعض الحالات ، بل فاترا) الذى نستعمله فى عمل الشـــاى • وكان لدى بعض الطالبات سخانات كهربائية بدائية ، لعمل الشـــاى والقهوة ، على الرغم من أن استعمال مثل هذه الآلات ممنوع فى المدينة الجامعية ، أما ما يتعلق بالملابس فقد استطعت تدريجيا أن أجارى الطلبة الآخرين ، لدرجة أنى أصبحت مثل الطلبة السوفييت ، وصار من المتعذر على من يرانى أن يظن أنى أجنبى •

كان التعليم آنذاك مجانيا ، وعلاوة على هذا كان كل طالب يحصل من الدولة على منحة دراسية ، ترتفع اذا انتقل الطالب الى دورة أعلى

---

(١) (م • شـــامة) •
(٢) (م • شـــامة) •

(الدورة الدراسية فى الاتحاد السوفييتى فصلين دراسيين ، أى عام دراسى كامل) ، تراوحت المنح آنذاك ما بين ١٤٠ روبل فى أول دورة و ٢٨٠ فى الدورة النهائية •

كان هذا المبلغ كافيا فى ذلك الوقت لمواجهة ضروريات الحياة فقط ، أعنى لدفع الايجار الرمزى فى المدينة الجامعية ، ولشراء ما يحتاجه الطالب من أكل وشرب لسد الرمق فقط • أما الملابس فلا يستطيع الطالب شراءها من المنحة ، الا اذا اقتصد ، بحيث يعيش عيشة الكفاف ، واستطاع ذلك عدد قليل جدا من الطلبة ، ولم أفهم حتى اليوم ، كيف استطاعوا ذلك !

سعى الطلبة الى الحصول على ما ينقصهم من مال ، كل بطريقته الخاصة ، فبعض الطلبة الذين لهم آباء ، أو أصدقاء ، أو أقارب يعيشون فى الريف كانوا يحصلون على طرود مملوءة بالمواد الغذائية (زوادة) وخلافه ، وآخرون تلقوا النقود من آبائهم ، أو من معارفهم الذين يقيمون فى المدينة • وكان هناك فريق ثالث — وعددهم ليس قليلا — مارسوا أعمالا — مثل تنظيف الشوارع من الثلوج ، أو ترجمة ، أو اعطاء دروس فى اللغة الأجنبية — للحصول على ما يحتاجون ، غير أن هذه الأعمال الاضافية أثرت على الدراسة تأثيرا سلبيا لدى الطالب المتوسط الذكاء والتحصيل •

حصل معظم الطلبة الأجانب — وعلى الأخص أبناء وبنات اللاجئين السياسيين — من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، على مساعدة اضافية ، بلغت قيمتها ٢٠٠ روبل شهريا • وهكذا بلغ مجموع ما نحصل عليه ٣٤٠ روبل ، ومع هذا كنت أعيش بهذا المبلغ عيشة أحصل فيها على ضروريات الحياة فقط • كذلك حصل الطلبة الروسيون ، الذين فقدوا الأب والأم ، وتربوا فى دور الاحداث على مساعدة ولكنها لم تبلغ قيمة المساعدة التى كنا نأخذها من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة •

ولكن لم تضايقنا الصعوبات المادية . فقد كنا جميعا مشغولين بالدراسة لدرجة أننا لم نهتم كثيرا بالجرى وراء حياة رغدة لينة — باستثناء مجموعة صغيرة — وخاصة اذا كنا نرى طبقات أخرى من الشعب تكافح كفاحا مريرا ، ومع ذلك لا تحصل الا على الكفاف •

شغلنى آنذاك شيء آخـر ، وأقلق راحتى أكثر من هـذه الأمور المـادية ، فمنذ نهاية حركة التطهير الكبرى فى أوائل عام ١٩٣٩م ، وأنا أعتقد أن زمن التجسس قد ولى ، وأن الاجراءات المخيفة لن تعـود ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتقاد .

فقد كنت على علاقة وثيقة بطالبة ، لا أستطيع اليوم أن أصفها وصفا يدل عليها ، لأنها لا زالت تعيش فى ألمـانيا الشرقية ، كانت من الأفراد القلائل الذين كنت أستطيع التحدث معهم بصراحة .تحدثنا فى تجوالنا فى منتزه الحضارة ، وعلى ضفاف « نهر موسكفا » عن المسائل التى يهتم بها الشباب فى كل البلاد ، وأحيانا عن الأشياء التى تضايقنا فى الاتحاد السوفييتى . كانت هذه الأحاديث بالنسبة لنا أمرا ضروريا لا نكف عنه .

وذات يوم همست فى أذنى ، عندما كنت واقفا فى احدى طرقات المعهد « فولوديا » (وهو الاسم الذى كنت معروفا به بين الطلبة) لابد أن أتحدث معك الليلة على انفراد فى موضوع هام جدا » .

توترت أعصابى حتى جاء المساء ، وقبل أن نتحدث أخذت منى عهودا : « عدنى أنك لن تتحدث مع أى انسان ، مهما كانت الظـروف بما أقوله لك الآن » .

ووعدتها بذلك (ووفيت بوعدى أيضا) .

« عدنى أنك لن تفعل شيئا اطلاقا ، يفهم منه أنك تعرف أسرارى » .

وبعد أن أعطيتها الوعد بذلك ، بدأت تتكلم بصوت متهدج :

« أنا أعمل مع المخابرات العامة ، فمنذ بضـعة أيام طلبونى ، وأجبرونى على التوقيع على ورقة مكتوب فيها ، أننى مستعدة أن أزودهم بالمعلومات التى يطلبونها ، وألا أقول لأحد شيئا عن مهمتى » .

« والآن أنا مكلفة بكتابة تقـارير بصفة مستمرة عن بعض طلبة معينين . ولن أوقع على هذه التقارير باسمى الحقيقى ، بل باسم مستعار ، معروفة به عندهم فى مجال هذه المهمة » .

— « عن أى شيء تكتبين تقاريرك ؟ عن الكلام ضد الحزب ؟ » .

— « ليس هذا فقط ، فهذا قليل نسبيا ، بل مكلفة بالكتابة عن كل شيء يصدر من الأشخاص الذين سموهم لى ، سواء تتعلق بالسياسة مباشرة ، أو بطريق غير مباشر » .

— « هل كتبوا اسمى فى هذه القائمة ؟ » •

— « لا ! حتى الآن لم أكلف بالتجسس عليك ، ولكنى متأكدة من أنهم سوف يسألوننى عنك ، فقد قيل لى : انها البداية وستأتى أسماء أخرى • ولا أدرى ان كنت أستطيع أن أتغاضى عن ملاحظاتك على الموقف السياسى ! أعتقد لا ! ولهذا أرجوك ألا تتحدث معى ابتداء من اليوم فى موضوعات سياسية » •

نظرت فى عينيها ، فلاحظت أنها حزينة جدا ، حزينة لأنها لم تعد تستطيع التحدث معى بصراحة ، ذلك الحديث الذى كان يخفف عنها كثيرا من الآلام النفسية ، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى حزنها ، بل بدا أيضا — بصفة خاصة — أنها متضايقة نفسيا ، لأنها أجبرت على العمـل مع المخابرات العامة ، وقد أحسست هذا بوضوح • ولكن عندما أفصحت لى عن كل ما فى نفسها ، علمت أنها لم يكن لها أن تختار طريقا آخر ، لورفضت العمل مع المخابرات العامة لأثارت الشكوك حولها ، ولربما ترتب على رفضها القبض عليها •

كان اطلاعها اياى على عملها الجديد ، وبطريقة تفصيلية تناولت كل صغيرة وكبيرة (لم أسرد كل ما دار بينى وبينها ، حتى لا أعطى المخابرات العامة معلومات تمكنها من الاهتداء الى شخصيتها) دليلا على صداقتنا المتينة التى أعتز بها ما حييت •

استولت على كآبة قاتلة من هذا الخبر ، وأزعجنى ما روته لى من ناحية أخرى ، اذ أصبح مؤكدا عندى أنها ليست الوحيـدة التى تقوم بهذا العمـل ، بل يوجد بيننا طلبة ، وطالبات ، يكتبون للمخابرات العامة بصفة مستمرة ، عن كل الأحاديث التى تدور بيننا فى المعهـد العالى ، وفى المدينة الجامعية •

كم عدد هؤلاء ؟ مر بذهنى صور وأسماء من أعرفهم من الطلبة والطالبات • ترى ، من منهم يقوم بكتابة التقارير للمخابرات العامة ؟ وتركزت شكوكى حول أحد الطلبة الذين أعرفهم ، ولكن ! هل أستطيع أن أتأكد من ذلك ؟ وهل كان من الممكن أن أشعر بأن هذه الطالبة تكتب للمخابرات لو لم تخبرنى هى بذلك ؟ ومن يضمن لى أن أحدا من أصدقائى الطلبة لم يجبر أيضا على أن يقوم بهذه المهمة ؟ وهل توجد لديهم الشجاعة فيخبروننى بما يقومون به ، وبذلك يكونون قد أفشـوا خبرا التزموا التزاما اجباريا بأن يحافظوا على سريته ؟ •

سرى شعور مقبض فى جميع خلايا جسمى ، اذ من المحتمل أن يكون كل حديث — حتى ولو تناول الأمور السياسية من زاوية بعيدة — قد سجل كتابة وبعث به أسبوعيا الى المخابرات العامة ، لم أكن ضد النظام اطلاقا — ولكن ! ألم أقل شيئا — فى وقت ما — ضد الاتجاه الرسمى لسياسة الدولة ؟ ••• ثم قررت — ابتداء من هذا اليوم — أن أكون أشد حرصا من ذى قبل ، وأن ألتزم « الخط » التزاما دقيقا فى كل المحادثات ، واذا أمكن فلأحاول تغيير مجرى الحديث بعيدا عن الموضوعات السياسية ، وطرق المجالات التى لا تمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد •

* * *

الضربة الكبرى فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠

لم يكن قد مضى على التحاقى بالمعهد العالى سوى أربعة أسابيع ، عندما وصلنا فى صباح ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٠ خبر — كان وقعه علينا كالصاعقة — غير مجرى حياة الطلبة تغييرا جذريا •

أحضر طالب — ساقته قدماه الى الشارع ، عندما استيقظ مبكرا جدا — الجريدة معه ، ودق على أبواب الحجرات وهو يردد بصوت عال :

« ألغيت المنح الدراسية » •

فقال زميلى فى الحجرة : « لقد جن هذا الغبى » ولكنه رغم هذا أسرع فارتدى ملابسه ، وحذوت حذوه •

وعندما خرجنا الى الطرقة ، وجدنا مجموعة من الطلبة متحلقة حوله ، وهو يقرأ عليهم فى « برافدا » قرار مجلس وزراء الاتحاد السوفييتى فرض مصاريف التعليم ، فى المدارس المتوسطة ، وفى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى :

« نظرا لارتفاع الرخاء المادى لعمال ومستخدمى الدولة •••• »

عندما سمعنا هذه البداية ، توقعنا شرا •

قرأ أولا ما يتعلق بمصاريف التعليم فى الثلاث سنين الأخيرة من المرحلة المتوسطة ، ثم تلى ذلك الضربة التى أصابتنا :

« وبالنسبة للدراسة فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى تقرر دفع المصاريف على النحو التالى :

(أ) فى المعاهد العليا التى مقرها فى موسكو ، ولينينجراد ، والمدن الرئيسية فى الاتحاد السوفييتى — ٤٠٠ روبل فى السنة •

(ب) فى المعاهد العليا التى يكون مقرها فى مدن أخرى ، غير ما سبق ذكرها فى البند السابق — ٣٠٠ روبل فى السنة •

(جـ) فى المعاهد العليا ، للموسيقى ، والفن ، والمسرح — ٥٠٠ روبل فى السنة •

وتدفع المصاريف فى المعهد الذى يدرس فيه الطالب على قسطين : الأول ١ سبتمبر ، والثانى ١ فبراير •

ملحوظة : لا يجوز تأخير دفع القسط الأول من مصاريف العام الدراسى ٤٠/١٩٤١م عن أول نوفمبر من هذا العام » •

عم الحزن وجوه الطلبة كلهم ، لا بسبب الغاء مجانية التعليم فقط ، بل أيضا — وبصفة خاصة — لأن القسط الأول من هذا العام يجب ألا يتأخر دفعه عن أول نوفمبر •

قال أحدهم بنبرات يائسة : « لم يبق سوى ٢٧ يوما » •

فكرنا طويلا فى تدبير هذا المبلغ ، واتجه اهتمامنا الى كيفية توفيره من المنحة الشهرية التى نتقاضاها ، ولكن جاءتنا الضربة الثانية ، فقد تقرر — باجراء مماثل — وقف صرف المنح الشهرية ، ولا يحصل عليها مستقبلا الا الطلبة المتفوقون •

وكما هو متبع فى الاتحاد السوفييتى ، فقد عقدت ندوات لبيان الأسباب التى دعت الى « تغيير قواعد توزيع المنح الدراسية » — حسب ما جاء فى التعبير الرسمى — وفرض مصاريف على التلاميذ والطلبة •

انتهت الندوة فى معهدنا طبقا للخطة الموضوعة ، ولم يحدث ما يعكر الصفو ، فبعد أن انتهى الخطيب من كلمته ، صفق له الحاضرون كالمعتاد ، ثم استفسر عما اذا كان هناك شىءغير واضح أو أسئلة تحتاج الى شرح ، أو طالب يريد التعقيب على النقاط التى تناولها ، فسكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يرفع أحد يده طالبا الكلمة •

وبعد بضعة أيام روى لى طالب أن وكيل وزارة التربية والتعليم ألقى محاضرة فى أحد المعاهد العليا فى موسكو عن القانون الجديد ، وبعد أن انتهى من محاضرته ، وجه اليه طالب أمام الحاضرين هذا السؤال :

« كيف توفق بين القانون الجديد ، وبين المـادة رقم ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتى ؟ » .

كان سؤالا محرجا — فالمـادة ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتى ، تنص على مجانية التعليم فى جميع مراحل التعليم ، بما فيها المعاهـد العليا .

بين وكيل وزارة التربية والتعليم بأن القانون تضمن الدواعى والأسباب التى أدت الى اتخاذ مثل هذا الاجراء ، وسوف تغير تلك المـادة من الدستور لتتلائم مع القانون الجديد . وقد حدث هذا فعلا ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه الحالة ليست الوحيدة التى يتعارض فيها القانون فى الاتحاد السوفييتى مع الدستور .

ولكن الطلبة لم يشغلوا أذهانهم بعد ٢ أكتوبر ، بأن القانون يتعارض مع الدستور أم لا ، بل أمعنوا التفكير فيما ينبغى أن يفعلوه ليسددوا المصروفات .

جاء فرض مصاريف دراسية ، والغاء المنح الدراسية فى وقت واحد ، ولهذا أصبح من غير الممكن على كثير من أبناء الريف وبنات العمال ، والفلاحين فى المزارع الجماعية أن يستمروا فى التعليم .

رأيت فى تلك الأيام عيونا باكية ، وحتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا . وكان الموقف الدرامى — الذى تأثرت به بنوع خاص — وداع طالب ، أحمر الشعر ، ينحدر من أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهدا فى دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرسا لتلاميذ المرحلة المتقدمة فى المدارس ، وكانت تبدو عليه — قبل صدور هذا القانون — علامات السرور ، كلما تذكر أنه كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله .

ولكن لم يكن الطالب الوحيد ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد — لأنهم من أسر فقيرة ، لا تستطيع أن تصرف عليهم — فى ازدياد مستمر . والحقيقة أنه لم يبق فى المعهد الا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار .

لم يكن معظم الطلبة الأجانب ، وكذلك كل الطلبـة الروسيين الذين نشأوا فى دور الأحداث ينتمون الى الطبقة القادرة على مواصلة

الدراسة • ولهذا فقد اعتقدنا فى بادىء الأمر أننا سنضطر أيضا الى ترك المعهد ، غير أنه بعد مضى بضعة أيام ، تلقى الطلبة الروسيون الذين تربوا فى دور الأحداث تأكيدات بأنهم سيحصلون على المعونات اللازمة لاستمرار دراستهم • وفى هذه الأثناء سعى الطلبة فرادى لدى رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة التى ساعدتنا بين الحين والآخر ، وسرعان ما وصلت الينا أنباء تفيد بأنهم لن يتركوننا فى هذا المأزق بدون مساعدة ، فقد وعدت الرابطة بأن تدفع مصاريف الدراسة للمعهد ، وتبلغ ٤٠٠ روبل سنويا ، كما ستعطينا منحة شهرية زيادة على المساعدة التى نأخذها منها قبل الغاء المنح الدراسية التى كنا نتقاضاها من الدولة •

كلما أعود بذاكرتى الى الوراء ، لا أتذكر فقط مواقف الوداع المؤلمة ، التى شاهدت فيها وداع كثير من أصدقائى الطلبة فى المعهد ، بل يبدو لى واضحا أيضا أن هذا القانون أشار الى خطوة جديدة فى تطور نظام ستالين •

فتولى المناصب فى الاتحاد السوفييتى مقصور على خريجى المعاهد العليا ، الا ما كان نادرا ، وقبل ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠م كانت الفرصة — من الناحية العملية — سانحة ، ومهيئة لكل الموهوبين ، والمهرة من أبناء وبنات العمال والفلاحين — بصرف النظر عن مدى قدرة أسرهم المادية — بأن يتموا المراحل المدرسية ، ويدرسوا فى المعاهد العليا ، وبهذا كان الطريق مفتوحا أمامهم لارتقاء سلم الوظائف الى نهايته — وهى حقيقة أشادت بها آنذاك وسائل الاعلام مرارا وتكرارا • ولكن أصبحت القاعدة منذ ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠ مغايرة تماما لهذا المفهوم ، فلن يستطيع — بعد صدور القانون الجديد — الصعود فى سلم المناصب العليا فى الدولة الا أبناء وبنات طبقة معينة ، ألا وهى الطبقة المهيمنة على الوظائف الكبرى فى الحزب ومؤسسات الدولة ، اذن فقد قفلت الدائرة : فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير — امتدت من ٣٦ الى ١٩٣٨م — التى أطاحت بـ « المجموعة القديمة » ، بدأت فى عام ١٩٤٠م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى ، وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم •

السؤال عن اللاجئين الألمـان مرة أخـرى

فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠م — أى بعد مرور عام ونصف على توقيع معاهـدة عدم الاعتداء مع ألمـانيا ، وبعد مـرور بضـعة أسابيع على زيارة « مولوتوف » لبرلين — تذكر المسئولون فجأة اللاجئين السياسيين الألمـانين •

فبعد أن حل بيت الطلبة الذى كنا — نحن أبناء وبنات اللاجئين السياسيين الألمـانيين والنمسويين — نقيم فيه ، لم نتقابل ، ولم ير بعضنا البعض الا نادرا ، وبطريق الصدفة ، لأن معظمنا كان يعمل فى المصانع ، والبعض كان لا يزال يقيم فى المقر الروسى لرعاية الأطفال ، والبعض الآخـر التحق فى هذه الأثنـاء بالمعاهد العليا ، كذلك تزوج عدد منا بنات روسيات ، واندمجوا فى الحياة الروسية •

دهشت كثيرا عندما تلقيت فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠ م — أى بعد أسابيع قليلة من عودة « مولوتوف » من برلين — دعوة لحضـور أجتماع سيعقد تحت رعاية اللجنة المركزية لرابطة التنظيم العـالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة • كنت مسرورا ، لأن هذا الاجتمـاع سيتيح لى رؤية أصدقائى السابقين •

ذهبت الى مقر الرابطة مشدود الأعصاب ، أستحث عقارب الساعة للوصول الى الساعة ٨ مساء ، وهو الموعد المحدد للاجتماع • وهناك تبودلت التحيات بحرارة ، فقد قابلت — حقيقة — عددا كبيرا من زملائى السابقين فى بيت الطلبة رقم ٦ ، وكذلك كثيرا من الشباب الألمانى أبنـاء وبنات اللاجئين السياسيين الذين أقامـوا — بعد حل مقرنا — مع أسرهم • علمت أن كلهم تقريبا التحقـوا بمنظمة الشباب ، ولاحظت أنهم يتحدثون اللغة الروسية بطلاقة ، بل ان بعضهم كان يتحدث الروسية أحسن من الألمـانية •

لقد كان الوقت قصيرا لتبادل التحيات ،وتبادل الحديث ، واستعادة الذكريات ، لأنهم سرعان ما طلبـوا منا أن نتخـذ أماكننـا فى القاعة الكبرى ، ثم بدأ البرنامج الرسمى بخطبة ألقاها أحد كبار الشيوعيين النمسويين ، ومما قال فيها :

« أيها الرفقاء : لقد دعوناكم لنصل ما انقطع من احكام الرباط

بيننا ، ولن يقتصر الأمر على لقاء واحد فقط ، بل ابتداء من اليوم ، سنجتمع أسبوعيا ، مساء كل يوم اثنين للتثقيف السياسى ، وسوف يقسم جميع الحاضرين الى مجموعات صغيرة ، لأن واجبكم لن يكون حضور اجتماع يوم الاثنين فقط لسماع المحاضرة العامة ، بل ستتكلفون أيضا بقراءة كتب ، سنعينها لكم ، لتناقشوها فى اجتماع المجموعات الصغيرة •

وأحب أن أشير هنا بنوع خاص الى أن هذه الدراسة لكم فقط ، فلا يجوز لأحد منكم — لأسباب لا تخفى عليكم — أن يتحدث عنها ، أو يخبر بها أحدا خارجا عن محيطكم بما يدور فيها مهما كانت الظروف » •

لقد عشنا زمنا طويلا فى الاتحاد السوفييتى ، تعلمنا فيه ، وجوب المحافظة على مثل هذه التعليمات ، ولهذا لم نخبر معارفنا الروس بشىء من هذا اطلاقا • ومما يدل أيضا على اهتمامهم غير العادى بهـذه الدراسة ، أنهم سـمحوا لكل الذين يعملون فى المصانع فى الوردية المسـائية أن يتغيبوا عن العمل ، دون أن يعلم المسئول فى المصنع سببا لهذا سوى أنه بناء على أوامر السلطات العليا •

كذلك لم أتحدث مع الطلبة الروس عن هذه الدراسة الخاصة ، ولكن الأفكار حول هذه الدراسة لعبت بذهنى ، فقد أثار اجتمـاع الزملاء من الألمـانيين والنمسويين المقيمين فى موسكو بعد سنة ونصف الشكوك عندى ، وجعلتنى أكاد أعتقد أنها اشارة الى أن العلاقة مع ألمـانيا الهتلرية ، ليست كما تدعى التصريحات الرسمية بأنها طيبة •

لم يلاحظ فى وسائل الاعلام السوفييتية أدنى اشارة تدل على سوء العلاقة مع ألمـانيا ، فكلما جاء فى الصحف الأجنبية أنباء يمكن أن تسىء الى هذه العلاقة بأى وجه ، أسرعت الجهات الرسمية الى نفيها بشكل قاطع ، وحازم • وركزت وسائل الاعلام على رحلة « مولوتوف » الى برلين ، بأنبائها ، وتعليقاتها ، وفى منتصف نوفمبر أعادت « برافدا » نشر صورة من اللقاءات ، ظهر فيها « مولوتوف » مع هتلر •

كذلك تجنبوا فى ندوات التثقيف السياسى — التى تعقـد مساء كل يوم اثنين ، فى مقر رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة — الخوض فى الموضوعات التى تمس الوضع العالمى المعاصر ، وعلاقة الاتحاد السوفييتى بألمـانيا الهتلرية • وكان موضوع دراستنا ينحصر فى دراسة تاريخ الحزب الشيوعى — ولثالث مرة أشترك فى

دراسة هذا التاريخ — وبعض المسائل الهامة فى النظرية « الماركسية اللينينية » ، وسماع محاضرات عن تاريخ الحركة العمالية فى ألمـــانيا . ففى اللقاء الثانى سمعت محاضرة من أحد المســئولين الذين كنت أسمع عنه قبل ذلك دون أن أراه ، ألا وهو « فالتر أولبريخت » تناول فيها بالتفصيل ثورة سنة ١٩١٨ م ، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن الوضع الحالى لحركة الكفاح ضد الفاشية . وسمعنا مرة أخرى محاضرة عن طبيعة الحرب العالمية ، وانطلاقا من الرأى الرسمى فى التفريق بين الحـــرب الشرعية ، والحرب غير الشرعية ، حاول المحاضر أيضا التدليل على أن الحرب من كلا الجانبين — سواء من جانب ألمـــانيا وايطاليا أو من جانب انجلترا وفرنسا — هى حرب استعمارية ، غير شرعية .

لم ألاحظ تغييرا فى « الخط السياسى » الا فى أوائل عام ١٩٤١م ، ففى احدى المحاضرات ، تحدث « أولبريخت » عن احتمال تغيير طبيعة الحرب — وهو أمر حدث ويحدث فى التاريخ — تبعا للظروف التى تمر بها ، وحينئذ خيم على القاعة صمت رهيب ، لأن مثل هذه الملاحظة لا يمكن أن يقرأها المرء آنذاك فى الصحف . ثم واصل « أولبريخت » حديثه قائلا : « فهذه حقيقة هامة جدا بالنسبة لهجوم ألمـــانيا على يوغوسلافيا واليونان ، اذ أن هناك عناصر هامة — وخاصة فى قضية يوغوسلافيا — يمكن أن يستخلص المرء منها الحكم بأن الحرب الدفاعية التى يشنها كلا الشعبين ضد الهجوم السافر عليهما هى حرب شرعية » . وعلى الرغم من أن « أولبريخت » كان حريصا جدا فى تعبيره وتجنب أيضا كلمة الفاشية — التى كان محرما التلفظ بها منذ توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين ألمـــانيا والاتحاد السوفييتى — فى هذه الحالة الا أن هذه الاشارة كانت كافية لى .

انقضت بضعة أسابيع ، لم نتناول فيها الموضوعات الحساسة التى تمس العلاقة بين ألمـــانيا والاتحاد السوفييتى . وفى يوم الاثنين ٢٦ يونية سنة ١٩٤١م ، جئنا الى مقر الرابطة ، لتواصل دراستنا المسائية كالمعتاد ، وكان المتحدث فى هذه الليلة « أولبريخت » أيضا ، وبعـــد أن تحدث ما يقرب من ساعة ونصف ، أعلن فى نهاية المحاضرة — كالمعتاد — فتح باب الأسئلة ، فتقاطرت عليه من كل جانب حول موضوع المحاضرة — على ما أذكر — لم يكن له علاقة مباشرة بالوضع الحالى ، ولكن

تحولت المناقشة تدريجيا الى أن أصبحت تدور حول الأحداث المعاصرة آنذاك ، فوجه اليه أحد المستمعين هذا السؤال :

« أيها الرفيق « أولبريخت » ، تتحدث الجرائد الأجنبية ــ ويزداد ما تنشره حول هذا الموضوع يوما بعد يوم ــ عن توقع هجوم ألمــانى على الاتحاد السوفييتى ، الا أن وسائل الاعلام السوفييتى تكذب هذه الأنباء تكذيبا قاطعا ، ولكن ! هل يمكن أن تعطينا فكرة دقيقة عن هذا الموضوع ؟ » .

غير أن « أولبريخت » لم يجب على السؤال مباشرة ، بل أعاد ــ مجملا ــ التكذيب الرسمى الذى قرأناه فى الصحف ، ثم اختتم جوابه بهذه الكلمة :

« هذه اشاعات تروجها جهات بغية الاستفزاز ، ولن تقع حرب بين ألمــانيا والاتحاد السوفييتى » .

وبعد ستة أيام بدأ هجوم « هتلر » على الاتحاد السوفييتى .

* * *

الباب الثالث

موسكو فى بداية الحرب

أعلن فى لوحة الاعلانات ، أن الاجتمـاع القادم لطلبة كليـة الدراسات الانجليزية ، للاحتفـال بأول مايو ، سيعقد مساء يوم ٣٠ أبريل فى « أولا » .

وعندما وصلت الى « أولا » ، قبل بدء الاحتفـال بوقت قصير ، كان يسود الجو العام مزاج معتدل ، وشعور مرح . فقد كان طقس ربيع عام ١٩٤١ جميلا جدا ، والبنات تزينت ، وارتدت أجمل ما عندهن ، والكل فرح باليومين التاليين لأنهما اجازة ، كذلك ذهب الروع والخوف ، فقد انتهت حملات التطهير منذ وقت طويل ، وأصبح قانون ٢ أكتوبر تاريخا قريبا .

اتخذ الزعماء والقادة أماكنهم على المنصة ، مدير الكلية ، وبعض الأساتذة ، وسكرتير الحزب ، وسكرتير منظمة الشباب ، وكذلك بعض الطلبة المقربين .

بدأ الاجتمـاع بما يبدأ به كل اجتماع ، وهو انتخاب هيئة رئاسة شرف من المشرفين على اقامة المؤتمر ، بعد ترشيحهم طبقا للتعليمات المحددة . وكلما ذكر اسم « ستالين » و « مولوتوف » و « فوروشيلوف » تضج القاعة بالتصفيق الحاد ، وعندما يذكر اسم « ستالين » نقف اجلالا ، ويستمر التصفيق لاسمه مدة أطول من الآخرين .

ألقى المحاضرة فى هذه المرة ضابط سوفييتى ، مدرس العلوم العسكرية فى الكلية . بدأها بالكلام المعتاد الذى نسمعه فى كل مرة ، فقد تحدث عن نجاح الاتحاد السوفييتى فى مجـالات : الاقتصاد ، والصناعة ، والزراعة ، والدفاع ، والثقافة ، وعن التقدم الكبير فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى كل على حدة . ومن الطبيعى أن يذكر أرقاما مهولة . وقبل نهاية المحاضرة تحدث — كما هى العادة — مرة أخرى عن الموقف العالمى ، وسمعنا النغمة المكررة : الحرب الاستعمارية فى أوربا ، السياسة الحكيمة لستالين العظيم ، تلك السياسة التى حالت دون توريط الاتحاد السوفييتى فى الصراع الدائر ، ومنعت أيضا خطر توسيع دائرة الحرب . ولمـا كان الاتحاد السـوفييتى بعيدا عن هذه الحرب ، وليس طرفا

فيها ، فلم يكن لهذه الكلمات أى اثارة عند الطلبة ، بل مرت على آذانهم مرورا عاديا ، فالكل كان يفكر فى هذه اللحظة فى قضاء أمسية مرحة ، تبدأ بعد الانتهاء من المحاضرة •

ثم حدثت مفاجأة ، لم يتوقعها أحد منا ، فقد سمعنا الضابط السوفييتى يقول :« وصلت أنباء مساء أمس ، تفيد بأن القوات الألمانية نزلت فى « فنلندا » ولم يعقب على هذا الخبر ، أو يبدى أى ملاحظة ، سوى أنه قرأ الجملة ببطء تام ، ضاغطا على الكلمات ، حتى بدت واضحة جدا •

وقف بعض الطلبة مع بعضهم بعد انتهاء المحاضرة ، فدار الحديث عن موضوعها • وقال أحدهم : « عندما سمعت هذه الجملة ، حسبت أوصالى تتجمد » وأبدى آخرون ملاحظات شبيهة بهذا التعبير ، وأحسسنا جميعا بخطر غير واضح ، وغير ظاهر •

اجتمعنا فى اليوم التالى فى مظاهرة أمام المعهد ، وكانت المرة السادسة التى أشترك فيها فى مظاهرات أول مايو فى موسكو • أسدل الستار على القلق ، الذى انتابنا مساء أمس ، فانطلقنا نمزح ، ونغنى ، ونحن حاملون صور الزعماء ، واللافتات التى كتبت عليها الشعارات • كانت الشعارات المكتوبة على اللافتات موحدة فى جميع أنحاء الاتحـــاد السوفييتى ، فقد نشرت الصيغ المطلوب رفعها فى « برافدا » قبل أسبوع أو اثنين من حلول أول مايو • وبعد ساعتين تقريبا ، كانت المظاهرات تدخل من كل اتجاه الى الميدان الأحمر ، ثم سمعنا صوتا من مكبرات الصوت يهتف : عاشت سياسة الاتحاد السوفييتى السلمية « السلام ! » « السلام ! » •

لم تكن الهتافات يوما ما بهذا الحماس ، اذ بدت ، وكأنهم يقسمون يمينا على شىء ، يحرصون كل الحرص على أدائه •

همس فى أذنى أحد الواقفين فى الصف بجوارى — وهو من المهتمين بالسياسة : « يبدو أن هناك شيئا فى الأفق » •

نما لدى كثير من الناس ، فى الاتحاد السوفييتى ، غريزة استنتاج الأخبار من مظاهر الجو العام ، وتلك هى التى مكنت جارى فى الصف من معرفة ما همس به فى أذنى • بدأنا لأول مرة نشك فى قيمة التحالف مع ألمـــانيا ، ذلك التحالف ، الذى نسمع مرارا ، وتكرارا عن دوامه ، وصلابته ، وصموده أمام كل محاولة لتوهينه واضعافه • وسمعنا قبل مدة قصيرة فى المحاضرة :

« يوجد نوعان من الزواج ــ كما تعلمون ــ ، نوع يقوم على الحب ، وآخر يؤسس على التفاهم ، والتقارب العقلى • وتحالفنا مع ألمـانيا شبيه بالزواج الناضج ، الذى يربطه رباط الوعى والعقـل • ولهذا لن يضعف ، بل على العكس : فغالبا ما يكون الزواج ، القائم على التفاهم ، أكثر صلابة ، وأبقى من زواج الحب » •

أعلن فى مايو أن « ستالين » ــ وهو الذى كان يحمل رسميا حتى الآن لقب سـكرتير عام الحـزب ــ عين رئيسـا لمجلس الوزراء ، و « ومولوتوف » ــ الذى كان حتى ذلك الحين رئيس الحكومة الاسمى ــ وكيلا له •

وفى أوائل يونيو عقدت اجتماعات فى كل مكان ، وهى الاجتماعات المألوفة ، لتحديد سلفيات الحكومة ، وكانت غير اجبارية من الوجهة الرسمية ، فكل واحد يستطيع أن يدفع المبلغ الذى يبدو أنه مناسب له ، غير أنه عادة ما كان يلزم بدفع مرتب شهر •

وضعت قوائم التسجيل عندنا فى المعهد ، مكتوبا فيها : الاسم ، والمبلغ الذى يقال رسميا ، أنه سيدفعه « باختياره » ، وما علينا الا التوقيع فقط ، ثم يقتطع المبلغ من المرتب قبل أن يصـل ، ويحصل كل واحد على سند من الدولة ، يستحق الدفع بعد عشرين عاما • وقد كتبت بياناته هذه المرة تحت شعار : « دعم البناء السلمى » •

***

تكذيب « تاس » المهدىء

بدأ امتحاننا النهائى فى أوائل يونيو ١٩٤١م ، وساد جو الامتحان بين الطلبة ، فالأنوار تظل مشتعلة فى حجرات المدينة الجامعية ، حتى ساعة متأخرة من الليـل ، ولا حديث للطلبة ، الا حديث الامتحان • انشغلنا فى مذاكرة : علم الأصوات ، واللغة اللاتينية ، والتربية ، والتاريخ ، والأدب الانجليزى و « اللينينية المـاركسية » ، ومادة العلوم العسكرية ، لدرجة أننا ظللنا بعيدين عن الأحداث السياسية بضعة أسابيع ، ولم نهتم بها الا للحظات معدودة ، اذ لم نبتعد عنها كلية ، حتى فى تلك الأسابيع الحاسمة من دراستنا •

وذات يوم كنت أتحدث مع احدى الطالبات فى المعهد ، ونظـرنا يمينا وشمالا ، خوفا من أن يكون أحد بالقرب منا ، ثم قالت :

« نزلت الأوامر الى القوات السوفييتية على الحدود الفنلندية بأن ينزعوا أرقام وحداتهم من ملابسهم الرسمية ، ويحدث ذلك عادة ، عندما يكون الموقف خطيرا ، وينذر بوقوع صدام عسكرى » •

لم أصدق الخبر وقلت لها : « عند الحدود الفنلندية السوفييتية ؟ لقد خسرت فنلندا منذ زمن ليس ببعيـد معركة حربية مع الاتحـاد السوفييتى ، وأعتقد أنها لن تقوم بالهجوم على الاتحاد السوفييتى » •

وردت قائلة : « ربما بالاشتراك مع ألمـانيا ؟ هذه الأخبار صادقة ، فأخو صديقتى ضابط فى الجيش ، وهو موجود الآن هناك ، ولكن لا يجوز لك بأى حال من الأحوال أن تذيع هذا الخبر » •

استغرقت فى التفكير جذعا ، هل نقف حقيقة أمام خطر حرب ؟ ولم أكن الوحيد فى الاتحاد السوفييتى ، الذى كان قلقا ، وخائفا من انفجار الموقف آنذاك • ولكن بعد بضعة أيام ، هدأ روعنا ، وتلاشت حدة الخوف ، فقد نشرت « برافدا » فى ٨ يونية سنة ١٩٤١م على صفحتها الأولى بيانا عن العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا جاء فيه :

« على الرغم من أن فنلندا ، لم توف بالتزاماتها فى المعاهدة التجارية المعقـودة بينها وبين الاتحاد الســوفييتى ، فقد تقرر ، بناء على توجيهات « ستالين » تزويد فنلندا بـ ٢٠٫٠٠٠ طن من الحبوب زيادة على المعدل التى تنص عليه المعاهدة فى توريد البضائع اليها ، على أن ينفذ ذلك فى أقصر وقت » •

حولتنى هذه الأخبار — كما حولت كثيرين غيرى — الى انسان متفائل وقال الناس فى موسكو :

« لو كان هناك أدنى احتمال لخطر هجوم من فنلندا على الاتحاد السوفييتى ما أرسل اليها الآن ٢٠٫٠٠٠ طن من الحبوب » •

وبعد أيام قليلة ، رأيت — وأنا متجه الى محطة مترو الأنفاق — مجموعة من العمال منهمكة فى عمل ما فى الدور المسخوط « بدروم » لأحد المنازل • لم أهتم بهذا فى بادىء الأمر ، ولكن فى اليوم التالى ، عندما كنت أقطع مسافة طويلة فى موسكو ، رأيت عملا مشابها ، فى أماكن متعددة ، ولم أكن الشخص الوحيد الذى لاحظ هذه الظاهرة • ومرة أخرى سرت الاشاعات عبر المدينة :

— « هل رأيتم ؟ يجرى العمل فى بناء مخابىء ••• » •

— « هذا هراء ! فهم يعملون مخازن » •

— « بلى ! انهم يعملون مخابىء لوقاية المدنيين ، من الغارات الجوية » .

— « خطأ ! هذه مخازن ، تجهز لتخزين محصــول البطاطس الشتوى » .

وهكذا سرت اشاعات محمومة فى موسكو فى النصف الأول من يونيو ، وقد هدأتها أخبار الـ ٢٠،٠٠٠ طن من الحبوب ، ولكن بعض الناس — وخاصة الذين يملكون أجهزة راديو ، تمكنهم من ســماع الاذاعات الأجنبية — استمروا فى التعبير عن خوفهم من ألمانيا الهتلرية .

قال لى أحدهم : « يقال فى انجلترا ان هتلر يريد أن يشن حربا ضد الاتحاد السوفييتى » .

ثم أضاف بعد برهة : « ولكن هذا لا يعدو دعاية انجليزية ، فهم يريدون زرع الشك بيننا وبين ألمــانيا ، لأن معاهدة عدم الاعتــداء ، لا زالت تعلو على أى نقد » .

كان هذا هو رأى معظم الذين تحدثت معهم آنذاك فى موسكو . أما الآخــرون الذين كانوا قلقين جدا ، فقد هدأوا فى ١٤ يونية سنة ١٩٤١م ، عندما نشرت كل الصحف فى الاتحاد السوفييتى أخبارا فى مكان بارز — وكان ذلك قبل بداية الحرب بثمانية أيام — تفيــد بأن كل الاشاعات عن العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وألمــانيا ، لا أساس لها من الصحة ، وجاء فى التفصيلات :

« ان الاتحاد السوفييتى — حرصا منه على انتهاج سياسة سلمية — التزم بمعاهدة عدم الاعتداء مع ألمــانيا ، ولديه النية فى استمرار الالتزام بها ، ولهذا فان الاشاعات التى تروج بأن الاتحاد السوفييتى يستعد لحرب ضد ألمانيا كذب وبهتان ، ويقصد بها التحرش والاستفزاز » .

ثم حدث شىء يعتبر فريدا فى تاريخ الدبلوماسية : اذ لم يقتصر الاعلان السوفييتى فقط على تأكيد التمسك بمعاهدة عدم الاعتداء ، بل أشار الى ما تحدثت به الاشاعات عن الاستعدادات الحربية الألمــانية .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه الفقرة اهتماما كبيرا فى الاتحاد السوفييتى فهى تقول :

« وطبقا للتقارير السوفييتية ، فان ألمــانيا تتمسك كذلك بنصوص معاهدة عدم الاعتداء السوفييتية — الألمــانية ، مثل الاتحاد السوفييتى . وتفيد الدوائر الرسمية السوفييتية ، بأن الاشاعات ، التى تروج بأن

ألمانيا عازمة على نقض المعاهدة ، وشن حرب ضد الاتحاد السوفييتى لا دليل لها ، والتعديل الذى حدث مؤخرا فى القوات الألمانية ، بعد عملياتها الحربية فى البلقان ، ونشأ عنه تكوين وحدات ، غير محتاج اليها فى هذه المنطقة ، هذا التعديل اقتضته ظروف ، ليس لها أية صلة بالعلاقة الألمانية السوفييتية » •

امتلأت صالة المدينة الجامعية بالطلبة فى صباح يوم ١٤ يونيو ، رغم شواغل الامتحان ، فالكل يتدافع على « برافدا » التى كانت معلقة على الحائط ، وعم الفرح والسرور ، ودخلت الطمأنينة قلب كل طالب ، لأن كل التنبؤات المخيفة قد تلاشت ، وبدأ كل يفكر فى برنامج أجازته •

كان يوم ٢٢ يونيو هو آخر يوم فى الامتحان ، ثم نسافر بعده لقضاء الاجازة ، وكنت مسرورا أيضا ، رغم أنه لم يكن عندى أى برنامج محدد للاجازة ، وعلى كل حال هناك شىء واحد الآن :

تلاشت كل الهموم ، ولم يبق الا اتمام الامتحان ، ثم أركن الى الراحة التامة •

* * *

سوف يتحدث « مولوتوف »

فى مساء يوم ٢١ يونيو ، كنت أذاكر أنا وزميلى فى الغرفة ، الطالب البولندى « بينيك جرشوفيتش » وأقول له : « غدا سيكون آخر يوم فى الامتحان » وفجأة سمعنا طرقا على الباب ، فصاح « بينيك » : يا للشيطان ! من الطارق ؟ لا يمكن أن نتحمل هذا الازعاج ، أثناء الاستعداد للامتحان » • اشتد الطرق على الباب ، واستمر ، ثم سمعنا صوتا ينادى بلهجة الأمر : « افتح ! » ففتحت الباب غاضبا ، فوجدت أمامى فتاة صغيرة ، تحمل تحت ابطها رزمة من الورق فبادرتنى قائلة : « لا أريد ازعاجكم — أيها الطلبة الرفقاء — أثناء الامتحان ولكن ادارة المعهد أرسلتنى الى هنا ، لتركيب ما تقتضيه التعليمات الخاصة بتقييد الاضاءة فقط » وضربت بيدها على الورق قائلة : « يعلق هذا على الشباك » وبدأت فى تثبيته على شباك الغرفة ، فأصبح جو الغرفة مقبضا ، نعم شعرت بالانقباض ، ولم يبد على « بينيك » — الذى عاش الحرب الأهلية فى اسبانيا — أى تغيير ، بل ظل هادئا ، وقال مبتسما : « حسنا ! حسنا ! هل الموقف خطير لهذه الدرجة » •

فقالت الفتـــاة : « طبعا لا ! ولا يعدو الأمر ســوى اجراءات احتياطية عامة ، حقيقة ! نحن نعيش فى سلام ، ولكن الحرب قائمة على قدم وساق فى غرب أوربا ، فالاجراءات الاحتياطية يجب أن تتخذ على أى حال » •

ويبدو أن هــذا كان التعليل الرسمى ، الذى قيل أيضا فى الحجرات الأخرى ، وفى دقائق قليلة انتهينا من وضع ستارة الورق على الشباك ، وانصرفت الفتاة • فقال « بينيك » : « حسنا ! سوف نرى ســير الأحداث لقد كان عندنا ما يشبه هذا فى برشلونة » • وتبادلنا التعليقات برهة على ستارة تقييد الاضاءة ، التى تتحرك صعودا ، وهبوطا ، الديكور الجديد لحجرتنا •

كففنا عن اللعب بالستارة ، وعدنا الى مذاكرتنا بنشاط • والحقيقة أنه لو كان معى طالب آخر غير « بينيك » لاكفهر الجو ، بسبب اعتقاده بأن الموقف خطير حقيقة •

عدنا الى عملنا الذى استولى على مشاعرنا فى هذه الليلة ، فغدا آخر يوم فى الامتحان ، وظللنا نذاكر فى هذا المساء ــ مساء ٢١ يونيو سنة ١٩٤١م ــ حتى ساعة متأخرة من الليــل • وفى صباح يوم ٢٢ يونيو استيقظ كثير من الطلبة فى المسكن الجامعى فى ساعة مبكرة ، فبعضهم ضبط المنبه على الساعة الخامسة أو السادسة ، كى يستطيع أن يراجع بعض النقاط ، فى الساعات القليلة ، قبل بدء الامتحان • ولم نفعل ــ أنا و « بينيك » ــ مثلهم فقد اتفق معى فى الطريقة ، وهى أن من الأفضل النوم وقتا طويلا ، قبل الذهاب الى الامتحان ، هكذا قررنا أن ننام حتى التاسعة صباحا •

ولكن لم نتمكن من النوم الهادىء ، فقد سمعنا فى الصباح الباكر هرج ومرج فى الطرقة ، فصاح « بينيك » وهو نصف مســتيقظ : « أغبياء ، ملاعين ، ألا يتركونا ننام نوما هادئا قبل الامتحان ! » أمنت على رأيه ، ثم أضفت بعض كلمات السباب باللغة الروسية • ازداد الهرج وارتفعت الأصوات أكثر ، فأكثر حتى طار النوم من الجفون • فنهضنا ، واذا بنا نسمع دقا شديدا على بابنا ، ويصيح الطالب بأعلى صوته :

ــ « سوف يتحدث « مولوتوف » ، فقد أعلن ذلك منذ نصف ساعة

فى الراديو ، ويعاد الاعلان بين الحين والحين ، يبدو أنه سيلقى بيانا هاما جدا » •

— « متى ؟ »

— « فى تمام الثانية عشر » •

ودوى هذا فى الطرقة ، فأحدث رجعا قويا • نظرنا الى الساعة فاذا هى تمام التاسعة • لا زال وقت كبير باقيا • وحاولنا أن نركز تفكيرنا فى الامتحان ، فلم نستطع ، ومر الوقت ببطء بالغ • فلم نشعر بثقل مرور الوقت ، مثل ما شعرنا به فى هذا اليوم ، ثم أعـلن أخيرا عن حلول موعد اذاعة الخطاب المرتقب •

هنا موسكو ! تستمعون الآن الى خطـاب نائب رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى ووزير الخارجية « مولوتوف » • وبعد لحظة سمعنا صوت « مولوتوف » ، وكان رزينا مهيبا :

« مواطنو ، ومواطنات الاتحاد السوفييتى ! اليوم ، فى الساعة الرابعة صباحا ، اعتدت القوات الألمـانية على وطننا ، دون سـابق انذار ، ودون أن تعلن ألمـانيا الحرب علينا • عبرت القوات حدودنا فى أماكن عدة ، وقصفت « شيتومير » و « كييف » ، و « سيواستوبول » و « كاوناس » ، وبعض مدن أخرى بالقنابل • انطلقت طائرات العدو ، ونيران مدفعيته عبر الحدود الرومانية ، والفنلندية أيضا •

« ليس لهذا الاعتداء الغاشم على وطننا مثيل فى تاريخ الدول المتمدنة ، يحدث هذا الاعتداء على وطننا ، على الرغم من وجود معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفييتى وألمـانيا ، وعلى الرغم من قيام الاتحاد السوفييتى بكل التزاماته طبقا لنصوص هذه المعاهدة •

« وقع هذا الاعتداء على أرضنا دون سابق انذار ، فلم يسـبق أن طلبت منا الحكومة الألمـانية شيئا من يوم توقيع المعاهدة الى الآن ولهذا تقع مسئولية هذا الاعتداء البربرى بكاملها على زعماء ألمـانيا الفاشيين » •

انتفضت أجسامنا تلقائيا ، عندما سمعنا كلمة « فاشستى » فى راديو موسكو لأول مرة بعد مرور عامين • وبعد صمت استمر لحظات ، واصل « مولو توف » خطابه :

« الآن ، وقد وقع الاعتداء على الاتحاد السوفييتى ، فقد أصدرت الحكومة السوفييتية أوامرها الى القوات المسلحة ، بأن تتصدى له ،

وتطرد القوات الألمـانية من أرضنا • ولم يدفعنا الشعب الألمـانى الى هذه الحرب ، ولا العمال والفلاحون الألمـانيون ، ولا المثقفـون الألمـانيون ، فنحن ندرك ونفهم ما يعانونه من آلام ، وانما دفعنا اليها طغمة من الحكام الفاشيين ، مصاصو الدماء ، تلك الطغمة التى اعتدت بقوة السلاح على الفرنسيين ، والبولنديين ، والتشيكوسـلوفاكيين ، والنرويجيين ، والدنماركيين ، واليونانيين ، وعلى شعوب أخـرى أخضعتها بالقوة العسكرية » •

ثم تناول « مولوتوف » مقارنة تاريخية ، أعيدت مرارا فى المرحلة الأولى للحرب :

« انها ليست أول مرة ، يتعرض فيها شعبنا لهجوم مفاجىء من العدو ، فقد هاجم نابليون وطننا ، فاستبسل شعبنا فى الدفاع عن أرضه ، وأوقع بنابليون هزيمة منكرة ، قضت عليه • وسيلقى « هتلر » الذى بدأ هجومه على وطننا نفس المصير • فالجيش الأحمر وكل فرد فى شعبنا سيواصل حربا وطنية ، دفاعا عن الوطن والشرف والحرية » •

واختتم « مولوتوف » خطابه — وكان أقصر خطاب ، سـمعته فى الاتحاد السوفييتى حتى الآن — بنداء الى الشعب السوفييتى :

« فالحكومة تناديكم يا مواطنو ومواطنات الاتحاد السوفييتى بأن تتحدوا وتساندوا حزبنا البلشفى المنتصر ، وحكومتنا السوفييتية ، وقائدنا الرفيق « ستالين » • فالحق معنا • وسيهزم العدو ، وسيكون النصر حليفنا » •

وقبل أن نفيق من سكرتنا ، ونعود الى وعينـا ، كان خطـاب « مولوتوف » قد انتهى ، ورنين الكلمات لازال يطن فى آذاننا :

« فالحق معنا ، وسيهزم العدو ، وسيكون النصر حليفنا » •

جلسنا متجمدين كالأحجار ، فلم نكن نتوقع هذا ، ولم نستطع أن ندرك ما حدث • ثم غادرنا — أنا و «بينيك» حجرتنا ، اذ لم نستطع البقاء وحدنا فيها • كان فى الحجرة المجاورة بعض الطلبة يتحدثون ، دخلنا عليهم فوجدناهم زاهلين من وقع المفاجأة ، وكان الراديو لازال يذيع المـارشات العسكرية السوفييتية ، التى لا تنسجم معها مشاعرنا فى هذه اللحظة • وفجأة دخلت الحجرة احدى الطالبات ، وصاحت بأعلى صوتها : « حسنا ! الآن نخوض حربا » كانت مرحة ، تكاد تطير من الفرحة ، فلم يعجبنا تصرفها ، وقال لها أحد الطلبة :

« لا يوجد سبب يدعو الى الفرح ، فالحرب مسألة جادة وخطيرة » .

ثم ساد الصمت مرة أخرى ، وشعرت فى هذه اللحظـة : كم شوهتنى التربية فى الاتحاد السوفييتى ! تخيلت بمرارة ، كم من المنشآت، التى أقيمت فى الفترة المـاضية سوف يهدمها الحـرب ! وكم عدد الذين سيسقطون فى الميـدان ! ولسـوف يقذف بكل مظاهر التطـور الى الفناء . لقد كنت معجبا بكل أفكارى النازعة الى النقد ، وشعورى الذى يميل الى المعارضة . لدرجة أن أخبار الحرب ، جثمت على صدرى كالكابوس الثقيل . وأظن أن الطلاب الآخرين ، كانوا يحسون بنفس الأحاسيس فى هذه اللحظة .

هدأنا شيئا فشيئا ، وتمالكنا أعصابنا ، فانقطع الصمت الثقيل ، وبدأت الأفكار تخرج من الرؤوس وهى مترددة ، معلنة عن مختلف الآراء :

« الآن ستبدأ نهاية الفاشية الهتلرية ، وستوضع نهاية لغزوات « هتلر » فى أوربا » .

وقال آخر : « أنا أعتقد أن قواتنا عبرت الحدود الى بولندا » .

وعبر آخـر عن تشاؤمه قائلا : « الحرب شىء خطير ، ومن الممكن أن يزحف « هتلر » أولا على غرب أوكرانيا ، وروسيا البيضاء ، وتتوقف عملياته الحربية عند الحدود القديمة للاتحاد السوفييتى ، وسـيكون الموقف أخيرا فى صالح المعتدى » .

رفض جميع الطلبة الحاضرين تفسيره للموقف ، فمنذ عام ١٩٣٦ وأبواق الدعاية لا تكف عن ترديد أنه لن تتكرر ظاهرة التدخل فى شئون الدول الأخرى ، التى حدثت فى الفترة ما بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٢ م . فلو هوجم الاتحاد السوفييتى ــ هكذا قيل فى كل الاجتماعات ــ فسيرد الجيش الأحمر المعتدين على أعقابهم ، وسيسحقهم فوق أرضهم . اعتقدنا هذا ، واختلط هذا الاعتقاد بدمائنا ، بحيث لا نستطيع تصديق ضده ، لدرجة أننا تصورنا ، أنه لا يمكن وقوع حرب على الأرض السوفييتية بعد اليوم .

ثم ألقى أحد الطلبة السؤال ، الذى كان يلقى فى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ ، فى كل جلسة اجتمع فيها اثنان من السوفييت :

« ما الذى ستفعله انجلترا ؟ » .

اختلفت الآراء ، قالت احدى الطالبات : سوف نتحالف مع انجلترا ، لنحارب « هتلر » •

كانت هذه الأفكار جديدة ، وغريبة بالنسبة لنا ، بعد مرور سنتين على المعاهدة ، وأبدى أحد الطلبة تشاؤمه ، مذكرا ايانا برحلة « هيس » الى انجلترا وقال :

« ان الحرب الدائرة بين ألمـــانيا وانجلترا لعبة مطبوخة ، والآن سوف يحاربان الاتحاد السوفييتى جنبا الى جنب » •

ولكنه عورض بشدة ، وكان معظم مجموعتنا الطلابية الصغيرة تعتقد فى صباح ٢٢ يونيو بأننا سوف نحارب فى جبهة واحدة مع انجلترا ضد ألمـــانيا •

فض اجتماعنا على صوت ، انطلق بحرارة : الامتحان ! الامتحان ! فعدنا الى حياتنا العادية •

عندما خرجنا من المدينة الجامعية ، رأينا جماعات مثل النمل فى كثرتها ، كأن موسكو خرجت كلها الى الشارع ، والمحلات مكتظة ، فالكل يريد أن يشترى بسرعة مواد غذائية ، لأنه لا زال فى مخيلتهم ، أن الحرب فى الاتحاد السوفييتى تعنى : الجوع •

ولكننا بوصفنا أعضاء فى منظمة الشباب ، تلقينا محاضرات واشتركنا فى ندوات الوعى السياسى ، فقد انتقدنا اندفاع الناس الى شراء المواد الغذائية وتخزينها • نظر الى بائع السجائر مندهشا ، عندما طلبت منه علبة واحدة ، فالآخرون يشترون بالدستة •

كان الجو فى معهدنا هادئا نسبيا ، غير أن بعض زعماء منظمة الشباب ، كانوا يجوبون المعهد ، وينصـــحوننا بأن نهتم بواجباتنا الدراسية ، بهدوء ، وأن نتصدى لصيحات الهلع والفزع ونحاول اسكاتها ، فأجبنا بأصوات خافتة ، بأننا نعرف هذه التعليمات جيداً •

وقف عدد كبير من الطلبة أمام لجنة الامتحان ، ينتظرون السماح لهم بالدخول ، فدفعنا هذا المشهد الى الاستغراق فى جو الامتحان ، الذى لم يعد باقيا فيه الا اليوم ، لو انتهى قبل ذلك بيوم واحد ، وخرجنا من هذه الحجرة مسرورين ، لاحتفلت مع بعض الزملاء ، ولوضعنا برنامج قضاء الاجازة ، ولكنى لا أفكر فى شىء من هذا الآن ، والشىء الوحيد الذى أفكر فيه ، هو الحصول على أخبار جديدة عن الحرب •

لا جديد ! لقد بدأت الحرب فى الرابعة صباحا ، والآن الرابعة

بعد الظهر ، اثنتا عشرة ساعة مضت ، ولم يذع الراديو شيئا عن سير المعركة .

علقت مكبرات الصوت فى كل ركن من أركان المدينة ، بحيث يمكنك أن تسمع كل كلمة تذاع ، فى أى مكان كنت ، ولا يذاع سوى خطاب « مولوتوف » ، والمـارشات العسكرية ، وبين الحين والآخر تذاع بعض التعليقات ، والتحليلات الاذاعية ، التى تحمس المستمعين للكفاح ضد الفاشية .

تسكعت فى شوارع موسكو ، كما كان يفعل كل الناس فى ذلك اليوم ، وبينما كنت أعبر ميدان المسرح ، سمعت صوتا عبر مكبر الصوت يقـول :

« ... البربريون الفاشيون » وفجأة سمعت بجوارى شخصا يقول بالانجليزية : « الآن أصبحوا ضد الفاشية أيضا » فابتعدت عنه مسرعا ، لأنى أعلم ، مدى خطورة أن يرانى أحد بجوار أجنبى ، ولو كان هذا الأجنبى ، يعد الآن من دولة حليفة . ولـما طال صمت الراديو عن اذاعة أى شىء عن سير المعارك ، انتشرت الشائعات عبر المدينة :

— لقد صد المهاجمون ! وارتدوا على أعقابهم خاسرين خلف الحدود .

— أنزل الألمـان قوات مظلات فى « كييف » .

— الجيش الأحمـر يتعقب الالمـان ، وهم الآن فى الأراضى البولندية .

ماذا ستفعل انجلترا ؟ كان جواب هذا السؤال هو أهم شىء يريد أن يعرفه شعب الاتحاد السوفييتى فى ذلك اليوم ، وأجابت الاذاعات الأجنبية عليه ، فقد أذاع راديو موسكو فى بداية النشرة مقتطفات من خطاب تشرشل ، الذى تحدث فيه عن الكفاح ، جنبا الى جنب ضد « هتلر » . فتنفسنا الصعداء ، وانتشرت موجة من التفاؤل فى أرجاء المدينة الجامعية ، وربما على طول الاتحاد السوفييتى وعرضه .

* * *

أيـــام الحرب الأولى

ظهرت صحف الصباح فى أيام الحرب الأولى ، معلنة الحلول الجديدة بالخط العريض :

« لم يحدث أن وقف الشعب السوفييتى كله صفا واحدا مثل وقوفه فى هذه الأيـــام ، فبقيادة الزعيم العظيم « ستالين » سوف يسحق الشعب السوفييتى الأعداء الأوغـــاد . انتصرنا باسم « ستالين » ، وسننتصر باسم « ستالين » .

بدأت فى ٢٣ يونيو لأول مرة بعد سنتين تقريبا ، عرض الأفلام التى تندد بالفاشية ، فرأيت على دور السينما الكبيرة اعلانات ضخمة لفيلم : « الأستاذ مملوك » وهو مأخوذ من المسرحية التى كتبها : « فردريش فولف » . وفيلم : « أسرة أوبن هايم » وهو مأخوذ من رواية كتبها « ليون فويشت فانجر » ولأول مرة تتحدث الجرائد عن عمليات المقاومة فى البلاد التى احتلتها ألمـــانيا الهتلرية .

وأخيرا ظهر أول بلاغ حربى ، فخاب ظن أولئك المتفائلين ، اذ جاء فيه ، أن الحرب دائرة على الأرض السوفييتية . وتضمن البلاغ عبارة غامضة ، يستفاد منها أن القوات الألمـــانية توغلت فى بعض المناطق ، فى الأراضى السوفييتية ما بين ١٠ الى ١٥ كيلو متر .

وباعلان الحلول الجديدة ، واذاعة البلاغ الأول صيغ الشعار الرسمى للحرب وهو :

« الحرب الوطنية الكبرى لشعب الاتحاد السوفييتى » .

وسرحت أفكارى لحظة ، لقد عشت بوعى فى الأعوام السابقة ، التغيير التدريجى لتحويل نغمة الدعاية تحويلا كليـــا . تلك الطريقة التى أذابت تدريجيا كل المعانى العالمية الثورية ، وركزت بشكل واضح على الوطنية السوفييتية ، وكان كل تغيير فى هذه الدعاية ، يجعلنى أفكر تفكيرا عميقا فى هذه الأساليب ، ولهذا لم أفاجأ بالشعار الجديد ، ولكنى كنت أنتظر أن تشن الحرب — على الأقل — كحرب تحرير ضد الفاشية ، لوضع هدف مشترك مع الشعوب الأخرى ، التى تقع تحت نير الفاشية . فوصفها بالحرب الوطنية يجعلها محصورة فقط على الأرض السوفييتية ، وبمعنى أدق فى روسيا . كان ينبغى أن توضع لهـــا خطوط موازية لمـــا حدث لروسيا مع نابليون فى عامى ١٢ / ١٨١٣ م . ربما كان التركيز على وصف الوطنية مقصودا من زعماء الاتحاد السوفييتى ، كوسيلة لكسب تأييد جبهة عريضة من المواطنين فى ادارة المعركة .

غير أنى كنت — كما كان كل الناس فى الاتحاد السوفييتى —

مشغولا بما هو أهم من التفكير فى الشعارات السياسية ، ذلك أن حالة الطوارىء العاليـــة ــ التى لا تكون الا فى المناطق الواقعة فى الجبهات الأماميــة ــ كانت معلنة فى الجمهوريات الثلاث حول البلطيق ، وفى كل أنحاء « أوكرانيــا » وفى الولايات الروسية الثلاث عشرة ، ومن بينها موسكو ولينينجراد . فقد أعطيت السلطات العسكرية ، فى كل هذه المناطق الحق فى اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع ، بما فيها تدريب كل المدنيين على القتال . ونزلت الأوامر خاصة باستدعاء كل المواليد من ١٩٠٥ الى ١٩١٨ للخدمة العسكرية ، ليس فقط فى المناطق الغربية ، من البلاد ، بل أيضا فى « أرشنجيلك » ومنطقة « الأورال » ، و « ســيبيريا » و « فولجــا » و « القوقاز » ، ثم اتخذت اجراءات هامة للدفاع الجوى عن موسكو ، والمناطق المحيطة بها ، اذ فرض على كل المنازل الالتزام بالاظلام التام ، وجهزت كل المخابىء ، وأعطيت الأوامر بأن تغلق المسارح ودور السينما ، والنوادى والمنتزهات ، والمطاعم والمقاهى أبوابها فى الساعة الحادية عشرة الا ربعا . وأخيرا ألغيت كل تصريحات الاجازات للمدنيين ما دامت الحرب دائرة ويدفع للعامل أجرا زائدا يساوى أيام اجازته المستحقة . وأعطى لمديرى المصانع ورؤساء الأقســام ، الحق فى تشغيل ساعات اضافية ، على أن يدفع أجرها للعامل بمقدار مثل ونصف أجر الساعة الأصلية .

وفى مساء ذلك اليوم عقد مؤتمر لأعضاء منظمة الشباب فى معهدنا ــ كما هو الحال فى كل مكان ــ لشرح الموقف . كانت الصالة الكبيرة مكتظة بالحاضرين ، الذين تلاصقوا فى مقاعدهم لضيق المكان . وساد السكون ، سكون ينتظر حدوث أمر هام . وسيطرت على الجو حالة تشبه ما تحدثت عنه كتب المنظمة فى وصفها لزمن الثورة والحرب الأهلية ، وسمعنا صوتا يقول :

« الآن جاء وقت الاختبار لمنظمة الشباب » نعلم هذا ، والكل يريد أن يثبت جدارة فى هذا الوقت ، واصل حديثه قائلا :

« لقد بدأت اليوم فعلا مجموعة من منظمة شباب المعهد ، العمل فى بناء الخط الجديد لمترو الأنفاق ، لأن هذا الخط ، يجب الانتهاء منه بسرعة ، ليستخدم كمخبأ اضافى لسكان موسكو » .

تحدث بعض أعضاء المنظمة ، واحدا بعد الآخر ، وتكررت كلمة « خيانة العهد » فى كلماتهم ، واهتم الخطباء بافهام المستمعين ، أن

ألمـانيا الهتلرية قامت بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ، على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء المعقودة بيننا ، وكانت مظاهر السخط على العدوان الغاشم واضحة ، والاصرار على رد المعتدين هو النغمة السائدة .

كان هذا الشعور حقيقيا ، حتى عند أولئك الذين لا زال آباؤهم — أو أمهاتهم — محتجزين فى معسكرات العمل الاجبارية ، لأنهم عارضوا « ستالين » وحكمه .

حقق هتلر « لستالين » ما لم يصل اليه ، لا بالدعاية ، ولا بالارهاب ، اذ بدت الحكومة فى « الكرملين » فى نظر معظم الناس فى الاتحـاد السوفييتى فى تلك الأيام من عام ١٩٤١ م ، فى ثوب الممثل الحقيقى لمصالحهم .

كانت تقف بجوارى طالبة ، طالمـا تبادلت معها فى أحاديثنا بين وقت وآخر نقد النظام الحاكم ، مالت الى فى هذا الاجتماع وهمست فى أذنى : « الأمر فى هذه المرة ، يختلف تماما عن ذى قبل » .

وفى نهاية الاجتماع ألح بعض الطلبة الى مبدأ العالمية ، ولكنهم سرعان ما اختفوا بين الطلبة . عدنا الى المدينة الجامعية ، وشعورنا الداخلى يتمزق وبعد أن نمنا بضع ساعات — كانت تلك ليلة ٢٤ يونيو — انطلقت صفارة الانذار ، وسمعنا الراديو يذيع ثلاث كلمات فقط ويرددها دون انقطاع :

« مواطنون ! هجوم جوى ! » كلمات ثلاث ، سمعناها فيما بعد مرارا وتكرارا .

سمعنا هذا الانذار لأول مرة فى هذه الليلة ، واستمرت الصفارة تطلق عويلها بعضا من الوقت ، حتى استيقظنا ، فقفزنا من السرير ، والنوم لا زال فى جفوننا ، وتمتم صديقى الذى اشترك فى الحرب الأهلية فى أسبانيا :

« صوت مزعج ! لقد نسيت هذا الصوت ، لأنى لم أسمعه منذ أكثر من عامين ، منذ أن كنت أسمعه فى برشلونه » .

لبسنا الكمامات الواقية ، واتجهنا الى المخبأ ، وكان فى « بدروم » كئيب ، تبين أنه لم يعد بعد ليكون مخبأ على الاطلاق . كان السكون مطبقا فى بادىء الأمر ، ثم سمعنا صوت محرك على بعد ، وصوت المدفعية المضادة للطائرات .

كان هذا مزعجا لنا جميعا ، ومثيرا لأعصابنا ، وكان معنا — كما كان

فى كل مكان — بعض أفراد . يدعون أن لديهم خبرة بالعلوم العسكرية ، حاولوا أن يتبينوا نوع الطائرات من صوت المحرك . ولم أصدق ما قالوا ، لأنهم ذكروا نوعا واحدا ، عرفنا عنه بعض الشىء فى دروسنا العسكرية التى أخذناها فى المعهد .

والشخص الوحيد الذى عرفت أن لديه خبرة ، هو زميلى فى الحجرة ، لأنه اشترك فى الحرب الأسبانية . استمرت مكانته فى هذا المجال ترتفع فى أعيننا كل دقيقة ، وبالطبع حتى الصباح التالى فقط ، لأن الصحف الصباحية نشرت أن غارات الأمس كانت غارات وهمية للتدريب وللتأكد من سلامة أجهزة الدفاع الجوى ، وقدرة الدفاع المدنى فى المدينة . وبهذا بلغت الحالة ذروتها ، اذ لم يعد فى الامكان اخفاء ما اتخذ من اجراءات عسكرية فى هذه المنطقة . وبدا واضحا أن المستويات العليا فى الحزب والحكومة ، لم تكن تتوقع هجوما على الاتحاد السوفييتى فى يونيو . ولذا فهم مضطرون الى ترتيب الاستعدادات العسكرية من الألف الى الياء .

تنظيم الدفاع الجوى ، تكوين فرق الدفاع المدنى ، وفرق الاسعاف ، اعداد الأدوار المسخوطة « بدروم » فى المنازل ، وتحويلها الى مخابىء ، تنفيذ اجراءات تقييد الاضاءة ، وبناء وسائل الخداع ، وتمويه العدو .

قام العمل على قدم وساق ، فى اعداد كل هذه النواحى . وفى غضون أيام قليلة . تغير وجه مدينة موسكو ، فالمبانى الضخمة مثل : مقر مجلس الوزراء . والفندق السياحى المقابل (Moskowa) طليت باللون القاتم ، فاختفى لونها الأبيض الزاهى ، ونقشت الشوارع الرئيسية فى المدينة ، بنقوش توحى اليك بأنك تمشى فوق أسطح منازل صغيرة ، كذلك الميادين الكبرى مثل : ميدان المسرح ، وميدان الثورة ، نقشت فيها نقوش تشبه أسطح المنازل . وغطيت الساحات الكبيرة الخالية ، بهياكل من الخشب على هيئة أسطح منازل ، حتى نهر موسكو ، غطى كله بالخشب كى يضللوا طائرات العدو ، ويحولوا بينها وبين التعرف على معالم المدينة .

وفى قنوات مترو الأنفاق وضعت بسرعة فائقة ألواح الخشب على القضبان فى كل الخطوط ، فأعد النفق بذلك ليكون مخبأ كبيرا يسع كل سكان المدينة . وبعد أيام قليلة ، انتهت الاستعدادات ، وأصبح فى وسع الجزء الأكبر من سكان المدينة حماية أنفسهم داخل النفق ، اذ

يبلغ عمقه ما بين ١٦ ، و ٣٥ مترا تحت الأرض ، كانت كل الأنفاق مفتوحة للجمهور ، ما عدا منطقة محطة (Kiriwskaja) فقد حجزت للهيئات الدبلوماسية ، وللشخصيات البارزة ، ووقع الاختيار على هذه المحطة بالذات ، لأنها أعمق منطقة تحت الأرض .

كانت تطلق المناطيد « بلونات » فى الجو فى مساء كل يوم عند حلول الظلام ، وهى مربوطة الواحدة بالأخرى بخيوط خاصة ، وتقوم هذه المناطيد بدور فعال ضد طائرات العدو .

أعلن فى صباح يوم ٢٤ يونيو ، أن على كل أعضاء منظمة الشباب ، التجمع فى المعهد ، وبعد أن تجمعنا توجه بنا سكرتير المنظمة من هناك الى منزل المعلمين فى شارع « كروبوتكين » فرأينا معالمه قد تغيرت ، ولم يعد المرء يستطيع التعرف على معالمه الأولى ، ورأينا آلاف من أعضاء المنظمة هناك ، بعضهم بملابس التدريس ، ويحمل عدد كبير منهم الكمامات الواقية فى كتفه .

قوبل السكرتير المحلى لمنظمة الشباب بالتصفيق والتهليل ، ولم يتكلم سوى كلمات قليلة :

« أيها الرفقاء ، لقد استدعاكم المجلس المحلى لمنظمة الشباب للقيام بعمل خاص ، يتلخص فيما يلى :

لقد وصلت اليوم لافتات جديدة ، يجب أن نعلقها اليوم فى الشوارع ، لهذا تقرر تجنيد أعضاء منظمة الشباب فى مدينة موسكو لهذا العمل » .

وبسرعة عجيبة ، تكونت مجموعات ، حملت اللافتات وأدوات اللصق ، ثم تلقت كل مجوعة اسم الحى الذى كلفت بلصق اللافتات فيه . أخذت مجموعتى ثلاث أنواع من اللافتات :

واحدة موجزة ، كتب عليها بالخط الأسود الكبير ، ذلك الحل الرئيسى ، الذى أذيع سابقا ، وهو :

« قضيتنا عادلة » ، « سيهزم العدو » ، « النصر حليفنا » .

وما خط على اللافتتين الأخريين كان مثيرا للاهتمام ، فعلى احداهما رسمت صورة لمعاهدة عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا التى عقدت فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، وفى ظلها وقف مواطن سوفييتى ، يبدو عليه أنه مسالم ، يحتمى بالصورة وهو يقوم بعمله

السلمى ، وفى نفس الوقت يطعن جندى نازى المعاهدة من الجانب الآخر ، ويجرح المواطن السوفييتى •

وبدت الصورة الأخرى أكثر تأثيرا ، وحتى ذلك الوقت ، لم أر فى الاتحاد السوفييتى لافتة ، لها وقع هذه الصورة ، وأعتقد أنهم لم يرسموا صورة مثلها طوال سنى الحرب الأربعة :

اذ ترى فى خلفيتها ظل نابليون ، رسم بطريقة ساخرة ، واندحار جيشه عند عبوره « بيريزينا » •

ورسم فى مقدمتها ، بألوان زاهية ، كاريكاتير « هتلر » على الجانب الأيسر أعلى الصورة ، وعلى الجانب الأيسر فى أسفلها كتب رقمان بالخط العريض : ١٨١٢ ، و ١٩٤١ م ، ثم كتب النص تحتها ، من أربع كلمات باللغة الروسية : « هكذا كان — ومثله سيكون » •

* * *

تحويل نغمـة الدعـاية

أعلن بعد بدء الحرب بوقت قصير ، أن كل أجهزة الراديو ستسحب من أصحابها ، وطلب من كل مالك لجهاز راديو أن يسلمه فى ظرف ٤٨ ساعة ، الى أقرب مكتب بريد ، ويأخذ ايصالا بذلك •

طال طابور المنتظرين تسليم أجهزتهم أمام مكاتب البريد ، وقفوا صابرين ، متحملين ، ليتخلصوا من أجهزتهم • كان المكتوب على الايصال أن حامله سوف يسترد جهازه بعد انتهاء الحرب ، ولم يصدق ذلك سوى عدد قليل ، أما الغالبية ، فاعتقدت اعتقادا جازما من أول الأمر ، أنها لن ترى أجهزتها بعد اليوم ، سحبت الأجهزة وألقيت فى أفنية مكاتب البريد المكشوفة ، وتركت فى العراء لتقلبات الجو •

وفى نفس الوقت نزلت التعليمات ، بأنه لا يجوز اغلاق السماعات الاذاعية الموجودة فى المساكن الجماعية ، والمؤسسات ، والمصانع ، ولم يكن هناك أى اعتراض على هذا الأمر •

كانت أجهزة الراديو فى عام ١٩٤١ م — وكذلك اليوم — (عام ١٩٥٥ م) من الأشياء الكمالية ، التى لا يقدر عليها الا فئة قليلة ، ولهذا وضعت أجهزة صغيرة سوداء ، كروية الشكل فى كل المؤسسات ، وفى المساكن الجماعية ، وفى بيوت الطلبة ، وفى النوادى ، وفى كل الأماكن العـامة ، لا تذيع الا برنامج الاذاعة السوفييتية • وكانت — ولا تزال

الى اليـــوم ــ النوع الوحيد لأجهــزة الراديو المنتشرة فى الاتحـــاد السوفييتى •

أصبح ــ بعد سحب أجهزة الراديو ــ ممكنا أن يسمع كل المواطنين السوفييت أخبارا متشابهة ، وبرنامجا واحدا ، لأن المحطات الاذاعية ، التزمت التعليمات حرفيا ، لدرجة أنها كانت تكرر نفس الألفاظ • واتماما لهذه الاجراءات أنشئ برنامج محلى صغير • فأصبح مركز الدعاية السوفييتى الوحيد ، متحكما فى توجيه التيارات التى تؤثر على الشعب كله ، لأنه لم يكن بامكان أحد أن يسمع مصدرا آخر غير ما يرسله اليه هذا المركز • ورأى زعماء الاتحاد السوفييتى أن ذلك الأمر أكثر الحاحا من ذى قبل ، فانطلقت الدعاية فى الأيام الأولى للحرب ، بأقصى ما يمكن أن يعمل فى مجال « البروباجندا » وكان من المدهش أن تتحول الدعاية بهذه السرعة ، وتركز على الشعور بالوطنية وحب الوطن والحـــرب الوطنية ، وسرعان ما اختفت كلمة « الحزب » ، و « الاشتراكية » و « الشيوعية » من قاموس الاستعمالات اللغوية الدعائية •

لم يكن هذا التغيير ــ كما حدث فى معظم الأحوال السابقة ــ مجرد مناورة وقتية ، بل ممارسة منطقية لتغيير الأيديولوجية ، التى كانت سائدة مسيطرة فى سنى ما قبل الحرب • فالمفاهيم التى كانت سائدة ، حتى عام ١٩٣٥ م فى المقالات ، والأغانى ، كانت تشير الى امكانية وقوع هجوم على الاتحاد السوفييتى ، وتتحدث عن « الحرب الثورية » ، و « الطبقات » •

توارت هذه المفاهيم قبل الحرب بوقت طويل ، وشيئا فشيئا ، احتلت كلمة الوطنية السوفييتية المركز الأول فى أسلوب الدعاية ، دون أن تختفى تماما المفاهيم السابقة ، فأثناء النزاع مع اليابان فى صيف عام ١٩٣٨ م ، عندما وقع كثير من حوادث محلية ، على الحدود عند بحيرة (Chasan) فى الشرق الأقصى ، استعملت الدعاية كلا النوعين من الشعارات ، وكانت الصيغة الرسمية آنذاك :

« من أجل الوطن ، من أجل الشيوعية » •

ظل الاتحاد بين الشعارين يكرر بوضـــوح فى برنامج الدعـــاية السوفييتية ، حتى عام ١٩٤١ م ، ولأجل أن يكونوا لهذين الشعارين شعبية فى المجتمع ، عملت أفلام سينمائية ، وطنية ، جديدة فى نوعها ، فهى تدور حول كفاح الجيش الأحمر فى عامى ١٨ / ١٩١٩ م ، وعلى

العكس من اتجاهات الأفلام السابقة ، فلم يظهر أدميرال القوات البحرية ، فى صورة مخزية ، بل على العكس ، بدا فى الأفلام الجديدة ، يقوم بأعمال مشرفة للوطن •

وعلى الرغم من عصره الذى كان يختلف تمام الاختلاف عن العصر الحالى ، وعلى الرغم من اختلاف أسلوب الحياة بين العصرين ، فقد خدم الأدميرال — كما يصوره الفيلم — بشرف وأمانة ، فى أسطول الجيش الأحمر • وقف مع وكيله — أو خليفته الذى كان أصلا حارسا له — بدون تكلف ، وكأنهما صديقين ، كلاهما قاتل بشجاعة ، وغادرا السفينة الغارقة « الصليب » الأدميرال وهو يردد : من أجل الوطن !

ووكيله وهو يردد : من أجل الشيوعية !

الآن ، بعد بدء الحرب ، سار التحول فى الدعاية خطوة أخرى الى الأمام ، اذ أصبحت كل وسائل الدعاية تتحدث فقط عن الوطن ، والوطنية ، والأرض الروسية • ولم يحتل الاتجاه الجديد الاذاعة ، والصحافة فقط ، بل ترجمته ، وعبرت عنه اللافتات ، والاعلانات التى كانت تعلق فى الشوارع بالصورة والكلمة • ففى الأسابيع الأولى للحرب تكون ما يعرف باسم « فترينة تاس » لهذا الغرض ، و « تاس » رمز لمكتب وكالة الأنباء السوفييتية الرسمية ، و « فترينة تاس » جمعية ، أعضاؤها من الفنانين والشعراء السوفييت ، الذين كرسوا مواهبهم لخدمة الدعاية ، أثناء الحرب ، ولم ينتجوا عددا قليلا من الصور ، والكلمات التى تحتها ، ثم تركوها تكرر ، بل قاموا بانتاج سلسلة كبيرة من الصور ، وتحت كل صورة كلمات قليلة منظومة ، وساروا فى عملهم على المنهج الذى كان متبعا أثناء الحرب الأهلية ، عندما كون الشعراء والرسامون — وكان من بينهم « ماياكوفسكى » — آنذاك جمعيتهم التى عرفت باسم « فترينة روستا » •

كان الأصل يعلق يوميا — وكان يظهر كل يوم تقريبا لافتة ، جديدة ، أو سلسلة جديدة من الصور — فى شارع (Kusnjetzki Most) وهو أكبر شـــارع تجارى مشهور فى موسكو • وكان أحسن ما فى الصور ، يطبع منه أعداد لا حصر لها ، وتنتشر فى الصحف أيضا • وكان مدهشا أن يكون لدى هذه المجموعة من الشعراء والفنانين ، هذه الأفكار الغزيرة ، والعدد الكبير من الصور المؤثرة ، مما جعلها تلعب دورا كبيرا فى حقل الدعاية السوفييتية أثناء الحرب ، فقد جذبوا كثيرا

من المواطنين عجزت المقالات فى « برافدا » عن جذبهم ، فقد كانت سلسلة الصور حية وتعبر عن أفكار جديدة ، مغايرة كل المغايرة للمقالات الرسمية المملة التى كانت تنشر فى « برافدا » .

وعرض بعد أسابيع قليلة فيلم سوفييتى معروف ، أعيد تمثيله ليناسب الوضع الراهن . شاهدت هذا الفيلم متعجبا من الفكرة الجديدة التى أضيفت للفيلم المشهور « تشابايفا » ، فعندما عرض فى عام ١٩٣٤ فيلم عن « تشابايفا » كانت نهايته ، أن البطل الروسى فى الحرب الأهلية ، عندما كان يحاول سابحا الوصول الى الضفة الأخرى لنهر « بيــلايا » عند « أوفــا » أصابته رصاصة من سلاح الرجل الأبيض وغرق . أما النهاية فى الفيلم الجديد :

« تشابايفا » لم تصبه الرصاصة ، بل عبر النهر ، ووصل سالما الى الضفة الأخرى ، ثم خطب خطبة قصيرة :

« كما مزقنا البيض فى الحرب الأهلية ، فسوف نهزم اليوم العدو اللدود ، الفاشية الألمــانية » .

اتبعت هذه الطريقة — وهى اضافة بعض المشاهد المناسبة للعصر فى الأفلام القديمة — فى المسرحية المشهورة : « شاب من مدينتنا » . وتدور حوادث هذه المسرحية — وكذا الفيلم المقتبس عنها — حول مواطن سوفييتى ، شاب ، أسره النازيون أثناء الحرب فى أسبانيا ، وحقق معه جنرال ألمــانى ، ثم أعدم .

يعرض هذا الفيلم الآن بصورة أخرى أيضا :

يحقق معه الجنرال الألمــانى ، وبعدها يتمكن من الهرب من الأسر ، وتمر الأيام ويأسر الجيش الأحمر هذا الجنرال الالمــانى ، ويلتقى وجها لوجه مع الشاب السوفييتى .

ركزت الدعاية السوفييتية فى الأيام الأولى للحرب على حوادث الجنود الألمــانيين ، الذين يهربون من الجيش الألمــانى ، ويلجأون الى الجانب الروسى ، وسمعنا بذلك بعد أيام قليلة من بدء الحرب أثناء اجتماع اللاجئين السياسيين الألمــانيين ، الذين يعيشون فى موسكو . اذ عندما تقابلنا فى اللجنة المركزية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » (M.O.P.R.) كان الجو متوترا أكثر من ذى قبل اذ كنا نعلم جميعا أنه ليس اجتماعا لتثقيف اللاجئين سياسيا . فقد

اقتصر قائد المدرسة على جملة واحدة ، وهو قوله : أقدم لكم الرفيق « أولبريخت » •

ألقى « أولبريخت » كلمة قصيرة أيضا ، تحدث فيها عن جرائم الفاشية ، وعن خطورة الموقف ، وعن تجنيد كل الامكانات والقوى ضد الفاشية حتى النصر ، ثم قال :

« نحن نعيش الآن فى أيام الحرب الأولى ، ومع ذلك أستطيع أن أخبركم بأنباء سارة ، فى يوم ٢٢ يونيو هرب أول جندى ألمـانى ، والتجأ الى الجانب السوفييتى » •

قوبل النبأ من « أولبريخت » بتصفيق حاد ، وتهليل ارتفعت فيه الأصوات الى عنان السماء ، ثم أنصتنا بتركيز حاد الى المزيد من التفصيلات ، فقال :

« كان هذا الجندى فى رومانيا مع القوات المعسكرة عند نهر (Pruth) وفى ليلة ٢٢ يونيو سمع فى المعسكر أن الأوامر صدرت بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ، فابتعد متسللا عن قواته ، ثم عبر النهر سابحا ، حتى وصل الى جانب الجيش الأحمر ليخبره ، بأن هجوما نازيا على الاتحاد السوفييتى سيبدأ فى غضون ساعات قليلة » • مال على جارى ، وهمس فى أذنى :

« اذا هرب جندى الى الجانب السوفييتى قبل بدء الحرب ، فماذا يكون الوضع عندما يحمى وطيسها ! » •

اشتهر أمر هذا الجندى بعد أيام قليلة فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، اذ ذكر نبأ هروبه فى أول بلاغ حربى سوفييتى ، كما ذكرت « برافدا » صورته ، وأقواله :

« أنا — هكذا بدأ « ألفريد ليسكوف » — ضد نظام هتلر منذ وقت طويل ، وعندما علمت أن الهجوم على وشك الوقوع ، عزمت على الهروب الى الجيش الأحمر ، ولم يكن أحد منا يعلم بأنباء هذا الهجوم ، قبل وقوعه حتى اليوم السابق لساعة الصفر ، ولم يكن أحد منا يعتقد بامكانية وقوع هذه الخيانة ، ويمكن للمرء أن يتخيل ، كيف يتقبل الشعب الألمـانى هذه المغامرة » •

أعلن بعد يومين أن طـائرة من طراز (Ju 88) قد هبطت فى « كييف » اذ قرر كل أفراد طاقمها الأربعة وهم :

صف ضابط « هانز هيرمان » من « بريسلا » ، ملاحظ « هانز كراتو » من « فرانكفورت » ، عريف أول « أبل » من « بروين » ، عامل الاتصالات اللاسلكية « فيلهلم شميت » •

قرروا بالاجماع الهبوط فى مطار سوفييتى • وذكر بيان نشر فى كل الصحف السوفييتية ، أنهم يعملون سويا منذ سنة ، وأنهم اشتركوا فى غارات جوية على « لندن » و « بورت سموث » و « بلايموث » ، وغيرها من المدن الانجليزية ، وذكروا أنهم كانوا يسائلون أنفسهم : « لماذا يحارب « هتلر » العالم كله ؟ ولماذا يقتل كل الشعوب الأوروبية ، ويحطم أوروبا ؟ ••• وعندما أعلن « هتلر » الحرب على روسيا ، قررنا تنفيذ ما عزمنا عليه ، وفى يوم ٢٥ يونيو تخلصنا من حمولتنا ، وهبطنا فى « كييف » •

كذلك هرب طاقم من الطيارين الألمانيين الى قوات الاتحاد السوفييتى فى اليوم التالى •

فجرت تقارير الجنود الهاربين من صفوف القوات الألمانية موجة من الثقة بالنفس ، وسيطرت فى الأيام الأولى للحرب تصورات خادعة على المنفيين الألمانيين المقيمين فى روسيا •

فكما علمت مؤخرا ، أن الموقف الروسى آنذاك علق أيضا آمالا كبيرة على التأثير الدعائى على القوات الألمانية المتقدمة ، ففى مطبعة (Iska ra Revoluzii) كان يطبع كل يوم فى الأسابيع الأولى للحرب اثنا عشر منشورا تقريبا ، مختلفة الصيغة ، والأخبار المختلقة باللغة الألمانية ، غير أنها كانت ضعيفة جدا ، وليس من النادر أن جنود القوات الألمانية المتقدمة كانت تسخر منها •

وسرعان ما تبددت آمال الأيام الأولى للحرب ، وبان أنها كانت سرابا خادعا ، فقد أثر التقدم السريع للقوات الألمانية ، على اختلاق الأخبار عن هروب الجنود الألمانيين من مواقعهم ، فاختفت شيئا فشيئا ، وتضاءلت الدعاية الموجهة الى القوات الألمانية ، عن طريق الايحاء بهروب أفرادها ، وتركزت كلها تقريبا على الموقف العسكرى ، والعمليات الحربية ، ويتضمن فى المقام الأول بالنسبة للمدنيين فى موسكو :

« بناء قواعد الدفاع الجوى ، وتكوين الدفاع المدنى » •

* * *

الدفاع المدنى فى موسكو

تكونت بعد خمسة أيام من بدء الحرب فرقة الدفاع المدنى فى المعهد والمدينة الجامعية ، وكان كل أعضاء فرقة الوقاية من خطر الغارات ، والفريق الطبى طالبات ، أما الطلبة فكونوا فرقة اطفاء الحرائق • تم تكوين الفرق فى دقائق ، وعلى كل فرد القيام بخدمة ليلية كل يومين ، وقيل لنا :

« يجب أن تتواجدوا على السطح ، ابتداء من الساعة التاسعة ، فاذا ألقى العدو قنابل حارقة ، فعليكم أن تسرعوا باطفائها بأقصى ما يمكنكم ، وسوف تأخذون دروسا فى كيفية اطفاء الحرائق فى الصباح » •

وفى صباح اليوم التالى ، قدم شاب نفسه لنا بأنه المدرب ثم بدأ الشرح :

« المسألة تتلخص فيما يلى : لابد أولا من اخلاء الأدوار العليا من كل شىء قد يساعد على الاشتعال ، وأن يكون لديكم عدد كاف من أكياس الرمل ، ومن المجارف ، وأدوات لنقل المياه • ومن الأمور التى لابد من الالتزام بها عسكريا ، تعيين حارس على السطح ، يكون متيقظا تماما ، فاذا ألقيت قنبلة حارقة تلتقطونها بكلابة كبيرة « كماشة » ، وتدفنونها فى أحد أكياس الرمل الكبيرة » •

وبمثل هذا الأسلوب أعطانا نصائح طيبة أخرى ، يبدو أنه نفسه تعلمها فى اليوم السابق فقط ، هذا هو كل شىء يتعلق بالتدريب •

كنت ألاحظ أن استعدادات الدفاع المدنى فى وقت الحرب قليلة جدا ، وعلى الرغم من الخطة المرتجلة — أو ربما لهذا السبب بالذات — سارت الأمور عندنا نسبيا سيرا حسنا ، ففى غضون ساعات قليلة ، أخلى الدور العلوى فى مسكن الطلبة من كل شىء ، وملىء بأكياس الرمل والمجاريف ، وأدوات نقل المياه • ثم جهزت الكلابة الكبيرة الحديدية ، التى سنستعملها فى القضاء على خطر القنبلة الحارقة ، ثم أقيم بعد بضعة أيام كشك صغير على السطح ليجلس فيه الحارس المعين •

كانت تلك هى أيام الدفاع المدنى ، فبعد يومين وقع انذار بغارة جوية ، ثم تلاه ثان ، وثالث ••• الخ ، ولكن لم تظهر أى طائرة ألمانية فى سماء موسكو ، وقيل :

« ان صفارات الانذار تطلق فى موسكو ، لو ظهرت طائرات ألمانية فى سماء « سمولنسك » •

تسلقنا بهدوء على السطح ، وقمنا ببعض التمرينات ، وكان مزاجنا معتدلا ، اذ كنا متأكدين أنه لن تنجح أى طائرة ألمانية مستقبلا فى اختراق سماء موسكو • وكان هذا صحيحا ، حتى يوم ٢٢ يوليو • لم يكن عندى فى هذا اليوم خدمة ليلية ، وكنت على بعد ١٥ دقيقة تقريبا من مسكن الطلبة ، عندما أطلقت صفارة الانذار • ولأول مرة تطلق صفارة الانذار وأنا خارج السكن ، تدفق الناس دون انقطاع الى المداخل الكبيرة لنفق المترو ، وبكل هدوء وقفت فى الطابور الطويل الذى امتد أمام محطة (Dserschinskaja) ، آلاف من البشر ألقت بنفسها على ألواح الخشب فى سراديب النفق •

مرت نصف ساعة ، فساعة ، فساعتان ، ولم تطلق صفارة الأمان ، وفجأة انتشرت الاشاعة :

« هى غارة حقيقية فى هذه المرة ، فالطائرات الألمانية فى سماء موسكو الآن » •

وبعد بضعة دقائق سمعنا انفجارا ، كان ضعيفا جدا وبعيدا ، ولكن كان من الواضح ، أن لا مجال للشك ، فى أن الطائرات الألمانية اخترقت الحواجز الدفاعية ، وألقت القنبلة الأولى على موسكو •

وفجأة دوى انفجار شديد ، يبدو أنه هنا فى هذا المكان ، وعلى عمق كبير تحت سطح الأرض ، فقد شعرنا بهزة عنيفة ، فقام النائمون مذعورين وصرخت النساء • وفى غضون لحظة واحدة ، فر مئات من الناس ، يبغون الهرب الى أى مكان ، ثم حدث انفجارا آخر قوى ، فساد الهلع ، والفزع الذى كان يمكن أن يسبب ضحايا أكثر من ضحايا القنبلة نفسها •

صاح رجل مهددا : « الى أين أنتم ذاهبون ! » ثم تلاه صوت أقوى : « اثبتوا مكانكم فهذا المكان أكثر أمنا لكم » هدأ الناس ، وجلسوا ، فزال الخطر الذى كان متوقعا من جراء هلع الناس وفزعهم ••

كان هذا أول اختبار لسكان موسكو ، ففى هذه الليلة ، ليلة ٢٣ يوليو حدث لأول مرة ، ما لم يكن أحد يعتقد قبل شهر أنه ممكن ، ألا وهو : قذف موسكو بالقنابل الألمانية •

***

الزحـــف الألمـــانى

تتقدمت القوات الألمـــانية على طول الجبهة ، من البحر المتجمد حتى البحر الأسود بسرعة مهولة . وكانت البلاغات الحربية فى الأسابيع الأولى للحرب غير واضحة اطلاقا ، فأسماء المناطق لم تذكر الا نادرا ، وغالبا ما كان الحديث عن « الاتجاهات » أو « الاقليم » — دون تحديد — الذى يدور فيه القتال ، ولم تنشر خريطة ، تحدد المكان الذى تدور فيه المعارك .

غير أن ما يسمى بـ« الاتجاهات » وذكر « الأقاليم » أشار لنا الى سرعة تقدم القوات الألمـــانية ، ولم يصدر أى بيان عن سرعة هذا الزحف .

وفى ٣٠ يونيو — أى بعد ثمانية أيام من بدء الحرب — تكون مجلس دفاع وطنى للاتحاد السوفييتى تحت قيادة « ستالين » وكان أعضاؤه فى بداية الأمر : « مولوتوف » و « موروشيلوف » و « مالينكوف » و « بيريا » فقط .

تركزت كل السلطات فى الاتحاد السوفييتى فى يد هذا المجلس ، وفرض على كل سكان الاتحاد السوفييتى ، بما فيهم أنظمة الحزب ، والدولة ومنظمة الشباب وجميع أفراد القوات المسلحة ، فرض عليهم جميعا تنفيذ قرارات وأوامر هذا المجلس دون أدنى اعتراض . ثم أعلن بعد أيام أسماء المسئولين عن الدفاع فى المناطق : ففى الجبهة الشمالية الغربية ، مارشال « فوروشيلوف » وفى الغربية الجنوبية مارشال « بودجونى » وفى الغربية وزير الدفاع ، مارشال « تيموشينكو » .

تسبب هذا البيان فى احداث تغير انفعالى وقتى لدى الشعب ، فكثيرا ما كنا نسمع :

« لم نشرع فى الاستعدادات والتنظيمات الا الآن ! من اليوم ستبدأ الحرب الحقيقية ، وسيحدث بالتأكيد تغيير جذرى فى الموقف العسكرى على الجبهة » .

ولكن لم يأت هذا التغيير ، فلا زالت القوات الألمـــانية تواصل زحفها الى الأمام .

أذاع « ستالين » كلمة فى الراديو فى الساعة السادسة من صباح ٣ يوليو ، وكانت أول كلمة له منذ بدء الحرب . لقد سمعته قبل ذلك أكثر من مرة ، ومعذلك لم أعرف صوته هذه المرة ، أنصت بكل احساس

الى بداية كلمته ، فبدلا من البداية المعروفة : « أيها الرفيقات ! أيها الرفقاء ! » بدأ خطابه هذه المرة على النحو التالى :

« أيها الرفقاء ! أيها المواطنون ! أيها الاخوة والأخوات ، أيها المقاتلون فى جيشنا وأسطولنا ! أتوجه اليكم يا أصدقائى ..» • كان يبدو عليه — من صوته — التأثر والاستعطاف ، وشعرت بعد الكلمات الأولى ، أن الموقف خطير جدا ، وليس كما تصوره البلاغات الحربية •

فسر « ستالين » الزحف السريع للقوات الألمـانية فى الأراضى السوفييتية ، بأن الحرب بدأت تحت ظروف ، هى فى صالح ألمـانيا الهتلرية ، وليست فى صالح الاتحاد السوفييتى ، فالقوات الألمـانية — هكذا كان شرحه — أتمت استعداداتها العسكرية ، وانتهت من كل ما يتعلق بالتجهيزات والتدريبات ، ولم يكن ينقصها سوى اشارة بالهجوم • أما القوات الروسية ، فقد قذف بها الى ساحة المعركة ، قبل أن تستكمل تدريباتها الميدانية •

ناشد « ستالين » أفراد الشعب السوفييتى ، أن يستمروا فى أعمالهم ، وألا يدعوا القلق يستولى على مشاعرهم • وحثهم على :

— توجيه كل الجهود لخدمة المعركة •
— الدفاع عن كل شبر من تراب الأرض السوفييتية •
— تقوية الجبهة الداخلية ، لتكون سندا للجيش الأحمر •
— زيادة الانتاج الحربى •

وأن يشنوا حربا لا هوادة فيها ضد :

— المخربين فى الجبهة الداخلية •
— من لا يلتزمون النظام ، ولا ينفذون الأوامر •
— مثيرى الرعب والفزع بين صفوف الشعب •
— مروجى الاشاعات •

وطلب أن يسلم الى المحكمة العسكرية — فورا وبدون ابطاء — كل أولئك الذين يروجون الاشاعات ، أو يدعون الى تثبيط الهمم فى الدفاع عن الوطن •

وأشار بنوع خاص ، الى أنه يجب نقل الممتلكات الى ما وراء الجيش الأحمر ، عندما يضطر الى التراجع • وكل الأشياء ذات القيمة ، مثل المعادن ، والحبوب ، ومواد القوى المحركة ، كالبترول والفحم ، التى لا يمكن نقلها ، يجب تدميرها واهلاكها •

وأخيرا دعا الى تكوين جيش شعبى فى كل مدينة ، تكون واقعة تحت تهديد العدو ، ليساند الجيش الأحمر •

كنت أعلم أن « ستالين » ليس خطيبا حماسيا ، فقد كان دائما يتحدث ببطء تام ، وبواقعية ، هادئا ، متزنا فى كلماته • وعندما سمعنا خطابه فى هذه المرة ، تبادلنا نظرات حائرة : لم يتحدث « ستالين » يوما ما وهو مرتبك ، ومتلعثم ، كما فى هذا اليوم • لقد أظهر لنا هذا الخطاب ، أكثر مما بينه لنا الزحف السريع للقوات الألمانية ، وأكثر مما وضحته لنا البلاغات الحربية حتى الآن • أظهر لنا الوضع الحقيقى للموقف فى الاتحاد السوفييتى فى أوائل يوليو بسنة ١٩٤١ م •

وقعت « ليتاون » وكل منطقة « ليتلاند » و « ايستلاند » ، والجزء الأكبر من روسيا البيضاء ، وغرب « أوكرانيا » فى يد القوات الألمانية بعد أسبوعين من بدء الحرب • كان الزحف أسرع بكثير ، مما كان يمكن أن يتصوره المتشائمون فى ٢٢ يونيو •

راجت الاشاعات المحمومة فى موسكو ، وقالت لنا احدى الطالبات هامسة : « يدعى الألمانيون أن ابن « ستالين » التجأ اليهم ، ويقال : ان هذا الخبر أذيع من اذاعتهم ، مشفوعا بحديث خاص ، كان قد دار بينه وبين أبيه ، فغالبا ما كان الابن يدعو الى مقاومة ديكتاتورية « ستالين » •

وكان من الطبيعى أن تسرع هذه الطالبة فى اظهار سخطها على هذه الاشاعة ، ولكننا فكرنا طويلا فى هذا لا لأننا سنتأثر بها — كنا نتمنى النصر للاتحاد السوفييتى — ولكن لأننا كنا نخشى التأثير الخطير لمثل هذه الاشاعة على أولئك الذين لم يتثقفوا « سياسيا » •

لم نكن الوحيدين ، الذين أصابهم القلق من هذه الاشاعة ، فقد صدر بلاغ خاص من الرئاسة العليا للاتحاد السوفييتى ، جاء فيه :

« لقد تقرر عقاب أولئك الذين يروجون الاشاعات الكاذبة أثناء الحرب لبلبلة الأفكار ، واشاعة الذعر بين المواطنين ، بالسجن مددا تتراوح بين سنتين وخمس سنوات ، إذا لم تتسبب جريمتهم فى احداث آثار أخرى تقتضى عقوبات أقصى » •

لم تتغير صورة مدينة موسكو ، حتى منتصف يوليو ، باستثناء تغيير معالم الشوارع ، والميادين ، والمبانى الهامة ، وبناء المخابىء ، وعمل المناطيد التى تطير فى سماء موسكو عند حلول الظلام • ولم يزل

كثير من سكان موسكو يذهبون فى تلك الأيام الى المنتزهات ، للترويح عن أنفسهم بعد أعمالهم اليومية .كذلك كان العمل فى المحلات ، والمطاعم عاديا مثل ما كان فى وقت السلم ، اذ انقطع الاقبال الشديد على شراء المواد الغذائية وتخزينها ، بعد يومين أو ثلاثة من بدء الحرب ، لأن الشعب أدرك ، أنه لن يكون هناك نقص فيها ، أو على الأقل لا يتعدى النقص حدوده المألوفة وقت السلم .

وفى ١٤ يوليو تغير هذا الوضع رأسا على عقب ، وبسرعة ، فقد ظهر سكان موسكو مرة أخرى فى الشوارع ، يقفون أمام المحلات والمطاعم فى صفوف طويلة ، أطول مما كانت فى أول يوم فى الحرب .

« ماذا حدث ؟ » كان هذا سؤالى لشاب وقف فى آخر طابور ، امتد طوله حوالى ثلثمائة متر ، فرد على قائلا : « نحاول الحصول على مواد غذائية بسرعة ، فسيكون الحصول عليها ابتداء من الغد بالبطاقة فقط ، ألم تقرأ ذلك فى الجريدة ؟ » .

أخرجت « برافدا » من جيبى ، فلم أجد فيها أى كلمة عن البطاقات التموينية فقال لى الشاب : « ليس فى « برافدا » ! بل فى الجرائد المحلية فقط » . وقفت فى الطابور حتى يئست من الانتظار ، فانصرفت ، لأن الطابور لم يتحرك فى مدى ساعة ، الا مسافة قصيرة جدا .

وفى اليوم التالى طبق نظام بطاقات التموين فى موسكو ، وكان أهم منها بالنسبة لى أخبار جبهة القتال ، فالقوات الألمانية لا زالت تواصل زحفها الى الأمام .

قالت لى احدى المواطنات السوفييت بمرارة وألم :

« لقد تحملنا ألم الجوع سنين عديدة ، تنازلنا عن كل شىء ، وكنا نخرجها من الفم ، لنقتصدها للانشاء ، والدفاع عن وطننا . والآن ! وبعد أسابيع قليلة من بدء الحرب ، تزحف القوات الألمانية على « لينينجراد » و « سمولينسك » و « كييف » » .

فقلت لها : « هذا تراجع وقتى من القوات الروسية ، فلا تنسى أن القوات الألمانية ، كانت قد أتمت استعداداتها للحرب ، أما القوات السوفييتية ، فقد بدأت الاستعداد لذلك بعد بدء الحرب » . وتلك هى الاجابة التى تلقن لأعضاء منظمة الشباب « المدركين لأبعاد الموقف » . ولكن أصبح عضو منظمة الشباب نفسه فى الأيام التالية متحيرا وقلقا .

ففى ١٧ يوليو عين مفوضون عسكريون فى الجيش الأحمر ، وكنا قد سمعنا من قبل فى المدرسة ، وفى منظمة الشباب ، وفى المعهد العالى كثيرا عن المفوضين العسكريين ، اذ علمونا أن تعيينهم كان فى وقت الضرورة فقط ، فى زمن الحرب الأهلية • فقد كان لدى الجيش الأحمر آنذاك عدد قليل من القيادات ، ولهذا أسند الى الجنرالات والضباط القدامى ، الذين كانوا يخدمون فى جيش القيصر مباشرة القيادة السياسية ، وبعض أنظمة المراقبة المختلفة • وهذا ليس ضروريا الآن ، لأن لدى الجيش الأحمر عدد كاف من القيادات التى يعتمد عليها •

وبعد ثلاثة أسابيع من بدء الحرب اضطروا الى تعيين مفوضين عسكريين • قرأت بامعان ، وتفكير عميق ، النص التفصيلى لقرار تعيينهم : « يتولى « المفوضون العسكريون » تمثيل الحزب والحكومة فى « الجيش الأحمر » وعليهم أن يتحملوا « بالاشتراك مع القيادات » المسئولية الكاملة ، فى تنفيذ الأوامر الحربية الصادرة من « القيادة العليا » ومن واجباتهم : « مراقبة تنفيذ كل الأوامر الصادرة من القيادة العليا مراقبة صارمة » ، وفى نفس الوقت ، تزويد القيادة العليا والحكومة ، بالمعلومات عما يحدث فى كل قطاع من أعمال ، « تمس شرف الجيش الأحمر » ، وينبغى عليهم أن يتخذوا اجراءات صارمة ضد الجبناء ، والهاربين من الخدمة العسكرية • « وهم ملزمون بالقضاء على كل أولئك الخونة قضاء تاما » •

كررت قراءة هذه الجمل أكثر من مرة ، ثم قلت لنفسى : لم نعرف حتى الآن شيئا محددا عن الموقف فى الجبهة ، ترى ماذا يحدث هناك ، اذ أعطى المفوضون العسكريون أمرا صارما بالقضاء على الخونة ، والجبناء ، والهاربين من الخدمة العسكرية !

فوجئنا فى ٢٠ يوليو بتغيير جديد ، فقد عين « ستالين » « وزيرا للدفاع » ، وعين وزير الدفاع السابق « تيموشينكو » — وكان قد عين فى هذا المنصب قبل ثمانية أيام فقط — وكيلا له •

ولكن لم يغير تكوين مجلس الدفاع القومى ، ولا تعيين القائد الأعلى ولا تعيين المفوضين العسكريين ، ولا تولى « ستالين » وزارة الدفاع ، لم يغير هذا كله شيئا من الموقف فى ساحة المعركة ، فالقوات الألمانية تواصل زحفها ، وقد اقتربت من « سمولينسك » •

بدأ فى نهاية يوليو اعداد دور الحضــانة ، ومدارس الأطفــال الصغار — وفيما بعد المصانع أيضا — لتستقبل المهاجرين • وشوهدت .رارا طوابير من عربات النقل ، متجهة الى محطة السكك الحديدية ، وقطارات البضائع الطويلة متجهة صوب الشرق •

كذلك أظهرت لنا عملية تجنيد المواطنون فى الجيش الشعبى خطورة الموقف ، فقد استدعى فجأة الطلبة وكذلك الأساتذة الى الخدمة فى الجيش الشعبى • ولم يكن هذا لشن حرب حديثة على الاطلاق ، بل سيكلفون — بعد التدريب القصير — بالتعرض بأسلحتهم القديمة ، لطوابير دبابات « هتلر » وكنت أرى فى شوارع موسكو طوابير من الناس ، بملابسهم المدنية ، وهم يحملون الأسلحة على أكتافهم •

وجرى الهمس فى المدينة ، بأنهم سيرسلون الى الجبهة ، وهم على هذه الحالة • وليس من اللازم أن نذكر أن أفراد الجيش الشعبى ، لن يستطيعوا وقف زحف القوات الألمــانية المتفوقة عليهم بمراحل ، وكان وضعهم يشبه وضع الجيش الشعبى الألمــانى « الصاعقة الشعبية » أمام قوات الحلفاء فى ربيع عام ١٩٤٥ م •

كنا نعيش فى تلك الأسابيع بكل احساسنا ومشاعرنا مع الحرب ، لدرجة أن اختفت اتجاهاتنا نحو النقد — وهو ما كنا نمارسه همسا فى أحاديثنا العادية — وتلاشت معارضتنا لبعض المواقف ، اذ كان أهم شىء عندنا جميعا ، هو الكفاح ضد الفاشية • واختفت كل الريب والشكوك ، اذ نادرا ما كان يفكر المرء فى تلك الحوادث المؤلمــة ، وموجة الاعتقالات الجماعية ، التى وقعت فى الاتحاد السوفييتى ، قبل بضعة أعــوام •

وكان الجزء الأكبر من الذين أعرفهم من أعضاء منظمة الشباب والطلبة ، يتمنون من كل قلوبهم ، أن ينتصر الاتحاد السوفييتى على « هتلر » ولكن مضافا اليه بطبيعة الحال الأمل فى أن تكون الحياة فى الاتحاد السوفييتى بعد الحرب ، أكثر حرية ، وأقل قيودا من ذى قبل • لقد قاسينا من اجراءات نظام الحكم أكثر من اللازم ، وأرغمتنا الأفكار الــ« ستالينية » على رفض النظام رفضا تاما ، ولكن لم نتمنى سوى أن نستطيع العيش داخل هذا النظام — فلم يكن بوسعنا آنذاك أن نتخيل نظاما غيره — بشىء من الحرية ، وعدم الارهاب ، وأن ننفتح ثقافيــا مع العالم الخارجى •

وأدركت بعد أيام قليلة ، أن بيننا وبين تحقيق هذين المطلبين المتواضعين مسافة بعيدة جدا ، فقد دعيت مع « هانز هانزليتشك » — وهو نمساوى ، كان صديقا وزميلا لى فى منزل الأطفال رقم ٦ ، ويشتغل منذ زمن عاملا فى ورش سيارات « ستالين » فى موسكو — لزيارة الزعيم الشيوعى النمساوى « فيلى فينك » فى فندق لوكس • كان « فينك » من أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ولهذا أتيحت له الفرصة ، لقراءة الصحافة الأجنبية بما فيها الجرائد النازية •

تحدثنا أثناء شرب الشـــاى عن الغارات الجوية الأخيرة على موسكو ، فقال « فينك » وكان قد قرأ جريدة « المراقب الشعبى » فى مقر الحزب الشيوعى — : نشرت الصحافة الألمـــانية ، أن حرائق كبرى اشتعلت فى مدينة موسكو • فضحكنا لأنه لم تشتعل حرائق كبرى فى موسكو ، استغرق « هانز » فى الضحك الشديد بنوع خاص وقال : « لابد أن أحكى هذا لزملائى فى الورشة ، فلسوف يضحكون على هذا الهراء » •

ثم تحول الحـــديث الى مواضيع أخرى ، ولكن بدت عـــلامات الاضطراب على وجه « فيلى فينك » ثم قال لنا عند توديعنا : « أريد أن أقول لكما شيئا آخر ! أرجو ألا تخبروا أحدا ، عن ادعاء الصحافة ، باشتعال حرائق كبيرة فى موسكو » •

فهمنا ملاحظته ، فنحن نعلم من قبل ، أنه لا يجوز لأعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أن يتحدثوا بكلمة واحدة لأحد عما يقرأون فى الجرائد الأجنبية ، التى تحول لهم •

امتعضت لهذا الموقف ، اذن لا يجوز لأحد أن يتحدث عن الأشياء التى لا تأثير لها على الاطلاق ، حتى الأخبار التى فى صالح الاتحـــاد السوفييتى •

علمت فى المساء أن طالبا ألمـــانيا من « فولجـــا » كان يسكن فى الحجرة المجاورة لى قد قبض عليه ، وبعدها بقليل قابلت طالبتين من برلين وهما : « جيردا » و « كيتى » كريمتا الكاتب الشيوعى « ألبرت هوتوف » وكانتـــا تبكيـــان ، لأن والدهمـــا — وهو مؤلف كتـــاب (Fi, Scherkutter HF 13) ويعيش منفيا فى الاتحاد السوفييتى ، ولم يمس أثناء حركة التطهير — اعتقلته المخابرات السوفييتية (N.K.W.D.)

ذهبت بعد أسبوعين مع طالبتين الى سينما (Udarnik) فرأينا

فى صالة الاعلانات شيئا ، لم نكن نتصور حدوثه قبل أشهر قليلة ، رأينا صورا من أفلام انجليزية وأمريكية ، وتحتها كلمات قصيرة عن الفيلم وصور الأبطال • امتلأت كل حوائط صالة الاعلانات فى سينما (Udarnik) بهذه الصـــور ، وكانت مفاجـــأة سارة لنا ، وفرحنا برفع الحظر الذى كان مفروضا علينا ، حتى ولو لم يزل شيئا متواضعا •

نشأنا فى الاتحاد السوفييتى ، وتربينا بين أحضانه ، فتعودنا على ملاحظة كل تغيير يحدث ، ولو كان صغيرا ، وغالبا ما يربط هذا بالتقلب فى الاتجاهات السياسية •

تطلعنا بكل اهتمام الى صور الأفلام الغربية ، وقالت احدى الطالبتين : « انه لجميل حقا ، مشاهدة مثل هذه الصور ! » •

فوافقتها بايماءة ، ثم قلت : « ربما تكون هذه الصور بداية فقط ؟ » ولاحظنا أن أفكارنا كانت فى نفس اللحظة متشابهة ، وبدأنا بحذر حديثا أكثر صراحة ، همست فى أذنى بنبرة المملوء تفاؤلا : « ان من حظنا ، أننا لم نعد نسير مع « هتلر » بل نخوض حربا مع انجلترا — وربما فيما بعد مع أمريكا أيضا — ضد « هتلر » ، فلو هزم « هتلر » ، فلربما تتغير بعض الأشياء عندنا » •

« أنا آمل أيضا ، أنه بعد الحرب •••• » ولم أستطع أن أقول شيئا بعد هذا فقد همست الطالبة — التى كانت قد نظرت حولنا خوفا ، عندما سمعت حديثنا — متوسلة : « هس هس ! صه صه ! أرجوكم ! اسكتوا ! كفوا عن التمادى فى هذا الحديث ! » •

فعاد الينا تمزقنا الداخلى : أردنا نصر الاتحاد السوفييتى على « هتلر » ، لم نكن ضد النظام على الاطلاق ، ولكن لمـــاذا لا يستطيع ثلاثة طلاب فى موسكو ، وهم فى الوقت نفسه أعضاء فى منظمة الشباب ، أن يتحدثوا مرة ، عما اذا كانوا سيحصلون بعد الحرب على وضع أكثر حرية ؟

وفى اليوم التالى — وهو يوم ١٤ أغسطس — نشرت « برافدا » هذا الخبر :

« سلمت قواتنا مدينة « سمولينسك » قبل بضعة أيام » •

قبل بضعة أيام ؟ — معنى هذا أن القوات الألمـــانية ، كانت متجهة الى موسكو ، وطوقت فى طريقها « سمولينسك » •

* * *

توديع موسـكو

بدأ النشاط يدب مرة أخرى فى معهدنا فى أول سبتمبر ، غير أن كثيرا منا — ومن بينهم طالبات أيضا — قد جندوا فى الجيش الأحمر ، أو فى الجيش الشعبى ، فى غضون الفترة الماضية ، وكانت هذه أول دفعة ، تستدعى للخدمة ، تلاها دفعات أخرى حتى جند جميع الطلبة .
حاولت بكل جهدى أن أدرس ، ولم يكن من السهل الاستغراق فى دراسة علم اللغـات ، والمقـارنة اللغوية ، بينما القوات الألمـانية تطوق « لينينجراد » ، وفى الوقت نفسه تزحف على موسكو .

وفى مساء يوم ١٤ سبتمبر وقف شرطى أمام حجرتى فى مسكن الطلبة ، فتملكنى الرعب ، القاء القبض على أساس خلفيات سياسية ، غير ممكن وقوعه من المخابرات بالنسبة لى ! ولكنى رغم هذا كنت خائفا ، عندما أخرج من حقيبته ورقة ، ثم دقق النظر فيها وقال : « هل أنت الرفيق « ليونهارد » الطالب فى معهد المعلمين التربوى للغات الأجنبية فى موسكو ؟

لم يكن هناك مجال للشك !

« مطلوب حضورك الى قسم الشرطة غدا فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقع من فضلك على هذه الورقة » .

بدا الوضع فى قسم الشرطة ، كما لو كنا فى معسكر « الغجر » الرحل ، اذ تزاحم عدد يقدر بحوالى ١٥٠ شخصا فى الصالة ، وظهر من ملامح وجوههم ، أن بعضهم طلبة . وكان معظم الواقفين فى الصالة من اللاجئين السياسيين الألمـانيين حضر بعضهم مع نسائه وأطفاله ، وسرعان ما اكتشفت بينهم عددا كبيرا أعرفه من قبل .

استدعيت الأسر — واحدة بعد الأخرى — للمثول أمام رئيس قسم الشرطة ، ومع ذلك لم يتناقص عدد الواقفين فى الصالة لأن سيل القادمين الجدد لا ينقطع . وسمعت من يهمس فى أذن جاره :

« سيرحل كل الألمـان الى « كيسيل — أوردا » ، وسيقيمون هناك ، ما دامت الحرب دائرة ، ولن يستثنى أحد من هذا القرار » .

فسألت : « هل يسرى هذا القرار أيضا على أعضاء منظمة الشباب ؟ فقيل لى : « الكل ! حتى أولئك الذين حصلوا فى مدة اقامتهم فى الاتحاد السوفييتى على عضوية الحزب الشيوعى الروسى ، وسوف يستثنى فقط بعض أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » .. لغز كبير !!

— أين تقع « كيسيل — أوردا » ؟
— فى جمهورية « كازاخستان المتحدة » •
— حسنا ! وأين تقع جمهورية « كازاخستان المتحدة » ؟
كنا — نحن الشباب — نتيه عجبا ، لمعلوماتنا الجغرافيــة ونحن نشرح لهم :

« جمهورية « كازاخستان » هى الجمهورية الكبرى الثانية فى الاتحاد السوفييتى ، وتمتد من « فولجــا » غربا ، حتى الحدود الصينية شرقــا ، ومن « ســيبيريا » شمالا حتى جمهورية « كرجســتان » و « أزبكستان المتحدة » جنوبا » •

— حسنا ! ولكن أين تقع هذه المدينة « كيسيل — أوردا » ؟
ولم نعرف بالضبط موقعها •

— أنا أعرف فقط ، أن هذه المدينة ، هى احدى مدن أربعة أو خمسة كبرى فى جمهورية « كازاخستان » ومعنى كلمة « كيسيل — أوردا » فى اللغة الألمــانية : « القبيلة الحمراء » •

ولم يحدث معنى الكلمة أثرا فى تهدئة « الرفقاء » كبار السن •

نودى اسمى بعد ما يقرب من ساعتين ، وعندما دخلت ، وجدت الشخص الذى نمثل أمامه ، جالسا وراء جبال من الملفات ، وبجانبه اثنان من المساعدين • كانوا متضايقين ، للقيام بعمليات الترحيل الضخمة ، التى لم يكونوا يتوقعونها ، ورغم هذا فلم يظهر الغضب فى لهجتهم عندما وجه الى بعض الأسئلة :

— منذ متى تعيش فى الاتحاد السوفييتى ؟

— منذ عام ١٩٣٥ م ، التحقت عام ١٩٣٦ م فى بيت الأطفال ، ومنذ عام ١٩٤٠ م وأنا أدرس •

— أين تدرس ؟

— فى معهد المعلمين التربوى للغات الأجنبية فى موسكو •

— ستضطر من الآن للانقطاع عن دراستك ، فقد تلقينا تعليمات بترحيل كل الألمــانيين ، الذين يعيشون فى موسكو الى « كيسيل — أوردا » ، وسيظلون هناك ما دامت الحرب دائرة ، وهى مسألة تتعلق « باجراءات الأمن الضرورية » أثناء الحرب • فاذا انتهت الحرب ، تستطيع أن تعود الى موسكو •

وفى غضون ذلك كان المساعدان ، قد انتهيا من استخراج بطاقتى الشخصية ، وعندما تناولتها ، رأيتها مختومة بالخاتم الأحمر الكبير ، ومكتوب عليها :

« لحامل هذه البطاقة الحق ، فى أن يقيم فى « كيسيل — أوردا » ، بجمهورية « كازاخستان » السوفييتية ، ولا يجوز له مغادرتها اطلاقا » •

ثم تبين لى فيما بعد أن كل البطاقات ختمت بالخاتم الأحمر • سوف نلتقى قريبا فى منطقة « كيسيل — أوردا » بجمهورية « كازاخستان » السوفييتية •

سيعلن موعد السفر الى هناك فى وقته المناسب ، وسوف يكون لنا الحق فى أن نأخذ معنا « عفشا » وحقائب لا يزيد وزنها عن ١٠٠٠ كيلو جرام •

تبسم العمال الشبان والطلبة عند قراءة هذه الملاحظة وعلقوا قائلين : « من منا يملك أشياء تزيد على حقيبتين ! » •

كان حديث الترحيل الى « كيسيل — أوردا » هو الموضوع الرئيسى للاجئين الألمـــانيين • وسرعان ما انتشرت شائعة ، تفيد بأنه قد أعدت قائمة بأسماء أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وممثلى الحزب الشيوعى الألمــانى فى موسكو ، الذين يتحتم بقاؤهم فى موسكو •

قررت البحث عن حظى فى هذا الاتجاه ، فقد كانت لى علاقة بثلاثة من أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية وهم : « هانز مالى » الذى كان محررا فى اذاعة موسكو • ورائد الشباب النمساوى « فيلى فينك » و « ليـــا ليشتر » وهى عضو بارز فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وكانت قد التحقت فى عهد « هتلر » بأول مجموعة سرية فى غرب ألمانيا وتهتم الآن بأنشطة الشباب الألمــانى فى موسكو •

ونجحت فى الوصول الى « ليــا » فقالت لى : « أنت محظوظ ، لأنهم يحتاجون اليك فى محطة راديو فى موسكو ، ولذا فأنت فى قائمة الذين سيمكثون هنا • لقد تم التوقيع على القائمة اليوم ، وسوف تخبرك الجهات المسئولة فى الأيام القليلة القادمة » •

وفعلا ، تلقيت بعد أيام قليلة أمرا بالحضور الى قسم الشرطة ، فذهبت ولكنى كنت مسرورا هذه المرة •

قرأ رئيس الشرطة المكتوب بدقة ، ثم قارن بينه وبين القائمة ،

ثم أخذ منى — دون أن يتكلم كلمة — البطاقة الشخصية ، التى أعطانيها قبل أيام قليلة • وأثناء اتمام الاجراءات قال لى :

« طبعا سأصدر أمرا باستخراج مستندات جديدة لك حالا ، وبمقتضاها سيكون لك الحق فى البقاء فى موسكو أثناء الحرب • ولو كنت مكانك ما وافقت على ذلك ، اذ من الممكن أن تضطر فيما بعد ، الى مغادرة موسكو تحت ظروف أقسى من هذه الظروف • ولهذا أنصحك أن تسافر بهذه المستندات الجديدة — حرا مختارا — مع المجموعة المرحلة ، التى كنت سترحل معها ، لو لم تحصل على المستندات الجديدة ، وبعد وصول القطار الى « كيسيل — أوردا » تطلع قائد الترحيل على مستنداتك ، ويمكنك فى هذه الحالة أن تبحث عن المكان الذى تستطيع أن تعمل فيه ، أو تدرس » •

لم أكن أتوقع مثل هذا الاقتراح ، ولكنه وضح لى الطريق نوعا ما • ثم واصل حديثه :

— « أنت تدرس فى معهد موسكو للغات الأجنبية ؟ هل سيرحل طلبة هذا المعهد أيضا ؟ »

— نعم ! سمعت أنهم سيرحلون الى « ألما — أتا » فى « كازاخستان » •

— « اسمع ! هذا رائع جدا ! فأنت تستطيع أن تسافر الى « كيسيل — أوردا » ، ومن هناك تواصل سفرك الى « ألما — أتا » •

اقتنعت برأيه ، وقبل أن أعود الى مسكنى ، توصلت الى قرار : معى الآن بطاقة شخصية للبقاء فى موسكو ، ولكن أستطيع أن أسافر مختارا ، وسوف أواصل رحلتى من « كيسيل — أوردا » الى « ألما — أتا » ولن يستطيع أحد أن يمنعنى ، لأنى لم أعد ضمن الأشخاص المرحلين اجباريا •

كان كل شىء واضحا وضوح الشمس ، واعتقدت اعتقادا جازما بأن الأمور سوف تسير ، كما قررت فى ذلك اليوم من سبتمبر عام ١٩٤١ م • ولم أشعر بأنى سأقاسى خيبة الأمل بعد أسابيع قليلة • وصلتنا الأنباء بأننا سنرحل يوم ٢٨ سبتمبر ، كان الموقف مثيرا للأعصاب ، فقد رحل عدد كبير من الطلبة ، وكان هنا لقاءات الوداع •

وصلت عربتا نقل فى السادسة صباحا ، فأنزلنا منقولاتنا ، وتجمع فى مدخل مسكن الطلبة أصدقاؤنا ، وعانقنى صديقى ، وزميلى فى الحجرة

« بينيك » البولندى ، الذى اشترك فى الحرب الأسبانية ، وتبادلنا الحديث معبرين عن قلقنا وخوفنا من المستقبل ، وتمنينا أن نلتقى مرة أخرى فى المدينة التى سنرحل اليها • ولكن لم يتحقق أملنا ، اذ رحل مرة أخرى — كما حدث بالنسبة لى أيضا — الى أبعد منطقة فى الطرف الشرقى •

انطلقت سيارتنا اللورى ، فتعالت الأصوات بكلمات الوداع ، وابتعدنا شيئا فشيئا عن مسكن الطلبة ، الذى كنت أعتبره أثناء هذا العـــام ، كوطنى الأصلى • اخترقنا موسكو ، عربتا نقل ، مليئتان بحقائب وصناديق ، ويجلس فوقهما ألمانيون ، لترحيلهم الى « كيسيل — أوردا » •

توقعت أننا سنتجه الى محطة السكك الحديدية ، ولكن سرعان ما تبين لى أن هذا التوقع كان خطأ ، فنحن نوشك أن نصل الى أطراف المدينة • وبعد مرور أربع ساعات رأينا طابورا من عربات النقل مكونا من ٨٠ سيارة ومئات من الناس ، بعضهم يقف أمام العربات والبعض الآخر جالسا ، ومعهم حقائب و « جربنديات » • لم يكن هناك مبنى لمحطة ، بل بعض القضبان فقط ، يحيط بها — على شكل دائرة واسعة — سور من الخشب •

سأل شرطى عند الباب عن الهوية بلهجة فظة ، فأطلعه رجل كان يجلس بجوار السائق على بعض الأوراق ، وبعدها سمح للعربة بالدخول •

وعقب الانتهاء من عملية النزول مباشرة ، توجه الينا بعض المرتدين الملابس العسكرية ، وقالوا : أنزلوا أمتعتكم بسرعة ، واركبوا القطار ، ولا يجوز لأحد منكم مغادرة المكان المخصص له اطلاقا •

وتبينت فى هذه اللحظة وضعى الحقيقى ! لقد اعترانى شعور مخيف ، أن أكون مسجونا •

* * *

الباب الرابع

الترحيل الإجبارى الى "كاراجندا"

كانت محطة البضائع المسورة بسور الخشب فقط ، والمضروب حولها حراسة مشددة ، تشبه فى يوم ٢٨ سبتمبر خلية نحل ، اذ كانت تصل كل عشر دقائق ، أو خمس عشرة دقيقة عربة نقل محملة بالألمانيين الذين سيرحلون عن موسكو • فى تلك الأيام الحالكة من أيام الحرب ، عندما كانت تتقدم القوات الألمانية نحو موسكو ، ويحتاج الوضع الى كل عربة فى قطار ، وكل عربة نقل احتياجا ملحا ، وجه هذا العدد الكبير من عربات السكك الحديدية ، وسيارات اللورى لنقل المرحلين وأمتعتهم •

لم ينقطع تردد المرتدين الملابس العسكرية على عربات قطار البضائع صعودا وهبوطا ، وصاح أحدهم :

« لماذا تقفون هنا ؟ اركبوا القطار ! » •

وانطلقنا نحاول الركوب على طول القطار ، كل يبحث عن مكان صغير يقف فيه ، ولكن هؤلاء الناس الذين كانوا جالسين فى القطار جنبا الى جنب ، متلاصقين من شدة الزحام ، صاحوا من بعيد :

« لا يوجد مكان ! » وكان محتما علينا ألا نحاول الركوب ، فالقطار مزدحم ازدحاما شديدا ، لا تجد فيه موضعا لقدم •

وعاد رجال الشرطة مرة أخرى وقالوا : « لماذا لم تركبوا القطار حتى الآن ؟

فقلنا : « لا يمكن هذا أيها الرفيق الضابط ، فليس فى العربات موضع لقدم واحد فضلا عن قدمين ! » •

ولم يقتنع الضباط بهذا ، وقالوا : « سوف نستطيع ذلك حالا » •

وساروا معنا على طول القطار ، للبحث عن مكان ، يمكن أن نحشر فيه ، واكتشفنا شيئا لم نره من قبل ، فالحراسة العسكرية ، لم تقتصر على المحطة فقط ، بل كان فى القطار حراسة عسكرية من الجيش الأحمر يصحبها بعض الضباط أيضا •

أصدر العسكريون بعض الأوامر ، ولم يرفع الألمانيون أيديهم لحماية أنفسهم من ضغط الزحام ، بل تزمروا بصوت منخفض جدا • وفى

أقل من نصف ساعة كنا — وبعض الذين وصلوا بعدنا — قد قذفنا فى العربات كما تحمل البضائع • لم نستطع الجلوس اطلاقا ، بل وقفنا ، وانتظرنا ما يمكن أن يحدث بعد ذلك •

* * *

الرحلة الى عالم غير آمن

كان يوجد معى فى عربة البضائع الصغيرة حوالى ٥٠ شخصا أعمارهم مختلفة ، ومهنهم متنوعة أيضا ، ويمثلون كل الطبقات الاجتماعية ، من العامل البسيط حتى أستاذ الجامعة الذى اشتهر عن طريق التليفزيون • وكانت أعمارهم من الطفل الذى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات حتى الشيخ ، الذى بلغ الثمانين من عمره • لم يكن أحد منهم يوما ما فى ألمـانيا ، باستثناء بعض الطلبة الشبان الذين لجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى ، فبعضهم لم يتعلم اللغة الألمـانية اطلاقا ، وكانوا روسيين مثل كل سكان موسكو ، كان بيننا فتاتين من القرم ، انحدرتا من جمهورية « فولجـا » ورحلتا الى موسكو وهما صغار السن •

أدركت شيئا فشيئا ، لماذا اعتبر هؤلاء الناس فجأة « ألمانيون » ورحلوا الى « كيسيل — أوردا » ، فقد جرى احصاء للسكان فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، وكان من المفروض أن يكتب بجانب « الوطن التابع له » الجنس المنحدر منه ، فأملوا آنذاك — دون تفكير فى العواقب — طبقا لتقاليد متبعة لديهم أو اشباعا لرغبة الظهور بالانتماء الى جنس ذى حضارة ، أنهم ينحدرون من الجنس الألمـانى ، لم يخطر فى بالهم أن هذه الملاحظة ستجر عليهم المتاعب فى حياتهم ذات يوم • والآن ! يجلس هؤلاء الذين لم يكن بامكانهم ذات يوم أن يكونوا ألمانيين ، يجلسون هنا بوصفهم « ألمانيون » ، ويرحلون الى عالم غير آمن ، ويواجهون قضاءهم غير المعلوم •

انضممت فى بادىء الأمر الى أولئك الذين هم فى الحقيقة ألمانيون : أقطاب الحزب الشيوعى الألمانى ، الذين حاربوا فى أسبانيا مع الفرقة العالمية ، ولجأوا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٩ م ، ويجلسون الآن فى هذا القطار بوصفهم « ألمانيون مشكوك فى ولائهم » • وهم زوجة الكاتب الشيوعى « ألبرت هوتوب » وابنتاها « كيتسى » و « جيردا » ، و « ارمجارد سيكيرت » بنت الشيوعى الألمـانى « ألفريد سيكيرت » الذى حارب مع الفرقة العالمية ، واعتقل أثناء

الحرب فى سويسرا ، وقد جاءت ابنته الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣٤ م ، والتحقت — مثلى — فيما بعد بمعهد المعلمين للغات الأجنبية •

استولى اليأس علينا فى أول مساء لنا فى هذه الرحلة فبدأ الثلاثة الذين حاربوا فى أسبانيا يغنون أغانى مرحة ، فقيل لهم :

« يبدو أنكم مبسوطين ، على الرغم مما نحن فيه » فأجاب أحدهم : « لا يعدو هذا سوى رقصة المذبوح » •

كنت أقدر موقفهم ، وأفهم نفسياتهم ، فهم قد خدموا الحزب بأمانة ، عشرات السنين ، ووضعوا حياتهم على أكفهم فى أسبانيا ، والآن يرحلون الى منطقة نائية فى وسط آسيا » •

وفكرت فى أحوالى الخاصة ، بالأمس كنت لا زلت عضوا فى منظمة الشباب ، وطالبا ، والآن أجلس هنا كـ« أجنبى مشكوك فى ولائه » فى هذه العربة تحت الحراسة المسلحة • غادرت موسكو ، تركت أصدقاء ، ورحلت الى « كيسيل — أوردا » •

ولكنى — وان كان ذلك مستغربا عند القارىء الغربى — لم أشعر بمرارة ، ولم يستول الحقد على مشاعرى ، بل كنت على العكس ، أحاول تبرير هذا الترحيل الاجبارى • من المؤكد — هكذا قلت لنفسى — أن هذا ليس قدرا مؤلمـا ، ترحيل عضو متحمس فى منظمة الشباب ، فى عربة بضاعة كـ« أجنبى مشكوك فى ولائه » • الى وسط آسيا •

بل انها مأساة ، وخاصة بالنسبة لأولئك الرفقاء الذين خدموا الحزب طول حياتهم ، ثم يكون الجزاء ترحيلهم الى هذه المنطقة النائية ، ولكن هل كان من الممكن حقا ، فى تلك الأيام العصيبة ، حيث تتقدم القوات النازية ، أن يكون هناك وقت ، للتمييز بين الألمـانيين ، وفقا لمواقفهم مع الحزب الشيوعى ؟

سار القطار عبر السهول الروسية ، واضطر الى الوقوف مرارا على طول الخط فى أماكن خالية (أى غير معدة لأن تكون محطة) ، فليس هناك ما يدعو الى العجلة •

كانت حالـة المـدن التى مررنا عليـها وهى « رياشسـك » و « مورشانسك » ، جنوب شرق موسكو ، يوحى بجو سلمى •

ولكن سرعان ما تغير هذا ، فبعد ستة أيام من السفر ، وصلنا الى « بينز » وهى على بعد ٥٥٠ كيلو متر من موسكو ، فوجدنا آلافا من البشر — بين جالس ، ومستلق — فى محطة السكك الحديدية ، وعلى

السلالم ، وفى الشوارع ، والميادين ، لاجئين ، ومرحلين من المناطق الغربية فى روسيا • وعلى الرغم من القواعد الصارمة لتنظيم عملية نقل هؤلاء الناس ، فقد وقف الموظفون المحليون عاجزين عن مواجهة السيل ، الذى لا ينقطع من المهاجرين والمرحلين • وهكذا حط الناس رحالهم ببساطة فى الشوارع ، والميادين آملين أن يتمكنوا مرة أخرى من اللحاق بقطار ينقلهم الى مسافة أبعد تجاه الشرق •

ولكن كان هذا أملا غير منظور تحقيقه ، فالقطارات تصل الى « بينزا » وليس فيها موضع لقدم ، ولهذا اضطر الناس الى البقاء هناك أسابيع الى أن يوزعوا أخيرا على مناطق المزارع الجماعية الموجودة حول المدينة •

واصل القطار سيره فى المساء متجها الى « سيزران » و « كوبيشيف » فوصلنا اليها فى ساعة متأخرة من الليل • وأردت النزول مرة أخرى ، ولكن القطـــار كان محاصرا فى هذه المرة بالجنود ، الذين كانوا يراقبون ركاب القطار مراقبة صارمة ، فصاحوا : « لا يجوز لأحد مغادرة القطار »

وتساءل أحد المسافرين : « حتى ولو كان للحصول على شربة ماء » ؟

فرد الجندى : « لا ! لا تغادر القطار اطلاقا ! وسوف يتعرض من يغادر القطار لأشد العقوبات ، فلا يجوز لكم النزول ، ما دام القطار واقفا فى هذه المحطة » •

علمنا بعد بضعة أسابيع ــ بعد أن أقمنا فى وسط آســيا مدة طويلة ــ أسباب منع النزول فى هذه المحطة ، ففى ذلك الوقت ، كان العمل قائما على قدم وساق للاستعداد لترحيل الحكومة والوزارات ، والهيئات الدبلوماسية الأجنبية من موسكو الى « كوبيشيف » ، ولم يسمح آنذاك بالسفر الى هذه المدينة الا لكبار الموظفين ، وللشخصيات البارزة •

وعندما غادرنا « كوبيشيف » بدا لنا أن رحلتنا تمر سريعا ، فأصبحنا متفائلين جدا ، وبدأ كثير منا يلعبون « الكوتشينة » ، والآن يبدو كل شىء على ما يرام ، فمايبقى بعد « كوبيشيف » فى الطريق الى « كيسيل ــ أوردا » فى الاتجاه نحو الشرق سوى المرور على « تشاكالوف » وعلى « أكتيوبنسك » وعلى « أرالسك » • كان حديثنا عن حياتنا المقبلة فى « كيسيل ــ أوردا » لا ينتهى •

وفجأة وقفنا فى منتصف الطريق شرقى « كوبيشيف » عدة ساعات ،

وسمح لنا بمغادرة القطار ، فتمشيت فى محاذاة القطار ، وفجأة رأيت لافتة مكتوب عليها « تشيليا بينسك » •

« تشيليا بينسك » ! هذه المدينة لا تقع على الطريق الى « كيسيل — أوردا » وعدت بسرعة الى مكانى فى القطار ، وأخبرت زملائى بهذا الخبر ، فارتفعت رؤوس اللاعبين صائحين : اذا كنا مسافرين الى « كيسيل — أوردا » فيكون اتجاهنا الجنوب الشرقى ، أما « تشيليا بينسك » فتقع فى الشمال الشرقى •

سألنا الموظف المرافق لنا :

« هل نتجه الى « كيسيل — أوردا » ؟ فأومأ برأسه ، ولكن هذا غير صحيح ، فقلت له : « وما دلالة هذه اللافتة اذن « تشيليا بينسك » ؟

« لا أدرى ! لا أستطيع أن أقول شيئا » • كانت اجابته بتلك اللهجة الخاصة التى عرفتها أثناء اقامتى — ست سنوات — فى الاتحاد السوفييتى •

لقد اتجه القطار أثناء الليل الى الشمال الغربى ، ونحن الآن عند « بوجوروسلان » فى « بشكيريا » اذن ، لسنا فى اتجاه « كيسيل — أوردا » •

لم يكن لدينا أى فكرة عن الوضع فى « كيسيل — أوردا » ولكن كنا نعلم على أقل تقدير ، الى أين نحن ذاهبون ! أما الآن ، فلا نعلم شيئا ، حتى اسم المدينة التى سنتجه اليها ، وتحول كل شىء فى الرحلة الى اللا مؤكد !

وفى اليوم السابع عشر فى رحلتنا ، تحرك قطار البضائع الذى يحملنا فجأة مرة أخرى وسمعنا صوتا يصيح : « نحن فى « كازاخستان » •

وسرعان ما تعالت الأصوات بهذه الجملة ، على طول القطار ، بعرباته الثمانين • وعلى محطة صغيرة رأينا على اللافتة كتابة بالحروف « الكازاخستانية » تحت الكتابة الروسية • وابتدأ اللعب « بالكوتشينة » مرة أخرى • صحيح ! نحن الآن بين « كورجان » المدينة الواقعة غرب « سيبيريا » ، وبين المدينة « الكازاخستانية » « بيتروبافلوفسك » •

وصلنا فى المساء الى أول مدينة كبيرة فى جمهورية « كازاخستان » تلك المدينة التى تحمل الاسم الروسى « بيتروبافلوفسك » فذكرنا أحد المسافرين بأن هذه المدينة كانت فى قديم الزمن ، ملتقى القوافل القادمة من بخارى وطشقند ، اذ كانت محط رحال البضائع القادمة من هناك ،

ثم ترحل الى داخل روسيا • ولكن اهتمامنا فى هذا اليوم كان محصورا فى الحاضر فقط •

رأينا لأول مرة الجنس « الكازاخستانى » ، ويتميزون كلهم تقريبا بالشعر الأسود الفاحم ، والعيون السوداء المسحوبة ، ولون البشرة الخمرى الضارب الى الصفرة ، كما كنا نتخيل دائما صورة « المنغوليين » • وكانت طريقة مشيهم ونسبة أرجلهم الى أجسامهم — السيقان أقصر نسبيا من الجسم — من الأمور التى لفتت أنظارنا •

واصلنا السفر من « بيتروبافلوفسك » متجهين صوب الشرق • ولما كانت قضبان السكك الحديدية لا تتجاوز « بالخاش » ، فيجب أن تنتهى رحلتنا فى أى مكان بين « بيتروبافلوفسك » ، وبين بحيرة « بالخاش » •

كان الجو دافئا ، وأضيف فى محطة « بيتروبافلوفسك » بعض عربات البضائع القديمة التى يغطيها الصدأ ، وكانت مكشوفة ، فجلسنا فى هذه العربات المكشوفة فى آخر القطار ، نتشمس بشمس « كازاخستان » فى أكتوبر ، ونشاهد المنطقة التى نمر بها ، ولكن لم يكن هناك شىء يستحق المشاهدة ، فنحن نسير عبر سهول فقط ، تلمع مثل ألواح المرمر ، لا هضبة ، ولا وهاد فيها • واستمرت هذه المناظر ساعات وأياما • وأثناء عبورنا المنطقة الشمالية فى « كازاخستان » شاهدت بعض المناظر ، التى تثير الاهتمام ، فعلى طول عشرات الكيلومترات ، رأينا على جانبى القضبان « سقالات » خشبية كبيرة ، ملقاة على شكل حواجز عالية •

— « لأى شىء تكون هذه السقالات الخشبية الضخمة » ؟

— « هى للحماية ضد الثلوج ، وتستعمل خاصة ضد العواصف الثلجية » •

— « هل تسقط ثلوج كثيرة هنا » ؟

— « فى الشتاء تنزل الثلوج بكميات ضخمة ، يبلغ ارتفاعها ٨ أو ١٠ وأحيانا ١٥ مترا ولا تستطيع القطارات المرور هنا أياما عديدة رغم كل هذه الاحتياطات » •

— « منظر جميل » علق بذلك أحد الطلبة ، وصفر بأسنانه •

ولكننا لم نتأثر كثيرا ، فقد بدا لنا ، أننا ما زلنا على بعد كبير من

وقت حلول البرد ، ونزول الثلوج ، وعلاوة على ذلك فنحن الآن نعبر سهولا والشمس طالعة ، ولدينا — لأول مرة — ما يكفينا من الطعام •

وفى اليوم الثانى والعشرين فى رحلتنا ، وقف القطار فى الساعة الخامسة صباحا ، وبدأ الحرس يجيئون ويروحون ، وهم مشدودو الأعصاب ، ثم فتحت كل الأبواب وصاح صوت :

« وصلنا •• انزلوا كلكم ! » فتدفقنا على النزول ، لم نر منزلا ، ولا طريقا ولا شجرة أو شجيرة ، بل حولنا أشواك وأعشاب •

سألنا الحراس ، ولم نسمع جوابا • وبعد ساعة علمنا أننا فى مكان قريب من منطقـــة « أوسكوروفكا » وهى تبعد عن « كاراجندا » بـ« ١٢٠ كيلو متر تقريبا » • اذن هنا نهاية الرحلة •

* * *

قرى بدون أســماء

وقفنا حائرين أمام قطار البضائع الذى حملنا الى هذا المكان ، وفى أثناء ذلك كانت المهمات قد أنزلت من القطار ، وضوء النهار يزداد شيئا فشيئا ، والآن نستطيع أن نتعرف على المعالم المحيطة بـ« أسكوروفكا » •

وبعد لحظات اقتربت منا عربات الفلاحين ، تجر الخيول بعضها ومعظمها تجره الثيران والجمال ، ولم أصدق عينى ، عندما رأيت جمالا تجر العربات •

كان ضباط قوات الحراسة يزرعون المكان جيئة وذهابا ، وهم متوترو الأعصاب ، وبعد بضع دقائق جاء حارسنا ومعه قائمة ، فأشار الينا قائلا : « اقتربوا منى كلكم ! سأقرأ عليكم الآن قائمة التوزيع ، سوف توزعون كلكم على القرى المحيطة بنا ، بدأ فى قراءة القائمة :

ما هذا ؟ لم أسمع اسم قرية من القرى ، بل سمعت فقط (Possjolok) رقم ٥ ، •••• رقم ١٢ ، •••• رقم ٨ ، •••• رقم ٢٤ ، ••الخ •

فكلمة (Possjolok) تعنى مســتعمرة ، ووضـــح أنه لم يكن هنا قرى ، بل مستعمرات بدون أسماء • فهى تحمل أرقاما فقط •

ثم سمعت اسمى : « ليونهارد » مستعمرة رقم ٥ وانتهت عملية التوزيع •

عاودنى الشعور بالانقباض ، مثل ما اعترانى فى بدء الرحلة ، ولكن قلت لنفسى :

ما يجرى على أصدقائى فى الرحلة ، يجرى على ، وبصرف النظر

عن مساواتى معهم فى هذا القضاء ، فلا زالت معى بطاقة شخصية لا تحمل خاتم الترحيل •

أخرجت بطـاقتى من جيبى بحرص شديد ، فهى الشىء الوحيد الآن ، الذى لا يزال يربطنى بالحرية • لقد تحدثت فى بداية الرحلة مع الضابط المسئول عن عملية ترحيل هذه المجموعة ، فأكد لى أن كل شىء سوف يسير على ما يرام ، والآن أريد أن أذكره بذلك •

— « أيها الرفيق ضابط الترحيل : أنت تعلم أن بطاقتى ، ليس عليها خاتم الترحيل ، وقد جئت الى هنا ، بناء على اقتراح رئيس شرطة الحى ، الذى كنت أسكن فيه فى موسكو • لقد بين لى حرفيا ، أن لى الحق فى أن أكون حرا ، فى مواصلة سفرى من هنا ، ان أردت •

وبناء عليه ، فأنا أريد الحصول على أمتعتى ، حتى أستطيع مواصلة السفر الى ألمـا — أتا » •

لم يكن مستقبلى معلقا فى يوم ما على جواب من انسان مثلما كان فى هذه اللحظة ، ولكنى كنت مطمئنا من هذه الناحية ، الا أننى سمعت ما لم يكن فى الحسبان :

— « هذا ليس من اختصاصى ، وليس لى الحق فى فعل شىء مثل هذا ، فان كان كلامك صحيحا ، فتستطيع أن تشرح موضوعك لمن يختص بذلك ، وعلى كل حال ، فيجب عليك أن تذهب الآن الى المستعمرة ، التى وجهت اليها » •

— أيها الرفيق ! انظر الى بطاقتى ، فقد استخرجت حديثا ، ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤١ فى موسكو ، وليس عليها أى تحديد لمكان الاقامة الجبرية •

فضحك ساخرا وقال : « المسألة ببساطة ! أنهم نسوا فى موسكو أن يختموا بطاقتك ، ولكن يمكن استدراك هذا الخطأ بسرعة ، فواضح وضوحا لا لبس فيه فى مستنداتك ، أنك ألمـانى » •

لم يعد هناك فائدة من المحاولة معه • اندمجت مبدئيا مع المجموعة ، وقررت أن أجرب حظى مرة أخرى بعد وصولى الى المستعمرة رقم ٥ ، ولم يعد عندى أمل كبير فى النجاح •

وفى غضون ذلك ، وضعنا أمتعتنا على عربات الكارو ، التى تجرها الثيران والجمال • وجلس فوقها النساء والمرضى ، أما الآخرون فساروا بجانب العربات صامتين • كان منظرا رهيبا ، طابور طويل من الناس ،

أعياهم التعب ، وأنهكتهم الرحلة ، يجرون سيقانهم على الطريق الى المقر الذى هيىء لهم ، ذلك المقر الذى كان قبل عشر سنوات منفى للاقطاعيين ... حتى سائقو العربات « العربجية » كانوا صامتين .

— « ما طول الطريق حتى المستعمرة رقم ٥ » ؟

— « ليس بعيدا من هنا ! ربما ٢٥ كيلو متر فقط ، سنصل الى هناك فى المساء ، وربما قبل ذلك » .

وواصلنا أسئلتنا ، فتحدث سائق عربتنا عن الحياة فى المزارع الجماعية :

— « مزارع جماعية ؟ أنا أظن أن الاقطاعيين نفوا الى هنا » ؟

ثم أجاب وهو يمط الكلمات كعادة الفلاحين الروس :

— « نعم ! لقد كنا اقطاعيين ، ونعيش اليوم هذا النوع من الحياة « الجماعية » !

— « ولم تقول : هذا النوع » ؟

بدأ سائق العربة — الذى كان اقطاعيا سابقا — يحكى ، كيف نفوا الى هنا فى عامى ٣٠ — ١٩٣١ م ، وكيف صودرت أملاك هؤلاء الناس ، الذين كانوا يعيشون فى « أوكرانيا » ووسط آسيا ، ثم نفوا الى هذه المنطقة .

كان يتحدث بدون اكتراث ، وكأنه ليس طرفا فى هذه الأحداث ، كان يتحدث كما لو كان يحكى عن أحداث وقعت فى الماضى البعيد جدا ، فى منطقة نائية من الكرة الأرضية .

— « لم يكن شيئا هنا آنذاك ، غرست أوتاد فى الأرض ، وعليها لوحة ، مكتوب فيها : المستعمرة رقم ٥ ، رقم ٦ ... الخ . وسيق الفلاحون الى هنا ، ثم قيل لهم : أنهم يجب عليهم أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم ، ثم حفر الفلاحون حفرات فى الأرض ، للوقاية من تقلبات الجو ، ففى الأعوام الأولى مات عدد كبير من الجوع والبرد ، ثم بنوا بمرور الوقت أكواخا من الطين ، فأصبح الوضع أحسن » .

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— « آه ! لم يحدث شيئا جديدا ، غير أننا تلقينا الأوامر بأن نكون مزارع جماعية » .

— « وممن تلقيتم هذه الأوامر ؟ من السوفييت المحليين ؟ »

هز السائق رأسه وقال :

— « لا يوجد هنا سوفييت محليين على الاطلاق » •

فتبسمت دون ارادة لهذا التبسم ، فيبدو أن رؤوس الفلاحين عاجزة عن التفكير ، فهو لا يعلم ما يقول ، اذ يوجد سوفييت محليين فى كل منطقة فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن تبين لى فى المساء أنه كان على حق •

مشينا نخب بجانب العربة التى يجرها ثور ، فقد كان السير على الأقدام يوما كاملا ، بعد أن سافرنا بقطار البضائع ٢٢ يوما ، عملا شاقا وعنيفا • ولكن كان التلهف على ما سنراه فى تلك المنطقة أقوى من التعب •

وقبل أن تغيب الشمس ، رأينا شيئا على مسافة بعيدة ، يشبه ما يأوى اليه البشر ، وسرعان ما تبين لنا أنها أكواخ صغيرة ، لم تبن من الحجارة ولا من الخشب ، بل من الطين الأحمر • لم نر شبابيك ، بل فتحات صغيرة تسد فى فصل الشتاء كما علمنا بعد ذلك •

قيل لنا عندما وصلنا ، أننا يجب علينا تسجيل أســمائنا عند « القومندان » ولمــا كنا مضطرين الى الانتظار طويلا ، تجولنا هنا وهناك ، وتحدثنا مع « سكان » هذه المنطقة • كان معظمهم روسيين ، والبعض « أوكرانى » أو « تاتارى » ، وليس فيهم واحد « كازاخستانى »

اقترب منا بعض الفلاحين قائلين :

— آه ! وصلتم ! نحن ننتظركم منذ مدة طويلة ، لقد توقعنا أنكم سترسلون الى هنا أيها الألمانيون •

وحاول بعضنا — وأنا منهم — عبثا أن يشرح لهم أننا ضد الفاشية ، وأعداء لهتلر ، فضحكوا وقالوا :

— « الألمانيون هم الألمانيون » •

هل فهموا حقيقة حالتنا أحسن مما نفهمها نحن ؟

يسود هذه المنطقة صراحة عجيبة ، فلم أر حتى اليوم فى الاتحاد السوفييتى أناسا يعبرون عن أفكارهم دون تورية ، ولا تحلية مثل هؤلاء الناس • وسرعان ما تأكدنا أن كثيرا من الاقطاعيين المنفيين هنا ، لا زالوا الى الآن ضد نظام الحكم الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى •

لم يصدقوا دعوانا أننا ضد « هتلر » ، وظلوا معتقدين أننا من أتباعــه !

— « الى أين وصل « هتلر » فى زحفه ؟ وما رأيكم ، هل سيأتى الى هنا ليحررنا » ؟

اعترتنى قشعريرة ، وتجمد الدم فى أطرافى ، فلم أسمع مثل هذا فى الاتحاد السوفييتى اطلاقا ، وحاولنا مرة أخرى أن نشرح للفلاحين حقيقة موقفنا ، ولكنهم ضحكوا ضحكة دمثة ، ولوحوا لنا بأيديهم ، وقالوا :

— « اذن •• أقيموا هنا بضع سنوات ، فسوف ترون » •

ذهبنا الى « القومندان » ، وهو يسكن فى أكبر مبنى فى المستعمرة ، جلسنا على الأرض ، وانتظرنا صابرين الى أن يحين دورنا • كانت أمزجتنا مختلفة ، فالألمانيون القادمون من « فولجا » ، والذين نشأوا فى قرى ، لم يعتبروا هذا الوضع مأساة ، فهناك — حيث أنشأوا « كلوخوز » (Kolchos) — (مستعمرة زراعية ، يعيش فيها الفلاحون حياة جماعية ، يعملون ولا يملكون) وهنا « كلوخوز » وماذا فى هذا ! ؟ كان الوضع أشد قسوة على أولئك الألمانيين ، الذين كانوا يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، كلاجئين سياسيين ، وعلى المقاتلين فى أسبانيا ، كما هو مأساة أيضا بالنسبة للمتخصصين تخصصات فنية عالية ، مثل مهندس التليفزيون ، وأستاذ الجامعة • كان بعضهم يتلفت يمينا وشمالا متحسرا •

نودى علينا — واحد بعد الآخر — للدخول على « القومندان » ثم يخرج وبيده ورقة عليها اسم الأسرة التى ينزل عندها • وكان محتما على الفلاحين أن يأووا القادمين الجدد ، ويجب أن يبلغوا « القومندان » بأقل عقبة تعترض سير الأمور كما هو مرسوم لها • ولكن لم توجد عقبات • واستقبل الفلاحون القادمين اليهم دون اعتراض ، فقد كان واضحا لهم ، من هى الجهة التى أرسلت هؤلاء ! ، ومن هو الذى وزعهم على الأسر ! •

أمسكت بطاقتى الشخصية غير المختومة بخاتم الترحيل الاجبارى ، مقبضا عليها بيدى ، فأنا أعلم أن آخر فرصة لى ، تكمن فى هذه الحجرة ، عند هذا « القومندان » •

فاذا تصرف هذا « القومندان » مثل تصرف الضابط ، قائد الرحلة ، فسيكون ذلك قدرى المحتوم ، ولكن لم يزل عندى أمل ، فقد كان قائد الرحلة حريصا على تسليم كل أفراد المجموعة الى الجهة المحددة له ، ولكن يمكن لـ« قومندان » المستعمرة أن يكون لطيفا ، وسوف يسر بنقصان

عدد المجموعة واحدا • وعندما دارت بى هذه الأفكار لاح لى الأمل أقرب الى التحقيق ، وأخيرا نودى اسمى •

أيها الرفيق « القومندان » أحب أن ألفت نظر سيادتكم من أول الأمر الى أنى لا أتبع هذه المجموعة ، المرحلة الى هنا اطلاقا ، بل جئت معها بناء على اقتراح رئيس قسم الشرطة فى موسكو ، وهاهى ذى بطاقتى استخرجت فى موسكو ، ويمكن أن تتأكد بنفسك أن ليس عليها خاتم الترحيل الاجبارى • وأريد أن أواصل سفرى غدا ، أو على أبعد تقدير بعد غد الى « ألمـا ــ أتا » ، حيث يوجد معهدى ، ولهذا أرجوك ، ألا توجهنى الى أى أسرة فى هذا التوزيع •

نظر الى البطاقة بدقة ، ثم قال :

« حسنا ! نستطيع أن نشطب على اسمك من القائمة ، وعلى كل ، فالعدد هنا كثير جدا » •

لم أنتظر هذا الحل بمثل هذه السهولة فى تخيلاتى التى تخيلتها قبل أن أدخل عليه ، ثم غادرت الحجرة ، وأنا أطير فرحا •

كانت أفكارى مشدودة حتى الآن الى هذا الاتجاه : البعد عن هذه المستعمرة بأى وسيلة ، فأنا أريد الاسراع فى مغادرة هذا المكان فقط ، ولكن عندما حصلت على التصريح بمغادرته ، ظهرت مشكلة أخرى : يجب أن أغـادر هذا المكان •• ثم أقطع آلاف الكيـلومترات حتى « ألمـا ــ أتا » ، وسوف يطلب منى مرارا اظهار بطاقتى وأوراقى الرسمية • ومما لا شك فيه أنى أحمل بطاقة غير مختومة بخاتم الترحيل الاجبارى ، ولكن كلمة « الألمـانى » مكتوبة فيها بوضوح ، ثم شىء آخر : ليس معى نقود كافية ، فعندما غادرت موسكو ، كان معى بضعة من « الروبلات » وكان هذا المبلغ ، بالنسبة لى كطالب ، كبيرا ولكنى لا أملك الآن سوى مبلغ ضئيل •

لم أضعف أمام كل هذه المصاعب التى اعترضتنى ، وصممت على القيام بهذه الرحلة • كان عمرى آنذاك تسع عشرة سنة ونصف ، وكنت سليم البنية ، أتكلم الروسية بطلاقة ، وكنت ممتلئا بالآمال الطائشة •

مكثت بضعة أيام فى المستعمرة رقم ٥ ، وقضيت الليالى فى أماكن متفرقة ، ليلة عند هذا ، وأخرى عند ذاك ، كنت أنام على الأرض ملفوفا فى معطفى فقد تعودت على هذا أثناء الرحلة الطويلة •

ثم بحثت عمن يستطيع شراء بعض ملابسى ، وكان الشىء الذى عرضته للبيع معطفا خفيفا ، وبنطلونا •

وافقت على بيعهما — بعد مساومة طويلة — لفلاحة « تاتارية » ، ولم أحصل منها على مبلغ كبير • ثم أعطيت ربع هذا المبلغ لفلاح مقابل توصيلى الى محطة « أوسكوروفكا » •

اتجهت الى شباك التذاكر — وكان قلبى يدق دقا سريعا — لشراء تذكرة الى « كاراجندا » ، نظر موظف السكك الحديدية نظرة قصيرة الى بطاقتى ، ثم أعطانى التذكرة دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وبعد أربع ساعات كنت فى « كاراجندا » •

* * *

الوصول الى « كاراجندا »

هذه هى « كاراجندا » ، مدينة يسكنها ربع مليون نسمة ، مركز الصناعة الذى أقيم فى الخطة الخمسية الأولى ؟ محطة السكك الحديدية صغيرة ، مبنية بالخشب ، وقذرة ، وليست أكبر بكثير من المحطة فى « أوسكوروفكا » •

وعندما خرجت من المحطة ، رأيت شارعا ملتويا ، قذرا ، غير مرصوف ، ومنازل صغيرة آيلة للسقوط ، والجو رمادى قاتم ، مملوء بغبار الفحم ، ولا يستطيع المرء أن يتنفس تنفسا عاديا فى هذا الجو • سرت فى الشارع كالمضروب من هول المفاجأة ، فمما لا شك فيه أنى رأيت فى موسكو فقرا ، كذلك رأيت عددا من المدن الصناعية المتوسطة ، أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفييتى ، ولكنى لم أشاهد حتى اليوم مناظر مؤلمة مثل ما رأيت فى هذه المدينة • وتذكرت — دون قصد — وصف الكاتب « جاك لندن » للمستعمرات الاحتياطية ، التى أقامها الباحثون عن الذهب ، فى ذلك العصر الذى انتشرت فيه حمى البحث عن الذهب بين سكان أوروبا ، ولكن لا وجه للمقارنة اطلاقا •

وبعد بضعة دقائق من مغادرتى المحطة اكتشفت كهوفا تحت الأرض (تستخدم للوقاية من البرد) مغطاة بورق الكرتون ، أو الخشب ، وبعضها كان سقفها قشرة أرضية لا يتجاوز سمكها نصف متر تقريبا ، وأقيمت هذه السقوف على أعمدة •

كان منظرا مرعبا ، حاولت تخفيف وقعه فى نفسى بأنه وضع طارىء ،

يحدث فى كل مدينة تتطور صناعيا بسرعة ، ولا يمكن تجنب مثل هذه المظاهر ، وخصوصا أنه لا يمكن ازالتها فى هذا الوقت ، حيث الحرب دائرة •

ولم ألبث أن رأيت منظرا آخر : جمع كبير من الناس ، يبدو أنهم « منغوليون » ، وواضح تماما أنهم ليسوا « كازاخستانيين » • بدأت فى عدهم ، فتبين لى أن خمس سكان هذه المدينة من هذا الجنس ، وعلمت فيما بعد أن عددا كبيرا من الصينيين ، والكوريين يسكنون فى « كارجندا » مع الروسيين وال« كازاخستانيين » فقد رحلوا فى بداية الثلاثينات من هذا القرن من مناطق الحدود فى الشرق الأقصى الى « كاراجندا » •

وكلما رأيت مناطق أكثر فى هذه المدينة ، كلما ظهر لى عدم استطاعتى المقام بها ، فلا يوجد بها معاهد عليا ، ولا معاهد صناعية ، وليس بها سوى كهوف تحت الأرض ، ومنازل من الخشب آيلة للسقوط ، وبعض المنازل المقبولة نسبيا ، انتشرت هنا وهناك ، وتتخذها الادارات مقرا لها ، ولم يبد لى واضحا — فى يوم من الأيام اطلاقا — الفرق الشاسع بين أكواخ المواطنين ، التى يخيم عليها البؤس والحرمان ، وبين هذه المبانى الحكومية الجميلة ، المبنية من الحجارة ، والتى تتكون من عدة طوابق ، وضوحه فى هذا اليوم • ثم اكتشفت « أتوبيسا » جديدا ، سار بى عبر أحياء ، هى تجسيم للفقر والتعاسة • ذهبت الى السائق مسرعا وسألته : « الى أين نحن ذاهبون » ؟

فأجاب : « الى المدينة الجديدة » •

تركنا وراءنا آخر الكهوف ، وآخر المنازل الآيلة للسقوط بمسافة بعيدة ، ولم تظهر بعد « المدينة الجديدة » • وبعد نصف ساعة سفر تقريبا ، رأيت أنوارا كثيفة على مسافة بعيدة ، وعندما اقتربنا استمرت دهشتى فى الازدياد دون توقف ، فقد سرنا فى شوارع مرصوفة رصفا جيدا ، ومررنا على منتزه جميل ، ورأيت منازل جميلة ، يصل عدد طوابقها الى أربع أو خمسة طوابق •• وسألت السائق بحذر : « هل تستطيع أن تنصحنى ، كيف وأين يمكن أن أبيت هذه الليلة » ؟ ضحك وقال : « فى الفندق » •

نظرت اليه مندهشا ، اذ بعد كل ما قاسيته فى الأسابيع الأخيرة ، بدت لى « فندق » كلمة سحرية ، ثم أضاف قائلا :

« طبعا ! يوجد هنا فندق واحد ، فاذا كان معك تصريح اداري ، سيقبلونك فورا » .

عندما دخلت الفندق ، اندهشت أكثر ، سجاجيد ، زهور ، أناس يرتدون ملابس نظيفة ذات قيمة ، حرية الناس في الحركة هنا وهناك .

تقدمت الى موظف الاستعلامات بخطوات مترددة ، فسألني :

— « هل معك تصريح اداري » ؟

« نعم ! تفضل ! هاهو ذا » .

كنت مستعدا من قبل لسماع هذا السؤال . أطلعته على أوراق اللجنة المركزية لـ« رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة (M.O.P.R.) في موسكو ، ومكتوب فيها : « ترجو اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) رابطـة التنظيـم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة « مساعدة الرفيق « ليونهارد » ، وتذليل الصعوبات أمامه للوصول الى « ألمـا — أتا » مقر اقامته الجديد . ولم تكن أوراقا ادارية ذات أهمية ، فالـ« (M.O.P.R.) رابطة التنظيـم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة « ليست من الأنظمة « القوية » ، وبالاضافة الى هذا ، « فكاراجندا » لا تقع على الطريق من موسكو الى « ألمـا — أتا » ، وعلى كل كانت أوراق رسمية . قال الموظف : « حسنا ! سندبر لك سريرا » .

لم أصدق أذني : بعد أربعة أسابيع من الضياع والمآسي ، أستطيع أن أنام على سرير حقيقي ، في فندق فخم !!! ولكن ينبغي أن يأتي المستقبل بأشياء أحسن مما مضى ، ثم أخبرت بعد دقائق ، أن أذهب الى صالة الطعام لتناول العشاء ، فشاهدت في هذه الليلة مطعما أنيقا ، فيه فرقة موسيقية تعزف أنغاما جميلة للزوار ، وقائمة الطعام فيه مليئة بالأصناف المختلفة . وبدا وكأنهم يعيشون في سلام تام ، وبدا التباين شاسعا بين الجو في هذا الفندق ، وبين الأحياء القديمة في « كاراجندا » والأكواخ المبنية من الطين ، للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعـه ، لو لم يره في الاتحاد السوفييتي .

جلس عدد من الناس بملابسهم الأنيقة في المطعم ، ربما من الشخصيات البارزة في الحزب ، أو من كبار الموظفين في الدولة ، الذين يقومون هنا بمهمات رسمية . كانوا كلهم تقريبا رسميين . جلس اثنان فقط من « الكازاخستانيين » على احدى الموائد . كان الفندق وكذلك

المطعم مؤسسا ، كما لو كان فى مدينة روسية مفضلة بالخدمات من الجهات الرسمية •

لاحظت أول عادة من عادات « كازاخستان » ، اذ لا يشرب الشاى فى الفنجان ، بل فى كأس (يشبه السلطانية الصغيرة) بدون مقبض • ويسمونه (Pjala)ويمسك من تحت عند الشرب بأربعة أصابع • تعلمت هذه الطريقة بسرعة ، وسرعان ما تمكنت من استعمالها ، كما لو كنت « كازاخستانيا » يشرب الشاى •

قمت فى الصباح التالى بجولتى الأولى عبر « المدينة الجديدة » ، ولم تكن انطباعاتى مخيبة للأمل ، اذ تتكون كل المدينة من منازل جميلة حديثة من أربعة طوابق ، وفيها النور الكهربائى والمياه ، ولكن اطلاق اسم « المدينة الجديدة » عليها مبالغ فيه ، اذ لم تكن مدينة ، بل الأقرب أن تكون حيا جديدا ، امتدادا لمدينة ، فلا يحتاج المرء الا الى خمس عشرة دقيقة ليقطعها ماشيا من أولها الى آخرها •

يوجد فى وسطها ميدان كبير ، قام فى احدى جوانبه أكبر مبنى ، شيد ليكون مقرا للجنة الحزب الاقليمية فى هذه المنطقة •

اكتشفت فى جولتى الأولى ، أن بجانب مبنى الحزب الضخم سينما حديثة ، ومنزل لـ [illegible] وأمين الحزب ، ورئيس مجلس المدينة فى « كاراجندا » غير أنه كان صغيرا • ويبدو أن بقية المنازل كانت سكنية ، وفجأة وقفت أمام مبنى حديث مستطيل ، يتكون من طابقين ، وسرعان ما رأيت عليه لافتة مكتوب عليها « معهد كاراجندا للمعلمين » ، دلفت اليه مسرعا والفرح يملأ جوانبى ، وسرعان ما عثرت على السكرتارية • أطلعتهم على دفتر تسجيل المحاضرات (وهو دفتر رسمى ، يبين فيه العلوم التى درسها الطالب) التى حضرتها فى موسكو •

— « اذا أردت الدراسة هنا ، فتستطيع أن تبدأ من غد ، والمحاضرات تبدأ فى الساعة التاسعة صباحا ، ولكن لابد قبل هذا من اتخاذ بعض الاجراءات البسيطة ، اذ ينبغى أن يكون معك تصريح للاقامة فى هذه المدينة ••• » •

وعندها تغير لون وجهى لسماع هذه الجملة — فأنا أعلم المصاعب التى يلاقيها المرء لاستخراج أى أوراق رسمية — أسرعوا بادخال الطمأنينة فى قلبى بقولهم :

« سنكتب لك شهادة بأنك قبلت للدراسة هنا ، وسوف تقيم فى مسكن الطلبة التابع للمعهد ، وبمقتضاها ستحصل بالتأكيد على تصريح الاقامة » •

توجهت الى قسم الشرطة بخطوات ثابتة ، وقلب مطمئن ، الى أنه لا عقبة أمام هذا الاجراء • وكان فى قسم الشرطة عدد من الـ« كازاخستانيين » والمرحلين ، يبدو أنهم ينتظرون اتمام مثل هذا الاجراء : تصريح بالاقامة ، وشهادة تسجيل فى سجل القاطنين فى المدينة •

وقيل لى — بعد انتظار عدة ساعات — : « يجب أن تحضر موافقة من رئاسة الحى فى « المدينة الجديدة » •

ذهبت الى مقر رئاسة الحى ، وهناك أيضا رأيت عددا كبيرا من الناس ينتظرون ، وأخيرا جاء دورى ، ثم قيل لى : « للأسف ! لا نستطيع اعطائك الموافقة ، الا بعد موافقة مجلس المدينة » •

اذن •• الى مجلس المدينة ، نظر الموظف فى مستنداتى الرسمية بامعان :

بطاقة بدون خاتم ترحيل ، ولكن مكتوب فيها « ألمانى » ، وأوراق من اللجنة المركزية (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، ومن معهد موسكو للغات الأجنبية ، وتصديق من معهد « كاراجندا » للمعلمين ، بأننى قبلت للدراسة فيه • ثم قال :

« نعم •• ولكن من الضرورى أن يكون لدينا موافقة من لجنة الحزب المحلية » •

وبعد دقائق كنت أمام مبنى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » وعلمت من البواب أنه ينبغى أن أتجه بأوراقى الى مكتب الدعاية والتثقيف السياسى ، لأنه المكتب المختص بمسائل (M.O.P.R.) رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، واللاجئين السياسيين •

تجرى الأمور هنا على نحو مختلف عما صادفته فى هذا اليوم فى قسم الشرطة وفى مجلس المدينة • أنصت الى باهتمام اثنان من العاملين فى أجهزة الحزب ولم يظهر العبوس على وجهيهما ، ربما لأن لديهما متسع من الوقت ، أو لأن لهما نفوذا أكثر ، وهموما أقل • سألونى عن أشياء كثيرة ، الى أن عرفوا كل شىء عنى : كيف جئت الى الاتحاد السوفييتى ! حياتى فى الأعوام التى عشتها فى بيت الأطفال رقم ٦ ، دخولى منظمة

الشباب ، دراستى فى موسكو ، الظروف التى مرت بى أثناء الترحيل ، رغبتى فى الالتحاق بمعهد « كاراجندا » للمعلمين ، وأخيرا محاولة الحصول على تصريح اقامة فى « كاراجندا » .

— « لا تقلق ! فسنرتب كل الأمور » .

— « اذن أستطيع أن أحصل منكم الآن على الأوراق المطلوبة » ؟

— « ليس من الضرورى الحصول على ورقة مكتوبة ، فتستطيع أن تنتقل اليوم الى معهد المعلمين ، وتمر علينا غدا » .

وهكذا عرفت لأول مرة بعد اقامتى ست سنوات فى الاتحـــاد السوفييتى شيئا عن العـــلاقة بين أجهزة الحزب ، والادارات الحكومية . علمت أن كلمة من عضو الحزب ، تعقبها محادثة تليفونية ، لها قيمة أكثر من أربع أوراق رسمية صادرة من جهات حكومية .

كان عضو الحزب صادقا فيما قال ، فعندما عدت الى معهد المعلمين ، دعيت لمقابلة العميد ، فبادرنى قائلا :

« كل شىء على ما يرام ، لقد اتصل بى الرفيق من اللجنة المحلية للحزب » .

* * *

فى معهد المعلمين

حصلت على دفتر تسجيل المحاضرات ، وأوصلتنى السكرتيرة الى حجرات نوم الطلبة ، فأدركت من النظرة الأولى ، أن الوقت الجميل فى معهد المعلمين للغات الأجنبية الممتاز فى موسكو ، قد ذهب ولن يعود ، فهناك كان كل اثنين أو ثلاثة فى حجرة ، أما هنا فينام — حشرا — فى العنبر ٢٠ طالبا تقريبا ، ولا توجد دواليب ، بل يجب على كل طالب أن يضع حاجاته فى حقيبة أو فى كرتون تحت السرير عرضة للأتربة .

درسنا التاريخ من الكتب الرسمية الموضوعة لمعاهد المعلمين فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، ويستطيع الطالب أن يحصل من مكتبة المعهد على ما يسمى بـ« محاضرات المعاهد العليا للحزب عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى » ، ففيها تفاصيل لمـــا وضع موجزا فى الكتب الرسمية التى تدرس ، لم تنشر هذه المحاضرات للبيع ، بل طبعت تحت عنوان « مطبوعات مخطوطة » ، وأرسلت الى معاهد معينة فى الاتحاد السوفييتى .

كان معظم الطلبة من أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين الذين نفوا فى عامى ٣٠ — ١٩٣١ م الى « كاراجندا » • مضت اثنتا عشرة سنة على تجميعهم فى هذا المكان ، والآن لأنهم لم يعودوا اقطاعيين ، بل اعتبروا « تروتسكيين » ، يعنى الأعداء رقم واحد ، فقد سمح لأبنائهم بالالتحاق بهذه الدراسة •

استطعت فى اليوم الأول عقد صداقة مع بعض الطلبة ، كان معظمهم أطفالا ، عندما نفى آباؤهم الى هنا فى بداية الثلاثينات من هذا القرن ، وقاسوا الكثير فى طفولتهم • وعرفت من حديثى معهم ، كيف انتزعوا من منازلهم وأطيانهم ، وألقى بهم فى هذه البرارى • تركوهم هنا طعمة للجوع والبرد ، الى أن أقام الآباء بالاشتراك مع الأمهات أكواخا من الطين • وهكذا تأثرت نفسياتهم فى الأعوام الأولى من حياتهم بهذا العذاب الأليم • لم تكن الحياة سهلة فى الاتحاد السوفييتى فى بداية الثلاثينات بالنسبة لطفل ، أبوه كان صاحب أملاك شاسعة •

حدثنى أحد الطلبة حديثا صريحا عن الحياة فى السنين الأولى بعد نفيهم الى هذا المكان :

« غالبا ما كان يدخل أعضاء الحزب ممتطين الجياد فى المستعمرة ، وهى لم يكمل بناؤها بعد ، فاذا اقتصروا على الصياح فى وجوهنا بالسباب والسخرية ، كان الخطب هينا ، ولكنهم كانوا يحضرون أحيانا ، وفى أيديهم مقارع ، يضربون بها كل من يقابلهم فى الطريق ، حتى الأطفال ، كانوا يفاجئونهم وهم يلعبون ، ويضربونهم بالمقارع ، ثم أخذنا حذرنا ، فكنا دائما اذا رأينا شخصا غريبا قادما من جهة المدينة ، أسرعنا الى « المنازل » نختبىء فيها » •

حكى هذا دون أن يظهر على وجهه أى أثر للتأثر ، كما لو كان يحكى عن رعد ، انقشع عن المنطقة منذ وقت طويل • قال لى موضحا :

« لابد أن تفهم ! لقد كانت أيام كفاح مرير ، لتحويلنا من حياة خاصة نتمتع فيها بالملكية الخاصة ، الى حياة جماعية ، يسلب الانسان فيها كل شىء حتى حريته • وكان بعض أعضاء الحزب الصغار ، يتصرفون معنا تصرفات مشينة ، ولكن استنكرت هذه الأعمال من الحزب فيما بعد • يحدث مثل هذه الأعمال فى التحويل الاجبارى الى حياة جماعية ! » •

وافقته على هذا الرأى ، ولكنى فكرت بعد أقل من لحظة ، فى أن

من الأمور الغريبة ، أن يحاول شاب سوفييتى تبرير عمل من ضربه بالمقرعة ، أو لطمه على وجهه ، بأن هذا أمر حتمته الظروف .

تكرر حديثنا عن الحياة فى المزارع الجماعية ، ولكن مع طلبة آخرين مروا بهذه الظروف العصيبة ، فلم أجد واحدا يرفض « مبدأ » الحياة الجماعية .

كان معظم الطلبة يذهبون فى آخر الأسبوع الى أسرهم ، بمعنى يعود الطالب الى احدى المستعمرات فى المناطق القريبة أو البعيدة حول « كاراجندا » حيث يقيم والده ، فاذا عادوا سمعت من كثير منهم شكاوى من الوالدين :

« لم يفهموا بعد ، لقد حاولت كثيرا أن أشرح لهم أن الحياة الجماعية ، هى الأسلوب الصحيح ، ولكن الوالدين لن يدركوا هذا اطلاقا » .

أصبح أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين — الذين نفوا فى طفولتهم مع آبائهم الى هنا — بمرور الوقت « ستالينيين » فمما لا شك فيه أن من الممكن أن بعضهم يظهر ولاءه وحبه لنظام « ستالين » رياء ونفاقا .

ولكن يبدو أن معظم هؤلاء الطلبة فكروا تفكيرا مشابها لتفكير أصدقائى — وتفكيرى — فى موسكو ، الذين قبض على آبائهم فى موجة « التطهير » التى حدثت من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م :

كانت المصائب التى لحقت بالأسر الخاصة مفجعة ، وبالتأكيد دون جرم ارتكبه أفراد الأسرة ، ولكن « مبدئيا » يجب أن نوافق على قيام الاتحاد السوفييتى ، ومن أجل هذا يتحتم تبرير كل الاجراءات الاستثنائية التى اتخذت .

لم يكن طلبة المعهد من الـ« كازاخستانيين » ومن أبناء وبنات الاقطاعيين السابقين ، بل كان بيننا أيضا عدد من أبناء وبنات كبار موظفى الدولة ، وشخصيات بارزة فى الحزب : ابن وكيل النيابة ، وبنت سكرتيرة الحزب فى المعهد ، وكلاهما أظهرا بوضوح صلفا وتعاليا ، اعتمادا على مركز الأب والأم فى الحزب والدولة . وقد كان مدرس التاريخ العام — وهو متين فى مادته — يتضايق من تصرفاتهما . سألت مرة أحد الطلبة :

— « ما الذى بين هذين الطالبين وبين هذا الأستاذ بالضبط » ؟

فقال هامسا :

— « مدرسنا مثل المنفى تقريبا » •

— منفى ؟

— « ليس منفيا حقيقة ، ولكنه فنلندى ، فأثناء الحرب الفنلندية السوفييتية التى وقعت فى عام ١٩٣٩ الى ١٩٤٠ م رحل كثير من الفنلنديين الى « لينينجراد » ورحل هو أيضا الى « كاراجندا » ووضعه الآن يحتم عليه أن يكون حريصا جدا » •

وبعد أيام قليلة تأكدت بنفسى أن الحياة هنا ليست سهلة بالنسبة للمدرس الفنلندى • اذ بعد كل محاضرة يتحتم عليه أن يملى علينا أسماء المراجع التى نرجع اليها فى موضوعها ، ويقسم هذه المراجع بدقة الى مجموعتين :

١ — العصر الذهبى « للماركسية اللينينية » •

٢ — المراجع الأصليـــة •

فعل المحاضر هذا كعادته ، ولكن لم تكن مراجع المجموعة كافية لتوضيح الموضـــوع ، فأضـــاف أثـــناء تلاوته لأســـماء المراجع كتاب « بلاخانوف » ، وفجأة قوطع من ابن وكيل النيابة :

— « أيكون كتاب « بلاخانوف » من مجموعة العصر الذهبى « للماركسية اللينينية » أو من مجموعة المراجع الأصلية » ؟

احمر وجه المحاضر ، ثم تمالك أعصابه وقال :

« من الواضح أن كتاب « بلاخانوف » من مجموعة المراجع الأصلية ، وأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لكم أن مجموعة العصر الذهبى للماركسية اللينينية هى فقط مؤلفـــات « ماركس و « أنجلز » ، و « لينين » ويتقدمها كلها مؤلفات الرفيق « ستالين » وقد ذكرت كتاب « بلاخانوف » فى هذه المحاضرات لأنه مفيد وهام فى هذا الموضوع ، وقد بين ذلك الرفيق « ستالين » فى خطابه الكبير الذى ألقاه فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٤١ م •

تنفسنا الصعداء ، فقد خلص المدرس نفسه من « المطب » بطريقة رائعة ، حتى لم يبق لابن وكيل النيابة شيئا سوى الايماء برأسه موافقا على هذا التوضيح ، لأن المحاضر ختم اجابته — بطريقة لبقة — بقراءة بعض جمل من خطاب « ستالين » •

ولكن كم من الصخور أزال هذا المدرس من طريقه ! ، وكم سيعترض طريقه فى المستقبل ! لاشك أنه ليس من السهل أن يشتغل مرحل مدرسا •

* * *

أنا أقابل « أولبريخت » فى « كاراجندا »

خرجت من قاعة المحاضرات فى ضحى أحد الأيام ، فتوجهت الى سكرتيرة المدير مرتبكة ، وقالت :

— « اتصل بنا قسم الشرطة من لحظات ، وطلبوا أن تذهب اليهم سريعا » .

الى قسم الشرطة ؟ شىء مزعج ! ولكن لا أذكر أنى اقترفت ذنبا . ذهبت الى هناك ، فقيل لى : « يجب أن تدخل على رئيس القسم شخصيا » .

نظر الى رئيس القسم — وهو رجل « كازاخستانى » — غاضبا مهددا :

« هل أنت الألمانى « ليونهارد » أنا أبلغك الآن بهذه الاشارة :

« يجب أن تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » .

وقفت كالمشلول ، ألم يستخرج تصريح اقامتى بعد موافقة لجنة المنطقة ؟ هل قرار الابعاد الذى صدر فى سبتمبر سنة ١٩٤١ م بالنسبة للقاطنين فى موسكو ، والمدن الكبرى الأخرى ، الواقعة فى مناطق الاتحاد السوفييتى الغربية ، سيطبق الآن على كل المدن فى الاتحاد السوفييتى ؟

— « الى أين أسافر ، اذا كان محتما على أن أغادر « كاراجندا » ؟ هل يجوز لى أن أسافر الى « ألما — أتا » ؟

— « يستوى الأمر عندى ، الى أى مكان تذهب . كل المدن مقفولة فى وجه الألمانيين ، تستطيع أن تختار أى مكان فى منطقة « كاراجندا » ما عدا المدينة . سافر الى مستعمرات « أوسكوروفكا » ، فهناك ألمانيون كثيرون » .

— « أيها الرفيق القومندان ! أنا عضو فى منظمة الشباب منذ سنين عديدة ، وتحدثت هنا مع الرفقاء فى قسم الدعاية والتثقيف السياسى فى لجنة الحزب المحلية ، وأوصوا بالموافقة على تسجيلى هنا وقالوا لى : ان كل شىء سينظم » .

ازدادت علامات الغضب على وجه رئيس القسم وقال :

« أنا لا أعلم هذا ! ولكنى قلت لك ان قرار الابعاد سار على كل الألمانيين ، فاذا لم تغادر المدينة فى ظرف ٢٤ ساعة ، فسوف ترتكب مخالفة قانونية ، وسوف تتحمل مسئولية ذلك . هل هذا واضح الآن » ؟

كان واضحا ..

أردت أن أقوم بآخر محاولة ، فذهبت مرة أخرى الى مقر اللجنة المحلية للحزب ، الى قسم الدعاية والتثقيف السياسى ، الى هؤلاء الرفقاء ، أعضاء الحزب الذين ساعدونى فى المرة الأولى ، وقلت لهم :

— « لقد أخبرنى رئيس قسم الشرطة ، أنه يجب على مغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » •

ظهرت علامات الجد على وجه عضو الحزب :

— « نعم أيها الرفيق « ليونهارد » ! هذه أوامر من الجهات العليا ، ولا نستطيع أن نعمل شيا الآن » •

تبدلت الصورة التى أخذتها عن أعضاء الحزب فى الزيارة السابقة اذ ظهر لى الآن أنهم ليسوا على كل شىء قادرين •

— « لا تيأس أيها الرفيق « ليونهارد » ! ان من الممكن ، بل من المحتمل جدا ، أن يتخذ قرار فى وقت قريب بالنسبة لوضع الألمانيين اللاجئين سياسيا • ربما يستثنى اللاجئون من قرار الابعاد هذا • على كل اذا وجدت مسكنا ، فابعث الينا — من فضلك — عنوانك ، وسوف نخبرك بسرعة ، اذا ظهرت لنا أى فرصة ، ولكننا الآن — للأسف الشديد — لا نستطيع أن نفعل شيئا •

أصبح مؤكدا أنه يجب على مغادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة ، — الآن أصبحوا ٢٣ ساعة — وترك معهدى الصغير « معهد المعلمين » ، وأصدقائى الذين تعرفت عليهم حديثا ، وزملائى فى الدراسة • لقد تعلمت : اذا لم يستطع عضو الحزب أن يعمل شيئا ، فمن العبث الالتجاء الى مكان آخر طلبا للمساعدة •

لن يسافر « الأتوبيس » الى المدينة الا فى المساء ، ولن يستغرق حزم أمتعتى القليلة وقتا طويلا ، اذن فعندى وقت فراغ طول اليوم •

سرت حزينا مكتئبا عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، واقتربت من البيت التجارى الوحيد ، فرأيت خلف خوان عرض البضائع ، رجلا طويلا ، يرتدى حذاء من الفرو ، برقبة عالية تصل الى الركبة ، وقلنسوة من الفرو ، ومعطفا ثقيلا من الفرو أيضا • وبدا وكأنه باحث فى مناطق القطب • ثم سمعت صوتا لم يكن غريبا على ، وعندما اقتربت ، سمعت أن هذا الباحث فى مناطق القطب يتحدث الروسية بلكنة ألمانية •

وفى هذه اللحظة عرفته ، كان « هانز مالى » الذى تعرفت عليه أثناء

دورة دراسية فى موسكو فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ م ، وتحدث فى تليفزيون موسكو بعد بدء الحرب مرات عديدة • اندفعت اليه :

— « هانز » ! هذا رائع ! كيف جئت الى هنا » ؟

سر بلقائى أيضا ، ولكنه راوغ فى الاجابة على سؤالى :

— « نحن على سفر مع مجموعة من الرفقاء ، وتوقفنا فى هذه المدينة لبعض الوقت ، وسوف نمكث هنا أياما ، فى هذه المنطقة • وأنت ؟ أخبرنى ! ماذا تعمل هنا » ؟

— لقد سافرت مع المرحلين فى ٢٨ سبتمبر ، فوصلنا فى منتصف أكتوبر الى « أوسكوروفكا » على بعد ١٢٠ كيلو متر من « كاراجندا » ، فوزعنا جميعا على المزارع الموجودة فى المنطقة ، ولكن لم يكن فى بطاقتى خاتم الترحيل الاجبارى ، فجئت الى هنا ، وأدرس الآن فى معهد المعلمين » •

— « اذن •• فالأمور تسير عندك على ما يرام » ؟

— « للأسف لا يا « هانز » ! حدث شىء مزعج اليوم بالذات ، فقد استدعيت الى قسم الشرطة ، وهناك أخبرت بأننى لابد أن أغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة ، والآن ، لا أعلم اطلاقا ، ماذا أفعل » !

— « حسنا ! فقد وصلنا فى الوقت المناسب ! ان من الأحسن أن تأتى معى الآن ، سوف أقدمك الى الرفيق « ألبريخت » والرفقاء الآخرين » •

— « أولبريخت » فى « كاراجندا » ماذا يعمل « أولبريخت » فى « كاراجندا » فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، لا ينبغى أن أسأل ، فقد عشت فى الاتحاد السوفييتى وقتا طويلا ، وهو وقت كاف لأعلم أنه لا يجوز للمرء أن يسأل عن أمور الحزب ، وينتظر حتى تبلغ اليه •

وبعد دقائق قليلة وصلنا الى الفندق ، وهو الفندق الوحيد فى المدينة ، الذى قضيت فيه أول ليلة فى « كاراجندا » ، كان يقف أمامه ٥ أو ٦ أشخاص ، وكانوا كلهم يرتدون ملابس مثل « هانز مالى » •

لم أعرف أحدا منهم آنذاك معرفة شخصية ، لم يكن معروفا لدى سوى وجه « أولبريخت » عن طريق المحاضرات الثقافية فى موسكو • التى امتدت من خريف عام ١٩٤٠ م حتى يونيو عام ١٩٤١ م •

قادنى « هانز مالى » الى « أولبريخت » فسلم على بعدم اكتراث ، وتمتم بكلمات لم أفهمها ، ربما كانت « نهارك سعيد » هكذا حدث ،

كما لو كان من الأمور المسلم بها فى العالم أن يلتقى اللاجئون سياسيا من الألمـــانيين ، يتقابلون فى « كاراجندا » فى ديسمبر سنة ١٩٤١ • ثم قدمت الى احدى الرفيقات اسمها « لوتى كونى » • سمعت الاسم آنذاك لأول مرة ولم أعلم الا بعد أربع سنوات أنها زوجة « أولبريخت » • ظللنا واقفين أمام الفندق ، وفى أثناء ذلك وقفت عربتا جيب أمريكية الصنع • يبدو أن أعضاء الحزب عازمون على السفر فى مدى دقائق •

سألوا بعض الأسئلة عن اللاجئين الذين رحلوا الى هذه المناطق المجاورة لـ« كاراجندا » فشرحت لهم باختصار — بأســلوب تلغرافى — أحوال الذين أعرفهم من الرفقاء ، وعن المأساة التى يعيشون فيها ، ولكن أعضاء الحزب كانوا ينصتون الى بعدم اكتراث ولم يستفسروا عن شىء •

ظهرت مأساة الرفقاء الألمـــانيين الذين رحلوا ، لهؤلاء الذين كانوا زعماء بارزين فى الحزب الشيوعى الألمـــانى مسألة غير ذات أهمية ، ويبدو أنهم — هكذا فهمت — لم يجيئوا الى هنا بسبب مسألة اللاجئين السياسيين •

— « وأنت ؟ تسكن فى « كاراجندا » ؟

— « نعم ! ولكن هذا آخر يوم لى فيها •• أنا أدرس فى قسم التاريخ بمعهد المعلمين ولكنى تلقيت اليوم أمرا صــارما بمغــادرة « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة » •

أشار « أولبريخت » بيده اشارة توحى بأن ذلك لن يكون ، ثم قال :

« ستنتظم الأمور ، فسوف نجتمع فى غضون الأيام التالية مع أعضاء الحزب فى اللجنة المحلية ، وأنت مدعو لحضور هذا الاجتماع معنا » •

وفى هذه الأثناء كانت سيارة الجيب قد استعدت للانطلاق ، وركب فيها الرفقاء •

استدعيت ظهر ذلك اليوم للذهاب الى مقر الحزب ، ضحك مسئول قسم الدعاية والتثقيف السياسى وقال :

— « كل شىء على ما يرام ، فتستطيع البقاء فى « كاراجندا » ، وسوف يكون هنا فى غضون الأيام التالية ، مؤتمر فى مقر الحزب لكل اللاجئين السياسيين ، الذين يقيمون فى منطقة « كاراجندا » ولمــا كنت مقيما فى المدينة نفسها ، وتدرس هنا فتستطيع أن تحضر هذا المؤتمر ، وسوف نتحدث على كل شىء فى الاجتماع •

— « هل يمكن أن أسأل عن موعد عقد هذا المؤتمر بالضبط » ؟

— « مقرر له حتى الآن يوم ٢٢ ديسمبر ، بعد ما يعود الرفيق « أولبريخت » مع الرفقاء الآخرين من زيارتهم معسكر أسرى الحرب » .

معسكر أسرى الحرب ؟ أسمع هذا لأول مرة ، ولهذا جاء وزملاؤه الى هنا . لم يكن عندى أى فكرة عن وجود معسكر أسرى بالقرب من « كاراجندا » . ولم أسمع أيضا — أثناء اقامتى هناك مدة عشرة أشهر بعد هذا التاريخ — شيئا عن هذا المعسكر ، ولا عن عدد من فيه من الأسرى .

ليست هذه الواقعة من الأمور الغريبة ، اذ يحدث فى الاتحــاد السوفييتى ، أن الناس الذين يعيشون فى مدينة ، عشرات السنين ، لا يحسون بالمؤسسات التى تقام داخل المدينة ، أو فى المنطقة المحيطة بها ، فضلا عن التكتم على وجود معسكر ، أو معسكر للأسرى .

* * *

مؤتمــر اللاجئين

بدأ مؤتمر اللاجئين السياسيين الألمــانيين فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى مقر الحزب فى « كاراجندا » . كانت هناك لقاءات وسلامات ، وعلت الابتسامة على الوجوه تعبيرا عن فرحة اللقاء مرة أخرى . قابلت الثلاثة الذين اشتركوا فى الحرب الأسبانية ، وكانوا زملائى فى عربة البضاعة أثناء الرحلة من موسكو ، وقابلت أيضا صديقتى « ارمجراد سيكيرت » ، وابنتى الكاتب الألمــانى « ألبرت هوتو » الذى اعتقل بعد بدء الحرب بوقت قصير ، ولاجئين آخرين ممن كانوا معى فى القطار ، ويقيمون الآن فى منطقة « أوسكورفكا » ولكنى سررت جدا بلقاء أصدقاء ترجع صداقتهم الى الأعوام التى كنت مقيما فيها فى « بيت الأطفال » رقم ٦ ، لأنى لم أرهم منذ زمن بعيد . وهم يقيمون هنا منذ مدة طويلة ، لأنهم كانوا ضمن أول مجموعة رحلت من موسكو .

ازداد عددنا شيئا فشيئا ، حتى بلغ خمسين لاجئا سياسيا ألمــانيا فى صالة مقر اللجنة المحلية للحزب ، ثم دعينا للدخول الى قاعة الاجتماع .

كان جوا يثير الانتباه : امتلأت القاعة الجميلة بأثاثها الفخم — التى لم يدخلها سوى الروسيين و « الكازاخستانيين » ذوى الملابس الأنيقة الغاليــة الثمن — لأول مرة فى تاريخ الحزب فى « كاراجندا » بألمــانيين فقط ، وكان مفجعا أن يرى المرء ، كيف غيرت المأساة وجوه

اللاجئين الألمـــانيين ، اذ لم يمض أسبوعان على اقامتهم فى « كاراجندا » حتى ظهرت علامات البؤس ، والفقر والحزن على وجوههم • لم نتأثر نحن الشباب بهذا كثيرا ، ولكن كبار السن عانوا من الترحيل الاجبارى ، ومن الجوع ، ومن الظروف القاسية التى يعيشون فيها فى « كاراجندا » فظهر ذلك واضحا على وجوههم •

فلو فرض أن رآهم واحد خالى الذهن من هذه الأحداث ، ما صدق أن الجالسين فى هذه الصالة ألمـــانيون • أصبح الجو باردا فى « كاراجندا » فوصلت درجة الحرارة الى ٤٠ درجة تحت الصفر ، ولم يتميز اللاجئون عن المنفيين من الروسيين ، ارتدوا على أجسامهم ملابس غير ملائمة ، لبسوا أعدادا منها ، قطعة فوق الأخرى ، ويبدو أنهم لبسوا كل ما لديهم من ملابس • لم نكن نتصور أن الجو سينقلب فى غضون أسابيع قليلة ، ويصبح شديد البرودة بهذا الشكل •

ثم دخل القاعة زعماء الحزب فى « كاراجندا » المسئولون عن مكتب الدعاية والتثقيف السياسى ، ومعهم « فالتر أولبريخت » •

وافتتح المؤتمر ، فبدأ أحد زعماء اللجنة المحليـــة للحــزب فى « كاراجندا » يلقى كلمة الافتتاح باللغة الروسية :

« دعت اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » اللاجئين الألمانيين — الرفقاء اللاجئين سياسيا ، هكذا قال بالحرف الواحد — الى الاجتماع للتباحث معهم حول بعض المسائل السياسية ، وأمور أخرى ، ويسرنى أن يكون بيننا اليوم الرفيق « أولبريخت » وأعطيه الكلمة ليحدثنا عن المسائل السياسية » •

توجه « أولبريخت » الى منصة الالقاء ، هادئا ، واثقا من نفسه مباشرة كما لو لم يحدث فى الشهور الأخيرة شىء ذو أهمية • وسرح فكرى — دون قصد — الى المرة السابقة ، عندما سمعته فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ فى موسكو ، يوم أن ألقى محاضرة فى دورتنا الثقافية ، التى أقيمت آنذاك ، لم يمض على هذا سوى ستة أشهر فقط ، ولكن ، كم من الأحداث وقعت فى هذه المدة ! غزت القوات الألمانية « ايستلاند » و « ليتلاند » وروسيا البيضاء ، وأخضعت بسرعة عجيبة الجزء الأكبر من « أوكرانيا » وحاصرت « لينتجراد » ، والتفت حول موسكو من ثلاث جهات تقريبا • وهجر[1] ملايين من الناس ، جميع السكان الألمانيين

---

(١) بضم الهاء وكسر الجيم مع التشديد •

فى جمهورية « فولجا » ، وكل الألمانيين فى الاتحاد السوفييتى • والآن ! وبعد ستة أشهر من بدء الحرب ، يتقابل الألمــانيون اللاجئون سياسيا فى « كاراجندا » •

لم يقل « أولبريخت » فى كلمته شيئا جديدا ، واقتصر فى معظمها على ترديد ما يقرأ فى الصحافة السوفييتية يوميا • واظهارا لاخلاصه للنظام الحاكم آنذاك ، بين فى كلمته أن الوضع الاقتصادى السىء فى ألمــانيا ، والنقص فى المواد الخام ، وخاصة مواد الوقود ، سوف يرغم ألمــانيا على الانسحاب ، وتحدث عن ازدياد عمليات المقاومة فى البلاد التى احتلتها القوات الألمــانية ، وعن انتشار السخط والتذمر فى ألمــانيا نفسها ، وأخيرا أشار الى أن الموقف انقلب نسبيا ضد هتلر بعد هجوم اليابان على ميناء « اللؤلؤ » ودخول أمريكا الحرب ضد قوى المحور — ولكن كنا نعرف هذا أيضا من الصحافة السوفييتية •

وفى آخر كلمته ، قال لنا شيئا لم نكن نعلم به قبلا : تحدث عن العمل فى معسكرات أسرى الحرب ، الذى بدأ فى الأسابيع الأخيرة فقال : « هذا العمل يهدف الى تحويل الأسرى — مستقبلا — فكريــا ليصبحوا ضد الفاشية » ، ثم أخرج بعض الأوراق من حقيبته ، وصاح بأعلى صوته : « هذا نداء ١٥٨ أسيرا ألمــانيا » • ثم قرأ بعض الفقرات ، وصفها بأنها وثائق هامة ، ذات دلالة على التغيير • وشرح جمل النداء جملة جملة •

أنهى « أولبريخت » كلمته ، فصفق الحاضرون كما هو متبع ، ولكن أمكن للمرء أن يتبين أن كثيرا من الحاضرين لم يتابعوا كل ما قاله « أولبريخت » ، كانوا بسبب الارهاق الشديد ، والجوع ، والضعف غير قادرين على متابعة خطبة سياسية ، مثل ما كانوا يفعلون فى الأيام العــادية •

ثم أعلن فى النهاية أننا سنناقش مشاكل الأحوال المعيشية للاجئين المقيمين فى منطقة « كاراجندا » ، بعد أن نتناول معا طعام الغداء •

اللقاء ، ومحاضرة « أولبريخت » وقبل هذا ، الأمل فى أن تحل بعض المشاكل عمليا فى المناقشة التى ستدور بعد الغداء — كل هذا رفع من معنويات هؤلاء البؤساء فى حياتهم ، فى تلك المنطقة •

دعينا الى مائدة شهية ، حافلة بألوان الطعام ، أعدت المــائدة بجوارنا ، ووضع الطعام على مقربة من بطوننا ، التى تصيح من ألم الجوع •

كيف تحول الجو بسرعة ؟ لا أدرى ! اذ سرعان ما نسى هؤلاء — وهم على مائدة الطعام — المأساة الفظيعة التى مروا بها فى الأسابيع الأخيرة من جوع ، وبرد ، واهانة ، وبدأوا يتذكرون حياتهم فى موسكو ، أو يتحدثون عن مناظر مضحكة قابلتهم أثناء رحلتهم • لا يمكن أن يصدق أحد ، بأن هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم الآن علامات السرور والفرح ، جاءوا قبل بضع ساعات الى مقر الحزب ، منحنية ظهورهم ، منكسة رؤوسهم من هول ما يلاقونه ، ذليلة نفوسهم من وطأة المأساة التي يعيشونها •

انتظرنا جلسة بعد الغداء بأعصاب مشدودة ، تلك الجلسة التى — كما كنا نأمل — ستغير حياتنا فى « كاراجندا » •

بدأ « فالتر أولبريخت » ومعه اثنان من زعماء مكتب الدعاية والتثقيف السياسى — اللذين كانا مرحين بشكل ملحوظ ، ولكن كما تأكدت ليس لهما نفوذ كبير — والسكرتيرة المحلية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، بدأوا معنا مناقشة المشاكل العملية فى حياتنا الراهنة •

أشار أحد المسئولين فى المكتب السياسى فى كلمة افتتاحية قصيرة الى الوضع العام الذى يقاسى منه الشعب السوفييتى ، والى المصاعب الضخمة ، والضروريات ، التى تحتم التضحية فى هذا الوقت ، والى أنه ينبغى علينا تحمل الحياة القاسية بصبر وثبات • وعلى الرغم من أن المصاعب ضخمة جدا ، والوسائل محدودة — هكذا بين فى كلمته — سوف تقوم اللجنة المحلية للحزب فى هذه الأيام الحالكة ، بعمل مافى وسعها ، لتخفف من شدة قسوة الحياة بين الألمانيين اللاجئين سياسيا • ومن المستحسن أن يكون هناك اتصال دائم بين اللاجئين السياسيين وبين اللجنة المحلية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، ومن المؤكد أن الرابطة سوف تقدم المساعدات لهم كلما أمكن ذلك •

وضح لى من كلام عضو الحزب ، أنه يتألم شخصيا من وضعنا السيء ، ولكن ليس له من النفوذ ما يمكنه من أن يغير كثيرا من هذا الوضع ، فاشارته الى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » — وهى كما أعلم منظمة ليس لها نفوذ كبير — بينت ذلك بما لا يدع مجالا للشك • لم يكن التركيز على ما يقاسيه

الشعب السوفييتى فى هذا المجال لازما : اذ لم يفكر أحد من اللاجئين فى أن يطالب بأشياء يصعب تحقيقها فكلنا يعلم جيدا ، مدى الصعوبات التى يمر بها الشعب السوفييتى فى هذا الوقت ، ولهذا لم يخطر ببال أحد أن يرفع شكوى لتحقيق شىء أكثر من الأمور الضرورية ، المتواضعة جـدا •

ثم طلب من الرفقاء واحدا بعد الآخر ، ذكر الاسـم والعنوان السابق ، ومحل العمل ، وأن يشرح متاعبه باختصار ، ويبدى رغباته •

لاحظت الآن لأول مرة مدى حسن أحوالى على ما فيها ، وكيف أنقذت من الوقوع فى مثل هذه المشاكل ! كان وصف الرفقاء ، تشيب من هوله الرؤوس ، لقد أذلهم رؤساء المزارع الجماعيـة ، وقواد جنود الحراسة ، وسخروا منهم بالسب ، واللعن ، والشتم ، لأنهم ألمـانيون ، وكانوا ينادونهم بكلمات القذف المفضوح ، وتعرضوا أحيـانا للاهانة بالضرب • ووضعوا عمدا فى كثير من الحالات فى مرتبة معيشية دانية • وعندما حاولوا رفع شكواهم معبرين عن سوء أحوالهم المعيشية قيل لهم :

« لا يوجد شىء لكم أيها الألمـانيون ! ولتكونوا مسرورين ، اذا حصلتم على أى شىء تأكلونه » •

وأرسل بعض اللاجئين الألمـانيين الى بيوت ، فى سقوفها فتحات ، وفى حوائطها شقوق ، وتركوا نهبا للريح ، الذى يجمد الأطراف دون حماية من هذا الجو المهلك •

وصفوا أحوالهم بواقعية ، دون حنق أو ضغينة ، كان مذهلا ! كيف تحمل اللاجئون هذه الآلام ، وكيف صبروا هادئين على هذه المآسى !

كذلك كانت رغباتهم متواضعة ، طالب معظمهم فقط برفع هذا الظلم الفادح ، عن طريق مكالمة تليفونية ، أو خطاب صغير من اللجنة المحلية للحزب •

وقدمت الاستعطافات من هنا وهناك فى طلب بعض الملابس ، أو الأغطية أو قطع الصابون ، أو مواد غذائية ، فلقد كنا نحصل آنذاك — باستثناء عدد قليل كان ينجز بعض الأعمال الخاصة — على ٣٠٠ جرام خبز مبلول يوميا ، أما اذا كان الخبز ناشفا فيتراوح وزنه بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جرام ، ولا شىء خلاف هذا ، فلم نأخذ دسما ، ولا سكرا ، ولا لحما •

فبينما المواطنون السـوفييت الذين كانوا على اتصـال بالريف

يلجأون الى أصدقائهم وأقاربهم للحصول على مواد غذائية ، كنا نحن اللاجئين الألمانيين — الذين انتقلوا الى جو غريب عنهم كلية — نقاسى من المصاعب بصورة مزعجة .

كانت هذه المطالب ضرورية بشكل خاص بالنسبة للمسنين والمرضى ، وكذلك للمحاربين القدامى ، الذين اشتركوا فى الحرب الأسبانية ، ويمكن تحقيقها رغم الظروف الصعبة ، فليس عضو الحزب هو الذى يعلم فقط — بل كل واحد منا أيضا — أنه يوجد فى كل مكان فى منطقة « كاراجندا » — كما هو فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى — محلات ، ومطاعم ، وموزعون وراء الكواليس ، تعطى بضائعها لطبقة معينة ، وكل واحد يعلم أن فى هذه المحلات والمطاعم بضائع وأغذيـة مكدسـة فى هذا الوقت العصيب على سكان الاتحـاد السوفييتى ومن المؤكـد أن بامكان « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » الحصول على كمية من هذه الأغذية ، لتسد رمق أولئك الرفقاء ، الذين خدموا الدولة عشرات السنين ، وأولئك الذين وضعوا حياتهم على أكفهم فى الحرب الأسبانية . ولكن لم يذكر أحد شيئا عن هذه المحلات المتوارية خلف الكواليس ، أغفلت ، وكأنه لا يوجد هذا النوع من التجارة السوداء على الاطلاق ، ولأن الأمر يتعلق بشىء « لا يجوز الحديث عنه » ، وخاصة اذا كان هذا الشىء يمس الجهة الرسمية ، ويغضبها ذكره ، فلم يتكلم أحد من اللاجئين ، ولم يشر اليه مجرد اشارة ، وأسدلوا عليه ستارا كثيفا .

أجيب على الرغبات المادية المتواضعة ، والتوسلات لتحقيق طلبات المساعدة بأن « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ستتولى القيام بهذا كله فى حدود الامكانيات .

كان كل واحد منا يعلم أن المسألة انتهت بهذا الوعد ، لأنه كان واضحا أن تنظيما ضعيف النفوذ مثل « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » لا يمكنه توفير الغذاء والملابس فى مثل هذه الظروف .

وكلما طالت المناقشة ، ازداد الأمر وضوحا بأن حالة اللاجئين السياسيين لن يتغير فيها شىء اطلاقا .

ومما لا شك فيه ، أن هذا لم يكن ذنب عضوى الحزب اللذين يتحملان قيادة أنظمته فى هذه المنطقة ، فقد أبديا الرغبة فى المساعدة

فى دائرة نفوذهم ، ولكنهما لا يملكان هذا الأمر فى أيديهما ، لأن نفوذهما محـــدود •

وجاء دورى فى آخر القائمة ـــ ربما لأنى أصغرهم ـــ ، فعبرت عما أطلبه فى جملتين : أن أستمر فى دراستى فى المعهد ، ويسمح لى بالاقامة فى « كاراجندا » •

وتحقق لى هذان المطلبان ، اذ قال أحد العضوين :

« هذا ممكن عمله ، فتستطيع أن تذهب فى غضون الأيام التالية الى قسم الشرطة ، وسيعطوك تصريح الاقامة ، لتستمر فى دراستك فى المعهد » •

انتهى مؤتمر اللاجئين بعد القاء كلمة ختام قصيرة ، وأصبح واضحا لدى الجميع ، أنهم سيقضون وقتا ليس بالقصير ، فى منطقة « كاراجندا » وأن وضعهم الحالى ، ليس نتيجة اجراءات خاطئة ، اتخذتها لجنة الحزب المحلية ، بل « الخط الرسمى » الصادر من الجهات العليا ، ولكن سوف يتجنب مستقبلا المبالغة فى تنفيذ الاجراءات •

وتبخرت الآمال التى دارت بأفكار كثيرين فى بداية اللقاء ، ولكننا ـــ كلنا ـــ عشنا فى الاتحاد السوفييتى وقتا يكفى لأن ندرك أنه لا مجال للشكوى ، وأنه لابد أن نتعود على كل الظروف ، وألا ننتظر رؤية أى شىء ايجابى فى تلك الظروف القاسية المؤلمة • واعتقد بعضنا « أنه سيكون بيننا وبين الحزب اتصال » ، « ولا شك فى تكرير مثل هذا اللقاء » •

ولم يحدث هذا ، فقد كان مؤتمر ديسمبر هو اللقاء الوحيد الذى نظم للاجتماع باللاجئين السياسيين الذين نفوا الى منطقة « كاراجندا » •

لم أر فيما بعد واحدا من اللاجئين السياسيين ، الذين حضروا هذا الاجتماع الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤١ م فى « كاراجندا » ما عدا « ارمجارد سيكيرت » التى عادت الى ألمـــانيا فى عام ١٩٤٧ ، واشتغلت فى اذاعة ألمـــانيا الشرقية ثم فى وزارة الخارجية فى حكومة المنطقة السوفييتية (١) •

ومن الممكن ، بل من المحتمل جدا ، أن هؤلاء الرفقاء الذين خدموا

---

(١) يعنى المؤلف ما يعرف باسم ألمـــانيا الديمقراطية ، فالغربيون يسمونها بهذا الاسم ، لأنهم لا يعترفون بها كدولة ، وانما منطقة يحتلها السوفييت •

الحزب عشرات السنين ، لا يزالون يقيمون فى منطقة « كاراجندا » ، اذا لم يكونوا قد هلكوا من الهم ، والفقر •

لم تذكر الجهات الرسمية فى المنطقة الألمانية المحتلة من الاتحاد السوفييتى شيئا بعد عام ١٩٤٥ عن اللاجئين السياسيين فى الاتحاد السوفييتى ، والمرة الوحيدة التى جاء فيها ذكر شىء عن هؤلاء اللاجئين يوم أن نشرت صحيفة « ألمانيا الجديدة » الناطقة بلسان « الاتحاد الاشتراكى الألمانى » نبأ عن وفاة الفنان الألمانى « هاينريش فوجيلر » وجاء فى هذا الخبر : أنه توفى فى عام ١٩٤٢ م فى « كازاخستان » حيث أجلى — رحل — عن موسكو احتياطيا •

من رحل اجباريا معه ، وأقام فى منطقة « كاراجندا » ؟ يعلم هذا فقط أولئك الذين رتبوا ونفذوا هذا « الاجلاء الاحتياطى » •

* * *

حياتى فى « المدينة الجديدة »

بدأت حياتى العادية فى « كاراجندا » عقب انتهاء المؤتمر ، فقد كان نقطة انطلاق طيبة بالنسبة لى • وعلى الرغم من أنه لم ينشر شىء عن هذا المؤتمر فى الصحافة ، حتى ولا فى الصحيفة المحلية « كاراجندا الاشتراكية » ، فلم يقتصر الخبر على كبار أعضاء الحزب فى اللجنة المحلية ، بل علم به أيضا المدرسون فى معهد المعلمين •

أحدث هذا عندى شعورا بالارتياح النفسى ، ففى اليوم التالى لمؤتمر اللاجئين وجهت الى أسئلة من المدير ، ومن سكرتير الحزب ، ومن بعض المدرسين ، عما اذا كان المعهد قد أعجبنى ! وعما اذا كنت مسرورا بالدروس ! وعما اذا كان عندى اقتراحات يجب الأخذ بها !

ثم قبلت بعد هذا مباشرة عضوا فى منظمة الشباب المحلية ، دون أدنى صعوبة ، ثم عينت سكرتيرا مسئولا لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » وفى احدى الاجتماعات العادية انتخبت عضوا فى مجلس رئاسة المعهد •

أصبح التغيير المفاجىء فى وضعى أكثر وضوحا فى الأيام التالية :

ذهبت بعد أيام قليلة من عقد المؤتمر للتجول فى « المدينة الجديدة » وأثناء سيرى فى الشارع ، سمعت ورائى وقع أقدام خيول ، تجر عربة ، وتسير ببطء ، فنظرت اليها ، وفجأة رأيت يدا تلوح لى بحرارة محيية •

تحية مفزعة ، لقد كان رئيس قسم الشرطة ، هو بنفسه الذى أصدر أمرا بطردى من « كاراجندا » قبل بضعة أيام .

« اذا لم تغادر « كاراجندا » فى ظرف ٢٤ ساعة فستكون ..... هل هذا واضح الآن » ؟؟

لا زالت هذه الكلمات ترن فى أذنى ! ماذا أفعل الآن ؟ هل أسرع فى الهرب من أمامه ؟ لا فائدة من هذا ! فلا يفيد الهرب من أمام رئيس قسم الشرطة شيئا !

وهكذا ظللت واقفا بكل بساطة ، وأنا أرتعد داخليا من الخوف ، ماذا يحدث الآن ! وفى غضون ذلك كانت العربة قد اقتربت منى جدا ، فأوشكت أعصابى على التحطم من شدة التوتر ، وقفت العربة ، ونزل منها رئيس قسم الشرطة ، واتجه الى مبتسما ، وقال :

— « أيها الرفيق « ليونهارد » هل أعجبتك الحياة هنا فى « كاراجندا »؟ أنا أتمنى من كل قلبى ، أن تشعر بالهدوء والراحة فى « المدينة الجديدة » .

توقفت الكلمات فى حلقى ! قبل بضعة أيام صاح فى وجهى ، أصدر أمرا بطردى ، واليوم يسألنى عما اذا كنت أشعر بالارتياح هنا !

— « تعجبنى جدا الحياة هنا فى « كاراجندا » وأشعر بالراحة والطمأنينة » .

— « هذا يسرنى جدا » .

— « لو سمحت ! هل من الممكن أن أحضر الى سيادتكم فى غضون الأيام التالية لانهاء اجراءات تصريح الاقامة » ؟

— « لا ! أيها الرفيق « ليونهارد » ، اذ ليس من الضرورى أن تتجشم المصاعب للحضور الينا بخصوص هذا الموضوع ، سأرسل لك التصريح الى المعهد غدا مع أحد السعاة » .

وتخطيت أصعب عقبة فى غضون وقت قصير . وجهت الى دعوات للاشتراك فى المناسبات المختلفة ، وقوبلت بالاحترام ، وكان حظى آنذاك نادرا بالنسبة لألمانى ، اذ لم أعامل كـ« أجنبى عدو » . وكانت حالتى فى الحقيقة من الأحوال الشاذة ، فلم يعقد فى المدن والمناطق الأخرى مثل هذا المؤتمر ، وبناء عليه فقد قاسى كثير من الألمانيين اللاجئين سياسيا فى وقت الحرب ، ليس فقط ماديا ، بل نفسيا أيضا ، ولم يستفيدوا شيئا كثيرا ، عندما كانوا يبينون أنهم ألمانيون شيوعيون ،

كافحوا فى عهد الجمهورية « الفايرية » ضد النازيـــة ، وخاطروا بحياتهم فى هذه المقاومة أو فيما بعد فى الحرب الأسبانية •

ورغم هذا فلم يكن من النادر اذلالهم بالسباب لأنهم ألمـــانيون ، والسخرية بهم ، والقاء اللوم عليهم فيما يفعله « هتلر » رغم أنهم قاوموا النازية طول حياتهم •

وذات يوم تلقيت دعوة لسماع محاضرة يوم الأحد فى الساعة العاشرة صباحا لمجموعة خاصة فى مقر اللجنة المحلية للحزب •

كان هذا حدثا جديدا بالنسبة لى ، فأحيانا كنت ألاحظ أثناء حديثى مع أعضاء الحزب الروسيين ، أن بعضهم يعلم أشياء أكثر مما نقرأه فى الصحف والجرائد السوفييتية ، ولكن لم يكن واضحا لى ، من أين هذه المعلومات !

والآن ! أعتقد أن هذا اللغز قد حل ، فلابد أن فى المدن الأخرى مثل ما فى « كاراجندا » • بجانب الاجتماعات الرســمية العادية — فى « كاراجندا » كما فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى — حيث يعاد القاء ما تنشره الصحافة ، تلقى كل يوم أحد محاضرة هــامة ، ودسمة فى معلوماتها ، فى مقر اللجنة المحلية للحزب ، ويدعى لها أفراد ، يختارون اختيارا دقيقا •

يتلقى المدعو خطاب دعوة ، ليبرزه عند الدخول ، فالتفتيش دقيق جدا ، حتى لا يتسرب الى القاعة ، غير المرغوب فيهم •

كان يحضر هذا الاجتماع بصفة مستمرة ٨٠ من الأعضاء المهمين الذين تثقفوا سياسيا فى هذه المدينة • وكان مستوى المحاضرات رفيعا ، فلم يوجد مكان للمحاضرات الهزيلة ، ولم يكن من النادر تناول المشاكل العالمية ، حتى ولو كان مسرح أحداثها بعيدا عن الاتحاد السوفييتى ، كالوضع فى أمريكا اللاتينية مثلا •

كنت مسرورا بالذهاب الى هناك ، فقد كنت مهتما بالسياسة ، وكان وضعا ممتازا أن أدعى الى هذا الاجتماع ، وأعلم أشياء محجوبة عن الآخرين •

لم أكن حتى الآن — بصرف النظر عن الدورة الثقافية القصيرة ، التى اشتركت فيها فى أوائل عام ١٩٤١ — الا فردا عاديا ، يتلقى معلوماته من جريدة « برافدا » فقط •

والآن ! ازدادت المعلومات شيئا طفيفا ، وصار واضحا لى فيما بعد ،

أن هذه هى الدرجة السفلى ، يعلوها درجات ، فكلما ارتفعت درجة قل العدد ، وصار مضمون المعلومات أكثر أهمية •

عندما أعود بذاكرتى الى كثير من الأشياء فى الاتحاد السوفييتى ، يبدو لى أن طابع النظام « الستالينى » — بالنسبة لتوصيل المعلومات — تقسيم الناس الى درجات : الدرجة السفلى ، لا يعرف أفرادها شيئا عما يدور فى وطنه ، ثم تزداد المعرفة مع ارتفاع الدرجة ، حتى تصل الى مجموعة معينة ، تكون ملمة بكل شىء •

نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعات ، لا تنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جدا ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام من صحافة واذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار الا النذر اليسير ، أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة •

لم أفكر فى مثل هذا آنذاك ، بل أنصت بشغف الى المحاضر ، وأحيانا كنت أقول لنفسى : من أين يعلمون ما يقولونه ، وهو لم ينشر فى الجرائد ولا المجلات ؟ ولكنى لم أعرف جواب هذا السؤال الا بعد سنة •

انطلقت حملة فى « كاراجندا » — كما فى كل مكان فى الاتحاد السوفييتى — للدعوة الى التبرع بملابس وأحذية لجنود الجيش الأحمر الواقفين على خط النار ، استمرت من خريف عام ١٩٤١ الى أوائل عام ١٩٤٢ م • وكانت عملية التبرع ثقيلة على المواطنين ، لأن الشتاء فى « كاراجندا » ، اندفع بشدة ، فقد انخفضت درجة الحرارة فى منتصف ديسمبر الى ٤٠ تحت الصفر ، ثم زادت فى آخر ديسمبر الى ٥٠ تحت الصفر وفى يناير الى ٥٥ ، ووصلت فى بعض الأحيان الى ٥٨ درجة تحت الصفر •

ظلت « كازاخستان » بعيدة عن الحرب ، وكان الجو فيها فى عام ١٩٤٢ م يوحى بأنها تعيش فى حالة سلام ، ولأنها بعيدة عن مسرح المعارك ، فلم تتقيد فيها الاضاءة مدة الحرب كلها ، فكانت « المدينة الجديدة » تتلألأ بأضوائها ، كما فى السلم ، غير أن الحرب أثرت فى مجالات أخرى ، فقد كان وضع المواد الغذائية أسوأ من الأوضاع فى المجالات الأخرى التى رأيتها •

كان الخبز فى ديسمبر عام ١٩٤١ بالبطاقة التى كان فيها صفحات مخصصة للسكر ، والزبد ، واللحم ، ومواد غذائية أخرى ، ولكنها لم تورد .

كنا نحصل نحن الطلبة على ٤٠٠ جرام خبزا يوميا ، ومرتين فى اليوم شوربة ، بدون لحم طبعا ، ومطبوخة بزيت عباد الشمس ذى الطعم الكريه .

لم يشعر أعضاء الحزب ولا كبار موظفى الحكومة ولا العاملين فى المؤسسات الاقتصادية بنقص المواد الغذائية فى بيوتهم فى هذا الوقت العصيب بل كانوا يعيشون كما لو كنا فى حالة السلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شىء من المحلات المتوارية خلف الكواليس .

وبجانب هذه المحلات المقصورة على « الطبقة الممتازة الخاصة » وجد أيضا أماكن خاصة ، للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط و « الطبقة المتوسطة المفضلة » ، الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقى فى الحزب ، لم يمكنهم من الوصول الى المنابع التى توزع على « الطبقة الممتازة الخاصة » .

أما بقية الشعب فكان مجبرا أن يعيش على أية كيفية ، بعضهم كان ينجح فى الحصول على بعض الأشياء بواسطة معارفه أو أصدقائه المقيمين فى القرى حيث لم يزل يوجد بعض المواد الغذائية . كان بعض المهاجرين ، الذين هاجروا مع جميع أفراد أسرتهم فى وضع يمكنهم من ارسال أحد أعضاء الأسرة ليقضى ساعات للحصول على بعض أنواع الغذاء ، وكان هناك آخرون ، يعيشون وحدهم ، جاءوا الى « كاراجندا » بأموال كثيرة ، ولديهم الامكانية المادية فى الحصول على المواد الغذائية من السوق السوداء ، مقابل دفع أثمان باهظة ، حسب ما يطلبه من بيده هذه البضاعة .

لقد كان الوضع بالنسبة لى سيئا جدا ، لأنى كنت وحيدا لا صلة لى بأحد ، ولهذا اعتمدت كليا على الكمية المخصصة لى فى بطاقة التموين . ومن حين لآخر كانت بعض الأسر الصديقة تمنحنى بعض الأشياء ، تلك الأسر الذى مضى على اقامتهم مدة طويلة ، وأقاموا « اتصالات » مع منابع التموين . ولكن لم يغير هذا العطاء حياتى تغييرا جوهريا . كلما قدمت لى مساعدة وتخيلت شكرى للمساعدين دائما ، يشدنى تفكيرى فى معظم الأحوال الى أيام الجوع والبؤس فى « كاراجندا » .

زنجى و « هوبرت » فى بلد العجائب

كنت أسير عبر شوارع « المدينة الجديدة » ، جائعا مكتئبا ، عقب انتهاء المحاضرات مباشرة ، فرأيت زنجيا على بعد .

زنجى ؟ لابد أنه « فايلاند روت » ، فهو الزنجى الوحيد فى الاتحاد السوفييتى . لقد جاء — حسب علمى — من أمريكا لاجئا سياسيا الى الاتحاد السوفييتى فى الثلاثينات ، وفى رأسه كل تلك الآمال والمثالية ، التى كان يتخيلها آنذاك كثير من الناس عن الاتحاد السوفييتى . وهو ممتاز فى الغناء ، ورائع فى الرقص ، واشترك فى تمثيل الفيلم المشهور « السيرك » ، وفى بعض الأفلام الأخرى . وأحيانا كان يكتب بعض المقالات أو يلقى بعض المحاضرات — وبالطبع كتبت له ، ولم يؤلفها من تلقاء نفسه — عن اضطهاد الزنوج فى أمريكا وعن الحياة الرغدة فى الاتحاد السوفييتى .

تعرفت عليه فى موسكو . وعندما رآنى قال بطريقته المحبوبة فى نطقه المكسر للغة الروسية :

— « هاللو ! ما هذه المفاجأة السارة ، زنجى وألمانى يلتقيان فى « كاراجندا » ؟

— « ماذا تفعل هنا فى « كاراجندا » ؟

سألته مندهشا ، لأنى لم أكن أستطيع أن أتصور أن الزنجى سيرحل أيضا ترحيلا اجباريا .

— أوه ! أنا هنا فى رحلة مع بعض الفنانين ، وسنعزف « كونشرت » هنا فى « كاراجندا » . سأقدمك لهم حالا ، نحن نسكن جميعا فى الفندق ، وتستطيع أن تتناول معنا طعام الغداء » .

— آتى معك بكل سرور ، ولكنى لا أستطيع أن آكل فى الفندق ، لأنه محرم — منذ أول يناير — على غير النزلاء دخول المطعم .

ضحك وقال : « سوف نتغلب على هذا الأمر » .

ورغم الرقابة الشديدة ، وطلب ابراز الأوراق التى تثبت اقامة الداخل الى المطعم فى الفندق ، فقد وقف طابور طويل ، أمام باب المطعم ، لأنه أحيانا — وان كان ذلك نادرا — يسمح لغير النزلاء بالدخول ، بعد توزيع الطعام على نزلاء الفندق . كان الأمل فى الدخول ضعيفا ، ولكن

على الرغم من ذلك ، فقد وقف — دائما — كثير من الناس ، وفى بعض الأحيان ، يمتد انتظارهم الى أربع ساعات •

وعندما وصل الزنجى مع زملائه ، فتح له الباب قبل أن يصل اليه ببضع خطوات ، فاندفع معه بسرعة بعض المنتظرين ، على أمل أن ينزلقوا بجواره ويدخلوا ، ولكن حارس الباب صاح بلهجة حادة :

— « لا يدخل الا من هو مع الزنجى فقط » •

وقفل الباب فى وجهى ، ورأيت صديقى الزنجى من الفتحة الزجاجية يلتفت بعصبية ، وينادى بروسيته المعروفة : « الرفيق الشاب معى » •

وهنا تلاشت شدة حارس الباب ، وانكمش ، ثم فتح الباب ، ونادى : « الرجاء من صديق الزنجى ، الدخول الى صالة المطعم » !

فنظر كل الواقفين الى نظرة اكبار واجلال ، ثم قادنى حارس الباب الى صالة المطعم •

تعجبت من نفوذ صديقى قائلا له :

— انه لجميل حقا ، أن تكون الزنجى الوحيد ، الذى يجوب الاتحاد السوفييتى !

— نعم ! الناس يقابلوننى بترحاب لا حد له ، فأنا لا أحتاج فى معظم الأحيان الى أن أنتظر دورى فى الصف ، لأنهم يقدموننى على الواقفين فى الصف حين أحضر ، فى أى مكان ، عند الحلاق ، فى محطة السكك الحديدية ، أو فى المحلات •

ثم علمت أن حياته فى ركاب الدولة ، تتأثر باتجاه السياسة الخارجية ، ففى الفترة التى كانت فيها علاقة الاتحاد السوفييتى بأمريكا متوترة ، لم يستطع أن يرفض الدعوات ، كان من اللازم أن يغنى ويرقص هنا وهناك ، يدعى الى الولائم والحفلات كممثل لطائفة الزنوج المضطهدة فى أمريكا • ولكن اذا تحسنت العلاقة مع الولايات المتحدة يظل صديقا ، ولكنه يجب عليه أن يختفى فى عالم النسيان — بالضبط مثلنا نحن الألمانيين اللاجئين سياسيا ، وجب علينا الاختفاء بعد توقيع معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية •

ثم بدأت أوقات مرة فى حياته ، لأنه سوف يسدل الستار فى هذه الفترة على اضطهاد الزنوج ويحكم اغلاقه بطريقة فجائية — حتى لا يتسرب الى الحياة العامة — كما حدث يوم أن سلطوا الأضواء عليها فى زمن العداوة ، وبالذات فى هذا الوقت ، فقد منحت الولايات المتحدة

الاتحاد السوفييتى قرضا قيمته ١٠ مليار ، وتبدو العلاقة فى تحسن مستمر • فالأيام عصيبة أمام صديقى الزنجى • فقد أبلغ بعد القرض مباشرة أنه لا يجوز له أن يغنى أغانى زنجية ، ثم منع من غناء الأغانى الأمريكية ! فهو يغنى الآن أغانى روسية فقط مثل المغنيين الآخرين ، وأصبحت الدعوات الى الحفلات واللقاءات الحارة أثرا بعد عين •

نجحت حفلة « الكونشرت » فى « كاراجندا » نجاحا كبيرا ، فقد صفق المشاهدون تصفيقا حارا ، وصاحوا بعبارات الاستحسان ، للزنجى الذى أسكرهم بغنائه ، وبهرهم برقصه • حقيقة كان رائعا ، ويبدو أن المشاهدين لم يدركوا بعد « الخط الجديد » فى مسألة الزنجى •

اعتقدت فى بادىء الأمر ، أننى أعيش فى « كاراجندا » فى آخر بقعة مهملة فى الكرة الأرضية • ولكنى شعرت بالتدريج أننى أعيش فى مدينة عالمية • فقد ظهر فيها أولا سكرتير عام الحزب الشيوعى الألمانى « فالتر أولبريخت » ، ثم قابلت الزنجى الوحيد الذى يعيش فى الاتحاد السوفييتى ، وبعد أيام قليلة ، وصل الى « كاراجندا » « أليكسى ستخانوف » المشهور ولكنه لم يعد عامل منجم منذ زمن بعيد ، بل عين مديرا لأحد مناجم الفحم الكبرى فى « كاراجندا » وأسند اليه القيام بعمل « تغيير جذرى » فى مواقد الفحم •

وأخيرا عندما كنت أتسكع فى الشوارع فى ربيع عام ١٩٤٢ ، رأيت فجأة شخصا يرتدى خرقا قديمة بالية ، يتجه نحوى • لم أصدق عينى هل يمكن أن يحدث هذا ؟ فقد كان « هوبرت » فى بلد العجائب •

تبدأ قصة « هوبرت لوستى » فى عام ١٩٣٤ م ، ففى ذلك الوقت ، كان غلاما صغيرا ، ابن احدى الأسر التى تعمل فى المناجم ، فى منطقة « الزار » ، حيث لم يفكر يوما فى أحلام اليقظة ، بما ستفعل به الأيام فى المستقبل •

وفى يناير ١٩٣٥ م جرى استفتاء شعبى فى منطقة « الزار » لمعرفة ما اذا كان شعب هذه المنطقة يريد الانضمام الى ألمانيا الهتلرية ، أو يبقى مستقلا تحت وصاية عصبة الأمم • وفى هذا الوقت أرسلت « برافدا » مراسلها السوفييتى المشهور « ميخائيل كولوسوف » الى هذه المنطقة ، حيث كان يوافيها يوميا بتقرير صحفى عن سير الأحداث هناك •

وذات يوم فكر « ميخائيل كولوسوف » فى تبنى طفل صغير ، ينحدر

من احدى الأسر التى تعمل فى المناجم ، فى منطقة « الزار » واسم هذا الطفل « هوبرت لوستى » .

سارعت الصحف السوفييتية باذاعة هذا الخبر ، ونشرت صور الطفل وكتبت كل كبيرة وصغيرة عن حياته .

عاد « ميخائيل » بعد انتهاء عملية الاستفتاء الى الاتحاد السوفييتى ، ومعه ابنه المتبنى « هوبرت » وعند وصول الغلام الى الاتحاد السوفييتى ، قوبل بترحاب حار ، ودعى الى احتفالات وموائد ، أقيمت خصيصا للترحيب به . ونشرت جميع الصحف صورته ، وكتبت المقالات عنه ، وكان اذا ظهر فى أى مكان ، يعلن الحاضرون على الملأ ، بأنه موجود بينهم ، وانتقل من احتفال الى آخر ، وكان يتعذر رؤيته أحيانا ، وهو يتصدر مائدة الاحتفال ، من كثرة الزهور التى أهديت له . ولم تكن أحواله فى البيت بأقل مما يحـــدث له فى المجتمع ، فهو يسكن فى منزل متبنيه « ميخائيل كولوسوف » الذى لم يكن له مركز ولا مكانة فى المجتمع فقط . بل كان يتمتع أيضا بنفوذ كبير ، فهو عضو فى الحزب منذ عام ١٩١٨ م ، وأحد العاملين فى« برافدا » منذ عام ١٩٢٠ م ، وأحد المستشارين فى الوزارة للشئون الخارجية ، وعضو هيئة رئاسة تحرير « برافدا » منذ عام ١٩٣٤ م ، وعلاوة على هذا فهو محرر جريدة « التمساح » الهزلية فى نقدهـــا .

وكان من السهل عليه أن يهيىء للغلام « هوبرت لوستى » الذى انحدر من أسرة ، حرفتها العمل فى المناجم ، حياة هنيئة . وكان مفهوما أن الغلام الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاث عشرة سنة ، كان مرتاحا فى حياته الجديدة .

كانت هذه بداية حياته ، وجمع كل ما حدث له فى الاتحاد السوفييتى بالتفصيل ، وأضيف اليه أيضا مدحه ، وثناؤه ، وأقواله التى عبر بها عن اعجابه بالاتحاد السوفييتى ، ثم ظهرت فى كتاب بعنوان « هوبرت فى بلد العجائب » .

تسابق الناس على قراءة هذا الكتاب ، فاشتهر « هوبرت » أكثر وأكثر ، دعى الى الكرملين ، واستقبله هناك المارشال « بودجونى » ، والمارشال « توخاتشيفسكى » وأطلق على الغلمان فى المسرحيات والأفلام اسم « هوبرت » ، حتى فى المظاهرات ، ومواكب الاحتفالات ، فقد حملت

صور الغلام الصغير « هوبرت » ذى الشعر الأحمر ، والخدود المتوردة التى ظهر النمش عليها • وأحس حقيقة أنه فى بلد العجائب •

ولكن سرعان ما انحدرت حياة « هوبرت » السعيدة الى قاع سحيق ، قبض على سنده الكبير « ميخائيل كولوسوف » فجأة بتهمة أنه « عدو الشعب » ، وبدأت حياة « هوبرت » بعد ذلك تهبط الى الظلام ، فاختفت صوره ، وتغيرت أسماء الغلمان فى المسرحيات والأفلام وسحب كتاب « هوبرت فى بلد العجائب » من جميع المكتبات ودور الكتب • ولم يعرف الغلام — الذى بلغ فى هذه الأثناء أربعة عشر عاما — ماذا يفعل ! لقد تعود على حياته كبطل شعبى صغير ، ومن الطبيعى أن يكون اجباره على التحول الى أن يعيش كغلام عادى ، أمرا بالغ الصعوبة بالنسبة له •

استطاع أن ينتقل الى بيت الأطفال رقم ٦ — الذى كنت أقيم فيه — عن طريق وساطة بعض الأصدقاء ، الذين لم يكن قد قبض عليهم بعد • فأصبح أحد نزلاء دارنا التى نقيم فيها • ثم تعود بالتدريج على حياته الجديدة وأنشأ صداقات مع بعض القاطنين فى البيت ، وكنت ضمن أصدقائه • وبعد سنة أو سنتين رضى بالخروج من وضعه كـ« هوبرت فى بلد العجائب » • والاندماج فى حياة عادية كـ« هوبرت لوستى » •

ولم يمض على تعوده على الحياة الجديدة فى بيت الأطفال سوى وقت قصير ، الا وأصيب بضربة جديدة فى أغسطس عام ١٩٣٩ م ، فقد صفى بيت الأطفال عقب عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية ، وكان هذا ضربة مؤلمة لنا جميعا ، ولكنها كانت أكثر ايلاما لـ« هوبرت » الذى لم يكد يتعود على الظروف الجديدة ، الا وقد أزيح خطوة أخرى الى الوراء •

حدث هذا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ونحن الآن فى ربيع عام ١٩٤٢ م ، أى لم أره منذ عامين ونصف ، ولم أعلم أيضا ماذا حدث له ؟ ويقف أمامى الآن ، فى ملابس ممزقة ، مهلهلة ، وعلى وجهه مظاهر الجوع والحرمان ، وبدا وكأنه متشرد •

ومن المحتمل أنى لم أبدو آنذاك فى وضع أحسن من حالة « هوبرت » التى أزعجتنى رؤيتها عندما بدت أمامى • تحدث معى — دون قصد — باللغة الروسية . فقلت له :

— « أنت لا تحتاج الى أن تتحدث معى باللغة الروسية ، تستطيع أن تتحدث باللغة الألمـانية » •

فضحك ، ولكنها كانت ضحكة حزينة ، ثم قال :

— « لم يعد من عادتى التحدث بالألمـانية ، فقد مضى وقت طويل ، لم أتحدث فيه مع أحد بالألمـانية » •

وعقب هذا مباشرة ، انقلب حديثه باللغة الروسية مرة ثانية ، وبدأ يحكى قصته •

لقد جئ به — مثل كل الألمـانيين — الى قسم الشرطة فى خريف عام ١٩٤١ م ورحل ضمن أول مجموعة ترحل الى منطقة « كاراجندا » ولم تكن حالته مثل الألمـانيين الذين رحلوا فى مجموعتنا ، فبينما استقروا فى مجموعات ، أرسل هو وحده الى قرية نائية فى منطقة « كاراجندا » ، وبدأ العمل فى اليوم التالى لوصوله مباشرة فى احدى المستعمرات :

— وماذا تعمل فى المستعمرة ؟

— أرعى المواشى •

نظرت اليه ، وقف أمامى قذرا ، مهلهل الثياب ، لغته روسية ، ولم يذكرنى بـ« هوبرت فى بلد العجائب » السابق ، سوى عينيه البراقتين ، والنمش الذى على وجهه •

ولكنه لم يشك لأحد من قسوة ظروفه ، بالضبط كما فعلت أنا ، فقد كان من الأمور المسلمة عندنا ، أن من الممكن فى الاتحاد السوفييتى ، انحدار المرء من أعلى القمم الى أسفل السافلين ، وبالعكس أيضا •

أردت أن أتحدث معه ، لأنى أحببت استطلاع ما عنده ، وللأسف لم تمكنى الظروف من ذلك ، فقد هز رأسه فجأة ، وقال :

« يا لطيف ! لا يجوز لى اطلاقا أن أتسامر وقتا طويلا ، فلقد أرسلت الى هنا لشراء بعض الحاجيات ، ولا يجوز لى التغيب عن المستعمرة الا بضع ساعات فقط ، فلو لم أعد فى الوقت المحدد ، لحدث ما لا يحمد عقباه » •

فهمت وضعه ، ثم ودعته •

شيعت بنظرات الحسرة صديقى من بيت الأطفال رقم ٦ ، البطل السوفييتى السابق ، وراعى المواشى بثيابه المهلهلة حاليا • زائر الكرملين فيما مضى من الزمن ، والخائف الآن من قومندان احدى المستعمرات الصغيرة •

حاولت مرارا الاتصال به فيما بعد ، ولكن دون جدوى ، فقد اختفى « هوبرت فى بلد العجائب » ولم يظهر حتى الآن .

* * *

التلغراف الغامض

مكثت فى معهد « كاراجندا » للمعلمين نصف عام ، ثم بدأت فى مواصلة رحلتى المقررة فى آخر مايو سنة ١٩٤٢ ، الى « ألمــا — أتا » لألتحق بالمعهد الذى هجر الى هناك .

لو كنت أعلم ما سأعانيه ، ما أقدمت على السفر : ٥٠٠ كيلو متر سفر بالقطار عبر المنطقة الجرداء « جولودنايا ستيب » الى « بالخاش » ، تلك المدينة الجديدة التى توجد بالقرب من مناجم النحاس السوفييتية ، وسفر بالمركب فى بحيرة « بالخاش » حيث شطحت المركب فى صخور رملية ، ونفذ ما معنا من طعام ، فأشرفت على الهلاك من شدة الجوع ، الى أن استطعنا الوصول أخيرا الى « كاراشاجان » وهى منطقة صغيرة على الشاطىء الشرقى لبحيرة « بالخاش » ، ثم رحلة فى جو شديد الحرارة فى سيارة نقل مكتظة بالراكبين عبر صحارى « زارى اشيك أوتراوى » الى « ليبسى » وهى محطة عند « توركزيب » ، وهى تبعد عن الحدود الصينية بمائة كيلومتر ، حتى وصلت الى « ألمــا — أتا » بعد سفر عشرة أيام ، حيث علمت أن المعهد امتلأ بالطلاب ، وليس فيه مكان لدارس جديد ، وقد قفل باب تقديم الطلبات .

وبدأت سفرا آخر من « ألمــا — أتا » متجها هذه المرة شمالا الى « نوفوزيبرسك » حيث اضطررت مع آلاف من المسافرين أن نقيم أياما على رصيف المحطة كالبهائم فى الحظائر . ولم أكن أتناول سوى ٣٠٠ جرام من الخبز المبلول يوميا ، حتى استطعت مواصلة السفر الى « بيتروبافلو » ومن هناك واصلت السفر لمدة ٣٣ يوما حتى وصلت مرة أخرى الى « كاراجندا » .

لم أصل الى هدفى ، ومع ذلك لم أندم على السفر عبر « كازاخستان » و « سيبيريا » فى وقت الحرب ، فقد رأيت فى هذه الشــهور أشياء كثيرة فى الاتحاد السوفييتى ، وتعلمت أكثر مما تعلمته فى سنوات عديدة فى موسكو .

فقد حولت هذه الرحلة كثيرا مما كنت أظنه الى حقيقة ، وأكدت بعض المعلومات عندى . رأيت المصانع الكبيرة الضخمة ، التى تحولت

بواسطتها من بلد زراعى متخلف الى بلد صناعى ، ولكنى رأيت فى نفس الوقت أنه لم يعمل شىء لهؤلاء الذين يعملون فى هذه المصانع وما قدم لهم من خدمات ، فهو ضئيل جدا •

ورأيت مرة أخرى الفرق الشاسع بين الطبقة الممتازة من مديرين واداريين ومهندسين وبين العمال العاديين •

لقد أعجبت بالخط الحديدى الضخم من « تركستان » الى « سيبيريا » ، وفى الوقت نفسه شاهدت أثناء الحرب بؤس الشعب الذى يعجز القلم عن وصفه •

حاولت الدعاية السوفييتية — ولا زالت — اقناع الشعب بأن فقره وجوعه — أثناء الحرب — نتيجة للنظام النازى ، الذى شن حربا على الاتحاد السوفييتى ، فبدد جهوده للقضاء على حرمان الشعب السوفييتى ، بينما الوضع بالعكس فيما جاء فى بعض تحليلات الأسرى الألمانيين ، فقد نسبوا فقر هذا الشعب الى طبيعة النظام السوفييتى ، وهو موجود وسيظل ولو لم تشن حرب على هذه الدولة •

ظهر لى أن غالبية السكان من الطبقة المتوسطة ، غير أنه مما لاشك فيه أن حالة الحرب رفعت نسبة البؤس بين طبقات الشعب ، ولكن كانت حياة الناس من قبل الحرب سيئة أيضا ، لأن جزءا قليلا من جهود الدولة كان لتقديم الخدمات الى الطبقة العاملة ، والتركيز كله كان موجها الى بناء الصناعات الثقيلة ، والى تسهيل العيش اللين الرغد ، للزعماء ، وكبار الدولة ، وهى طبقة صغيرة فى عددها بالنسبة الى تعداد السكان •

ومما لا شك فيه ، أنه يوجد أيضا — كما فى كل بلد — أناس أنانيون ، وحشيون ، ولكن تحملت الغالبية قدرها بشجاعة ، وساعدت البؤساء • تعرفت أثناء هذه الرحلة على سكان الاتحاد السوفييتى أكثر من ذى قبل ، وقدرتهم ، واحترمتهم ، ومن الضرورى أن أؤكد هذا الآن ، لأن كثيرا من الغربيين ، الذين يعارضون النظام الحاكم فى الاتحاد السوفييتى • يحملون الشعب السوفييتى تبعة قيامه • وأهز رأسى دائما مستنكرا ، اذا قابلت شخصا ، ينظر الى « الروسيين » نظرة احتقار ، لأن بعضهم وقف عاجزا أمام منجزات الحضارة الغربية •

وواضح أنهم ينسون أن هؤلاء الناس ليسوا أقل قيمة من الناس فى الغرب •

عدت الى « كاراجندا » فى نهاية يونيو سنة ١٩٤٣ • الى أين ينبغى أن أذهب الآن ؟ الى معهد المعلمين ؟ لقد سحبت أوراقى منه •

وهكذا قررت أن أذهب أولا الى أصدقائى فى اللجنة المحلية لـ « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » • اندهشت سكرتيرة الرابطة لرؤيتى مرة أخرى ، ثم قالت :

— « الآن ! لم تنجح فى « ألمـا — أتا » أيها الرفيق « ليونهارد » ؟

فأومأت برأسى

— « هل تريد البقاء فى « كاراجندا » ؟

— « نعم ! فأنا أعتقد أن البقاء هنا أحسن » •

— « جئت فى الوقت المناسب ! لقد ووفق لنا على انشاء وظيفة جديدة ألا وهى مشرف للرابطة فى « كاراجندا » ، وسيكون مجال عمل من يعين فيها : اللاجئين السياسيين • واقترحت تعيينك فيها ، وللأسف كنت قد سافرت • ولهذا سأرفع الاقتراح بتعيينك حالا الى اللجنة المحلية للحزب » •

كنت قد سرحت فى رحلتى التى قمت بهـا ، فكنت أرى أمامى « بالخاش » ومناظر الجوع على المركب ، والمرور بعد ذلك عبر صحارى « كاراشاجان » ، والسفر الى « ليبسى » ، ومشاهد اليأس والقنوط فى مكاتب المدينة الجميلة « ألمـا — أتا » و « توركزيب » والأيام على محطة « نوفوزيبرسك » فلم أعط جوابا لسكرتيرة الرابطة ، ولكنها فسرت صمتى تفسيرا سيئا ، فقد اعتقدت أنى متردد ، فأردفت تقول :

« سوف تناقش معى — بصفتك مشرفا — كل شىء هنا ، وتنوب عنى هنا فى حالة قيامى بمهمات خارجية ، والمرتب « ٥٠٠ روبل » شهريا وسنبحث لك عن مسكن مناسب » •

وأدركت الآن فقط ما يعرض على ، فوافقت • وتلقيت الجواب فى اليوم التالى :

« وافقت اللجنة المحلية للحزب على تعيينك ، والسكن جاهز لك » •

وسرت مع من يصحبنى الى السكن فى شارع « اعلان لينين » حتى وقفنا أمام منزل جديد وجميل من أربعة طوابق •

— « هنا مسكنك » •

دلفت الى مطبخ كبير ، يبدو أنه أعد ليستعمله المؤجر حجرة من

الباطن ، وبجانب المطبخ الخاص حجرة متوسطة ، تسع سريرا وكرسيا ، ودولابا صغيرا • ثم قيل لى : « ان هذه الحجرة سوف تؤسس اليوم » فكدت أن أطير من الفرح •

لم أسكن فى حجرة منفردا ، منذ أن جئت الى الاتحاد السوفييتى حتى الآن ، فقد كنا فى مساكن الطلبة فى موسكو ، اثنين أو ثلاثة فى الحجرة وفى معهد المعلمين فى « كاراجندا » كنا عشرين فى حجرة واحدة ، وفى رحلتى كنت أفرح ، لو وجدت مكانا صغيرا بين الجموع المحتشدة فى أمكنة الايواء ، والآن أصبحت لى وحدى حجرة بمطبخها •

بدأت عملى بعد يومين كمشرف فى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » فى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » •

— « والآن أيها الرفيق « ليونهارد » ! هاهو ذا مكتبك ، هو صغير ، ولكنه يكفى • لقد وضعت لك عليه كل الأشياء التى يمكن أن تتصفحها » •

— « لم أعلم بالضبط ، ما هو نوع العمل الذى سأقوم به على وجه التحديد » ؟

— « مطلوب منك الاهتمام بالألمانيين اللاجئين سياسيا ، الذين يقيمون فى منطقة « كاراجندا » •

ثم أعطتنى قائمة بأسماء ٥٨ لاجئا ألمانيا ، وكتبت أمام كل اسم : السن ، ومكان الميلاد ، وعنوان العمل السابق • وأخذت بالاضافة الى ذلك محفظة للأوراق مثبت فيها صور مكاتبات ومستندات •

— « سيكون من واجباتك تلقى مكاتبات اللاجئين الألمانيين والرد عليها ، ويجب عليك أن تقدم اقتراحات لسد الحاجات التى تنقصهم فى حدود الامكانيات المتاحة لنا ، فاذا احتجت الى مراسلة جهات رسمية فاكتب الخطاب ثم قدمه الى لأوقعه ، وبجانب ردك على المكاتبات ، فأقترح أن تقوم برحلات فى منطقة « كاراجندا » لتزور الرفقاء فى أماكن اقامتهم • وفى هذه الحالة يجب عليك فى نفس الوقت زيارة منظمة الرابطة فى المنطقة التى تزورها ، واذا حصلنا على مواد غذائية ، وصابون ، وأقمشة فسوف تتولى توزيعها على الألمانيين اللاجئين ، المكلف برعايتهم ، لأن مطالبهم الضرورية ، لها الاعتبار الأول عندنا » •

انطلقت الى عملى الجديد بحماس ، تصفحت الأوراق ، ثم وضعت

خطة لزيارة الرفقاء ، منطقة بعد أخرى ، ولكن للأسف لم يكن هناك فى هذا الوقت شىء لتوزيعه عليهم ، ولكنى أردت بعد القيام بزياراتى وضع قائمة بالأشياء الضرورية للاجئين كى أساعدهم فى الحصول على ما هو ضرورى جدا •

مرت الأيام بسرعة ، كنت أفكر دائما فى مؤتمر اللاجئين الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، فسعيت جاهدا لعمل كل ما يمكن لمساعدة الرفقاء • وكنت مرتاحا جدا ، لا لأنى أقوم بعمل ما ، ولكن لأنى أقوم بعمل ، يبدو لى أنه ضرورى جدا • فلو كنت أنظر الى « كاراجندا » ، حتى الآن ، على أنها محل اقامة مؤقتة لى ، فانى أتمنى فى هذه اللحظة أن تطول هذه الاقامة •

ولكن طرأت حوادث بعد ذلك بوقت قصير ، قلبت مشاريعى رأسا على عقب ، فبعد ثلاثة أسابيع من تعيينى مشرفا فى « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » توجهت الى مقر العمل ذات يوم صيفى مشمس وأنا خالى الذهن تماما • ولم أكد أدخل حتى ناولتنى سكرتيرة الرابطة تلغرافا قائلة :

« هذا لك » •

قرأت : « ينبغى على الرفيق « ليونهارد » الحضور الى « أوفا » » فورا •• » • « فيلكوف »

« أوفا » ؟ •• أنا أعلم أن « أوفا » عاصمة جمهورية « بشكير » السوفييتية المتمتعة بالحكم الذاتى ، وتقع على بعد ٣٠٠٠ كيلو متر غربى « كاراجندا » •

اذن •• يجب على مرة ثانية القيام برحلة طويلة •

« أوفا » ؟ فهذه هى المدينة التى يوجد فيها قيادة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ورئاسة اللاجئين من أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى •

وبعد دقائق طلب التليفون سكرتيرة الرابطة ، ولكن الحديث كان قصيرا •

« ينبغى عليك الذهاب فورا الى قسم التدريب العسكرى فى اللجنة المحلية للحزب » •

ومرة أخرى — كما فى نوفمبر سنة ١٩٤١ — ذرعت مقر اللجنة المحلية باحثا عمن طلبنى ثم حط بى الرحال عند سكرتيرة الحزب لشئون التدريب •

— « اسمى « فولفجانج ليونهارد » استدعيت للحضور الى هنا قبل دقائق » •

نظرت الى نظرة قصيرة متفحصة ، ثم قالت بلهجة حادة :

« جاءنا تلغراف من « أوفا » يطلب سفرك الى هناك فورا فاذا وصلت فتوجه الى اللجنة المحلية لـ« رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ومن هناك ستتوجه الى الجهة التى طلبتك • ومن الأفضل الاسراع بالسفر ما أمكن ، وسوف تحصل غدا على التذكرة ومصاريف السفر من هنا » •

كان هذا كل ما فى الموضوع •

لم تذكر هى الأخرى كلمة واحدة عن سبب السفر المفاجىء الى « أوفا » ، ولا عرفتنى من هو « فيلكوف » ومن الطبيعى أنى أعلم ، أنه لا يجوز السؤال عن مثل هذه الأشياء •

كان من الممكن أن أفرح كثيرا ، لو استدعيت الى « أوفا » قبل أربعة أسابيع • وأنا مسرور أيضا بهذا الاستدعاء ، ولكن السرور تبخر ، فقد حصلت على عمل ، ومسكن ، وصار لى أصدقاء • ويجب الآن ترك كل هذا — وبالذات الآن ، حيث اندمجت فى الحياة هنا اندماجا كليا • ولكن لا ينفع شىء الآن ، فقد تربيت على المحافظة على النظام ، وتنفيذ الأوامر بدقة ، وأنا مكلف الآن بالسفر الى « أوفا » بأسرع ما يمكن •

واليوم أعلم ، أنه تم تنفيذ تغيير حياتى فى تلك الأيام تغييرا جذريا ، فقد أتيح لى التعرف على الاتحاد السوفييتى من زاوية جديدة ، مختلفة تمام الاختلاف عن موقفى السابق ، بالنسبة للتعرف على مجرى الأمور فى هذا البلد ، اذ دخلت آنذاك فى طبقة الأعضاء القياديين فى الحزب •

لم يكن واضحا لى آنذاك ماذا يعنى هذا التغيير ، ثم بدأت أشعر فيما بعد أننى تخلصت من كل المتاعب السابقة ، وتذلل أمامى كل عقبة تعترض سبيلى ، فلا نوم على رصيف محطات السكك الحديدية ، ولا صراع للحصول على تصريح اقامة ، ولا جرى بين المكاتب ، ولا جوع • ولكن ينبغى أن أدرك فى الوقت نفسه ، أن جو هذه الطبقة له ظلال أيضا ، أعنى الرقابة المستمرة ، والرقابة الذاتية ، وهذا لم يكن موجودا فى

حياتى السابقة التى عشتها كانسان عادى فى الاتحاد السوفييتى ، كنت فيها حرا تقريبا .

تحرك القطار من « كاراجندا » فى وقت متأخر من بعد الظهر ، وسافرت مرة أخرى عبر الصحارى الـ« كازاخستانية » التى أراها لآخر مرة . اتجهنا الى الشمال حتى « بيتربافلوفسك » ، ومن هناك نحو الغرب الى « أوفا » .

كانت نفس الطريق ، التى قطعتها فى نوفمبر سنة ١٩٤١ تحت الحراسة كمرحل ترحيلا اجباريا ، الا أن القطار يسير الآن فى الاتجاه المعاكس . وكان بالنسبة لى أكثر من تغيير جغرافى لاتجاه معاكس ، وصلت الى « أوفا » حيث توجد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .



الباب الخامس

فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

انتقلت الجبهة من موسكو الى « أوفا » فى خريف عام ١٩٤١ م • وتقع « أوفا » ــ عاصمة جمهورية « البشكيريين » المتمتعة بالحكم الذاتى ــ على بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريبا من موسكو •

وهى ليست من « المدن الأولى » التى إستوطنها المهاجرون ، فقد هاجرت الدوائر الحكومية والهيئات الدبلوماسية الى « كويبيشيف » عند « الفولجا » ، ونقل جزء كبير من المصانع من غرب روسيا الى « نوفوزيبيرسك » والى « كويبيشيف » فأصبحتا أثناء الحرب مركزا صناعيا هاما • ونقل قلم محفوظات العلوم الهامة ، واللوحات الفنية ، ذات القيمة الكبيرة ، وموجودات المتاحف فى بداية الحر بالى « تومسك » وكانت « ألما ــ أتا » و « طشقند » مركز المهاجرين من الفنانين والعلماء • وعلى العكس ، فقد ظلت « أوفا » على الهامش ، وربما كان هذا هو السبب فى هجرة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية اليها ، فقد فقدت الجبهة كثيرا من نفوذها وأهميتها فى الشهور الأولى للحرب ، عندما زحفت قوات الجيش الألمانى ، حتى وصلت « ليننجراد » ، وطوقت موسكو ، واحتلت الجزء الأكبر من « أوكرانيا » •

ولكن تغير وضعها فى أوائل عام ١٩٤٢ م ، فقد ردت القوات الألمانية عن موسكو ، فتراجعت الى الوراء ، ووقفت عاجزة أمام « ليننجراد » ، فكان هذا فترة تنفس للاتحاد السوفييتى ، سمحت له ، لا بتجنيد وتدريب قوات جديدة فحسب ، بل لتوجيه جهود مكثفة فى المجال السياسى أيضا • ولعب النشاط السياسى دورا كبيرا فى معسكرات الأسرى •

فقد عقدت فعلا اجتماعات فى نهاية عام ١٩٤١ فى معسكرات أسرى الحرب الذين أبدوا استعدادهم ــ عدد كبير منهم عن اقتناع حقيقى ، غير أنه أحيانا كان مجرد مجاراة للموقف ــ للتوقيع على النداءات ،

التي كانت موجهة الى الشعب الألمـــانى ضد هتلر (١) •

اشترك أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى العمل السياسى فى معسكرات الأسرى ، وقاموا بدور لا بأس به • اذن ، لم تهمل الجبهة منذ بداية الحرب ، فتشل عن العمل كلية ، بل بالعكس ، فقد أسند اليها واجبات منذ بداية عام ١٩٤٢ م •

جند لهذا العمل كثير من اللاجئين الذين كانوا قد رحلوا اجباريا فى خريف عام ١٩٤١ م كـ« أجانب غير موثوق فى ولائهم » •

لم يكن هذا واضحا لى ، عندما وصلت فى يوليو سنة ١٩٤٣ الى « أوفـــا » ، وظهر لى وجه المدينة كوجوه كل المدن السوفييتية أثناء الحرب :

الازدحام الشديد فى المحطات • جمهور الشعب ياد عليه التعب ، والانهاك ، والجوع • مهاجرون بؤساء •

* * *

« أوفـــا » مدينة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

تتكمن ورقة صــغيرة — يتعلق بها كل شىء — فى جيبى الخلفى الداخلى ، المغلق بدبوس حتى لا تسقط فتضيع ، ويضيع معها كل شىء الآن ، ففيها عنوان اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى

---

(١) من بين النداءات الهامة ، التى وجهها أسرى الحرب فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٤٢ م اعلان المؤتمر الأول الذى أصدره ٥٧٦ أسيرا رومانيا (٣٥ يناير) ، وموافقة ١٧٦ أسيرا ألمـــانيا على بيان الـ ١٨٥ (١٣ فبراير) ، ونداء من الأسرى الفنلنديين الى الشعب والجيش الفنلندى (١٨ فبراير) ، وقرارات المؤتمر الأول للأسرى المجريين (٢٢ نوفمبر) ، ونداء من ٨٦ أسيرا نمســاويا الى الشعب النمســاوى والى جنود الجيش الألمـــانى (٢٧ مارس) ، وموافقة من ١٣٩٣ أسيرا رومانيا على نداء الـ ٨٧٦ (٢٩ ابريل) •

وتتبع ذلك فيما بعد احتجاج من ١١٥ أسيرا ألمـــانيا ضد الأعمال المشينة التى ترتكبها القوات الألمـــانية فى المناطق المحتلة فى الاتحاد السوفييتى (٤ يونيو) ، ونداء من ١٦١ أسيرا ايطاليا فى معسكر ٩٩ الى جنود الحملة على الاتحاد السوفييتى ، والى كل الجنود فى الجيش الايطالى (٢٥ يونيو ١٩٤٢ م) •

لحماية المناضلين من أجل الثورة » تلك الهيئة التى ينبغى التوجه اليها أولا •

وبعد نصف ساعة تقريبا ، وجدت المبنى المكتوب على واجهتـه اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ••• نظرت الى احدى السكرتيرات نظرة ارتياب وشك • اذ يبدو أن هيئتى ، بعد سنة فى « كازاخستان » كانت تدعو الى الارتياب •

ــ « أنا آت من « كاراجندا » بناء على استدعاء من هنا ، وأريد تبليغ الرفيق رئيس المنظمة بحضورى » •

تغيرت نظرة السكرتيرة الى احترام وتقدير ، ويبدو أنى لم أكن أول من استدعى من « كاراجندا » أو من « سيبيريا » •

ــ « نعم أيها الرفيق ! انتظر لحظة من فضلك ! » •

وبعد نصف ساعة ، مثلت أمام رئيس اللجنة المركزية للرابطة فوجدت أمامه على المكتب بعض الأوراق ، من المحتمل أنها تقارير عنى • نظر الى ، ثم الى الأوراق الموضوعة أمامه ، التى كتب فيهـا شىء عن حياتى السابقة • ورغم هذا فقد طلب منى الادلاء باسمى ، ومحل ميلادى ، وتاريخ الميلاد ، وتاريخ دخولى الاتحاد السوفييتى ، وتاريخ التحاقى بمنظمة الشباب •

ثم سألنى فجأة :

« كيف سارت معك الأيام فى « كازاخستان » ؟

فأجبت دون تردد :

« جيد جـدا ، فقد اعترضتنى بعض الصعاب فى الأسابيع الأولى ، ولكنى بدأت دراستى فعلا فى نوفمبر ، والحياة فى « كاراجندا » مشوقة جدا ، ولقد تعلمت أشياء كثيرة » •

قلت الحقيقة ، فلقد تربيت على ملاحظة الجانب الحسن فى الاتحاد السوفييتى ، ونسيان الجانب السىء ، وتمكنت هذه العادة منى تمكن دمى ولحمى • ــ فلم يزل فى ذاكرتى حتى الآن ، أن الحياة فى « كاراجندا » كانت جميلة ومفيدة •

يبدو أن الاجابة قد أعجبته ، فسألنى والسرور يعلو قسمات وجهه :

ــ « حسنا ! أنت أول من يقول هذا ، فنحن لا نسـمع سوى

الشكوى • انه لجميل حقا ، اذا نظر المرء الى الأمور نظرة تفاؤل » •

ثم بدت علامات الجد على وجهه ، فشعرت أننا دخلنا فى الموضوع :

« أيها الرفيق « ليونهارد » ، لقد استدعتك الى هنا جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ونحن هنا مكان الاستقبال » •

ثم أخذ ورقة ، وكتب عليها اسما وعنوانا ثم ناولها لى فقرأت عليها : « أليزا لينينا — ٧ فيلكوف » •

— « الجبهة الآن فى مقر الجوالة السابق ، فاذا لم تعثر عليه بسرعة ، فتستطيع أن تسأل عن « منزل الجوالة » فكل واحد فى « أوفا » يعرفه » •

انتصب قائما ، فانتهت المقابلة ، ثم أخذت طريقى الى هناك مباشرة • كنت مشدود الأعصاب بشكل لا يتصور ، فلا زلت جاهلا كل شيء عن « فيلكوف » ، من يكون ؟ ولكن يبدو مؤكدا أن له نفوذا كبيرا ، لأنه استطاع أن يستدعى لاجئا ألمـانيا منفيا ، من « كازاخستان » ، ويزيح من أمامه كل حواجز الطرق ، حتى يصل الى « أوفا » •

وفى الطريق من « رابطـة التنظيـم العـالمى لحمايـة المناضلين من أجـل الثـورة » الى « فيـلكوف » الكبير ، المجهـول ، دارت بذهنى أفكار مختلفة ، هل سأكلف بعمل سياسى ؟ ربما فى الاذاعة أو فى معسكر أسرى الحرب ؟ ولكن لو كان هذا هو السبب ، لاستطاعوا شرحه لى فى خطاب • من المحتمل — هكذا ظننت — أن الأمر يتعلق باستدعاء للخدمة العسكرية ، وربما يكون القصد تكوين فرقة عالمية ؟

وفى أثناء هذا وصلت الى المبنى المكتوب عنوانه على الورقة ، لقد كان بالنسبة الى « أوفا » مبنى ضخما ، أقيم على ذلك النمط ، الذى كان طابعا خاصا لقصور الجوالة ، التى أقيمت فى بداية الثلاثينات •

كانت هناك حديقة صغيرة أمام المنزل ، وتنتصب عمد ضخمة فى مدخله ، وغطيت بوابته الكبرى بطبقة من المعدن ، ولا توجد يافطة عليه ، وليس هناك شيء على واجهته ، يشير الى أن اللجنة المركزية لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية موجودة هنا •

دخلت متهيبا ، فقابلت فى الصالة أحد أصدقائى القدامى ، الذين كانوا معى فى بيت الأطفال رقم ٦ ، وهو « أرنست آبلت » ابن أحد الأعضاء القياديين فى الحزب الشيوعى •

اندفعت اليه :

ـ« أرنست ! ماذا تعمل هنا » ؟

ـ « أردت أن أوجه اليك نفس السؤال » •

حكيت له باختصار عن ترحيلى الاجبارى الى « كاراجندا » ثم والتلغراف المفاجىء باستدعائى الى « آوفا » •

بدا لى أن « أرنست آبلت » يعرف أشياء أكثر ، ربما أستطيع أن أستعلم منه عن بعض الأشياء :

ـ « أخبرنى ! من يكون « فيلكوف » هذا » ؟

نظر الى مستغربا :

ـ« انسان ! ألا تعرفــه ؟ « فيلكوف » : هو الرئيس العسكرى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

ـ « نعم ! علام يدل استدعائى المفاجىء الى « أوفا » ؟ هل سأجند فى جيش خاص ؟ والا ! فعلام يدل هذا » ؟

ـ « جيش ؟ لا ! أنا لا أعتقد ذلك • من المحتمل أن تلتحق بمدرسة ، اذ يوجد هنا عدد كبير ، وربما تلتحق بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ••• وهى الأحسن » •

وفجأة صاح صوت بلهجة نمساوية :

ـ« أرنست آبلت » ! تعال ! انهم فى انتظارك » •

فودعنى « أرنست آبلت » ومضى ، كان من الممكن أن أحصل منه على معلومات أكثر ، لو لم يستدعيه صاحب هذا الصوت •

عندما أخبرت سكرتيرة « فيلكوف » بوصولى ، بادرت بالسؤال — مباشرة عقب تقديم نفسى لها — عما اذا كنت جائعا ؟ تعجبت ! اذ لم يسألنى أحد مثل هذا السؤال منذ عام • ودون أن تنتظر جوابا منى ، أعطتنى تذكرة صغيرة •

وقفت مندهشا فى الدور الأرضى أمام عتبة صالة مطعم جميل • ولم أكد أجلس حتى أسرعت الى احدى الخادمات ، فتناولت التذكرة الصغيرة منى ، ثم أحضرت شوربة ، وخبزا أبيض ، وكمية كبيرة من الطعام واللحم ، وأخيرا حلويات •

كانت هذه أول وجبة ، يقدم لى فيها أصناف متعددة منذ بدء الحرب • وبعد انتهائى من تناول الطعام ، أسندت ظهرى على مسند المقعد ، فشعرت بارتياح ، لم أشعر به منذ مدة طويلة •

جاءت الخادمة مرة أخرى ، وقالت :

— « هل تريد شيئا آخر » ؟

فقدت كلمات اللغة من هول المفاجأة ، فى أثناء الحرب ؟ وبعد هذه الأصناف المتعددة من الطعام ؟ •• ثم سألتها :

— « هل يجوز طلب شىء آخر » ؟

— « نعم ! طبعا ! تذهب ببساطة الى المحصلة ، وتطلب منها تذكرة أخرى ، وفى هذه الأثناء أكون قد انتهيت من اعداد الصينية الثانية لك » •

أعطتنى المحصلة تذكرة ثانية ، دون ابداء أى ملاحظة ، ثم سألتنى مبتسمة : « هل جئت أيضا من « كازاخستان » ؟ •

وبعد الانتهاء من الأكل ، ذهبت الى حجرة السكرتيرة ، فانتظرت بضع دقائق حتى موعد مقابلتى « فيلكوف » • رأيته رجلا طويلا ، تظهر علامات الجد والحزم على وجهه ، كان الحديث قصيرا ، بدأ أولا بالأسئلة العادية ، التى أجبت عليها بسرعة ، ومنها علمت أنه يعرف كل شىء عنى ، وبالتالى عرف هو ، أنى أدرك أن كل ما يتعلق بى أمامه على الورق • ثم قال « فيلكوف » ضاغطا على مخارج الحروف :

« نحن فكرنا فى اعطائك فرصة التعليم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وسيسافر بعض الرفقاء فى الأيام التالية • ونرى أن من الأصوب أن تمر على السكرتيرة كل يوم ، فسوف تخبرك بموعد السفر ، وستقيم فى هذه الأثناء فى « أوفا » • وستدبر السكرتيرة سكنا لك » •

فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ لا أستطيع أن أصدق هـــذا !

ولم أدرك الا بعد خروجى ، أن « فيلكوف » لم يقل لى : أين مقر المدرسة ؟ ولم يزعجنى آنذاك أننى لم أعرف الا الخطوط الرئيسية ، فقد أدركت بمرور الوقت أن ذلك لم يرجع لطبيعـــة « فيلـــكوف » الشخصية ، بل كان ذلك طابع نظام « البيروقراطية » السوفييتية • قالت السكرتيرة :

« أيها الرفيق « ليونهارد » ! هاهو ذا عنوان سكنك المؤقت ، وسوف يوصلك الآن الرفيق السائق الى هناك ، ويحضرك من سكنك الى هنا كل يوم فى تمام الساعة العاشرة صباحا ، وسأخبرك بميعاد السفر ، عندما يحين الوقت » •

وأثناء نزولى على السلم ، فكرت فى الكفاح الطويل المرير ، الذى قمت به فى « كاراجندا » للحصول على تصريح الاقامة ، حتى يصبح لى الحق فى الاقامة فى مسكن الطلبة • كيف تسير الأمور هنا بهذه الليونة والسرعة ! كنت مندهشا •

خرجت من الباب ولا زلت فى ذهول ، بل اشتد ذهولى ، فالعربة واقفة على استعداد لتوصيلى ، وأى نوع من العربات ! ليست العربة العادية (Emmotschaka) (هكذا يسمون فى الاتحاد السوفييتى العربة الصغيرة (M-I) ، التى يستعملها أعضاء الطبقة المتوسطة فى قيادة الحزب) بل العربة الكبيرة الجميلة (S I S) عربة القياديين من أعضاء الحزب البارزين • فتح السائق الباب ، وسألنى عن العنوان ، ثم انطلق •

وبعد عشر دقائق ، وقفنا أمام مبنى جميل وجديد ، لم يوجد اسم واحد على أى باب من أبواب الشقق ، بل أرقام فقط • وجدت مسكنى فى الطابق الثانى ، ضغطت على الجرس ، ولم أصدق عينى ، اذ تقف أمامى « جريتى لوبرباور » فتاة نمساوية ، كانت معنا فى بيت الأطفال رقم ٦ ، ولم أرها منذ أكثر من عامين •

— « نهارك سعيد يا « جريتى » انه لرائع حقا ، أن أراك مرة أخرى » •

— « نهارك سعيد » •

قالتها بعدم اكتراث ، فغاصت فرحتى ، ثم بدأت أقص لها عن « كازاخستان » وما فعلته فى هذه الساعات القليلة فى « أوفا » •

وفى هذه الأثناء ، انضم الينا نمساوى آخر من رابطة الدفاع ، حياتى دون أن يذكر اسمه ، ثم قادنى الى الحجرة • كان فى كل حجرة سرير ، وخوان صغير بجانبه • هذا هو كل الأثاث فى كل الحجرات ، وظهر لى أن هذا المسكن مؤثث فقط للرفقاء الذين يضطرون للاقامة فى « أوفا » وقتا قصيرا •

عاودت سرد قصتى مرة أخرى ، ولكن « جريتى لوبرباور » التى عرفتها فتاة مرحة ، ظلت صامتة ، تومىء برأسها فقط بين الحين والآخر • بدأت أدرك فى هذه اللحظة ، فقلت لها :

« الآن ! ماذا فعلت بك الأيام ؟ وماذا تعملين ؟ وما هى مشروعاتك فى المستقبل » ؟

ظلت صامتة ، ثم قالت محاولة التهرب من الاجابة :

ــ « لا أعرف بالضبط » •

ثم عاد النمساوى مرة ثانية ، وقالت لى بلهجة صارمة :

ــ « لا ينبغى أن تتحدث كثيرا » •

فأمسكت عن الكلام خجلا •

كان لقائى بعد قضاء مدة طويلة فى « كازاخستان » مفرحا ، ولكن سرعان ما أصبت بخيبة أمل ، فالشاب « آبليت » لم يمكث معى سوى بضع دقائق ، وتركنى مسرعا الى من دعاه ، والفتاة المرحة « جريتى » تابلتنى ببرود • وصمت عن الكلام •

تأسفت جدا ، الى أن فهمت أن الحياة الحالية لأصدقائى تختلف عن أسلوب حياتى الماضية حتى الآن • ومما لا شك فيه ــ هكذا علمت بصفتى طالبا ، وعضو فى منظمة الشباب ــ أن هناك كثيرا من المجالات ، لا يجوز الحديث عنها ، ولكن ــ على الأقل ــ استطعت أن أتحدث عن كل شىء خارج عن المواضيع المحرم الحديث فيها •

ولكنى أدركت شيئا فشيئا ، أن هناك مقاييس أخرى • ربما تكون المجالات المحرم الحديث فيها أكثر اتساعا هنا •

يمكن للمرء أن يصف « أوفا » فى ذلك الوقت بأنها « مدينة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » ، فقد كانت الجبهة هى المنظمة الكبرى الوحيدة التى هاجرت اليها •

استولى زعماء الجبهة على فندق (Baschkirija) وهو أكبر وأحدث فندق فى المدينة ، ففيه يقيم « دولوريس اباروری » ، سكرتير عام الحزب الشيوعى الأسبانى ، و « فيلهلم بيك » ، و « فالتر أولبريخت » من زعماء الحزب الشيوعى الألمانى ، و « كوبلينيج » و « فورنبيرج » و « فيشر » من زعماء الحزب الشيوعى النمساوى ، و « اندريه مارتى » الذى كان لايزال فى القمة آنذاك ، و « آنا بانكر » التى كانت فى ذلك الوقت زعيمة الحزب الشيوعى الرومانى ، كذلك « مانويلسكى » و « فيلكوف » من الحزب الروسى ، وكانا يتوليان القيادة العامة للقسم السياسى والادارى فى هذه الجبهة •

ونادرا ما كان يحضر « ديمتروف » ــ الذى كان آنذاك السكرتير العام للجبهة ــ الى « أوفا » لزيارة قصيرة • وكان زعماء الجبهة

الآخرون فى رحلات مستمرة ، مرة الى « كويبيشيف » ، حيث توجد الهيئات الحكومية ، والاذاعة ، وأخرى الى مدارس الحزب المنتشرة فى كل أجزاء الدولة ، وثالثة الى معسكرات أسرى الحرب ، حيث ينظمون الاجتماعات ، وينفذون البرنامج المرسوم لهم ، للاستفادة من الأسرى فى الدعاية ، وللتأثير عليهم أيديولوجيا •

وأخلى بجانب فندق (Baschkirija) الذى كان قصر الجواله سابقا ، ثم اتخذ مقرا للجبهة حاليا — مبنيان كبيران آخران للجبهة ، وهما أضخم مبنيان فى « أوفا » واستخدم مبنى الهندسة الجيولوجية فى شارع « لينين » سكنا للطبقة المتوسطة من زعماء الجبهة ، ولأسر زعماء القمة فى الجبهة •

كذلك اتخذ مبنى مدرسة الزراعة آنذاك فى شارع « لينين » — ولم يكن جميلا مثل مبنى الهندسة الجيولوجية ، فضلا عن المقارنة بينه وبين الفندق — سكنا لأسر الطبقة المتوسطة فى سلم زعماء الجبهة ، ويسكن فيه أيضا مجموعة من العاملين فى الجبهة ذى المرتبة الدنيا : المرضى من المناضلين فى أسبانيا ، الذين لم يعد ينتفع بهم فى العمل السياسى ، وأسر هؤلاء الرفقاء الذين كانوا يعملون فى هذه الأثناء فى مدارس مختلفة ، أو يقومون بأعمال سرية خلف القوات الألمانية ، والخدم ، وعمال المطابخ فى أجهزة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

وأقام أيضا فى هذا المبنى أولئك الذين استدعوا من « كازاخستان » أو من « سيبيريا » للعمل السياسى ، وكذلك الذين يبدو أنهم — لسبب أو لآخر — غير مناسبين لأى عمل •

ولم يكن معظم سكان هذا المنزل على اتصال بالجبهة من قبل ، وكانوا أيضا أكثر بعدا عن (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » ، التى تعيش الجبهة الآن تحت رعايتها وحمايتها •

وكما وزع هؤلاء الناس على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى • فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا فى مبنى العمل وهو قصر الجوالة السابق • والزعماء الكبار الذين كانوا يقيمون فى الفندق الجميل (Baschkirija) كانوا يحصلون بالاضافة الى الوجبات

الثلاثة ، على طرد كبير ، ملىء بأصناف الفواكه والحلوى ، ويرسل الى محل اقامتهم •

أما الباقون من أعضاء الجبهة فيحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد فى الدور الأرضى لفندق (Baschkirija) ويحصلون على الوجبات الثلاث ، وعلى مقدار ما يأخذه عامل فى بطاقة التموين • وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة •

كان هذا وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة ما يقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات فى كل شىء فى السكن ، والأكل •• الخ • طبقة تعلو الأخرى حتى القمة •

* * *

الرحلة العجيبة فى القارب البخارى

مكثت فى « أوفا » أسبوعا تقريبا ، وعشت لأول مرة حياة خالية من الهموم ، فتأخذنى السيارة فى الصباح ، ثم أمر على السكرتيرة فى الساعة العاشرة ، لأعلمها بحضورى ، فتواسينى بكلمة ، لعدم حلول وقت السفر بعد ، مؤكدة على أن أعود اليها فى اليوم التالى • وأتناول يوميا وجبات متنوعة الأصناف • أقيم فى حجرة جميلة ، ولا أقوم بأى عمل اطلاقا •

قابلت من وقت لآخر أصدقاء من رابطة الدفاع ، أو من القسم النمساوى فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • كانوا كلهم فى تصرفاتهم مثل تصرف « جريتى » ، لم يذكروا كلمة واحدة عما فعلوه هنا ، ولا عن المكان الذى جاءوا منه ، ولا عما سيفعلونه بعد ذلك •

حاولت أن أتصرف مثلهم ، ولكن لم أنجح ، فقد كنت طالبا مدة طويلة ، وقاسيت كثيرا فى « كاراجندا » ، وكنت مسرورا لرؤية أصدقائى مرة أخرى ، ولكنى فى نفس الوقت ، كنت حديثا « فى الجهاز » فتصرفت عاديا رغم كل الاحتياطات •

وبعد أسبوع أخبرتنى السكرتيرة أننى سأسافر فى اليوم التالى مع رفيقين آخرين الى المدرسة ، وينبغى أن أكون فى مكتبها فى الساعة العاشرة صباحا •

وصلت الى هناك فى الساعة العاشرة تماما ، وكان فى الحجرة اثنان غيرى ، ولكنها اتجهت الى أحدهما فقط ، وقالت له :

« نحن نرى أن من الأحسن أن تسافر اليوم الى المدرسة مع هذين الرفيقين ، وهاهى ذى التذاكر » •

أعطتنى مظروفا مغلقا ، ثم مد الاثنان الآخران أيديهما الى ، فسلمت عليهما ، ولكن لم يذكرا اسميهما ، فلم أهتم بذلك •

قالت السكرتيرة : « وصلت العربة ، تستطيعون السفر الآن ، أتمنى لكم رحلة طيبة » •

قادنا أكبرهما سنا الى عربة جميلة ماركة (SIS) ، ثم قال للسائق كلاما ، عرفت أنه اسم ميناء • وبعد ربع ساعة وصلنا الى ميناء على نهر « بيـــلايا » •

ثم قال لنا : « سنسافر بهذا المركب البخـــارى » •

انطلق بنا المركب بعد دقائق قليلة •• كنت قبل عشرة أيام فى « كازاخستان » ، والآن أجلس هنا فوق هذا المركب البخارى ، مع اثنين تعرفت عليهما قبل وقت قصير ، ولم أعرف اسميهما حتى الآن •

مر الوقت ، ولم يتكلم الزميلان الا قليلا ، والآن ! شبعت من المواقف الحرجة ، فكففت عن الأحاديث التى تلطف الجو ، وتدخل علينا السرور •

« جو جميل ! أليس كذلك » ؟ سأل مرافقنا ، فأجبته : « نعم » • يجوز لى على الأقل أن أرد بهذه الكلمة •

يبدو أن معظم المسافرين على المركب من الطبقة الفقيرة • واتخذنا مقاعدنا بعيدا عنهم فى ركن ناء من المركب •

ثم نودى على المحطة القادمة « بالجوفيشتشنسك » • مر على سفرنا الآن اثنان أو ثلاث ساعات ، وقد نزل كثير من المســافرين ، فنظرت الى رفيقى متسائلا ، فهز رأسه •

فواصلنا السفر وبعد ست ساعات توقفت المركب مرة أخرى ونودى اسم المحطة بصوت عال « كوشنارينكوفو » فقطب قائدنا جبينه • يظهر أنه لم يعجبه النداء باسم المحطات ، ولكنه لم يكن يستطيع تغيير شىء من هذا •

ثم قال : « أعتقد أنه يجب علينا الاستعداد للنزول » فتناولنا حقائبنا صامتين • نزلنا متعبين من طول الرحلة ، ولكنى كنت مشدود الانتباه لمــا سيحدث بعد ذلك •

لم أستطع معرفة ما يدور بذهن الاثنين الآخرين ، اذ لم يقولوا شيئا ، وكذلك لم يظهر على وجوههم أى تغيير ، يستطيع المرء أن

يستنبط منه أية اشارة الى ما فى أفكارهم • لم تكن هناك عربة فى هذه المرة ، ربما لزيادةالتكتم ، ولم نذهب بحقائبنا فى اتجاه المساكن ، بل فى الاتجاه الآخر •

تقع القرية الصغيرة « كوشنارينكوفو » — كما علمت فيما بعد — على بعد ٦٠ كيلو متر • شمال غرب « أوفا » ولا يوجد خط حديدى يمر عليها ، بل المواصلة الوحيدة فى الصيف ، هى المراكب البخارية ، وفى الشتاء يصل الناس اليها بالمركبات المتزحلقة على الجليد • ومما لا شك فيه أنه مكان مثالى لمدرسة سياسية ، حيث لا يلحظ وجودها أحد ، ويقطع كل اتصال بين تلاميذها وبين العالم الخارجى •

وبعد نصف ساعة تقريبا سيرا على الأقدام وقفنا أمام مرتفع ، فقال المرافق : « سنتسلق هذا الجبل » •

فتسلقناه صامتين ، ولم نتبين حتى الآن شيئا ، فلا توجد مستعمرة ، ولا عزبة ، ولا منزل •

* * *

مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

فى « كوشنارينكوفو »

وبعد ربع ساعة آخر رأينا بعض المنازل الكبيرة ، بدت عليها القذارة والاهمال ، يبدو أنها كانت فى السابق « دورا » لأحد الاقطاعيين • ورأينا بجانب المبنى الكبير منزلين أو ثلاثة ، ويتوسطها ميدان كبير ، احتقرت المكان ، لأنى وجدته أقل مما كنت أتخيله كمقر لمدرسة الجبهة •

اعتقدت فى بادىء الأمر ، أننا لم نصل بعد الى المدرسة ، ولكن درافقنا قال : « سنذهب الى هذا المكان » وأشار الى المبنى الرئيسى • وأمام المدخل سمعنا آخر أوامره : « لن يكون سيئا أن نثبت حضورنا فى السكرتارية » • فتوجهنا صامتين الى الدور الأول •

تركنا واقفين ودخل الى السكرتارية ، ثم عاد الينا بعد دقائق ، فأشار الى الرفيق الآخر بالدخول ، ووقفت أنا منتظرا خارج السكرتارية ، وبعد دقائق خرج وأعطانى اشارة فهمت منها أن قد حل دورى •

قابلتنى سكرتيرة فى الداخل ، فتكررت تمثيلية الأسئلة والأجوبة المعروفة ، وبعد هذا التمهيد الممل ، نظرت الى نظرة حادة ثم قالت :

— « عندنا فى المدرسة نظام معين :

أولا : لا يجوز لك مغادرة منطقة المدرسة دون تصريح ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن من لم يراع هذا النظام يقع تحت عقاب صارم .

ثانيـــا : من المسلم به ، أنه لا يجوز لك أن تشير أدنى اشارة فى خطاباتك الى المكان الذى تقيم فيه هنا ، فلا يجوز كتابة اسم مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، لا فى الخطاب ، ولا على الظرف من الخارج تحت اسم المرسل » .

لم أسمع حتى بمثل هذه الأشياء ، فقد كنت طالبا ساذجا .

قلت لها : « نعم ! ولكن ماذا أكتب على الظرف ، أعنى عنوان المرسل » ؟

فقالت : تكتب :

(Baschkirische ASSR. Kuschnarenkowo Landwirtschaftliches Technicum Nr. 101).

وهذا يكفى .

توقفت قليلا ، ونظرت الى نظرة فاحصة ، ثم واصلت حديثها :

« وأهم شىء الآن : ليس مسموحا لك بأن تقول اسمك الحقيقى لأى انسان ، ولا تحكى أى شىء — مهما قل — عن حياتك السابقة ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن المحافظة على هذه القاعدة ضرورى جدا ، فلا يجوز لأحد — حتى أولئك الذين يعرفونك من قبل — أن يناديك باسمك الحقيقى » .

وتوقفت مرة أخرى عن الكلام ، ثم سألت بلهجة أقل صرامة :

« والآن .. ما هو الاسم الجديد ، الذى تريد أن تنادى به هنا » ؟

فقلت : « ليندين » .

كتبت الاسم ، ثم قالت :

« حسنا ! فأنت من اليوم « ليندين » فانسى اسمك الحقيقى ، وتذكر دائما أنك تدعى « ليندين » طول مدة اقامتك فى المدرسة . هذا هو كل ما عندى ، وتستطيع الآن أن تذهب لتناول طعامك ، وسأريك بعد الأكل مكان النوم ، وفى الصباح الباكر ستقابل المدير ، وسيقول لك التعليمات الأخرى » .

عندما دخلت المطعم ، لم أر أحدا . كان الطعام جيدا ، ولكن لم تعد جودة الطعام تثير انتباهى « ما أسرع ما يتعود المرء على كل شىء جديد » فكرت فى هذا عندما فتح الباب ، ودلف منه صديق قديم . هو « جان فوجيلر » اندفع الى فرحا : « رائع ! أن تكون هنا » !

كان « جان » زميلى فى الفصل فى مدرسة « ليبكنيشت » فى موسكو ، وكنت أميل اليه كثيرا • وهو ابن الرسام الألمـانى « هاينريش فوجيلر » من (Worpswed) وكان يعيش منفيا فى الاتحاد السوفييتى ، ورحل معى فى خريف عام ١٩٤١ الى « كازاخستان » ، ومات فى أوائل عام ١٩٤٢ م من قسوة الحياة ، فقرا ، وجوعا ، وبردا •

مضى على موته أكثر من نصف عام ، وهاهو ذا ابنه ، ومما لا شك فيه أنه علم بموت أبيه منذ مدة طويلة ، ولكن يبدو ظاهريا أن هذا الحدث لم يغير من موقفه السياسى شيئا على الاطلاق • وكان هذا هو وضع كثير من الشبان فى الاتحاد السوفييتى • كان « جان » عضوا متحمسا فى منظمة الشباب ، وكان يتحدث بحماس بالغ عن الاتحاد السوفييتى •

وبعد التحيات مباشرة بدأ يحكى :

« هل تعلم ، أين كنت ؟ لا ! فلن تستطيع تخيل هذا » •

ولم يمكنى من التفوه بكلمة واحدة ، فقد استمر فى حديثه :

« كنت فى الجبهة ، ولم أعد الا قبل وقت قصير • وقد سمح لعدد قليل من الألمـانيين بالذهاب الى هناك ، وكيفما كان الأمر ، فقد كنت محظوظا ••• كنت مترجما ، ترجمت مرة للمارشال « شوكوف » • أتدرى أن « شوكوف » خرافى مدهش » •

ثم حكى عن الجبهة ، وكنت أسمع منه مرارا وتكرارا : « شوكوف •• شوكوف •• شوكوف •• » •

لم يكن هذا مفاجئا لى ، فقد سمعت كثيرا فى « كازاخستان » عن الاعجاب بـ« شوكوف » •

يتمتع « شوكوف » بشعبية حقيقية — لا مصطنعة ، ولا نتيجة نفاق — بين الجيش والشباب ، وربما كان هذا هو أحد الأسباب التى دفعت « ستالين » الى عزله فى نهاية عام ١٩٤٦ م •

أنصت الى « جان » باهتمام ، ولكنى كنت أتحين الفرصة ، لتحويل حديثه الى المدرسة ، آملا أن أعرف منه شيئا عنها •

ولكنه تحول من نفسه بأسرع مما تصورت ، وفجأة حك شعره بأصابعه ثم قال :

« آه ! لا يجوز لى أن أحكى شيئا عن حياتى الماضية ، أرجوك !

لا تخبر أحدا بما .... وعلى فكرة ، ما اسمك هنا ، حتى لا أخطىء ، فى هذا أيضا » ؟

— « اسمى : « ليندين » وأنت » ؟

— « دانيلوف ، .. جان دانيلوف » .

غريب حقا ! فبمجرد أن ناديته باسمه الحركى ، تحول الى شخص آخر ، شخص حذر ، ومراوغ فى الاجابة على سؤالى .

— « المدرسة ؟ نعم ! ماذا ينبغى أن أقول ! نحن مقسمون الى مجموعات حسب جنسية الدارسين ، وتوجد محاضرات عامة للجميع ، ثم دروس فى حلقات منفصلة لكل قسم ، ويقود المجموعة الألمانية « كلاسنير » هذا هو اسمه فى المدرسة ، أما اسمه الحقيقى فلا أعرف بالضبط » .

— « هل يوجد هنا زملاء آخرون ممن كانوا معنا فى بيت الأطفال رقم ٦ ، أو فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » ؟

— « هيه ! هيه ! : ماذا أقول ؟ أوه ! سوف ترى بنفسك » .

تحول فى ثوان من عضو متحمس فى منظمة الشباب ، الى عضو قيادى فى الحزب ، غارق فى المسئوليات ، ويزن كلماته قبل أن يتلفظ بها .

وبعد لحظة دخلت السكرتيرة الى صالة المطعم وقالت :

« أيها الرفيق « ليندين » أريد أن أريك الآن الحجرة التى ستنام فيها » .

عرفتنى أولا على الدور الأرضى ، حيث توجد حجرات الدروس ، والحلقات الدراسية المنفصلة لكل مجموعة .

وكان فى آخر الدور الأرضى سلم خشبى قديم ، يحدث أصواتا تحت الصاعدين والنازلين ، ثم ممر ضيق . أشارت السكرتيرة الى أحد الأبواب قائلة :

« هنا المكتبة ، وصالة الاطلاع » . ثم توقفت أمام الباب الأخير : « هاهى ذى » .

رأيت حجرة كبيرة بها ١٥ سريرا تقريبا ، وبجانب كل سرير خوان صغير ، وفى الوسط منضدة كبيرة . لقد كان الوضع بالضبط كما كان فى حجرة النوم فى معهد المعلمين فى « كاراجندا » ، ويختلف عنه فى أننا كنا هناك فى مبنى جديد ، وهنا فى « دورا » قديم .

خاب ظنى ! فبعد الذى رأيته فى « أوفا » تخيلت أن المدرسة ستكون فى وضع أحسن مما أراه الآن أمامى •

قادتنى السكرتيرة الى سرير خشبى بدائى وقالت :

« هذا مكانك • ائت الى من فضلك غدا ، لأقدمك الى المدير » !

والآن ! جلست مندهشا ، حائرا ، أفكر فى كل الأحداث التى مررت بها فى الأيام الأخيرة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ، لارى ماذا تقدمه لى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

وبعد دقائق قليلة ، دخلت أول مجموعة من زملائى فى حجرة النوم ، كانوا أسبانيين ، حيونى بايماءة رأس ، ثم جاء الى أحدهم وقال : « أسبانى » ؟ فقلت : « لا ! ألمـانى » وفى هذه اللحظة شعرت بالخوف ، فلربما قلت أكثر مما يجوز لى • سررت بالسكن مع أسبانيين ، لأنه كان لى أصدقاء أسبانيون فى موسكو ، وأعجبنى جو اللاجئين الأسبانيين أحسن من جو الألمـانيين •

وفجأة اكتشفت وجود صديق حميم هو « ميشا فولف » فهو من أصدقائى فى موسكو ، وقابلته فى « ألمـا ــ أتا » قبل بضعة أسابيع • أردت أن أندفع اليه ، وأنادى « ميشا » ولكنى تذكرت بسرعة أن له اسما آخر هنا ، وأنه لا يجوز لى أن أتحدث بشىء حتى لأصدقائى القدامى ، ورآنى فى هذه الأثناء ، فسار بخطوات بطيئة نحو سريرى ، ومد يده الى متعمدا عدم المبالاة وقال : اسمى : « فورستر » •

فرددت عليه : اسمى : « ليندين » •

فقال لى :

ــ « جميل أن تكون هنا ، فسوف تتعود على هذه الحياة بسرعة » •

ــ « نعم ! فأنا مسرور أن أكون فى هذه المدرسة » •

ولم نقل شيئا أكثر من هذا ، فقد التزمنا تنفيذ التعليمات بطريقة صارمة ، وان كان ذلك أمرا يدعو الى السخرية ، لأننا أصدقاء منذ عام ١٩٣٥ م ، أى منذ ثمانية أعوام •

كان سرير خاليا بيننا ، وكنت شغوفا بمعرفة من ينام فى هذا السرير بجانبى « ألمـانى » ؟ فأومأ « ميشا » برأسه • رتبت حاجاتى فى الخوان ولم ألاحظ أن جارى فى السرير قد دخل صالة النوم ، ووقف بجانبى • التفت فجأة فرأيت « هلموت جينيس » الذى كنا نسميه فى بيت الأطفال « هلميرل » وكان من أعز أصدقائى •

ينحدر « هلموت » من شرق « بروسيا » حيث كان والده من زعماء الحزب الشيوعى • كنا نعمل واجباتنا المدرسية — لمدة سنوات عديدة — على منضدة واحدة فى بيت الأطفال ، وقرأنا كتبا واحدة تقريبا ، وتناقشنا طويلا أثناء تجولنا ، الذى كان يمتد ساعات عبر شوارع موسكو ، فهو يعرف حياتى ، وأنا أعرف حياته ، صداقة لا تنفصل ، فهى صداقة غلمان بين الرابعة عشر • والسابعة عشر •

كذلك كنا نستعد معا لاختبار الدخول فى منظمة الشباب ، وقبلنا فيها فى وقت واحد تقريبا • ولكن نادرا ما كنا نتقابل فى الأعوام الأخيرة ، فقد أنهى الفصل العاشر (أربع سنوات بعد الابتدائية) عندما اندلعت الحرب •

قال لى : اسمى : « تسال ، •• بيتر تسال » •

فرددت عليه : اسمى : « ليندين » •

ثم صمتنا •• • ثم بدأ الكلام بصوت رزين : « متى وصلت » ؟

فقلت : « آه ! منذ بعض الوقت » •

كنت أتصور لقائى بصديقى « هلموت » الذى هو الآن « بيتر تسال » بعد غيبة طويلة ، بصورة مختلفة تماما • ولكن هاهو ذا الآن • التزم بقواعد النظام التزاما حرفيا — فقد أصبح فى الأعوام الأخيرة متحمسا للينينية — ولم يعد لى مفر من الالتزام بها أيضا •

لقد علمت قبل هذا ، ما سيكون عليه الوضع فى هذه المدرسة ، ولكن اذا لم أحصل على معلومات من « هلموت » فمن العسير الحصول على شىء من شخص آخر •

استيقظت فى الصباح على صوت جرس مزعج ، فوجدت أن كل من فى الحجرة قد نهض واقفا وصاح « هلموت » : « تمرين الصباح » •

تجمع كل من فى المدرسة — بما فيهم المدرسون — فى فناء واسع ، ووقفوا فى مجموعات حسب جنسياتهم ، وصاح قواد المجموعات ببعض النداءات العسكرية • ثم وقفنا جميعا وقفة انتباه — كان هذا جديدا بالنسبة لى ، لأن ما أخذته — وأنا طالب — فى التدريبات العسكرية لم يكن سوى حصص معدودة ، ولم أكن أتصور مثل هذا فى مدرسة الحزب — ثم سرنا بالخطوة العسكرية المنتظمة الى ميدان التدريب الذى لا يبعد كثيرا عن المبنى الرئيسى •

كنا نبدأ كل يوم بتمرين الصباح : رياضـــة بدنيـــة ، وتزاوقه

ظهرى ، وقفز ، ومشى مسافات طويلة ، وتسجل النتائج بدقة تامة ، يبدو أن للتمرينات الرياضية قيمة كبيرة فى برنامج المدرسة •

وبعد تناول فطور حافل بالأنواع المتعددة — التباين شاسع بين الطعام الجيد ، ورداءة أمكنة النوم — ذهبت الى السكرتارية ، ولم ألبث هناك دقائق حتى استدعيت للدخول على المدير • لم أعرف عنه شيئا سوى أنه يدعى « ميخايلوف » أو بمعنى أدق ، أنه يدعى فى المدرسة بهذا الاسم •

ولم أعلم الا فيما بعد أنه بلغارى ، يتحدث لغات متعددة ، وأنه تقلد أثناء حرب أسبانيا مناصب هامة فى مدارس الحزب ، وعلى الأخص فى مدرسة الأمناء السياسيين ، وكان محرر الجريدة الأسبانية الأمين (El Comisario) •

يشبه « ميخايلوف » فى كثير من الصفات ، أصدقائى فى المكتب السياسى فى « كاراجندا » ويبدو عليه طابع موظفى المكاتب أو مديرى المدارس • لم يسأل الأسئلة الروتينية ليتلقى الأجوبة المحفوظة المكررة ، بل سار الحديث معه كما لو كان مسامرة عادية ، وفى ثنايا هذه المسامرة ، سألنى عن عملى فى منظمة الشباب ، وعن دراستى • نعم لقد سألنى أيضا عما اذا كنت قد احتملت وعثاء السفر ومتاعبه • ثم بعد ذلك كله دخل فى موضوع « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » حيث بدا لى أنه يريد أن يقف على معلوماتى السياسية •

— « هل اطلعت على المراجع الهامة للماركسية اللينينية » •
— « نعم ! طبعا » •
— « أى كتب « لينين » قرأت حتى الآن » ؟
— « لقد قرأت مجموعة كبيرة ، منها ما كان مقررا فى المعهد العالى ومنها عن طريق قراءاتى الحرة • ومن هذه الكتب :

« ما العمل » ، « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الخلف » ، « حيلتا الديمقراطية الاشتراكية فى الثورة الديمقراطية » ، و•••

قاطعنى فسأل — بلهجة ودودة — جملة من الأسئلة ، تناولت الكتب التى سردتها عليه •

بان لى أنها لم تكن أسئلة « عادية » مثل تلك الأسئلة ، التى كانت

تلقى فى دروس المعهد العالى ، بل كانت أدق صياغة ، بحيث يظهر مباشرة من الاجابة عليها ، عما كنت قرأت هذا الكتاب ، وفهمته ، أم لا ؟

أجبت على أسئلته باختصار ، سؤالا بعد آخر ، فظهر لى أنه مسرور من هذه الاجابة ، ولم أعجز الا فى سؤال واحد ، فقد تلجلجت فى الاجابة عليــه وهو : « ضد أى اتجاه أيديولوجى كان « لينين » فى كتابه : « ما العمل » ؟

كان سؤالا بسيطا جدا بالنسبة للظروف السوفييتية ، ولكن غابت عنى الاجابة على هذا السؤال فجأة ، فلم أتذكرها .

تبسم ، ثم قال : « أنت تعرف هذا بالتأكيد ! ضد الاقتصاديين » .

لقد كنت أعلم هذا حقيقة . بدأت أشرح له المسائل التى تناولها « لينين » فى هذا الكتاب ، ولكنه أسكتنى باشارة من يده قائلا : « يكفى هذا ، ستدرس هذه المسائل هنا بالتفصيل » .

ثم فتح موضوعا آخر :

« كما ستعلم ! هذه مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . نحن هنا نعد القيادات لدول مختلفة . هل أنت مستعد للعمل فى ألمانيا » ؟

فى ألمــانيا ؟ كان هذا جديدا بالنسبة لى ، ولم أعلم اطلاقا ، ماذا يعنى بهذه الجملة ؟ عمل غير شرعى ؟ عمل مع أسرى الحرب الألمــانيين ؟ عمل سياسى بعد هزيمة « هتلر » ؟

أجبته : « هذا مسلم به طبعا » .

نظر الى نظرة حادة :

« أيها الرفيق « ليندين » ان واجب كل تلميذ هنا ، الاستعداد للعمل فى وطنه والشعور بالالتزامات الوطنية نحو بنى وطنه .

ويجب أن تعلم أن واجبك سيكون فى ألمــانيا ، ولذا فلابد أن تهتم فى المقام الأول بالمشاكل الألمــانية » .

وانتهت المقابلة بذلك . سلم على بحرارة ، ثم تمنى لى نجاحا سعيدا . علمت فى اليوم التالى أن مدرسة الجبهة مقسمة الى أقسام تبعا لجنسيات الدارسين . وكان من الملفت للنظر أنه كان هناك فى عام ١٩٤٢ م قياديون من بلاد كانت فى حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفييتى ، ومن البلاد التى كانت واقعة تحت الاحتلال النازى : ألمــانيون ، ونمساويون ، وألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، وأسبانيون ،

وتشيكيون ، وسلوفاكيون ، وبولنديون ، ومجريون ، ورومانيون ، وبلغاريون ، وفرنسيون ، وايطاليون •

ولكل مجموعة مدرس خاص ، ورئيس من الطلبة • كانت المجموعة الأسبانية أكبر المجموعات ، فقد كانت تضم ما بين ٣٠ و ٤٠ طالبا • وتضم المجموعات المتوسطة — الألمانيون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، والبلغاريون — ما بين ١٥ و ٢٠ طالبا • وكانت المجموعات الأخرى أقل من ذلك عددا •

لم يمثل البريطانيون ولا الأمريكيون ، فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان هناك يوغسلافى واحد ، انضم الى مجموعة البلغاريين ، وأرجنتينية ، زوجة أحد زعماء الحزب الشيوعى فى الأرجنتين ، اشترك فى الحرب الأهلية فى أسبانيا ، ويدرس الآن مع زوجته فى مجموعة الأسبانيين •

كانت الدروس منفصلة ، لكل جنسية على حدة ، وكان الكل يجتمع فقط فى المحاضرات العامة ، التى تتناول موضوعات ذات أهمية عالمية ، حتى المجموعات الثلاث ، التى تتحدث لغة واحدة — الألمانيون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا — كانت دروسهم منفصلة أيضا •

لم يكن انفصال النمساويين فى مجموعة واحدة مستغربا ، لأنه كان واضحا أن النمسا ينبغى أن تعود دولة مستقلة ، ولكن كان من الواضح أيضا أنه لم يتقرر بعد مصير الألمانيين من مناطق شرق أوروبا ، فهم ينحدرون من تشيكوسلوفاكيا والا ما كان لهم مجموعة خاصة لهم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

ولم أعرف الا بعد أسابيع عديدة أن فى المدرسة — بجانب هذه المجموعات الاثنتى عشرة — مجموعات أخرى ، كان هناك مبنى صغير فى الطرف الآخر بعيدا عن المبانى التى تقيم فيها هذه المجموعات ، أحيط بسور خاص ، وحرم علينا الذهاب اليه • كانت الحواجز بيننا وبين من وراءه سميكة ماديا ومعنويا ، فلم يعلم أحد منا ما يدور خلف هذا السور ، ولا من يدرس فى هذا المبنى الصغير • ثم تسربت الأخبار شيئا فشيئا : يدرس فى هذا المبنى كوريون • ويعيشون منفصلين ، ولم يشتركوا معنا فى المناسبات العامة •

ليس من الصعب شرح أسباب هذه الاجراءات التحفظية على

الكوريين ، اذ كان الاعداد السياسى فى مدرسة الجبهة ، قاصرا على القياديين الشيوعيين من البلاد التى هى فى حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفييتى ، ومن البلاد الواقعة تحت احتلال دول المحور . ولم يكن الاتحاد السوفييتى حتى عام ١٩٤٥ م فى حالة حرب مع اليابان ، بل عقد معها معاهدة عدم اعتداء وكانت بينهما علاقات دبلوماسية عادية ، وبناء عليه تحتم أن يكون اعداد الكوريين — الذين سيجهزون لا محالة للحرب ضد الاحتلال اليابانى — تحت ستار من السرية التامة .

لم يكن اطلاق الاسم الحركى قاصرا على الطلبة « الدارسين » بل كان للمدرسين أيضا أسماء حركية ، ولهذا لم أعرف — أثناء مدة دراستى فى المدرسة ، ولا بعدها بأعوام طويلة أسماء المدرسين الحقيقية .

لم أعرف الا أسماء اثنين فقط (باستثناء المجموعة الألمانية) فى ١٩٤٥ من صورهم التى نشرت فى الصحف ، حيث تقلدوا مناصب عليا فى الحزب والحكومة . ومن هذا تأكدت أن مدير المدرسة كان « يعقوب بيرمان » الذى هو اليوم (١٩٥٤) عضو المكتب السياسى فى حزب العمال البولندى المتحد ، ونائب رئيس وزراء جمهورية بولندا الشعبية .

درس « يعقوب بيرمان » فى شبابه القانون فى جامعة « وارسو » ، وكان أحد زعماء الحركة الطلابية الثورية البولندية ، وعقب هذا مباشرة ، أصبح عضوا فى زعامة الحزب البولندى .

وبعد حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٣ ، صار الموجه لتأسيس وحدة الوطنيين البولنديين فى الاتحاد السوفييتى ، واشترك فى الفرقة البولندية (Kostijuschko) التى تدربت فى الاتحاد السوفييتى ، ثم أصبح فى عام ١٩٤٤ نائب وزير الخارجية فى الحكومة المؤقتة فى « لوبلين » .

كذلك رأيت أيضا صورة قائد المجموعة النمساوية فى مدرستنا فيما بعد فى الجرائد . كان اسمه الحقيقى « فرانس هونر » انضم الى الحزب الاشتراكى النمساوى فى عام ١٩١٨ ، ثم انتقل الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٠ م واعتقل فى اضطرابات عام ١٩٣٤ ، ولكنه تمكن من الهرب الى الاتحاد السوفييتى . ثم اشترك فى الحرب الأسبانية مع المجموعة النمساوية ضمن الفرقة العالمية ، وعاد الى الاتحاد السوفييتى بعد انهيار الجمهورية الأسبانية فى عام ١٩٣٩ م .

وعندما حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — وبالتالى المدرسة —

فى مايو سنة ١٩٤٣ م ذهب الى موسكو ، ثم انضم فيما بعد الى فرقة التحرير النمساوية ، التىكانت تعمل تحت قيادة الجيش اليوغسلافى ، الذى قاد حرب العصابات ضد جنود الاحتلال •

تقلد « فرانس هونر » وزارة الداخلية لفترة وجيزة فى الحكومة النمساوية المؤقتة •

لم أسمع شيئا اطلاقا عن المدرسين الآخرين — باستثناء مدرس المجموعة الألمـانية — بعد أن تركنا المدرسة • غير أنه من المؤكد : أن هؤلاء المدرسين كانوا من زعماء القمة — المؤهلين تأهيلا عاليا — فى الأحزاب الشيوعية فى بلاد مختلفة ، ويتولون الآن لا شك كل المناصب العليا فى بلادهم — اذا لم يكونوا قد سقطوا ضحايا احدى حركات التطهير العديدة التى وقعت بعد هذا التاريخ •

* * *

المجموعــة الألمـانية

كان قائد مجموعتنا ومحاضرها الأصلى رجلا يبلغ من العمر ٤٠ عاما ، عيونه سوداء ناعسة ، يتحدث الألمـانية بلهجة سكان جنوب ألمانيا ، واســمه الحركى « كلابــنر » ، كان النموذج الكامل للمثقف فى « الستالينية » • اذ كانت معلوماته واسعة ، وعميقة ، ليس فقط فى دائرة « الماركسية — اللينينية » ، وتاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والحزب الشيوعى الألمـانى ، بل فى التاريخ الألمـانى والفلسفة ، وزيادة على ذلك فقد اهتم لمدة سنوات عديدة ، بمسائل منطقة البلقان •

لم يدع شيئا يهز مركزه على الاطلاق ، فقد كان مستعدا للتضحية بأعز أصدقائه وزملائه ، اذا طلبت منه الزعامة ذلك • كان حريصا جدا باستمرار ، فلم يتفوه بتعبير دون أن يفكر فيه ويزنه قبل أن ينطق به • كان يختار الكلمات الدقيقة ، ويمكن للمرء أن يجزم بأنه كان متفقا على طول الخط مع الاتجاهات الرسمية •

مكنه تفوقه فى الذكاء من ملاحظة أى اشارة بسيطة لتغيير الاتجاه « الأيديولوجى » فى الوقت المناسب ، والتصرف بسرعة طبقا لمقتضيات الاتجاه الجديد • وكان مستعدا لتغيير رأيه من يوم لآخر تبعا لتغيير الخط السياسى ، والدفاع عن الاتجاه الجديد بأسلوب منطقى براق ، ومحاولة رفعه الى عنان السماء ، على الرغم من أن ذلك مخالف لمـا قاله فى اليوم السابق • كان محاضرا ممتازا ، يضع علمه النظرى الكبير —

دون مبالاة — فى خدمة الأوامر الصادرة اليه ، يقيم الدليل على صحتها ، ويشرحها ، ويعمل لها دعاية كبيرة .

لم أعرف آنذاك اسمه الحقيقى ، ثم علمت فيما بعد أنه « باول فانديل » ينحدر من « مان هايم » درس فى مدرسة « لينين » فى موسكو ، ثم التحق أخيرا بجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فعمل مع « فيلهلم بيل » فى قسم شئون البلقان . ثم أصبح بعد عام ١٩٤٥ م رئيس الادارة المركزية للتثقيف الشعبى ، ثم وزيرا للثقافة فى حكومة المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى . وفى عام ١٩٥٢ م أزيح من الحكومة ، فأصبح رئيس قسم الرقابة والتنظيم للتعليم ، والعلوم ، والفن . ومنذ عام ١٩٥٣ م سكرتيرا للجنة المركزية « للاتحاد الاشتراكى الألمـانى » .

كان نائب رئيس المجموعة الألمـانية فى مدرسة الجبهة هو « برنارد كونين » من القادة العماليين المسنين ، حاول أن يثقف نفسه لينسجم موقفه مع الجو الذى يعيش فيه فتطلب ذلك منه جهدا كبيرا .

كان عضوا فى الحزب الاشتراكى منذ عام ١٩٠٧ م . ثم انتقل فى عام ١٩١٧ م الى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل . وكان رئيس النقابة العمالية لشركات « لوينا » عندما قامت ثورة أكتوبر عام ١٩١٨ م .

ظل « برنارد كونين » مدة بعد عام ١٩١٨ م فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى المستقل ، ولكنه انتقل فى عام ١٩٢٠ م الى الحزب الشيوعى الألمـانى . اشترك بنصيب لا بأس به فى الكفاح الثورى فى الفترة من ١٩١٩ م الى ١٩٢٣ ، وفى اضطرابات عام ١٩٢١ م ، وفى الحكومة العماليـة ، قصيرة الأجـل التى تكونت فى منطقـة « زاكسـين و تورينجن » فى عام ١٩٢٣ م .

أحس المرء بأن عنده الثورة العمالية الحقيقية على عكس ما كان « كلاسنر » ، فقد ظل حتى الآن بعيدا عن نموذج « الستالينيين » الذين يراقبون كل تغيير ، ويسيرون فى ركابه . لم ينجح أبدا فى اخفـاء انفعالاته عند كل تغيير سياسى ، أو فى أن ينسجم بسرعة مع الخط الجديد ، كما كان يفعل « كلاسنر » .

لم أنس مشهدا حدث بينى وبينه ، فقد كان « كلاسنر » يكلفنى — بالاشتراك مع « برنارد كونين » وزوجته « فريدا » (التى كانت معنا

الذين كانت لديهم معرفة بسيطة باللغة الروسيـــة ــ بترجمة بعض المقالات الهامة من جريدة « برافدا » •

وذات يوم ترجمت مقالا من « برافدا » يتحدث عن كفاح الروسيين والبولنديين والشعوب السلافية الأخرى الخالد المشترك ضد الألمانيين • ترجمت دون تردد :

« يدور المقال حول اخوة السلاح الخالدة فى الكفاح ضد الألمانيين الأعداء الخبثاء للشعوب السلافية ، من قديم الزمان » •

نظر الى « برنارد كونين » فزعا ثم صاح :

« قف ! قف ! لقد ترجمت خطأ ، لا يمكن لك أن تقول هذا ، ترجم الجملة مرةأخرى » !

أعدت قراءة نفس الجملة •

كان « برنارد كونين » مضطربا :

ــ « أليس فى المقال شيئا عن الاستعمار الألمـــانى ، أو عن الطبقة الحاكمة فى ألمـــانيا » ؟

ــ « لا يا « برنارد » ! فالحديث هنا ببساطة عن الألمـــانيين » •

ــ « هذا غير ممكن » !

ودون أن أتفوه بكلمة ، أريته الجملة فى « برافدا » ، وفى نفس الوقت جملا أخرى تتحدث عن الألمانيين كأعداء خبثاء من قديم الزمان للشعوب السلافية » •

اصفر وجه « برنارد » ولم يقل شيئا • ومما لا شك فيه أنه لم يكن من السهل عليه ــ كعامل ثورى قديم ــ أن يصبح عميلا « ستالينيا » ، يدافع عن الاتجاه السياسى للقيادات العليا بدون قيد ولا شرط •

اعتقل جهاز المخابرات « برنارد كونين » أثناء حركة التطهير الكبرى فى الفترة من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م • وفقد احدى عينيه فى السجن ، ثم أفرج عنه عن طريق وساطة أحد زعماء الحزب • وبعد ذلك استمر فى خدمة « الستالينية » •

أصبح « كونين » بعد عام ١٩٤٥ م سكرتير الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى منطقة « زاكسين » ، وتولى منصب سفير المنطقة السوفييتية (ألمـــانيا الديمقراطية) فى براغ عام ١٩٥٣ • وهو « لا شك » انخفاض فى درجته فى سلم المناصب •

كان عندنا بجانب المحاضرين الرئيسيين « باول فانديل » (كلاسنر) ، و « برنارد كونين » — معيدة ، كانت تدعى فى المدرسة « لينى رينج » قابلتها بعد عام ١٩٤٥ م فى المنطقة السوفييتية باسم « لينى برج » كانت مدرسة فى مدرسة « كارل ماركس » التابعة لحزب « الاتحاد الاشتراكى الألمـانى » ، ثم أصبحت بعد ذلك اليد اليمنى لـ« برنارد كونين » فى قيادة الاتحاد الاشتراكى الألمـانى فى مدينة « هاللى » .

كان عدد الطلبة فى مجموعتنا من ١٨ — ٢٠ طالبا تقريبا ، وكان بعضهم من المتقدمين فى السن ، الذين التحقوا بالحزب الشـيوعى الألمـاني قبل عام ١٩٢٣ ومنهم :

« أوتو » من هامبورج .

« فيلى » من برلين (لم أعرف اسمها الحقيقى حتى الآن) .

وكان كلاهما فى « رابطة كفاح الجبهة الحمراء » وقاتلا معا مع الفرقة العالمية فى الحرب الأسبانية .

« آرتور » واسمه الحقيقى « هاينز هوفمان » .

كان فى أسبانيا مستشارا سياسيا للفرقة رقم ١١ . وأصبح بعد عام ١٩٤٥ م جنرالا ورئيس كلية الشرطة ، ثم نائبا لوزير الداخلية فى ألمـانيا الديمقراطية .

« لينى برنز » كانت تقوم بنشاط قبل عام ١٩٣٣ م ، وقامت بعمليات خاصة ، حتى فى اليابان . أصبحت بعد عام ١٩٤٥ مدرسة فى مدرسة - (SMA) ، وفيما بعد فى جمعية الصداقة السوفييتية الألمـانية فى برلين الشرقيـة ، وبعد ذلك فى وزارة الخارجيـة فى ألمـانيا الديمقراطية » .

كان معظم المجموعة الألمـانية فى مدرسة الجبهة من الشبان — مثلى ، رفقاء صغار وأعضاء فى منظمة الشباب — الذين نشأوا فى الاتحاد السوفييتى ، قابلت هنا كثيرا من أصدقائى من بيت الأطفال رقم ٦ ، ومن مدرسة « كارل ليبكنيشت » .

بجانب « ميشا فولف » و « هلموت جنيس » و « جان فولجيلر » وقد تحدثت عنهم سابقا وهم يدعون فى المدرسة « فورستر » و « تسال » و « دانيلوف » — قابلت أيضا :

« ماريانى فاينرت » بنت الشاعر الشيوعى المشهور « ايريش

«غابينرت» وقد تعرفت عليها فى عام ١٩٣٢ م أيام أن كنا أطفالا فى برلين ، كنا نسكن فى حى الفنانين عند ميدان « برايتن باخ » •

« ايمى » و « الزى شتتنسر » • كان والدهما عضو الحزب الشيوعى فى البرلمـان الألمـانى ، واغتاله النازيون •

كان لى أصدقاء كثيرون فى المجموعة النمساوية ، وتعود صداقتنا الى الأيام التى كنا نقيم فيها فى بيت الأطفال رقم ٦ :

« رودى سبيريك » ابن أحد قادة رابطة الدفاع الديمقراطية الاشتراكية ، الذى سقط قتيلا فى كفاح فبراير عام ١٩٣٤ م •

« تونى شلوجل » من « سان بولتين » •

« آليس كلوك » يبدو أن الدراسة كانت صعبة عليها فى مدرسة الجبهة ، واضطرت فيما بعد الى الالتحاق باحدى المدارس التابعة للحزب •

« هانز شنايشينبرجر » ، وكنا نسميه فى بيت الأطفال « زنجى » مداعبة ، بسبب هيئته ، ولا زال له حتى الآن هذه الساخرية القديمة •

ولم أعرف أحدا من المجموعات الأخرى ، الا أنى رأيت فى اليوم الثالث فتاة أسبانية ، رائعة الجمال ، فخيل الى أنى أعرفها من قبل ، ثم عرفتها ، فقد كانت « أمايا ابرورى » بنت « دولورس ابرورى » سكرتيرة عام الحزب الشيوعى الأسبانى • استطاعت فى سنوات قليلة أن تقفز من مجرد عضو قيادى صغير فى الحزب الشيوعى الى أشهر امرأة فى الجمهورية الأسبانية : « سينيورا » •

وبعد القضاء على الجمهورية الأسبانية ، جاءت مع ابنتها وابنها الى الاتحاد السوفييتى ، كان ابنها يقاتل مع الجيش الأحمر ، فسقط فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ م عند « ستالينجراد » أما ابنتها فتدرس معنا الآن فى مدرسة الجبهة ، واسمها الحركى « مايا روبين » •

لم تكن بنت « السينيورة » هى الشخصية الوحيدة ــ من الشخصيات البارزة ــ فى مدرستنا ، فقد لفت نظرى فى حجرتنا ، رفيق شاب ، فقد احدى زراعيه ، كان يتكلم الروسية بطلاقة ، وحكى مرة ــ دون أن يتذكر نظام المدرسة ــ فى صالة النوم ، أنه قاتل فى الجبهة فى عام ١٩٤١ م ، وفقد احدى زراعيه فى المعركة • وبدا عليه أيضا أنه ليس من الأشخاص الذين ينطوون بسهولة ، ولم يأخذ كل أنظمة المدرسة مأخذ الجد • فسمح له بطريقة أو بأخرى بأشياء لم تكن مسموحة لنا •

تعجبت من هذا ، وذات يوم دخل الحجرة ، فصاح الجميع :
« شاركو ! •• هل من جديد » ؟

تعرفت عليه ، وبدأت أتقرب منه ، ولم يمض وقت طويل حتى صرح لى باسمه الحقيقى : لقد كان ابن « تيتو » •

* * *

ما تعلمناه فى مدرســة الجبهــة

كما حدد لى سابقا الوجهة التى ينبغى أن أسافر اليها فيما بعد ، علمت الآن أيضا ، ما ينبغى أن نتعلمه فى المدرسة :

فالدراسة فى المدرسة عبارة عن سلسلة من المحاضرات فى موضوع ما ، وتستمر غالبا أسبوعين أو ثلاثة — وأحيانا أطول من ذلك — ثم فى نهايتها يعلن عن الموضوع التالى •

درسنا فى العشرة أشهر التى قضيتها فى المدرسة الموضوعات التالية :

تاريخ الحزب الشــيوعى الألمــانى ، وتاريخ الحزب الشيوعى الروسى ، الجمهورية الفايمرية ، الفاشــية ، طبيعة وتطور الحــرب العالميــة الثانية ، الاقتصاد السياسى ، المادية التاريخيــة الجدلية ، تاريخ الشيوعيــة العالمية ، نظرة فى تاريخ ألمــانيا •

ألقى عدد من المحاضرات عن كل موضوع ، وكان يقوم بالقائها : « باول فانديل » وأحيانا « برنارد كونين » ، أو « لينى برج » وبالاضافة الى ذلك ، فقد ألقى رفيق مجرى بعض المحاضرات فى موضوعات تاريخية •

وفى نهاية كل محاضرة يتلو المحاضر علينا عددا من المراجع ، التى يجب أن نرجع اليها استعدادا للمناقشة فى الحلقات الدراسية ، وكما هو الحال فى المعاهد العليا السوفييتية فقد قسمت المراجع الى ما يسمى « المراجع الضرورية » التى لابد من الرجوع اليها ، والمراجع الاضافية ، التى يرجع المرء اليها فى نظريات خاصة •

حدد لكل مرجع عدد الساعات الواجب قضاؤها فى قراءته ، حتى يلم بالمطلوب ، وكنا ملزمين بتقييد ذلك فى مفكرة ، تخضع لرقابة شديدة ، وبعد المذاكرة تعقد حلقات الدراسة التى تستمر ثلاث ساعات وأحيانا أكثر من ذلك •

وكان هناك أيضا محاضرات عامة لجميع المجموعات ، وكانت تلقى فى المكتبة أو فى صالة المطعم ، لأنه لم يكن هناك قاعة محاضرات كبيرة •

ألقى مدير المدرسة الرفيق « ميخايلوف » محاضرات عن تاريخ

الشيوعية العالمية ، وكانت ممتازة حقا ، فلم أسمع لا قبلها ولا بعدها ما يدانيها •

كان يتحدث بالروسية وجلس فى مقدمة الصفوف ، الطلبة الذين كانوا يتقنون الروسية ومعظمهم من الشبان ، بينما ترجمت المحاضرة للرفقاء وكبار السن — حيث جلسوا على مناضد أخرى كل مجموعة على حدة — الى : الأسبانية ، والألمـانية ، والفرنسية ، والايطالية ، والرومانية ، والتشيكية ، والسلوفاكية ، والبولندية ، والمجرية • وسارت الترجمة الفورية دون ضوضاء ، لأن كل مجموعة جلست على منضدة بعيدة عن المجموعة الأخرى • ثم تلا المحاضرة حلقات دراسية لكل مجموعة ، تولى كل محاضر شرح المحاضرة العامة لمجموعته فى هذه الحلقات •

كان موضوع تاريخ الشيوعية العالمية ، من أهم الموضوعات التى درسناها فى المدرسة ، فقد شرح تطور الأحزاب الشيوعية فى الدول المختلفة ، كل على حدة ، والنضال والأحداث الثورية ابتداء من عام ١٩١٩ م شرحا وافيا لدرجة أننا كنا نحس أننا عشنا هذه الأحداث : ثورة « سبارتاكوس » والنضال فى « الرور » ووسط ألمـانيا ، أحداث الثورة فى بولندا ، موجة الاضطرابات الضخمة عام ١٩٢٠ م فى ايطاليا ، استيلاء « موسولينى » على السلطة ، النضال فى بلغاريا عام ١٩٢٣ م ، الفترة التى يطلق عليها « الاستقرار النسبى » ١٩٢٤ — ١٩٢٩ ، الأزمة الاقتصادية العالمية ، استيلاء « هتلر » على السلطة — شرحت لنا هذه الأحداث فى المحاضرة شرحا مفصلا ، غير أنه — كما تأكدت فيما بعد — كان بالطريقة « الستالينية » التى كانت تزيف الحقائق •

كذلك تناولت الدراسة أيضا بالتفصيل ، الحركات الثورية فى البلاد المستعمرة ، وفى آسيا : : ثورة « كمال أتاتورك » فى تركيا ، الحركات المناهضة للاستعمار فى شمال افريقيا ، حركة « غاندى » فى الهند ، تطور الأحزاب الشيوعية فى اليابان وأندونيسيا ، وقبل هذا كله ، تطور الثورة الصينية •

لم يلق « ميخايلوف » كل المحاضرات ، التى تتناول موضـــوع الشيوعية العالمية ، بل اشترك معه « يعقوب بيرمان » و « هونر » أو « باول فانديل » • كان القاؤهم رائعا مثل « ميخايلوف » — وعلى الأخص « بيرمان » — الكلمات واضحة ، والأسلوب شيق ، والمعلومات

غزيرة ، على عكس الدروس المملة ، ذات النغمة الواحدة ، التى كنا نعرفها جيدا من الاحتفالات والاجتماعات التى تقام « للفرد السوفييتى العادى » .

كان أهم الدروس التى شغفت بها فى مجموعتنا الألمـانية المناقشة السياسية والأيديولوجية حول النازية . أما الموضوعات الأخرى — المادية التاريخية الجدلية ، والاقتصاد السياسى و .... الخ — فقد أخذتها فى المعهد العالى فى محاضرات عن « أسس الماركسية — اللينينية » فلم تكن جديدة بالنسبة لى ، وعلى العكس من ذلك ، كانت المناقشة السياسية مع الأيديولوجية النازية ، جديدة كل الجدة بالنسبة لى .

كان موضوع سلسلة كبيرة من المحاضرات : تاريخ الحزب النازى ، و « هتلر » فى شبابه ، والتنظيمات النازية الأخرى ، كذلك تاريخ حياة زعيم النازية ...... وكانت النقطة الصعبة ، هى تحليل جوهر النازية ، والأسباب التى أدت الى استيلاء « هتلر » على السلطة .

درسنا الأيديولوجية النازية بالتفصيل — نظرية تفوق السلالات البشرية ، نظرية أماكن التجمع البشرى ، النظرية النازية للتاريخ ... الخ — من المصادر النازية ، وتعمقنا فيها لدرجة أننى بعد عام ١٩٤٥ م ، عندما قابلت ذات مرة نازيا حقيقيا ، تأكدت أننى أفوقه بمراحل فى معرفة نظرياتهم .

كنت أتعجب دائما من حرية التفكير والواقعية ، التى كنا نمارسها — أثناء الحرب التى هى حياة أو موت — فى مناقشة النازية وأيديولوجيتها . وغالبا ما كان يكلف أحدنا بالقاء محاضرة أمام الطلبة عن دعوى معينة فى الأيديولوجية النازية ، بينما يكون من واجب الآخرين ، مناقشة هذه الدعوى ، واضعاف الأدلة النازية . وعلى المحاضر فى هذه اللحظة أن يدافع عن النازية دفاع المستميت ، المقتنع بصحة دعواها ، وتتعلق درجة تقديره ، بمقدار استطاعته فى الدفاع عن النازية .

كان يحدث أحيانا أن يأخذ « كلاسنر » بنفسه دور المحاضر والمدافع عن النازيـــة ، وكان يشرح الدعوى بطريقة لبقة — ربما أكثر لباقة ، مما يستطيعه معظم النازيين أنفسهم — فيتعذر علينا الاتيان بحجة تبطل دعـــواه .

ولكن كان لحرية الفكر (لم نقرأ المراجع النازية فقط ، بل شروح وبحوث من الأحزاب الوطنية ، والأحزاب الديمقراطية الاشتراكية فى

بلاد مختلفة ، كذلك النشرات الدورية البابوية) — كان لهذه الحرية — حد ، فعندما كنا نندمج فى مناقشة أيديولوجية سياسة أخرى ، ويبدو أنها ستؤثر على أفكارنا (ولكن يكن فى ادراكنا ، أن هذا يرتبط بأى خطر بالنسبة لنا ، لأنه لا أحد منا كان باستطاعته التأثر لحظة واحدة بهذه المفاهيم) كانت تضرب حولنا التحفظات الشديدة ، وخاصة اذا كان الموضوع يتعلق بآراء المجموعة الشيوعية المعارضة ، اذ يتوقف كل تسامح عند هذه النقطة ، فلا نتعمق فى دراستها ، ولا نقرأ من مراجعها شيئا .

سمعنا أسماء مثل : « براندر » و « تالهايمر » و « روت فيشر » و « ماسلوف » و « كورش » و « كاتس » ومعارضين آخرين انفصلوا فى العشرينات مع بعضهم ، ومعهم أتباعهم من الحزب الشيوعى الألمانى ، أو طردوا منه ، وكونوا تنظيما معارضا . ولكن ماذا كان اتجاه هذه المجموعة ، وماذا كانوا يريدون ؟ لم نسمع كلمة عن هذا .

وجدت هذا أيضا مع المجموعة المعارضة داخل الحزب البلشفى ، فلم نقرأ الا سطرا عن المراجع الأصلية التى كتبت عن المعارضة العمالية بزعامة « شلابنيكوف » ، وعن مجموعة « المركزية الديمقراطية » بزعامة « أوسينسكى » وكذلك عن « التروتسكيين » و « البخاريين » . ولاحظت هذا فى الدروس والحلقات الدراسية ، وخاصة فيما يتعلق بـ« التروتسكيين » .

انقلب محاضرنا « كلاسنير » الى شخص آخر ، عندما تناول هذا الموضوع ، اذ صب جام غضبه على هؤلاء ، وبدلا من أن يأتى بحجج وبراهين موضوعية ، تدفقت كلمات السباب واللعن على هؤلاء (ولم يظهر هذا النوع من الهجوم فى مدرسة الجبهة ، الا عند تناول موضوع من هذه الموضوعات) . ثم أخذنا المراجع لموضوع « التروتسكيين » ولم تكن سوى مواد مكررة ، مجموعة من أقوال « لينين » ضد « تروتسكى » (ومن الطبيعى أن أقواله التى كانت مدحا فى « تروتسكى » قد أهملت) ، وفقرات من كتب « ستالين » . ولم يكن فيها سطر واحد من أقوال « تروتسكى » ! وبينما كانت الحلقات الأخرى ، تشير الى مكانة « تروتسكى » بعين الاحترام ، كانت حلقتنا عن « التروتسكية » لعنا وسبا .

لم أستطع تفسير ذلك آنذاك ، على الرغم من أن الأسباب كانت

فى متناول اليد • ولم يسمح لنا بمعرفة آراء التنظيمات المعارضة ، لأن فيها أشياء تهدد النظام « الستالينى » • وكانت الزعامة « الستالينية » تدرك أنه لا خطر من أن نقرأ خطب « هتلر » و « جوبلز » ، ونشرات الأحزاب الوطنية أو النشرة البابوية ، لأن من الثابت أنها لن تؤثر علينا أقل تأثير • ولكن كتب « تروتسكى » ونشرات التنظيمات المعارضة لـ« ستالين » التى تنقد وتهاجم النظام « الستالينى » من وجهة نظر « الماركسية » ، فهى — لاشك — ستترك أثرا عندنا — وربما نقتنع بوجهة نظر هؤلاء •

* * *

مشاكل العصر السياسية

درسنا مشاكل العصر السياسية ، بجانب النظريات السياسية ، لقد كانت قواعد غير مكتوبة ، أننا يجب أن « نربط النظرى بالعملى » ، وهكذا تناولت المجموعات فى مناقشاتها الأحداث السياسية المعاصرة ، اذ نوقش فى كل مجموعة الوضع الراهن فى بلدها ، وواجبات الشيوعيين ازاءه • كانت قاعدة هذا الموضوع فى مجموعتنا الألمانيـة ، هو مادة عما كان يسمى « مناقشات مؤتمر السلام العالمى » فى ألمانيـا ، الذى عقد — كما زعم — فى نوفمبر عام ١٩٤٢ فى احدى مدن منطقة « الرور » •

وقيل لنا : انه وضع فى هذا المؤتمر غير القانونى (أى سوى بعيدا عن أعين السلطة الحاكمة) — الذى اشترك فيه حوالى ٣٠ شخصا ، من بينهم ممثلون عن النقابات ، وأعضاء من الحزب الشيوعى الألمانى ، ومن الحزب الاشتراكى الألمـانى ، وقانونى ، وبعض المثقفين الوطنيين — برنامج لانهاء الحرب والاطاحة « بهتلر » •

راودنى شك كبير آنذاك فى أنه قد انعقد مثل هذا المؤتمر ، ولم أكن الوحيد ، الذى شك فى هذا الخبر • كان الشك يفوق تطابق الشرح مع « الخط الصحيح » (وعلى فكرة ! فقد علمت بعد عام ١٩٤٥ م أن مثل هذا المؤتمر لم ينعقد ، ولم يعد يذكر شىء عنه الآن فى الاتحاد السوفييتى) •

لم توات الشجاعة أحد آنذاك فى أن يعبر عن شكه فى « مناقشات غرب ألمـانيا » واعتبر « البرنامج المزعوم » أساسا لكل دراسة برمتها •

امتدت الحلقة — التى تناولنا فيها دراسة هذه « المناقشات » ، والقرار المزعوم الذى اتفق عليه المؤتمرون بعد مناقشتهم — أسابيع •

دعت « مناقشات غرب ألمـــانيا » الى تكوين « لجان شعبية » ، وبناء عليه فقد وجب علينا دراسة كل ما يتعلق بهذه اللجان •

كان موضوع « مشاكل العصر السياسية » أضعف موضوع فى مدرسة الجبهة • كانت كل المجموعة الألمـــانية تقريبا من الذين اضطروا الى ترك ألمـــانيا وهم أطفال ، ولهذا لم يكن عندهم أى فكرة عن النشاط فى ألمـــانيا •

تركت « لينى برج » ألمانيـــا بعد استيلاء (هتلر) على السلطة بعام ونصف ، ولكن لم توضح لنا — ولا يمكن أن توضح — شيئا عن الوضع فى ألمـــانيا فى عام ١٩٤٢ م •

تحدث المشتركون فى الحلقة بحماس عن لجان شعبية « سرية » فى المدن الألمانية المختلفة ، وفى المناطق الريفية • وناقشوا قوتها وفعاليتها العملية •

كان عملنا هذا ساذجا الى أقصى حدود السذاجة ، فقد بدأنا بعمل أهم التقريرات عن مدينة معينة فى ألمـــانيا مثل : التركيب الاجتماعى ، والنسبة المئوية للعمال والمثقفين ، وعن نتيجة انتخابات عام ١٩٣٢ م فى هذه المدينة ، وعن التركيب الدينى ، وعن الاقتصاد وفروعه ، وعن عدد الغارات الجوية التى شنت على المدينة ، موضع البحث •

وجب علينا — بعد هذا التقرير — أن نكون لجنة شعبية « حقيقية » — كانت العملية أشبه ما تكون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة — ، مع تحديد الحجم الذى ينبغى أن تكون عليه هذه « اللجنة الشعبية » ، وعدد العمال والمستخدمين والمثقفين فيها ، وميولهم الحزبية السياسية السابقة ، على انضمامهم لهذه اللجنة •

لم تكن المسألة سهلة ، فمن كون لجنة شعبية ، ونسى مفكرا أو محاميا ، عنف بسبب انحرافه الى « المذهبية » و (التقليل من قيمة الحلفاء فى الكفاح ضد هتلر » ، ولكن اذا ضم واحد عددا أكبر من اللازم من المحامين والعلماء الى « اللجنة الشعبية » اتهم بـ« التحيز الطبقى » و « التقليل من قيمة دور الطبقة العمالية » •

حول هذا الأسلوب من العمل أولئك الذين كانوا ضعافا فى حلقات الدراسة السياسية الجادة — مثل « ايمى شتنسر » و « أوتو » — الى مهرة حقيقيين فى تكوين « اللجان الشعبية » •

أما الآخرون الذين أخذوا المسألة مأخذ الجد ، فقد شعروا بالحيرة ، وهم يحاولون تكوين « لجان شعبية سرية » على الورق ، لتعمل فى مدن منطقة « الرور » أو فى مدن جنوب ألمـــانيا ، بينما هم جالسون فى « فيلا » آيلة للسقوط فى الطرف الأقصى من منطقة « بشكيرين » .

كان التدريب على كتابة المنشورات أكثر جدية من هذا العمل الذى لا يخرج عن كونه لعبة حل ألغاز الكلمات المتقاطعة . كان مفروضا علينا أن نكتب فى مدى نصف ساعة منشورا « سياسيا مضبوطا » فى موضوع محدد ، ولم تكن تلك الموضوعات ، التى تحددت لكتابة المنشورات فيها سهلة فعلى سبيل المثال :

قرىء علينا فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٤٢ م بيان « جورنج » عن زيادة حصص التموين فى ألمـــانيا ، وطلب منا أن نؤلف منشورا حول هذا الموضوع ، ونركز فيه على تبديد الأمانى المتخيلة ، الذى قد يحدثها هذا البيان بين أفراد الشعب .

قرئت منشوراتنا فى حلقات خاصة ، واحدا بعد الآخر ، ونوقشت كل نقطة فى كل منشور ، ثم تبع ذلك نقد من المدرس .

ونظرا لأننا كنا نعمل هذا التمرين بكثرة ، ونناقش المنشورات بدقة ، فقد أصبحنا فى مدة قصيرة ، قادرين على تأليف منشورات واقعية فى أى موضوع .

لم نناقش منشوراتنا فقط ، بل كنا نحصل أيضا من القسم السياسى للجيش الأحمر على المنشورات التى كان يلقيها فى الجبهة . وكان من واجبنا تحليل منشورات الجيش الأحمر تحليلا كاملا ، ولا نقتصد فى نقدهـــا . كان هذا جديدا بالنسبة لى ، فلم يطلب منى فى الاتحاد السوفييتى حتى الآن التعبير عن رأيى حول موضوعات صادرة من « الجهات العليا » .

كنا نقرأ بانتظام المنشورات السوفييتية ونناقشها ، وكنا نصرح بأننا نرى أنها ضعيفة ، وتأكد هذا الرأى عندما ازداد عدد أسرى الحرب ، وكان سببا فى اعادة تنظيم جهاز الدعاية السوفييتية ، وفى تكوين اللجنة الوطنية المعروفة باسم « ألمـــانيا الحرة » .

قرأنا بشغف المنشورات التى كتبها الأسرى أو الجنود والضباط الألمـــانيون الذين هربوا ، ولجأوا الى الجانب السوفييتى . كانت هذه لغة مختلفة تماما ، لفتت نظرنا فى كتيب ألفه نقيب يدعى « دكتور أرنست

هادرمان » تحت عنوان : « كلمة نقيب ألمــانى » ، وفى منشور كتبه : « هاينريش جراف فون آين زيديل » الحفيد الثانى لـ« بسمارك » •

تأكدت هذه الملاحظة فيما بعد ، فقد كان دكتور « أرنست هادرمان » و « هاينريش جراف فون آين زيديل » من مؤسسى اللجنة الوطنية « ألمــانيا الحرة » •

لم نتعلم فقط كيف نكتب المنشورات ، بل علمونا أيضا ، كيفية طبع المنشورات فى سرية تامة ، فى أصعب الظروف التى تباشر فيها الحركات السرية عملها • ووجد أيضا فى داخل مدرسة الجبهة — التى هى بطبيعة الحال سرية — معمل كيماوى سرى • ولم يسمح لنا بدخوله الا عندما كنا نكلف « بطبع المنشورات السرية » •

كان التعليم باللغة الروسية مرتين فى الأسبوع ، وكنا نتعلم طبع المنشورات بكل الطرق ابتداء من الطرق البدائية (صنع حروف كبيرة من الصلصال ، ويمكن طبع ١٠٠ نسخة فقط بواسطتها) حتى طرق التصوير المعقدة ، التى صممت لاخراج أعداد كبيرة من المنشورات والجرائد — حتى الصور و « الكاريكاتورات » — بحروف صغيرة جدا ولكنها واضحة تقرأ بسهولة •

شرحت لنا كل طريقة بالتفصيل ، حتى كيفية تجهيز الآلات اللازمة ، الى أن كان فى استطاعة كل واحد منا ، أن يقوم بكل المراحل اللازمة لاخراج المنشورات • كانت دراسة هذا الموضوع عميقة ، ولكنه لم يسمح بتقييد ملاحظات فى كراساتنا ، بل وجب علينا أن نحفظ كل شىء عن ظهر قلب •

لم يرسل أحد منا — حسب ما أعلم — بعد حل مدرسة الجبهة الى عمل من الأعمال السرية ، ولهذا فليس لدى المتخرجين اليوم سوى معلومات ضئيلة من تلك الحصص المهمة التى تعلمنا فيها أشياء ، لم نطبقها عمليا قط •

تلقينا محاضرات — بجانب دراسة « مشاكل العصر السياسية » التى مكنتنا من فهم الوضع فى ألمــانيا ، وهيأتنا للقيام بأعمال مستقبلا فى ألمانيا — فى « السياسة الحالية » فى الاتحاد السوفييتى أيضا •

لم يكن موضوع « السياسة الحالية » — كما يظن المرء — نوعا من مقتطفات من الصحف أو نظرة عامة فى الحوادث اليومية فى الاتحاد السوفييتى ، بل دراسة دقيقة لبعض الخطوات السياسية الهامة للحكومة السوفييتية ، التى ينبغى معرفتها و « ابداء الرأى فيها » •

تناولنا بالدراسة — فى مدى العشرة شهور التى قضيناها فى المدرسة من أغسطس ١٩٤٢ م حتى نهاية مايو سنة ١٩٤٣ — تحت عنوان « السياسة الحالية » الموضوعات التالية :

— تكوين ما يسمى : « اللجنة الحكومية العليا لبحث الأعمال الوحشية ، التى يرتكبها المحتلون من الفاشيين الألمـانيين » (٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) •

— بدء الهجوم المضـاد للجيش الأحمـر عند « ستالينجراد » (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) •

— حركة « فيرابونت — جولو فاتيى » • التى تكونت فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ م عندما تبرع أحد الفلاحين وهو « فيرابونت — جولوفاتيى » فى المستعمرة الزراعية الجماعية « شتاخانوفس » فى مركز « نوفوبوكرو » فى منطقة « ساراتوف » للجيش الأحمر بمبلغ ١٠٠ر٠٠٠ « روبل » كى يصنع طائرة لابنه الذى كان طيارا فى الجيش • (هذا الاتجاه الذى أعد لهباحكام من قبل ، أرسله « جولوفاتيى » فى خطاب الى « ستالين » ثم تلقى خطاب شكر منه ، وبعد ذلك بدأت حركة فلاحى المستعمرة فى دفع مدخراتهم الشخصية لبناء دبابات وطائرات) •

— تطبيق تغيير الزى العسكرى فى الجيش الأحمر (٧ يناير سنة ١٩٤٣ م) وفى الأسطول الحربى (١٦ فبراير سنة ١٩٤٣ م) ، وعليه العلامات الصدرية التى ألغى حملها بعد ثورة عام ١٩١٧ ، كذلك حمل نجم المارشال (٢٨ فبراير)

— الانتصار فى المعركة عند « ستالينجراد » (٣ فبراير ١٩٤٣ م)

— وناقشنا فى المجموعة الألمـانية أيضا تكذيب « تاس » المشهور فى ١٣ فبراير (نفت « تاس » فى هذا التكذيب الأخبار الأجنبية التى تقول بأن الجنرالات الذين أسروا عند « ستالينجراد » لم يعاملوا كأسرى حرب ، بل وجهت اليهم المسئولية فى الجرائم التى وقعت فى « أوكرانيا » • مثل هذه الأنباء — كما شرحت « تاس » — أعدتها جهات موالية للفاشية ، وهى كذب من أولها الى آخرها •

— أخبار نجاح الجيش الأحمر فى هجوم الشتاء ١٩٤٢ — ١٩٤٣ م (١٣ ابريل سنة ١٩٤٣) فى استرداد ٤٨٠ر٠٠٠ كيلومتر من الوطن السوفييتى فى الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ حتى ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ومن بين المدن التى حررت :

(Wjaslaw, Gshatsk, Woroschilowgrad, Kursk, Rostw und Schachty).

كذلك المدن القوقازية الشمالية :

(Krasnodar, Naltschik, Kislowodsk, Jessentuki, Maikop und Pjatigorsk).

— المذكرة السوفييتية فى ٢٨ ابريل عن قطع علاقة الاتحاد السوفييتى بحكومة بولندا فى المنفى (اهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا لدرجة أنه بعد أن درسته كل مجموعة على حدة دراسة تفصيلية ، ألقى فيه « يعقوب بيرمان » محاضرة عامة لكل الدارسين فى المدرسة) •

درسنا هذا — وكذلك حوادث أخرى — بالتفصيل فى الحصص المحددة لدراسة « السياسة الحالية » ، وكان على كل دارس فى مجموعتنا أن « يعبر عن رأيه » تجاه هذه الأحداث — حتى ولو كان زملاؤه الذين سبقوه فى الكلام قد قالوا كل ما يريد التعبير عنه •

استطاع كل دارس بهذه الطريقة ، أن يتجاوب مع المسائل السياسية السوفييتية بسرعة ، وأن يتخذ الموقف « السياسى الصحيح » ، ويمثل — عند غياب التوجيه الرسمى — الاتجاه « الصحيح » والدعاية له •

وهكذا أنتج « الاتصال بين النظرى والعملى » هدفا مزدوجا ، ففى الناحية الأولى وجهنا لاستعمال معلوماتنا النظرية فى البلد الذى سنعمل فيه فيما بعد ، وفى الناحية الأخرى تحولنا بطريق الالزام — ليس فقط نتيجة لدراسة التاريخ السوفييتى ، بل أيضا نتيجة لمناقشة الأحداث الهامة فى الاتحاد السوفييتى — الى مداومة تتبع الأحداث فى الاتحاد السوفييتى ، والى تفسير موقف الاتحاد السوفييتى من الأحداث العالمية ، والدعوة له ، والدفاع عنه •

على الرغم من بعض نقاط الضعف — مثل ما كان فى مناقشة « المسائل السياسية » فى ألمانيا — فقد كان التثقيف السياسى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — حسب النظرة العامة — ممتازا ، وكان مفيدا جدا « للستالينية » •

يظهر لى أن كثيرا من الدوائر فى الغرب — وعلى الأخص فى الأعوام الأخيرة — يستولى عليها التفكير العسكرى ، لدرجة أنها مليئة بالتقديرات التخمينية عن الذرة والسلاح النووى السوفييتى ، ولم يكرسوا أدنى جهد للمدارس السياسية المنظمة تنظيما رائعا ، حيث يتثقف أعضاء الحزب أيديولوجيا فى « الستالينية » •

❀ ❀ ❀

التقارير الأخبارية السرية

كان ثلث وقت الدراسة تقريبا مكرسا للاطلاع ، وكنا نحصل على المراجع اللازمة من المكتبة ، حيث يوجد عدد كاف من معظم كتب « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والكتب الأخرى •

وجدت أيضا تراجم لأهم الكتب ، لكل الدارسين ، بكل لغة ، وكنا نضطر فى حالات قليلة جدا الى الاكتفاء بما كتب بالروسية • فكان يكلف أحد الشبان بترجمة النصوص المطلوبة للزملاء كبار السن •

لم يجد المرء فى المكتبة كتب : « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والمراجع الحزبية الأخرى فقط ، بل أيضا تقارير اخبارية ، مطبوعة بطريقة التصوير ، وهى بالتأكيد ليست للتوزيع العام ، فقد كانت بعنوان « سرى » أو « سرى جدا » •

وضعت هذه التقارير الاخبارية اليومية فى المكتبة حسب البلاد ، اذ هى عبارة عن أهم التعليقات الاذاعية ومقالات الصحافة الأجنبية ، ويبدو أنها من اخراج جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « أوفا » ، على شكل سلسلة مرقمة بأرقام مسلسلة ، ولا تقرأ الا فى قاعة المطالعة ، ولا يمكن الحصول عليها الا بعد كتابة استمارة استعارة •

عندما قرأت أحد هذه التقارير ، شعرت وكأن صاعقة أصابتنى ، ومما لا شك فيه أننى تأكدت فى محاضرات أيام الآحاد فى اللجنة المحلية للحزب فى « كاراجندا » أن المحاضرين يعلمون أكثر مما نعلمه من الصحافة السوفييتية ، ولكنى لم أستطع أن أعرف مصدر هذه المعلومات •

والآن ! عرفته ! ••

غير أنى لم أدرك فى ذلك الوقت ، أن هذا النوع من التقارير الاخبارية كان واحدا من أنواع كثيرة ، فقد وجدت سلسلة أخرى وضعت — وأحيطت باجراءات سرية مشابهة — ليقرأها زعماء الحزب فى طبقة القمة ، وكبار رجال الدولة فى الاتحاد السوفييتى • وواضح أنه كان — ولا يزال — هناك تصنيف دقيق للتقارير الاخبارية ، طبقا لمجال نشاط عضو الحزب ، والطبقات القيادية العليا ، فنشأ عن ذلك طبقات هرمية فى تلقى المعلومات •

لا زلت أذكر بالضبط شعورى عندما أمسكت لأول مرة بتقرير اخبارى فى يدى ، فقد اعترانى شعور بالثقة والفخر لأنى أصبحت واحدا

من أولئك القياديين ، الذين نضجوا سياسيا ، لدرجة أنه قد وثق به فى اطلاعه على تلك المعلومات •

فكر الشباب الآخرون أو شعروا بمثل هذا ، وربما كان هذا شعور كل قيادى فى طبقته ، ارتفعت تلك الطبقة أو انخفضت •

كان موضوع التقارير الموجودة فى مدرسة الجبهة ، مختارات من وسائل الاعلام فى الدول الأجنبية ، وبمعنى أدق فى دول الحلفاء ، والدول المحايدة • فكان فيها خطب زعماء تلك الدول ، التى نشر ملخصها فى الصحافة السوفييتية ، أو التى لم ينشر عنها شىء اطلاقا ، والمقالات المهمة من الصحافة الأمريكية والاسكندنافية ، والانجليزية ، والسويسرية ، وتقارير عن الاجتماعات الحزبية لمختلف الأحزاب فى بلاد الحلفاء ، والدول المحايدة ، كذلك أهم التعليقات الاذاعية •

قرأت بشغف كبير ما كتبه « البروفيسور » السويسرى « فون زاليس » ، ومما كان مثيرا للاهتمام أنه جاء فى هذه التقارير بيانات أحزاب شيوعية ، لم تنشر فى الصحافة السوفييتية ، بسبب موقف الاتحاد السوفييتى فى السياسة الخارجية • مثل :

قرارات ومقالات الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى فصل رسميا من جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

خطب ورسائل « ماوتسى تونج » الى جيش العصابات فى العاصمة اليابانية (وكان السبب فى عدم نشرها فى الصحافة السوفييتية ، علاقة اليابان آنذاك بالاتحاد السوفييتى) •

وأخيرا أمكن للمرء أن يقرأ أيضا فى هذه التقارير منشور جيش العصابات ، الذى كان تحت قيادة « تيتو » ، ولم ينشر أيضا فى الصحافة السوفييتية ، لأن الاتحاد السوفييتى حرص آنذاك على المحافظة على العلاقات الطيبة بينه وبين الحكومة الملكية اليوغسلافية التى تكونت فى المنفى ، فى لندن •

وكثيرا ما كانت تصدر طبعات خاصة من هذه التقارير فى أحداث معينة ، حيث ينظم كل ما يتعلق بالحدث من أدلة تنظيما كاملا ، يعطى للقارىء صورة واضحة وشاملة عن ظروف الحدث وملابساته برمتها •

احتوت هذه التقارير على كل شىء ، يجب أن يلم به كل قيادى فى الحزب ، يهتم بالمشاكل العالمية • ونظرا لأنها جمعت بطريقة رائعة ،

وتحتوى على معلومات فى غاية الأهمية ، فقد تعودت على قراءتها بانتظام — حتى ولو بخرت من رأسى كل ما يتعلق بالدراسة الاجبارية فى المدرسة •

كانت هذه التقارير لكل المجموعات ، وقد حصلنا نحن — أعضاء المجموعة الألمـانية — زيادة على ذلك ، على تقارير مطبوعة بالتصوير « الفوتوغرافى » ، ومكتوب عليها أيضا « سرى » ، وكان موضوعها مقتطفات من خطابات الأسرى الألمـانيين ضباطا وجنودا الى ذويهم فى ألمـانيا • ومن المحتمل جدا أنها صادرة من الادارة المركزية للشئون السياسية فى الجيش الأحمر • ظهرت نسختين من هذه التقارير :

١ — مقتطفات من خطابات الضباط والجنود الألمانيين الى ذويهم فى ألمـانيا •

٢ — مقتطفات من خطابات الشعب الألمـانى الى أبنائه فى جبهة القتال •

ويبدو أن كل الخطابات ، التى وقعت فى أيدى الجيش الأحمر أثناء تقدمه ، قد استغلت بدقة وعنايـة ، فقد جمع فى التقـارير المطبوعة بالتصوير « الفوتوغرافى » الأقوال التى تتعلق بالموضوعات السياسية ، وكنت تجد العناوين التالية :

« أقوال عن الحرب بصفة عامة ، التموين ، الغارات ، العمال الأجانب فى ألمـانيا ، أحوال أسرى الحرب ، العلاقة مع الحلفاء (ايطاليا ، المجر ، اليابان ••• الخ) الوضع فى البلاد المحتلة » •

لم تكن هذه الأقوال مصبوغة بالصبغة الدعائية ، وجمعت أقوال الجميع ، سواء أكانت مع النازية أو ضدها • ولكن كان من النادر — بوجه عام — العثور فى الخطابات على معلومات سياسية واضحة ، الا أنه وجد مرة اشارة صغيرة فى هذا الصدد :

كتب أحد الجنود الى زوجته فى الوطن : « لقد طفح بى الكيل من هذه الحرب » فكتب الرقيب على هذا الخطاب : « وأنا أيضا » •

كتب تحت كل جملة تؤخذ من الخطابات : اسم المرسل ، واسم المرسل اليه ، والعنوان والتاريخ ، وبهذا أمكننا استنتاج تحليلات — وان كان ذلك مشفوعا بالتحفظ — عن الشعور السائد فى أجزاء مختلفة من ألمـانيا •

وبالاضافة الى التقارير العامة ، والتقـارير التى احتوت على مقتطفات من الخطابات ، فقد حصلنا بانتظام — على صورة تقارير أيضا —

على جميع المواد الرسمية • عن ألمــانيا الهتلرية ، كل القوانين التى أصدرتها حكومة « هتلر » ، كل خطب « هتلر » و « جوبلز » و « هيملر » و « شبير » و « بالدور فون شيراخ » ••• الخ ، ومقالات « جوبلز » ، والتعليقات الاذاعية التى كتبها « فريتشى » ، وكل التقارير الهامة الأخرى من الصحافة النازية ، وكذلك كل المقالات الجوهرية ، التى نشرت فى الصحافة المحايدة ، وصحافة الحلفاء عن الوضع فى ألمــانيا الهتلرية •

ويبدو أننا لم نكن الوحيدين الذين كانت ترسل اليهم هذه المواد ، لأنه عندما تقابلت فيما بعد — فى مايو سنة ١٩٤٥ م فى برلين — مع بعض كبار ضباط الجيش السوفييتى العاملين فى الادارة السياسية ، تعجبت من غزارة معلوماتهم عن ألمــانيا — من المحتمل أنهم درسوا أثناء الحرب مثل هذه المواد التى كانت ترسل الينا •

* * *

دراســتنا العســكرية

أعلن بعد وصولى الى المدرسة بوقت قصير ، أننا سنأخذ مستقبلا دراسات عسكرية •

قسم كل الدارسين والمعلمين — من كل الجنسيات — فى الدروس العسكرية الى ثلاث مجموعات :

الأولى : من الأسبانيين والفرنسيين والايطاليين •

الثانية : من الألمــانيين والنمساويين ، والألمــانيين من مناطق شرق أوروبا •

الثالثة : من البلغــاريين والرومــانيين والمجريين والتشــيكيين والسلوفاكيين •

عين قائد خاص للدروس العسكرية ، بينما أصبح مدرس المجموعة وقائدها فى الدروس الأخرى « جنديا » بسيطا مثل تلاميذه •

كان معظم قواد المجموعات العسكرية والحكمداريين من القياديين فى الحزب ، الذين اكتسبوا خبرات عسكرية فى الحرب الأهلية الأسبانية •

كان حكمدار المدرسة برتبة « جنرال رئيس أركان حرب » ، وهو شاب نمساوى يدعى « مارتن جرونبرج » وكان يعرف فى المدرسة باسم « فيليكس فالكى » •

كان تعيينه فى هذا المنصب أمرا غريبا ، فهو قد جاوز العشرين

بأعوام قليلة ، وليس لديه أى خبرة عسكرية ، ولم يكن فى أسبانيا ، ولكنه تلقى تدريبات عسكرية فى الاتحاد السوفييتى ، وكانت المدة التى قضاها فى هذا التدريب قصيرة • أصبح كثير من المشتركين فى هذه الدورة ، الذين كانوا جنودا وضباطا فى أسبانيا — حتى جنرالات — تحت امرة هذا الشاب •

كانت الدروس العسكرية تشتمل على تدريبات ، وشرح كيفية استعمال السلاح ، و « الاستراتيجية والتكتيك » •

درس لنا « الاستراتيجية والتكتيك » ضابط سوفييتى ، على مسطح من الرمل ، وكان التكتيك على طريقة حرب العصابات ، فكان يجب علينا على الأقل — كما شرح لنا هذا الضابط — معرفة أسلوب قتال جنود العصابات • وبعد دروس قليلة من التدريب على مسطح الرمل ، انطبع فى ذهنى أن هذه التدريبات لا تبعد فى الحقيقة عن محاولتنا وضع لجان شعبية فى منطقة ما على الورق فى حلقات الدراسة •

كان شرح السلاح والتدريب على استعماله أكثر جدية من التدريب على الرمل ، فهنا كان الاستيعاب صعبا جدا بالنسبة لغالبية الدارسين ، الذين لم يمسكوا من قبل قطعة من السلاح فى أيديهم ، اذ وجب علينا فى زمن قصير تعلم : كيفية استخدام القنابل اليدوية ، وزرع الألغام ، وفك أجزاء المسدسات ، والبنادق والأسلحة « الأتوماتيكية » الخفيفة والثقيلة ، فكها وتركيبها بسرعة البرق ، كما وجب علينا معرفة الرتب والعلامات السوفييتية بنفس درجة معرفتها بالنسبة لوطن الدارس •

فرض علينا فى المساء — بجانب الدروس السياسية — حضور دروس « مقوية » فى المعلومات العسكرية عند الرفقاء المتقدمين فى السن ، وكان مدرس هذه الحلقات لمجموعتنا الألمـانية ، هو « أوتو » الذى اشترك فى حرب أسبانيا مدة ثلاثة أعوام • وكان أضعفنا فى المواد السياسية والنظرية ، ولكن كانت عنده ذاكرة قوية فى استيعاب أجزاء السلاح •

وكما هو الحال لدى المتخلفين ثقافيا ، فقد حاول « أوتو » التباهى بقدرته فى هذه الناحية ، فكانت دروس التقوية عنده فظيعة ، بالنسبة لنا جميعا ، ولكن لم يكن لنا اختيار ، فقد كنا ملزمين بدراسة كل المقررات •

وأخيرا وصلنا الى الوضع الذى كان فى استطاعتنا فيه البدء بالتدريب على اطلاق النار ، وسرعان ما اقترب يوم الامتحان • أخذنا

الذخيرة وكان علينا اجتياز امتحان اطلاق النار فى الأسلحة التى يحددها الممتحن • ثم فوجئنا بنجاح كل الدارسين تقريبا •

ثم بدأت التدريبات الميدانية العسكرية ، التى أخذت منا ساعات كثيرة — وأحيانا وقت ما بعد الظهر كله — من وقتنا الضيق •

كانت تطلق الصفارة أحيانا فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، وعلينا فى مدى دقيقتين أن نكون فى وضع انتباه فى ساحة التدريب •

ذاب تذمرى من دروس « مسطح الرمل » بعد وقت قصير ، وأخذت التدريبات الميدانية فى بادىء الأمر مأخذ الجد ، ولكن بدأ تحمسى يذوب بعد فترة وجيزة ، فذات يوم تلقيت أمرا بأن أقوم بمناورة مع أحد الذين قاتلوا فى أسبانيا •

تسللنا فى منطقة تغطيها الغاب والحشائش المرتفعة ، ثم سألته هامسا : « هل تسللنا صحيحا ، وعلام يتوقف الأمر ليكون صحيحا » ؟

فأجابنى هامسا : « الصحيح ، هو أن تنسى كل هذا بعد أن ننتهى من هذه الدورة مباشرة » •

نظرت اليه مستغربا ، فقال :

« اقفل فمك الآن ، فما نفعله هنا عبث كله • اسمعها منى نصيحة : انس كل هذه القذارة ، لأن الوضع فى الحرب يختلف تمام الاختلاف » •

كان للتدريبات العسكرية ، تمثيلية سياسية جانبية ، فقد فرض علينا عند السير بالخطوة العسكرية ، أن نغنى أغانى روسية ، أو أغانى عسكرية أسبانية • ولكن فى مجموعتنا التى تتحدث اللغة الألمانية ، كنا نغنى أغانى أخرى مثل أغنية « البندقة سوداء سمراء » وأغنية « لورى •• لورى •• جميلات ، بنات ١٧ و ١٨ » •

وذات يوم قال لنا حكمدار مجموعتنا ، أنه لا يجوز لنا بعد اليوم أن نغنى أغنية « لورى •• لورى •• جميلات ، بنات ١٧ و ١٨ » لأنها أغنية فاشية •

فقررنا — نحن الدارسين الملتزمين بالنظام والأوامر — ألا نغنى بعد ذلك الأغنية الفاشية « لورى » •

وعوضنا عنها بتكرار أغنية « البندقة سوداء سمراء » ولكن بعضنا — وأنا منهم — كانوا حذرين ، فشاركوا فى الأغنية بصوت منخفض جدا ، خوفا من أن تكون أيضا أغنية فاشية ، ولحسن الحظ كان القرار أنها ليست « أغنية فاشية » •

❋ ❋ ❋

الاسترخاء الطبيعى ومجالس السمر المنظمة

اعتقدت أنى طالب مثالى ، ومجتهد فى تحصيل دروسى بشغف ونهم ، حتى دخولى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • ولكن سرعان ما تبينت أن أكثر الدراسة نشاطا فى أحد المعاهد العليا السوفييتية ، لا تساوى الدراسة فى مدرسة الجبهة ، فلم يكن لدينا راحة سوى ما يقرب من ساعة واحدة بعد تناول الغداء ، ثم باقى الوقت مملوء حتى المساء ، بحضور الحلقات الدراسية والمذاكرة التى تخضع غالبا لرقابة زعيم المجموعة أو مشرف الفصل •

كان عندنا — من الوجهة الرسمية — وقت فراغ بعد العشاء ، ولكن رغم هذا لم يكن من النادر أن ترى معظم الدارسين فى قاعة المطالعة ، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ، أى بمقدار نصف ساعة قبل « نداء النوم » (الذى قدم فيما بعد الى الحادية عشرة أو العاشرة والنصف) • وينتهى اليوم الرسمى بعد « نداء النوم » غير أن للطلبة الحق — تبعا للحاجة الى ذلك — أن يستمروا بعد هذا الوقت فى المذاكرة فى قاعة المطالعة •

سمعنا فى بداية الدورة عن علم الأخلاق • وكانت القواعد الأساسية قاسية ، لدرجة أن الطلبة القدامى — وحتى المدرسين الصارمين فى تنفيذ قواعد النظام — هزوا رؤوسهم ارتيابا فى صحة تنفيذ هذه القواعد •

صدرت الأوامر بأنه لا يجوز لأى دارس أو مدرس شرب نقطة واحدة من المواد الكحولية ، ولم يستثن من ذلك أيام الأعياد والاحتفالات الرسمية مثل : أول مايو ، و٧ نوفمبر ، وأول العام الجديد •

وأوضحوا لنا بأسلوب لا يحتمل التأويل ، أن أى واحد يحاول الحصول — بطريقة ما — على كأس من الخمر ، سيعاقب عقابا صارما • ولم يكتفوا باصدار أوامر التحريم ، بل برروا اصدارها من الوجهة السياسية ، والأيديولوجية ، بواسطة القواعد العامة ، وكذلك بواسطة سرد أمثال مرعبة :

كيف قضى على مجموعات سرية بواسطة كمية صغيرة جدا من الكحول ، وسيق رفقاء الى المشانق ، وأصيبت حركات سرية بضربة قاضية •

صورت لنا هذه الأحداث بصورة واضحة ومؤثرة لدرجة أن المرء يمكن — بعد سماعه هذا — أن يقتنع بأن هزيمة الثورة فى الفترة من ١٩١٨ — ١٩٢٣ م فى مختلف البلاد الأوروبية ، كانت بسبب أن واحدا من القياديين تناول كأسا من الخمر فى ليلة رأس السنة •

التزمنا جميعا — تقريبا — بهذا الأمر أثناء مدة الدورة الدراسية ، ولم ينفذ العقاب الا فى حالتين فقط تجاوز فيهما المعاقبان حدود النظام تجاوزا بسيطا •

لم يحرم علينا الكحول فقط ، بل أيضا كل ما يتعلق بالعـــلاقات الجنسية ، وقد سبب هذا التحريم « أيديولوجيا » أيضا ، فقد شرح فى احدى المحاضرات :

كيف قضى فى ايطاليا على مجموعة سرية ، لأن قائدها وقع فى حب ، فقد كلف بالسفر بجواز سفر مزور الى باريس فى قطار الساعة الرابعة ، وحرم عليه تحريما قاطعا زيارة أحد قبل السفر ، ولكنه ذهب لزيارة صديقته قبل السفر ، فباغتته الشرطة هناك • وقد ناله هو نفسه ١٥ سنة أشغال شاقة ، ثم اكتشف زملاؤه فيما بعد ، وألقى القبض عليهم •

وفى الواقع ، كانوا يقربون الأبرياء من الوقوع فى الشرك ، فاذا تكرر تجول شخص فى فناء المدرسة ، يبلغ عنه بسرعة ، ثم تبدأ عملية النقد والنقد الذاتى •

لم يكن من السهل المحافظة على هذه القاعدة ، وخاصة الرفقاء والرفيقات ، الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٣ سنة • وكانوا أكثر من نصف الدارسين فى المدرسة • كان فى المجموعة الايطالية ، وكذلك فى المجموعة الأسبانية ، مجموعة من الفتيات ، جمالهن ساحر • كان حول المبنى الرئيسى عدد من شجيرات الزهور التى تفتحت فى الربيع ، وانبعثت منها روائح طيبة فاحت فملأت الجو عبقا ، وكان من الصعب على فتاة أسبانية الامتناع عن استنشاق هذا العبير الطيب •

وقع فى حبها أحد الدارسين البولنديين ، فقيد الى عملية النقد والنقد الذاتى فأعلن توبته ورجوعه الى التزام النظام •

وقع أيضا « شاركو » ابن « تيتو » فى حب فتاة أسبانية ساحرة ، وأصر على ذلك فطرد من المدرسة •

كان وقتنا كله مشغولا بالدراسة ، ولم يكن لدينا وقت فراغ سوى نصف يوم السبت ويوم الأحد .

سمح لنا أن نعمل كل ما نريده فى نهاية الأسبوع ، ماعدا الشرب والحب ، وذكر أسمائنا الحقيقية ، وذكر أى شى عن حياتنا السابقة أو ذكر شيء عن حياتنا الحالية فى الخطابات . ما عدا هذا فجائز ، فمسموح لنا أن ننام ، ونتجول أو نلعب كرة القدم أو نتسامر ، أو نغنى أغانى جماعية .

كانت أمزجة الجميع معتدلة فى أحد أيام الآحاد بعد الظهر ، تواجد الشبان من المجموعة الفرنسية والأسبانية والايطالية والمجموعات الثلاث الذين يتكلمون اللغة الألمـانية ، فى احدى الحجرات ، وبدأوا يغنون أغانى عسكرية ثورية ، ثم تحولت الى أغانى شعبية ، وعاطفية .

« من يعرف منكم أغنية عاطفية أخرى » ؟ صاحت فتاة أسبانية بهذه الجملة ، دون أن نشعر بأنها كونت « أوركسترا » بها .

فصاح فرنسى : « أنا أعرف كثيرا » فرجاه الجميع فى أن يغنى شيئا مما يعرفه ، فلم يتردد ، وقف على الكرسى ، وغنى أغانى حب ، ومقطوعات عاطفية ، وكون الأســبانيون فرقة « كورال » خلفه ، وبعضهم كان يضرب الألحان بأصابعه وفمه .

اندفعت الفرقة معه ، واحد يمط فمه ليتلاءم مع النغم ليصاحب الفرنسى فى الأغنية ، والآخر أحضر مشط الشعر ليقوى فرقة المصاحبة ، وبعد دقائق وجدت آلات أخرى .

وقبل أن نفيق من الاندماج مع هذه الأغانى الفرنسية ، تكونت فرقة رومانية أسبانية .

وفجأة دخل « ميخايلوف » الحجرة فأحاط به الأسبانيون بسرعة ، وبدأوا يقولون له كلاما باللغة الأسبانية ، كانوا يتكلمون بسرعة عجيبة ، أومأ برأسه ، وانفجر غاضبا ، ثم أخبرنا الآخرين بما حدث .

كان مسموحا لنا أن نرقص فى مساء كل سبت على وقع أنغام فرقتنا التى كوناها من بيننا ارتجالا .

تطورت الفرقة ، وكان قائدها بالطبع الفرنسى ، وظهر أن لا آخر لمـا يحفظه من أغانى . وعلمنا فيما بعد أنه كان مغنى عاطفى فى احدى مقاهى باريس . كنا نفاجأ كل سبت بأغانى جديدة من بلاد كثيرة ، وكانت تغنى كلها — تقريبا — باللغة الفرنسية والأسبانية ، لأنه لم

يكن بيننا انجليزى ولا أمريـــكى ، وليس بين المجموعـــة الألمـــانية والنمساوية الا عدد قليل من الأغانى العاطفية • أما المجموعات الأخرى فكان فيها عدد أكبر من الموهوبين فى الغناء • فقد حدث مرارا أن اتجهت بعد الرقص احدى الأسبانيات أو المجريات أو التشيكيات أو البولنديات الى الفرقة وأسكرتنا بأغنية عاطفية جديدة •

ظهر أنه كان من بيننا أخصائيون بجانب مغنى المقاهى الفرنسى ، مثل : « خونيتا » من برشلونة وكانت رائعة فى أداء :

(Tango yo te quiero mucho)

كانوا كلهم مسرورين عندما كانت تغنى الا أنا ، لأنى كنت أحب الرقص معها مدة أطول ، ولكن فى حدود المسموح حتى لا أقع فى مأزق النقد الذاتى •

سألتها مرة : « أنت رائعة فى الرقص والأغانى ! أين تعلمت هذا » ؟

— « أوه ! ليندين ! ألا تعلم ، أين نحن » ؟

ثم تبسمت ، ولم تجب على سؤالى •

كانت أمسية الرقص فى نهاية الأسبوع بالنسبة لنا استجماما ، واسترخاء للأعصاب المشدودة طول الأسبوع ، فقد كان الوقت الوحيد فى الأسبوع ، الذى تتحرر فيه أفكارنا من الموضوعات الســياسية والعسكرية •

وسرعان ما تحولت أمسية الرقص الى « أمسية منوعات » ، يظهر على المسرح أحد الدارسين أو مجموعة تنشد الشعر ، أو تغنى ، أو ترقص أو تمثل احدى المسرحيات الصغيرة • وكان الأسبانيون أكثرنا نشاطا فى هذا المجال أيضا • وشيئا فشيئا تعلمنا كل الأغانى الأسبانية ، بينما لم نتعلم من الأغانى الأخرى الا آحادا •

كان على فرقتنا بالاشتراك مع المواهب الأسبانية فى الرقص والغناء أن تزيد من نشاطها وتوسع برنامجها • اذ بدا أن قائد المدرسة أدرك أن استرخاء الأعصاب المشدودة عن طريق اقامة الحفلات أمر ضرورى ، وبناء عليه فقد توصل الى « قرار » وعقب هذا مباشرة كان هناك اجتماع لمعالجة ما يسمى « الاسترخاء » • ألقى فيه « كلاسنر » كلمة جاء فيها :

« ••• أخطار أعباء الدراسة الثقيلة ••• لا يمكن أن يجلس الرفيق فى قاعة المطالعة حتى الساعة الثانية صباحا •• العبء الزائد عن الطاقة لا يفيد أحدا •• • كذلك وقت الفراغ من الأمور الضرورية ••• أغانى جماعية ••• راحة منظمة » •

وهكذا أصبح لدينا « راحة منظمة » وبالأخص على طريقة « أمسيات سمر » و « مقابلات استجمامية » جماعية .

حدد بالضبط أين ومتى نتقابل لنقضى أمسيات سعيدة جماعية ، وماذا سيقدم فى تلك الأمسيات : « ان من الأمور المهمة أن يجتمع الدارسون خارج حجرات الدراسة . ولا يتطلب منا النضال فى ألمانيا ثقافة سياسية وادارية فحسب ، بل أيضا الاتصال بالشعب الألمانى ، الذى يتطلب التكيف بعاداته وتقاليده ، وتحقيقا لهذا الهدف ، يجب علينا حفظ أغانى ألمانية لنغنيها مع المجموعة فى « أمسيات السمر » . هكذا قال لنا « كلاسنير » .

***

نجح تحويل النظرى الى عملى فى هذه المرة ، فقد كنا نجتمع بانتظام فى حجرات الحلقات الدراسية ، أو فى الهواء الطلق ، اذا كان الجو مناسبا . اتخذنا مقاعدنا منتظرين التعليمات ، ولم ننتظر طويلا ، فبعد تجمعنا مباشرة ، وصلتنا نصوص أغانى شعبية ألمانية ، غناها أمامنا الرفقاء كبار السن ، ورددناها — نحن الشبان الذين لم نسمع حتى الآن أغانى شعبية ألمانية — وراءهم فقرة فقرة .

وذات يوم جلسنا — بعد أن قمنا بفك البنادق واعادة تركيبها ، وبعد أن سمعنا محاضرة عن الثورة الصينية — نغنى أغنية ألمانية . كنا نغنى بانتظام ، وبتلك الجدية التى فرضت علينا فى المدرسة ، ولم تكن الجدية فى هذا المقام فى وضعها الصحيح .

ثم سمعنا القائد يقول :

« أيها الرفقاء ! يجب أن يكون الغناء أكثر مرحا وسرورا ، ولا ينبغى أن يكون بهذه الجدية .. » .

توقفنا فيما بعد عن حفظ النصوص عن ظهر قلب ، وأصبحت « أمسيات السمر » ثقيلة فى المجموعة الألمانية ، ففى كل مرة كنت أنتظر بفارغ الصبر نهايتها ، وكنت أشتاق الى الرجوع الى الحلقة الدراسية ، أو الى المكتبة ، ثم كرروا لنا النصيحة :

« اتصالنا بالشعب الألمانى سيقوى ويشتد بواسطة هذا الطريق » فاندفعنا بحماس الى واجبنا الجديد ، وللأسف تأكدت فيما بعد أن الأغانى الشعبية الألمانية التى حفظناها بعد جهد جهيد فى « بشكرين »

لم تساعدنى فى الاتصال بالشعب الألمـانى ، لأنى عندما رجعت فى مايو سنة ١٩٤٥ م الى برلين المحطمة من أثر ما ألقى عليها من القنابل ، لم أجد ألمـانيا يهتم بما جئته به : بالأغانى الشعبية ٠

ولحسن الحظ أعلن عن أسلوب جديد يطبق فى « أمسيات السمر » وهو ألا يقتصر قضاء الأمسية على سماع أغانى شعبية ألمـانية محفوظة ، بل يضاف اليها ، أن يحكى الرفقاء كبار السن للشبان عن خبرتهم ٠

لم تكن هذه الحكايات — باستثناء عدد قليل — سوى تعبير عن آراء الشخص ومفاهيمه ، ولهذا لم تخرج عن كونها نوعا مقنعا من المحاضرات ، وعلى الرغم من أننا سمعنا الكثير من المحاضرات ، فقد اشتركت فى سماع هذه الحكايات لأنها — على الأقل — أحسن من « الغناء المنظم اداريا » ٠

وسرعان ما حلت أمسية ، لا ينسى ما حدث فيها ، فقد حكى « برنارد كونين » تاريخ حياته المشوق ، فتحدث عن ثورة ١٩١٨ م ، وعن الاضطرابات فى وسط ألمـانيا عام ١٩٢١ م وعن عام ١٩٢٣ م ، وعن احتفالات مايو التى شاهدها فى بلاد مختلفة ٠ ومما لا شك فيه أن سرد الاحداث لم يكن سهلا عليه فى بعض الأحيان ، لأنه — طبقا لأقواله — كان ينسجم دائما مع الاتجاهات السياسية الجديدة ، ويقوم بالأعمال التى تتطلبها الأحداث ٠ ولم أعلم شيئا عن هذه الاحداث فى ذلك الوقت ، ثم تحول حديثه الى (Brandler) و « التروتسكيين » فتحدث عن ذلك بالضبط كما كتب فى الدروس ٠

وأحيانا كان يكلف — بجانب محاضرنا — أحد الدارسين كبار السن بالحديث عن تجاربه ، ولم أنس ما قاله أحد الرفقاء الكبار ، الذى جاء الى الاتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٤٠ م أى قبل اندلاع الحرب بوقت قصير ، لم ينضم للحزب رسميا ، بل يبدو أنه قام بمهمات خاصة ٠ استمر يحكى ثلاث ساعات : كيف استطاع أن يتغلب على العقبات التى صادفته ، دون مساعدة من التنظيم الحزبى السرى ، فهو لم يسمح له بالاتصال بهم ٠

كان الوحيد فى مجموعتنا الذى كانت عنده الشجاعة للتعبير عن نقده فى مدرسة الجبهة مثل : الدروس العسكرية « مارتن جرونبرج » الذى عين رئيس أركان حرب ، دون أن يكون لديه أى فكرة عن الشئون العسكرية ٠

وكان يشعر بأنه فى مأمن ، لأنه اعتقد أن هناك ظهرا يحميه ، ولكن خاب ظنه ، فقد طرد بعد أيام قليلة من المدرسة •

هل جاوز حدود المسموح به فى حكايته ، فصرح بأشياء لا يجوز ذكرها ؟ هل كان السبب فى طرده تصريحه بالنقد ؟ هل حدث شىء لمن يحميه ؟

أخبرنا « كلاسنير » بطريقة مختصرة جدا أنه طرد من المدرسة ، فهو لم يرتبط بالحزب ارتباطا صحيحا قط • وكان دائما فى وضع المشكوك فيه •

قابلته بعد سنة فى « أوفا » فرأيت فظاعة حاله ، وعرفت ما معنى أن يصبح المرء فى الاتحاد السوفييتى « معلقا » بالحزب •

* * *

نقدى الذاتى الأول

شعرت فى صيف عام ١٩٤٢ م فى « أوفا » بالفرق بين حياة القياديين من الطبقة العليا وبين الانسان العادى • وصار واضحا فى ذهنى أن الأشياء التى يستطيع المرء كطالب أو عضو فى منظمة الشباب أن يفعلها أو يتحدث عنها ، لا يسمح له بها فى المحيط الحالى الذى أعيش فيه • عزمت عند وصلى الى « كوشناربنكوف » أن أعود نفسى على طريقة الحياة الجديدة ، وتتلخص المسألة فى عدم ذكر شىء عن ماضى حياتى ، وعدم ذكر اسمى الحقيقى اطلاقا ، وليس الالتزام بهذا أمرا بالغ الصعوبة •

كان أصعب من هذا بكثير شيئا آخر ، لم يقله أحد لى ولكن ينبغى على الآن ادراكه •

فكل كلمة تفسر سياسيا •

وكان هذا جديدا بالنسبة لى حتى الآن •

كان يكفى لطالب وعضو فى منظمة الشباب أثناء الأوقات العادية — ويستثنى من ذلك طبعا سنوات التطهير ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م — لو كان ملتزما « الخط الصحيح » فى المجال السياسى ، ألا يعبر عن الأشياء التى لم تتناولها « برافدا » بالشروح والبيان ، وأن يشرح المفاهيم السياسية لدرجة أن السامع لا يمكن أن يفهمها — وحتى ولو

كان أغبى انسان ، أو كان من الذين يتهمون الناس جزافا — على أنها تصريح بمعارضة الاتحاد السوفييتى • وكان بجانب هذا مواضيع بعيدة كل البعد عن السياسية ، يستطيع المرء أن يتحدث فيها حسبما يشاء • لم أدرك فى الأسابيع الأولى فى المدرسة الفرق بين حياتى الماضية ، وحياتى التى بدأتها توا ، فتحدثت فى المجالات التى ليست عليها قيود ، وقلت فيها كل ما فى ذهنى • وفعل هذا أيضا الرفقاء الآخرون من الشبان فى مجموعتنا •

لقد كنا جميعا متفقين — جوهريا — مع النظام ، ولكن لم يمنعنا هذا — نحن التلاميذ — من نقد بعض المظاهر هنا وهناك ، وأن نسخر حتى من أمور فردية ، وبنوع خاص لم يمنعنا هذا من أن نكون أحرارا كلية وغير مقيدين بشىء فى المجالات غير السياسية • وهكذا كما هو حال الشـبان فى سن العشرين فى كل مكان من أرجاء العالم • ولكن كان هذا محرما هنا ، واستخدمت عملية النقد والنقد الذاتى لعقاب من ارتكب هذا الجرم ، وكنت أول الضحايا •

كنا نكلف — فى غالب الأحيان — بأعمال عضلية ، ومعظمها كان لتنظيم وتنسيق المنطقة المحيطة بالمدرسة ، وأحيانا كنا نقوم بأعمال زراعية وغير زراعية خارج منطقة المدرسة •

نودى علينا للتجمع ذات يوم فى فترة الظهيرة :

« أجلت دروس اليوم التى تلقى بعد الظهر ، لأن مجموعتنا استدعيت لتفريغ بضاعة من احدى المراكب البخارية » •

وبعد نصف ساعة كنا على ظهر السفينة ، وكانت محملة بجوالات من الدقيق ، ومطلوب تفريغها حالا •

كان « أوتو » يسخر منا نحن الشباب ، لأنه يحمل جوالين ، بينما نحن نحمل جوالا واحدا ، فتضايق من هذه السخرية ، شاب صغير ، يعانى من قصر النظر ، واسمه « شتيفان » ، ولكن كان عنده الشجاعة للرد على « أوتو » ثم تطور الأمر الى معركة ، حيث ضرب « أوتو » « شتيفان » فى وجهه بقبضة يده ، وكنت واقفا بجانبه ، فانفجرت غاضبا •

وفى اليوم التالى — بعد الظهر — أخبرنا نحن الثلاثة بأننا يجب أن نذهب الى المدير فى الساعة السابعة مساء •

ذهبت الى المدير دون أن يعترينى أى شعور بالذنب ، لأن المفروض

أن « أوتو » هو المذنب ، ولن أكون سوى شاهد فقط ، ولكن المسألة سارت على وضع آخر •

عندما دخلت حجرة المدير أصابنى ذهول : فقد وضعت منضدتان احداهما بجانب الأخرى على شكل منصة فى وسط الحجرة • وجلس بجانب المدير الرئيس العسكرى ، الذى لم نره الا نادرا ، ولم أسمعه يتكلم الا فى حالات أشد ندورة من رؤيته • كذلك كان فى الحجرة أيضا : احدى عضوات الحزب ، قيل انها تعمل فى سكرتارية « ديمتروف » و « باول فانديل » ، والذى أدهشنى هو وجود « ايمى شتنسر » بينهم أيضا ، وهى فتاة لم يتجاوز عمرها التاسعة عشر عاما ، زرقاء العينين ، ولا تفهم فى النظريات السياسية شيئا ، ولكنها ممتازة فى تكوين اللجان الشعبية •

خيم على الجو مظاهر الجدية والرسميات ، كما كان فى محاكم التفتيش • وكان هنا عند الحائط « كنبة » وكرسيان ، قيل لنا بلهجة باردة ، وبصوت منخفض جدا :

« اجلسوا على هذه الكراسى » !

ثم خيم الصمت — مرت دقائق عديدة ، ولم يحدث شىء ، فأحسست بالانقباض على الرغم من أنى مقتنع بأن المسألة لا تمسنى اطلاقا •

وبعد مرور بعض الوقت ، قال « ميخايلوف » بنبرة لم أسمعها منه قبل ذلك : « أعتقد أننا نستطيع أن نبدأ الآن » •

بدأ « باول فانديل » بالكلام ، فشرح ظروف « الحالة » كلها ، وفجأة تأكدت أن المشاجرة عند جوالات الدقيق ، اعتبرت واقعة سياسية خطيرة ، ثم زادت المفاجأة عندما أزاح « كلاسنير » فى تقريره الذنب من « أوتو » المعتدى ، ووضعه على « شتيفان » المعتدى عليه ، فقد أدين بأنه استفز « أوتو » •

سمعت « باول فانديل » (كلاسنير) يقول : « •• ويبدو أن من الضرورى أن نبحث عادات رفقائنا الشبان حديثى السن » وكرر ذكر اسمى كثيرا فى تقريره

استمرت حدة الكلام فى ازدياد مطرد ، ولكن لم نصل الى حد الزمجرة والصياح ، بل كان كلاما باردا ، واقعيا ، ولكن صياغته حادة وعنيفة •

ثم تحدث الآخرون واحدا بعد الآخر ، ولكنى كنت أتابع الكلمات

بصعوبة ، وسمعت مرارا وتكرارا الكلمات : « تصرف غير بلشفى » ، « نقص فى الجدية » ، « عجرفة » •

جلست كالمشلول ، فلم أشاهد مثل هذا قط ، وكان أسوأ شىء هو السكون الكلى ، الذى يتحول اليه كل من فى الحجرة ، فترات السكون ، التى لا يتلفظ فيها بشىء ، ودون أن يخرج أحد لمدة ثانية واحدة من هذه الحجرة التى أحس بأن عليها ثقل جبال الألب •

لم أستطع التفكير ، ما معنى هذا كله ؟ والى أين نحن سائرون ؟ ولماذا لم يقل أحد شيئا قط ؟ ، ماذا سيحدث الآن ؟

مضى الآن ساعة ، ولم يقولوا شيئا محددا عما ارتكبته من ذنب ، ورغم هذا فقد أحسست بأنى مذنب ، شعرت بأنى ارتكبت جريمة ما ، ولكن عدم علمى بهذه الجريمة التى ارتكبتها ، جعلنى كالغريق الذى ليس هناك من يساعده على النجاة •

لم أعلم آنذاك أن ما سمعناه لم يكن سوى تمهيد ، وبعد فترة راحة قصيرة ــ تلك الدقائق الفظيعة التى يسكت الجميع فيها ، فلا يتلفظون بكلمة واحدة ــ سمعت هذه الكلمة :

« أعتقد أن الرفيقة « ايمى » تريد أن تقول شيئا » •

وقفت الفتاة ، ولكنها لم تكن عاجزة ، كما فى حلقات الدراسة ، عندما تعجز عن الاجابة على أسئلة سياسية ، بل وقفت هادئة ، يعتريها الشعور بالسلطة التى أسبغت عليها الثقة بالنفس ، فقلدت نغمة من سبقوها فى الجدية والرزانة •

كان أمامها ورقة مكتوب فيها بعض النقاط ، وبين الحين والآخر كانت تلقى نظرة على الورقة لتواصل حديثها ، فقد كانت تلك النقاط هى بنود اتهام ضدى •

كانت أعصابى ثائرة ، فلم أستطع متابعة كل ما قالته ، وشيئا واحدا لم أنساه حتى اليوم : دقة تقديم الاتهام ، فقد سجل كل ما تفوهت به منذ يوم وصولى الى المدرســة ، مشفوعا بالزمان والمكان تسجيلا دقيقا • فعلى سبيل المثال :

« فى يوم ٢٣ سبتمبر فى الساعة العاشرة والنصف صباحا عندما خرجنا من حجرة الدراسة قال « ليندين » •••••• » •

« فى ٢٧ سبتمبر فى الســاعة ٦ مساء عندما كنا ذاهبين لنغنى أغانى شعبية جماعية علق « ليندين » •••••• » •

كانت كل هذه الأشياء لا أهمية لها لدرجة أنه لو سمعها شخص ،

ليس عنده أى فكرة عن مثل هذه المدرسة ، لاستغرق فى الضحك ، فلم يكن لها علاقة بالسياسة اطلاقا •

وفجأة رفعت « ايمى » صوتها :

« عندما أعلن عن محاضرة عن « الكسندر نيفسكى » قال لنا « ليندين » انه يهتم بهذه المسألة ، وكان مشغولا بدراستها مدة طويلة فى قسم التاريخ فى « كاراجندا » وهو ينتظر بفارغ الصبر ، لينظر عما اذا كان المحاضر سيأتى بجديد فيها » •

ظهرت علامات الجد على وجوه هيئة الادعاء ، فكتبوا بسرعة ملاحظاتهم ، وهزت احدى السيدات الجالسات معهم على المنضدة رأسها متأسفة • يبدو أن هذا التصريح ذنب له وزنه •

ثم تلا ذلك تلاوة أقوال صدرت عنى ، حاولت بكل جهدى أن أحتفظ فى ذاكرتى بكل بنود الاتهام التى تتلى ، ولكن كان الجو قد أثر على نفسيتى فلم أنجح فى ذلك •

« عندما عدنا من التحطيب فى ٦ أكتوبر فى الساعة السادسة والنصف مساء ، ومر علينا بعض الرفقاء من أعضاء المجموعة الأسبانية ، قال « ليندين » لـ« فورستر » ان فى هذه المجموعة فتاة رائعة الجمال » •

انهمك الأعضاء الجالسون على المنضدة فى كتابة الملاحظات مرة أخرى ، وبدا من علامات التأثر على وجوههم أن هذا أيضا ذنب كبير •

انتهت تلاوة بنود دعوى الاتهام ، ثم اعتدل « أوتو » على الكرسى ، وبدا أنه فوجىء بهذا كله • وكان « شتيفان » يلتفت — وهو جالس بجانبى — الى بين الحين والحين ، والخوف يملأ عينيه ، على الرغم من أن اسمه لم يذكر الا نادرا •

ثم تحدثت المرأة التى هى من سكرتارية الجبهة ، وتلاها فى الحديث الرئيس العسكرى ، و« ميخايلوف » ولكن لم يذكروا فى حديثهم تلك الدعاوى التى قرأتها « ايمى » الا عرضا فكانت كلماتهم نقطة البدء للاتهام •

واليوم ، عندما أعود بذاكرتى الى ذلك المساء الذى جرت فيه عملية النقد والنقد الذاتى ، يسهل على التعرف على مظاهر هذا النظام ، فالأشياء التافهة والأمور العرضية التى لا تتعلق بالسياسة اطلاقا ، ينفخ فيها حتى تكبر وتصير مثل الجبال وتحرف حتى يصبح لها الفكر السياسى والطابع السياسى • ثم بعد ذلك يسوى (بدون صياغة) بين

الفكر السياسى وبين العمل السياسى ، ويستنتج من هذا نتائج يشيب لها الولدان •

طبق هذا تقريبا كما يلى :

قال الرفيق « ليندين » أنه درس مسألة « الكسندر نيفسكى » فى « كاراجندا » ثم قال انه ينتظر بفارغ الصبر عما اذا كان المحاضر سيأتى بجديد •

ما معنى هذا ؟ معناه أنه يعتقد أنه يعلم كل شىء ، وأنه ليس من الضرورى أن يدرس • والغطرسة واضحة فى هذا الكلام ، تلك الغطرسة التى قذفت بكثير من القياديين فى الحزب الى الحضيض •

ثم تليت الأمثلة على ذلك — أمثلة فظيعة تشيب لها الرؤوس — من حوادث المقاومة السرية •

كيف أهمل قياديون بسبب الغطرسة اجراءات الأمن ، وأوقعوا باهمالهم رفقاء فى أيدى الأعداء •

وكيف كانت الغطرسة سببا فى الاستهانة بالعقبات التى تعترض طريقهم ، فلم يستطيعوا تأدية واجباتهم •

نعم اذا فكر المرء فى هذه الأحداث حتى نهايتها يتبين له أن مثل هؤلاء القياديين — بدون تحيز فى الحكم — شركاء فى اغتيال رفقاء أجلاء ، وأنهم بغطرستهم قد خدموا أعداءهم •

وكان مثل هذا التفسير بالنسبة للجملة التى قلتها عن الفتاة الأسبانية فى المدرسة •

فليتخيل المرء : « أثناء الحرب ، حيث يدور صراع الحياة والموت ضد الفاشية المجرمة ، وحيث يعطى الشعب السوفييتى كل ما يملك للنضال من أجل الحرية ، ليحرر وطنه ، يعطى الحزب للرفيق « ليندين » فرصة — فى هذه الظروف الحرجة — للدراسة كى يعد نفسه للنضال الذى ينتظره • وللحزب الحق فى أن يطلب من « ليندين » تكريس كل جهوده فى هذا الاتجاه الذى رسم له ، ويستفيد من كل دقيقة للدراسة ، وأن يكون تفكيره كله مركزا على النضال القادم • ولكن فيم يفكر « ليندين » ؟ يفكر فى فتاة أسبانية جميلة ، ويضع اهتماماته الخاصة ومصلحته الذاتية فوق مصلحة الحزب وقد حدث مثل هذا أيضا فى الماضى » •

ثم تليت أمثلة أخرى ، كل مثال يفوق الآخر فى المأساة والفظاعة وهز المشاعر •

كيف نسى قياديون واجباتهم بسبب الحب ؟ فلم يقعوا هم وحدهم فى أيدى العدو ، بل كانوا سببا فى وقوع كل المجموعة السرية فى أيدى رجال الأمن فى البلد ، مسرح عملياتهم •

ثم تليت أمثلة على ذلك من ايطاليا وألمانيا الهتلرية ، وأسبانيا ، وبدا ذلك كله منطقيا لدرجة أنى شعرت بأنى فعلا مذنب ، باقتراف أشياء شبيهة بما ورد فى هذه الأمثلة •

كان التأثير النفسى قويا ، لأنى لم أشاهد مثل هذه المسرحية قط ، فقد كنت طالبا مثاليا فى المدرسة السوفييتية ، وحصلت مرتين على شهادة بأنى تلميذ ممتاز وكانت نتيجة امتحاناتى كلها ممتازة ، وأهلتنى للحصول على منح دراسية دائما •

أصابنى هذا الاتهام الفظيع بضربة قاتلة ، لأنه لم يحدث لى قط نقد أو نقد ذاتى ، ولم أسمع حتى الآن فى هذه المدرسة بالذات ، أى ملاحظة نقد على تصرفاتى •

وأخيرا انتهت كلمة « ميخايلوف » التى كانت آخر كلمة تلقى من هيئة الادعاء فى هذه الجلسة ثم سمعت هذه الجملة :

« الكلمة الآن للرفيق « ليندين » •

أذكر أنى قلت كلاما غير متماسك ، وأنى اعترفت بأن النقد صحيح ، وسوف أحاول اصلاح نفسى ، لقد كان تلعثما ، وتلجلجا أكثر منه خطبة متماسكة العناصر والجمل •

ثم جاءت كلمة الختام ، ومرة أخرى تحدث كثير منهم • لم تختلف النغمة : كان بيان « ليندين » تهربا ، فهو لم يفطن لأصل المشكلة اطلاقا ، وقد دل على سطحيته • اذا كان « ليندين » مستعدا الآن فى هذا المساء ، أن يدلى بهذا الاعتراف فالاعتقاد فى ذلك سابق لأوانه » •

ثم تلا ذلك أمثلة أخرى ، أمثلة عن قياديين أقيمت ضدهم دعاوى ، بسبب أخطاء ارتكبوها ، فاعترفوا بخطئهم بسرعة وبسهولة ، ولكنهم بعد ذلك استمروا فى ارتكاب مزيد من الأخطاء ، فساروا فى طريق هلاكهم •

وفجأة — ولم أكن أنتظر ذلك اطلاقا — سمعت صوت « ميخايلوف » يقول : « أعتقد أننا نستطيع أن ننهى الاجتماع الآن » •

لم يتخذوا قرارا ولا اجراءا ، ولم أتلق أيضا أى تعليمات بما يجب على الآن عمله • لقد انتهى الاجتماع الفظيع القاسى فجأة كما بدأ فجأة •

كان الليل قد انتصف ، وساد السكون المنزل ، فقد استغرق الجميع فى نوم عميق ، صعدت السلم الخشبى ببطء متوجها الى حجرة النوم ، لم أستطع النوم ، وظللت ساعات ، وأنا أتقلب يمينا وشمالا فى السرير ، لم أفهم ما دلالة هذا كله ؟ هل سأطرد من المدرسة ؟ من منظمة الشباب ؟ هل سيعاد ترحيلى الى « كاراجندا » ؟

هيج أعصابى مصيرى المنتظر ، واحساسى العميق بالذنب ، والمأزق الذى وقعت فيه الآن • لقد كنت مستعدا حقا للاعتراف بذنبى ، وقد فعلت ذلك ، وكان هذا خطأ أيضا • ماذا أفعل الآن ؟ لم أشعر قط — حتى فى صحراء « كازاخستان » — بمثل هذه الورطة ، كما فى هذه الليلة فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

كانت الدراسة عادية فى اليوم التالى ، فلم يظهر تغير شىء فى المدرسة ، ولم يعلم أحد — هكذا بدا لى — بما حدث فى مساء أمس فى عملية النقد والنقد الذاتى فى حجرة المدير •

كانت متابعة الدروس ثقيلة ، ولكننى علمت أن تصرفى بعد مساء النقد والنقد الذاتى سيرصد ، ويراقب مراقبة أكثر دقة من ذى قبل • ولهذا واصلت كتابة الدروس وراء المحاضر ، ولكنه لم يكن سوى عمل آلى ، فقد كان ذهنى معلقا بمساء أمس ، وبما سيحدث مستقبلا ، اذ كان واضحا لى أن المسألةلم تنته بعد •

جلست « ايمى » بجانبى ، وكان باديا عليها عدم الاهتمام اطلاقا • باغتتنى الأفكار فجأة بأن طريقتها فى تسجيل الحوادث بدقة ، كانت بغيضة وكريهة جدا •

واستغرقت فى التفكير دون أن أشعر : هل كان هذا هو الطريق الصحيح ؟

هل تكون مثل هذه الطريقة ضرورية ، للصعود الى الطبقات القيادية فى الحزب ؟

فمما لا شك فيه — هكذا فكرت — أنى ارتكبت أخطاء كثيرة ، ومن الطبيعى أن الحزب ليس له الحق فقط ، بل من واجبه أيضا تقويم خطئى فى المدرسة للتغلب على نواحى الضعف عندى • ولكن هل ينبغى أن يكون بهذه الطريقة ؟ فى جو أشد فظاعة من لحظات اصدار حكم قاس ؟ ألم يكن فى الامكان اتباع طريقة أخرى للتقويم وابداء النصيحة ؟

أفزعتنى هذه الأفكار ، ولكنها لم تعد تزيد فى الضغط على نفسيتى •

أليست أحوال المدرسة هى طابع الجو الذى يعيش فيه رفقاء الحزب ؟
ثم تذكرت أفكار أخرى معارضة ، مرت بى سابقا فى زمن حركة التطهير ، عادت الى ذاكرتى مواقف معارضة النظام ففزعت من نفسى ، ماذا يمكن أن يحدث لو صرحت بهذه الأفكار ؟

قررت فى نفسى أن أكون أشد حذرا فى أقوالى مستقبلا ، ولن أتلفظ الا بما هو ضرورى جدا • فسوف أفكر فى كل جملة ، بل فى كل كلمة قبل التلفظ بها • ولكن اعترانى اليأس مرة أخرى :

هل ينبغى أن يكون هذا ؟ هل تكون هذه صراحة ؟ ولكن ماذا ينبغى أن يكون اذن ؟ كيف يمكن أن يكون المرء صريحا ، اذا فسرت كل كلمة عادية ــ من الوجهة الواقعية ــ على أنها تصريح بالعداوة ؟

فزعت مرة أخرى من أفكار الزندقة ، فقد كان اعترافى بالذنب مساء أمس اعترافا لا نفاق فيه ، اذ كنت مقتنعا بأن النقد اللاذع ، الذى وجه الى أمس ، له ما يبرره ، وكنت عازما حقيقة على اصلاح نفسى ، ولكن تبخر هذا الاخلاص الذى كان طابع اعترافى بالذنب •

لو سارت عملية النقد فى مساء أمس ، على خلاف ما سارت عليه ، لصفى اعترافى كل شىء ، وربما لم تدر فى ذهنى أفكار « الزندقة » ، أو على الأقل ربما تأخر ظهورها •

ربما أمكن تحويلى دون ادراك فى هذا المساء ــ كما هو حال القياديين من الروسيين وغير الروسيين ــ الى أداة « للستالينية » ، ولكن كانت النتيجة عكس ذلك •

مما لا شك فيه أنى تربيت فى النظام ، ولا زلت أعيش فيه ، ولهذا لا أرغب فى شىء غير النصر للسلاح السوفييتى • ولا زلت أعتقد اعتقادا جازما أن الاتحاد السوفييتى سيحقق الاشتراكية ، وأن كل الظواهر التى تبدو لى أنها غير مقبولة ليست نتيجة للنظام ، بل تفسر على أنها من الظواهر المصاحبة لتحويل بلد متخلف مثل روسيا الى النظـام الاشتراكى •

لقد رأيت الأخطاء والعيوب بوضوح آنذاك ، ولكن لم أكن أعلم أنها مرتبطة ارتباطا منطقيا بالنظام ، لم تكن بالنسبة لى آنذاك سوى أنها صادرة من قياديين محليين ، حادوا عن الطريق ، أو أنها أمراض أطفال فى مجتمع جديد ، أو اجراءات ، حتم التخلف اتخاذها ، أو ظواهر لسلوك عرضى •

ولكن كانت نتيجة حوادث هذا المساء أنى فكرت فى كل جملة ، وكل كلمة قبل النطق بها ، ولم أسمح لأفكارى المعارضة بالظهور على لسانى ، وأخفيت احساسى الحقيقى ، وادراكى الداخلى فى فهم الأحداث •

كان موقفى من « الستالينية » آنذاك أشد خطورة مما انعقدت بسببه جلسة النقد والنقد الذاتى • ماذا كان يحدث لو صرحت بأفكارى التى لم أعلن عنها حتى الآن ؟ وأعتقد اليوم ، أنى بدأت آنذاك السير فى الطريق ، الذى قادنى بعد سبع سنوات الى الكفر « بالستالينية » ، والهروب من المنطقة الألمـانية ، الواقعة تحت الاحتلال الروسى •

هدأت هذه الأفكار التى استغرقت فيها قبل الظهر نفسيتى نوعا ما ، وأدخلت الطمأنينة فى قلبى • ثم أخبرت بعد الظهر بأنه ستعقد فى المساء جلسة نقد ونقد ذاتى فى مجموعتنا الألمـانية ، ولكنهم لم يقولوا ، حول ماذا ؟ ولا ضد من ؟

خيم على الحجرة جو رسمى مشابها لمـا كان فى حجرة المدير فى اليوم السابق ، واستولى القلق والتوتر على كل الحاضرين •

تكرر كل شىء : وصف الحالة على المركب البخارى ، القاء الذنب على وعلى « شتيفان » ثم انصب النقد كله على •

على الرغم من أنى أسمع ذلك للمرة الثانية ، فقد شعرت مرة أخرى كأن أغلالا تطبق على عنقى • وعادت الى ذهنى الأفكار المعارضة ، التى طافت بذاكرتى قبل الظهر ، واشتدت شيئا فشيئا ، وسرعان ما شعرت مرة أخرى بالحيرة ، فقد كانت هناك دقائق ، بعدت فيها عن متابعة ما يلقى ، لا لأنى فقدت القدرة على التركيز ، بل لأنى سرحت فى أفكار « الزندقة » مرة أخرى •

استغرقت كلمة « فانديل » ساعة ، ومما جاء فيها أن المسألة معقدة جدا ، ولذلك وجب بحثها بحثا جديا فى محيط المجموعة ، وتبع ذلك اعادة سرد الأشياء ، التى لا أهمية لها ، وتفسيرها تفسيرا سياسيا •

ثم ذكر فى آخر الكلمة أن « لينديـن » ألقى أمس بيانا غير كاف على الاطلاق ، ومن واجب كل منا الآن أن يبدى برأيه فى هذا الموضوع •

تحدث كل أعضاء مجموعتنا واحدا بعد الآخر ، وسار كل شىء حسب الخطة الموضوعة ، حتى أعز أصدقائى ، تحتم عليهم الآن أن يلعنونى ، ونفذوا ما رسم لهم ، فقد رسمت خطبة « فانديل » ما يجب

أن تتضمنه كلماتهم فالتزم بذلك كل أعضاء المجموعة غير أن النغمة كانت تختلف من واحد لآخر ، فبعضهم أراد الظهور بمظهر المتحمس للالتزام بالاتجاه الرسمى فاشتد فى صب اللعنات على أكثر مما كان « فانديل » نفسه ، والتزم البعض الآخر جانب الوضع الرسمى لعملية النقد والنقد الذاتى ولكنهم لم يكونوا فى هجومهم مثل المجموعة الأولى .

لم يذكر أحد الطلبة — بدافع الصداقة التى كانت بيننا — اسمى ، وحاول معالجة المسألة « نظريا » ، فبدأ بشرح ملاحظات عامة عن خطورة انطباع السيئة ، ولكن لم ينفعه ذلك ، فقد قاطعه « فانديل » بحدة ، واتهمه بالخروج عن الموضوع الذى نناقشه فى هذه الجلسة . وهكذا قفل الباب فى وجه من يريد الخروج من هذا المأزق بهذه الطريقة .

ومضت ساعات ..

ثم وصلنا الى اللحظة التى وجب على فيها ابداء رأيى .

تحدثت فى هذه المرة وأنا أهدأ وأكثر واقعية من مساء أمس ، فاعترفت بذنبى مرة أخرى ، ولكنى بينت فى نفس الوقت أننى سوف أفكر فى هذا بدقة وحزم . كان الأول حقيقة ، أما الثانى فكان عملية « تكتيك » اضطررت اليها . وأخيرا تعلمت — مما حدث فى مساء أمس — أن الاعتراف السريع بالذنب لا يلقى قبولا . وانتهى المساء ببيان وكلمة أخيرة من « فانديل » .

لم يتخذ قرار فى هذه المرة أيضا ، فلم أعلم بعد ، عما اذا كانت المسألة قد انتهت بهذا ، أو أن هناك اجراءات أخرى ! ولكن ظهر فيما بعد أنها انتهت عند هذا الحد .

لقد كانت أول عملية للنقد والنقد الذاتى فى مجموعتنا ، ثم تكررت هذه التمثيلية فى الأسابيع والأشهر التالية ، حتى دخل كل الدارسين تقريبا طاحونة « النقد والنقد الذاتى » .

لم يغيرنى « النقد والنقد الذاتى الأول » فقط ، بل غير أيضا كل الدارسين فى مجموعتنا . فقد أصبحنا أكثر جدية ، وعلى الأخص أشد حذرا فى تعبيراتنا ، فاختفت الحرارة الزائدة فى السلامات والتحيات ، وتوارت حريـــة الحديث ، والنداءات العاليـــة المعبرة عن الاستحسان والفرح ، فتصرفنا نحن الشبان — الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ١٩ و ٢٣ سنة — كأعضاء الحزب القياديين ، المتقدمين فى السن ، الذين ينتقون كلماتهم بهدوء ، ويفكرون أكثر من مرة قبل أن يعبروا بها على

ألسنتهم ، ومن المحتمل أنى تصرفت آنذاك مثل أولئك القياديين ، الذين تعرفت عليهم فى « أوفـا » وكان تصرفهم معى غير واضح لى قبل بضعة أسابيع .

* * *

النضال ضد المذهبية

أعلن فى جميع المجموعات فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٢ أن زائرا على مستوى عال سيحضر الى المدرسة فى غضون الأيام التالية ـــ سيلقى عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى محاضرة عن الوضع العالمى .

امتلأت قاعة المطالعة ـــ التى تلقى فيها المحاضرات العامة ـــ فلم يكن هناك كرسيا خاليا . وكما هى العادة المتبعة ، جلس على المناضد الخلفية المترجمون ، مع من يترجمون لهم ، وفى الصفوف الأمامية ، أولئك الذين يتقنون الروسية ، ويتحدثون بها كلغتهم الأصلية ، كان الجو يوحى بأن فى الأفق أحداث هامة .

لاحظنا فى هذه المحاضرة ـــ كما كان الحال دائما فى كل محاضرة ـــ الاشادة بالتحالف القوى الذى لا تنفصم عراه بين انجلترا وأمريكا والاتحاد السوفييتى ، والهجوم على « المذهبية » لقد تثقفنا سياسيا بدرجة مكنتنا من ادراك أن هناك خطا سياسيا جديدا ، وأن المحاضرة اشارة للاتجاه الذى ينبغى أن ندرسه بعد الآن .

ولم يخب ظننا ، فابتداء من هذا اليوم ، ازدادت فى كل المحاضرات العـــامة وجميع الحلقات الدراسية التلميحات الى الخطر الجسيم : « المذهبية » .

وأحب أن أنبه القـــارىء الذى ليست له صـــلة بالأيديولوجية « الستالينية » أن من المسلم به أن الأمر لم يكن يتعلق بالدين أو الطائفية الدينية اطلاقا . فقد شرح مفهوم المذهبية فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية على النحو التالى :

« المذهبية فهم سياسى « أيديولوجى » ضار فى الحركات العمالية التى تنكر سياسة تحالف الطبقة العمالية مع الطبقات الأخرى ، وتحاول عزل الحزب عن الجماهير » .

نجح الحلفاء فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٤٢ فى انزال قواتهم فى

شمال أفريقيا ، وفى منتصف نوفمبر بدأ هجوم الجيش الأحمر المضاد عند « ستالينجراد » الذى كان بداية تحول الحرب • ومنذ وقوع هذه الأحداث — ولكن بنوع خاص منذ أوائل عام ١٩٤٣ م — لم يمر يوم فى المدرسة الا ونسمع فيه هدير ضد المذهبية •

لم يتكرر فقط فى كل يوم مدح التحالف بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الغربية فى المدرسة ، ويتخذ كأساس للسياسة الصحيحة ، بل ناقشنا أيضا — باستمرار — ضرورة خلق تحالف بين كل القوى السياسية فى كل بلد ضد « هتلر » ولا ينبغى فى المرحلة الراهنة — هكذا علمونا — أن ننظر الى مصالح السياسية الذاتية ، بل يجب تكريس الجهود أولا لتجميع القوى السياسية والعسكرية ، للنضال ضد الفاشية الهتلرية • ألقى الحزب بأهدافه الخاصة جانبا ، وأصبح واضحا أنه يركز كل قواه ضد هتلر ، ولهذا فسوف يكسب فيما بعد نفوذا حاسما •

لا شىء — هكذا كان التلقين مرارا وتكرارا — أخطر من اتخاذ الاجراءات المرحلية كوضع دائم ، والتمسك بها ، كما لو كانت ضربة لازب •

حاولوا تعبئتنا للنضال ضد المذهبية بسرد أحوال الظروف الصعبة ، وما اقتضته من أحداث وقعت قبل زمن طويل •

ولم أنس مناقشتنا حول موضـــوع « تاريخ الثورة الصينية » ٢٥ — ١٩٢٧ م ، سمعنا محاضرة شيقة جدا عن هذا الموضوع ، ثم وجب علينا مناقشته فى حلقة دراسية ، انهالت الأسئلة عن « الكومينتانج »(١) وتكوينه ، وأهدافه السياسية ، وعن القوى الاشتراكية ، والعلاقة بين الحزب الشيوعى الصينى ، والحـــزب الوطنى الديمقراطى ، ودور « تشيانج كاى شيك » •

دخل « ميخايلوف » أثناء المناقشة ، فجلس بجانب « فانديل » ، لو سمع المناقشة أى انسان ، لاقتنع بأننا نلم بالموضوع ، ونعرف عنه كل كبيرة وصغيرة ، لأننا كنا نجيب على أسئلة « فانديل » الصعبة اجابة صحيحة ، وبالتفصيل • ولكن ظهر أن « ميخايلوف » لم يكن راضيا ، فقد التفت بعصبية الى « فانديل » وقال له :

— « لا تؤاخذنى ! هل يجوز لى أن أسأل سؤالا هنا » ؟

---

(١) الحزب الوطنى الديمقراطى الصينى ، الذى أسسه « صن يات صن » عام ١٩١٢ (م • شامة) •

فقال « فانديل » : « طبعا ! طبعا ! » •

••قال « ميخايلوف » :

« أيها الرفقاء ! المسألة لا تتعلق بأنكم تعلمون كل هذه الأشياء ، طبعا هذا مهم أيضا ، ولكن هناك شيء آخر أهم منه ، اذ تعطينا الأحداث فى الصين من ١٩٢٥ الى ١٩٢٧ نظريات كثيرة جدا ، ويستطيع المرء أن يفهم هذه النظريات فهما صحيحا ، اذا وضع نفسه فى ظروف ذلك العصر • وبهذا يستطيع فى ظروف مماثلة أن يصل الى القرار الصحيح •

« أنتم كلكم تعلمون الظروف العامة فى ذلك العصر ، فمن الناحية الرسمية لا زال الحزب الشيوعى الصينى حليف الحزب الديمقراطى الصينى ، ولكن يبدو أن أيام هذا التحالف معدودة ، ويمكن أن يحدث التصدع فى أى لحظة •

« أحب أن أصور لكم جانبا من الوضع فى ذلك الوقت ، فقد كان للحزب الشيوعى فى « شنغهاى » آنذاك تأثير كبير على العمـال ، وزيادة على ذلك فقد كان عند العمال أسلحة ، فقام الحزب فى حالات معينة بدور السلطة المسلحة ، وفى نفس الوقت كانت جيوش « تشيانج كاى شيك » تقترب من المدينة ، ويمكن أن تصلها فى أى يوم من الأيام التالية •

« ماذا كان ينبغى أن يفعله رئيس الحزب الشيوعى فى شنغهارى ؟ هل ينبغى أن يستقبل جيوش « تشيانج كاى شيك » بالترحاب كحليف ؟ هل يلقى كلمات الترحيب ، ويوزع منشورات التحيات ؟ أو ينبغى عليه أن يستدعى عمال المدينة ، لمقاومة جيوش « تشيانج كاى شيك » ويخرج بذلك من التحالف الذى كان على وشك الانهيار ، حتى ولو لم يحدث ذلك ؟ ••

« ليس ما أقوله خيالا ، بل وقع فعلا ، لقد استمر الرفقاء آنذاك يناقشون الوضع طول الليل » •

وقف « ميخايلوف » عند ذلك ، وسكت لحظة ليفاجئنا بهذا السؤال :

« وأنتم ! ماذا كنتم فاعلون » ؟

خيم السكون التام دقيقة •

لقد شرح الوضع بطريقة مدهشة ، لدرجة أن المرء يمكنه أن يجزم بأنه كان هناك فى تلك الأيام (وهذا ممكن جدا) •

استغرق كل واحد منا فى التفكير ، حقا لقد كانت المسألة معقدة ، وأخيرا طلب أحدنا السماح له بالكلام :

« أعتقد أنه كان من الأصح أن يحافظ المرء على عقد التحالف ، ما دام متأكدا أن المحالفة قائمة على أساس صحيح ، ولكن فى تلك الأيام ، عندما تبين أن « تشيانج كاى شيك » سيخون التحالف فى أى لحظة ، ويستخدمه للضربة القاضية ، كان لزاما على المرء أن يؤيد الحزب ، والعمال الموالين له • ولا يجوز بأى حال من الأحوال ترك عمال « شنغهاى » والحزب الشيوعى فريسة لـ« تشيانج كاى شيك » وخاصة اذا كان سلاحهم أقل ، وهم فى حالة الدفاع عن النفس •

نظر الدارسون الى « ميخايلوف » نظرة تساؤل ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، حتى لم يظهر أى اشارة على وجهه • ثم سأل :

« هل توافقون كلكم على هذا الرأى » ؟

فطلب آخر الكلمة :

« لست متأكدا كل التأكيد ، ولكنى أعتقد أنه على الرغم من كل شىء ، فقد كان ينبغى على زعيم الحزب الشيوعى فى « شنغهاى » أن يستقبل قوات « تشيانج كاى شيك » بمظاهر الترحاب والاخوة ــ حتى ولو كان هناك خطر فى أن « تشيانج كاى شيك » سيدمر التحالف ، ويستفيد من هذه المساعدة ، فى الاستيلاء على مدينة ضخمة • كان الالتزام بالتحالف واجبا ، كى يصبح واضحا لدى كل انسان فى الصين أن « كاى شيك » هو الذى نقض العهد ، وخان الثورة ، وليس الشيوعيون ، وسوف يترتب على اتخاذ مثل هذا الموقف صعوبات وقتية للحزب ، ومن الممكن أن تقع ضحايا ، ولكن ربما كانت هذه السياسة أحسن ، رغم كل ما يعترضها من عقبات » •

مال معظمنا الى تأييد هــذا الرأى ، نظرنا الى « ميخايلوف » لنستشف اتجاهه ، ولكنه لم يقل شيئا فى هذه المرة أيضا ، بل انتظر ، وأخيرا طلبت الكلمة الفتاة « ايمى » التى برعت فى تكوين اللجــان الشعبية •

ابتسمت ابتسامة غير واضحة ، ثم قالت :

« أعتقد أن المرء لا يحتاج الى تقرير هذا أو ذاك • كان يجب اتباع ما يلى :

فمن الناحية الأولى : اصدار بيــان رسمى واستقبال فرقة الحزب الوطنى الزاحفة ، استقبال ترحيب ، ومن ناحية أخرى طبع منشورات

وتوزيعها على العمال تحذرهم من الخيانة المتوقعة من « تشيانج كاى شيك » وينصحهم بالحذر من القاء السلاح من أيديهم ، لأنهم ربما يحتاجون اليه عند حدوث الغدر المتوقع » •

نظر « ميخايلوف » نظرة جادة ، ثم قال بصوت بطىء جدا ، ولكن بالنسبة لطريقته المألوفة حاد نسبيا :

« الاقتراح الأخير مرفوض ، فلا يتعلق تصوير هذه الواقعة بمسألة « التكتيك » بل بالاستكشاف « الاستراتيجى » ، ويجب على الرفيقة « شتيرن » ادراك الفرق •

يكمن الفرق باختصار فيما يلى :

تتكفل « الاستراتيجية » بالقوى الرئيسية للثورة ، وتتغير بتحول الثورة من مرحلة الى أخرى ، ولكن جوهرها يظل باقيا لا يتغير مدة دوام المرحلة الواحدة • ولكن « التكتيك » على العكس من ذلك ، فهو يتكفل بأسلوب التنظيم والنضال الضرورى • وتدور المسألة هنا حول وضع خطوط سياسية لمرحلة قصيرة جدا ، يمكن أن تتغير داخل حدود المرحلة الواحدة ، أو فى اطار الثورة عدة مرات •

لم تنته المناقشة عند هذا الحد ، اذ وقف كل أعضاء المجموعة — واحد بعد الآخر — يبدى برأيه فى هذا الموضوع ، ولكنهم لم يأتوا بجديد ، وانما داروا حول الرأيين السابقين ، بطرق وأساليب مختلفة • وبعد وقت قصير ، وقف « ميخايلوف » :

« لم أعط لكم هذا المثال لذاته ، بل أردت أن أبين لكم به مدى صعوبة اتخاذ قرار سياسى فى بعض الأحايين • ربما يضطر أحد منكم فيما بعد الى اتخاذ قرار سياسى وحده • فالتاريخ ليس تاريخا فقط ، اذا درستم التاريخ ، فحاولوا الانغماس بأفكاركم فى أحداثه ، فذلك يطور قدرتكم على اتخاذ القرارات » •

ثم تطرق الى ما كنا ننتظره منه بفارغ الصبر ! أى الرأيين أصح ؟ وكان مباغتا لنا جميعا ، عندما قال :

« كان الرفيق الثانى على صواب ، فالتحالف السياسى المشترك ، يعلو فوق مصير القرارات الفردية ، حتى ولو كان التحالف فى خطر ، فلا يجوز اطلاقا — وتحت كل الظروف — البدء بنسف التحالف • حتى ولو كان هناك خطر الهزيمة ، فى بعض النواحى والتضحية ، فلا يجوز أبدا اهمال الهدف الاستراتيجى للتحالف ، لأنه سيؤثر بمرور الزمن على

الحزب سياسيا • لسنا نحن ، بل الآخرون هم الذين يتركون جبهة التحالف القائمة » •

كان هذا هو جواب « ميخايلوف » فى نهاية عام ١٩٤٢ م مطابقا للخط « الاستراتيجى » الذى أعلن آنذاك ، غير أنى لست متأكدا ، عما اذا كان قد ألقى به جانبا بعد سنوات قليلة •

لم يتناول الهجوم على « المذهبية » فى الحلقات الدراسية ، حوادث الصين البعيدة ، وحوادث عام ١٩٢٧ م فقط ، بل ظهر أيضا بعد بضعة أسابيع فى مسائل معاصرة •

أعلن فجأة عن محاضرة خاصة لكل الدارسين فى المدرسة ، يرتبط موضوعها بالأحداث الهامة أيضا •

تكلم « ميخايلوف » فى هذه المحاضرة ضد « المذهبية » وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لم يكن جديدا بالنسبة لنـــا ، فقد شعرنا بأن هناك شيئا جديدا •

لم يطل انتظارنا ، اذ رفع « ميخايلوف » صوته فجأة قائلا :

« •• أشدد على هذا ، لأننا رأينا فى مدرستنا قبل بضعة أسابيع ، حالة تشير الى أننا لم نتغلب بعد على « المذهبية » ، حالة وصلت الى الخطر جدا ، تحتم علينا ازاءه ، معالجتها فى محاضرة عامة » •

أعصاب الجميع مشدودة ، فكلنا نعلم أن القول الفاصل يتلو هذا التصريح ، انتظر « ميخايلوف » حتى انتهى المترجمون من الترجمة ، ثم واصل كلامه :

« لقد وصلت « المذهبية » فى المجموعة الايطالية بعيدا ، لدرجة أنها تسببت فى أخطاء سياسية خطيرة • ففى احدى الحلقات الدراسية قال أحد أعضاء المجموعة الايطالية : لقد حان الوقت لاعطاء رجال حرب العصابات الايطاليين اشارة الى البحث عن مكان أمين لاخفاء الأسلحة ، حتى لا تقع — فى حالة تحرير ايطاليا على يد قوات الانجلوأمريكان — فى يد الانجليز والأمريكان » •

اندهش معظمنا ، لأن مثل هذه المناقشة ، كانت آنذاك ، لا تزال موسيقى المستقبل ، اذ لا تزال القوات السوفييتية عند « ستالينجراد » ، ولم يمض وقت طويل على نزول قوات الحلفاء فى جزء من شمالى أفريقيا ، ولم تبدأ بعد حرب العصابات الايطالية ، اللهم الا عمليات بسيطة جدا •

اعتبر « ميخايلوف » ما حدث فى المجموعة الايطالية أمرا خطيرا جدا :

« فالخطر الكبير الذى نواجهه الآن هو « المذهبية » ، هو التقوقع داخل القوى الوطنية ، وهو خطر عزل الحزب .

« وعلى هذا الأساس ، يجب ادانة هذا الاتجاه بأقسى ما تكون الادانة ، لأنه يضع اسفينا فى جبهة الكفاح المتحالفة ضد الفاشية ، ويضعف النضال ضد الفاشية ، ولا يساعد الا الفاشية . من يرى أنه ينبغى على قوات حرب العصابات الايطالية ، اخفاء أسلحتها من حلفاء الاتحاد السوفييتى ، فلا يخدم سوى « هتلر » .

فجرت الواقعة التى حدثت فى المجموعة الايطالية حملة شاملة فى كل المجموعات ضد « المذهبية » .

اعترفت جهات عليا بعد خمس سنوات بصحة رأى هذا الرفيق ، الذى اعتبر آنذاك أنه لا يخدم سوى الفاشية ، ففى سبتمبر سنة ١٩٤٧ وجه نقد فى مؤتمر مكتب الاستعلامات الشيوعى ، الى رجال حرب العصابات الايطاليين ، لأنهم — تنفيذا لأوامر موسكو — لم يخفوا أسلحتهم .

* * *

احتفال رأس السنة الجديدة السياسى

انتهى عام ١٩٤٢ م بما حدث فيه من حل وتركيب الأسـلحة ، وتنظيم وحفظ الأغانى الشعبية الألمـانية ، و « النقد والنقد الذاتى » ، ومكافحة « المذهبية » .

لم يبق على اليوم الأخير من العام سوى بضعة أيام ، وأعلن أن الاحتفال بليلة رأس السنة سيكون فى كل مجموعة على حدة . عندما سمعت — بطريق الصدفة — « باول فانديل » يتحدث مع أحد الرفقاء كبار السن ، عن « تنظيم الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة » لم يكن من الصعب على تخيل طابع الاحتفال فى مجموعتنا .

اجتمعنا فى مساء رأس السنة فى الميعاد المحدد فى حجرة الحلقات الدراسية الباردة ، غير المريحة نفسيا ، وسارت الأمور على نحو ما تسير عليه فى الحلقات الدراسية ، غير أن المناضد وضعت فى يوم الاحتفال بطريقة أخرى ، وغطيت بالمفارش ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد حصلنا

على قرع عسلى ، قسم على أفراد المجموعة ، وقامت الفتيات بعمل الشاى ، ولم يكن عندنا مشروبات كحولية ، لأنها كانت ممنوعة منعا باتا •

وعلى الرغم من جو الحجرة القاتم ، وطريقة الاحتفال « الغريبة » بالقرع العسلى والشاى ، فقد تحول الجو العام الى نغمة مفرحة ، لم تكن ضمن البرنامج المنظم المرسوم ، ولذا لم يسمح لها بالاستمرار طويلا •

« أعتقد أننا يمكننا أن نبدأ الآن أمسيتنا اللطيفة ، فعلى الرفقاء أن يتفضلوا بالجلوس » •

جلسنا طائعين ، فشعرنا بأننا فى درس من دروس الحلقات الدراسية ، وسار الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة طبقا للبرنامج المرسوم •

أعطى « فانديل » اشارة الى أحد الرفقاء كبار السن ، فنهض واقفا ، وألقى قصيدة شعرية ثورية ، كانت ركيكة ، ثم جلس •

ثم أعطى اشارة أخرى ، فقام الرفيق الثانى وقرأ علينا نبذة من كتاب •

والآن ! لم يعد جو حلقة دراسية ، بل انقلب الى سكون تام من المشتركين فى الاحتفال ، وكأنهم فى محاضرة عامة ، فانتابنا شعور بمحاولة الكتابة وراء من يلقون كلماتهم ، وندمنا على أننا لم نحضر معنا أقلاما وأوراقا •

وبعد أن انتهى الثانى ، قام الثالث ، وألقى شعرا أيضا كالأول ، وفجأة حدث ما لم نكن نتوقعه : انفتح الباب فتوقف الرفيق عن القاء الشعر •

لم نصدق أعيننا ، دخل مدير المدرسة « ميخايلوف » وهو يغنى • نظر الينا متعجبا ، ونحن جالسون كالأصنام حول المنضدة ، فنظرنا الى مدير المدرسة غير مصدقين فهو يغنى ، والكل فى دهشة ، ولكن كان « ميخايلوف » أول من أفاق منها ، فعندما رأى المنظر وتحقق منه ، عادت الجدية الى وجهه (كما لو كان ضروريا ذلك عند المجموعة الألمانية فى حفلة ليلة رأس السنة) وجلس على المنضدة ، وارتقب صامتا ، ما يقدم لنا •

وفى غضون ذلك ، عاد الهدوء الى الرفيق ، الذى تسمر من هول المفاجأة ، فواصل القاءه ، وعلى الرغم من أننا كنا جميعا منظمين وصامتين ، فلم نستطع الاستمرار فى تتبع ما يلقى ، ولحسن الحظ انتهت بسرعة .

والآن ! لم يعلم أحد منا بالضبط ، ماذا ينبغى أن يسير عليه البرنامج بعد ذلك . من المحتمل أن « فانديل » أعد بعض الأشخاص الذين يقفون تبعا لاشارته ، فكل شىء أعد ورسمت خطته ، ماعدا دخول المدير .

تبودلت نظرات التساؤل بين « فانديل » و « ميخايلوف » ، يبدو أن الالتزام بخط « فانديل » المرسوم كان مملا لـ« ميخايلوف » .

عندما رأى أنه لا توجد نغمة مفرحة فى المجموعة الألمانية فى ليلة رأس السنة الجديدة ، كيف نفسه مع الوضع ، وتحدث الينا ، ولكن كان حديثه حرا ، بطريقة أخرى انسانية ، لم أسمعها فى الاتحاد السوفييتى — ولا عند من فى فلكه — قبل هذا اليوم ولا بعده .

تحدث عن أخطار ومحاسن الحياة الثورية ، وفى نهاية حديثه القصير أخرج عود ثقاب من علبة الكبريت ، ثم قال : « ربما أستطيع شرح الأفكار والمشاعر التى أحس بها الآن بطريقة أوضح من ذلك بالمثال » .

وفى غضون ذلك كان قد أخرج عود الثقاب وأشعله ، وفى لحظات قليلة احترق العود ، ولم يبق الا رماد قليل .

نظر الينا « ميخايلوف » نظرة عطف ، ولكنها تنبىء عن استغراق فى التفكير :

« أليس هذا مثل حياة انسان عادى ؟ يشتعل أولا ببطء ، ثم يشتد الاشتعال ، وأخيرا يحترق . ولم يبق منه سوى رماد قليل لا قيمة له . الانسان يعيش ، ويعمل ، ويكون أسرة ، ويصبح له أولاد ، ثم يموت ، وتقام عليه الأحزان ، وفى أحسن الأحوال يشيعه أفراد أسرته ، وبعض معارفه — حياة لا فائدة فيها ، ولا ضرورة لها .

فاذا نظرنا الى حياتنا ، فهى على الضد من ذلك ، حياة مليئة بالأحداث والأخطار ، والرحلات ، والسجون ، وتولى المسئوليات داخل الأسرة الكبيرة ، التى نسميها الحزب ، لها هدف ثابت واضح ، هو الحجر الأساسى لعالم جديد ، وبعد الموت تشيعه أعداد كبيرة من الرفقاء . أليس هذا وضعا آخر ، وضعا آخر غير عود الثقاب ، الذى لا قيمة له » ؟

كنا جميعا فى حالة ذهول ، فلم يحدثنا أحد قط بهذه الطريقة فى هذه المدرسة •

نظر « ميخايلوف » الى كل واحد منا نظرة فحص وتدقيق ثم قال :

« ربما تتذكرون كلمتى فيما بعد ، وخاصة عندما تواجهكم صعوبات ، سوف تساعدكم ، ولكن الآن ، فى ليلة رأس السنة ، ينبغى عليكم أن تتمتعوا بالاحتفال بها احتفالا حقيقيا ، ومن المؤكد أنكم ستسمحون لى بأن أقوم الآن بزيارة المجموعات الأخرى أيضا » •

لم يعد بعد مكان للتسلية والفرح فى هذه الليلة ، اذ كلف بعضنا بالذهاب الى المجموعات الأخرى لتبليغهم تحيات المجموعة ، وكان على أن أزور المجموعة البلغارية ، وتبين لى أنهم التزموا الجدية أيضا فى احتفالهم كما التزمناها نحن فى المجموعة الألمـانية •

عندما عدت الى مجموعتنا لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولكن احتفالنا بليلة رأس السنة كان قد انتهى •

لم أكن حزينا على أنه انفض ، وذهبت لأتجول قليلا ، وحاولت أثناء تجولى البحث عن جواب لهذا السؤال :

لماذا كان الاحتفال « بليلة رأس السنة الجديدة » جافا وغير طبيعى ؟

اعتقدت آنذاك أنها ظاهرة فردية فى مدرسة الجبهة حيث لا تسمح الأنظمة المفروضة على الدارسين باظهار النغمة المرحة •

ثم تأكدت فيما بعد أنها لم تكن طابع الحياة فى مدرستنا فقط ، بل لم تكن « أمسيات التسلية » التى يقيمها قياديون من الطبقة العليا فى الحزب — وخاصة اذا عاشوا فى الاتحاد السوفييتى فترة طويلة — تختلف عن احتفالنا بليلة رأس السنة الجديدة •

وعندما كفرت « بالستالينية » تأكدت أن ذلك كان ظاهرة حتمية للنظام نفسه ، ظاهرة تتصل بعملية النقد والنقد الذاتى ، الذى يجبر القياديين :

— على وزن كل كلمة ، والتفكير فيها •

— وعلى الخضوع المطلق للزعامة •

— ويحرم عليهم المناقشة الحرة •

— ويعزلهم عزلا تاما عن أن يكونوا أناسا عاديين •

— ويدفعهم الى « التطهير » الذى يقتل كل معانى الانسانية فى الانسان •

خلف الاحتفال « بليلة رأس السنة » ذيولا ، فبعد بضعة أيام ، دعيت المدرسة كلها الى الاجتماع •

وظهر أن أربعة من المجموعة الأسبانية تناولوا قليلا من الكحول فى ليلة رأس السنة ، اذ قسموا زجاجة خمر صغيرة بينهم • فوجئوا — الأربعة — باعلان هذا الخبر فى بدء الاجتماع ، فقد شرب اثنان منهم كأسين ، كل واحد كأسا ، والثالث نصف كأس ، أما الرابع فلم يشرب اطلاقا •

نوقشت المسألة فى المجموعة الأسبانية فى جلستين للنقد والنقد الذاتى ، حيث اتخذ قرار بطرد الشبان الأربعة من منظمة الشباب ، فقد كانوا كلهم أعضاء فى المنظمة •

والآن ! طرح الموضوع فى اجتماع عام ، ليكون عبرة وعظة للآخرين • ومرة أخرى كانت هناك بنود اتهام ، وضرب أمثلة ، على منوال تلك الطريقة التى أعرفها الآن جيدا •

وفى نفس الوقت سلطت الأضواء على « النموذج البراق » للشباب السوفييتى فى المنظمة ، على الرغم من أن كل الحاضرين يعرفون تمام المعرفة أن آلافا من شباب المنظمة السوفييتى ، كان يشرب الواحد منهم كل يوم مقدارا من المواد الكحولية أكثر مما أراد أن يشربه الأسبانيون الأربعة فى ليلة رأس السنة •

صودق على قرار طرد الأسبانيين الأربعة من منظمة الشباب ، ولكنهم عادوا اليها بعد ثلاثة أشهر ونصف ، لأنهم أثبتوا أنهم مثاليون فى تصرفاتهم •

ولكن لم ينته تطبيق اجراءات النظام دائما بهذه النهاية السعيدة ، فقد شاهدت حالة بعد ذلك بوقت قصير ، حفرت لها قنوات فى ذاكرتى فلن تنسى مدة حياتى •

* * *

طرد الرفيق « فيلى »

كان معنا شاب فى مجموعتنا ، يبلغ من العمر ٣٥ عاما تقريبا ، واسمه الحركى « فيلى » ينحدر من أسرة عاملة ، كانت تقيم فى برلين — أعتقد أنها كانت تقيم فى حى « فيدينج » — ، التحق بتنظيم الشباب الشيوعى وهو حدث وتولى سلسلة من المناصب المتوسطة ، وكان فى اتحاد نضال الجبهة الأحمر • ثم التجأ الى الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩٣٣ م •

وبعد اندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا ، التحق بمدرسة عسكرية بالقرب من « ريازا » ، وكانت هذه المدرسة — حسبما علمت — أكبر مدرسة عسكرية لتأهيل الأجانب المناهضين للفاشية الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، للقتال فى أسبانيا • ثم قاتل مع الفرقة العالمية فى أسبانيا •

احتل « فيلى » مركزا مرموقا فى مجموعتنا ، اذ كانت له خبرة الرفقاء كبار السن ، وفى نفس الوقت كانت لديه القدرة على الاستيعاب السريع مثل الشبان • كان متيقظا جدا ، ومهتما بالدراسة ، وأحب شخصية فى مجموعتنا ، فقد تمتع بالاحترام بين الشباب ، وكبار السن •

وذات يوم ، بعد الظهر ، كان عندنا مناقشة حول بعض المسائل المعاصرة • ولم تكن فى هذه المرة تكوين « لجان شعبية » سرية فى الخيال ، بل كان موضوعا حساسا : العمل السرى ضد الفاشية فى الجيش الألمـانى •

تصببنا — نحن الشباب — عرقا ودما ، فلم نعمل فى جيش قط ، وتركنا ألمـانيا ونحن أطفال ، اذن ، لم نعرف ألمـانيا ، ولا العمل فى جيش ، فضلا عن التحدث عن الجيش الهتلرى الألمـانى • ولكن لم يفدنا هذا ، اذ تقاطرت علينا الأسئلة ، وكان علينا أن نكون تنظيمات سرية فى جيش « هتلر » ، بالضبط كما فعلنا فى تكوين اللجان الشعبية فى المدن والقرى •

لم تكن المسألة صعبة علينا ، لأننا لا نعرف شيئا عن الوضع فى الجيش الألمـانى — بصرف النظر عن المعلومات التى وصلت الينا عن طريق النشرات وخطابات الجنود — بل لأننا نقع عند معالجة هذا الموضوع فى صراع ميئوس منه ، فقد شدد علينا بأنه لابد أن تكون السرية محكمة ، فلا يجوز لأعضاء المجموعة السرية ، أن يتركوا أثرا للتعرف عليهم ، ولكن فى نفس الوقت ، يجب أن تقوم مجموعتنا السرية المخطوطة على الورق ، بمعجزات فى نشاطها بين صفوف الجيش •

ضربت الأمثلة فى هذه الحلقة ، حيث كنا نمثل فيها دائما دور زعيم هذه المجموعة السرية ، الذى يفاجأ بسؤال من « فانديل » : « ماذا تفعل لو •••• ؟ » •

وظهر فى هذه المرة أن سلسلة سؤال « ماذا تفعل لو ••• ؟ » لا نهاية لها مطلقا •

لقد كان من المسائل التى عرضت علينا هذا المثال :

كانت هناك مجموعة سرية تعمل فى احدى وحدات الجيش ، التى تعسكر فى احدى المناطق المحتلة فى الاتحاد السوفييتى ، تلقت احدى السرايا الصغيرة فى هذه الوحدة — حيث توجد المجموعة السرية — أمرا باحراق المنازل ، وقتل النساء والأطفال الروسيين •

اضطربت عندما سمعت « فانديل » يسأل :

« ماذا تفعل فى هذه الحالة ، كزعيم للمجموعة السرية » ؟

تلفت « فانديل » ثم طلب الاجابة من « فيلى » ، فقال :

« لا يمكن أن أدع شيئا ينبىء عن عملى السرى بأى حال ، وتحت أى ظرف من الظروف ، فقد تعلمنا بأن الجيش هو أهم شىء فى نشاط التنظيمات السرية ، وأننا لا يجوز لنا كمجموعة خاصة ، كشف شخصيتنا للعدو أبدا » •

قال « فانديل » :

« حتى ولو ارتكبت جنود من نفس السرية أعمالا مخزية ضد الشعب السوفييتى » ؟

اضطرب « فيلى » :

« نعم ! لا أعرف ، ولكن أعتقد ••• ان المرء حتى فى هذا الموقف الصعب ••• من المحتمل •••• بلى ، ربما لا يجوز للمرء حتى فى هذا الموقف الصعب أن يتسبب فى القضاء على المجموعة السرية » •

صمت كثير منا ، وأنا أيضا ، فنحن لا نعلم — ونحن جالسون هنا فى « بشكيرين » — ماذا ينبغى أن يفعل المرء فى مثل هذا الموقف ! وعلى أى حال فقد شعرنا بأننا سوف نعلم ذلك عندما نوضع ذات يوم فى مثل هذه الظروف ، ولكن الأمر هنا لا يخرج عن كونه افتراضا نظريا ، ولذا قرر كثير منا التزام الصمت •

حتى « فانديل » نفسه ، لم يقل شيئا ، واستمرت المناقشة فى طريقها ، فتحدث ثلاثة أو أربعة فى موضـــوع آخر ، وفجأة وقف « فانديل » ، فساد الصمت الحجرة كلها ، نظر الينا مندهشا ثائرا :

« أحس أن لا أحد فى المجموعة ، لاحظ حتى الآن ، أنه قد حدث هنا شىء فظيع ، غير معقول » •

ملاحظة ذات مغزى ! لم ينبس أحد منا بكلمة • كنت معتقدا حتى الآن أن لى حاسة خاصة لاكتشاف المسائل السياسية ، ولكنى لاحظت

أنى لا زلت بعيدا عن امتلاك هذه الخاصية • لم أعرف ، ماذا يقصد ؟ ثم تذكرت ما قاله « فيلى » • هل كان هذا هو ما قصده « فانديل » ؟ طرحت هذا التفكير بعيدا بسرعة ••• وأخيرا قال « فيلى » انه لا يعلم الحل بالضبط ، وعلاوة على هذا ، فالمسألة معقدة جدا •

وفى غضون ذلك ، استمر « فانديل » فى القاء خطبته • لم تزل حتى الآن كلاما عاما ، اذ تحدث عن النضال البطولى للشعب السوفييتى ، وعن وحشية الجيش النازى ، وفجأة — كالبرق الخاطف — وصل الى توجيه الاتهام المباشر : « ••• وفى مثل هذا الموقف ، حيث يكون من واجب معارضى الفاشية المقدس ، شن النضال ضد الفاشية ، يبين « فيلى » دون استحياء ، أنه يقف مكتوف الأيدى أمام الوحشية ، التى يرتكبها النازيون ضد الشعب السوفييتى • ليس هذا خطأ سياسيا ، بل هو أكثر من هذا ، هو خيانة الكفاح المقدس ضد الفاشية ، خيانة حركة العمال الألمـانيين ، خيانة أول بلد يرفع لواء الاشتراكية ، ألا وهو الاتحاد السوفييتى » •

انشغلنا بمناقشة هذا الموضوع بجدية وحزم فى الأيام التالية ، وانتظرت حتى أسمع رأى كل واحد فيما قاله « فيلى » •

ساد صمت قاتل عدة لحظات ، فقد تعودنا على الكثير ، ومارسنا مرات عديدة عملية « النقد والنقد الذاتى » ، ولكن لم نسمع فى مرة من جلسات النقد السابقة هجوما قاسيا وعنيفا ، مثل ما يتدفق اليوم من أفواه المتكلمين •

لاحظت أن « فانديل » لم يعد يخاطب « فيلى » بلفظ « أيها الرفيق » • هل كانت مصادفة دون قصد ؟ هل سيتخذ اجراء ضد « فيلى » ؟

ولكنى تخلصت من هذه الأفكار ، اذ لم تصل المسألة الى هذا الحد •

وفى غضون ذلك رفع كثير منا أيديهم ، ولكنى انتظرت ، تحدث واحد بعد الآخر ، فصبوا جام غضبهم على رأس « فيلى » لقد أمطرت السماء عليه وابلا من اللعنات •

كان صديقى « جان » يجلس فى آخر الصفوف ، وهو من المغرمين بالمارشال « شوكوف » ويمدح فيه كثيرا • وكان الوحيد من الشبان ، الذى يعرف شيئا عن الحياة فى الجيش ، فقد أقام عدة شهور فى الجيش

الأحمر • كان عنده نقطة ضعف ازاء المواقف الصعبة ، وفضلا عن ذلك فلا يزال أشجع الجميع •

طلب الكلمة :

« كنت فى الجيش ، وقمت بأعمال مع الأقسام ، التى تنظم مثل هذه الأشياء • يمكن أن يحدث هذا الموقف فى حالات خاصة نادرة جدا • فاذا كان الأمر — على سبيل المثال — يتعلق بـ••••• » •

قاطعه « فانديل » بحدة :

« لم نأت الى هنا لنحكى قصصا خيالية ، بل لنتخذ موقفا من أقوال « فيلى » التى تنبىء عن خيانة » •

ولكن الشاب « جان » الشجاع ، كان مقتنعا بفكرته الى حد الاعجاب بها فقال :

« أيها الرفيق « كلاسنير » أنا لا أريد سوى شرح حالة واحدة ، حالة شاهدتها بعينى فى الجيش ••• » •

ولكن لم يستطع « جان » أن يتم حديثه •

— « اسكت الآن ! أنا أسحب منك حق الكلام » •

سكت « جان » خجلا ، ولم يستطع أن يدافع عن « فيــلى » بصراحة ، ولكنه حاول أن يضع له قاعدة ، لدفع التهمة عنه •

وشيئا فشيئا أبدى كل واحد فى مجموعتنا برأيه ، ثم رأيت « فانديل » ينظر الى مرتين ، ولكنى لا زلت صامتا ، وأخيرا عندما تحدث الجميع ولم يبق سوى واحد غيرى نادى « فانديل » اسمى •

فقلت : « أيها الرفقاء ! لا أحد منا يريد أن يستهين بمدى خطورة كلام « فيلى » كذلك فى المواقف الحازمة التى يجب أن يقاس فيها مثل هذه الانجازات ، لا ينبغى أيضا أن يستهان بالصعوبات التى تقابل من يبدى رأيه فى هذا الموضوع • كلنا يعرف الرفيق « فيلى » وكلنا يعلم أن « فيلى » كان دائما نموذجا ••••• » •

ولم أستطع الاستمرار فى الكلام ، فقد قاطعنى « فانديل » : « لا تحاول المراوغة هنا ، فالموضوع يدور مبدئيا حول مسألة سياسية ، فنحن لا نحتاج الى تصيد أساليب المدح » •

صمت ، اذ لم أستطع الحكم عليه بصراحة ، على الرغم من أنى أعلم تماما أن هذا سيوقعنى مرة أخرى فى مأزق النقد والنقد الذاتى •

انتظر « فانديل » ، ولكنى استمررت فى صمتى ، فنظر الى كثير من مجموعتنا مندهشين ولائمين . ثم أخذ الكلمة « سيب » كآخر متحدث فى المجموعة ، ذلك الشاب الذى حارب مع « فيلى » فى أسبانيا ، وكان صديقا حميما له منذ سنوات عديدة . والآن ! يصب اللعنات على رأســه .

وبعد كلمة ختام من « فانديل » انتهت مناقشتنا حول العمل السرى فى الجيش .

وفى مساء اليوم دعي جميع أعضاء المجموعة الى جلسة فى حجرة المدير وكنا نعلم أنها سوف تدور حول موضوع « فيلى » .

انتابنى الفزع عندما فكرت فى أننا سنضطر الى الكلام مرة أخرى ، ولكن لحسن الحظ لم يحدث هذا . حضر الاجتماع كثير من رؤساء المجموعات فى المدرسة ، ولم أشاهد هذه الظاهرة فى المدرسة من قبل ، وكان كثير من مدرسى مجموعات الدول الأخرى حاضرا أيضا .

تحدثوا كلهم تقريبا ، وكنا نحن تلاميذ المجموعة الألمــانية مستمعين فقط فى هذه الجلسة .

ومرة أخرى شاهدت نفس المسرحية التى شاهدتها فى عملية النقد والنقد الذاتى الأولى ، ولكن كان الكلام هنا أكثر حدة ، والهجوم أشد فظاعة .

« فيلى » المسكين ! لقد خدم الحزب مدة حياته كلها ، وقاتل ثلاثة أعوام تقريبا فى أسبانيا تحت أصعب الظروف وأقساها . والآن ! يتهم بسبب جملة قصيرة قالها فى الحلقة الدراسية ، بجريمــة « مساعدة الفاشية » و « الدعوة الى السلبية فى النضال ضد هتلر » .. الخ ، حتى شبهه أحد الخطباء بـ« فرانكو » .

ذكر اسمى واسم « جان » فى ثنايا هذه الخطب ، فقد اتهم « جان » بالاغراق فى الخيال، واتهمت أنا بالمراوغة ، ولكن كان واضحا أننا كنا فى هذه المرة ، صورا جانبية لا أهمية لها فى هذا الموضوع ، فقد كانت لعنات « النقد والنقد الذاتى » موجهة كلها ضد « فيلى » .

جلس « فيلى » فى أثناء ذلك على كرسى جانبى مبحلقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة .

مضت ساعات ، وأفراد هيئة الادعاء يكررون ما يقولون ، ولكى

يهيأ الجو الفظيع — الذى يسيطر على جلسة « النقد والنقد الذاتى » ولا يمكن وصفه — عن طريق الاستمرار والتكرار •

وفجأة عندما اعتقدنا أن الجلسة قاربت النهاية — ازدادت حدة النغمة فقد تحدث أحد الخطباء عن النتائج الهامة ، التى يمكن أن تستخلص من موقف « فيلى » ، لأن هذه الحالة تفوق كل ما حدث فى المدرسة حتى الآن • ثم سأل بلهجة بالغة الحدة عما اذا كان سيسمح لـ« فيلى » بالبقاء فى مدرسة الجبهة بعد الذى حدث منه ، أو ينبغى أن يطرد منها • ولم يقتصر الخطيب على القاء السؤال فقط ، بل أجاب عليه بسرعة •

لا فائدة من هؤلاء الأشخاص — لم يعد يستعمل كلمة رفيق هنا أيضا — الذين يقفون مكتوفى الأيدى أمام اغتيال المواطنين السوفييت ، وينشرون مثل هذا التصرف بين صفوف الحزب الشيوعى • لا مكان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لأولئك الذين يساعدون الفاشية بمواقفهم التى يلتزمونها •

كرر « ميخايلوف » هذا القرار أيضا فى كلمته الختامية •

أصبت فى هذا المساء بضربة قاتلة ، كانت أشد مما أصبت به فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » التى كانت موجهة ضدى •

لم أتأثر نفسيا من شدة القسوة ، وانعدام الاحساس القلبى فقط ، بل أيضا من مواقف أولئك الذين اتهموا « فيلى » وطالبوا بطرده من المدرسة ، فقد علم كل منهم تماما أن « فيلى » كان قياديا مخلصا وأمينا ، وكان يمكن أن يظل كذلك مستقبلا • وما أجاب به فى الحلقة الدراسية — ويعلم الجميع ذلك — لم يكن سوى تعبير عن الحيرة ، عند الاجابة على موقف مفترض وجوده افتراضا • وقد ظن « فيلى » أن من اللازم استخدام تلك الأسس التى شرحت لنا دائما فى كل الدروس عن العمل السرى ، على أنها الواجب الأعلى والأهم •

أعنى الحفاظ على السرية التامة ، وعدم التفريط فى أمر من شأنه أن يكشف أمر المجموعة السرية •

لم تتسبب الكلمات القليلة — التى قيلت فى الحلقة الدراسية — فى طرد « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فقط ، بل أصبح من المؤكد أنها ستطرده من الحزب أيضا ، وتعزله عن كل عمل سياسى فى المستقبل • وهذا يعنى أنه سيهوى الى أدنى طبقات

الشعب السوفييتى ، الى حياة المحروم من الانضمام الى الحزب ، الى حياة أجنبى مشكوك فى ولائه ، يعيش فى احدى المزارع الجماعية النائية ، أو حياة عامل صغير ، عتال فى أحد المصانع السوفييتية القاصية ، وفى معظم الأحوال كان هذا مرحلة انتقالية ، فقط للوصول الى السجن أو الى أحد معسكرات العمل . كان هذا واضحا لنا جميعا ، على الرغم من أنه لم يصرح به فى اجتماع المجموعة ، ولا فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » فى حجرة المدير .

لم يتخذ قرار رسمى ، ولكن كان كل واحد منا يعلم بالطبع ، علام تدل أحداث هذا المساء .

لم يقل « فيلى » كلمة واحدة . ذهب الى حجرة النوم ، وحزم أمتعته ، ثم اختفى فى اليوم التالى . نجحت فى التحدث معه حديثا قصيرا ، عندما كنا وحدنا ، فواسيته ببضعة كلمات ، ولكنه لم يجبنى ، لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه .

ولم نسمع منذ ذلك التاريخ شيئا من الجهات الرسمية عن « فيلى » ولكن فيما بعد جرى همس بين الزملاء بأنهم أرسلوه الى « كاراجندا » ، غير أنى لم أستطع التأكد من هذا الخبر .

لم يذكر « فانديل » ولا أحد من المدرسين الآخرين اسم « فيلى » بعد هذا اليوم ، وبدا وكأنه لم يوجد واحد اسمه « فيلى » على ظهر هذه الأرض ، ولكنى لم أستطع نسيانه ، فقد تكرر تفكيرى فى هذا العامل « البرلينى » الذى ضحى بالجزء الأكبر من حياته تحت أصعب الظروف فى خدمة الحزب ، ثم قذف به كما تقذف قطعة حديد قديمة ، بسبب كلمات قليلة ، تلفظ بها فى احدى الحلقات الدراسية .

* * *

حل مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

مضى الآن تسعة أشهر ، منذ دخولى مدرسة الجبهة ، فقد بدأت دراستى فى منتصف أغسطس سنة ١٩٤٢ م ونحن الآن فى مايو سنة ١٩٤٣ م . ولا أحد منا يعلم ، متى تنتهى الدراسة ! فعندما ننتهى من دراسة موضوع ، يعلن عن آخر ، ربما اتبعت هذه الطريقــة لتهيئة

الفرصة — تحت الظروف الطارئة — لدارس أو لمجموعة فى الانقطاع عن الدراسة •

حدث هذا فى دورتنا الدراسية مرة واحدة فقط ، فقد تركت المجموعة « السلوفاكية » المدرسة فجأة فى فبراير سنة ١٩٤٣ م ، ولم يكن هذا نتيجة « النقد والنقد الذاتى » بل تعلقت المسألة باستدعائهم لعمل سياسى •

فقد فهمنا من التلميح فى محاضرتنا ، وسمعنا فى الأحاديث الخاصة أن من الدول المتحالفة مع المحور ، لا توجد دولة أنسب للعمل السرى نسبيا غير « سلوفاكيا » • ليس فقط فى امكانية الحصول على مساعدة الشعب ، بل قيل لنا ان رجال الشرطة يغمضون أعينهم عن بعض الحالات التى تتعلق بشخص يعمل ضد « هتلر » •

ولهذا لم نفاجأ ، عندما قابلنا رفقاءنا « السلوفاكيين » فى فبراير سنة ١٩٤٣ أمام مبنى المدرســة ، حيث كانت تنتظرهم العربات المتزحلقة على الجليد ، التى ستنقلهم الى « أوفا » • وطبعا لم يخبرونا بوجهتهم ، غير أنه كان واضحا للجميع أن المسألة تتعلق بتجنيدهم لنشاط فى « سلوفاكيا » •

وفيما بعد ، فى أوائل سنة ١٩٤٤ م عندما اندلعت اضطرابات ضد الفاشية فى شرق « سلوفاكيا » علمنا أن كل أفراد المجموعة التى كانت فى المدرسة ، اشتركوا بنصيب كبير فى هذه الاضطرابات •

وبعد عام ١٩٤٥ كرمت تشيكوسلوفاكيا الجديدة كل الذين أسهموا فى اضطرابات « سلوفاكيا » • ولكن لم يدم هذا طويلا ، فكلما ارتفع الدور القيادى للاتحاد السوفييتى — وخاصة بعد عام ١٩٤٨ م — كلما طمست فى « تشيكوسلوفاكيا » مظاهر تذكر الاضطرابات « السلوفاكية » والحركات التى كانت مناوئــة للفاشــية • وأخيرا — فى أوائل عام ١٩٥٠ م — أدين زعمــاء الاضطرابات الســلوفاكية : « هوزاك » و « نوفومجسكى » ، ومئات من الذين اشتركوا معهم ، وألقى القبض عليهم •

وهكذا يوضح لنا مثال الاضطرابات « السلوفاكية » من جديد أن « الستالينية » لا تخاف من شىء ، أكثر من خوفها من حركاتها الثورية ، التى أنشأتها ، وكونتها من أتباعها ، فلم تتورع « الستالينية » من الاستفادة من بعض الانجازات الثورية هنا وهناك لخدمــة أهدافهــا

الخاصة ، فاذا تمكنت سلطتها ، وثبت بالمشتركين فى الحركات الثورية ، ثم يلقى بهم فى غياهب السجون ، وقد ينفذ فيهم حكم الاعدام ، حتى ثورتهم الخاصة ، لا يجوز للشعب أن يتذكرها ، بل يدخل عليها التحريف ، أو يلقى ستار من الصمت عليها ، كى يهيأ الجو فيما بعد « لدور الجيش السوفييتى فى معركة التحرير » و « لدور الزعامة السوفييتية » التى خططت ، ونظمت المعارك التى خاضها الجيش ، فحرر وطنه •

لم نكن نعرف شيئا من ذلك آنذاك فى فبراير سنة ١٩٤٣ • ودعنا أصدقائنا أعضاء المجموعة « السلوفاكية » ، وتمنينا لهم كل خير ، ونجاحا ساحقا ، ثم عدنا الى الاندماج فى دراستنا ، دون أن نعلم ، الى متى سنمكث فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

كان عندنا فى هذا الخصوص نقطة جوهرية : سلسلة محاضرات تاريخ الشيوعية العالمية ، اذ لم نأخذ هذه المـادة فى سلسلة واحدة ، بل كانت تسير فى خط مواز للمواد الأخرى ، وكان واضحا أن هذا الموضوع سينتهى فى نهاية الدورة الدراسية •

وصلنا فى منتصف مايو فى مادة تاريخ الشيوعية العالمية الى عام ١٩٣٤ م ، ولم يكن من الصعب التنبؤ بأننا سوف نمكث فى المدرسة — على أقل تقدير — ثلاثة أو أربعة شهور أخرى • وسمعنا من بعض الدارسين ، أن الدورة الدراسية فى مدرسة الجبهة قد خفضت أثناء الحرب الى سنة واحدة • وهكذا تهيأنا نفسيا للبقاء فى « كوشنارينكوفو » حتى أغسطس أو سبتمبر سنة ١٩٤٣ • وكان هذا بالتأكيد خطة قيادة المدرسة ، ولكنها قلبت رأسا على عقب بواسطة « سلطة عليا » •

كان تاريخ اليوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٣ • أردت الخروج الى الفناء بعد الانتهاء من حلقة دراسية ، فرأيت مجموعة من الدارسين واقفة فى صالة المدرسة • كنت أعلم أنه بين الحين والآخر تعلق بعض التعليمات على لوحة الاعلانات ، ولكن لم أر حتى الآن مثل هذا العدد الكبير من الطلبة واقفا أمام هذه اللوحة •

فاقتربت منهم لأستكشف الخبر :

لم تعلق هذه المرة تعليمات قصيرة على اللوحة ، بل أربع صفحات كبيرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ، والطلبة منهمكون فى قراءتها باهتمام بالغ ، وصمت مطبق • ثم اكتشفت صديقى « بيتر تسال » بين الواقفين ، نظر الى مرتعبا فقلت له :

— « ما الخبر » ؟

— « لقد حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

وقفت كالأبله ، اذ لم أكن أتصور هذا اطلاقا •

— « هذا مستحيل » !

— « بلى •• اقرأ » !

وفى غضون ذلك كان البعض قد انتهى من قراءة النص ، وانصرفوا دون أن يقولوا كلمة واحدة •

ثم أفسح مكان لى وللذين وصلوا توا للوصول الى اللوحة • قرأت هنا — على لوحة الاعلانات ، وفى صالة مبنى مدرسة الجبهة — قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتقول الفقرات المهمة فى القرار :

« دلت حوادث الخمس وعشرين سنة الماضية وكذلك خبرة الشيوعية العالمية ، دلالة قاطعة ، على أن صيغة تنظيم اتحاد العمال — كما تقررت فى المؤتمر الأول للشيوعية العالمية ، لضرورة اقتضتها الفترة الأولى لاحياء الطبقة العاملة — قد تخطت أخطار نمو هذه الحركات ، والمشاكل المعقدة فى تلك البلاد • هذه الصيغة أصبحت الآن عائقا فى طريق تقوية الأحزاب العمالية الوطنية • وزادت الحرب العالمية — التى شنها النازيون — تعميق التباين فى علاقات الدول المختلفة ، حيث أنشأت خطا فاصلا بين الدول التى تقع تحت جبروت النازية ، وبين الدول التى تقود الشعوب الحرة فى تحالف ضد هتلر ••

وانطلاقا مما سبق ذكره ، ومراعاة لنمو الأحزاب الشيوعية ، ونضج زعمائها فى كل دولة على حدة ، ومراعاة لحقيقة أن عددا من القطاعات — أثناء الحرب الدائرة الآن — اقترح حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والغاء صفتها كمركز موجه للحركة العمالية العالمية ، فقد خولت اللجنة المركزية العليا للشيوعية العالمية لنفسها — حيث ان ظروف الحرب العالمية لا تسمح بعقد مؤتمر عام للشيوعية العالمية — الحق فى اتخاذ ما يلى :

* تحل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتزال صفتها كمركز للحركة العمالية العالمية وتعفى قطاعات الجبهة من كل المسئوليات التى تولتها بمقتضى قرار مؤتمر الشيوعية العالمية •

* وتدعو رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية كل أفراد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية بأن يركزوا كل قواهم فى جميع النواحى لمساندة

الحلفاء فى تحرير الشعوب والدول من طغيان « هتلر » وللقضاء السريع على أعداء الشعوب : الفاشية الألمانية وحلفائها •

وقع على هذا القرار من رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية :

« جوتفالد » و « ديمتروف » و « شدانوف » و « كولاروف » و « كوبلينيج » و « كوزينين » و « مانوئلسكى » و « مارتى » و « بيك » و « توريتس » و « فلورين » و « اركولى » •

لم أعرف — كما لم يعرف أحد من الدارسين أيضا — ماذا أقول تعليقا على هذا الخبر !

كانت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية حتى قبل بضعة دقائق أكبر تنظيم لنا •

لم ينشر قرار حل الجبهة فى الصحافة السوفييتية •

مثل الموقعون على قرار الحل ثمانى دول :

الاتحاد السوفييتى « شدانوف ، ومانوئلسكى » ، وألمانيا « بيك ، وفلورين » ، وفرنسا « توريتس ، ومارتى » ، وبلغاريا « ديمتروف ، وكولاروف » ، والنمسا « كوبلينيج » ، وتشيكوسلوفاكيا « جوتفالد » ، وفنلندا « كوزينين » ، وايطاليا « اركولى » — كان هذا اسمهالحركى المعروف به فى الاتحاد السوفييتى أما اسمه الحقيقى فكان « بالميرو توجلياتى » •

لم يوقع على قرار الحل زعماء أحزاب شيوعية ، كانوا فى ذلك الوقت فى « أوفا » وفى « كوييشيف » مثل زعيم الحزب الشيوعى الأسبانى « دولوريس اباروری » والرومانى « أنا باوكر » والمجرى « راكوزى » لأن الاثنى عشر لم يوقعوا على قرار الحل بصفتهم زعماء الأحزاب الشيوعية فى بلادهم ، بل كأعضاء اللجنة العليا ، انتخبوا لهذه المناصب فى آخر مؤتمر للشيوعية العالمية •

من الواضح أن القرار اتخذ بسرعة ، وكان فيه عنصر المفاجأة ، اذ لم تبلغ به قبل صدوره زعامة الأحزاب الشيوعية الأخرى ، ليؤخذ — على الأقل — رأيها فيه •

انتشر الخبر بسرعة فى أرجاء المدرسة ، فدار كثير من الدارسين هنا وهناك وأعصابهم متوترة •

أعلن ظهرا أن « ميخايلوف » — مدير المدرسة — سافر الى « أوفا » ، وسيعود فى غضون الأيام التالية • واستمرت الدروس

كالمعتاد فى أثناء غيبته ، ولكن لم يكن اهتمامنا كله موجها الى التحصيل ، بل جزء منه فقط •

عاد « ميخايلوف » بعد ثلاثة أيام من « أوفا » فدعى بسرعة الى اجتماع عام لكل من فى المدرسة ، وموضوع البحث « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

سمعنا كثيرا محاضرات تعالج موضوعات خاصة وعامة ، وعلمنا أنها كانت تأتى دائما بمفتاح المشكلة التى من أجلها عقد الاجتماع لسماع المحاضرة ، ولكن لم تكن الأعصاب مشدودة فى يوم من الأيام ، كما كانت مشدودة قبل هذه المحاضرة •

بدأ « ميخايلوف » بملاحظة أن المرء يجب أن يكرس جهده ضد رأيين خاطئين فى مسألة حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • الأول : ضد الافتراض الذى يروجه النازيون ، بأن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ليس الا حيلة ومناورة ، بل والواقع أن نشاطها سيستمر •

فحل الجبهة ليس حيلة ولا مناورة ، بل قرار حقيقى ، اتخذت الاجراءات لتنفيذه مباشرة ، وسوف يتمكن كل منكم من الاقتناع بهذا ، لأن من المسلم به أن مدرسة الجبهة قد حلت أيضاً ، كذلك كل المؤسسات التى كانت تابعة حتى الآن لجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

الثانى : تروجه بعض الدوائر الغربية ، حيث يزعمون أن حل الجبهة هو اذعان الاتحاد السوفييتى لحلفائه الغربيين •

لا يتفق هذا الادعاء مع الحقيقة فى شىء ، اذ لا تتعلق مثل هذه المسائل — كمسألة حل الجبهة — بتقلبات السياسة الخارجية ، بل هى طبيعة بديهية •

وأخيرا تناول « ميخايلوف » شرح الأسباب الرسمية لحل الجبهة ، فالسبب الحقيقى — استمر « ميخايلوف » فى حديثه — يكمن فى أن تكوين الشيوعية العالمية قد جاوز وقته ، اذ هى الآن تعوق نضال الأحزاب الشيوعية فى كل جبهات القتال ضد الفاشية ، ولم تعد الواجبات المختلفة التى تقوم بها الشيوعية العالمية فى البلاد المختلفة صحيحة •

ثم شرح « ميخايلوف » :

« فقد كانت واجبات الجبهة فى الأعوام الأولى بعد تكوينها متشابهة عموما فى البلاد المختلفة ، باستثناء حالات وطنية خاصة ، فاذا قارنا هذا بالوضع الحالى وضح لنا التباين الأساسى ، فمن واجب الشيوعيين

فى انجلترا وأمريكا اليوم مساندة الجهود الحربية فى بلادهم ، ويجب على الشيوعيين فى ألمـانيا وايطاليا عمل العكس تماما ، لكى ينزلوا الهزيمة بالفاشية • وعلى الشيوعيين فى البلاد المحتلة أن يقفوا فى مقدمة الوطنيين فى الجبهة ضد الفاشية ، لتحرير بلادهم من الاحتلال الفاشى • توضح لنا هذه النظرة القصيرة ، كيف أصبحت الالتزامات اليوم مختلفة من بلد الى آخر » •

بين « ميخايلوف » أن التطور الذى أدى الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية كان استمرارا للاتجاه السياسى الذى تقرر فى المؤتمر السابع للشيوعية العالمية الذى انعقد فى عام ١٩٣٥ م • فقد أظهرت أمثلة عديدة — بعد المؤتمر العالمى السابع — أن التنظيم الذى يشرف على كل شىء — مثل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — يعوق التحرك السريع • وقد كان الوضع — مع الجبهة — صعبا على الشيوعيين فى العثور على صيغة سياسية جديدة •

« فكما تعلمون أن الحزب الشيوعى الأمريكى ، قد انفصل عن جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٠ م ، لأن القانون فى أمريكا لا يسمح بوجود تنظيم يكون مركزه الموجه له خارج الولايات المتحدة • ومما لا شك فيه أن قرار الحزب الشيوعى الأمريكى الانفصال عن الجبهة ، لم يكن قرارا خاطئا ، لأنه أمن بهذا الاستمرار فى العمل السياسى •

لم يقل « ميخايلوف » حتى الآن — باستثناء بيانه ، الرأيين الخاطئين — الا القليل مما ورد فى نص القرار المعلق على لوحة الاعلانات حتى انفصـــال الحزب الشيوعى الأمريكى ، ورد كمثال فى نص قرار الحل • اعتقدنا أن « ميخايلوف » سيحصر نفسه فى تكرار ما جاء فى القرار وحيثياته • وفجأة سمعنا شيئا لم يذكر فى نص القرار :

« أيها الرفقاء •• ليس مثال الحزب الشيوعى الأمريكى الا اشارة الى التعارض بين الواجبات الجديدة ، وصيغة النظام البالى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • فقد حدث شىء مشابها قبل هذا بكثير ، أمثلة أكثر أهمية ، فأنتم جميعا تعلمون قصة تكوين حزب الاتحاد الاشتراكى « الكاتالونى »

الذى تكون فى عام ١٩٣٦ م من الحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى

وعـــدد من المجموعات المـــاركسية الأخرى • ولعب هذا الحزب دورا كبيرا فى الحرب الأهلية الأسبانية •

وكان طبيعيـــا أن يظهر على السطح — بعد اندماج الحزبين والمجموعات الأخرى فى حزب واحد مباشرة — هذا السؤال : هل ينبغى على الحزب الجديد أن ينضم لمجموعة الشيوعية العالمية الثانية أو الثالثة ؟ ولم يكن الجواب على هذا السؤال سهلا ، لأن تكوين مثل هذا الحزب ، الجديد فى نوعه ، لم فى اطار كلا المجموعتين العالميتين • وهذا مثال واضح على أن قيام جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لا يتفق مع التطور الجديد » •

ثم تحدث « ميخايلوف » عن رغبة زعماء بعض الأحزاب فى توقف نشاط الجبهة أو حلها •

فانتظرنا بأعصاب مشدودة أن يشير الى مصدر اقتراح الحل ، من أى حزب خرج ! اذ لم يذكر شىء محدد فى هذا الصدد فى قرار الحل •

قال « ميخايلوف » :

« اقترح بعض زعماء الأحزاب فى فترة ما بعد انعقاد المؤتمر السابع فى عام ١٩٣٥ م ، خلخلة ترابط الجبهة ، بل اقترحوا حلها مباشرة • وظهر هذا فى مذكرةهيئة زعامة الحزب الشيوعى السويدى » •

ظننا فى أحزاب مختلفة ، ولكن لم يظن أحد منا أن مصدر هذا الاقتراح هو الحزب الشيوعى السويدى ، والأهم من هذا أن مذكرة الحزب الشيوعى السويدى لم تذكر فيما بعد فى الحلقات الدراسية المتعددة التى ناقشنا فيها موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » • فهمنا الاشارة وسكتنا فلم نتحدث عنها بشىء ، ولم يتضح لى حتى الآن ، لماذا ذكرت المذكرة السويدية فى أول محاضرة ، ثم ألقى عليها ستار من الصمت فيما بعد • وضح لنا ضرب المثل الأسبانى — وكذلك ذكر مذكرة الحزب الشيوعى السويدى — أننا لن نقتصر فى مناقشتنا موضوع حل الجبهة على أمثلة وحجج قرار الحل •

أصبح هذا واضحا لنا بعد دقائق قليلة ، عندما بدأ « ميخايلوف » يتحدث عن الأحداث التى لم ترد فى قرار الحل :

« وأخيرا أحب أن أذكر لكم أوضح مثال حـــدث فى الأسابيع الأخيرة ، يرينا بوضوح ، كيف تعثر نشاط الأحزاب الشيوعية فى بعض البلدان نتيجة لارتباطها بجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« فأنتم قد تتبعتم — بلاشك — باهتمام بالغ ، طلب انضمام الحزب الشيوعى الانجليزى الى حزب العمــال ، أنتم تعلمون أن هذه المسألة تلعب دورا كبيرا الآن فى الحياة السياسية للحركة العمالية الانجليزية ، فقد قضى قبول الحزب الشيوعى الانجليزى فى حزب العمال على عزلة الشيوعيين الانجليز ، ونتج عن ذلك التحامهم بالجماهير العمالية البريطانية • لقد أيد جزء كبير من حزب العمال انضمام الحزب الشيوعى اليهم ، وبعضهم كان معارضا ، وكانت الحجة الرئيســية للمعارضين أن الحزب الشــيوعى الانجليزى مرتبط بجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« نحن لا نشك فى أن حل الجبهة بالنسبة للحزب الشيوعى البريطانى — كما هو بالنسبة لكل الأحزاب الشيوعية الأخرى — تخفيف للعبء الذى كان يعوقهم عن الحركة » •

ثم تناول « ميخايلوف » بعد هذا المثال تحليــلا تاريخيا عن الاتحادات العالمية داخل الحركات العمالية ، حيث أشار بنوع خاص الى العالمية الأولى ، لقد أوضح تاريخ الحركات العمالية ، أن التنظيمات العالمية ضرورية جدا فى بعض مراحل التطور ، ولكن يمكن أن تكون فى فترات أخرى عائقا لتطور الأحزاب العمالية فى بعض البلدان •

كان تكوين العالمية الأولى فى عام ١٨٦٤ م تقدما كبيرا ، وأنجزت واجباتها فى مدى عشر سنوات ، ثم دخلت مرحلة كان فى استطاعة بعض القطاعات فيها أن تتطور فى البلدان التى تتواجد فيها الى حزب عمال قوى ، ولكن احتواءها فى العالمية الأولى كان قيدا ينبغى كسره ، لتتمكن هذه القطاعات من القيام بواجبها •

كذلك تأسيس العالمية الثالثة فى عام ١٩١٩ م • كان احتواء عالميا لكل الثوريين ، الذين يقفون على قاعدة ماركسية فى مجموعات ، وكان ذلك آنذاك حدثا له أهميته فى الحركات العمالية العالمية • واليوم وبعد ٢٤ عاما حيث يوجد فى معظم بلاد العالم أحزاب شيوعية قوية ، وتحتاج الى الاستقلال الذاتى فى كفاحها ، فقد أدت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية دورها ، ولو استمرت مدة أكثر لكانت عائقة لاستمرار تطور الأحزاب الشيوعية •

وفى نفس الوقت حذرنا « ميخايلوف » من الاستهانة بأهمية جبهة

الأحزاب الشيوعية العالمية • أو التقليل من شأنها ، فقد قامت الجبهة بأعمال ضخمة ، وحلها اليوم لا يدل على أن تأسيسها أو نشاطها كله كان خطأ ، بل لأنه تحتم فى الفترة الحالية وجود صيغة جديدة للحركات الشيوعية فى كل البلاد •

ثم أشار « ميخايلوف » أخيرا الى أن الحل ليس الغاء للفكر العالمى الذى ينبغى أن يظل — كما كان — جزءا لا ينفصل فى نضال الأحزاب الشيوعية محل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية سيفتح للأحزاب الشيوعية امكانيات جديدة ، وآفاقا جديدة للقيام بواجباتهم بنجاح فى بلادهم وليقودوا النضال الوطنى ضد الفاشية •

وعندما انتهى التصفيق له • قال « ميخايلوف » انه على استعداد الرد على الأسئلة ، وشرح ما استغلق فهمه •

فطلب الكلمة أحد الشبان الأسبانيين :

« ماذا سيكون وضع منظمة الشباب الشيوعى العالمى ؟ هل ستحل أيضا أو ستستمر فى نشاطها » ؟

فأجاب « ميخايلوف » بسرعة :

« ليس هناك قرار رسمى بحل منظمة الشباب الشيوعى العالمى ، ولكن يمكن للمرء القول بأن نشاطها سوف يتوقف ، فالأسس التى دعت الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، هى بطبيعة الحال قائمة بالنسبة لمنظمة الشباب الشيوعى العالمى • ولا أحتاج الى أن أذكر الرفيق الأسبانى بأن منظمة الشباب الضخمة « الشباب الاشتراكى الأسبانى المتحد » ليست شبابا شيوعيا بالمعنى المفهوم من الكلمة ، بل تمثل صيغة جديدة لتنظيم من تنظيمات الشباب •

ولا يجوز طرح احتمال أن تكون فى تيار الحرب ضد الفاشية منظمات شباب جديدة فى البلاد المحتلة ، أو فى بلاد المحور مثل بولندا ، وفرنسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا •• الخ ، وربما أيضا فى ايطاليا ، وألمانيا • منظمات على نمط الشباب الاشتراكى الأسبانى المتحد ، ولكن من المحتمل أن تكون أوسع ، وتوحد بين الشباب التقدمى المناهض للفاشية • ومن هنا سوف يكون الاحتفاظ بمنظمة الشباب الشيوعى العالمى عائقا فى سبيل تحقيق ذلك • وعلى فكرة ، فان تأسيس لجنة الشباب المناهض للفاشية فى موسكو ، يعتبر فعلا خطوة فى هذا الاتجاه الجديد •

فقال أحد الرفقاء كبار السن :

« أيها الرفيق « ميخايلوف » ماهو مصير مجلة « الشيوعية العالمية » ؟ هل ستتوقف عن الصدور ؟ واذا توقفت فهل ستصدر مجلة عالمية أخرى ؟

أجاب « ميخايلوف » بأن من المسلم به أن مجلة « الشيوعية العالمية » ستتوقف عن الصدور ، ولا يستطيع أحد الآن أن يقول بأن مجلة أخرى جديدة ستصدر أم لا ، وان كان يعتقد أن ذلك محتمل جدا ، وان صدرت مجلةأخرى ، فسيكون لها طابع مختلف •

وكان رأى « ميخايلوف » صائبا ، فقد ظهر بعد بضعة أسابيع مجلة باللغتين : الروسية والانجليزية باسم « الحرب والطبقة العمالية » • وغير اسمها فيما بعد الى « العصر الجديد » واتسع قسم اللغات الأجنبية فيها ، فهى تصدر اليوم بتسع لغات •

كان السؤال الأخير هو :

« هل توجد أى اشارة الى كيفية تنفيذ قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ومتى ننتظر حل مدرستنا ؟

بدأ تنفيذ قرار حل الجبهة مباشرة بعد اعلانه ، غير أنه يمكن أن نقدر أن اتمام اجراءات التنفيذ — من الناحية الفنية — سيستغرق بضعة أسابيع • وفى نفس الوقت تتخذ اجراءات حل المدرسة وسوف يستغرق ذلك بضعة أسابيع أيضا ، والدراسة مستمرة حتى ذلك الحين ، حيث يناقش فى هذه الفترة موضوع حل الجبهة وفى نهاية ذلك ستعقد الامتحانات ، أما عمل الدارسين فى المستقبل فلن يتصل بالجبهة ، وانما ستوكل به قيادة الحزب فى بلد الدارس •

* * *

الأيــام الأخيرة فى المدرســة

استقبل حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الدارسين بدرجات مختلفة ، ومن المسلم به أنه لم يوجد أحد كان فى استطاعته أن يتكلم ولو بطريق غير مباشر ضد قرار الحل • ومن ناحية أخرى لم يظهر رد الفعل المتباين بين الدارسين الشباب وكبار السن فى الأيام الأولى بعد الحل •

بدت علامات الحزن على وجوه الرفقاء كبار السن — أثناء محاضرة « ميخايلوف » — الذين كانوا أعضاء فى الحزب أو قياديين سنين عديدة بل منذ عشرات السنين ، فقد كانت الجبهة حتى قبل بضعة أيام أكبر تنظيم ، رأته عيونهم حتى الآن ، ربما يتذكرون فى هذه اللحظة كلمة « ديمتروف » فى قضية حريق مبنى البرلمان الألمـــانى : « ان القانون الأعلى عند كل شيوعى ، هو برنامج الشيوعية العالمية » ، وأن « أعلى محكمة هى هيئة الرقابة فى جبهة الشيوعية العالمية » ، ويفكرون الآن فى الكلمة الختامية حيث شرح « ديمتروف » أن عجلة التاريخ التى « تحركها الطبقة العاملة تحت زعامة الشيوعية العالمية » لا يمكن أن تتوقف •

« لينين » :

« نقسم لك أيها الرفيق « لينين » ، أننا لن نبخل بشىء من حياتنا فى سبيل تثبيتوتوسيع دائرة اتحاد العمال فى جميع أنحاء العالم ، جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » !

ثم تمحى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الوجود بين يوم وليـــلة •

لم يكن وقع هذه الأحداث علينا — نحن الشباب ، وكنا أكثر من نصف الدارسين — صعبا ، كما كان بالنسبة للرفقاء كبار السن • فقد نشأنا فى عصر لم تعد فيه الشيوعية العالمية تحتل المركز المرموق ، الذى كان لها فى العشرينات • وبدا لنا أن حل الجبهة هو امتداد منطقى للنظريات التى درسناها فى مدرسة الجبهة • وأكثر من هذا ! فقد كان يوجد من بيننا نحن الشباب — وأنا منهم — من يرى ، أن حل الجبهة — من بعض نواحيه — خطوة ايجابية •

عاودت مرارا قراءة فقرة من قرار الحل تحتوى على الاعتراف بأن للأحزاب فى البلاد الأخرى الحق فى أن تسلك الآن طريقا متفردا :

« التباين الواسع فى حركة التطور التاريخى لكل بلد فى العالم على حدة ، والطبائع المختلفة ، حتى التعارض فى نظم مجتمعاتهم ، والفرق فى مستوى ودرجة التطور السياسى والاجتماعى ، وأخيرا الفرق فى درجة الوعى والتنظيم العمالى ، كل ذلك يتطلب حلولا مختلفة للمشاكل التى تواجه الطبقة العمالية فى كل بلد على حدة » •

قرأنا نحن الشباب بارتياح أن النصر على الفاشية « يمكن أن يتحقق فى أحسن ظروفه ، وأكثرها فائدة ، عن طريق طلائع الحركة العمالية فى كل بلد على حدة داخل اطار دولتها ، وأن للحزب فى كل بلد على حدة — كما صيغ ذلك فى المؤتمر العالمى السابع — أن يتصرف فى اتخاذ القرار فى كل مسألة من واقع الأوضاع الثابتة ، والعلاقات الخاصة ، التى تتحكم فى كل بلد بذاته » •

بعثت هذه الصيغة الأمل عندى فى أن الحزب الشيوعى الألمـانى لن يرتبط بالاتحاد السوفييتى بعد الانتصار على الفاشية ، وأنه يستطيع فى كثير من المسائل أن ينهج طريقه الخاص •

أعتقد أن الرفقاء الشبان فى المجموعات الأخرى فكروا نفس هذا التفكير • لقد كانوا حقا — بصورة مبدئية عامة — متفقين مع النظام فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يرغبون فى أن يتصرفوا فى أوطانهم فى بعض الحالات تصرفا مغايرا وبطريقة أحسن •

كما كنت مقتنعا جدا بعدالة القرار — لم أكن أتصور آنذاك ، أن السلطة فى موسكو سوف تفرض سلطانها بعد سنوات قليلة على الأحزاب الشيوعية بطريقة أشد ، وبأسلوب مباشر — كذلك كنت أشك جدا فى أن الأسباب المعلنة ، كانت هى فقط — ولا شىء غيرها — التى أدت الى حل الجبهة •

كانت مدرسة الجبهة على بعد ٦٠ كيلومترا فقط من « أوفا » ، وكانت ادارة المدرسة على اتصال مستمر يوميا مع ادارة الجبهة فى « أوفا » ، لم يكن من الصعب ادراك أن هذا القرار اتخذ بين يوم وليـلة ، والا لظهرت اتجاهات غير مباشرة فى المدرسة لتهيئة الجو لتقبل مثل هذا القرار • لم يحدث هذا فلم توجد أى تلميحات نحو هذا الاتجاه ، بل كان العكس ، اذ فى اليوم الذى أذيع فيه القرار فى الراديو ، كان عندنا محاضرة فى المدرسة عن تاريخ الشيوعية العالمية • وقبل هذا بيومين ، تحدث أحد المحاضرين بالتفصيل عن الدور الكبير الذى تقوم به الجبهة فى النضال ضد « هتلر » •

اذن ، كان مؤكدا أن حل الجبهة كان قرارا فجائيا ، ومن المحتمل أن مصدره « ستالين » أملته عليه ظروف سياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية ، ولا يتعلق بالتطور التاريخى الا بخيط رفيع •

ذهبت للتجول بعد يومين مع أحد الزملاء ، وكان أحد الأشخاص القلائل الذين شعرت أنهم ليسوا متعصبين للحزب •

« فى الحقيقة أن حل الجبهة حدث مهم ، أليس كذلك » ؟ قالها وغمز لى بعينه •

« نعم ! وخاصة أن القرار جاء مفاجئا ومباغتا » •

أردت بهذه الاجابة ، ارساء قاعدة للاستمرار فى الحديث ، ليس حديث الولاء الكامل للاتجاهات الرسمية •

« هل تعلم يا « ليندين » ! يستطيع المرء أن يتحدث كما يحب ، ولكنى مقتنع أن هذا القرار اذعان لانجلترا وأمريكا ، وربما كان هذا القرار استجابة لرغبة هاتين البلدين » •

من الواضح أنهم خافوا من امكانية وجود مثل هذا الفهم فى أذهان كثير من الدارسين فى هذه الدورة الدراسية • وربما كان هذا هو السبب فى أنهم تركوا الدارسين فى حلقات دراسية متعددة ، يعيدون ويكررون مناقشة موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » لمدة أسابيع عديدة •

فقد ناقشوا بالتفصيل كل ما جاء فى قــرار الحل ، وما ذكره « ميخايلوف » فى خطبته من حجج وبراهين ، بطريقة لا يستطيع المرء فى بلد غير الاتحاد السوفييتى أن يتخيلها • فقد شرحت كل جملة منفردة ، وفسرت تفسيرا شاملا ، كذلك شرحت الحوادث التى وقعت فى الاعوام الأخيرة وعللوا : لماذا أصبحت العالمية الأولى قبل سبعين عام — رغم الدور الكبير الذى قامت به — بعد فترة عائقا فى سبيل التطور !

ليس من المألوف خارج العالم السوفييتى — حسب معرفتى — بحث الحوادث السياسية المعاصرة من الوجهة الفلسفية ، ولهذا ينبغى أن أشير هنا الى أننا درسنا فى مدرسة الجبهة قرار الحل — وهو حدث سياسى معاصر — على الأساس الفلسفى للمادية الجدلية •

أكد « ميخايلوف » فى محاضرته على أن النموذج الحالى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية أصبح لا يناسب حجم نشــاط الأحزاب الشيوعية المعاصر فى البلاد المختلفة ، وترتب على هذا وجود تباين بين النموذج والحجم ، وكان هذا داعيا الى بحث العلاقة الجدلية بين النموذج والحجم •

فالمـادية الجدلية — بناء على ذلك — تكون وحدة جدلية بين النموذج والحجم ، حيث يقوم الحجم بالدور الأساسى ، وتتفوق عليه عناصر معينة ، أما النموذج فهو بلاشك متعلق بالحجم ، غير أنه ليس سلبيا ، بل يمكن أن يؤثر على الحجم •

وبناء عليه ، فيجب أن يراعى كلاهما — الحجم والنموذج — فى قضية التطور الى درجة معينة من درجات التطور ، يمكن للحجم فيها أن يواصل تطوره فى اطار النموذج المرسوم دون أن يعاق تطوره ، ولكن اذا وصل الى نقطة يكون فيها النموذج القديم عائقا لاستمرار التطور ، ففى هذه الحالة يظهر التباين بين الاثنين ، ويلح فى ايجاد حل يرفع هذا التباين ، ويتحدد فى النهاية بضرورة طرح النموذج القديم جانبا ، لافساح المجال لاستمرار التطور •

درسنا هذا بالتفصيل على أساس المبادىء الخمسة عشر للجدلية التى أعلنها « لينين » فى بحوثه الفلسفية حيث عـدد فيها ١٦ مبدأ للجدلية ، وشرح العلاقة بين النموذج والحجم فى ١٥ منها •

« صراع الحجم مع النموذج والعكس ، طرح النموذج ، اعادة تكوين الحجم » •

ولأننا نعلم أننا — كلما أمكن ذلك — لن نقتصر على كلام « لينين » فقط ، فقد استشهدنا أيضا بما قاله « ستالين » :

« ان النموذج الحالى لا يتطابق تمام المطابقة مع الحجم الحالى : فالأول يبقى دائما خلف الثانى ، فالحجم الجديد يكون دائما داخل النموذج القائم بنسبة ثابتة ، وهكذا يسـتمر الصراع بين النموذج القديم والحجم الجديد » •

درسنا حتى الآن العلاقة الجدلية بين النموذج والحجم ، وخاصة فى مثال التباين بين قوى الانتاج ، ومركز العلاقات الانتاجية ، وكيف يكون نموذج العلاقات الانتاجية معارضا لنمو قوى الانتاج المادية فى مراحل معينة من التاريخ فيتحول الى أغلال ويعوق استمرار نمو قوى الانتاج •

ثم طبق المبدأ الجدلى على قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فهنا أيضا — هكذا قيل لنا — تدور المسألة حول التعارض بين نموذج بال ، وحجم جديد ، ووجب ازالة التعارض بنسف النموذج البالى ، وهو فى هذه الحالة صيغة تنظيم جبهة الأحزاب الشيوعية

العالمية غير أنى لم أقتنع بأن حل الجبهة يمكن أن يضرب كمثال للتغلب على التعارض بين النموذج والحجم •

كان ذلك شكا فقط آنذاك ، ثم عرفت بعد عدة أعوام أن الطابع الجوهرى « للستالينية » ، هو استعمال المادية الجدلية ، لخدمتها ، لأن « الستالينية » لا تطبق القوانين الجدلية لشرح القضايا داخل المجتمع ، فتتخذ القرار اللازم لهذا التطبيق ، بل استعملتها لتبرير القرارات السياسية ، أو الأحكام بعد صدورها •

اعتقدنا أننا انتهينا من مناقشة مشكلة حل الجبهة من جميع جوانبها ، عندما نشرت « برافدا » فى ٣٠ مايو حديثا صحفيا مع « ستالين » عن الفهم السوفييتى لحل الجبهة ، وعن التأثير الذى سيحدثه هذا القرار مستقبلا على العلاقات الدولية •

أجاب « ستالين » بما يلى :

« قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح ، وقد جاء فى حينه ، لأنه يسهل تنظيم التقدم الجماعى لكل الشعوب الحرة ضد العدو المشترك « الهتلرية » •

قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح لأنه :

(أ) يكشف القناع عن أكذوبة أتباع « هتلر » ، التى يزعمون فيها أن موسكو تحاول التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد الأخرى ، و « بلشفتها » ، فقد ظهر كذبهم الآن •

(ب) يزيح اللثام عن افتراء أعداء الشيوعية داخل الحركات العمالية ، اذ يزعمون أن الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة لا تقوم بنشاطها بوحى من المحافظة على مصالح شعوبها ، بل تنفذ أوامر صادرة اليها من الخارج ، والآن بطلت هذه الفرية •

(ج) ييسر على الوطنيين فى بلاد العالم الحر الاتحاد مع قوى التقدم فى كل بلد — متحررين من التبعية الحزبية والعصبية الدينية — على قاعدة التحرر الوطنى المشتركة ، لتوسيع دائرة النضال ضد الفاشية •

(د) ييسر جهود الوطنيين فى كل البلاد داخل اتحاد الشعوب الحرة للعمل معا فى جبهة النضال ضد خطر سيطرة الهتلرية على العالم ، ويمهد — القرار — بذلك الطريق لتنظيم العمل المشترك لكل الشعوب على أسس المساواة •

أعتقد أن كل هذه الأشياء ستؤدى الى استمرار توطيد جبهة اتحاد الحلفاء والى وحدة دولية أخرى فى مجال النضال ضد جبروت « هتلر » حتى النصر •

وأعتقد أن قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية جاء فى وقته المناسب تماما ، لأن من الضرورى ، الآن بالذات — حيث الحيوانات الفاشية المتوحشة تجند آخر قواها — تنظيم كل الشعوب الحرة للزحف الجماعى ، حتى يقضى قضاء تاما على هذه الحيوانات المتوحشة ، وتحرر الشعوب من الاضطهاد الفاشى » ••

٢٨ مايو سنة ١٩٤٣ م • ج • ستالين

على الرغم من أن هذه التصريحات لم تأت بجديد ، فقد نوقشت فى سلسلة من الحلقات الدراسية ، ولم تدر المناقشة فى هذه المرة حول قرار رئاسة اللجنة العليا ، بل حول تصريحات « ستالين » •

مضى الآن ثلاثة أسابيع على حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ونحن نناقش هذا الموضوع ، ونعيد ونكرر حتى قتلناه بحثا • وأخيرا جاء اليوم الذى كنا ننتظره •

فقد أعلن فى اجتماع عام لكل الدارسين فى مدرسة الجبهة ما يلى :

« انتهت الدراسة الآن ، وعلى كل الرفقاء فى كل المجموعات أن يستعدوا للامتحان الذى سيعقد فى وقت قريب » •

ولأول مرة فى مدرسة الجبهة يكون « وقتنا حرا » نتصرف فيه كيف نشاء ، وان كنا قد تلقينا قائمة موضوعات الامتحان ، ويجب علينا مذاكرتها ، الا أننا كنا أحرار فى تنظيم أوقات التحصيل ، كل حسبما يريد ، لقد تعودت فى المدرسة على حياة ، ليس فيها دقيقة فراغ ، ولهذا بدت أسابيع الاستعداد للامتحان — وهى فى نفس الوقت الأسابيع الأخيرة فى المدرسة — قمة الحرية ، فقد كان لنا الحق فى الدراسة فى الهواء الطلق ، حيث كنا فى أيام يونيو الدافئة الجميلة •

وأخيرا حان موعد الامتحان فى منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ • وعقد الامتحان يوميا فى مجموعات مختلفة ، وكان دور مجموعتنا الألمانية فى المقدمة •

جلس على المنضدة فى حجرة الحلقات الدراسية ، المحاضرون ومشرفو الحلقات الدراسية فى المجموعة الألمانية : « باول فانديل » (كلاسنير) و « برنارد كونين » و « لينى برج » (رينج) ومعهم

« ميخايلوف » كذلك محاضر أو محاضران من المجموعتين الأخريين اللتين تتحدثان اللغة الألمـانية •

نودى على الدارسين واحدا بعد الآخر ، وكان على كل دارس أن يتقدم الى المنضدة ويسحب ورقة من أوراق كتبت عليها أسئلة الامتحان ، وفى كل ورقة أربعة أو خمسة أسئلة • أحدها من محيط الموضوعات التى ناقشناها فى المدرسة •

١ ــ الفلسفة (المـادية التاريخية الجدلية) الاقتصاد السياسى أو أسئلة أخرى عن « الماركسية ــ اللينينية » •

٢ ــ تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، وبالتالى تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

٣ ــ تاريخ الحركة العمالية الألمـانية ، وبالتالى أسئلة واقعية عن النضال المعاصر ضد الفاشية •

٤ ــ سياسة عامة (فى الدرجة الأولى : الفاشية والوضع فى ألمـانيا الهتلرية) أسئلة سياسية جوهرية عن الكفاح ضد « هتلر » (مثلا : شرح الأيديولوجية النازية ، والاستراتيجية والتكتيك ، والجبهة المتحدة ، والجبهة الشعبية) •

لم يكن الامتحان بالغ الصعوبة ، ولكن ربما كان لحل الجبهة تأثير عليه ، غير أنه يتضح منه أيضا ، كم مادة درسناها فى أحد عشر شهرا وهى فترة قصيرة نسبيا •

سار الامتحان فى مجموعتنا دون حدوث أى مشاكل عرضية كبيرة • لم يحدث شيئا سوى أن « أوتو » ارتبك فى تحديد الفرق بين الجبهة المتحدة والجبهة الشعبية ، وبين الحكومة العمـالية ، وحكومة العمـال والفلاحين • ولكن لم يغضب « ميخايلوف » من خلطه بين المؤسسات •

انتهى الامتحان بعد ما يقرب من ٨ ساعات ، ولأول مرة بعد عام تقريبا ، لا يكون عندنا شىء نعمله ، وبدأ الرفقاء قضاء وقت فراغ كبير • والآن ! ينتظر كل الدارسين شيئا هو :

الاشارة بحل مدرسة الجبهة نهائيا ، والاستدعاء للعمل السياسى التالى •

＊ ＊ ＊

الاستدعاء الخاص الى « أوفـا »

حدث شىء — فى هذه الأيام ، التى هى أيام اجازة غير عادية — لم أكن أتوقع امكانية حدوثه قبل بضعة أسابيع :

تقوم المدرسة برحلة جماعية غدا • سوف نستمتع بالشمس ، والسباحة فى نهـر (Bjelaja)

كانت هذه أول مرة — باستثناء ثلاثة أماكن عمل — يسمح لنا فيها بمغادرة دائرة المدرسة •

استلقينا على الشاطىء ، وسبحنا ، وأخذنا حمامات شمس طمعا فى أن تكتسب بشرتنا اللون الأسمر ، وكنا سعداء بقضاء يوم رائع •

ظل يوم (Bjelaja) عالقا بذاكرتى لأسباب أخرى ، فقد كنت مستلقيا مع أحد الأصدقاء فى ركن يبعد قليلا عن المجموعة ، فرأينا فجأة احدى الفلاحات متجهة نحونا ، وقبل أن نفكر فيما ينبغى عمله ، لو بدأت بمخاطبتنا كانت قد وصلت عندنا •

— « أنتم طلبة فى المدرسة • أليس كذلك » ؟
فتمتمنا بكلمات غير مفهومة :

« نعم ! طبعا • ليس مسموحا لكم بأن تقولوا شيئا ، وأنا أعرف بالضبط أنكم من هذه المدرسة الأجنبية • فالسلطة السوفييتية غبية ، اذ تعطيكم أيها الأجانب كل شىء ، ونحن نموت جوعا • على كل فلن يستفيد هؤلاء الكبار من هذا شيئا ، اذ عندما تتخرجون من هذه المدرسة لن تنفعوهم » •

نظر كلانا اليها ، ولكننا لم نتكلم كلمة واحدة • كانت الفلاحة رابطة الجأش ، ولكنها استمرت فى طريقها بخطوات سريعة • أيقظت كلماتها الشجاعة وعيى فأدركت أنى عشت أحد عشر شهرا فى عالم آخر ، مفصولا تماما عن حياة الناس « العاديين » •

واليوم ! يبدو لى بوضوح أن العزلة التامة لطبقة القياديين فى الحزب هى عنصر أساسى فى النظام « الستالينى » • هذه العزلة تفسر بعض الظواهر وأسلوب التفكير والتصرف لدى القياديين « الستاليين » •

وبعد ذلك بأيام قليلة كنت مستلقيا فى حرم المدرسة على الحشيش ، أقرأ كتابا ، واذا بى أسمع شخصا ينادى على :

— « ليندين ••• ليندين » •

— « ماذا حدث » ؟

— « أنت مطلوب عند المدير حالا » •

اتجهت الى حجرة المدير وأنا مضطرب ، هل ستعاد عملية « النقد والنقد الذاتى » ؟ هل أخبر زميلى عن الحديث القصير الذى تبادلناه عن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ولكنه تجاوز فى حديثه عن هذا الموضوع الحد الذى وقفت عنده •

عندما دخلت الى « ميخايلوف » كان فى الحجرة سبعة رفقاء ، وكانوا من مجموعات مختلفة ، قال « ميخايلوف » : « يجب علينا انتظار اثنين آخرين » •

ثم وصل الاثنان بعد بضعة دقائق ، لم يوح الجو بأن هناك عملية « النقد والنقد الذاتى » •

جلس بجانب « ميخايلوف » قيادى ، لم أره فى المدرسة قط • بدأ « ميخايلوف » دون لف ودوران :

« أيها الرفقاء ! لقد استدعيناكم الى هنا ، لأنه قد وقع عليكم الاختيار لعمل خاص • فقد أصبح من الضرورى — نتيجة لحل الجبهة — تنظيم قلم محفوظاتها ، لأنه يوجد فى حالة غير طبيعية بعد نقله من موسكو • لقد اخترناكم لهذا العمل لأننا نرى أن عندكم القدرة السياسية للقيام بتنظيم « الأرشيف » بالاضافة الى أن كل واحد منكم يتقن اللغات الأجنبية التى هى ضرورية لهذا العمل •

لست بحاجة الى أن أشير الى عدم جواز التحدث بهذا الخبر مع أحد • وسوف تسافرون سويا مع هذا الرفيق الى « أوفا » وأظن أن السفر سيكون غدا » •

وفعلا ! وصلت فى صباح اليوم التالى عربة نقل ، أخذتنا نحن العشرة الدارسين والقيادى الذى جاء من « أوفا » واثنتين للآلة الكاتبة • وظل الباقون فى المدرسة • ولم أعلم فى هذه اللحظة عما اذا كنت سأرى المدرسة مرة ثانية ! وماذا يحدث لنا بعد الانتهاء من هذه المهمة !

عندما انطلقت السيارة ، ألقيت نظرة على المدرسة التى تعلمت فيها أشياء مهمة ، ولكن عشت فيها أيضا أوقاتا عصيبة أثناء عملية « النقد والنقد الذاتى » • لقد غيرونى هناك فى مدى أحد عشر شهرا

من طالب وعضو منظمة شباب مرح اجتماعى الى قيادى حزبى ، يزن الكلمات ويقلبها على كل الوجوه قبل النطق بها ٠

توارت المدرسة عن مدى البصر بعد دقائق معدودات ٠ نحن مقبلون الآن على القيام بعمل ، أنتظره بأعصاب مشدودة ، فقد كان أول تكليف لى من الحزب ٠

توقفنا على الطريق بعد ساعة تقريبا ، فلم نستطع مواصلة السفر ، لأنه كان هناك حاجز على الطريق ، ووقف خلفه خمسون شخصا تقريبا ، ينظرون الى سيارتنا نظرات يائسة ٠ سأل مرافقنا بلهجة حادة :

ــ « ماذا حدث » ؟

فاتجه شاب نحو سيارتنا :

« بناء على أمر رسمى صادر من جمهورية « بشكير » يجب على كل سيارة الوقوف هنا ، لتأخذ بعض المستدعين للخدمـــة العسكرية لتوصيلهم الى أماكن استدعائهم ، اذ يجب استغلال كل مكان فى كل سيارة ، وبناء عليه فنطلب منكم أن تأخذوا بعضا منهم معكم فى سيارتكم اللورى » ٠

لم يجب مرافقنا ، بل أبرز له الأوراق الرسمية التى معه ٠ وفى غضون ذلك كان المسافرون قد أحاطونا ، ملوحين ببطاقاتهم الشخصية ، بالضبط كما فعلت قبل عام ، عندما كنت مسافرا الى « كازاخستان » ٠ قرأ الرجل الذى كان يرتدى سترة من الجلد الأوراق التى أعطاها له مرافقنا ، وبعد أن اطلع على كل ما فيها قال شبه معتذر :

ــ « حسنا ! طبعا هذا شىء آخر » ٠

ثم صاح بلهجة حادة قاطعة :

« ارجعوا الى الوراء ! أفسحوا الطريق لهذه السيارة » !

فرفع الحاجز ، ومررنا ، ثم ألقينا نظرة الى الوراء على المنتظرين ، وخيبة الأمل ظاهرة على وجوههم ٠

تكررت هذه العملية فى الطريق الى « أوفا » أربع أو خمس مرات ٠ وفى كل مرة يقدم المرافق أوراقه ، فيفتح لنا الطريق بسرعة ٠ انتابنى شعور غريب لأنى تذكرت ما حدث لى بالذات قبل عام واحد ٠

لم نتجه فى « أوفا » الى مبنى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، بل وقفت العربة أمام فندق (Baschkirija) ذلك الفندق الذى أقام فيه زعماء الجبهة ، ولكنهم كانوا قد غادروا « أوفا » ٠

كان فندق (Baschkirija) أجمل فندق فى المدينة — جديد ، وكان بالنسبة لوضع « بشكير » مؤثثا بأثاث خرافى — .

قادنا مرافقنا الى داخل الفندق ، وكانت الحجرات محجوزة لنا . وبكل هدوء ، هكذا كما لو كان هو نفسه مدير الفندق ، فتح لنا باب المطعم ودعانا الى الدخول ثم قال : « ستتناولون هنا طعامكم » وفى الحال دخلت فتاة ترتدى ملابس نظيفة ، وبدأت فى اعداد المائدة .

ومما لا شك فيه أن طعامنا فى المدرسة كان ممتازا ، ولكن ما قدم لنا الآن يفوق كل ما كنا نتخيله .

وبعد الطعام قدمت السجائر الفاخرة ، فجلسنا ندخن ، ونستمتع بهذه اللحظات الجميلة . ثم قال المرافق :

« والآن ! نستطيع أن نتحدث فى العمل ، اذا لم يكن عند الرفقاء مانع ، سوف تنقلكم العربة كل يوم بعد الافطار الى « أرشيف » جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو فى مبنى احدى المدارس فى الطابق الرابع ومما لا شك فيه أن عليه حراسة مشددة ، فلا نستطيع الدخول أو الخروج الا مع بعض كمجموعة ولن يسمح لكم بالدخول — حتى ولو كنتم مجموعة — الا بهذه البطاقة الشخصية » .

ثم أعطى كل واحد منا بطاقة شخصية ، كانت قد أعدت له بالصورة من قبل .

استمر مرافقنا يتحدث بلهجة ودية جدا :

« أعتقد أن من الأفضل أن نذهب الآن الى « الأرشيف » ، اذ أستطيع أن أشرح لكم العمل هناك على نحو أفضل ، وسوف تبدأون العمل غدا صباحا . هل يوجد أى سؤال » ؟

وطبيعى أنه كان هناك أشياء كثيرة مهمة ، ولكن كان من الطبيعى أيضا ، أنه لم يسأل أحد فيها .

ثم قال : « اذن ، فكل شىء الآن على ما يرام » .

وقفت ثلاث عربات « صالون » على استعداد ، ركبنا فيها ، واخترقنا المدينة حتى وقفنا أمام مبنى مدرسة جديدة ، مكون من أربعة طوابق . وعندما وصلنا الى الطابق الرابع ، اتجه الينا الحارس فأبرزنا له البطاقات الشخصية ، ثم دخلنا الى قاعة ضخمة ، حيث رأينا عددا كبيرا من الزكائب .

كان طول الزكيبة مترا ونصف تقريبا ، وعرضها أكثر من متر .

وبدا من شكلها أنها مملوءة « بدوسيهات » ومحافظ أوراق • وبعد لحظة تبينا أن هناك حجرتين أخريين مملوءتين بزكائب مماثلة •

قادنا المرافق الى أحد الأركان ثم قال :

« عندما اضطرت الجبهة الى الهجرة من موسكو ، لم يكن هناك وقت كاف لتنظيم « الأرشيف » ، فعبئت « دوسيهات » ومحافظ أوراق الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة فى الزكائب بدون ترتيب • وهى مرقمة ترقيما احتياطيا على نحو يمكننا من معرفة ، أين توجد وثائق كل حزب على حدة ، الاأنه ليس معروفا بالضبط ، ماذا فى كل زكيبة على حدة ؟ والمطلوب منكم فتح الزكائب وبحث محتوياتها ، ثم ترقيم المحافظ طبقا لمحتوياتها ، وعمل فهرست لمحتويات كل زكيبة ، ثم كتابته على الآلة الكاتبة • وبهذه الطريقة يمكن معرفة محتويات « الأرشيف » فاذا احتجنا الى وثيقة ما فيما بعد ، فنستطيع بواسطة الفهرست الذى أعددتموه ، معرفة مكان المطلوب » •

نظرت بارتياب الى الزكائب المرصوصة فى الصالة الضخمة ، فأيقنت أن أمامنا عمل ضخم جدا •

« لقد فكرنا فى عمل « أرشيف » عام مفهرس حسب البلاد ، فكل واحد منكم سيأخذ مستندات الحزب الذى سيوكل به • والتقسيم الذى أقترحه هو كما يلى :

أخرج المرافق ورقة من جيبه ، ثم قرأ أسماءنا الحركية ، وكذلك البلاد وأرقام الزكائب التى سيقوم بترتيب وثائقها :

« الرفيق « ليندين » ! الحزب الشيوعى الأمريكى ، ونصف وثائق الحزب الشيوعى البريطانى » •

سررت بهذا العمل ، لأن من المؤكد أننى سأستفيد من قراءة وثائق الأحزاب الشيوعية • هل فكر المرافق فى هذا ؟

« أحب أن أشير هنا بوضوح الى أنه لا يجوز لأحد يعمل فى هذا العمل ، اذاعة أى شىء عنه ، كذلك أحب أن ألفت انتباهكم الى أن كل ورقة — حتى ولو كانت لا أهمية لها اطلاقا — يجب أن تعاد الى الزكيبة التى أخرجت منها • وغنى عن البيان أنه لا يجوز أيضا اخراج أى ورقة — حتى ولوكانت قصاصة — من هذه الصالة ••

وأخيرا أحب أن أشير لكم الى أن العمـل ليس قراءة ما فى

« الأرشيف » من وثائق ، فليس لأحد منكم الحق فى قراءة أى شىء من وثائق هذا الأرشيف » •

لقد تربيت على النظام القاسى ، الذى يلزمنا بتنفيذ التعلميات حرفيا ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يرتب وثائق ويعمل لها فهارس ، دون أن يقرأها ! ولكنى منعت نفسى من التلفظ بأى شىء •

* * *

عملنا فى أرشيف الجبهة

ذهبنا بنشاط فى اليوم التالى الى عملنا فى « أرشيف » الجبهة ، فبدأ كل واحد منا يجمع زكائب « حزبه » • وبعد القاء نظرة سريعة على محتويات الزكيبة الأولى ، تبين لى أن العمل أصعب مما كنت أتصوره ، فكل شىء فيها مختلط ومتشابك •

هل كان الوضع عند الآخرين أيضا بهذه الصورة ؟ ، وعلى الرغم من التعليمات المشددة فقد أطلعنا بعضنا على ما فى الحقائب ، واتفق الجميع على أن زكائبى كانت أسوأ الجميع ، فقد اعترفوا بأن سوء التنظيم والفوضى فى وثائق الحزب الشيوعى الأمريكى يحتل المركز الأول •

لم يوجد فى زكائب رفقائى الأمريكيين أعداد من ربط الوثائق التى ألقى بها دون أن تثبت فى « دوسيهات » فحسب ، بل وجد أيضا قصاصات من الاعلانات السينمائية ، وأعداد من النيويورك تايمز ، وأقلام رصاص مكسرة ، و « كراكيب » أخرى ليس لها صلة بأرشيف اطلاقا •

علق أحد الرفقاء على ذلك ضاحكا :

« من المؤكد أن الرفقاء الأمريكيين لم يكن عندهم وقت اطلاقا ، عندما أرسلوا « أرشيفهم » الى موسكو » !

لم تكن هذه الفوضى عند الحزب البريطانى ، فقد كانت جميع الوثائق — على الأقل — مجموعة فى محافظ أوراق • فهى وان لم يكتب شىء على المحافظ يبين ما فيها من أوراق الا أنها كانت تبدو منظمة نسبيا • غير أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين « أرشيف » وثائق الحزب الشيوعى الألمــانى ، فلا يمكن أن يتصور هذا عند البريطانيين اطلاقا ، اذ لم ينظم الحزب الألمــانى وثائقه فى محافظ فقط ، بل كتبوا ورقة على كل محفظة مكتوبا عليها محتوياتها •

اندهشنا جدا عندما رأينا محافظ أوراق عند الحزب الشيوعى الألمـــانى فيها منشورات عام ١٩٣٢ م ، وقد نظم كل منشور فى المحفظة طبقا لأحرف هجاء قيادة الحى الذى طبعته ، وعلى كل منشور ورقة كتب عليها دوافع اصداره ، ومتى صدر ؟

قال أحدنا للرفيق الذى كان مكلفا بتنظيم وثائق الحزب الشيوعى الألمـــانى :

« أنت محظوظ ، فليس عندك ما تعمله • ولكنه رد عليـــه بأنه يعترف بأن حقائبه منظمة جدا ، ولكن مجموعها يبلغ ثلاثة أضعاف وثائق الأحزاب الأخرى • فلم يرسل أى حزب الى موسكو وثائق بهذا العدد ، مثلما أرسل الحزب الشيوعى الألمـــانى •

عدت الى زكائب رفقائنا الأمريكيين ، وحاولت بكل جهدى تنظيم محتوياتها المتشابكة ، المختلطة وثائقها مع مقصات مكسرة ، وجرائد قديمة ، ومساحات « أستيكة لمحو الكتابة » وأقلام حبر • ولكن كان لهذه الفوضى جانب ايجابى ، فقد كانت فرصة — على أقل تقدير — للقيام بعمل مثل هذا بمفردى • كان على أن أخرج جميع الوثائق وأرتبها حسب السنة والموضوعات الرئيسية ، ثم أعيدها ثانية الى محافظ الأوراق •

كان مرافقنا يلاحظنا ، وعندما مر عندى ، ورأى وضعى السىء الذى وضعنى فيه الرفقاء الأمريكيين ، هز رأسه متأسفا وقال :

« لن تنته من هذا العمل أبدا ، أرى أنه ينبغى علينا أن نقتصر فى هذه الحالة على عمل فهرست عام فقط ، والشىء المهم أن تعاد الوثائق الى المحافظ بسرعة مع شىء قليل من التنظيم ، فاذا لم يتضح لك الموضوع بسرعة فتستطيع أن تكتب « منوعات » على ظهر المحفظة ، لأننا لابد أن ننتهى من هذا العمل فى غضون أيام قليلة » •

اتبعت نصيحته ، فانتهيت فى غضون ساعات قليلة من ترتيب بعض الوثائق •

اشتغلت بنشاط عدة ساعات ، فوضعت وثائق الحزب فى المحافظ مرتبة حسب عناوينها كلما أمكن ذلك ، ثم كتبت على المحافظ عنوان ما فيها وأعدتها الى الزكيبة • وبهذه الطريقة نفذت الأوامر المشددة بعدم قراءة ما فى الوثائق •

وفجأة اكتشفت بين الجرائد الأمريكية المختلفـــة جريدة تسمى

« المناضل » ، ظننتها جريدة شعبية ، فهممت بوضعها فى الزكيبة دون اهتمام ، ولكنى تنبهت فجأة : فقد رأيت على الصفحة الأولى رسم المنجل والمطرقة ، وتحته : « شعار البوليتاريا يوحدكم فى كل البلاد » •

هل هى جريدة حزبية ؟ ولكنهم لم يذكروا لنا شيئا عن هذه الجريدة عندما ناقشنا موضوع الحزب الأمريكى فى دراسة مادة : تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟

ورغم أنى كنت أعلم أنى محتاج الى كل دقيقة فى هذه اللحظة ، فقد تصفحتها بسرعة ـــ كان فيها شىء عن النضال الطبقى ، وعن التضامن العالمى ، وعن تحرير الزنوج •

ثم تأكدت أنها جريدة حزبية عندما وجدت على الصفحة الثالثة عنوانا بالخط العريض :

استسلام « راكوفسكى »

بقلم « ليون تروتسكى »

لم أصدق عينى ! مقال لـ« تروتسكى » ! فهذه بالتأكيد جريدة « تروتسكية » • لو انفجرت عبوة ديناميت كبيرة بجانبى ، ما اهتززت لها أكثر مما اهتززت أثناء العثور على هذه الجريدة •

التفت بسرعة يمينا وشمالا ، فلم أجد أحدا بالقرب منى ، فقرأت مقال « تروتسكى » بسرعة • لا يستطيع أحد أن يتصور ، كم كنت مضطربا وأنا أقرأه !

« راكوفسكى » ؟ قابلنى هذا الاسم مصادفة فى مؤلفات « لينين » وعرفت أنه صدر حكم ضده فى أوائل عام ١٩٣٨ م •

وطبيعى أنى كنت أشك منذ زمن طويل ، فى أن ضحايا التطهير فى الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م كانوا مناهضين للثورة ، ولكن لم يكن هذا الشك سوى افتراض غريزى ، فما كنت أستطيع التأكد من هذا عن طريق المعلومات • والآن ! قرأت عن مصير هؤلاء الثوريين ، عن نضالهم السياسى فى معارضة المجموعة « الستالينية » (كان هذا الرسم وحده نوعا جديدا بالنسبة لى) • ولكن لم أفهم بعد ، لماذا يتحدث « تروتسكى » عن استسلام !

ثم قرأت أن « راكوفسكى » اعترف بخطئه ورجع الى الحزب الشيوعى السوفييتى • وطبقا لما فهمته من المقال — حسب مقدرتى فى معرفة اللغة الانجليزية — فقد صور ذلك على أنه « نقد ذاتى » واعترافه بصحة الحزب • كان اكتشافا أن أجد وصف هذا الحدث بالاستسلام • ألم يكن « تروتسكى » على حق فى هذه الحالة ؟ ألم يكن هذا حقيقة استسلام ؟

لقد فقدت ربع ساعة من وقتى فى قراءة الجريدة الأمريكية « التروتسكية » ، ويجب على أن أزيد من نشاطى ، لأستعيد ما فاتنى عمله فى هذا الوقت المفقود •

اشتغلت بأسرع مما كنت أشتغل قبل قراءة هذه الجريدة ، ولكنى فى نفس الوقت كنت آمل أن يقع فى يدى عدد آخر من جريدة « المناضل » ثم وجدت فى نفس الزكيبة العدد الثانى ، فقرأت بسرعة المقالات المهمة فيه ، ثم أصبحت طريقتى : العمل بدون فترات راحة ، وعند العثور على عددمن جريدة « المناضل » ، أقضى معها بعض دقائق • من المحتمل أنى لست الوحيد فى المجموعة الذى قرأ شيئا مما نشره « تروتسكى » من « أرشيف » الجبهة •

وشرح هذا الاهتمام بسيط جدا : فالجريدة الشعبية التى وقعت فى يدى أثناء تنظيم أرشيف الجبهة (كذلك مقتطفات الصحف الشعبية التى قرأناها فى مدرسة الجبهة) ليست ذات أهمية جوهرية عندنا ، فهى تتناول أشياء بعيدة عن حياتنا وعن مشاكلنا ، وتستخدم مفاهيم لا تفيدنا بشىء ولهذا فهى لا تثير لدينا اهتماما ، ولكن على العكس من ذلك ما كتبه «التروتسكيون » بلغتنا واصطلاحاتنا ، فهم يخوضون فى أشياء كنت أشك فيها دائما ، ولهذا لا يستغرب اضطرابى أثناء قراءتها فى « الأرشيف » واهتمامى للحصول على المزيد مما كتبه « التروتسكيون » فيهـا •

أندم كل يوم ، بل كل ساعة على أنى مررت مرورا سريعا على كل شىء ، فقد كان هناك أشياء كثيرة كنت أحب أن أقرأها — محضر جلسات اللجنة المركزية ، محاورات الاتجاهات المتعارضة ، أسباب طرد زعماء من الحزب — ولكن لم يكن هناك أى امكانية لذلك ، فقد وجب على فتح الزكائب بسرعة « شتخانوف » الحقيقية ، ووضع الوثائق فى محافظ ،

وكتابة العنــاوين عليهــا مثل « نقابات » ، « متنوعات » أو حزب ١٩٢١ ـــ ١٩٢٣ م • وكانت الأوامر ترد الينا كل يوم ، لا بالتزام الدقة فى الفهرسة ، بل بالاسراع فى العمل ، لأنهم يريدون أن ننتهى منه فى أقصر مدة ممكنة ، فالمطلوب أن يكتب فى القائمة محتويات المحفظة بشكل عام أما تفصيل ما فيها فليس ضروريا •

وفى اليوم الخامس ، عندما أردت وضع مجموعة من الوثائق فى محفظة ، سقط منها حوالى ٢٤ صفحة بخط اليد ، وفجأة رأيت توقيعا بخط « ستالين » • فأنا أعرف توقيعه لأنه نشر مرات عديدة ، ولكن لم يقع فى يدى حتى الآن وثائق مكتوبة بخط « ستالين » • نظرت فيها بدقة واهتمام •

يدور موضوعها حول باب من كتاب « أنا لويزا سترونج »[1] حيث وصفت فيه حديثا مع « ستالين » • كان الباب مكتوبا بالانجليزية ، ومصحوبا بخطاب من مدير احدى دور النشر السوفييتية • وذكر فى هذا الخطاب أن الكاتبة الأمريكية « أنا لويزا سترونج » تناولت فى كتابها ـــ وبالتفصيل ـــ حديثا مع « ستالين » ، وترغب الدار أن توجه سؤالا الى « ستالين » قبل الطبع ، عما اذا كان نشر هذا الباب ممكنا كما هو ، أم لابد من ذكر ملاحظات أو تغييرات له • ورأت الدار ألا ترسل النص الأصلى الانجليزى فقط ، بل أرسلت معه أيضا ترجمة دقيقة له باللغة الروسية •

وتاريخ هذا الخطاب يرجع ـــ اذا لم تخنى ذاكرتى ـــ الى عام ١٩٣١ م •

وكان جواب « ستالين » على خطاب دار النشر يتكون من سطور بسيطة هذا نصه :

« ليس عندى شىء ضد النص ، ويمكن نشر الباب كما هو ، أو مع تغيير أيضا ، يؤخذ فيه رأى المؤلف » •

ج • ستالين •

---

(١) قبض على « أنا لويزا سترونج » فى فبراير ١٩٤٩ بتهمة التجسس ، ثم طردت بعد ذلك من الاتحاد السوفييتى • وفى ٥ مارس ١٩٥٥ نشرت برافدا أن القبض عليها كان ظلما ، وقد برئت من التهمة التى وجهت اليها • ونسبت مسئولية اتهامها زورا الى قيادة وزارة أمن الدولة آنذاك ، وعلى رأسها « بيريــا » و « أباكوف » •

لقد كان بالنسبة لى آنذاك — فى عام ١٩٤٣ حيث كانت عبادة « ستالين » تقارب قمتها — شعورا غريبا ، أن يقع فى يدى خطاب من « ستالين » وغنى عن البيان أنى تصفحت الباب ، ولا زلت أذكر كيف بدا لى مستغربا ألا توجد فيه أجوبة معدة ومكتوبة ، وأن يسمح لكاتبة أجنبية أن تكون حرة فى تصوير الحديث مع « ستالين » . لو حدث هذا فى عام ١٩٤٣ ما كان ممكنا بهذه الطريقة .

وبعد أربعة عشر يوما ، كان الجزء الأكبر من الأرشيف — وان كان ذلك سطحيا — قد تم فهرسته . ثم أخبرنا بأننا بعد الانتهاء من هذا الأرشيف سننتقل الى آخر .

وقف مرافقنا مرة أخرى أمامنا ومعه قائمة :

« الرفيق « ليندين » وثائق أرشيف ألبانيا ، وبورما و « جافا »(١) .

وانتتنى الشجاعة لاعتراض خفيف :

« ولكنى لا أعرف اللغة الألبانية ، ولا البورمية ... وماذا يتحدث سكان « جافا » ؟

فأشار المرافق اشارة رفض :

« لا أعرفها أنا أيضا ، ولكن سوف تحاول بقدر الامكان ، وستصل الى المطلوب » .

وتلقى الآخرون مهمات مماثلة ، فكنا فى موقف غريب ، فهرسة « أرشيف » بدون أن نعرف لغته ، والشىء الوحيد الذى كنا نهتدى به الى حد ما ، هو التواريخ وأسماء زعماء الأحزاب التى نعرفها من دراسة مادة تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أو اسم مدينة ، أو اشارة الى الأحداث التى عرفناها أيضا فى المدرسة ، وبين الحين والآخر تظهر بعض الوثائق المكتوبة باللغة الانجليزية أو اللغة الروسية ، وعن طريق هذه الاشارات كنا نحاول الوصول الى حل هذه الألغاز لفهرستها . كان هذا العمل أشبه بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة .

انتهينا من العمل قبل نهاية الأسبوع الثالث على الرغم من الصعوبات التى واجهتنا .

---

(١) جزيرة من جزر أندونيسيا . م . شامة .

شكرنا المرافق ، فانتظرنا بأعصاب مشدودة ، ماذا يحدث لنا بعد ذلك •

« أيها الرفقاء •• لقد رأينا أنكم لابد أن تمكثوا هنا فى « أوفا » بضعة أيام أخرى ، لتستريحوا قليلا ، وستظلون فى فندق (Baschkirija) كما أنتم الآن ، وتحصلون على كل ما يلزمكم منه • وعندما ننتهى من ترتيب بعض الاجراءات سوف تسافرون معى الى موسكو ، حيث تقدمون أنفسكم لأجهزة أحزابكم » •

* * *

نظرة جانبية فى الحياة « العادية »

الى موسكو ! فرحت فرحا لا حد له ، لأنى سوف أتمكن — بعد هذه الأحداث المهولة التى شاهدتها فى عامين — من العودة الى العاصمة • ولكن لا زال عندنا الآن بضعة أيام أخر •

لقد تغيرت « أوفا » فى هذا العام مرة أخرى ، فالقياديون أصحاب المسئوليات العليا قد عادوا مع من يعملون معهم الى موسكو ، ولم يبق هنا فى يوليو سنة ١٩٤٣ م من العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية الا « الطبقة المتوسطة » و « الطبقة العمالية » • وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر السماح لهم بالعودة الى موسكو •

قادنى طريقى الأول الى صديقتى « ايريكا » التى كانت تسكن مع « الطبقة العمالية فى الجبهة » فى شارع « ستالين » رقم ١٠١ • لقد قاست كثيرا فى العام السابق ، غير أنها لم تقع فى مأزق « النقد والنقد الذاتى » ، بل قابلتها صعوبات توصف فى الاتحاد السوفييتى بأنها صعوبات « عادية » •

لم تفرح فرحا كبيرا بالخطوات التى قطعتها فى سلم حياتى فى السنة الأخيرة ، بل قالت ساخرة : « حسنا •• فأنت الآن من طبقة الأذكياء » • فأدركت بوضوح أننى بعدت عن تفكير الانسان « العادى » •

ثم وقفت فى اليوم التالى بعد الظهر على تناقض أكثر من هذا فى « الجانب الآخر للحياة » فقد اكتشفت فى طريق العـودة الى فندق (Baschkirija) شيئا ، بدا لى أنه سوق ، فاقتربت منه لأستطلع أمره •

منظر مرعب ! عـدد كبير من الناس يرتدون خرقا باليـة على

أجسامهم ، جاءوا الى هذا المكان ليستبدلوا حصتهم الضئيلة من التموين بأشياء أخرى ، فهذه امرأة عجوز لا تستطيع الوقوف على رجليها من شدة الجوع ، تمسك فى يديها المرتعشتين قطعة من الخبز الأسمر للمبادلة ، وهذا رجل كبير السن يعرض قطعة من السكر ويريد بدلها خبزا ، وثالث يقدم سيجارتين للبيع ، ويطلب ثمنا للواحدة « ٦ روبل » •

فقر لا حد له ، رأيته فى سوق « أوفا » فأيقظ وعيى بسرعة البرق ، كيف سارت حياتى سيرا حسنا فى كل الأوقات الماضية ! كدت فى مدى شهور قليلة أن أنسى نسيانا تاما أنه يوجد مثل هذا الفقر ، فقد خبت ذكرى أيام « كاراجندا » حيث كنت أعيش فى هذا الوضع •

غادرت الفندق بعد غذاء دسم ، حافل بأنواع الطعام المختلفة ، فرأيت رجلا كبير السن يرتدى ثيابا ممزقة ، ويبدو عليه علامات الفقر المدقع •

وضعت يدى فى جيبى لأبحث عن بعض النقود لأعطيها له ، وفى هذه اللحظة بادرنى بالكلام :

« نهارك سعيد يا « ليندين » فأصابنى الفزع : من أين يعلم هذا الرجل المجهول اسمى الحركى ؟

ثم اقتربت اليه مدققا النظر فيه ، لقد كان أحد الزملاء فى مجموعتنا ، الذى قص علينا ذات يوم بعد الظهر أخبار نشاطه السرى فى فرنسا أثناء الاحتلال ، ثم اختفى من المدرسة فجأة دون أى تفسير لذلك • لقد مضى على ذلك الآن أكثر من نصف عام • وتدل هيئته على أنه قاسى كثيرا فى هذه الأيام • قال لى :

« هل معك قطعة خبز أتقوت بها » ؟

« لا •• ليس معى الآن ، ولكن اذا عدت من طعام العشاء ، فسوف أحضر لك شيئا ، سوف أحاول أن أحضر خبزا قدر استطاعتى ، حسب الحالة دون أن يلحظ أحد ، لأنه ليس مسموحا لنا أخذ خبز معنا •• ولكن لا تؤاخذنى •• فأستطيع أن أحضر شيئا آخر غير الخبز » •

أومأ ايماءة رفض :

« ولكن يا « ليندين » لست فى حاجة الى الاعتذار ، فالآخرون لا يعطونى شيئا اطلاقا حتى الخبز لا أراه منهم ، حتى لا يتكلمون معى ، ومعظمهم يزور عنى اذا رآنى فى الشارع • فلو استطعت أن تعطينى

قطعة خبز ، فلن أنساها لك مدى الحياة ، وسأظل شاكرا لك هذا الجميل الى الأبد » •

وفى كل مساء كنت آخذ معى خبزا أيضا فأدسه فى جيبه فى مكان بعيد عن أعين الناس • فكان يشكرنى فى كل مرة ، ولكنه كان قليل الكلام جدا • ثم علمت أنه لم يتلق مساعدة من أى مكان بعد طرده من مدرسة الحزب • هذا الرفيق الذى قام بأعمال خطيرة — تنفيذا لأوامر الحزب — فى سنوات عديدة ، حكم عليه الآن « بالاعدام » وترك لمصيره ، فهو مثل لقسوة « الستالينية » ، تطبقه على كل انسان لم تعد تستفيد منه •

ولكن أكثر من هذا ! فعلى الرغم مما رأيته فى « أوفا » كنت بعيدا عن ادانة النظام ككل ، اذ لا زلت أعتقد — فى ذلك الوقت — أن الأمر يتعلق بأخطاء فردية ، وظواهر خلفها ماضى الاتحاد السوفييتى ، لم أزل متعمقا فى الأيديولوجية « الستالينية » تعمقا كبيرا بحيث لا تستطيع المناظر التى رأيتها فى « أوفا » ولا التباين الشاسع بين حياة القياديين فى الحزب وبين حياة الانسان « العادى » الذى رأيته واضحا الآن أمام عينى ، فى « أوفا » أن يهز هذه العقيدة عندى •

كانت أحداث أسابيع يوليو سنة ١٩٤٣ التى عشتها فى « أوفا » مثيرة ، فقد سقط موسولينى ، فايطاليا الآن على أبواب الخروج من الحرب ، والكل يأمل أن تنتهى الحرب سريعا •

باغتتنا أحداث يوم ٢١ يوليو فقد نشرت « برافدا » على الصفحة الثالثة بيان اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » الى القوات المسـلحة الألمـانية والى الشعب الألمـانى • ثم علمنا أن أسرى الحرب من الضباط والجنود الألمـانيين اجتمعوا باللاجئين الألمـانيين بالقرب من موسكو فى يومى ١٢ ، ١٣ يوليو ، وكونوا فى هذا الاجتماع اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » • وكان على رأس الأعضاء المنتخبين « ايريش فاينرت » — وكنت أعرفه — ووكيلاه : الرائد « كارل هيتس » والملازم « هاينريش جراف فون أين زيديل » •

قرأت البيان باهتمام ، فتأكدت أنه كان « أوسع » من بيان مؤتمر غرب ألمـانيا المزعوم ، الذى درسناه دراسة تفصيلية فى مدرسة الجبهة • فقد ذكر فى هذا البيان أن :

« فراى هير فوم شتاين » و « ارتست موريتس آرنت » و « كلاوس فيتس » و « يورك » نماذج مثالية • ولم يكن فيه أى اشارة الى مطالب

اشتراكية ، ولم يذكر اطلاقا أى شىء عن وجود الشيوعيين الألمـانيين •

لم نصل الى هذا الحد عندما كنا نناقش « المذهبية » فى مدرسة الجبهة ، ونهاجم كل من يتصرف تصرفا مذهبيا • لم يكن من الصعب ادراك أنه لم يكن تكتيكا جديدا فقط فقد ظهر نتيجة حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، واذاعة بيان اللجنة الوطنيـة بل أن الأمر يتعلق بتغيير فى الرؤية الاستراتيجية •

ظهر لى هذا أيضا بنوع خاص من مطالب البيان ، فقد صيغت صياغة « واسعة » بقدر ما يمكن — ربما كان الهدف من ذلك مخاطبة كل القوى المناهضة لهتلر • — حصر البيان الأهداف — بعد سقوط ألمـانيا الهتلرية — فى تكوين سلطة ديمقراطية قوية (وهذه لا تتفق فى شىء مع الديمقراطية الهزيلة التى كانت فى الجمهورية الفايمرية) ، والغاء كل القوانين التى تدعو الى العصبية الجنسية والعداوة ضد الشعوب الأخرى ، واعادة — وتوسيع — الحقوق السياسية والتأمينات الاجتماعية ، وحرية الاقتصاد والتجارة (بما فيها تأمين الملكية المكتسبة عن « طريق مشروع ») ، والافراج فورا عن ضحايا النظام الهتلرى وتعويضهم ، وأخيرا محاكمة عادلة — لا هوادة فيها — لمجرمى الحرب ، والمسئولين عنها ، ولكن سيكون العفو عن كل أتباع « هتلر » الذين يتبرأون من أعماله قبل فوات الآوان ، وينفصلون عنه ، وينضمون الى حركة ألمـانيا الحرة •

لا زال تصورى لهذه اللجنة الوطنية ناقصا ، اذ لم أعرف بعد مغزى اختيار الألوان : الأسود — الأبيض — الأحمر • رمزا لها • فلم يفهم ذلك من أسلوب « برافدا » •

ولكن كان من الطبيعى أن أهتم جدا باللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » ولم أرغب فى شىء سوى العمل فيها •

وتحققت أمنيتى ! فعندما كنت أتمنى ذلك فى يوم ٢١ يوليو ، وأرى أن تحقيقه ممكن ، دعينا لاجتماع فى نفس اليوم بعد الظهر ، وقيل لنا :

« ستسافر مساء اليوم الى موسكو » •

خلفت ورائى « كاراجندا » ، ومدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والعمل فى أرشيف الجبهة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ما يأتى به الغـد •

وصلنا فى اليوم التالى الى موسكو •

* * *

الباب السادس

اللجنة الوطنية "ألمانيا الحرة"

وأخيرا عدت الى موسكو ! لقد فكرت فيها كثيرا وأنا فى « كاراجندا » وفى « كوشناريكوف » • تركت المدينة فى سبتمبر سنة ١٩٤١ م ضمن المبعدين عنها فى قطار عليه حراسة مسلحة •

والآن •• فى يوليو سنة ١٩٤٣ أعود اليها متخرجا من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ومستعدا للعمل السياسى •

وقفت عربات عند المحطة منتظرة وصـــول مجموعتنا ، الى أين سنذهب ؟ لا ندرى • وعندما كنا نخترق شوارع موسكو ، قال لنا مرافقنا : « سنذهب الى فندق « لوكس » وسنقيم هناك مؤقتا ، وستعرفون كل شىء فى الأيام التالية من زعامة أحزابكم عما ستفعلونه » •

فى فندق « لوكس » •• ذلك الفندق المشهور فى شارع « جوركى » ، سابقا « تويرسكايا » ! مقر اقامة زعماء جبهة الأحزاب الشيوعية ومساعديهم منذ ٢٥ عاما ! كنت اذا ذهبت فى عام ١٩٤٠ أو ١٩٤١ لزيارة أحد فى فندق « لوكس »أمر باجراءات متعددة حتى أصل الى مضيفى • وكانت كل زيارة حدثا كبيرا بالنسبة لى آنذاك ــ والآن ! أسكن هناك فى ذات الفندق •

***

موســـكو : فندق « لوكس »

أخذت منا الوثائق فى ادارة الفندق ، كى يقوموا باجراءات التسجيل فى الشرطة ، قيل لنا ذلك بعدم اكتراث وكأن هذه الاجراءات أمرا سهلا ، على الرغم من أن كل واحد منا يعلم ، أن آلاف بل عشرات الآلاف من الألمـــانيين يكافحون شهورا عديدة للحصول على تصريح للعودة الى موسكو •

أعطى لكل واحد منا فى فندق « لوكس » بطاقة شخصية وعليها صورة شمسية يسمونها « جواز مرور » ، يبرزها الشخص دائما عند دخوله الفندق •

كان هذا الفندق عالمـا وحده ، فقد كان مجهزا بكل شيء ، بحيث لا يحتاج نزلاؤه الى الاحتكاك بأى مؤسسة أخرى ، فبجانب المطعم « الخاص » (الذى لا يدخله الا نزلاء الفندق فقط) كان هناك مغسل « خاص » ومحل لخياطة الملابس ، وجزمجى ، وعيادة « اسعافات » — كل ذلك كان لنزلاء فندق « لوكس » فقط . وكنا مرتبطين أيضا بالمحلات الفخمة القريبة . كانت « أتوبيسات » الفندق الخاصة تنقل العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — بعد حل تمثيل الأحزاب الشيوعية الأجنبية — معا الى أماكن العمل ، وتعيدهم الى الفندق ، فلم يستعملوا المواصلات العامة الا نادرا . كذلك كان فى الفندق فرع خاص للميليشيا والجيش ينظم كل ما يتعلق بتسجيل القادمين ، ورفع أسماء المغادرين ، وعند الاستدعاء للخدمة العسكرية فى الجيش يتخذ هـذا الفرع كل الخطوات اللازمة — ولا يحتاج المطلوب للخدمة الى أن يشغل نفسه بذلك — حتى يعفيه من هذا الاستدعاء .

عندما جئت الى فندق « لوكس » فى يوليو سنة ١٩٤٣ م كان معظم الزعماء قد عادوا من الأماكن التى هاجروا اليهـا عند زحف القوات الألمـانية صوب موسكو . فرأيت « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « أنتون آكارمـان » ورئيسـة الحزب الرومانى فى ذلك الوقت « أنا باوكر » و « يعقوب بيرمان » الذى كان مدرسا فى مدرسة الجبهة ، وهو من زعماء القمة البولنديين ، و « ارنو جيروا » عضو المكتب السياسى المجرى ، و « كوبلينيج » و « فورنبرج » و « أرنست فيشر » و « سكر شيلينج » و « فرانس هونر » من الزعماء النمساويين .

تأكدت عند الفطور والغذاء فى المطعم « الخاص » أن زعماء البلاد المختلفة كانوا يجلسون منفصلين ، كل بلد على حدة ، ومن جلس من الزعماء على المنضدة مع البولنديين أو الرومانيين أو الايطاليين ، نظروا اليه بدهشة ، حتى الألمـانيون والنمساويون كانوا يجلسون فى غالب الأحيان منفصلين ، كل مجموعة على حدة . ويبدو أنهم التزموا هذا المبدأ ، ورأوا أنه صحيح وطبيعى . لم يكسر هذه القاعدة سوى الشبان الذين لم ينشأوا داخل الجهاز .

كان يقيم فى الفندق أيضا فى هذا الوقت — بجانب المنتمين الى الجهاز القديم لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — مجموعة كبيرة من القياديين الشبان ، وكان معظمهم أبناء وبنات زعماء فى الحزب أو

لاجئين سياسيين نشأوا — مثلى — فى الاتحاد السوفييتى ، وسيوجهون فيما بعد الى العمل السياسى •

وكان فى الفندق أيضا بعض الشبان الأسبانيين ، جاءوا الى الاتحاد السوفييتى أثناء الحرب الأهلية الاسبانية ، وتربوا فى دار الحضانة الأسبانية ، ودرسوا فيما بعد فى مدرسة الجبهة ، أو فى مدرسة سياسية أخرى ، قابلت أيضا بعض الشبان الألمـــانيين ، ومن بينهم « بيتر فلورين » ابن « فيلهيلم فلورين » زعيم الحزب الشيوعى الذى توفى فى عام ١٩٤٤ م ، وفتاتين كنديتين ، وأخيرا كثيرا من القياديين الشبان من بلاد مختلفة ، ومعظمهم نشأوا فى بيت الشباب العالمى •

كان معظم نزلاء الفندق يعملون فيما يسمى : المعهد رقم ٢٠٥ ، وهو نوع من التنظيم الذى خلف جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ويحتل مبنى حديثا ضخما فى (Rostokino) بالقرب من المعرض الزراعى ، وهو نفس المبنى الذى كان مقرا للجبهة من عام ١٩٤٠ م حتى عام ١٩٤١ م غير أنه أدخلت عليه تغيرات بعد حل الجبهة ، ولم يعد هناك سوى اعداد البرامج الاذاعية المختلفة للاذاعات السرية — التى كان يوجد عدد كبير منها آنذاك — اذاعة الشعب الألمـــانية ، واذاعة النمسا الحرة ، وبرنامج أسبانى ضد « فرانكو » واذاعات موجهة للبلاد التى تحتلها القوات الألمـــانية •

كان بعض نزلاء فندق « لوكس » من غير العاملين فى المعهد رقم ٢٠٥ ، بل كانوا محررين ومؤلفين ، ومذيعين ، ومراقبى استماع فى اذاعة موسكو ، أو محاضرين ومرشدين فى معسكرات أسرى الحرب ، وعلى الأخص فى المدارس المناهضة للفاشية •

لقد أخلى فندق « لوكس » تماما فى نهاية عام ١٩٤١ م بسبب هجرة المؤسسات من موسكو ، واليوم عاد فامتلأ بالنزلاء مرة أخرى • كانت المبانى الملحقة خالية ، لأنها كانت محجوزة للقياديين الأجانب ، ولم تكن مؤثثة بأثاث فاخر ، بل أعدت اعدادا بسيطا لينزل فيها المساعدون الذين ليسوا على « درجة كبيرة من الأهمية » • ولم تكن حجراتها انفرادية ، بل كان ثلاثة أو أربعة أو خمسة فى الحجرة الواحدة •

نزلت فى احدى حجرات المبانى الجانبية ، وعلى الرغم من حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كانت حجرتنا « عالمية » فقد أقمت فى حجرة مع تركى وأسبانى وألمـــانى وبرتغالى ، وكان هذا

البرتغالى غاية فى النشاط والحيوية ، وكان البرتغالى الوحيد الذى يعيش فى الاتحاد السوفييتى ، ويعمل فى القسم البرتغالى فى اذاعة موسكو •

وبينما كان زملائى فى الحجرة مشغولين جدا فى عملهم ، كنت أنا بدون عمل ، اذ لم أكن قد وجهت لعمل بعد • يبدو أن المسئولين فى الحزب الألمانى ينتظرون حتى يصل الى موسكو كل أعضاء مجموعتنا فى مدرسة الجبهة •

قابلت فى فندق « لوكس » « هانز مالى » مرة أخرى ، وكان كعادته فرحا ، ذا مزاج معتدل • فحيانى بحرارة :

— « آه ! عدت الى موسكو ، وانتهى زمن « كاراجندا » أليس كذلك » ؟

— « نعم ! لقد وصلت الى هنا منذ أسبوع تقريبا ، وسأوجه الى العمل ، هل تعرف شيئا عن هذا العمل » ؟

— « لا تؤاخذنى يا سيدى ! انه لغريب على أن أخاطب بضمير « أنت » فلا يجوز لسيادتكم أن تنسوا أننا فى اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » لم نتعود على سماع مثل هذه النغمة » •

تكلم بجدية ، متقمصا الشخصية الرسمية لدرجة أننى فزعت فتلعثمت فى الاعتذار له :

— « أنا أضحك معك فقط ، اذا تقابلنا هنا ، فنستطيع أن نظل على وضعنا القديم فى التصرف معا • هل تريد أن ترى أصول النسخة الأولى » ؟

طبعا ! أردت ذلك ، فقد كنت مهتما آنذاك بالأحداث السياسية وعلى رأسها أحداث اللجنة الوطنية • أعطانى العدد الأول من جريدة « ألمانيا الحرة » نظرت اليه مندهشا ، لأنى رأيت فى أعلى الصفحة الأولى ثلاثة خطوط : أسود — أبيض — أحمر •

كنت مذهولا بدرجة لا تتصور :

« قل لى يا « هانز » •• هل اختيار هذه الألوان : أسود — أبيض — أحمر • بطريق الصدفة ، أم أنها ترمز الى شىء » ؟

لم أتوقع فى جميع مجالات « الكفاح ضد المذهبية » أن يقع الاختيار ذات يوم فى موسكو ، على الألوان : الأسود والأبيض والأحمر رمزا سياسيا •

قال « هانز » :

« لا ! ليس هذا مصادفة • اذ ليست حركة « ألمـانيا الحـرة » امتدادا لحركة مناهضة للفاشية بالمعنى المألوف ، بل لها — وربما أدركت ذلك من ندائها الأول — هدف ، وهو توحيد كل القوى ضد « هتلر » ، بما فيهم الوطنيين الألمـانيين ، والمحافظين ، وحتى الوطنيين الاشتراكيين على الأقل أولئك الذين يعارضون « هتلر » بطريق أو بآخر » •

كان انصاتى له باهتمام داعيا له للاستمرار فى الكلام :

« انعقدت سلسلة من الاجتماعـات الهامة قبل تأسيس اللجنة الوطنية ، فاختاروا فى البداية الألوان : أسود — أحمر — ذهبى • رمزا لحركة « ألمـانيا الحرة » ، ولكن الأصدقاء السوفييت كانوا مترددين ، بل عارض « مانوئلسكى » هذا الاختيار ، وكانت حجته أن العلم الأسود والأحمر والذهبى يذكرنا بالجمهورية « الفايمرية » • يذكرنا بعهد الضعف والأزمات والجيوش الجرارة من المتعطلين ، وسوف يجعل مجال الحركة ضيقا • أما العلم الأسود والأبيض والأحمر ، فسيكون أحسن من الأول بكثير لأنه محبوب عند ضباط القوات المسلحة الألمـانية ، وسيخلق بذلك حركة وطنية حقيقية تعتمد على قاعدة عريضة من أبناء الشعب » •

وعندما أردت توديعه ، استوقفنى بالاستمرار فى الحديث :

« سوف يبت فى مسألة عملك فى القريب العاجل ، ستصل المركب البخارى من « أوفا » بعد غد ، ثم ندعو الى الاجتماع مع كل أعضاء المجموعة التى كانت فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

كان المركب البخارى القادم من « أوفا » الموضوع الرئيسى للحديث فى فندق « لوكس » فكل واحد كان يعلم ، ماذا يعنى وصول هذا المركب •

اذ سيعود على هذا المركب الفوج الأخير من القياديين ومساعديهم الذين كانوا قد هاجروا الى « أوفا » ، ومعهم هيئة الاداريين والمدرسين والمتخرجين من مدرسة الجبهة فى « كوشناربنكوفو » •

ذهب البعض منا الى مرسى المركب البخارى ، وكان من المعجزات النادرة التى وقعت فى ذلك اليوم ، أن المركب وصلت فى الميعاد المحدد بالضبط ، فانطلقت الألسن بالتحيـات والسلامات ، وظهرت علامات السرور على الوجوه فرحة باللقاء ثانية • وكان « بيرنارد كونين » يقف على ظهر المركب فلوح لى محييا :

— « ما الجديد فى موسكو » ؟

— « ظهر العدد الأول من جريدة « ألمـانيا الحرة » وعلى فكرة فقد اختارت الحركة علما لها أيضا •

— « أى لون اختاروا » ؟

— « لن أقول لك ! خمن أولا » !

انتظرت جوابه بفارغ الصبر • فكر قليلا ثم قال :

— « لن يكون أحمر على أى حال ، ربما قررت اللجنة الوطنية أن يتكون علمها : أسود — أحمر — ذهبى » •

فقلت له مبتسما :

— « تخمينك خطأ ، فعلم اللجنة الوطنية : أسود — أبيض — أحمر » •

بدت علامات الجد على وجهه :

— « هذا جنون ! لا يوجد مثل هذا اطلاقا • لا تهزل فى مثل هذه الأشياء ، وكن جادا » •

— « بلى يا « برنارد » ! هذا صحيح ! حقيقة ، علم اللجنة الوطنية : أسود — أبيض — أحمر » •

غضب « برنارد » غضبا شديدا ، فقد اعتقد أن تلميذه فى مدرسة الجبهة قد سمح لنفسه بالمزاح السخيف معه ، فتركنى ومشى بعيدا عنى ، والغضب باد على وجهه ، ولم أعرف ماذا قال ، أو ماذا فكرعندما علم أن اللجنة الوطنية — حقيقة وليس مزاحا — اختارت ألوان دولة القيصر « فيلهيلم » •

وبعد أيام قليلة دعى المتخرجون الألمـانيون من مدرسة الجبهة الى الاجتماع فى احدى حجرات فندق « لوكس » ورأس الاجتماع « هانز مالى » الذى كان آنذاك مسئولا عن القياديين من الشبان •

كنا نعلم أنه سيتقرر نوع عملنا فى هذا الاجتماع ، فجلسنا حول « هانز » بأعصاب مشدودة الى التطلع لمعرفة ما سيكون ، وعندما هم بيدء كلمته بتمهيد سياسى وقعت عينه على ، فقال لى :

« أنت لا تحتاج الى المشاركة فى هذا الاجتماع ، فقد اتخذ قرار بالنسبة لك ، سوف تعمل فى اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » •

سررت جدا ، فقد كنت أتمنى ذلك ، ثم أعطانى « هانز مالى » ورقة مكتوب عليها ••••

ثم قال : « هاهو ذا العنوان ، سلم نفسك هناك للرائد « بيك » •
لم يكن عندى أى فكرة عن وجود رائد يدعى « بيك » ولكنى تعلمت أنه لا يجوز للمرء أن يسأل • ودعت اخوانى أعضاء المجموعة الألمـــانية ، وبعد دقائق قليلة كنت فى الطريق الى مقر عملى الجديد : اللجنة الوطنية « ألمـــانيا الحرة » •

❋ ❋ ❋

معهـــد رقم ٩٩

تكونت اللجنة الوطنية « ألمـــانيا الحرة » فى يومى ١٢ ، ١٣ يوليو سنة ١٩٤٣ م فى صالة Krasnogorsker Stadtsowjet بعد استعدادات سياسية ودعائية ، وبعد نشر النداء فى جريدة « الكلمة الحرة » التى كانت تصدر آنذاك لأسرى الحرب الألمـــانيين فى الاتحاد السوفييتى •

اهتمت الصحافة السوفييتية بنشر هذه الأحداث وأفسحت لهـــا مساحات واسعة فى صفحاتها ، فقد نشرت « برافدا » ترجمة النداء باللغة الروسية على صفحة كاملة •

انتشرت أنباء فى أوساط اللاجئين فى فندق « لوكس » أن هناك أملا فى أن يحضر بعض كبار الضباط جلسة تأسيس اللجنة الوطنية ، وينضمون اليها ، غير أنه عندما بدأ الهجوم الألمـــانى المضاد فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٣ عند « كورســـك » ، تأرجح بعضهم ، وســـحبوا موافقتهم على الحضور ، وهكذا لم ينضم للجنة الوطنية سوى بعض الضباط ومن بينهم الرائد « هومان » ابن صاحب الشركات الملاحية المشهور فى « هامبورج » ، والمقدم « هـــادرمان » مؤسس مجموعـــة الضباط الأولى المناهضة للفاشية فى Jelabuga فى شتاء عامى ٤١ ــ ١٩٤٢ م ، والرائد « هيتس » مهندس من « كونجسبرج » والملازم « هاينريش جراف فون آين زيديل » •

كان فى اللجنة الوطنية من أعضاء قيادة اللاجئين « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « فيلهيلم فلورين » (توفى فى عام ١٩٤٤ م) و « هيرمان ماتيرن » و « أنتون آكارمان » و « ادوين هورنل » و « مارتا آرنيدزى » •

كذلك كان بعض الكتاب المناهضين للفاشية ، والذين يعيشون منفيين فى الاتحاد السوفييتى مندوبين فى اللجنة الوطنية وهم :

« يوحنا • ر • بيشر » و « فيلى بريدل » و « تيودور بليفير »
و « جوستاف فون فانج هايم » و « فريدريش فولف » •

وتولى « اريريش فاينرت » — وكان ذلك مفاجأة لنا — رئاسة اللجنة الوطنية •

صورت حفلة تأسيس اللجنة الوطنية تصويرا سينمائيا ، وظهرت لقطات هذا الفيلم فى نشرة أخبار التليفزيون السوفييتى ، وفى أفلام الاعلانات الأخبارية فى جميع دور السينما • شاهدت هذه الأفــلام وشعرت باعجاب المشاهدين السوفييت ، الذين رأوا ضباطا وجنودا — على شاشة الاعلانات — من الجيش الألمــانى بملابسهم الرسمية وعليها النياشين وزاد فى اعجابهم شعورهم بأن هؤلاء الضباط والجنود أصبحوا أصدقاء لهم • وبعد التأسيس بفترة قصيرة ، فى منتصف أغسطس ، انتقلت اللجنة الوطنية من « كراسنو — جورسك » الى « لينافو » (على بعد ٣٥ كيلومتر تقريبا من موسكو) • وكان بيت استجمام لنقابة السكك الحديدية سابقا •

لم أذهب قط الى « لينافو » مدة عمــلى فى اللجنــة الوطنيــة التى امتدت الى عام ونصف ، ولم أتعرف — باستثناء مقابلات عابرة — على عضو من أعضاء هذه اللجنة ، التابعين لمجموعة أسرى الحرب ، فقد عشت واشتغلت مع اللاجئين الألمــانيين ، ومنهم ١٢ عضوا فى اللجنة الوطنية •

لقد استطعت أن أتأكد فى الأيام الأولى من عملى ، أن هناك لجنتان وطنيتان : الرسمية ومقرهــا « لينافو » وغير الرســمية ، وتتكون من بعض اللاجئين ومقرها فى حارة جانبية متفرعة من ميدان « أربات » • يوحى المبنى بأنه مهمل ، اذ لا يوجد أى اشارة تقود الغريب الى مقر هذه اللجنة •

هل يوجد هنا حقيقة مقر اللجنة الوطنية « ألمــانيا الحرة » التى كان لتأسيسها هذا الدوى فى وسائل الاعلام ؟ صعدت السلم وأنا شاك فى أن مقر اللجنة هنا فى هذا المبنى • لا اشارة اطلاقا — لا لوحة بأسماء الساكنين ، ولا لوحة مكاتب عامة • رأيت فى الطابق الرابع بابا مفتوحا على مصراعيه ، وخلف المدخل مباشرة ، جلس ضابط سوفييتى شاب على أحد المكاتب يسألنى بالروسية :

— « ماذا تريد أيها الرفيق » ؟

ترددت لحظة ، ثم قلت :

— « فى الحقيقة ! •• أنى أبحث عن اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » •

— « ادخل ! هنا مقرها » •

دخلت الصالة مندهشا ، فاقترب منى ضـابط سوفييتى يرتدى الملابس العسكرية ويحمل رتبة رائد •

قدم نفسه لى باسم : رائد « بيك » •

فأجبته : « فولف جانج ليونهارد » • لأن الاسم « ليندين » أصبح الآن من أحداث المـاضى •

تحدث الرائد السوفييتى « بيك » — وعلمت فيما بعد أنه كان ابن « فيلهيلم بيك » — باللغة الألمـانية • كنت مرتبكا ، لأنى لم أر قط ألمـانيا يرتدى ملابس عسكرية سوفييتية • فقال لى :

« لقد سمعت عنك ، أنا مسرور لرؤيتك ، سأقدمك حالا للرفيق « كارل مارون » •

قادنى الرائد « بيك » خلال ممر على جانبيه ثمانى أو عشر حجرات ، وكان معظمها خاليا ، ربما لم يكتمل بعد مبنى المؤسسة !

وكان فى آخر حجرة عدد من المكاتب والكراسى ، وخلف جبل من الأوراق وعدد كبير من خراطيش السجائر جلس رجل يميل الى السمنة ، فى سن الأربعين تقريبا ، وكان هو « كارل مارون » •

لو قال لى أحد آنذاك أن « كارل مارون » سيصبح بعد أعوام قليـلة رئيس الشرطة فى المنطقة الألمـانية الواقعـة تحت الاحتـلال السوفييتى ، لضحكت على هذا بصوت عال — فلا يليق عليه المنصب أبدا •

كان يقرأ فى جريدة ، قدم لى سيجارة ، وبدا عليه ألا شىء يمكن أن يخرجه من سكونه وراحته • قال الرائد « بيك » :

« أنا لا أعرف ماذا ستعمل هنا ، فمن واجبى الاشراف على عملية تأثيث اللجنة الوطنية فقط ، ولا شىء خلاف هذا » •

فضحك « كارل مارون » ثم قال :

« أنا لا أعرف شيئا أيضا • ففى غضون أيام قلائل ، سيكون كل شىء هنا مؤثثا ، ثم توجه الى عملك • وحتى ذلك الحين تعال كل يوم فى الساعة العاشرة ، واحضر معك شيئا تتسلى فى قراءته ، اذ لا يوجد عمل الآن » •

أحضرت كل يوم كتابا معى فقرأت بشغف « أيام مصدق الأربعين » لـ« فيرفيل » واندمجت معه متشوقا دائما الى ما يلى من أحداث ٠

ولم أنتظر طويلا ، فقد تحول الطابق الخالى فى زمن قصير جدا بالنسبة لطابع الادارة السوفييتية ، الى مكاتب مؤثثة بأحدث الأثاثات ٠ واقتنعت مرة أخرى بأن الادارة السوفييتية تستطيع أن تؤدى ما عليها من واجبات على وجه أسرع ، اذا وقفت خلفها سلطة قوية تخشاها لو توانت أو تلكأت ٠ ويبدو أن الوضع كان على هذا النحو فى قيامها بتأثيث هذا الطابق ٠

اختفى الرائد « بيك » وحل محله رجل فى نظراته دماثة ويدعى « كوسلوف » ٠ وكان يشرح لكل واحد بأدب أنه على استعداد أن يحقق كل الرغبات ما دامت ممكنة من الناحيتين الادارية والفنية ٠

وسرعان ما تبين أن « كوسلوف » ليس شخصية هينة كما ظهر من تصرفاته ، فقد كان قياديا من الطبقة العليا ، كلفته اللجنة المركزية بأن يتولى الادارة هنا ، ويكون همزة وصل مع المؤسسات السوفييتية ٠

وذات يوم وصل سوفييتى آخر ، شاب أشقر ، صامت ، لم يعرف نفسه ، مقتصد جدا فى الكلام ٠ ولم يكن من العسير ادراك أنه رئيس قسم شئون العاملين ٠ وسرعان ما تناقل العاملون الهمس بأن اسمه « فوروبجوف » (أو على الأقل يدعى بهذا الاسم هنا) ٠ وأكثر من هذا لم يعرف أحد عنه شيئا ، لأنه — مثل معظم رؤساء أقسام شئون العاملين السوفييت — لا يرى الا نادرا ، وفضل أن ينظم مسائل قسم شئون العاملين فى حجرة مغلقة عليه ٠

وفى غضون ذلك امتلأت الحجرات فكان يصل أفراد من اللاجئين السياسيين كل يوم تقريبا ٠ فسمعت أصوات الآلات الكاتبة ، وكتبت التقارير ، وأنشىء « الأرشيف » ، وظهر من سيل الجمهور الداخل والخارج بأن هنا مؤسسة ازداد عمل موظفيها ٠

كانت الحجرات مقسمة : حجز منها اثنتان لقادة اللجنة الوطنية ، يجلس « ابريش فاينرت » فى واحدة ، و « فالتر أولبريخت » فى الثانية ٠ وفى الحجرات الباقية هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الحرة » ، ومحررو الاذاعة ، كذلك سكرتارية اللجنة الوطنية « الخاصة » ٠

لم يحدث ما يعكر الصفو أثناء عملية التعديل فى المكاتب وتأثيثها ،

باستثناء بعض أشياء صغيرة ، فقد سمعنا ذات يوم صوتا عاليا فى الحجرة المجاورة يسب ويلعن •

« ماذا حدث » ؟

أجاب « كارل مارون » والسيجارة فى فمه : « هذا فالتر أولبريخت » •

وعندما خرجت الى الممر وقفت على الأمر :

تدور المشكلة حول مكتب ، وبتعبير أدق ، كان مكتب « أولبريخت » صغيرا لا يناسبه ، وسرعان ما سويت المسألة ، فقد تدخل « كوسلوف » بسرعة فقال :

« لا تؤاخذنا أيها الرفيق « أولبريخت » ! فليست المسألة سوى خطأ فنيا فقط » •

وبدا لى كما لو كان يبتسم سخرية • وفى نفس اليوم بعد الظهر كان هناك مكتب كبير لـ« أولبريخت » •

كان هناك حجرتان لمحررى جرائد أسرى الحرب الايطالية والمجرية والرومانية ، وكانتا أصغر ، وتبدوان بالنسبة لحجرات اللجنة الوطنية كما لو كانتا من أقاربها الفقراء •

كان « لونجو » يعد الجريدة الايطالية للطبع ، وهو من خريجى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وابن أحد زعماء الحزب الشيوعى الايطالى •

دعينا بعد بضعة أيام لمقابلات فردية مع « فوروبجوف » فأعطى كل واحد منا تعليمات مطبوعة مكتوب عليها — خلاف الاسم — هذه الكلمات بالخط العريض :

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية

معهـــد رقم ٩٩

قال « فوروبجوف » :

« هذه هى قواعد التعامل مع ادارات الخدمات ورجال السلطة السوفييتية ، فاذا سألتك جهات سوفييتية عن مكان عملك ، فلا تقل لهم : اللجنة الوطنية ، بل معهد رقم ٩٩ » •

اذن ، كنا معروفين عند السلطات السوفييتية باسم : معهد رقم ٩٩ ، ولكن كيف تتشكل العلاقة مع اللجنة الوطنية الحقيقية ؟ ثم وضحت الصورة بعد بدء العمل بحوالى أسبوع ، ففى « لينافو » — حيث المقر الرسمى للجنة الوطنية « ألمــانيا الحرة » — يجلس الجنود والضباط الألمــانيين ، الذين انضموا الى اللجنة الوطنية ، وبالتالى كانوا أعضاء فيها ، ولديهم هناك — بالاضافة الى أشياء أخرى — هيئة تحرير جريدة ، واذاعة •

ولكن اتخذت الصفة المدنية هنا فأطلق على ادارات العمل : « الهيئة المدنية » أو « المجلس المدنى » • وكنا جميعا — نحن العاملين فى هذه الادارة — من اللاجئين الألمــانيين الذين كانوا يعيشون منفيين فى الاتحاد السوفييتى •

من المحتمل أن معظم أعضاء اللجنة الوطنية فى « لينافو » كانوا على علم بوجود « المجلس المدنى » ولكنهم لم يعرفوا شيئا عن نشاطه • ولم يمض وقت قصير حتى أدركت أن الأعمال التحريرية السياسية كانت فى هذه الحجرات أنشط بكثير منها فى المقر الرسمى للجنة الوطنية •

* * *

هيئة تحرير جريدة « ألمــانيا الحرة »

قال لى « مارون » :

— « ستعمل فى هيئة تحرير الجريدة ، وسيكون رئيس التحرير هنا غدا ، فاثبت حضورك عنده » •

— « من هو رئيس التحرير » ؟

— « رودلف هيرن شتات » •

« رودولف هيرن شتات » ؟ لم أسمع بهذا الاسم قط ، ولمــا كنت أعرف وثائق الحزب معرفة تامة ، فأعرف تماما أنه لم يوقع قط على بيان حزبى • وأكثر من هذا : لم يكن اسمه على البيان الذى وجه الى الشعب الألمــانى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٢ ، حيث وقعت عليــه كل الشخصيات البارزة من اللاجئين السياسيين ، كذلك لم يكن اسمه على بيان تأسيس اللجنة الوطنية •

— « سيادتكم اذن ، فولف جانج ليونهارد » ؟

هكذا بدأ « هيرن شتات » حديثه معى ، فانكمشت لا اراديا ، لأنها كانت المرة الأولى التى أخاطب فيها من اللاجئين الألمانيين بكلمة « سيادتكم » •

— « هل اشتغلتم قبل ذلك فى جريدة » ؟

سأل السؤال بأدب ، ونغمة تهكمية غامضة •

— « لا •• لقد تخرجت حديثا من مدرسة سياسية هنا ، ولم ندرس فيها شيئا كثيرا عن الأعمال الصحفية ، بل نظرة عامة فقط » •

لقد اخترت تعبير « مدرسة سياسية » ، لأنى لم أعلم عما اذا كان مسموحا لى أن أتحدث عن مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية مع « رجل يبدو أنه عادى » (أى غير قيادى فى الحزب) ، لقد كان الوضع كله غريبا •

— « لا تهمنى المدارس السياسية ، فقد سألت سيادتكم عن العمل فى جريدة » •

— « لا •• لم أعمل فى جريدة حتى الآن » •

— « سوف يتحتم عليكم أن تتعلموا الكثير ، لأن العمل فى جريدة صعب جدا ، ومسئولية كبيرة ، أعتقد أنه واضحا لديكم ، أنكم ستبدأون من أول السلم » •

كان « هيرن شتات » مؤدبا وباردا فى طريقة كلامه ، فقد التزم مخاطبتى فى كل الوقت بلفظ « سيادتكم » • ولم يتحدث عن « النضال لتحرير الطبقة العمالية الألمانية » ولا عن الحزب • لقد تصرف كما كنت أتخيل تصرف أحد رؤساء هيئة تحرير جريدة رأسمالية ، لقد كنت مرتبكا ومتحيرا •

وأخيرا بدأ « هيرن شتات » حديثه عن طبيعة عملى :

« ستكونون حلقة الاتصال مع المطبعة ، تصححون « بروفات » الطبع ، وتساعدون جماعى الحروف الروسيين فى ترتيب الصفحات ، وقبل هذا تجهزون كل برقيات الأخبار التى ترد الينا تباعا » •

انهال يوميا سيل من برقيات قسم مراقبة الاستماع فى المعهد رقم ٢٠٥ ، وهو المؤسسة التى خلفت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتتلقى هذه المؤسسة كل الأخبار والتحليلات الاذاعية من الاذاعات الموالية لـ« هتلر » ، ومن الاذاعات التى تعمل ضده •

كانت برقيات خاصة ، كتلك التى عرفتها فى مدرسة الجبهة ، ومن

بينها أيضا البلاغ الأحمر الذى كان يضم مقتطفات عن أى خبر من هذه الأخبار التى ترد الينا فى هذه البلاغات •

استدعانى « هيرن شتات » بعد أن بدأت العمل بوقت قصير :

« نحن نحتاج الى معلومات مفصلة عن مسائل اقتصادية معينة فى ألمـانيا وأرجو منكم جمع هذه المعلومات ، وفى القائمة المرفقة عناوين المواضيع المطلوب جمع معلومات عنها » •

كنت متحيرا فى بادىء الأمر ، لأن المطلوب هو جمع معلومات عن موضوعات تخصصية دقيقة •

« لا تقلق •• فتوجد معلومات كثيرة عن كل هذه الموضوعات فى المعهد رقم ٢٠٥ ، ولا تحتاج لشىء سوى مقابلة السيدة « جيرترود كيللر » فهى ستدلك على كل شىء » •

ثم اتصل « هيرن شتات » تليفونيا بـ« جيمندر » رئيس المعهد رقم ٢٠٥ آنذاك ، وأخبره بأنى سأذهب الى المعهد لجمع هذه المعلومات • كان « جيمندر » آنذاك من طبقة القياديين العليا فى الحزب ، لم يستطع أحد دخول المعهد أو الخروج منه الا بجواز مرور بتوقيعه ، أو بتصريح منه • ولم يكن فى امكان أحد — حتى المتشائمين جدا — أن يتوقع أن « جيميندر » سيعدم رميا بالرصاص بعد سنوات عديدة — فى أكتوبر ١٩٥٢ م — فى تشيكوسلوفاكيا مع « سلانسكى » بتهمة « أعداء الشعب »

عندما دخلت المعهد رقم ٢٠٥ ، وبيدى جواز مرور موقع عليـه « جيميندر » لأقابل السيدة « جيرترود كيللر » كنت شاكا فيما اذا كنت سأستطيع الحصول على المعلومات فى وقت قصير ! وسرعان ما تبينت أن هذا الشك كان خطأ ، فقد وجدت فى قاعة ضخمة « كاتالوجا » منظما حسب البلاد والموضوعات ، ومكتبة غنية بالمراجع الهامة السياسية والاقتصادية ، التى نشرت خارج الاتحاد السوفييتى ، وملئت صالة أخرى « بدوسيهات » تحتوى على مقتطفات من الصحف ورتبت أيضا حسب البلاد والموضوعات •

كان عند « جيرترود كيللر » مجموعة كبيرة من المساعدين ، كل واحد منهم مسئول عن موضوع خاص أو بلد معين ، وكان بينهم عدد من خريجى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالميـة • كان جرس التليفون لا يكف عن الرنين ، حيث يستفسر قياديون من بلاد مختلفة ، ومحررو ما يسمى بالاذاعات السرية ، وعاملون من المعهد رقم ٢٠٥ عن

معلومات فى موضوعات مختلفة يبحثونها ، وكان الرد على معظم هذه الطلبات ، بارسال المطلوب مع ساع مخصوص •

بدت قائمة موضوعاتى عادية بالنسبة لها ، اذ قالت لى :

« من فضلك •• اجلس هناك فى قاعة المطالعة ، فسوف تحصل حالا من المساعد الألمانى على كل المقتطفات الصحفية المطلوبة لموضوعاتك من الصحافة الألمانية ، وصحافة الحلفاء ، والصحافة المحايدة » •

وفعلا ! كان أمامى بعد بضعة دقائق كل ما أحتاج اليه ، فتعجبت من كثرة المادة ، ودقة ، وشمول تنظيمها فى هذه المكتبة ، ومن التنظيم والسرعة فى احضار ما يطلبه الباحثون •

ويبدو أن اعتماد هذا المعهد المالى ، ومده بالمتخصصين ليس له حد ، وتأكدت من هذا خلال زياراتى المتعددة له على مدار عام كامل[1] •

فقد كنت أذهب الى هناك مرة كل أسبوع للبحث عن المواد المطلوبة لجريدتنا ، واستفدت من هذا كثيرا ، فعن هذا الطريق استطعت أن أكون صورة عن ألمانيا بعيدة كل البعد عما ينشر فى الصحافة السوفييتية الرسمية •

كذلك أعجبنى الجو فى المعهد رقم ٢٠٥ أكثر من الجو فى هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الحرة » فى المعهد رقم ٩٩ ، حيث كان يعمل فى الشهور الأولى أربعة محررين فقط ، سرعان ما تعرفت عليهم تدريجيا •

« لوتر بولتس » كان يكتب مقالات عن ألمانيا ، ومعظمها بدون توقيع • وكان نشطا فى العمل ، يقرأ كل البلاغات التى تحتوى على مقتطفات من صحافة « هتلر » ، ثم يكتب مقاله • ويبدو أنه كان يعرف « هيرن شتات » من قبل ، لأنه الوحيد من المحررين الذى كان على علاقة طيبة به •

لم يتحدث عن نفسه كثيرا ، كما هو حال أولئك الذين عاشوا فى الاتحاد السوفييتى زمنا طويلا ، ورغم هذا فقد ظهر من كلامه القليل أنه كان محاميا فى « أوبرشليزين » ومضى على اقامته فى الاتحاد

---

(١) لم أر فى ألمانيا الغربية حتى اليوم معهدا ، فيه مواد عن الاتحاد السوفييتى وعن البلاد الشيوعية تقارب فى غزارتها ما فى المعهد السوفييتى رقم ٢٠٥ ، الذى جمعت فيه مواد عن البلاد غير السوفييتية ونظمت تنظيما لا يدانيه تنظيم فى المعاهد التى رأيتها فى ألمانيا الغربية •

السوفييتى عدة أعوام ، عمل فيها محررا فى « الجريد الحمراء » التى تصدر باللغة الألمــانية فى « لينينجراد » وفى « الجريدة المركزية الألمانية » فى موسكو ، ومدرسا للغة الألمانية والأدب الألمانى فى « نوفوزيبيرسك » غير أنه لم يظهر اســمه فى بيانات الحزب ، واستنتجت آنذاك من عدم توقيعه على المقالات التى كانت تنشر له فى الصحيفة عدم السماح له بالظهــور ، ولم يكن ممكنا فى ذلك الوقت ادراك أنه سيصبح زعيم « الحزب الديمقراطى الوطنى » فى المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ووزيرا لخارجية « ألمــانيا الديمقراطية » •

كان الرجل الثانى فى هيئة التحرير هو « الفريد كوريلا » لم يكن طول الوقت عندنا ، بل كان يحضر لمعالجة « الأشياء الصعبة » فقط ، وكانت كتابته قليلة ، ويبدو أن عمله الرئيسى انحصر فى تنقيح مقالات ضباط اللجنة الوطنية ، الذين يجلسون فى « لينافو » وفى رســم وتوضيح الخطوط السياسية للجريدة • وغالبا ما كان يناقش ذلك مع « هيرن شتات » فى حجرة مغلقة عليهما وحدهما دون اشتراك أى من المحررين فى هذه المناقشة •

وعلى الضد من ذلك فى الوضوح الذى لا حد له ، كان نشاط « كارل مارون » فقد كان يكتب التحليلات العسكرية فى الجريدة موقعة باسمه دائما ، وكنا نلمس فى هذه التحليلات حرية واسعة نسبيا ، فقد تجنبت التحليلات الرسمية التى تردد ما يملى عليها ، ولم يكن من النادر أن يتناول فيها بعض التشخيصات للمشاكل التى يحللها ، فكانت بذلك أهم ابواب الجريدة •

والشخصية الأخيرة التى أذكرها هنا هو « أرنست هيلد » • كان مخرج مسرحى سابقا ، ثم جاء منفيا الى الاتحاد السوفييتى • وقع على البيان الموجه للشعب الألمــانى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٢ م بوصفه « ممثل المثقفين الألمــانيين » • تولى قسم الثقافة والأخبار فى الجريدة • كان انسانا لطيفا ، وربما كان مخرجا ممتازا ، ولكنه لم يكن مناسبا للعمل فى الجريدة ، اذ كان يحتاج لصياغة خبر واحد من الوقت ما يتسع لكتابة مقالين فى موضوع التحليلات العسكرية من « كارل مارون » ، وصفحة ألمــانية بأكلمها من « لوتر بولتس » غير أنه كان يتحدث دائما عن عدم رضاه فى هذا العمل وعن عدم استطاعته المساعدة بشكل كاف •

وعلى الرغم من أن « مارون » و « بولتس » و « كوريلا » كانوا أكبر مما كلفوا به ، فلم تكن هناك هيئة تحرير جماعية ، اذ كان معروفا أن « هيرن شتات » يمسك بكل الخيوط فى يده ، وكان على كل واحد من أعضاء هيئة التحرير أن يعطيه — مثل التلميذ فى المدرسة — مقالته ، ثم تعاد اليه وهى مشطبة ومعدلة دون أن يعلل لماذا حذف هذه الجملة ، ولماذا عدل تلك ! كانت سكرتيرته الخاصة « جورديفا » نقطة الاتصال بينهم وبينه ، وهى فتاة نمساوية ، تزوجت فى الاتحاد السوفييتى • بدا واضحا أنها كانت مفضلة عنده •

كان « رودلف هيرن شتات » قليل الحديث عن نفسه ، وعندما قرأت مقاله الأول أعجبت به جدا ، فقد كان « بطريقة أخرى » وعندما أبديت اعجابى بهذا المقال ابتسم المحررون الآخرون ، وقالوا : انه كان سابقا مراسلا لجريدة « برلينر تاجيبلات » (جريدة برلين اليومية) ولكن لم أعرف — كما لم يعرف المحررون الآخرون أيضا — ما فعله فى الاتحاد السوفييتى • لم أعرف سوى أنه كان متزوجا من فتاة روسية جميلة تدعى (Waiija) ، درست — طبقا لمعلوماتى — فى مدرسة موسكو الحكومية للغات الأجنبية • لم يسكن فى فندق « لوكس » ككل المحررين ، وكان اتصاله باللاجئين الألمانيين أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى قليلا ، وعلى العكس من ذلك فقد كان على صلة وثيقة بالمراكز السوفييتية •

قابلت فى الأعوام الطويلة التى عشتها حتى الآن فى الاتحاد السوفييتى نوعا من القياديين ، عديمى الشخصية ، فقد كانوا أناسا يبدون من النظرة الأولى أنهم وصلوا الى مراكزهم عن طريق العنف ، فهم مجردون من الثقافة العالية ، ومن الذكاء أيضا • وما كان يعجبنى دائما عند « هيرن شتات » هو جمعه بين هيئته الغربية ، والملابس الغربية ، وأسلوبه الغربى فى مقالاته ، وذكائه الخارق ، وبين تلك القسوة الباردة برود الثلج ، والتى كان يغطيها تغطية واهية بالمبالغة فى استعمال كلمات المجاملة الرخيصة •

لاحظت فى بادىء الأمر أن جريدتنا لا تخضع للرقابة ، وكان هذا وضعا غير مفهوم لى • فعندنا حرية كبيرة بالنسبة للأوضاع فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن لم تسر الأمور دون رقابة •

استدعانى « هيرن شتات » فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٤٣ وقال لى :
« أرجو أن تأخذ هذه النسخة وتذهب بها الى فندق « لوكس »
للمراجعة » •

وذكر رقم الحجرة التى ينبغى أن أعطى هذه النسخة فيها •

— « من سيراجعها » ؟

— « اسأل عن « أرنو جيرو » •

لم يكن أكثر من هذا مفاجأة لى ، فلقد توقعت أن جريدتنا خاضعة لرقابة القسم السابع فى الادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر (التى تهتم بشئون الدعاية الموجهة للجيش الألمـانى) أو لأحد ممثلى قسم الشئون الخارجية فى اللجنة المركزية للحزب البلشفى • ولكنى تأكدت الآن أن عضوا من مجموعة زعامة الحزب المجرى هو الذى يتحكم فى القرار الأخير لمـا ينشر فى جريدة اللجنة الوطنية الألمـانية •

فرض على أن أقابل « أرنو جيرو » — الذى كان يبلغ من العمر ٤٥ عاما — كثيرا ، كذلك كان يقوم أيضا بين الحين والآخر بزيارة قصيرة لمقر هيئة التحرير ، وظهر لى — من طريقة وأسلوب معاملة « هيرن شتات » له — أنه كان يتمتع بنفوذ كبير • كان من عادته أن يعطى الاشارات السياسية فى ثنايا ثرثرة خفيفة : وغالبا ما تكون متوارية فى جملة جانبية ، وتظهر فقط عن طريق الضغط البسيط على مخارج الحروف • كانت طريقته فى قراءة النسخة مدهشة ، فغالبا ما كان يلقى بعدد من أوراقها جانبا ، ثم يعثر بسرعة على الفقرات السياسية الهامة ، وأحيانا يشطب على كلمة وهو يبتسم ليستبدلها بأخرى أضعف أو أشد قليلا • لا زلت أذكر أحاديثه القصيرة التى كان يتبادلها معى ، أبانت عن معرفته الواسعة بالمشـاكل الألمـانية : وعن قدرته ، وحساسيته السياسية ، التى ظهرت واضحة لى أيضا من طريقة قراءته لنسخة الجريدة المعدة للطبع •

يعيش « أرنو جيرو » فى الاتحاد السوفييتى منذ عام ١٩٢٣ حيث لعب دورا كبيرا على مستوى الزعامة فى جهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • كان فى أسبانيا أثناء الحرب الأهلية ، ثم عاد الى الاتحاد السوفييتى • لم يكن أثناء الحرب — بجانب نشاطه فى زعامة الحزب المجرى — يعمل مستشارا سياسيا للجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » فقط ، بل لعب دورا كبيرا أيضا فى ترسيخ وتعزيز سياسة الأحزاب

الشيوعية فى البلاد الأخرى ، وهو أحد زعماء قمة زعامة الحزب المجرى منذ عام ١٩٤٥ م دون انقطاع ، وتولى مناصب عليا هامة فى الحكومة . ان من المحتمل جدا أن « ارنو جيرو » — الذى هو أحـد الأقطاب السياسيين الكبار فى المعسكر الشرقى — لا يقتصر نشاطه اليوم على المجر فقط .

كان عندنا أثناء غيابه رقيب آخر ، على الضد فى شخصيته من « ارنو جيرو » كان يدعى « اشتومف »[1] ويطابق اسمه .

كان « جيرو » مؤدبا ، واثقا من نفسه ، سريعا فى قراءته ، وتغييره ابسيط فى بعض العبارات الهامة ، أما « اشتومف » — لم يكن مقيما فى فندق « لوكس » بل كان يسكن فى مسكن خاص قريب من بوابة « نيكيتسكى » — فكان يتناول النسخة بأيدى مرتعشة ، ويجلس قلقا يقرأ الجريدة ، وخائفا من أول كلمة الى آخر كلمة . يبدو أنه لم يكن معتادا على قراءة شىء من هذا القبيل ، ويعطى أمرا بنشرها ، وهى تعالج موضوعات بعيدة ومختلفة عما تقوله « برافدا » ، كان يضع خطا تحت كل تعبير ، يرى — حسب فهمه — أنه بعيد عن النغمة الرسمية ، ويكتب أمامه فى الهامش علامة استفهام . وكان مقال « هيرن شتات » نفسه يقع ضحية قلمه ، فيشطب بعض الجمل ، ويغير الآخر ، ويحوله بذلك الى طابع مقالات « برافدا » .

كان « اشتومف » نموذج الموظف الخائف ، الذى تصيبه المسائل المعقدة بالدوار ، والذى لا يناسب اطلاقا فكرة اللجنة الوطنية بضباطها ولواءاتها الألمـانيين ، وبعلمها ذى الألوان الأسود والأبيض والأحمر . ولكننا لا نستطيع عمل شىء ازاء هذا الخوف « البيروقراطى » الزائد عن حده .

ولم يكن من النادر أن يراجع « هيرن شتات » كل التغييرات التى غيرها « اشتومف » ويعيد النص الى حالته الأصلية .

لم يمض وقت طويل حتى تأكدت أن جريدتنا تراقب أيضا من دوائر أعلى فقد ذكر مرارا اسم « مانوئلسكى » ، ولم يكن فى هذا ما يبعث على الدهشة ، لأن « مانوئلسكى » تولى منصبا عاليـا فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وكان صاحب القرار الأخير فى « أوفـا » أثناء الحرب ، ولكن من المحتمل أن « مانوئلسكى » لم يكن نفسه هو مستشارنا

---

(١) معنى الاسم : بليـد ، أو غير جاد . م . شامة .

الأعلى ، فذات يوم ، عندما كان عندنا مسـألة صعبة فى مقال أحد الجنرالات الألمـانيين ، وتحتاج الى حل ، وكان « ارنو جيرو » عندنا فى ذلك الوقت ، هز رأسه مبتسما وقال : مسألة معقدة تحتاج الى مشاورة مع ... وذكر اسما كان آنذاك من أعلى المستويات ، وهو « شتشير باكوف » .

خلف الجنرال « الكسندر شتشير باكوف » « خروتشوف » فى قيادة التنظيمات الحزبية فى موسكو ، ورشح نفسه بعد ثلاث سنوات — فى مؤتمر الحزب الثامن عشر ، الذى انعقد فى أوائل عام ١٩٤١ — مع « مالينكوف » لعضوية المكتب السياسى . وبهذا أصبح ضمن أعلى المستويات التى تقـود زعامة الحزب السوفييتى . ومن الاحتمالات المؤكدة أنه كان مسئولا فى ذلك الوقت عن مسائل السياسة الخارجية .

كان أثناء الحرب رئيس الادارة الرئيسـية السـياسية للجيش الأحمر ، وفى نفس الوقت رئيس مكتب الاستعلامات السوفييتى ، الذى يصدر البلاغات الحربية يوميا . توفى فى ١١ مايو سنة ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب بيومين اثنين ، وأذيع رسميا أنه أصيب بنوبة قلبية ، وبعد موته بثمانية أعوام ، فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٣ م ، قيـل ان بعض أطباء الكرملين قتلوه عن طريق الخطأ فى التشخيص ، واعطائه بعض الأدوية القاتلة . ولكن كذب هذا الادعاء بعد أسابيع قليلة ، أى فى ٤ ابريل سنة ١٩٥٣ م وأفرج عن أطباء الكرملين المعتقلين .

هكذا كانت أسـباب موته غير واضـحة ، وهكذا كان مؤكدا أن « شتشير باكوف » كان يتولى منصبا هاما أثناء الحرب . وغنى عن البيان أن كلمته كانت هى الفيصل فى اتخاذ القرارات السياسية الخارجية الهامة ، بوصفه رئيسا للادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر . وعلى الرغم من أن اسمه كان يذكر عندنا نادرا ، الا أن من المؤكد أن قراره كان الكلمة الأخيرة فى المسائل السياسية الهامة فى اللجنة الوطنية .

* * *

رفض اقتراح الهدنة

كانت جريدة « ألمـانيا الحرة » المحاطة بالألوان : الأسود والأبيض والأحمر تطبع فى مطبعة مقابلة للمبنى الذى نعمل فيه ، وتسمى هذه المطبعة « شرارة الثورة » . وكان يطبع فيها أيضا أثناء الحرب منشورات

موجهة الى الجيش الألمـانى ، وجرائد لأسرى الحرب باللغة المجرية ، والرومانية ، والايطالية ، وكذلك المجلة الألمـانية « الأدب العالمى » — الا أنها كانت تأتى فى آخر القائمة آنذاك — التى كان يصدرها « يوحنا ر . بيشر » .

أدركت فى الأيام الأولى أن طبيعة عملى « كحلقة اتصال مع المطبعة » هيأت لى الاطلاع على أشياء مهمة ، ونواحى لا يعرف عنها الا القليل من نواحى أنشطة اللجنة الوطنية . فقد استطعت الوقوف على التغييرات التى يدخلها « هيرن شتات » على المقالات . وغالبا ما كنت أشهد تغيير فقرات كاملة ، فى الدقائق الأخيرة ، ويبدو أنه كان بتوجيه من جهات عليـا ، ففى الأسابيع الأولى بعد تأسيس اللجنة الوطنية حدثت واقعة : فقد تقرر طبع تهانى معسكرات الأسرى المختلفة — فى أغسطس فى أحد الأعداد الأولى — الى اللجنة الوطنية على الصفحة الأولى بالخط العريض ، ومن الطبيعى أن هذه المسألة لا تتعلق بنصوص كتبها الأسرى أنفسهم ، بل فكرت فيها ، وصاغتها جهات عليـا ، ثم وصلت الى معسكرات الأسرى بطريق « مجهول » كى ترسل من هناك كـ« خطاب تهنئة » الى اللجنة الوطنية .

لاحظت باندهاش أن اللجنة الوطنية وصفت فى خطابات التهنئة على أنها « نواة الحكومة الألمـانية المقبلة » . وعلى الرغم من أنى كنت متأكدا من أن اللجنة الوطنية محمية من المستويات العليـا ، الا أنى اندهشت بشكل كبير لهذه الصيغ التى وردت فى هذه الخطابات .

أعدت الجريدة الاعداد النهائى للطبع ، وفى هذه اللحظة استدعانى « هيرن شتات » :

« لا تبدأوا بالطبع الآن .. وارسل لى « البروفة » الأخيرة ، لأنه لابد من ادخال بعض التغييرات البسيطة عليها » .

قال هذا بنغمة عدم الاكتراث ، وكانت ظاهرة اللامبالاة فى هذه النغمة أقل بكثير مما يتطلبه الموقف .

وبعد نصف ساعة عدت الى المطبعة . دلت « التغييرات البسيطة » على أشياء مهمة : اذ شطب « هيرن شتات » على كل الشارات التى تصف اللجنة الوطنية بأنها « نواة الحكومة الألمـانية المقبلة » . وفى الوقت الذى كان فيه عامل المطبعة الروسى يغير الحروف طبقا للتعديل

الأخير ، كنت أسرح بفكرى فيما حدث فى نهاية أغسطس سنة ١٩٤٣ م من انحطاط مباغت لقيمة اللجنة الوطنية •

لم يكن هذا هو الحدث الوحيد الذى وقع فى الأسابيع الأولى من قيام اللجنة الوطنية ، ففى النصف الثانى من أغسطس سمعنا فى المعهد رقم ٩٩ أنه ستؤسس فى أول سبتمبر سنة ١٩٤٣ — أى فى الذكرى الرابعة لاندلاع الحرب — « رابطة الضباط الألمانيين » وسيكون أعضاؤها — بنوع خاص — من الرتب المتوسطة والعالية ، حتى الجنرالات الذين لم يكونوا فى يوليو سنة ١٩٤٣ م مستعدين للانضمام الى اللجنة الوطنية ، لأن الهدف — هكذا كان تعبيرنا آنذاك — كان « بعيدا » عنهم ، أقيمت الاستعدادات للتأسيس فى أول سبتمبر ، ثم أجل فجأة ، وانقطع الكلام عن « رابطة الضباط الألمانيين » ، ولم يعط تفسير لهذا التأجيل ، ثم وجهت عجلة القيادة فجأة بعد عشرة أيام نحو هذا الاتجاه ، وأعقب ذلك تأسيس « رابطة الضباط الألمانيين » فى ١١ ، ١٢ سبتمبر — بطريقة تبدو عليها الاستعجال — بقيادة الجنرال « فون زيدليتس » •

اعتقدت فى بادىء الأمر أن تأجيل تاريخ التأسيس كان لأسباب فنية ، ولكن حدث فى نفس الوقت أمر آخر حيرنى :

كان هذا فى النصف الأول من سبتمبر سنة ١٩٤٣ م • تلقيت من « هيرن شتات » مقالا بعنوان « هدنة — عرض الساعة » • هدنة ؟ وبدون وعى رجعت بتفكيرى بسرعة الى الوراء ، كان شعار اللجنة الوطنية آنذاك « الاطاحة بهتلر ، وانسحاب القوات الألمانية الى داخل حدود ألمانيا » ولم يكن هناك أى كلام عن هدنة •

قرأت المقال بامعان ، فوجدت أن كلمة هدنة ، لم ترد فيه الا مرتين ، ونغمته مخالفة تمام المخالفة لما تعودنا عليه ، فهو لم يخاطب فى المقام الأول الجنرالات والضباط المناهضين لـ« هتلر » بل كان — وان كان أيضا بصيغة غير مباشرة — فى الحقيقة عرضا للهدنة موجها الى الجهات الرسمية فى حكومة « هتلر » ، كان واضحا أن مثل هذا المقال يمكن أن يوحى به فقط « من أعلى مستوى فى الدولة » ، ثم انتظرت بأعصاب مشدودة ، الخطوات التالية فى الطريق الى المطبعة ومع ذلك ظل المقال دون تغيير ، وانتهت عملية التنقيح والتعديل ، وكان مقررا أن يبدأ الطبع فى الليل • وقبل منتصف الليل وصل « هيرن شتات » فجأة الى

المطبعة ، فأخذ « بروفة » الصفحة الأولى قبل الطبع بدقيقتين ، وتمتم مرة أخرى بأنه سيجرى بعض « التغييرات البسيطة » •

وعندما أعاد الورقة ، كان المقال الافتتاحى قد تغير . فقد شطب « هيرن شتات » على كل تلميحة بالهدنة ، ووضع مكانها جملا مختلفة تمام الاختلاف عن الأولى •

وعندما انتهينا — أنا و « كارل مارون » — من تصحيح « البروفة » بعد التغيير ، وكنا ننتظر النسخة الأولى من المطبعة ، فكرت فى هذا التغيير الغريب • هل كان هناك حقيقة امكانية للهدنة مع « هتلر » ثم طرحت هذا التفكير جانبا ، لأنى اعتبرته آنذاك هواجس فقط •

ثم عرفت بعد سنوات عديدة ، أن محادثة جرت بين ممثلى الاتحاد السوفييتى وألمـانيا الهتلرية فى النصف الأول من سبتمبر سنة ١٩٤٣ م فى « ستوكهولم » حول عقد هدنة بين البلدين •

فطبقا لمـا أورده « كلايست » فى كتابه : « بين هتلر وستالين » — وأعتقد أن ذلك صحيح — فقد كان لدى الزعماء الذين كانوا يملكون زمام الكلمة الأخيرة آنذاك فى الاتحاد السوفييتى • شك كبير فى الحلفاء الغربيين ، وكانوا يرون عقد هدنة ، أو حتى معاهدة سلام منفردة مع « هتلر » •

ولكن الاتصالات التى أعد لها فى سرية تامة من قبل ، قطعت بناء على أمر من « هتلر » •

أثرت هذه الاتصالات على الخط السياسى للجنة الوطنية ، فمن المحتمل جدا أنه لم يسمح فى تلك الأيام بنشر وصف اللجنة الوطنية بأنها « نواة الحكومة الألمـانية المقبلة » فشطبت كل اشارة توحى بهذا الاتجاه • كذلك تأجيل تأسيس « رابطة الضباط الألمـانيين » كانت له علاقة بهذه الاتصالات ، التى جرت فى « ستوكهولم » بين المفاوضين السوفييت والألمـانيين •

ويظهر أن المقال الذى كتبه « هيرن شتات » فى جريدة « ألمـانيا الحرة » عن « اقتراح الهدنة » كان بوحى من الاتحاد السوفييتى ، وبعد قطع المحادثات صدرت التعليمات الى « هيرن شتات » بسحب المقال وتغييره • ربما كانت علاقة « هيرن شتات » — الذى لم يكن على اتصال كبير باللاجئين الألمـانيين — وثيقة بالمراكز العليا فى الاتحاد السوفييتى

حتى ان أخبار محادثات السلام — وان كان ذلك جزئيا — كانت تصل اليه .

أخذ « هيرن شتات » معه « البروفة » الأولى من مقاله التى كانت قد طبعت قبل التغيير ، وبهذا اختفى الدليل الوحيد المطبوع لهذا الحدث الذى لم يعرف حتى الآن الا من مذكرات أبحاث مشهورة فى « ستوكهولم » عن الهدنة بين المـــانيا الهتلرية والاتحاد السوفييتى فى خريف عام ١٩٤٣ م .

* * *

الشهور الأولى للجنة الوطنية

اذا نظرت الى الوراء ، يبدو لى أن وضع اللجنة الوطنية فى الشهور الأولى — تقريبا حتى مؤتمر طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ — كان ذا أهمية كبرى .

فقد اقترب عدد كبير من الجنرالات والضباط ذوى الرتب العليـــا من هدف اللجنة الوطنية بعد تأسيس « رابطة الضباط الألمـــانيين » فى ١١ ، ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣ . غير أن هذه الرابطة فى بادىء الأمر على الأقل — لم تكن بأى حال من الأحوال تابعة للجنة الوطنية ، فقد كان لها استقلالها الذاتى ، ولها أيضا مجلس خاص بها . وكانت تختلف فى طبيعتها عن اللجنة الوطنية ، فبينما تكون اللجنة الوطنية فى قمة الحركة ، يمكن للمرء أن يصف « رابطة الضباط الألمـــانيين » بأنها أعضاء مسجلون على الورق .

اجتمعت الجمعية العمومية للجنة الوطنية فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٣ م لتنسيق نشاطها ، فاتســـع حجم مجلس رئاستها بانضمـــام الرؤوس المتزعمة « رابطة الضباط الألمـــانيين » اليه ، وانتخب رئيس الرابطة الجنرال « فالتر فون زيدليتس » والجنرال « ايدلر فون دانيلس » نائبى رئيس اللجنة الوطنية ، كما انتخب الجنرال دكتور « كورفيس » والجنرال « مارتن لاتمان » والعميد « لويتد بولد شتايدل » والعميد « فان هوفن » ممثلين لـ« رابطة الضباط الألمـــانيين » فى اللجنة الوطنية ، فأصبح عددها الآن أكثر من خمسين عضوا .

ازدادت أهمية اللجنة الوطنية بانضمام الجنرالات الألمـــانيين اليها ، وزاد عدد أعضائها ، ولمست اهتمام الجانب السوفييتى بها من كثرة

زيارة « ارنو جيرو » كما ظهرت أهميتها من مكاتبات التأييد التى كانت تصل من الحلفاء ومن الدول الأخرى المحايدة .

كانت هناك فروق جوهرية بين دعاية اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » و « رابطة الضباط الألمانيين » من جانب ، وبين دعاية القسم السابع فى الادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر من جانب آخر ، فبينما كان يطلب القسم السابع من الضباط والجنود الألمانيين وقف عمليات القتال ، لم تكن مثل هذه الظاهرة فى دعاية اللجنة الوطنية ، بل على العكس : فقد كانت أسس التفكير آنذاك : الاطاحة بـ« هتلر » وتنظيم انسحاب القوات الألمانية الى ما وراء حدود ألمانيا ، كى يهيأ الجو لعقد معاهدة سلام مشرفة مع الحلفاء .

انعقد مؤتمر الأقطاب الثلاثة فى طهران من ٢٨ نوفمبر حتى ١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ م ونتج عنه توثيق علاقة الاتحاد السوفييتى مع الحلفاء الغربيين . واستطعنا أن نحس من الصحافة السوفييتية ، ومن الدعاية السياسية الداخلية ، أن العلاقة مع الحلفاء الغربيين ، قد قويت بعد مؤتمر طهران ، وأثر هذا على الاتجاهات السياسية ، وعلى نشاط اللجنة الوطنية .

فقد جرى الحديث فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ فى « الهيئة المدنية » وفى فندق « لوكس » أن البرنامج السياسى للجنة الوطنية ، أثبت أنه غير ذى أثر ، وأنه لا يتفق مع الحالة الحاضرة .

قررت مجموعة الضباط فى اللجنة الوطنية فى ٥ يناير سنة ١٩٤٤ قلب الاتجاهات السياسية . وعبر الرئيس « فاينرت » عن ذلك بقوله :

« نحن ندخل المرحلة الثانية ، وهى تتطلب منا أن ننظم نضال الجنود والضباط والشعب والوطن على قاعدة أوسع ... الموقف يتغير ، ويجب أن تكون شعاراتنا مطابقة لطبيعة الزمن ... فقد أصبح العمل فى الجبهة الآن مقدم على كل عمل سواه » .

وفى النهاية أعلن « فيلهيلم بيك » الخطوط السياسية الجديدة :

« ليس من المعقول الانتظار حتى يوجد فى ألمانيا جنرال ، أو زعيم ادارى يمنع « هتلر » فى اللحظات الأخيرة من اتمام جريمته ، ومن الميئوس منه وجود أحد من المسئولين من رجال الجيش ، أو الاداريين عنده الشجاعة للقيام بهذا العمل . لقد سمحنا لـ« هتلر » بالكثير ، ومن هنا يجب علينا تجنيد كل قوى الشعب والعمال والفلاحين والمثقفين .

يجب علينا شن نضال منظم لتحرير الشعب الألمانى ••• ونص النداء الذى نوجهه الى جنود الجبهة هو : وقف عمليات القتال والالتجاء الى اللجنة الوطنية » •

وبهذا تغير مفهوم ، وهدف اللجنة الوطنية تغييرا جذريا ، فقد كانت حتى مؤتمر طهران منظمة ، رسمت واجباتها فى اصدار بيانات أو ارسال خطابات مباشرة الى قادة الجيش ، تطالبهم بسحب قواتهم الى داخل حدود ألمانيا ، وبهذا يهيئون جوا لعقد معاهدة سلام مشرفة لألمانيا • أما الخط السياسى الجديد الذى ووفق عليه فى يناير سنة ١٩٤٤ ، فقد كانت النقطة الرئيسية فيه الدعوة الى « ثورة شعبية ضد هتلر » فى داخل ألمانيا ، واللجوء الى جانب اللجنة الوطنية فى الجبهة • وحصرت اللجنة الوطنية — من الآن — نشاطها على بيان أن الموقف العسكرى لألمانيا الهتلرية ميئوس منه ، ولهذا تدعو القوات الألمانية الى وقف عمليات القتال • وهذا يعنى عمليا أن يذهب الفرد طائعا الى الأسر ، ليحتفظ بحياته لبناء ألمانيا جديدة •

احتل نشر أخبار الهاربين من صفوف الجيش الألمانى ، ولجوئهم الى جانب اللجنة الوطنية المركز الأول فى الجريدة — الا أن ذلك لم يكن فى الغالب سوى أفراد ، أو مجموعات صغيرة ، كما حدث عند « كراسنو — آرميسك » فى شمال (Swenigerodka)

وقعت حوادث فى الجبهة بعد أسابيع قليلة ، وضعت اللجنة الوطنية أمام واجبات كبيرة ، وكانت تتعلق بحصار « كورسوم شيفتشن كوفسكويا » الذى ذكر فى البلاغات الحربية الألمانية باسم « حصار غرب تشيركسى » فقد اخترقت قوات الجيش السوفييتى خط الـ« دنيبر » — الذى كانت القيادة العليا تعلق على اجتيازه آمالا كبيرة — على امتداد واسع ، وتوغلت عند نقط كثيرة فى الاتجاه الغربى ، ورغم هذا فقد تشبثت عشر فرق ألمانية — بناء على أمر من « هتلر » — بمواقعها عند شاطىء الـ« دنيبر » ودافعت عنها دفاع المستميت • لم يكن من الصعب التنبؤ بأن هذه القوات يمكن أن تحاصر بسهولة ، وقد حدث ذلك فى الأيام الأخيرة من يناير عندما التقت مقدمة الجناح الجنوبى القادم من الجبهة الثانية فى « أوكرانيا » بمقدمة جناح قوات الجبهة الشمالية •

وبذلك حوصر فى منطقة « كورسوم شيفتشن كوفسكويا » الواقعة

غرب « تشيركسى » — طبقا للمعلومات التى نشرت آنذاك فى الاتحاد السوفييتى عدد يتراوح بين ٧٠٫٠٠٠ و ٨٠٫٠٠٠ جنديا وضابطا من قوات الجيش الألمـانى ٠

وتنفيذا لتعليمات الجهات العليا سافر الجنرال « فون زيدليتس » والجنرال دكتور « كورفيس » وعدد كبير من الضـباط الألمـانيين الآخرين الأعضاء فى اللجنة الوطنية مع جنرال سوفييتى فى قطار خاص الى الجبهة ، ليحاولوا التأثير على الموقف ٠ فأرسل الجنرال « فون زيدليتس » خطابا شخصيا الى الجنرال « ليب » وغمرت القوات المحاصرة بالمنشورات والنداءات ٠ غير أن حملة الدعاية التى قامت بها اللجنة الوطنية ، و « رابطة الضباط الألمـانيين » لم تحدث أثرا كبيرا ، كذلك لم تكن أيضا موفقة ، لأن قوات ألمـانية أرسلت لفك الحصار ، فقاتلت وشقت طريقها حتى وصلت على بعد بضعة كيلو مترات من المحاصرين ، فلاحت فرصة فك الحصار ٠ وفعلا نجح جزء كبير — كما عرفت فيما بعد من مسئول كبير كان فى الجبهة — من المحاصرين فى فتح ثغرة لهم والخروج من الحصار ٠

الا أن الدعاية السوفييتية ألقت ستارا من الصمت على ما قام به الجيش الألمـانى من فك الحصار بالقوة ، وأعلنت أن ٥٥٫٠٠٠ من الجنود الألمـانيين وقعوا فى الأسر ، بينما الحقيقة أن ١٨٫٠٠٠ فقط هم الذين استسلموا ٠ كذلك نقلت جريدة « ألمـانيا الحرة » — وان كان ذلك بأسلوب مختلف — ما نشرته الصحافة السوفييتية ٠ ثم أضيف الى ذلك أن نصف أولئك الذين وقعوا فى الأسر أعلنوا — بعد وقوعهم فى الأسر مباشرة — انضمامهم لحركة « ألمـانيا الحرة » وكان هذا أيضا مبالغة أيضا ، كما أخبرنى مسئول كبير فى الجبهة فى حديث خاص معى ٠

رغم الاشتراك المباشر للأعضاء الكبار فى اللجنة الوطنية ، وفى « رابطة الضباط الألمـانيين » ، ورغم الاذاعات والجرائد والمنشورات ، والدعاية المباشرة فى الجبهة ، فقد أصيبت اللجنة الوطنية بهزيمة منكرة ٠

كانت هناك حوادث صغيرة فردية ، نفخت فيها جريدة « ألمـانيا الحرة » وعملت منها أشياء ضخمة ، وبينتها على أنها نجاح كبير ، فقد انحصرت الأخبار فى أوائل عام ١٩٤٤ م على هروب « هاينس ميلر » — وهو برتبة مساعد ضابط من « براون شفايج » — هبط بطائرته فى ٥ يناير سنة ١٩٤٤ فى احدى المطارات السوفييتية ، وصرح بعد هبوطه

بأنه عندما سمع مع زملائه اذاعة « ألمــانيا الحرة » ، قرر — هكذا صرح « هاينس ميللر » — بأن يلجأ فى أقرب فرصة ممكنة الى جانب اللجنة الوطنية « ألمــانيا الحرة » •

وقرظ ميكانيكى الطائرات — الذى هو من « براون شفايج » — « هاينس ميللر » فى مقال على عدة أعمدة على لجوئه الى اللجنة الوطنية ، مع طائرة طراز (Ju 52)

وفى مارس سنة ١٩٤٤ عندما استسلم ١٨٠٠ جنديا وضابطا فى حصار صغير عند الجبهة الجنوبية فى (Snigrewka- Beresnowatoje) كتبت التقارير فى هيئة تحرير الجريدة أن كثيرا من هذه الوحدة — على عكس حالة حصار « شيفتشن كوفسكويا » — كانوا يعرفون الكثير عن اللجنة الوطنية •

ولكن كل هذا لم يكن مطابقا لمــا كان يتوقعه المسئولون فى موسكو عندما أسست اللجنة الوطنية • ولم يرتفع شأن اللجنة مرة أخرى الا فى صيف عام ١٩٤٤ م ، ولكنى لم أشهد هذا فى هيئة تحرير الجريدة •

* * *

مذيع فى اذاعــة « ألمــانيا الحرة »

اتسعت بمرور الأيام واجبات « الهيــئة المدنية » أو المعهــد ٩٩ ، حتى ضاقت المكاتب بالعاملين فيها • كان « كوسلوف » — همزة الوصل بيننا وبين الادارات السوفييتية — يطمح فى توسيع دائرة اختصاص « مؤسسته » على الرغم من أنه لم يشارك مباشرة فى العمل الذى نقوم به • كان يطمئننا بقوله : « سوف أعمل شيئا » •

كان حصول ادارة ما على حجرة صغيرة زيادة على ما عندها من الأمور الصعبة جدا فى موسكو وقت السلم ، فقد انتظرت كثير من المؤسسات المهمة سنين عديدة اعتماد حجرات تضاف الى مكاتبها التى ضاقت بالعاملين بها ، وأصبح من المستحيل الآن ، فى معمعة الحرب ، الحصول على حجرات اضافية •

رجع « كوسلوف » بعد بضعة أيام ، وعلامات السرور بادية على وجهه ، ثم قال لنا بحماس بالغ الفرحة : « لقد وجدنا مقرا رائعا » ، ثم دعينا فيما بعد للذهاب الى هناك لمعاينة المقر الجديد ، وبعد ربع ساعة وقفنا مدهوشين أمام المبنى الجميل رقم ٣ فى شارع « أبوخــا » •

يقع هذا المنزل أيضا فى قلب وسط المدينة ، ولا يبعد عن A . Boulevard

ويبدو أنه كان سابقا « فيلا » لأحد التجار ، أو لأحد كبار الموظفين. فحجراته واسعة بنوافذ كبيرة ، وتحوطه حديقة واسعة، وله بوابة ضخمة خارجية — تعتبر بالنسبة لموسكو خيالية — يربطها بمدخل المبنى طريق طويل يخترق الحديقة . كنت أعرف هذا المنزل من قبل ، فقد كان مسكنا للاجئين السياسيين حتى بداية الحرب فى عام ١٩٤١ م . أقام فى هذا المنزل عدد كبير من اللاجئين الألمانيين والنمساويين سنوات عديدة ، انحشروا فيه كما يحشر « السردين » فى العلب .

ثم نفى جزء منهم الى « كازاخستان » والجزء الآخر الى « تومسك » ، فأصبح المنزل خاليا .

كان كبيرا علينا ، فجهازنا لا يحتاج الى مثل هذه المساحة الضخمة :

— « هل تقرر أن يكون المنزل كله للمعهد رقم ٩٩ » ؟

— « لا .. ليس كله ، بل النصف فقط ، والنصف الآخر لمؤسسة أخرى » .

—« وما هى تلك المؤسسة » ؟

حك « كوسلوف » فى شعره مفكرا ، ثم قال :

« اللجنة البولندية للتحرير الوطنى » .

لم يكن ارتباكه مستغربا ، اذ لم يبدو مثل هذا « الاشتراك فى المبنى » وضعا صحيحا من الوجهة السياسية ، فقد بدت تلميحات فى أوائل عام ١٩٤٤ م الى الحدود الألمانية البولندية ، التى ستحدد فيما بعد ، وسيكون ذلك غير مناسب لألمانيا . أما « كوسلوف » — الذى شعر بالحرج عندما فكر فى هذا — فقد طمأننا بقوله :

« كلا المؤسستين منفصلتان عن بعضهما ، وسيظلان كذلك ، فللمنزل مدخلان منفصلان ، ولهذا لن يضايقكم شىء ، فلن تحتكوا باللجنة البولندية على الاطلاق » .

لم يمض على انتقالنا الى المنزل سوى فترة قصيرة جدا حين قرأنا فى جريدة نازية أن اللجنة الوطنية الألمانية ، والبولندية تقيمان معا فى مبنى واحد فى موسكو . أحدث هذا النبأ ثورة نفسية ، لأنه لم يكن واضحا لنا كيفية وصول هذا الخبر بهذه السرعة الى النازيين ، والحرب دائرة على قدم وساق .

حدثت بعض التغييرات فى هيئة التحرير بعد الانتقال الى هذا المنزل

مباشرة ، فقد انضم الينا عضوان جديدان هما « فيلى ايلدرمان » و « بيتر فلورين » .

عاد « فيلى ايلدرمان » قبل وقت قصير من شمال أفريقيا ، فقد اشترك فى الحرب الأسبانية ، ثم اعتقل فى شمال أفريقيا ، وأطلق سراحه بعد نزول قوات الحلفاء هناك ، فانضم الى الجيش الانجليزى ، وظل معه بعضا من الوقت . أفرج عنه مع آخرين — على أساس بنود معاهدة — فوصلوا الى موسكو عن طريق طهران .

قابلته فيما بعد فى برلين عندما أصبح قياديا فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، وعمل زمنا طويلا فى هيئة تحرير مجلة الاتحـاد الاشتراكى الألمـانى المعروفة باسم « الوحدة » .

أما « بيتر فلورين » فهو ابن عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى الألمـانى « فيلهيلم فلورين » وأعرفه من قبل ، لأننا كنا معا فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » ، وكنا أصدقاء مدة طويلة . ثم قابلته بعد عام ١٩٤٥ فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وكان رئيس تحرير مجلة الاتحاد الاشـتراكى الألمـانى المعروفة باسـم « الحرية فى هاللى » ثم ارتقى فيما بعد الى رئيس قسم فى وزارة الخارجية فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ورئيس لجنة السياسة الخارجية فى مجلس الشعب .

اتسع عمل هيئة التحرير ، فأسند الى — بجانب عملى الحالى — بعض الأعمال التحريرية الصغيرة ، ورغم هذا فلم أكن مسرورا ، لأنه لم يتغير شىء فى أسلوب عمل هيئة التحرير ، ولا فى تحكم « هيرن شتات » « الاوتوقراطى » . ولهذا فرحت جدا عندما تغير عملى على غير انتظار فى مايو سنة ١٩٤٤ م .

قابلت « أنتون آكارمان » فى منتصف مايو سنة ١٩٤٤ ، وكان آنذاك رئيس هيئة تحرير الاذاعة ، فقال لى :

— « لقد فكرنا فى انتقالك الينا فى هيئة تحرير الاذاعة ، وتتولى العمل مذيعا ، وسيكون العمل بالتأكيد أحسن لك من العمل الذى تقوم به فى الجريدة » .

— « أتمنى بكل سرور أن آتى اليكم ، ولكنى لا أعلم عما اذا كان « هيرن شتات » سيسمح بذلك » ؟

ابتسم « أنتون آكارمان » ثم قال :

— « اذا كنت موافقا ، فتعال معى دون حرج ، فقد تحدثت عنك فعلا مع « هيرن شتات » •

— « اذا كان الأمر يتعلق بى أنا ، فأنا أحب أن آت اليكم فى الاذاعة اليوم قبل غد » •

— « اذن ، فلتأت معى الآن ، سنذهب بالعربة الى محطة الاذاعة ، ويمكنك أن تلقى نظرة على العمل هناك » •

ظننت أننا سنذهب الى دار اذاعة موسكو ، ولكن بدلا من هذا اتجهت العربة فى طريق معاكس لطريق اذاعة موسكو ، ثم وقفت بعد ربع ساعة أمام منزل جديد رقم ٣٤ فى شارع « شابلفكا » •

كان هذا المنزل محاطا أيضا بحديقة مسورة ، ويقف أمامه الحراس • فتشت أوراقنا فى المبنى الصغير الملاصق للبوابة الخارجية ، وهناك عرفت أين نحن ! فى محطة تليفزيون القناة الأولى فى الاتحاد السوفييتى • لقد انتهى بناؤها — حسب معلوماتى — فى عامى ٣٨ — ١٩٣٩ م ومنذ ذلك الحين ترسل من هنا البرامج التليفزيونية ، غير أن قوة الارسال كانت آنذاك محدودة فى دائرة ضيقة ، ولكنه توقف فى بداية الحرب • والآن : تذيع اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » برنامجها من هنا ، وسمعت فيما بعد أن برنامج التشويش المشهور (Zwischenruf - Sendungen) (وهو نداء بشعارات تبث خلال برنامج الاذاعة المراد التشويش عليها) كان يذاع من استوديو آخر فى نفس المبنى • وقيل انه ضبط — بواسطة أجهزة خاصة — على المحطة الألمـانية ، ضبطا يمكنهم بواسطة النداءات المتخللة التشويش عليها بسهولة • وسمعت مرارا أن الذى يتولى بث هذه النداءات — ولا زال يتذكره كثيرون من مستمعى الاذاعة فى ألمـانيا — هو « باول فانديل » — وليس غيره — الذى كان مدرسا فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

دخلنا حجرة ضخمة مليئة بأجهزة التليفزيون المعقدة ، فحيـانا المهندس ومساعدوه • ثم سمعت شرحا لطبيعة العمـل من « أنتون آكارمان » ومن المذيع « فريتس هايلمان » وقد كان عضوا سابقا فى برلمـان ولاية « تورينجن » عن الحزب الشيوعى •

قال « أنتون آكارمان » :

« المسألة بسيطة جدا ، فستسمع الآن كيف يذيع « هايلمان » ثم بعد ذلك تجرب مرة أو مرتين » •

حدث هذا أيضا ، لقد كنت أتوقع أن أقوم بتدريبات لمدة بضعة أسابيع ، ولكن أعطيت بعض الأوراق فى الفترة الاذاعية التالية ، ثم قيل لى :

— « الآن ! « فولف جانج » ألا تريد أن تحاول مباشرة » ؟

— « كيف ؟ مباشرة على الهواء » ؟

جلست فى الفترة الاذاعية التالية فى الاستوديو بجانب « فريتس هايلمان » ثم أعطانى بعض التعليمات بسرعة جدا ، وبعدها بدقائق أضيئت « اللمبة الحمراء » ، ثم سمعت لحن أغنية « الله •• الذى ينمى الحديد » ، وكان هذا دائما مقدمة برنامجنا • ثم انطلق صوت « فريتس هايلمان » عبر الأثير واضحا :

هنا صوت اذاعة اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » •• نتحدث باسم الشعب الألمـانى •• ننادى بانقاذ الامبراطورية ••وبعد أن قرأ « هايلمان » نشرة الأخبار ، قرأت أنا التعليق العسكرى •

بعد أن انتهيت قابلنى « آكارمان » بابتسامة :

« أرأيت •• لقد سارت الأمور سيرا رائعا •• اذن تستطيع أن تبدأ غدا ، ستقرأ مبدئيا مع « هايلمان » ، فاذا أتقنت كل شىء ، تقسم البرامج بينكما » •

وهكذا أصبحت مذيعا فى اذاعة « ألمـانيا الحرة » ، كان عملا شاقا ، ولكن كنا نحصل فى مقابل هذا على امتيازات خاصة : اذ يعد المذيع — وخاصة اذا كان يقوم بعمله فى الليل — من الطبقة المفضلة فى المرتبات فى الاتحاد السوفييتى ، فلكل واحد « حجرة استراحة » فى مبنى الاذاعة ، ونأخذ مرتين فى الأسبوع — بجانب ما نحصل عليه من فندق « لوكس » من طعام فاخر وخلافه — طرودا مليئة بالأطعمة الخاصة كانوا يسمونها (Pojoks) .

غير أن لوظيفة مذيع فى الاتحاد السوفييتى آثارا جانبية : فالرقابة والتسمع على المذيع دقيقة جدا ، ويحاسب حسابا عسيرا على أقل خطأ فى الاذاعة ، ولحسن الحظ ، كانت اذاعة « ألمـانيا الحرة » هى الاذاعة الوحيدة التى لها وضع خاص فى الاتحاد السوفييتى ، فلم تكن تابعة لهيئة الرقابة على البرامج الاذاعية •

كان مراقب اذاعتنا هو « برونو شرام » أحد القياديين فى الحزب الشيوعى ، وهو من حى « نويكولن » فى برلين • لجأ الى الاتحـاد

السوفييتى فى عام ١٩٣٣ م • واشترك فى الحرب الأسبانية ، انحصر عمله فى رقابة التشويش الفنى ، وتسجيل الأخطاء اللغوية التى نقع فيها فى سجل خاص ، يرسل الى « آكارمان » للتوقيع عليه •

كانت أخطاؤنا اللغوية — التى وقعت أنا و « فريتس هايلمان » فيها — فى مدى عام كامل بسيطة وقليلة جدا ، ولم تحدث أخطاء اذاعية سوى مرة واحدة ، كان يستعان أحيانا بالسيدة « لى فاينر » — زوجة رئيس اللجنة الوطنية — عندما يمرض أحدنا ، أو يطرأ له طارىء يعوقه عن العمل • وغالبا ما كان يحدث ، أن يطلب منا تليفونيا قبل الاذاعة بوقت قصير ادخال بعض التعديلات على النص • وذات مساء طلب من « لى فاينر » قبل الاذاعة بدقائق ، تغيير كلمة « فاشية » على الصفحة الأولى بكلمة « الاشتراكية الوطنية » ، ثم أضيئت « اللمبة الحمراء » بعد ذلك مباشرة ، فانطلق صوت « لى فاينر » عبر الأثير : هنا يتحدث صوت الاشتراكية الوطنية • لقد كان موقفا فظيعا ، فلو كانت تذيع من اذاعة موسكو ووقعت فى هذا الخطأ ، لتحدد مصيرها بعده مباشرة ! ولحسن الحظ لم يتخذ فى اذاعتنا أى اجراء ضدها •

كان من الأمور المعتادة أن نقوم بتجربة قبل بدء الاذاعة ، لنتأكد من سلامة التوصيلات الفنية ، وكان مسموحا فى هذه التجربة قراءة أى شىء ، لأنه لا يرسل عبر الأثير ، وذات يوم أردت المداعبة فى عملية التجربة ، فتحدثت بالانجليزية :

« هنا محطة اذاعة اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » نتحدث اليكم باسم الشعب الألمـانى ، نحن ننادى بانقاذ الامبراطورية » • وعندما خرجت من الاستديو رأيت وجه المساعدة الفنية مصفرا ، فقد انطلقت التجربة عبر الأثير مباشرة •

ثم قالت بصوت مرتعش ، وهى مضطربة :

« ماذا سيحدث بعد ذلك » ؟

شعرت أيضا بالانقباض ، فقد كنا نعتقد نحن المحررين — وربما كان هذا صحيحا — أن الحلفاء الغربيين فى لندن ونيويورك يراقبون اذاعتنا بدقة ، ويلتقطون كل حرف يذاع منها • ماذا سيظن مركز مراقبة الاذاعات فى لندن ونيويورك ، عندما يسمعون فجأة أن اذاعتنا بدأت تذيع باللغة الانجليزية ؟

عشت أيضا لحظة مرعبة بعد بضعة أسابيع أثناء فترة اذاعتى ، جلست جلسة مريحة فى الاستديو ، ثم أضيئت « اللمبة الحمراء » فى نفس اللحظة التى ظهر فيها فأر صغير بجانب « الميكروفون » فبدأت الاذاعة : هنا صوت اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » ، نظر الفأر الى باهتمام ، وكان على بعد ٤٠ سم منى وعلى ارتفاع فى نفس مستوى فمى ، ويمكنه أن يقفز فيه بين لحظة وأخرى •

جلس الفأر هادئا أثناء قراءتى نشرة الأخبار ، ثم حركت يدى ببطء نحو المفتاح الذى أستطيع بواسطتة قطع الاتصـال • وأخيرا انتهيت من الاذاعة ، لقد كنت على استعداد لقطع الاذاعة لو تحرك الفأر سنتيمترا واحدا •

انتهى البرنامج ، فصحت فى الفأر ، فجرى خارج الاستوديو ، فخاف منه الموجودون عند الهندسة الفنية ، وانزعجوا ، وحاولنا جميعا مشتركين طرد الفأر باحدى المقشات ، وفى غضون ذلك كان يذاع تحليل لأحد الجنرالات عن حرب « هتلر » اليائسة ، ومحاولتنا امساك الفأر كانت يائسة أيضا ، ولكننا تمكننا أخيرا من طرده خارج الاستوديو •

كان العمل فى الاذاعة لطيفا ، وله منافع من بعض النواحى : فقد كنت أستطيع فى الاذاعة ، فى فترات الراحة المتقطعة سماع الاذاعات الأجنبية ، ولم يكن هذا ميسورا فى الاتحاد السوفييتى الا لطبقة قليلة جدا من القياديين أعضاء الطبقة العليـا فى الحزب ، لأن جميع أجهزة الراديو سحبت من جميع أفراد الشعب فى بداية الحرب •

كنت اذا انتهيت من الاذاعة ، اتجهت بسرعة البرق الى جهاز الراديو الذى أسمع فيه تلك الاذاعات الأجنبية • لم أهتم بالمحطات النازية ، فغالبا ما كنت أسمع اذاعة لندن • وبعد وقت قصير اكتشفت محطة للحلفاء ، والتزمت سماعها دائما « اذاعة الجنود الغربية » — وكان مقرها انجلترا — مزجت بطريقة لبقة جدا بين موسيقى الرقص والدعاية ضد « هتلر » ، وكنت مغرما بتعليقاتها التى كانت تذاع تحت عنوان : « هنا يتحدث زميل عن الموقف » وكنت أعتبر هذا البرنامج من أنجح البرامج تأثيرا فى حرب الدعاية الاذاعية •

* * *

« أنتون آكارمان » وهيئة تحرير الاذاعــة

كان رئيسى الجديد « أنتون آكارمان » شخصا آخر يختلف تمام الاختلاف عن « رودولف هيرن شتات » فهو دائما مبتسم ، ولطيف ، ولم يمض على عملى فى الاذاعة سوى وقت قصير ، حين دعانى للعمل معه فى هيئة التحرير •

« اذا أردت فتستطيع أن تشترك هنا فى جلسات هيئة التحرير فسوف تحصل منها على صورة كاملة • للعمل هنا ، وربما تستطيع بعد وقت قصير كتابة مقال أو تعليقا اذاعيا » •

كان العمل فى الاذاعة يختلف عن العمل فى الجريدة ، فهناك — فى الجريدة — قيادة « هيرن شتات » « الأوتوقراطية » ، وهنا — فى الاذاعة — العمل المشترك الصحيح •

لم يتصرف « أنتون آكارمان » — الذى كان رئيسا لهيئة التحرير ، وكان يكتب بنفسه التعليقات الاذاعية الهامة — بعجرفة الرؤساء ، ولكنه كان يملك من الصفات ، ما جعل له النفوذ الحقيقى ، اذ كان من المسلم به عند الجميع أن قدرته وامكانياته تفوق بكثير قدرة العاملين معه •

لم يتجاوز « آكارمان » آنذاك الأربعين من عمره ، فقد ولد فى عام ١٩٠٥ م فى « تالهايم » (ارتس جيبرجى) واشترك فى بادىء الأمر فى نشاط الشباب ، ثم انضم الى الحزب الشيوعى الألمــانى فى عام ١٩٢٦ م وبعد هذا بوقت قصير اشتغل فى وحدة الحى (Plauen - Zwickau) ثم أرسل فى عام ١٩٢٨ م بسبب نشاطه الحيوى الى موسكو ليتزود من الثقافة السياسية •

انتخب فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ م ، فيما يسمى بمؤتمر بروكسل ، عضوا فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى • كان فى أسبانيا أثناء الحرب الأهلية ، ثم عاد الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٤٠ • وقع — مع غيره — على نداء الحزب الشيوعى الألمــانى وعلى البيان الذى وجه الى الشعب الألمــانى ، وعلى بيان تأسيس اللجنة الوطنية ، وتولى بعد التأسيس مباشرة رئاسة هيئة تحرير الاذاعة •

انضم « كورت فيشر » — الذى كان يكتب التعليقات العسكرية اليومية القصيرة — الى الحزب الشيوعى الألمــانى فى شبابه ، وقضى معظم حياته فى الاتحاد السوفييتى • ليس عضوا فى زعامة الحزب

الرسمية ، ويظهر أنه لم يتصل لمدة سنوات عديدة بالحزب الشيوعى الألمـانى الا قليلا • كذلك لم يسكن فى غندق « لوكس » أثناء عمله فى اللجنة الوطنية • تثقف ثقافة عسكرية فى الاتحاد السوفييتى ، وقيل انه تخرج من أكاديمية الجنرالات فى الجيش الأحمر ، وتولى مهمات خاصة فى الصين أيضا • ولم يكن صريحا فى تصرفاته ، وكان سهل الاثارة • كان يلاحظ أحيانا أنه متأثر بتأخره فى سلم المناصب ، وأنه تحت رئاسة « آكارمان » •

لو ملك « فيشر » السلطة فى يوم ما ، فلا أحب أن أكون تحت رئاسته ، هكذا فكرت آنذاك • وتحقق ظنى ، فقد أصبح « فيشر » بعد عام ١٩٤٥ وزيرا للداخلية فى مقاطعة « زاكسين » فلم يستخدم هذا المركز فى مطاردة المخالفين له فى الرأى مطاردة لا هوادة فيها فحسب ، بل أيضا لخدمة أهوائه الشخصية ، ولاقصاء أعدائه عداوة شخصية ، الذين كان وضعهم خطرا عليه •

كان « فريتس ارين بيك » يكتب معظم التعليقات الصغيرة على الموضوعات الأخرى ، وكان صحفيا موهوبا ، ظهر له فى الاتحاد السوفييتى قصة صغيرة من وحى الحرب العالمية الأولى بعنوان « •• ولكن لا أريد أن أكون جبانا » وكذلك القصة الطويلة « المؤسسون » •

اشتغل « ارين بيك » بعد عام ١٩٤٥ صحفيا حرا فى جرائد ومجلات مختلفة ، وأصبح فيما بعد رئيسا للقسم المركزى « الفن التشكيلى والموسيقى » فى وزارة الثقافة فى المنطقة الألمـانية الواقعـة تحت الاحتلال السوفييتى •

بينما انحصرت أعمال « فيشر » و « ارين بيك » فى الأعمـال التحريرية ، فى « هيئة التحرير المدنية » عندنا ، تولى « ماكس كايلسون » — أصبح فيما بعد رئيسا لهيئة تحرير جريدة الاتحـاد الاشتراكى الألمـانى المعروفة باسم « الى الأمام » — و « جوستاف فون فانجن هايم » — أصبح بعد عام ١٩٤٥ م مدير المسرح الألمـانى لسنوات عديدة — تنسيق الاتصال مع هيئة التحرير الاذاعية فى اللجنة الوطنية الرسمية فى « لينافو » •

وأخيرا كان عندنا فى هيئة تحرير الاذاعة أيضا « لورى بيك » بنت « فيلهيلم بيك » وكانت مكلفة فى بادىء الأمر بجمع المواد الاذاعية ثم انضمت فيما بعد الى هيئة التحرير •

كذلك « هانز مالى » وكانت مهمته تسجيل المواد الاذاعية التى تكتب فى « لينافو » بواسطة جهاز تسجيل صغير — على اسطوانات •

كان عندنا عربتان ماركة « جيب » صناعة أمريكية للتنقل بين اللجنة الوطنية فى « لينافو » وبين محطة الاذاعة فى (Schablowka)

فالمادة الاذاعية اليومية — الأخبار والتعليقات اليومية — كانت فى غالب الأحيان تجهز فى « هيئة التحرير المدنية » عندنا فى شارع « أوباخا » رقم ٣ • بينما البرامج الطويلة — بيانات ، نداءات ، تعليقات طويلة — كان يقوم باعدادها أعضاء من اللجنة الوطنية بالاشتراك مع أعضاء « رابطة الضباط الألمانيين » فى « لينافو » •

كان أسلوب العمل فى « لينافو » مختلفا ، فبعضهم كان يؤلف الموضوع استجابة لرغبة عنده ، والبعض الآخر كان يطلب منه الكتابة فى موضوع وقع الاختيار عليه بعد مناقشة فى مجموعتنا • بدا العمل الجماعى فى عمومه كما ظهر لى عن طريق عملنا المشترك بين « هيئة التحرير المدنية » فى الاذاعة وبين هيئة التحرير فى « لينافو » ومن المناقشة فى هيئة التحرير — مثمرا ، ففى ذلك الوقت من عام ١٩٤٣ م حتى عام ١٩٤٥ م اهتم كل المحررين وعلى رأسهم « آكارمان » نفسه اهتماما صادقا — لا ظاهريا فقط — بأن يسير العمل المشترك سيرا وديا •

لم يحدث الا فى حالات نادرة أن طلبت هيئة التحرير عندنا تغيير بعض التعليقات الاذاعية التى كان يكتبها جنرالات وضباط اللجنة الوطنية ، ولا أعرف من ذلك الوقت — ولا حالة واحدة — أن تمسكت هيئة التحرير عندنا بتغيير ما ، اذا رفض المؤلفون تغيير شىء مما كتبوه • وحدث هذا أيضا بالنسبة للحديث الدينى ، الذى كان يذاع كل يوم أحد بالتناوب بين واعظ الجيش الكاثوليكى القسيس « قيصر » والواعظ البروتستانتى « شروردر » ، وانضم اليهما فيما بعد اثنان آخران ، هما : من الجانب الكاثوليكى دكتور « لودفيج » ومن الجانب البروتستانتى رئيس مجلس الكنائس « د • كروم ماخر » •

ازداد عدد العاملين فى الاذاعة نتيجة لتقدم الجيوش السوفييتية ، ولزيادة عدد الضباط والجنرالات الذين كانوا يعلنون — كل يوم بدون انقطاع — انضمامهم للجنة الوطنية ، وكان من بين المساهمين فى اعداد المواد الاذاعية عندنا ، الجنرال دكتور « أوتو كورفس » والجنرال « مارتن لاتمان » والعميد « هانز جونتر فان هوفن » والرائد « اجبرت

فون فرانكينبرج وبروشليتس » والرائد « هاينريش هومان » والنقيب « فريتس روكر » والنقيب « فريدريش ريير » والمجند دكتور « جونتر كيرتشنر » •

كان من الأمور المسلم بها عند « آكارمان » والمحررين الآخرين فى هيئة تحرير الاذاعة ، عدم دفع اخواننا الضباط فى « لينافو » الى مفاهيم وأفكار اللاجئين الألمـانيين ، بل محاولة التعليم من أولئك الذين يعرفون النظام الهتلرى عن طريق تجاربهم الشخصية ، ثم جذبهم بطريقة مبسطة للنضال ضد « هتلر » •

ربما كان العمل المشترك أشد التصاقا ، وأحسن نتيجة ، لو كان عند « آكارمان » وأعضاء « هيئة التحرير المدنية » الحرية الكاملة فى اتخاذ القرار • فكما كانت مقالات الجـريدة خاضـعة لقلـم الرقيب السوفييتى ، كذلك كانت كل المواد الاذاعية خاضعة لقلمه أيضا ، غير أن الرقابة لم تكن شديدة مثلما هى فى الاذاعة الرسمية لراديو موسكو ، أو فى « اذاعة الشعب الألمـانى » ـــ كانت فى ذلك الوقت اذاعة زعامة اللاجئين من الحزب الشيوعى الألمـانى ـــ التى يديرها ألمـانيون ، تحت رئاسة المعهد رقم ٢٠٥ ، ولكنه على أى حال ، لم يجز لنا بث أى جملة عبر الأثير دون أن يطلع عليها الرقيب •

كان على المذيعين أن يقدموا كل الأعمال التى تأتى من هيئة التحرير الى الرقيب • وهكذا كنت آخذ النصوص كل يومين وأركب العربة « الجيب » الأمريكية الصنع ، وأذهب بها الى Glaw Purkka رئاسة الادارة السـياسية فى الجيش الأحمر • وكان مقرها أثناء الحرب فى مبنى ضخم فى ميدان « أربات » • وهناك يقرأها العميد « براجينسكى » رئيس القسم السابع فى ذلك الوقت (يشرف هذا القسم على الدعاية بلغات دول المحور) ، وكان « براجينسكى » قبل الحرب أستاذا جامعيا للغات الشرقية ، ويتقن علاوة على ذلك كل لغات أوروبا الغربية • وكان أحد المثقفين ثقافة عالية من السوفييت الذين تعرفت عليهم • كان يتمتع بحاسية غير معقولة ـــ مثل « ارنو جيرو » ـــ فى العثور على المطلوب فيما يعرض عليه ، فكان يكتشف بسرعة النقاط المهمة وينتهى منها فى دقائق قليلة •

وفى الحالات النادرة التى كان يتغيب فيها العميد « براجينسكى » كان يقوم بعمله « فريدار روبينر » ، وهى شيوعية قديمة ، قامت فى

أوائل العشرينات (وان كانت لا تحب أن يذكرها أحد بذلك الآن) بترجمة كتب « تروتسكى » و « بوخارين » و « راديك » الى الألمـانية ، وتعيش فى الاتحاد السوفييتى منذ زمن طويل جدا • كانت من الألمـانيين القلائل الذين كانوا يعملون أثناء الحرب فى رئاسة الادارة السياسية فى الجيش الأحمر • ألفت المنشورات ، والنداءات ، والكتيبات الصغيرة التى اشتهرت بين أسرى الحرب آنذاك تحت عنوان « الحقيقة عن الاتحاد السوفييتى » ونشرت باسم (Pseudonym F. Lang)

كان من النادر أن يقترح العميد « براجينسكى » أو « فريدا روبينر » تعديلات فى النص ، فاذا كان الأمر يتعلق بالأحاديث التى كانت تكتب فى « هيئة التحرير المدنية » لم تكن هناك مشكلة ، فكنت أقرأها بتعديلات الرقيب عبر الأثير مباشرة ، وكان على الضد من ذلك تلك التغييرات التى كانت تدخل على التعليقات التى كتبها الجنرالات والضباط فى « ليناقو » اذ كان لابد من تسجيلها أولا •

عثرنا على طريقة يمكن أن تكون الأولى من نوعها فى تاريخ الاذاعة الحديثة : نأتى الى محطة الاذاعة ، ونجرى تجربة تشغيل الاسطوانة ، حتى تصل الى النقطة المشطوبة ، فتقوم مهندسة الصوت بحكها بشىء مدبب حتى تصل الى درجة تصدر فيها أصواتا غريبة ، فتطمس معالم الكلمة المشطوبة من الرقيب ، فلايسمعها المستمعون بوضوح •

ثم طورنا فيما بعد « طريقتنا الهندسية » ، اذ تلاحظ مهندسة الصوت الموضع المشطوب ، ثم تعطينى اشارة أثناء الاذاعة ، فأقطع الاتصال عدة لحظات الى أن تمر الكلمة أو الجملة دون اذاعتها عبر الأثير ، ومما لاشك فيه أن السامع يعتقد أنه تشويش أو انقطاع طارىء فى الارسال •

كانت اذاعتنا أكثر بدائية من كل الاذاعات التى كانت موجودة آنذاك ، فهى عبارة عن جهاز تسجيل ، وعدد بسيط من الاسطوانات • وكان هذا — بجانب الاستوديو — كل ما نملكه • ورغم هذا فقد نجحت فى أن تكون أهم وأكثر حيوية من الاذاعة الرسمية فى موسكو ، واقتربت فى بعض النواحى من اذاعات الحلفاء الغربيين • كل ذلك بفضل قيادة « آكارمان » وقدرته على أن يسود التعاون الجماعى فى محيط العمل ، وأن يحافظ على التعاون مع أعضاء « هيئة التحرير الاذاعية » فى « ليناقو » •

اعتقدت آنذاك أن العمل الجماعى مع زملائنا الجدد فى اللجنة الوطنية لن يستمر بعد هزيمة « هتلر » فحسب ، بل سيقوى أيضا ويشتد ولكن لم يكن أملى هذا سوى تصورات خيالية ، كتلك التصورات الكثيرة التى طافت بخيالى فى عام ١٩٤٤ م •

* * *

آمـــال أعضـــاء منظمة الشباب

نشأت صداقة جديدة بينى وبين بعض نزلاء فندق « لوكس » ، وبجانب هذا ، عاودت الاتصال مرة أخرى أيضا مع أعضـــاء منظمة الشباب فى موسكو • قابلت فى موسكو « جان فوجلر » وكان يسكن فى (Dom Prawitelstwa) « منزل الحكومة » ، وهو منزل ضخم على ضفة نهر موسكو • كان يجتمع عند « جان » أعضاء من منظمة الشباب من الروسيين والأجانب وكان معظمهم من الطلبة الذين يهتمون بالأدب والفلســفة والســياسة ، ومن بينهم أيضا طلبة فى المعهد المشهور (I.F L.I.) « معهد الفلسفة والأدب والتاريخ » وهو معهد عال ، يتمنى كل شاب سوفييتى الدراسة فيه ، ولكن لا يقبل فيه الا من يجتاز امتحانا صعبا جدا •

وكان يزور « جان » أحيانا طلبة من كليات الحقوق والتربية ، أو أعضاء من منظمة الشباب ، الذين تثقفوا لمهمات خاصة (مثلا : كمحاربين فى قوات حرب العصابات) •

استمرت مناقشاتنا أحيانا طول الليل ، وكانت على جانب كبير من الأهمية • تمنينا آنذاك ــ كلنا بلا استثناء ــ أن يقوم « شىء جديد » فى غرب أوروبا بعد الانتصار على الفاشية ، أى تغيير جذرى فى المجتمع • اعتقدنا فى قيام نهضة كبيرة ، فى ولادة جديدة ــ كان بعضنا يستعمل كلمة (Renaissance) [١] ــ ، فى تكوين حركات اشتراكية جديدة ، وفى قيام دول اشتراكية جديدة ، على أن تكون فى كثير من النواحى « شيئا آخر » مختلفا عن الاتحاد السوفييتى • غير أن التعبير عن النقطة الأخيرة كان بأسلوب ملتو •

---

(١) اصطلاح لعصر النهضة العلمية فى أوروبا • م • شامة •

بعدما أعلن فى أوائل أغسطس عام ١٩٤٣ م عن انتصار الجيش الأحمر عند « كورسك » و « أوريل » باطلاق طلقات مدافع الاحتفالات الرسمية ، والصواريخ المضيئة ، أصبح من المعتاد الاعلان عن انتصار الجيش الأحمر باطلاق المدافع والصواريخ المضيئة . وعند الانتصار فى موقعة كبيرة يخرج الآلاف الى الشوارع يهللون ويصيحون ، وكلهم أمل فى أن الخطر الكبير سيزول سريعا . وسرعان ما تعود الناس على هذا ، ورأوا أن ذلك علامة على أن الحرب فى طورها الأخير .

وفى أوائل أبريل سنة ١٩٤٤ م وصلت القوات الروسية الى نهر (Pruth) ووصلت بذلك الى الحدود السوفييتية ، وعلى الرغم من أن ذلك كان فى نقطة واحدة ، ولا تزال أجزاء كبيرة من أراضى الاتحاد السوفييتى محتلة ، فقد كانت الفرحة كبيرة جدا .

وعندما عبرت القوات الروسية الحدود بين الاتحاد السوفييتى ورومانيا ، نشرت « برافدا » بيانا ، جاء فيه : انه ليس من أهداف الاتحاد السوفييتى « ضم جزء من الأراضى الرومانية ، أو تغيير النظام الاجتماعى القائم فى رومانيا » . فتقدم القوات السوفييتية فى رومانيا لا تمليه الا « الضرورة العسكرية — والمقاومة المستمرة من العدو » .

حدث نقاش كبير بيننا نحن أعضاء منظمة الشباب ، كيف ستتطور المسألة ؟ ، فرومانيا مملكة ، ونظام الحكم فيها رأسمالى ، وفيها كبار ملاك الأراضى الزراعية والآن يذيع الجيش السوفييتى بيانا ، يؤكد فيه أن هدفه ليس « تغيير نظام المجتمع الرومانى الحالى » .

انقسمت الآراء ، فقال واحد :

« ليس هذا سوى بيان شكلى ، فبعد سيطرة الجيش الأحمر ، سيتغير كل شىء ، ولا ينبغى أن يفهم البيان حرفيا » .

فعارضه آخر :

« لا .. بل ينبغى أن يفهم البيان حرفيا ، لقد قيل عند حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أن ظروف النضال يجب أن تتشكل طبقا لظروف كل بلد . فلو لم يرد الفلاحون والعمال الرومانيون أنفسهم ذلك ، فسوف يظل النظام القديم » .

كان الموقف على الجبهة هو الموضوع الرئيسى للحديث فى السنتين الأوليين للحرب ولكنه تغير بعد تقدم الجيش الأحمر ، اذ تحول الحديث

عند أولئك الذين يهتمون بالتغييرات السياسية الى المناقشة حول ما سيحدث من تغييرات سياسية بعد الحرب ٠

وتطرق الحديث أيضا آنذاك الى الوضع فى الصين ، فقد قابلت ذات مساء مع مجموعة من أعضاء منظمة الشباب فتاة صينية ، تبلغ من العمر ٢٠ عاما تقريبا ٠ كانت تحكى عن الحياة فى (Jenan) عاصمة قوات حرب العصابات فى ذلك الوقت ، حيث عاشت هى فيها وقتا طويلا ٠

همس فى أذنى أحد الرفقاء :

« يقال انها بنت « شواين لاى » ٠

وفى غضون ذلك قصت علينا كيف يستطيع كل واحد أن يتحدث بحرية مع « ماو تسى تونج » ومع « شو — دى » ، وكيف يلبسون ملابس رسمية بسيطة ويروحون ويجيئون دون أى مواكب حولهما ، ويلعبون الألعاب الرياضية ، مع اخوانهم أفراد قوات حرب العصابات ٠

« ففى وقت الفراغ نلعب فى غالب الأحيان لعبة الكرة الطائرة ، وهى لعبة معروفة أيضا فى الاتحاد السوفييتى ، فاذا كان عند « ماوتسى تونج » و « شو — دى » وقتا يلعبان معنا ، فأخلاقهما طيبة » ٠

لم يظهر أحد أى انفعال من هذا الكلام ، ولكنهم كلهم حاولوا بينهم وبين أنفسهم اجراء مقارنة بين الزعماء السوفييت والزعماء الصينيين ، وتخيلوا كيف يبدو الأمر ، لو لعب « ستالين » أو « مولوتوف » لعبة الكرة الطائرة مع جندى بسيط ٠ أعجبتنا طريقتهم ، ودارت بذهنى دون ارادة منى ، خواطر بأن الحياة فى عاصمة قوات حرب العصابات ، لابد أن تكون — رغم الأخطار — أجمل وأكثر حرية ، وأقرب الى طبيعة الانسان منها فى موسكو ٠

وللأسف اضطرت الفتاة الصينية الى توديعنا ، ولم أرها ثانية منذ ذلك الحين ، ربما رجعت آنذاك الى الصين ٠

ولكن ٠٠ هل تتغير الحياة أيضا فى الاتحاد السوفييتى بعد الحرب ؟ عاودنا النقاش المرة تلو المرة حول هذا السؤال ٠ وقويت هذه الآمال عندما سمعت ذلك فى خريف عام ١٩٤١ م فى سينما (Udarnik) بدا فى الأفق أن النظام سيخلخل بعض الشىء ، ويخفف من قبضته ، فقد أفرج أثناء الحرب عن الجنرالات والضباط المعتقلين والمنفيين فى معسكرات العمل ، وحصل جزء كبير منهم على معاشات ضخمة ٠ وفى الأحاديث

العادية اختفى الدفاع الأعمى عن فترة أعوام « التطهير » وخفت الرقابة على الفن والأدب •

وعرض فى ذلك الوقت فيلم سوفييتى ، يحتوى على أفكار هامة جدا ، ففى احدى لقطاته ، يعرض المخرج حديثا بين شخص لا ينتمى للحزب ، وقيادى فى الحزب السوفييتى ، ويدور الحديث بينهما حول فظاعة الحرب ، فيقول الشخص الآخر : « كم يكون جميلا ، لو عدنا سريعا الى أحوال ما قبل الحرب » !

فيرد عليه القيادى :

« نعم •• ولكن من المؤكد أننا لن نعود ببساطة الى هذا الوضع ، فقد أدركنا أننا كنا قاسين جدا قبل الحرب » •

عندما رأيت هذا الفيلم — للأسف نسيت اسمه — لاحظت بسرعة ؛ كيف كان انطباع هذا المشهد قويا عند المشاهدين ! والظاهرة المفاجئة الأخرى ، كانت فى كثرة عرض الأفلام الأجنبية ، التى استطعنا مشاهدتها فى ذلك الوقت فى موسكو ، ومن بينها : « لص بغداد » والفيلم الأمريكى « وادى العشاق » وكذلك الأفلام الأمريكية التى تعرض صورة الحياة فى الاتحاد السوفييتى مثل : « بعثة الى موسكو » و « نجم الشمال » الذى يصور الحياة فى مزرعة جماعية سوفييتية • والفيلم الوثائقى « الحملة العسكرية فى روسيا » وقد أعده أحد مراكز الدعاية العسكرية الأمريكية • أعد هذا الفيلم من مجموعة لقطات من أفلام سوفييتية ، ولكن الأمريكيين جمعوا المـادة المصورة طويلة النفس واختصروها ، فسارت حوادث الفيلم بسرعة كبيرة ومثيرة (أى ليس فيها الطول الممل) ، لدرجة اننا مولعين به •

أما فيلم « بعثة الى موسكو » وفيلم « نجم الشمال » ، فكان على الضد من ذلك ، فقد تخللهما مشاهد كثيرة مضحكة ، وقد اعترف الموالون للحزب وللستالينية ! أنفسهم بأن الحياة فى المزارع الجماعية ليست جميلة ، فهى بالضبط كما صورها الفيلم الأمريكى • فرؤية الأفلام الأجنبية ، وبيع المجلات الأمريكية والبريطانية — التى تصدر باللغة الروسية — فى الشوارع علنا ، كان علامة لنا على أن أشياء كثيرة تتغير ، وأن الحياة فى الاتحاد السوفييتى ستكون بعد الحرب أكثر حرية •

ثم جاءت أخبار هبوط قوات الحلفاء الغربيين فى فرنسا فى أوائل يونيو ١٩٤٤ م • لم يكن عندى اذاعة فى هذا اليوم ، وكنت فى المعهد رقم ٢٠٥

فرأيت هرجا ومرجا وصيحات الفرح تتشابك ، وفتحت — فى كل مكان — أجهزة الراديو على الاذاعات الغربية ، وكان كثير من أبواب الحجرات مفتوحة ، بحيث أمكن لمن فى الممر أن يسمع آخر الأنباء عن نجاح قوات الحلفاء فى فرنسا • ونشرت « برافدا » تقريرات مفصلة عن هذا النجاح • ومن النادر جدا أن تكون للأحداث التى تقع خارج الاتحاد السوفييتى مثل هذا الصدى الذى حدث فى ذلك اليوم •

وعندما خرجت من المعهد رقم ٢٠٥ كان هبوط قوات الحلفاء فى فرنسا هو الموضوع الرئيسى للحديث ، وتلقى الضباط الأمريكيون والبريطانيون الذين كانوا فى موسكو آنذاك تهانى الشعب فى الشوارع ، وأمكن فى هذا اليوم رؤية « شعار النصر » المشهور الذى اشتهر به « تشرشل » فى الغرب •

نشرت « برافدا » بعد يومين حديثا مع « ستالين » حيث وصف نزول قوات الحلفاء فى فرنسا بأنه « نجاح ساحق لحلفائنا » وقال : « يجب الاعتراف ، بأنه لا يعرف فى تاريخ الحرب انجازات تساوى هذا التخطيط الدقيق ، وتلك المقاييس الرائعة ، والتنفيذ البطولى » • امتلأت الجرائد السوفييتية فى تلك الأيام بأساليب مدح الحلفاء الغربيين ، ونشرت الصحافة السوفييتية فى ١١ يونيو ١٩٤٤ م وثيقة لم تذكر مرة أخرى منذ ذلك التاريخ : بيان بالأسلحة التى أرسلت من البلاد الغربية الى الاتحاد السوفييتى من أول اكتوبر سنة ١٩٤١ م حتى ٣٠ ابريل ١٩٤٤ م ، قرأنا مندهشين ما أرسلته أمريكا وحدها الى الاتحاد السوفييتى ، فمن بين ما أرسلته : ٦٤٣٠ طائرة و ٣٧٣٤ دبابة ، و ٨٢ طرادا حربيا ، وغواصة صغيرة ، و ٢٠٦٧٧١ عربة ، ٤ر٢٢ مليون طلقة ، و ٨٧٩٠٠ طن ديناميت ، و ٢٤٥٠٠ جهاز تليفون ، و ٥ر٥ مليون حذاء للجنود ، وأكثر من ٢ر٢ مليون طن مواد غذائية •

كان هذا بعض ما تلقاه الاتحاد السوفييتى من أمريكا وانجلترا وكندا • وسمعنا فى كل مكان أن العلاقة مع الحلفاء قد توطدت بعد نشر هذه الوثيقة ، وبعد تكوين الجبهة الثانية ، وأن التعاون بعد سقوط « هتلر » بات مؤكدا •

فقرب انتهاء الحرب ، وبيان الحكومة بأن الجيش الأحمر لا يبغى من وراء توغله فى البلاد الأخرى تغيير النظام الداخلى لتلك البلاد ، وهبوط قوات الحلفاء فى غرب أوروبا وحديث « ستالين » عن هبوطها •

ونشر حجم المساعدات المادية التى قدمتها البلاد الغربية ، وظهور المجلات الأمريكية والبريطانية باللغة الروسية ، وعرض الأفلام الأجنبية ، وتخفيف الرقابة على المصنفات والمطبوعات ، والموقف الجديد ازاء حوادث « التطهير » من سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م ، والعفو عن بعض الذين اتهموا سابقا بأنهم « أعداء الشعب » .. كل ذلك بعث موجات من الأمل فى دوائر واسعة بين الشعب السوفييتى . كان أملا بأن الوضع سيصبح بعد الحرب الفظيعة « مغايرا » بطريقة ما ، لما كان عليه قبل الحرب .

* * *

موسكو ويوم ٢٠ يوليو ١٩٤٤

كنت خارجا من الاستديو بعد الانتهاء من الاذاعة ، عندما دق جرس التليفون . كان « كورت فيشر » على الجانب الآخر منه سمعته يصيح فى التليفون مضطربا :

« لقد وصلت الأخبار توا عن اغتيال « هتلر » جهز نفسك حتى غد بعد الظهر لتغيير جذري في الاذاعة ، فسوف تنهال المقالات » .

اغتيال « هتلر » !

أردت أن أسأله عن أشياء ، ولكنه وضع السماعة .

لم تثرنى أخبار اندلاع الحرب فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٢ م بقدر ما أثارنى هذا النبأ . أخيرا ! هكذا قلت لنفسى : والآن ! اندلع النضال علنا فى ألمانيا نفسها ضد « هتلر » فسوف تنتهى الحرب ، وستظل ألمانيا بعيدة عن الاحتلال الأجنبى ، اذن ، كان الهدف الذى رسمته اللجنة الوطنية لنفسها صحيحا ، ولم يكن الحق فى جانب أولئك الأشخاص فى الاتحاد السوفييتى ، الذين يشبهون النازى فى ألمانيا بـ« ايرين بورج » . حتى مهندسة الصوت التى لا تهتم بالسياسة عموما ، كانت مضطربة فى ذلك اليوم ، واستخلصت من الأخبار شيئا واحدا : ستنتهى الحرب الآن ! وستصبح الحياة جميلة !

ضبطنا أجهزة الراديو عندنا ، لنسمع الأخبار من جميع أنحاء العالم . غاب عنى شيء واحد في ذلك الوقت ، اذ لم أعلم عن فشل محاولة الاغتيال .

وفى غضون ذلك اجتمع أعضاء هيئة التحرير ، وبعد ساعة واحدة — وهذا يعتبر بالنسبة للاتحاد السوفييتى سرعة غير معقولة — وصلت التعليقات الأولى الى استديو الاذاعة •

لا زلت أذكر بنوع خاص مقالا ممتازا كتبه « فريتس اربن بيك » ، حيث حلل فيه بطريقة واقعية رائعة ضرورة العمل الموحد لكل المناهضين لـ« هتلر » •

ناشد المقال الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين أن يطرحوا جانبا كل تردد ازاء الجنرالات البروسيين ، ويتفقوا معهم على العمل المشترك ، حيث يؤكد الجنرالات أنهم لن يهملوا تلك القوى التى هى على استعداد لمساعدتهم فى كفاحهم •

لقد كانت أكثر الأيام والساعات اثارة فى حياة اللجنة الوطنية • وغنى عن البيان أن الكل تمنى من القلب نجاحا لأولئك الرجال الذين أقدموا على محاولة اغتيال « هتلر » فى ٢٠ يوليو • ربما ادركنا بوضوح أكثر مما كان يدركه أعداء « هتلر » فى ألمـــانيا ، أن اطاحة نظام « هتلر » بواسطة القوى الألمـــانية ، سيتيح الفرصة للمحافظة على ألمـــانيا موحدة مستقلة •

نشرت الصحافة السوفييتية أيضا أخبار ٢٠ يوليو بالتفصيل ، غير أن الاسهاب فى نشر هذه الأخبار أدى الى استغراق الناس فى موسكو فى آمال مبالغ فيها •

كان عندنا بطريق الصدفة فى مساء ذلك اليوم — بعد نشر حوادث ٢٠ يوليو — اجتماع لأعضاء منظمة الشباب ، فقد تقرر أن يبحث فى هذا الاجتماع طلب قبول « عضو » جديد فى المنظمة ، وكما هو الوضع فى مثل هذه الأحوال فقد وجهت أسئلة الى مقدمة الطلب ، للتأكد من أن معلوماتها السياسية تؤهلها للانضمام الى المنظمة ، تلجلجت فى الاجابة على الأسئلة العامة ، وفجأة ألقى أحد الممتحنين هذا السؤال :

« ماذا تعلمين عن الحوادث السياسية الأخيرة فى ألمـــانيا » ؟

فانطلقت تحكى بحماس ملخصا لمـــا نشرته « برافدا » عن حوادث ٢٠ يوليو • وأعادت مرارا تلك الأنباء التى نشرتها « برافدا » على أنها « توقعات الدوائر الأجنبية » ، فأخذتها على أنها حقائق ثابتة :

« استولى المناهضون للحكومة والجنرالات المعارضون على السلطة

فى ألمـانيا ، وستعقد فى القريب العاجل محادثات سلام بين الحكومة الجديدة والحلفاء المناهضين لـ« هتلر » •

كانت الأمنية عندها — كما كانت عند كثير من الناس فى موسكو — تحتل المركز الأول فى التفكير •

ظهرت الحقيقة فى اليوم التالى ، على الأقل بقدر ما استطاع المرء أن يعلمه آنذاك ، فعندما أعلن أن محاولة اغتيال « هتلر » فشلت ، وقبض على المدبرين والمشتركين فيها ، وأعدموا رميا بالرصاص ، كانت خيبة الأمل كبيرة جدا •

لم يذكر شىء عن مؤامرة ٢٠ يوليو فى الصحافة السوفييتية ، بعد اعلان فشلها ، وعلى الضد من ذلك كان الوضع فى الاذاعة وفى جريدة « ألمـانيا الحرة » ، فقد تناول المحللون وكتاب التعليقات تلك المحاولة بالشرح والتحليل •

وصفت تلك التحليلات والتعليقات ، أعضاء مؤامرة ٢٠ يوليو بأنهم نموذج للشجاعة والاصرار ، والعزم فى التنفيذ ، وأحاطتهم بهالة من المديح والثناء • وانحصرت ملاحظات النقد آنذاك على الاشارة بأن رجال ٢٠ يوليو غفلوا عن اقامة « اتصال متين مع عدد كبير من قادة الوحدات الذين كان فى امكانهم المساعدة فى الاطاحة بـ« هتلر » ، وكان يمكن أن يوضع الثقل على الجيش الاحتياطى ، أما بالنسبة لقوات الجبهة ، فكان ينبغى على المرء أن يكتفى — بطريقة حـذرة — بسبر غـور الآراء والاتجاهات بين قادة الوحدات الكبيرة • كان السبب فى تردد وحدات الجبهة راجعا الى أنه كان هناك خلاف ، أو عدم وضوح حول كيفية انهاء الحرب • فكان ينبغى ألا تجر قوات الجبهة الى الانزلاق فى تلك الأعمال السرية ، حتى يحتفظ بها كوسيلة ضغط فى محادثات السلام المزمع اجراؤها لو نجحت عملية الاطاحة بـ« هتلر » •

اذا نظرنا الى المـاضى تبين لنا — هكذا عبرت اللجنة الوطنية — أسباب اخفاق هذا « التكتيك » ، فلو كان هناك اتصال مع عدد كبير من قادة الوحدات الذين كان فى امكانهم المساعدة فى الاطاحة بـ« هتلر » ، لأمكنهم فى حالة اخفاق محاولة اغتيال « هتلر » فى ٢٠ يوليو السيطرة على القيادة العليـا • وكان هناك بالاضافة الى ذلك خطأ آخر : وهو الاقتصار فى الاتصال بالجمـاهير على « أصحاب المراكز العليـا فى الادارة والتجارة وصناعة التجهيزات النهائية » ، لأنه لا يتصور نجاح

مؤكد دون اسهام جماهير العمال ــ على الأقل المجموعات الكبرى منها ــ والمستخدمين ، والمستحكمين فى صناعة وتجهيز المواد الأولية ، وفى عمليات الشحن والنقل .

هكذا كان الحكم على حركة ٢٠ يوليو آنذاك فى موسكو . ثم أصبح عكس ذلك بعد عشر سنوات ، ففى يوليو سنة ١٩٥٤ هاجمت صحافة المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى الرجال الذين قاموا بحركة ٢٠ يوليو وصبت عليهم اللعنات ، اذ ادعت مجلة الاتحاد الاشتراكى الألمانى المعروفة باسم « الوحدة » أن الذين قاموا بحركة ٢٠ يوليو ، أرادوا انقاذ ما تبقى من العسكرية الألمانية والاستعمار الألمانى . وكان « حلفاؤهم آنذاك دوائر الاستعمار الأمريكى الرجعية » ، وكان هدفهم « أن يتمكن رأس المال الألمانى الرجعى المحتكر مع الجنرالات الرجعية من التحالف مع القوى الرجعية للاستعمار الأمريكى والانجليزى ، ويتكاتفوا فى شن حرب ضد الاتحاد السوفييتى ، القوة الأولى للعمال والفلاحين » .

وكتبت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٤ م أن الرجال الذين قاموا بحركة ٢٠ يوليو ، لم يكونوا ــ دون استثناء ــ ضد الفاشية ، فقد كانوا من لحم ودم الاستعمار الألمانى ، ولا تنفى محاولتهم القيام بمؤامرة ٢٠ يوليو ، واظهار أنفسهم بذلك أنهم مناضلون ضد الفاشية ، لا تنفى هذه المحاولة أن أهدافهم ــ آنذاك واليوم ــ كانت ــ ولا تزال ــ ضد الشعب ، وضد الأمة .

وهكذا تغير تقدير موسكو لحركة ٢٠ يوليو .

* * *

غزو الجنرالات

لم تكن حوادث يوليو هى الحوادث الوحيدة التى توقفت لها أنفاسنا ، فقد فتح نزول قوات الحلفاء فى فرنسا فى يونيو ثغرة كبيرة فى الجبهة الغربية ، وتقدم الحلفاء جنوبا فى ايطاليا . وفى أوائل يوليو سنة ١٩٤٤ بدأ الهجوم السوفييتى الكبير ، الذى قضى على الجبهة الألمانية الوسطى قضاء تاما بعد أسابيع قليلة ، وفتحت ثغرات واسعة .

ثم حدث فى ٨ يوليو سنة ١٩٤٤ ما لم يحدث مثله من قبل ، فقد

سمعنا أن « فينسينس ميللر » — نائب قائد الجيش الثانى عشر فى الجبهة الوسطى — قبل انذار الجيش الأحمر ، فأصدر من نفسه أمرا الى قواته المحاصرة عند « منسك » بالتسليم :

« ازداد موقفنا سوءا بعد قتال مرير مدة أسابيع طويلة ، أوقفوا اراقة الدماء التى لا أمل من ورائها ! ولهذا آمركم أن توقفوا القتال فورا ! وستجمع المجموعات المتفرقة — ويبلغ عدد أفراد الواحدة مائة أو أكثر — التى يقودها ضباط أو مساعدو الضباط المتقدمين فى السن ؟ أما الجرحى ، فسيجمعون من الميدان بعد ذلك » •

نشر هذا الأمر فى جريدة « ألمـــانيا الحرة » وأذيع فى الاذاعة ؟ وكان الجو عندنا كما كان فى « لينافو » مشحونا بالعواطف الثائرة ؟ وقال الجنرال « فون زيدليتس » فى بيان له :

« كان الجنرال « ميللر » أول جنرال ألمـــانى يتصرف بوعى ضد أوامر « هتلر » الواضحة الصارمة ، فأنقذ بذلك حياة آلاف الجنود الألمـــانيين ، ليعمروا ألمـــانيا مستقبلا ، نحيى هذا العمل الوطنى الصادق من هذا الجنرال الألمـــانى •

ثم علمت فيما بعد من مسئول عن الجبهة فى اللجنة الوطنية أننا — وكذلك الجنرال « زيدليتس » — تلقينا معلومات خاطئة عن هـــذا الموضوع :

« كانت أخبار الاستسلام ، وأمر الجنرال « فينسينس ميللر » بالاستسلام مختلفة ، فقد وقع الجنرال « ميللر » — ككل الجنرالات الأخرى — فى الأسر ، وكتب أمر التسليم المشهور بعد وقوعه فى الأسر ؟ فأخذه الروسيون ونشروه وسط الاضطراب ، الذى كان يسود القوات المحاصرة •

« ولكن ! هل كان الجنرال « فينسينس ميللر » موافقا على هذا ؟ طبعا ! فقد كانت فرصة سياسية كبيرة له ! اغتنمها بسرعة ، فبعد أن رأى ، كيف ارتفع بذلك فى الاعتبار والتقدير ، حاول اقناع الجنرالات الآخرين ، بأن يكتبوا نداءات ضد « هتلر » فاستمالهم ، وحولهم بسرعة ؟ لدرجة أن المناهضين للفاشية أنفسهم اندهشوا من ذلك • وفى أكتوبر سنة ١٩٤٤ م اعترف بذنبه أمام قسيس الجيش ، وفى نوفمبر طلب الالتحاق بدورة دراسية تهيىء دارسيها لمناوأة الفاشية • وعندما عاد

فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ م « كان قد صار لينينيا » متعصبا لـ« لينينية » .

وضع « فينسينس ميللر » نفسه فى خدمة الاتحاد السوفييتى ، دون تردد أو تلكؤ ، وكان يخالف فى تصرفه كثيرا من الجنرالات الآخرين ، الذين وقعوا فى صراع داخلى مدة طويلة ، ولكنهم كانوا أكثر صدقا عندما قرروا الانضمام الى حركة « ألمانيا الحرة » (ولكن ليس بحال من الأحوال كـ« دمى » فى أيدى الروسيين) .

لم يغب عن البال سرعته فى التغيير الى الجانب الآخر ، ودفاعه عن مبادىء « لينين » فقد كوفىء بعد رجوعه (فى خريف عام ١٩٤٨ م) بمنصب نائب رئيس الحزب الديمقراطى الوطنى ، وبرتبة جنرال فى الشرطة .

دفعت حوادث ٢٠ يوليو — من اعدام رميا بالرصاص ، ورعب وفزع — بعض الجنرالات والضباط — الذين تصرفوا حتى ذلك الحين ازاء اللجنة الوطنية تصرف الرافض أو المحايد — الى الخروج من الموقف السلبى الى المساهمة الايجابية فى النضال ضد « هتلر » ، وطفح الكيل عند كثيرين آخرين بعد حوادث ٢٠ يوليو ، وخاصة عند الجنرالات الألمانيين الذين كانوا أسرى حرب فى الاتحاد السوفييتى ، عندما سمعوا أن أصدقائهم ، ومعارفهم أدينوا فى تلك الأحداث .

وعندما انهارت الجبهة الوسطى الألمانية فى يوليو سنة ١٩٤٤ م ، وقع على مدى أسبوعين أو ثلاثة ٢٠ جنرالا أسرى فى يد القوات السوفييتية ، فوقع ١٧ منهم فى ٢٠ يوليو على بيان موجه الى الجيش الألمانى فى الجبهة الشرقية .

وفى نهاية يوليو تحدث الناس فى فندق « لوكس » أن المارشال « بولس » سوف « يسير مع الركب » . ثم تلقيت أخيرا فى ٨ أغسطس سنة ١٩٤٤ م — أى فى نفس اليوم الذى أعدم فيه المارشال « فون فيتسليبين » فى برلين — فى استديو الاذاعة بيانا من « بولس » . لفت نظرى أن التاريخ النهائى لبيانه قد كتب — على ما يبدو — فى الدقائق الأخيرة . فقد كان التاريخ (أغسطس ١٩٤٤ م) مكتوبا على الآلة الكاتبة ، والتاريخ (٨ أغسطس) ألحق به فيما بعد بخط يد « بولس » . استطعت فى هذا المساء تسجيل بيان « بولس » — مثل

خطب الجنرالات والضباط الذين يجلسون فى « لينافو » — والتقديم له :

« اسمعوا •• اسمعوا •• هنا يتحدث المـــارشال « بولس »•• القائد العام السابق للجيش السادس • اسمعوا المـــارشال « بولس » •

كان بيانا قصيرا ، وهذا نصه :

« لقد قاتل الجيش السادس تحت قيادتى عند « ستالينجراد » طبقا لأوامر « آدولف هتلر » قتالا مريرا ، آملا أن يتمكن بواسطة التضحية التى يقدمها فى الميدان من الحيلولة دون سير الحرب فى طريق نكون نهايتها سيئة بالنسبة لألمـــانيا ، ولكن لم يتحقق هذا الأمل •

فقد أظهرت الأحداث فى الوقت الأخير أن استمرار الحرب سيكلف ألمـــانيـــا ضحايا لا فائدة من ورائها • فالجيش الأحمر يتقدم فى الجبهة على خط عريض ، ووصل الى حدود الامبراطورية فى روسيا الشرقية • وفى الغرب اخترق الأمريكيون والانجليز خط الدفاع الألمـــانى فى الجناح الغربى ، ويتقدمون فى الأراضى الفرنسية المفتوحة • ولا تدفع ألمـــانيا بقوات احتياطية ، — لا فى الشرق ، ولا فى الغرب — تستطيع السيطرة على الموقف • وتفوق العدو فى الجو وفى البحر يضغط بقوة ، لدرجة أن الموقف أصبح ميئوسا منه • لقد خسرت ألمـــانيا الحرب •

لقد انزلقت ألمـــانيا الى هذا الموقف — رغم بطولة قواتها المسلحة وشجاعة الشعب كله — بتصرف رئيس الدولة ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة « آدولف هتلر » •

« ويضاف الى هذا أن أسلوب تصرف بعض المكلفين فى المناطق المحتلة ضد السكان المدنيين ، ملأ بالاشمئزاز نفس كل جندى مخلص ، وكل ألمـــانى أصيل ، وجر علينا التوبيخ من العالم كله • فاذا لم يتبرأ الشعب الألمـــانى نفسه من هذه الأعمال • فسوف يتحمل مسئوليتها كاملة •

« وازاء هذه الظروف رأيت أن من واجبى أن أعلن أمام زملائى أسرى الحرب وأمام الشعب الألمـــانى :

« يجب أن تتخلص ألمـــانيا من « آدولف هتلر » وتسلم نفسها لزعامة جديدة تنهى الحرب ، وتخلق جوا ، يمكن شعبنا من الاستمرار فى الحياة ، وتقيم مع أعدائنا الحاليين علاقة سلام ، لا •• بل علاقة صداقة » •

كنت لا زلت متأثرا بهذا البيان عندما جلست فى اليوم التالى فى مطعم فندق « لوكس » كان من المستبعد جدا قبل عام أن أتصور أن القائد الأعلى فى معركة « ستالينجراد » سيقرر توجيه بيان ضد « هتلر » ومن الطبيعى أن بيان « بولس » كان الموضوع الرئيسى للحديث فى فندق « لوكس » ، ولكن سرعان ما خمد اعجابى بهذا البيان • كانت النغمة الرئيسية للحديث الذى دار فى هذا اليوم فى فندق « لوكس » : لقد انتظر « بولس » وقتا طويلا ، الى أن قرر توجيه بيانه • وعلى كل فنحن الآن فى أغسطس سنة ١٩٤٤ م ، ويمكن فى غضون أسابيع أن يصل الجيش الأحمر الى الحدود الألمـــانية •

كان نزول قوات الحلفاء فى غرب أوروبا ، وانهيار الجبهة الوسطى الألمـــانية ، وبيان « بولس » من الأحداث المثيرة التى تلتها تطورات كبيرة •

فقد تقدم الهجوم السوفييتى فى خريف عام ١٩٤٤ م الى الأمام دون توقف ، واستمر وقوع جنرالات جدد فى الأسر ، ولم يحتاجوا الى وقت طويل ـــ بخلال من وقع فى الأسر قبل ذلك ـــ لتحويلهم سياسيا : فقد أدرك معظمهم وضع ألمـــانيا الهتلرية اليائس ، فوقع بعد أيام قليلة من وقوعه فى الأسر على نداء ، وقرر الانضمام الى حركة « ألمـــانيا الحرة » •

كتب كثير من الجنرالات فى جريدة « ألمـــانيا الحرة » لدرجة أن الأسرى فى المعسكرات كانوا يسمون اللجنة الوطنية « المخبر العام » • وازداد كل يوم أيضا عدد المنضمين الى حركة « ألمـــانيا الحرة » • وتقاطرت النداءات كلها تقريبا بتوقيع الجنرالات ، وفى ٢٧ أغسطس أذاعت حركة « ألمـــانيا الحرة » نداء أيضا • ولكن على الرغم من الجهود التى بذلتها اللجنة الوطنية للتأثير على التطورات فى ألمـــانيا ، فقد استمرت الحرب الخاسرة •

وجنت ألمـــانيا عواقب ذلك ، فقد نشرت جريدة « ألمـــانيا الحرة » فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٤ م قرار الحلفاء حول احتلال ألمـــانيا المقبل وكان التعليق باختصار كما يلى :

« ليس من المقبول لشعبنا أن تحل هذه المسألة بواسطة قوات الاحتلال ، ولكن لا زال هناك وقت لتعويض جزء على الأقل ، مما فات شعبنا منذ وقت طويل ، اذ من الممكن أن تؤدى الأسلحة التى فى يد

المـــانيا خدمة طيبة ، اذا وجهت كلها ضد نظام « هتلر » المشين • فالحريات التى ستكفل للشعب أيضا تحت الاحتلال ، ستكون أكبر بقدر اسراع الشعب الى الالتحام مع الحلفاء فى القضاء على نظام « هتلر » •• الوقت يأزف ! » •

وأخيرا نشر فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٤ م نداء الـ ٥٠ جنرالا المشهور الى الشعب والجيش • وكان حـــوالى ٨٠ جنرالا فى ذلك الوقت فى معسكرات الأسرى فى الاتحاد السوفييتى ، ومن بينهم ٥٠ أعضاء فى « رابطة الضباط الألمـــانيين » (التى كانت تضم فى ذلك الوقت ٤٠٠ عضوا مكتوبة أسماؤهم على الورق) وبالتالى انضموا الى حركة « ألمـــانيا الحرة » ، ووقعوا كلهم على الانذار الأخير بانهاء الحرب الخاسرة :

« أيها الألمـــانيون •• دفعنا القلق العميق على مستقبل شعبنا الى أن نتوجه نحن الجنرالات الألمـــانيين بالاشتراك مع مئات الآلاف من الجنود والضباط هنا فى معسكرات أسرى الحرب فى الاتحاد السوفييتى ، نتوجه فى اللحظة الأخيرة اليكم يا رجال ألمـــانيا ونساءها • ان ساعة الانهيار تحت ضغط القوة المتفوقة للأعداء المتحالفين تقترب ، لقد خسرنا الحرب ، ورغم هذا يريد « هتلر » الاستمرار فيها •

« ولكن لا يجوز القضاء على شعبنا ! ولهذا يجب وقف هذه الحرب بسرعة ! ••

« أيها الشعب الألمـــانى •• قف لتقوم بالعمل المنقذ ضد « هتلر » ! أيها الألمـــانيون •• أعيدوا بعملكم الشجاع شرف الاسم الألمـــانى أمام العالم ، واخطوا بذلك الخطوة الأولى نحو مستقبل أحسن » •

طبعت ملايين النسخ من هذا النداء — نداء الخمسين جنرالا — وألقيت على القوات الألمـــانية التى تحارب فى الجبهة • وكررنا اذاعته فى مدى أسابيع عديدة ، وأضيفت هنا وهناك بعض التفسيرات القصيرة من الموقعين عن أسباب دعوتهم الى الاطاحة بـ« هتلر » وبانهاء الحرب ، والانضمام الى حركة « ألمـــانيا الحرة » •

لم يكن فى الامكان التصـــعيد أكثر من هذا ، فخمســـون جنرالا ينادون بالاطاحة بـ« هتلر » ، وبانهاء الحرب — كان هذا هو أعلى نقطة ، وفى الوقت نفسه نهاية حركة « ألمـــانيا الحرة » •

استمرت حرب « هتلر » ففى يناير سنة ١٩٤٥ م حوصرت « شرق

بروسيا » وانفصلت « أوبرشليزين » واستولى الجيش الأحمر على « جلايفيتس » و « هندين بورج » و « ألييننشتاين » و « مارين بورج » •
وكان القتال دائرا حول « بريسلاو » و « بوزين » و « كونيجسبرج » ووقف الجيش الأحمر على بعد ٢٠٠ كيلومتر من برلين •
بدأ مؤتمر « يالتـــا » فى ٨ فبراير ســنة ١٩٤٥ م • وكانت شرق بروسيا قد اقتطعت ، ووقف الجيش الأحمر شرق برلين عند « كوسترين » و « فرانكفورت » • واجتاحت القوات السوفييتية ضفتى نهر « أودر » عند « بريسلاو » على جبهة عرضها ٣٠٠ كيلو متر • وفى الغرب كانت قوات الحلفاء عند نهر « الراين » ، وأصبحت هزيمة ألمــانيا الهتلرية النهائية ماثلة أمام الأبصار •
عندما أعلنت قرارات مؤتمر « يالتـــا » فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٥ م ، لم يكن أمام اللجنة الوطنية سوى أن تعلن : لا زال عندنا أمل فى أن توقظ هزيمة ألمــانيا الهتلرية — الساحقة الماثلة أمام العيون — فى الشعب الألمــانى الطاقات التى تهيىء له — بواسطة التطهير الذى لا شفقة فيه لوطنه الخاص ، وبواسطة جبر الآلام — كيانا جديرا به ، ومكانة فى المجتمع الدولى •
وكان واضحا أن اللجنة الوطنية لم تصل الى أهدافها ، فلم يظهر أى بيان سياسى هام بعد نداء الخمسين جنرالا • واستطعت أن أحس بوضوح ان استمرار العمل فى الجريدة والاذاعة ليس الا روتينا ، بينما تتخذ القرارات السياسية الهامة فى جهات أخرى •

* * *

مهمتنـــا فى ألمـــانيا

« سوف تبدأ فى الأيام التالية دورة دراسية عن مهمتنا السياسية المقبلة فى ألمـــانيا » •
ومن الطبيعى أننا كنا قد تحدثنا من قبل عن كيفية الوضع لو تمكنا من العودة الى ألمـــانيا ، غير أن العودة حتى الآن ، كانت أحـــلاما وأمنيات • ولكن أثار الأمل فى دورة دراسية عن مهمتنا السياسية المقبلة عواطفى نحو الرجوع الى الوطن •
كانت اثارة العواطف نحو الرجـــوع الى ألمـــانيا مقصورة على

اللاجئين المتقدمين فى السن • أما الشباب فكان منهم من يهز رأسه عندما يدور الحديث عن ألمـــانيا ويقول : « آه •• ألمـــانيا ! أنا أفضل البقاء هنا » • كان التأثير السوفييتى قد بلغ حدا عند بعضهم ، لدرجة أنهم كانوا يتحدثون — حتى عندما لا يكون بينهم غير ألمـــانى — باللغة الروسية ، ويعتبرون الاتحاد السوفييتى — منذ وقت طويل — وطنهم الأصلى •

لم أكن من هؤلاء ، فقد كنت أتحرق شوقا الى أن أتمكن فى أقرب وقت من العودة الى ألمـــانيا ، والى العمل السياسى هناك • وهكذا انتظرت بفارغ الصبر بدء هذه الدورة الدراسية ، التى ستكون مقدمة للعمل فى ألمـــانيا ، وستهتم بالتوجيهات الضرورية لذلك •

وبعد بضعة أيام ، اجتمع حوالى ١٥٠ لاجئا سياسيا ألمـــانيا فى لجنة الحزب فى موسكو ، وقابلت هناك أيضا خريجين من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية :

« ميشـــا فولف » و « جـــان فوجيلر » و « ايمى شتينسر » ، و « هلموت جينيس » و « ماريانا فاينرت » و « هاينس هوفمان » • وقابلت أيضا مجموعة من اللاجئين الذين لم أكن أعرفهم من قبل ، اشترك فى المحاضرات أيضا بعض العاملين فى جريدة ، واذاعة « ألمـــانيا الحرة » •

ألقى « فيلهيلم بيك » خطاب الافتتاح :

« سوف نستمع الى محاضرة كل أسبوع تعقبها مناقشة ، نبحث فيها كل المشاكل السياسية المهمة بالنسبة للعمل السياسى المقبل فى ألمـــانيا » •

سمعنا فى المرتين الأوليين محاضرتين :

الأولى ألقاها « فيلهيلم بيك » عن « الواجبات العامة » • والثانية ألقاها « فالتر أولبريخت » عن « هدف القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية » •

ثم تحدث فى المرات التالية :

« هيرمان مارتن » عن « دروس من نضال الحزب الشيوعى الألمـــانى فى الجمهورية الفايمرية » •

« أنتون آكارمان » عن « النضال ضد الفاشية الهتلرية فى الفترة من عام ١٩٣٣ م الى عام ١٩٤٥ م وما نتج عن ذلك من آثار » •

وألقى « ايدفن هورنل » محاضرة عن « مشاكل الزراعة » • وتحدث

« رودولف ليندا و » (الذى كان يدعى فى الاتحاد السوفييتى « باول جريتس ») عن « دروس من ثورة نوفمبر سنة ١٩١٨ م » .

ثم عالجت المحاضرات الأخرى « واجبات النقابات العمالية فى المستقبل » .

كانت الأسس التى دارت حولها هذه المحاضرات ما يلى :

لم يكن الانتصار على الفاشية عن طريق تمرد داخلى من الشعب الألمـانى ، بل أحرز بواسطة الحلفاء المناهضين لـ« هتلر » ، فبينما تكونت فى البلاد التى وقعت تحت الاحتلال النازى حركات مناهضة ، قامت بأعمال ضد طغيان « هتلر » ، لم يتحرك الشعب الألمـانى للقيام بعمل من هذا القبيل ، وبناء عليه فالشعب الألمـانى — بدون تحامل عليه — مشترك فى جريمة ألمـانيا الهتلرية ، وترتب على هذا — كنتيجة منطقية — احتلال القوى المتحالفة ضد « هتلر » لألمـانيا .

يجب على القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية مسـاندة قوى الاحتلال فى نضالها للقضاء على الفاشية والعسكرية ، لقلب نظام التعليم والتثقيف عند الشعب ، وارساء قواعد الديمقراطية .

وترجع أسباب الانتصار الى وحدة الحلفاء ضد « هتلر » وقد حمل لواءها أمريكا ، وبريطانيا العظمى ، والاتحاد السوفييتى .

حاول النازيون محاولات يائسة لتسف وحدة القوى العظمى الثلاثة ، عن طريق بث الشك والريبة فيما بينهم ، وقد ضربت هذه المحاولات فى مهدها بأسلوب لا هوادة فيه .

سوف يتلو النصر احتلال لفترة طويلة ، ربما يستمر أعواما ، حتى يسمح مرة أخرى بالأحزاب السياسية الألمـانية . ومن هنا يجب على القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية أن تشترك اشتراكا ايجابيا فى الادارة المحلية الألمـانية ، وتباشر نشاطها فيها تحت اشراف الحلفاء .

وليس من الواجبات السياسية تحقيق الاشتراكية فى ألمـانيا ، أو تمهيد الطريق للتطور الاشتراكى ، بل الحكم على مثل هذا العمل بأنه انعطاف ضار ، يجب مكافحته ، اذ تقف ألمـانيا الآن أمام تحول ديمقراطى شعبى ، سيكون جوهره ومضمونه تكميلا لثورة نوفمبر عام ١٨٤٨ م . ومن المهم فى هذا الوقت مساندة هذا التكميل مساندة ايجابية ، ولكن فى نفس الوقت معارضة كل حل اشتراكى ، لأنه فى مثل هذه الظروف سيكون « ديماجوجية » بحتة ، ووضعا لفكرة الاشتراكية فى اطار سىء .

وكان من الأمور الملفتة للنظر ، أن المحاضرين تناولوا فى هذه الدورة الدراسية بالتفصيل كيفية الرد على النقد ، الذى سوف يوجه فى المستقبل « من اليسار » ، وبينوا لنا أن ذلك موجود بنوع خاص فى الطبقة العاملة فى كثير من الدول ، ففى بلغاريا ساروا بعيدا فى مجال « انحراف لليسار » ، ولكن أمكن التغلب عليه بتدخل « ديميتروف » المباشر .

ومن المحتمل أن نصطدم أيضا فى ألمانيا بمفاهيم واتجاهات ترى أنه « ينبغى علينا الآن تنفيذ الاشتراكية » . وربما نقابل أيضا بالاتهام ، بأننا تحالفنا فى اللجنة الوطنية مع الجنرالات النازيين سابقا ، وكونا جبهة معهم . والاجابة على هذا : « لا يتعلق الأمر بـ« مع من تسير » ؟ بل « الى أى هدف تسير » ؟ .

فاذا اتهمنا بأن اشتراكنا فى العمل معهم ليس الا نفس سياسة زعماء الديمقراطية الاشتراكية اليمينيين بعد عام ١٩١٨ ، فيكون الرد : « ناضل زعماء الديمقراطية الاشتراكية بالتعاون مع الجنرال « فون ايب » ضد العمال ، أما نحن فقد ناضلنا بالاشتراك مع الجنرال « فون زيدليتس » ضد « هتلر » وهذا هو الفرق » .

كذلك برروا حجج الشعوب التى اضطهدها « هتلر » : « يجب أن يكون لدى المرء الشجاعة للتأمل فى الحقائق ، اذ بعد ما حدث كل هذا ، يجب اعطاء الشعوب التى اضطهدت ، وأهينت ضمانات بعدم تكرار مثل هذه الفظاعة ، ومن هنا يجب على الديمقراطيين والمناهضين للفاشية ، الألمانيين ، أن يؤيدوا مطالب الشعوب التى اضطهدت فى رسم الحدود ، بما فيها خط « أودر — نايسى » ، وكذلك يوافقوا على التعويضات التى تطالب بها تلك الشعوب ، ويعتبرون هذا التزاما أدبيا من الشعب الألمانى » .

جاءت قوات الاحتلال الى ألمانيا ، لتقلع جذور الفاشية والعسكرية ، ولتتخذ الاجراءات الضرورية لاعادة الديمقراطية الى الشعب الألمانى ، لم تنشر اجراءات قوات الاحتلال بالتفصيل ، ولكن يمكن للمرء أن يتوقع أنه بجانب محاكمة مجرمى الحرب ، ستتخذ اجراءات ضد احتكار الرأسمالية ، وسيوضع مشروع للاصلاح الزراعى والتعليم . ويجب أن تراعى بدقة تعليقات الحلفاء عند المساهمة الايجابية فى هذه الاصلاحات ، وتهتموا اهتماما كبيرا فى تنفيذها ، وسيكون الاصلاح الزراعى أحد

المشروعات المهمة التى التزمنا بتنفيذها فى ألمــانيا ، ولن يبدأ تنفيذها — على أقرب تقدير — الا فى أوائل عام ١٩٤٦ م ، فلن تتخذ أى اجراءات تنفيذية فى الزراعة فى هذا الصيف ، لأن ذلك يمكن أن يضر بتموين الشعب • ويجب أن تبذل الجهود فى صيف عام ١٩٤٥ م لضمان محصول جيد ، حتى نتفادى حدوث مجاعة عامة •

فاذا حان موعد السماح للتنظيمات الألمــانية ، تكون قد تمت التجهيزات لاقامة نظام جماهيرى ديمقراطى مناهض للفاشـــية تحت اسم « كتلة الديمقراطية المناضلة » •

كان هذا هو الخط السياسى الذى تعلمناه فى أوائل عام ١٩٤٥ م فى آخر دورة دراسية نحضرها قبل سفرنا الى ألمــانيا •

وظهر لى واضحا بنوع خاص أن اعادة تأسيس الحزب الشيوعى الألمــانى لا يتوقع فى القريب ، بل يظهر أنه ستستمر مدة طويلة الى أن يفكروا فى تحقيق ذلك ، فقد كان الحديث آنذاك عن « كتلة الديمقراطية المناضلة » فقط ، وهى تنظيم جماهيرى ديمقراطى على قاعدة واسعة ، مناهض للفاشية • ولكن لم تصل الينا هذه الفكرة دون اعداد سابق لها •

ففى ذلك الوقت كنت تقرأ وتسمع فى موسكو قليلا جدا — يكاد يكون من النادر — عن الأحزاب الشيوعية فى دول شرق أوروبا ، ولكن بدلا من هذا ، كنت تسمع كثيرا عن الكتل المناهضة للفاشية » : « الجبهة الوطنية » فى بلغاريا ، و « الكتلة الوطنية الديمقراطية » فى رومانيا ، و « الجبهة الوطنية » فى تشيكوسلوفاكيا ، و « الكتلة الديمقراطية » فى بولندا • وبدا لى أن اقامة « كتلة ديمقراطية مناضلة » فى ألمــانيا بعد الحرب — فى المستقبل — هو نتيجة منطقية للأحــداث فى البلاد الأخرى التى حررت من احتلال « هتلر » •

كانوا يذكروننا دائما — مرارا وتكرارا — بالفرق بين ألمــانيا وبين تلك البلاد ، فبينما ظهرت فى البلاد الأخرى حركات مناهضة قوية ، لم يتحرك الشعب الألمــانى للقيام بعمل من هذا القبيل • ومن هنا يكون من المنطقى أن التطور السياسى فى ألمــانيا — كما تأكدنا آنذاك — « سيتأخر » ، ولا يمكن فى المستقبل المنظور ظهور حزب شيوعى ، وحتى قيام « كتلة ديمقراطية مناضلة » لا ينتظر فى القريب العاجل •

ظهر لى الفرق بين ألمــانيا وبين الدول الأخرى صريحــا عندما شاهدت فى ســينما (Nowsti dnja) « أحداث الساعة » فيلما عن

تحرير صوفيا وبوخارست وبراغ ، ثم تبعه عرض فيلم عن غزو المدن الألمـــانية • أثر الفرق على المشاهدين تأثيرا قويا ، وكان هذا بلا شك مقصودا ، ففى صوفيا وبوخارست وبراغ رأينا احتفـــالات وأعـــلاما وزهورا ، وجماهير الشعب الفرحة ، تحيى أفراد الجيش الأحمـــر ، وترقص فى الشوارع من شدة الفرح ، ولقطات الاخوة بين جنود الجيش الأحمر وأفراد قوات حرب العصابات ، وبينهم وبين الجماهير ، ومظاهر التهانى والفرحة والاعجاب • ثم جاءت أخبار الأسبوع عن ألمـــانيا ، فعرضت كما لو كان القتال فى ألمـــانيا يدور من شارع الى شارع بل من منزل الى منزل ، ويقف الشعب كله وراء « SS » (١) • ولم يوجـــد فرد واحدضد « هتلر » •

وهكذا بدت مهمتنا التى تلقيناها فى أوائل عام ١٩٤٥ م فى موسكو ، مرتبطة منطقيا ومتناسبة مع السياسة السائدة حتى الآن • اندهشت أكثر بعد بضعة أسابيع ، عندما اتخذت اجراءات فى برلين ، تتعارض مباشرة مع مهمتنا التى كلفنا بها •

دارت الأحاديثأكثر فأكثر حول العودة ، والعمل المقبل فى ألمـــانيا • وازدادت السرعة فى مجال التجهيزات للعودة • وكونت اللجنة الوطنية لجنة توجيه مناهج التعليم ضد الفاشية ، وعلى الأخص فى مجال التثقيف الشعبى ، وانتهت من وضع مذكرات فى ذلك ، وكانت هناك مسودات كاملة لكتب التاريخ التى ستطبع فى ألمـــانيا بعد الانتصار على « هتلر » •

استمر الزحف دون توقف ، وأعلنت البلاغات الحربية ، يوميا عن غزو المدن الألمـــانية ، حيث ذكرت فى حالات كثيرة بأسمائها السلافية القديمة ، ثم أضيف اليها الاسم الألمـــانى • لقد كانت أياما ! لم يستطع المرء فيها ملاحقة أخبار الانتصارات التى كان يعقبها طلقات المدافع ، واطلاق الصواريخ المضيئة فى الجو فوق موسكو •

أحس المرء فى كل مكان بالأمل فى قرب نهاية الحرب ، ولكن كان أمل اللاجئين السياسيين الألمـــانيين فى تلك الأيام هو قرب عودتهم الى ألمـــانيا • كان مغزى ومفهوم العودة الى الوطن بالنسبة للمتقدمين

---

(١) وهو اختصار لكلمة « حماية الدولة » التى كانت تطلق على قوات « هتلر » ، ويطلق على هذا الشعار فى البلاد العربية بـ« الصليب المعقوف » • م • شـــامة •

فى السن ، الذين تركوا ألمـــانيا منذ ١٣ سنة ، يذكرهم — على الرغم من الكتب التى قرأوها فى هذه المدة ، ومن كل المحاضرات التى سمعوها — بصورة ألمـــانيا قبل عام ١٩٣٣ م • ولكن كانت صورة ألمـــانيا عندنا نحن الشباب الذين تركوها وهم أطفال باهتة جدا ، كانت رحلة الى بلد ننتسب اليه ، ولكنه جديد بالنسبة لنا ، يطوى بين جنباته ما لا نعرفه ولا نتخيله •

* * *

حفلة التوديع عند ((فيلهيلم بيك))

قال لى ((أنتون آكارمان)) فى منتصف ابريل عام ١٩٤٥ بعد جلسة لهيئة التحرير :

((أهنئك يا ((فولف جانج)) ، فسوف تسافر مع أول مجموعة تعود الى ألمـــانيا)) •

لم يهتم كثير من المحررين منذ أوائل هذا الشهر بعملهم العادى اهتماما كليا ، بل كانوا يؤدونه روتينيا فقط ، وتحولت كل الأحاديث الى العودة الى ألمـــانيا • أضيفت الينا أعمال اضافية فى هيئة تحرير الاذاعة ، لأنه كان يتغيب كل يوم تقريبا واحـــد أو اثنان ، ويعلل ((آكارمان)) ذلك بقوله : ((استدعى الرفيق •• لمقابلة ••)) •

كان الأمر يتعلق بالترتيبات النهائية لرحلة العودة الى ألمـــانيا ! فقد كانوا يتناقشون فى النواحى الفنية الجزئية لهذه الرحلة • ومن المحتمل أنه كان يوجد أشخاص يعرفون تفصيلات الموقف ، ولكن طلب منهم عدم اذاعة أى شىء على الاطلاق • أحيطت أيضا رحلة العودة الى ألمـــانيا ، بتلك الاحتياطات السرية ، التى امتلأ منها كيلى وطفح •

لم نعرف شيئا مجردا حتى النصف الثانى من ابريل : سيستقل ٢٠ من اللاجئين السياسيين طائرتين ، ويتجهون الى المنطقة الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ستعمل مجموعة منهم تحت قيادة ((أولبريخت)) فى المنطقـــة التى تسيطر عليـــها قوات سوفييتية يقودها المـــارشال ((شوكوف)) وهذه القوات تزحف الآن على برلين •

والمجموعة الثانية بقيادة ((أنتون آكارمان)) وستعمل مع القوات التى يقودها المـــارشال ((كونجيف)) ، وتتقدم هـــذه القـــوات من تشيكوسلوفاكيا ، متجهة نحو ((دريذدن)) •

لم يعرف أفراد المجموعتين حتى الآن • وبعد بضعة أيام ، أخبرنى « أنتون آكارمان » أنى أخترت عضوا فى مجموعـة « أولبريخت » : « ستكونون عشرة رفقاء وستطيرون فى آخر ابريل متجهين نحو برلين • ومن المحتمل أن نسافر بعدكم بيوم من هنا الى المنطقة التى يسيطر عليها « كونجيف » • ستبلغ غدا ، الى أين تتجه لتقوم بانهـاء كل الاجراءات الرسمية » ! وطبيعى أنى سررت جدا أن أكون عضوا مع أول مجموعة تطير الى ألمـانيا ، ولكنى كنت فى نفس الوقت حزينا ، لأنى لم أكن فى مجموعـة « آكارمان » ، الذى قدرنى كثيرا ، فمعرفتى بـ« أولبريخت » سطحية ، ولا ترتاح نفسى له •

والآن ! بدأ الوقت العصيب ، الذى لا نعرف فيه الهدوء • وكالمعتاد ، كنت مشغولا بالاذاعة كل يومين فى فترة بعد الظهر حتى اليوم التالى ، وكان الوقت الباقى مليئا بانهاء اجراءات الأوراق وبالمقابلات • وبعد يومين دعينا نحن « مجموعة أولبريخت » — كما يسمونها آنذاك — للاجتماع به •

لم يظهر السرور على « أولبريخت » اطلاقا — على الأقل لم يظهر شيئا — ، فتحدث معنا كما لو كان الأمر يتعلق بشىء مسلم به فى العالم ، أن نعود الى ألمـانيا بعد هذه السنين الطويلة :

« يجب على كل واحد أن ينتهى من شيئين فى اليوم التالى :

١ — يجب تسليم أوراقكم الرسمية السوفييتية الى رؤوسائكم العسكريين •

٢ — تجهيز الملابس الضرورية التى ستحتاجون اليها فى ألمـانيا •

كنت جاهلا آنذاك ، بأنه يجب علينا أن نشترى لأنفسنا حللا جديدة من المحلات السوفييتية • سألت أحد الرفقاء :

كيف تحل مشكلة الملابس ؟ من أين الحصول عليها ؟

لم يستطع هذا الرفيق اخفاء ابتسامته وقال :

— « لا تهتم ! فسوف يأتى كل شىء فى المعهد رقم ٢٠٥ ، ويمكن أن نذهب سويا الى قسم التدبير المنزلى » •

— « أين أقابلك فى المعهد » ؟

— « اسمى « جوستاف جونديلاخ » تجدنى فى قسم هيئة تحرير اذاعة الشعب الألمـانية » •

اتجهت فى اليوم التالى الى المعهد رقم ٢٠٥ • وبعد نصف ساعة كنت أقف مندهشا مع « جونديلاخ » فى قسم التدبير المنزلى • يشبه هذا القسم المحلات التجارية الكبرى ، اذ يوجد فيه ، أقمشة ، حلل جاهزة ، ملابس ، معاطف ، ملابس داخلية ، جوارب ، وكل ما لم يكن موجودا فى المحلات أثناء الحرب ، كان فى هذا القسم ، ومن أنواع ممتازة • كسيت نفسى من قمة رأسى الى أخمص قدمى ووقعت على أوراق كثيرة ، لا حصر لها ، كل قطعة بتوقيع ، قائمة طويلة من عدة نسخ •

انتهى بذلك الجزء الأول من الاستعداد للسفر • والآن ! — هكذا فكرت — الى الثانى ، الجزء الثانى وهو تسليم الأوراق الرسمية • اتجهت فى اليوم التالى — وقلبى يدق — الى حجرة القائد العسكرى الروسى « فوروبجوف » وانتظرت أن تبدأ لعبة الأسئلة والأجوبة المشهورة مرة أخرى ، ولكن كان الوضع مختلفا جدا ، فلم توجد محاضرة سياسية ، ولا لعبة الأسئلة والأجوبة ، ولم يكن هناك طابع الرسميات مطلقا •

« الآن أيها الرفيق « ليونهارد » ! هل أحضرت معك كل الأوراق السوفييتية » ؟

« طبعا ! كلها معى » •

وفى تلك الأثناء أخرجت كل الأوراق من جيبى الخلفى ووضعتها على المكتب ! دفتر عضوية منظمة الشباب ، البطاقة الشخصية السوفييتية ، بطاقتى الطلابية السابقة ، دفتر امتحاناتى فى المعهد العالى ، كتب العضوية فى (MOPR) وفى (Osoaviachim) •

فقال الرئيس العسكرى برزانة :

« هل هذا هو كل ما عندك » ؟

ثم أعاد لى كتب عضوية الأنظمة التى تعتبر — فى غير هذا المكان — مهمة ، بحركة كما لو كانت لا تساوى قيمة الأوراق المطبوع عليها تلك البيانات ثم فتح درج مكتبه ووضع فيه الأوراق الطلابية ، ودفتر عضوية منظمة الشباب •

« الآن ! انتهى كل شىء ، وأتمنى لك توفيقا كبيرا فى نشاطك المقبل » •

وفى ٢٧ ابريل دعينا الى اجتماع قصير مع « أولبريخت » :

« الكل مستعد ؟ هل انتهى كل شىء » ؟

ولأول مرة أراه مسرورا ، والابتسامة تعلو وجهه !

« المعروف حتى الآن — أننا سنطير فى يوم ٢٩ أو يوم ٣٠ ابريل ، وقبل هذا ستقام حفلة توديع عند « فيلهيلم » ، والآن مسألة عملية » •

فتح حقيبة وأخرج منها رزمة من ورق البنكنوت وزعناهـا على أنفسنا ••

« هذه ١٠٠٠ روبل لكل واحد لشراء الأشياء الصغيرة » •

(مبلغ يفوق بكثير مرتب عامل فى شهر) • لم تنته عملية تقسيم النقود بعد عندما قال :

« والآن •• يأخذ كل واحد منكم ٢٠٠٠ ماركا ألمـانيا ، للمصاريف الأولى فى ألمـانيا » • ثم ناولنا رزما من ورق البنكنوت ، أوراق جديدة جدا ، كانت هذه المرة ماركات الاحتلال المشترك ، التى طبعت فى أمريكا • كنا قد سمعنا عن نقود الاحتلال ، ولكنا نراها الآن لأول مرة •

كانت هناك نقطة ، لا زالت غامضة : أتكون هذه الرحلة لفترة زيارة قصيرة — أى لمهمة رسمية قصيرة — أم ستكون للاقامة الدائمة هناك ؟ أردت توجيه سؤال حول هذه النقطة ، ولكنى تذكرت أن ذلك سيعتبر تصرفا — وبالذات فى هذا الوقت — « لا يتفق مع مبادىء الحزب » ، فأحجمت عن السؤال ، ولكنى اعتقدت أنها مهمة رسمية قصيرة ، وأننا سنعود الى موسكو بعد بضعة أسابيع •

استدعينا فى يوم ٢٩ ابريل لمقابلة « أولبريخت » لآخر مرة ، وكانت هذه المقابلة قصيرة جدا ، حيث قال :

« كل شىء على ما يرام ، فسوف نطير غدا فى الساعة السابعة صباحا • سنتقابل فى الساعة السادسة بجانب المدخل الجانبى لفندق « لوكس » ونسافر بالأوتوبيس الى المطار ، وكل واحد يأخذ لحقيبة صغيرة معه بالحاجات الضرورية جدا فقط • ونحن مدعوون فى مساء اليوم عند « فيلهيلم بيك » •

جلسنا — عشرة من اللاجئين السياسيين — فى مساء يوم ٢٩ ابريل ١٩٤٥ م — آخر ليلة نقضيها فى الاتحاد السوفييتى — عند « فيلهيلم بيك » •

كان سكنه مؤثثا مثل سكن كل الذين يقيمون فى فندق « لوكس » وكان الفرق الوحيد هو أنه لا يسكن فى حجرة واحدة ، بل فى عدة حجرات • كان هذا المسكن بالنسبة لظروف سكن المواطن السوفييتى العادى ،

ولسكن اللاجئين الألمـــانيين — ممتازا ومريحا ، ويقرب من أن يوصف بالسكن المترف • فاذا رآه غربى ، يمكن أن يسوى بينه وبين سكن عامل فنى فى ألمـــانيا الغربية ، ولكنه سكن فقير ومتواضع جدا ، اذا قورن « بالفيلات » الذى انتقل اليها « فيلهيلم بيك » فى برلين بعد عام ١٩٤٥ م •

كان فى حجرة المعيشة منضدة مستديرة ، وضعت عليها أكواب لشرب « الفودكا » اتخذنا مقاعدنا حول هذه المنضدة ، وكنت متخوفا أن يتحول الجو الى رسمى جدا فقد كنت — داخليا — متوقعا محاضرة سياسية ، أو « حفلة سمر متزمتة تسير فقراتها وفق تنظيم سابق » كما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

ولكن كان الوضع مختلفا فى هذه المرة • كان اللقاء مريحا وسارا ، وغير متشح برداء التزمت • يبدو أننا نوجد الآن فى سلم ارتقـــاء القياديين ، على درجة حيث يمكن أن تكون المقابلات دون اعلان أو تصريح رسمى • غير أنه تخلل الحديث أيضا كلام عن العمل المقبل ، ولكنه لم يأخذ طابع المهمات الرسمية فى الحزب ، بل كان حرا ، لا تستعمل فيه التعبيرات الرسمية ، ثم رفعت كؤوس « الفودكا » على صـــحة الاحتفال بهذه المناسبة •

قال « فيلهيلم بيك » مرحا مبتسما :

« فى صحة العمل المقبل فى ألمـــانيا » !

فأجبناه : « فى صحة عودتك السريعة الى ألمـــانيا » •

فضحك وقال :

« نعم •• نعم •• سوف آتى وراءكم بسرعة » •

استمرت جلستنا بعضا آخر من الوقت ، مزحنـــا وضحكنا على القصص والأحداث المضحكة التى كان يقصها علينا أحد الرفقاء •

قال « ريتشارد جيبتنر » :

« هل سمعتم النكتة الجديدة عن قبض الانجليز على هتلر » ؟

فصاح الجميع : « لا •• احكيها لنا » •

فقال فجأة : « ولكنها قاسية بعض الشىء » •

ربما أدرك فى ذلك الوقت انها نقد خفيف للحلفاء الغربيين ، فهى وان كانت نكتة ، لا تضر ، ولكنها يمكن أن تعتبر خطأ سياسيا •

قال « فيلهيلم بيك » مشجعا له : لا بأس •• احكيها » •

« اذن ، أحكيها : استمرت القوات البريطانية فى تقدمها ، حتى وصلت الى مقر قيادة « هتلر » فحاصرته ، ثم اقتحمت المبنى ، وتقدم أفراد منها شيئا فشيئا حتى وصـلوا الى حجرة « هتلر » فضربوا الباب ، فانفتح على مصراعيه ، فدخل الجنود — وأمامهم ضابط برتبة رائد — وهم شاهرون السلاح وتقدم الضابط نحو « هتلر » وقال له : أنت مقبوض عليك باسم الدول المتحالفة •• ثم سادت لحظة سكون تام ، أخرج فيها « هتلر » ورقة من جيبه ، مد بها يده الى الضابط قائلا : يسرنى أن أعلن لكم الآن انى العميل رقم ٢٠١٥ فى جهاز المخابرات البريطانية ، لقد نفذت مهمتى ، فألمـانيا راكعة تحت الأقدام » •

ضحك الجميع • ولكن « أولبريخت » تبسم فقط ، ثم قال « فيلهيلم بيك » : قاسية « شوية » ، ولكنها لطيفة » •

انفض مجلسنا بعد ساعة تقريبا ، فسلم « فيلهيلم بيك » على كل واحد بحرارة قائلا :

« الى اللقاء قريبا فى ألمـانيا » •

حذرنا « أولبريخت » مرة أخـرى من التأخير ، فلابد أن نكون واقفين بجانب المدخل الجانبى لفندق « لوكس » فى تمام الساعة السادسة بالضبط •

توجهت الى حجرتى ، فذهبت الى الفراش ، ولكنى ظللت متيقظا مدة طويلة ، فهى آخر ليلة لى فى الاتحاد السوفييتى •

* * *

الباب السابع

"مع أولبريخت" إلى برلين

وفى الساعة السادسة صباحا من يوم ٣٠ ابريل وقف « أتوبيس » فى حارة صغيرة جانبية أمام المدخل الجانبى لفندق « لوكس » ، فهو مكلف بتوصيلنا — نحن العشرة أعضاء « مجموعة أولبريخت » الى المطار .

ركبنا فيه صامتين .. ليس هناك رسميات للتوديع — باستثناء حفلة التوديع الصغيرة عند « فيلهيلم بيك » — اذ لا أحد يعلم بموعد رحيلنا ، كذلك لم نخبر أحدا بشىء عن هذه الرحلة — عادة التحمت بالدم واللحم .

لو نظر الينا أجنبى فى تلك اللحظة ، ما فكر فى أننا مجموعة من اللاجئين السياسيين الألمانيين ، يتخذون طريق عودتهم الى الوطن ، بعد اقامة عشر سنوات أو أكثر فى المنفى .

لم تزل الشوارع خالية ، نحن نمر فى (Uliza Gorkowo) عن طريق ميدان « بوشكين » فى اتجاه المطار . كان صباحا ربيعا جميلا ، تجملت المدينة كلها بالشعارات والزهور لاستقبال أول مايو . انتابنى — مع كل الابتهاج بالسفر الى ألمانيا — بعض الاكتئاب ، لأنى أترك موسكو .

تربطنى بهذه المدينة ذكريات لا تنسى : المدرسة ، بيت الأطفال ، المعهد العالى ، أصدقائى من الأجانب والروسيين ، صديقتى فى الطفولة « ايريكا » وصديقتى الروسية التى أحببتها جدا ، جولاتى الجميلة فى (A. Boulevard) وفى شارع « جوركى » وفى « منتزه الكرملين » وعلى ضفاف نهر موسكو .

لم تكن هذه اللحظة هى الوقت المناسب للاستسلام لهذه الذكريات ، بدأ الحديث فى الاتوبيس ، فقال واحد :

« معى عدد الأمس من « برافدا » وفيه احصاء تفصيلى عن تطور اقتصاديات الدولة ، ويمكن أن نستفيد من هذا كثيرا فى دعايتنا فى ألمانيا » .

فهز « أولبريخت » رأسه مؤمنا على هذا الرأى • ثم سرح فكرى : يهتم الناس فى ألمـانيا بلاشك بأمور أخرى غير هذا •

وبعد ربع ساعة وقف الأتوبيس أمام مبنى مطار موسكو • وكما هى العادة كان لزاما علينا أن نقف أمام باب معين •

— (Propusk) قالهـا حـارس البـاب بنغمـة حـادة فنـاوله « أولبريخت » ورقة نظر فيها ، ثم قـال « أوكى » وتركنا نمر • فتوجهنا الى طائرة تقف بعيدا على جانب من المطار • كانت طـائرة أمريكية الصنع من طراز « دوجلاس » اتخذنا مقاعدنا ، ثم انطلقت الطائرة بعد دقائق قليلة •

لم يعرف أحد منا ، أين سنهبط ! باستثناء « أولبريخت » علمنا فقط أن الطائرة متجهة الى ألمـانيا وستهبط فى منطقة يسيطر عليها المـارشال « شوكوف » كذلك كانت جزئيات مهمتنا غامضة ، فما كنا نعرفه هو : يجب أن نقوم بالعمل السياسى الموجه ضد الفاشية وبقاياها ، فى سبيل تحويل ألمـانيا الى دولة ديمقراطية •

* * *

مجموعة « أولبريخت »

لم أتعرف على معظم مجموعة « أولبريخت » الا فى الأيام الأخيرة ، ولا أعلم من اختارهم ! ولا على أى أساس اختير هؤلاء القياديون العشرة الذين سمح لهم بالعودة الى ألمـانيا فى الفوج الأول ! ولكن اذا رجعت بتفكيرى اليوم الى هذه المجموعة تبين لى أنه كان اختيارا موسوما بسمة خاصة ، فقد كانوا صورة صـادقة لنموذج القياديين المخلصين « للستالينية » •

١ — « فالتر أولبريخت » رئيس المجموعة ، كان عمره فى ذلك الوقت ٥١ عاما ، ولد فى « ليبزج » صناعته نجار • يدعى اليوم أنه انضم الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى عام ١٩١٢ م وكان عمره فى ذلك الوقت ١٩ عاما • ومنذ عـام ١٩١٦ م وهو يسهم بنشـاطه فى « رابطـة سبارتاكوس »(١) •

---

(١) اتحاد مؤلف من منظمات يسارية بزعامة ليبكنيشت ، و • ر لوكسمبرج ونشأ عنه الحزب الشيوعى الألمـانى فى عام ١٩١٨ • م • شامة •

كان « أولبريخت » عضوا فى البرلمان الألمانى عن الحزب الشيوعى من عام ١٩٢٨ م الى عام ١٩٣٣ م • ومنذ عام ١٩٢٩ م سكرتير الحزب الشيوعى فى برلين الكبرى و « براند ينبرج » • هرب فى عام ١٩٣٣ م الى فرنسا ، ومنذ عام ١٩٣٣ م عضوا فى زعامة اللاجئين السياسيين من الحزب الشيوعى الألمانى فى براغ وباريس •

وكان فى أسبانيا حيث — غير أنى علمت بذلك فيما بعد — فضح فى جيش الجمهورية الأسبانية بسبب ما أصاب مناضلين ثوريين يناهضون « الستالينية » من تصفية الحساب معهم • جاء الى فرنسا بعد هزيمة الجمهورية الأسبانية ، وبعد سقوطها فى يد قوات « هتلر » ذهب الى موسكو •

تكمن قوته فى ذكائه فى التنظيمات ، وقوة ذاكرته فى حفظ الأسماء ، وقدرته فى ملاحظة شواهد تغيير التيارات السياسية قبل ظهورها ، وقوة احتماله فى العمل ؟ اذ لا يظهر عليه التعب بعد العمل الشاق طول اليوم •

نجح دائما فى تنفيذ المهمات التى كانت تأتيه من جانب الاتحاد السوفييتى بأسلوب صارم دون ثقل التفوق النظرى ، والشعور الانسانى — فنادرا ما كنت أراه يضحك ولم أذكر أنى لاحظت عليه التأثر بشعور انسانى •

أصبح « أولبريخت » بعد عام ١٩٤٥ م حزبيا من الطراز الأول يستطيع اصدار الأوامر الى القياديين ، ولكنه لم يكن فى قدرته تحويل الجماهير الى فكرة يتبناها • كان يأتى فى المرتبة الثالثة — فى بادىء الأمر — بعد « بيك » و « جروتيفول » ولكن توطد مركزه فجأة بعدما انتهت عملية تنفيذ الثورة الاشتراكية (مثل الاصلاح الزراعى ، وتأميم الشركات ، واصلاح مناهج التعليم) التى احتاجت الى التأييد — حتى ولو كان سلبيا — من طبقات الشعب الأخرى ، وأصبحت أجهزة الحزب هى الأداة الحاكمة •

٢ — كان القيادى « ريشارد جيبتز » ، ولد فى هامبورج — بأسلوبه فى التزلف والتقرب مساعده المناسب ، فقد كان أقرب — بسبب نقص طاقته — الى موظف الحزب منه قياديا فى الحزب ، فلا مزاج عنده ، فمن صفاته « الحفلطة » على المكتب والعناية بملبسه • لم يبدو قادرا

على الانفعال الشعورى القوى فلم أره هائجا متحمسا ، ولم أشهده ثائرا من شدة الغضب • ولهذا كان سهلا عليه أن يتقبل تقلبات اتجاه الحزب ، ويبلعها دون صعوبة ، فهى حوادث لا تأخذ منه مجهودا أكثر من تثبيت وثائقها فى مكانها بين الأوراق •

لم يتحدث عن نفسه الا قليلا ، ولكن علمنا أنه كان عضوا فى قيادة الشباب الشيوعى العالمى سنوات عديدة ، وكان يعمل فى موسكو فى أجهزة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية زمنا طويلا — وفيما بعد فى المعهد رقم ٢٠٥ •

أصبح « ريتشارد جيبتنر » بعد عام ١٩٤٥ م رئيس السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى ثم تقلد أخيرا منصبا كبيرا فى الشرطة ويرأس حاليا القسم الرئيسى « للبلاد الخارجية الرأسمالية » فى وزارة خارجية « ألمانيا الديمقراطية » •

٣ — « أوتوفينسر » كان معروفا فى موسكو بالاسم الحركى : « لورنس » يشبه « ريتشارد جيبتنر » فى بعض الصفات • ويختلف عنه بذكاء حاد ، لم يمكنه فقط من توصيل الأوامر ، بل التحمس لتنفيذها أيضا ، وملاحظة المكلف بقسوة ، دون مراعاة لأى اعتبارات شخصية وتبريرها — وان كان ذلك سطحيا — أيدولوجيا • كان يمثل طراز القسوة أكثر من كل الآخرين من أعضاء « مجموعة أولبريخت » بارد برود الثلج ، قياديا « ستالينيا » ، ينفذ التعليمات دون قيد ولا شرط فقد كل علاقة بالحركات العمالية ، وكل اتصال بالمثالية الاشتراكية والاخوة ، بواسطة نشاطه مدة طويلة فى الجهاز •

تسلق «فينسر » بعد عام ١٩٤٥ م الدرجات العليا فى الوظائف المختلفة ، فقد تولى فى مايو عام ١٩٤٥ م ادارة الثقافة الجماهيرية فى مجلس بلدية برلين ، وكان رئيسا لقسم الصحافة والاذاعة فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى من عام ١٩٤٦ م الى عام١٩٥٠ م • وبالاضافة الى ذلك تولى لفترة طويلة منصب نائب رئيس تحرير جريدة « ألمانيا الجديدة » وفى أكتوبر عام ١٩٤٩ م قفز فأصبح رئيس هيئة المكتب الخاص لرئيس ألمانيا الديمقراطية « فيلهيلم بيك » •

٤ — « هانز مالى » كان عمره آنذاك ٣٣ عاما لم يفقد طبيعته الحيوية ، رغم نشاطه الطويل فى « الجهاز » فلا زال فى استطاعته أن يضحك وأن يكون مرحا ، وأن يتحدث مع « الناس العاديين » وكان

عنده بجانب رطانته الحزبية (أى ترديد كلام زعماء الحزب) كلمات من تفكيره الخاص ، وشعوره الشخصى •

كان من أكثر أعضاء مجموعتنا عاطفة ، ولطفا ، لأنه لم يكن جامدا فى عمله ، ولا متصنعا فى المعاملات الانسانية • كان يتجاوب مع الأحداث ، والأشخاص تفاعلا ذاتيا ، ولهذا ظل قادرا — وكان ذلك طبعا محصورا فى المجال المرسوم — على المبادرة الذاتية ، وابداء الأفكار الخاصة • تولى فى صيف عام ١٩٤٥ م رئاسة اذاعة برلين الشرقية ، ثم فيما بعد رئسة كل اذاعات المنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى • وفى بداية عام ١٩٥١ م هوى الى قاع سحيق ، ثم ظهر فيما بعد فى مركز متواضع نسبيا ، وهو رئيس هيئة تحرير جريدة شعبية فى مدينة « شفيرين » •

٥ — « جوستاف جونديلاخ » من هامبورج كان أكبر المجموعة سنا ، فقد كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٨ عاما • كان يتصرف كقيادى ، عامل شريف تعب كثيرا فى تثقيف نفسه • لم أره مسرورا الا نادرا كـ« هانز مالى » تقريبا • كان صامتا منطويا على نفسه لا يبوح بشىء لم يكن هدوءه ثقيلا مبالغا فيه ، كما هو حال « جيبتنر » ولا باردا مهددا كما هو حال « فينسر » كان « جوستاف جونديلاخ » مجتهدا صبورا فى العمل ، يعتمد عليه •

عين « جونديلاخ » فى صيف عام ١٩٤٥ م رئيسا للادارة المركزية للخدمات الاجتماعية والعمل فى المنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، غير أنه أرسل فى ابريل عام ١٩٤٦ م الى هامبورج مسقط رأسه ، ليساند الحزب الشيوعى فى ألمـــانيا الغربية فأصبح بعد ذلك بوقت قصير عضوا فى برلمـــان هامبورج • ثم انتقل اليه فيما بعد منصب زعامة الحزب الشيوعى فى ألمـــانيا الغربية وفى أغسطس سنة ١٩٤٩ م انتخب عضوا عن الحزب الشيوعى فى أول برلمـــان لألمـــانيا الغربية •

٦ — « كارل مارون » كان عمره آنذاك ٤٤ عاما ، عرفته أثناء عملى معه فى هيئة تحرير جريدة « ألمـــانيا الحرة » ، وكنا متفاهمين جدا •

أصبح « مارون » بمرور الوقت ، مهيبا وقورا فقد كان من النادر جدا أن يتخلى عن هدوئه • كان يتجاوب سريعا مع الظروف المتغيرة ، ومع أماكن العمل المختلفة ، وعنده نظرة عملية فى جوهر الأشياء • كان

لطيفا ويتمتع بمزاج معتدل غير أنه يمكن أيضا أن يثور ، ويزمجر ، ولكنه سرعان ما يهدأ ويسكن ، ساعدته هذه الصفات على أن يكون محبوبا فى معظم الأحوال .

كان تعدد مواهبه مدهشا ! فبعد نشاطه فى مجالات الرياضة سنين عديدة ، عمل فى تنظيم اللجنة الوطنية ، وكان يكتب التحليلات العسكرية . أصبح فى يونيو ١٩٤٥ م وكيلا لعمدة برلين وفيما بعد رئيسا لمجموعة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى البرلمــانية فى برلمــان مدينة برلين ، وفى نوفمبر سنة ١٩٤٨ م مستشارا للشئون الاقتصادية فى مجلس المدينة الاستشارى فى برلين الشرقية وفى نوفمبر سنة ١٩٤٩ م نائب رئيس هيئة تحرير الجريدة المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمــانى « ألمــانيا الجديدة » وأخيرا جنرالا مفتشا ، ورئيس الادارة المركزية للشرطة ، اذ من الممكن ، بل من المحتمل جدا أن « كارل مارون » تطور أثناء تسلقه سلم المناصب ، الى ذلك الطراز الذى يمثله بالضبط « أولبريخت » و « جيبتنر » و « فينسر » .

٧ — « فالتر كوبى » كان عمره آنذاك ٥٣ عاما أصلع ، قصير ، وممتلىء الجسم . مسقط رأسه برلين ، لم يزل يتكلم باللهجة البرلينية . وعلى الرغم من منظره وسنه فقد كان نشطا بطريقة مدهشة ، ولكن معلوماته فى المسائل السياسية أو النظرية كانت قليلة جدا . أصبح « فالتر كوبى » — وهو الضعيف فى الشخصية وفى المسائل السياسية — فى يونيو عام ١٩٤٥ م الرئيس الثانى للحزب الشيوعى الألمــانى فى برلين ، حيث يعمل رسميا كـ« سكرتير التنظيم » ولكن سرعان ما عزل من هذا المنصب . كان يحكى للقياديين فى برلين أثناء وقت العمل عن تجاربه السابقة بدلا من أن يأمرهم بانجاز العمل المكلفين به . ثم عين فى عام ١٩٤٧ رئيس ادارة الخدمات فى مدرسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى « كارل ماركس » وهو منصب يتطابق تمام المطابقة مع « فالتر كوبى » الموهوب فى ادارة التنظيمات ، والعملى فى التفكير . ثم أصبح بعد ثلاثة أعوام رئيس ادارة الخدمات فى « أكاديمية الادارة » ولا يزال يتولى هذا المنصب حتى الآن .

٨ — « فريتس ارين بيــك » ، من « هاينس » كان عمره آنذاك ٤٨ عاما ، كان صحفيا وكاتبا شيوعيا ، وهو الوحيد من هذه المجموعة الذى لم « يثبت فى مكان » بعد عام ١٩٤٥ م ، ولم يتول منصبا معينا .

انهمك فى الكتابة بكل جوارحه ، وأنتج كثيرا ، وكان « فى كل مكان » ! مع مؤتمرات هيئات تحرير الجرائد والمجلات ، ومع جمعية الثقافة ، وفى النشاط المسرحى ، يشارك فى النقاش الذى يدور حول الأقلام وحول الفن التشكيلى . كان يشعر فى هذا الوسط بالارتياح وبالثقة فى نفسه ، فهو نشط ، متفتح ، مثقف ، جذاب ، ولكن كلما رسخت أقدام النظام الحاكم فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى ، كلما كان الاستمرار فى مثل هذه الحياة صعبا .

٩ — وأخيرا يجب تقديم نفسى .

كنت أصغر « مجموعة أولبريخت » سنا ، اذ كان عمرى آنذاك ٢٣ عاما . كنت الوحيد الذى لم يباشر نشاطا فى الحزب لفترة طويلة .. ربما اختارونى فى « مجموعة أولبريخت » ، لأنى نشأت فى الاتحاد السوفييتى ، ولأمثل الشباب الذى — وهذا ابعاد بكثير مما فى الغرب — يدفعونه غالبا الى الأمام ويولونه فى سنى عمره الأولى مناصب هامة . وربما أرادوا اعداد صف ثان للحزب الشيوعى الألمانى ، وكنت ترى هذا الاتجاه واضحا من العدد الكبير نسبيا من الشباب فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . وربما اختارونى لأنى على الاقل — كنت عضوا فى منظمة الشباب مدة خمسة أعوام ، وتخرجت من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . كنت مهتما بالسياسة جدا ، وكنت أطمح — كما يعبر عن ذلك فى الاتحاد السوفييتى — فى تشكيل نفسى سياسيا ، وبالاضافة الى هذا ، فأنا أتكلم اللغة الروسية بطلاقة .. كأحد أبنائها . كان أعضاء المجموعة الآخرين يفهمون الروسية ، ولكنهم كانوا يتكلمونها بصعوبة ، ويخطئون كثيرا فيها .

١٠ — كان آخر ما فى مجموعتنا شاب صغير السن ، ألحق بالمجموعة لا بصفته عضوا سياسيا ، بل سكرتيرا فنيا . كان هادئا وصامتا (يشبه فى صمته رئيس الشرطة) لا يشارك فى أحاديثنا الا نادرا ولكنه كان يقوم بعمله خير قيام . قابلته فيما بعد عندما كان رئيس مكتب فى الادارة المحلية فى « بوتسدام » .

كان هؤلاء العشرة أعضاء « مجموعة أولبريخت » أول اللاجئين السياسيين الألمانيين ، الذين عادوا الى المنطقة الألمانية التى احتلتها الجيوش السوفييتية ، وكلفوا باعداد الجوسياسيا للتطورات المقبلة .

* * *

فى الطائرة الى ألمــانيا

مرت الساعة الأولى فى الطائرة دون أن يتلفظ أحد بكلمة ، كانت الأوامر واضحة لنا وضوحا لا يحتاج معه « أولبريخت » الى اعادتها مرة أخرى • ولم يجترىء أحد أن يسأل عن عملنا المقبل أو عن مصيرنا الذى نتوجه اليه الآن ولو سألنا لمــا حصلنا على اجابة منه ، وبالاضافة الى هذا ، فقد كنا جميعا نعلم أنه لا يجوز لأحد القاء مثل هذا السؤال •

عندما طرت فى ذلك اليوم ، يوم ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٥ الى ألمــانيا ، كانت عندى النية الصادقة فى أن أعمل كل ما فى طاقتى ، لتنفيذ الأوامر الصادرة الى من الحزب على الوجه الأكمل •

اعتقدت أن الاتحــاد السوفييتى سيساعد المناهضين للفاشــية والديمقراطية من الألمــانيين بعد القضاء على جيش « هتلر » فى بناء دولة ألمــانية ديمقراطية • ألم يبرهن — هكذا قلت لنفسى — بمساندته اللجنة الوطنية ، على أنه يهتم بأن تبنى القوى الألمــانية بنفسها دولة ألمــانية مستقلة ؟ أليس هذا دليل على أن الاتحاد السوفييتى لم يقم بدور المحتل ، بل قام بدور السلطة التى أبدت استعدادها لمساعدة الألمــانيين المناهضين للفاشية فى كفاحهم ضد النازيــة ؟ ألم يفرق « ستالين » نفسه — مرارا — بين الشعب الألمــانى ، وبين دولــة « هتلر » ؟

كنت آنذاك بعيدا جدا عن أن تكون الأفكار المعارضة فى ذهنى ورغم هذا فلم أكن أيضــا من القياديين المتعصــبين للـ« ستالينية » الذين يتنازلون عن أفكارهم الذاتية ، ويرون — دون استثناء — أن كل ما يخدم الاتحاد السوفييتى فهو صحيح وضرورى • كنت بلاشك مستعدا آنذاك أن أنفذ كل الأوامر ، ولكن كنت أنظر بتفكيرى الخاص الى الحوادث السياسية والى التغيير المفاجىء للاتجاهات •

رأيت ، وقاسيت كثيرا أثناء العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى • كانت هناك قرارات واتجاهات أعجبتنى ، وكانت تبدو منسجمة مع النظرية « المــاركسية » ولكن كان هناك أيضا اجراءات رفضتها ، ولم أستطع التخلص من شعورى بأنها كانت متعارضة مع

« المـاركسية » وأحيانا وجدت أشياء لم تتضح لى فأزعجتنى ، وأشياء استنكرتها فرفضتها •

فكرت كثيرا وبعمق فى موجة التطهير الواسعة التى استمرت من عـام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م ، وفى السلطة المطلقـة لجهـاز المخابرات السوفييتية • كنت أشك دائما فى مبررات عقد معاهـدة مع ألمـانيا الهتلرية وفى « ضرورة » الحرب الفنلندية • أتذكر مشمئزا ومستنكرا ، كيف انهال سيل القطارات ذات الأعداد الكبيرة من العربات الى موسكو وهى محملة بالأسلاب والغنائم بعد احتلال شرق بولندا عام ١٩٣٩ م واحتلال دول البلطيق عام ١٩٤٠ م • وأكثر من هذا ، أتذكر القوانين المعادية للعمال فى عام ١٩٤٠ م • وكبت حرية الآراء المستقلة عن الحزب ، والصيغة الفظيعة للنقد والنقد الذاتى •

كنت أحـاول دائما تبرير هذه الأشـياء لنفسى : أخيرا انتصرت الاشتراكية فى دولة متخلفة ، ولا تنسب هذه العيوب والمثالب الى النظام ، بل سببها أن المؤثرات المتخلفة عن التخلف العام لروسيا القديمة لا زالت تعوق التطور الحر •

فى ذلك الوقت ، عندما غادرت الاتحـاد السوفييتى وفى فكرى واجبات جديدة أخرى • كنت قد « تقدمت خطوة » فى هذا الاتجاه • كنت آمل من كل جوارحى فى استقلال نسبى فى التطـور السـياسى لألمـانيا ، آمل فى أن يكون لها الحق فى أن تطبق بعض الأشياء بأسلوب آخر ، مغاير لما هو فى الاتحاد السوفييتى وبالاضافة الى ذلك فقد اعتقدت أنه بعد نهاية الحرب مباشرة سيحدث أيضا فى الاتحاد السوفييتى تغيير فى النظام فى اتجاه أكثر حرية •

هكذا كنت — رغم كل الأفكار المعارضة — متفائلا ، ومملوءا بالأمل وأتعجل البدء بالعمل السياسى الجديد •

هبطنا بعد ساعة طيران فى « مينسك » عاصمة جمهورية روسيا البيضاء السوفييتية • كانت هذه المدينة من أكثر المدن تدميرا من آثار الحرب فى الاتحاد السوفييتى ، فلم نر — ونحن فى المطار — سوى أنقاض ، كانت صورة فظيعة تثير المشاعر شجونا وحزنا •

وبعد هبوطنا هبطت طائرة ثانية بجانبنا ، ونزل منها أيضا عشرة أشخاص ، يرتدون ملابس تشبه ملابسنا • نظروا نحونا باهتمام • قال واحد من مجموعتنا — يبدو أنه يعلم أكثر منى — : هؤلاء كانوا

أسرى حرب ، وهم الآن خريجو مدرسة المناهضين للفاشية ويطيرون الى ألمـانيا ، والى المنطقة التى يسيطر عليها المـارشال « شوكوف »، وقفوا أمام طائرتهم ، ووقفنا أمام طائرتنا .

— « هل يمكن أن نحييهم » ؟

— « الأحسن لا ! لقد قال « أولبريخت » يجب أن نبقى منعزلين عنهم » .

ظللت صامتا ، ولكن طافت بذهنى أفكار الزندقة عن الانقسام ، هذه الحالة ، اما — هكذا قلت لنفسى — انهم لا زالوا أسرى حرب فلا يرسلون بملابس جديدة الى ألمـانيا للقيام بواجبات سياسية خاصة أو يعتبروا رفقاء فيجب أن يعاملوا معاملة الرفقاء . وفسرت ذلك بأنه تصرف غير سليم من أحد مراكز التوجيه . وفى الحقيقة كان ذلك تأكيدا للتدرج الطبقى الذى هو طابع « الستالينية » .

تعرفت فيما بعد على اثنين من هؤلاء الأشخاص العشرة الذين كانوا فى « الطائرة الثانية » ، « باول ماركجراف » عقيد سابق وحاصل على نيشان « الصليب » بعد أن تخرج فى مدرسة المناهضين للفاشية، وأرسل الى برلين ، عينته السلطات السوفييتية رئيس شرطة برلين .

أما الثانى فهو « ماتيوس كلاين » قسيس سابق ، انضم الى اللجنة الوطنية « ألمـانيا الحرة » واشتغل هنا فى « أنشطة الكنيسة» ولكنه كفر بعقيدته فيما بعد وأصبح « ستالينيا » وتولى بعد عام ١٩٤٥ م رئيس قسم شئون العاملين فى اذاعة برلين الشرقية ، ثم مدرسا للفلسفة فى معهد الحزب العالى « كارل ماركس » ثم مدرسا للعلوم الاجتماعية فى جامعة « يينا » .

استأنفنا رحلتنا بعد بضعة دقائق ، ولم نعلم بعد أين سنهبط بالضبط ، واستمر توتر أعصابى فى ازدياد .

وبعد نصف ساعة طيران تقريبا هبطت الطائرة فى مطار صغير ، يبدو أنه أعد لهبوط الطائرات العسكرية الاضطرارى .

لم نر شيئا على مدى الأفق حولنا ، فلا مدينة ، ولا مبنى ، لا شىء يدل — ولو دلالة بسيطة — على أن فى هذا المكان انسانا يعيش . قال لنا « أولبريخت » :

« نحن الآن بالقرب من الحدود البولندية — الألمـانية الجديدة بين فرانكفورت التى على نهر « أودر » وبين « كوسترين » .

وقفنا حائرين ، فلا أحد يعلم ما سيحدث ، ولكن وصلت عربة
مد بضعة دقائق ، واتجهت نحونا ثم نزل منها ضابط سوفييتى ، فحيا
أولبريخت » بحرارة • بدا وكأنه يعرفه من قبل • قال لنا الضابط :
« كل شىء على ما يرام ، ستستأنفون رحلتكم بسرعة • لقد جئت
را من برلين وسأعود اليها حالا أيضا » •

ثم بدأ يرسم بعصاه على الرمل حصار برلين ويبين الأحياء التى
قعت فعلا فى أيدى القوات السوفييتية • كان كالحلم بالنسبة لى —
سوف أكون فى برلين بعد أيام قليلة ، برلين التى تركتها طفلا قبل ١٢ عاما •
وصلت سيارة نقل ، فخجل الضابط السوفييتى وقال :

« نكرر الاعتذار أيها الرفقاء الأجلاء ! لأننا لم نستطع الحصول
ى عربة لتوصيلكم الا عربة النقل هذه ، وستنقلكم فقط الى المحطة
تالية ، وهناك ستحصلون على عربات خاصة » •

لم نر انسانا واحدا فى القرى التى مررنا عليها فى أول طريقنا ،
ما أن تكون المنازل قد هجرت ، أو أن ساكنيها لا يجرأون على الخروج
بها •

كان يرفرف على بعض المنازل أعلام بولندية باللونين الأحمر
لأبيض — ربما كانت نقط اتصال السلطات البولندية — نحن الآن
ى مسافة قريبة جدا من خط « أودرنايسى » توقفنا بعد ساعتين تقريبا
قرية صغيرة أمام مركز قيادة سوفييتى فحيانا ضابطان سوفييتيان
دعونا لتناول الغداء • كان كل شىء معدا اعدادا طيبا ، وبدا كأنهم
برون بدعوة الضيوف • لاحظنا أنهم يرغبون فى الحديث معنا اذ
ق أحد الضباط مبتسما : أرجو أن يكون الطعام قد أعجبكم ، يا ضيوفنا
اعزاء ، نحن نسر دائما اذا كان عندنا ضيوف أجانب ، فقد كان عندنا
فى الأيام الماضية ، ضباط بولنديون • ونحن مسرورون الآن جدا
لوجودكم بيننا ، فقد سمعنا أنكم أعضاء الحكومة الألمانية الجديدة •
كدت أغص ! ماذا قال ؟ حكومة ألمانية جديدة ؟

جلس « هانز مالى » بجانبى فتبادلنا النظرات مندهشين • ماذا
ينبغى أن نعمل الآن ؟ لا نستطيع تركه يعتقد أننا أعضاء الحكومة
الألمانية الجديدة ، غير أننا لا يمكننا أيضا أن نقول له اننا أعضاء
« مجموعة أولبريخت » •

نفى أحدنا هذه الفكرة باشارة من يده ، وأفهمه بطريقة مؤدبة

أننا لسنا أعضاء حكومة ألمــانيا الجديدة • فقوت هذه الطريقة اعتقاده ففهم أن هذا النفى ليس الا أدبا منا فقط • وعندما خرجنا من مقر القيادة وجدنا عربات أمريكية وألمــانية فى انتظارنا ، وعليها الأعلام السوفييتية الحمراء ، كذلك كان الســائقون يرتدون الملابس الرسمية السوفييتية •

وصلنا الى « كوسترين » وهى المدينة التى ظهرت فى البلاغات الحربية السوفييتية باسمها السلافى القديم « كوسترتسين » كانت « كوسترين » عبارة عن أكوام من الأحجار ، فلم أر هذه الصورة من قبل قط ، لا فى الصور التى نشرت ، ولا فى لقطات الأفلام الاخبارية • لقد كان منظرا مؤلمــا •

توقفنا بعضا من الوقت ، فتبادل « أولبريخت » بعض الكلمات مع الضباط السوفييت المرافقين ، الذين أعطوا بعض التعليمات للسائقين ثم واصلنا السفر •

ثم سألت السائق : « الى أين نتجه » ؟

— « نحن نتجه الى الغرب » •

ماذا يأتى به الغد ؟ لم أكن أتوقع أن أتحدث مع « ألمــانى أصيل » عاش هنا طول حياته ، أو أن أرى برلين مرة أخرى ، حيث قضيت فيها طفولتى وأرى مدرستى ، وشارع « جراف هيزيلر » وشــارع « كارل ماركس » فى حى « نويكولن » وقبل هذا كله حى الفنانين عند ميدان « لاوبن هايمر » فى حى « فيلمر سدروف » وسرعان ما انقطعت أفكارى عندما سمعت السائق يقول : « لقد وصلنا » نوجد الآن فى مدينة ألمــانية صغيرة مزخرفة ، تبعد عن برلين بحوالى ٣٠ كيلومتر شرقا • انها « بروخميلى » •

* * *

« بروخميلى » المركز السياسى لجيش « شوكوف »

كانت « بروخميلى » فى تلك الأيام فى وضع آخر ، فقد تمركز فيها القسم السياسى لجيش المــارشال « شوكوف » وكان يرأس هذا القسم الجنرال « جلادشييف » رئيس الادارة السياسية لجيش المــارشال « شوكوف » فى ذلك الوقت •

أخليت المنطقة من القوات الأخرى ، أما سكان هذه المنطقة الصغيرة فقد انزعجوا فى بادىء الأمر عند دخول القوات اليها ، ولكنهم يعيشون الان — على الأقل لمدة أسابيع قليلة — فى جو أحسن من غيرهم ، سكان المناطق الأخرى • كان من النادر أن نرى فى هذه المدينة جنديا بسيطا ، فقد كانوا كلهم ضباطا من الرتب العالية ، تابعين لقسم « جلادشيييف » ويتحدثون كلهم تقريبا اللغة الألمـانية ، وكانت مهمتهم محاولة اقامة اتصال مع السكان • ويوجد هنا أيضا هيئة لتحرير المنشورات باللغة الألمـانية وتصدر من هنا كل توجيهات الخط السياسى الجديد ، الذى التزم بتنفيذه كل القياديين السياسيين فى كل وحدات الجيش بعد أن نشرت « برافدا » قرار ادانة « ايرينبرج » •

ظهرلى فى الأسابيع التالية أن « الخط الجديد » جاء متأخرا ، فلم يكن فى امكان القيادى السياسى الجنرال « جلادشيييف » مواجهة دعاية « ايرينبرج » والقضاء عليها ، وهى التى تشعبت فى كل وحدات الجيش منذ سنوات •

استقبلنا — بعد الوصول بفترة قصيرة — العاملون مع الجنرال « جلادشيييف » ولمـا كان المساء قد أزف ، فقد أجلت المناقشة معنا الى اليو م التالى • نزلنا فى منزل جديد ، بعد اخلائه اخلاء تاما •

كنت فى اليوم التالى — وهو يوم ٢ مايو ١٩٤٥ ، وكان ربيعيا جميلا — مسرورا جدا بدرجة لم تحدث لى قط : أخيرا عدت الى ألمـانيا ! لم أر بعد ما يحزننى ولم أعلم شيئا بعد عما يدور فى هذه الأيام والساعات فى ألمـانيا • كنت فى ألمـانيا وفى الوقت نفسه لم أكن فى ألمـانيا : لم أر من ألمـانيا حتى هذا الصباح سوى شوارع جميلة ، ومنازل مزخرفة ، وأجانب محررون ، وقيادة ترحب بضيوفها ترحيبا حارا ، وما عدا هذا لم أر شيئا •

دعينا الى اجتماع فى الصباح ، فأعطى ضابط سوفييتى كل واحد منا ورقة ، فأدركت من النظرة الأولى أنها وثيقة هامة ، وقيمة جدا موقع عليها من المارشال « شوكوف » والجنرال « جلادشيييف » وتقول هذه الوثيقة : أن « فولف جانج ليونهارد » يعمل فى الادارة السياسية الرئيسية فى المناطق التى تحتلها قوات الـ (I. Bjelorussischen Front)

---

(١) كان هذا هو الاسم الرسمى للقوات التى تحت رئاسة المارشال « شوكوف » •

ثم دعينا فى « كازينو » ضباط الادارة السياسية الرئيسية • رأيت هامش الوثيقة التى أخذتها من الضابط أننا سنعامل فى الطعام وخلافه معاملة ضابط برتبة رائد • حصل كل واحد منا فى الدقائق الأولى على « خرطوشة » سجائر ، وقدم لنا أحد الضباط نفسه بأنه مكلف من الادارة السياسية بتحقيق رغباتنا •

سافر الرفيق « أولبريخت » — بعد محادثة طويلة مساء أمس مع الجنرال « جلادشييف » — فى صباح اليوم الباكر الى برلين ، ولن يعود الا فى المساء ثم قيل لنا ان بعض الضباط المساعدين للجنرال « جلادشييف » يريدون التحدث معنا ، ويتمنون أن يكون اللقاء اليوم فى الساعة ٤ مساء •

وهكذا لم يبق لنا وقت فراغ سوى فترة الضحى ، عدت بعد الافطار الى حجرتى الجديدة ، ثم ما لبثت أن سمعت طرقا على الباب ، ثم دخلت امرأة تبلغ من العمر حوالى ٣٠ عاما ، وكان الخوف والخجل باديا على وجهها ، فقالت : أنا مكلفة بتنظيف وترتيب الحجرة ، هل تسمح لى بأن أفعل ذلك الآن ؟

« شكرا جزيلا ، ولكن فى الحقيقة أن هذا ليس ضروريا ، فأنا متعود أن أفعل هذا بنفسى » •

وعندما سمعت أنى أتحدث الألمانية بطلاقة ، نظرت الى باندهاش فقلت لها « اجلسى قليلا استريحى بعضا من الوقت » دعوتها الى الجلوس آملا أن أتحدث مع « ألمانية أصيلة » •

بدا عليها أنها لا تفهم ما يدور فى العالم : هنا يصل ألمانيون فجأة فى سيارات ، ويستقبلهم الضباط الروسيون بحفاوة ، وتقدم لهم الخدمات فى صالة الضباط السوفييت ، ويسكنون فى أحد المنازل التى استولى عليها الجيش السوفييتى ! ارتاعت من دعوتى لها للجلوس ، وبدت خائفة جدا ، ثم غادرت الحجرة بسرعة ، فتذكرت على الفور الناس فى موسكو أيام حركة التطهير من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م •

لم أفهم شيئا ، لماذا تملكها الخوف ؟ فالحرب أوشكت على الانتهاء ، وانتهت الأوقات العصيبة • كان ينبغى عليها أن تفرح • هكذا دارت بذهنى الخواطر — لم أسمع شيئا بعد عن السلب والنهب وهتك الأعراض ، وما شابه ذلك •

خرجت فى ضحى اليوم الأول لى فى ألمانيا أتجول مع « هانز

مالى » و « فريتس اربن بيك » وللأسف لم نقابل فى طريقنا سوى ضباط سوفييت • وفجأة رأينا السيدة التى تقوم بنظافة منزلنا ، ونجحنا فى هذه المرة فى الحديث معها ، وكنا نتحرق شوقا على سماع الاجابة منها : النازيون ، الحرب ، انتهاء الحرب ، الوضع الحالى ، الروسيون ، المستقبل •

ظهر أن ليس عندها ما تقوله عن النازيين والحرب • كانت — كما قالت — مسرورة لانتهاء الحرب ، ثم بدأت ترتعد : « ولكن يجب أن تعلموا أننا قاسينا كثيرا فى الأسابيع الأخيرة » •

فسألها واحد منا : « ماذا فعل النازيون معكم » ؟

فقالت : « ولكن ••• لا أعنى الآن النازيين على الاطلاق ••• يجب أن تتخيلوا ما حدث عندما جاء الروسيون الى هنا ••• » •

ثم بدأت تشرح حوادث وأعمال ، بالضبط كما سمعتها فى الأيام والأسابيع التالية عشرات ، بل مئات المرات ، بطرق وأساليب مختلفة •

انضم الينا فى هذه الأثناء « مارون » و « فينسر » ويبدو أنهما كانا يبحثان أيضا عن « ألمانى أصيل » يتحدثان معه •

استمرت السيدة فى حديثها ، وعندما بدأت تحكى عن هتك الأعراض ، اقشعر بدنى ودارت رأسى • هل وقعت هذه الأحداث حقيقة ؟ أصابتنى صدمة نفسية ، ولكنى اعتقدت أنها حوادث فردية مؤلمة •

وسرعان ما تطور الحديث الى مناقشة سياسية •

كان موقفا شاذا ، عندما حاول الرئيس العام (فيما بعد) لكل اذاعات المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، والجنرال المفتش ورئيس الشرطة (فى المستقبل) وكذلك رئيس هيئة المكتب الخاص للرئاسة ، محاولة يائسة للتدليل على أنه لا يجوز أن تشككنا امرأة بهذه الحكايات فى ثقافتنا السياسية التى تلقيناها حتى الآن • استمعت المرأة باهتمام وصبر الى المناقشة ، وكانت هذه هى الحالة الفريدة التى يقرظ فيها هذا العمق للعمل السياسى أمام ربة بيت ألمانية ، ولكنها لم تتزحزح عن أفكارها التى خلفتها الأحداث القاسية عندها ثم قالت بنغمة غاضبة :

« لستم فى حاجة الى أن تخبروتى بأن النازيين كانوا سيئين فأنا أعرف هذا قبل أن أسمعه منكم ، ولكن اعلموا أيضا أن الروسيين ليسوا أحسن من النازيين ، وسوف تلاحظون ذلك » •

فتبسم بعضنا لهذا الكلام •

ناقشنا فى طريق عودتنا الى الغداء ما قالته هذه السيدة وكانت الآراء مختلفة ، فقال واحد منا متعصب « للستالينية » :

« هذه دعاية نازية خالصة ، فهى لا شك من الفاشيين النشطين ومن المحتمل أنها عضو فى جهاز نازى سرى » •

فخفف آخر من حدة هذا الرأى :

« ربما لم تكن من الفاشيين النشطين ، فهى لا تعدو ربة ربيت غبية ، أثرت فيها الدعاية الفاشية الفظيعة » •

تأثرت جدا بهذا الحديث ، فاعتقدت أن ما قالته كان صحيحا ، وارتضيت داخليا أن السيدة قصت علينا حقيقة ما حدث • من الممكن — هكذا حاولت تهدئة نفسى — أن بعض أفراد من بعض وحدات الجيش الأحمر ارتكبوا — بعد حوادث الحرب المهولة — مثل هذه الأعمال •

تلقينا دعوة بعض الظهر من بعض كبار ضباط المكتب السياسى ، ودار الحديث على مستوى سياسى عال • ومما لا شك فيه أن الضباط السياسيين تلقوا تدريبات ودروسا عالية فى موسكو استعدادا لهذه المهمة ، فقد كانوا يعرفون تاريخ ألمانيا أحسن من كثير من الألمانيين ، وكانوا متمكنين — على الأخص فى معرفة الأحداث التى وقعت فى العصر السابق على الحرب : أحزاب الجمهورية الفايمرية ، تكوين البرلمانات ، الهيئات البرلمانية الحزبية ، أحداث الانتخابات من عام ١٩١٨ م ، وطبعا تاريخ الحزب الشيوعى الألمانى • ولكن ، هل عرفوا رأى الألمانيين فى الوقت الحاضر ؟ هل علموا ما يفكر ويشعر به الشعب الألمانى ؟ لا أعلم هذا ، فلم يذكر عنه شىء فى حديثنا الذى امتد ساعات ، فقد تحدثنا عن سياسة الأحزاب فى الماضى ، وعن مؤتمرى الحزب الشيوعى الألمانى فى « بروكسل » و « برن » وعن اللجنة الوطنية وبنوع خاص عن ضرورة « تكميل ثورة عام ١٨٤٨ م الديمقراطية الشعبية » ، وعن التطور المنتظر فى ألمانيا •

طاف بذهنى أن مناقشتنا تدور فى الهواء ، وليس لها أدنى علاقة — بل لا علاقة لها اطلاقا — بالحقيقة •

عاد « أولبريخت » فى المساء ، بعد أن قضى طول اليوم فى برلين ، ولكنه لم يحك لنا الا القليل جدا ، وقال : « سوف ترون بأعينكم » •

وعندما اجتمعنا معه ، شرح لنا أخيرا مهمتنا : ان من واجبنا تكوين الجهاز الادارى الألمانى ، سوف نذهب الى الأحياء المختلفة فى برلين ،

ونحاول البحث عن القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية التى تناسب بناء الادارة الألمانية الجديدة ، وسيكون من الأحسن أن نقسم أنفسنا فيأخذ كل واحد منا حيا معينا • ثم نجتمع فى المساء ، حيث يقدم كل واحد تقريرا عن الوضع فى الحى المكلف به •

« متى نبدأ فى هذا العمل » ؟

أجاب « أولبريخت » باختصار : « غدا » •

غدا ! كان هذا هو يوم ٢ مايو سنة ١٩٤٥ م •

فى هذا اليوم استسلم الجيش الألمانى فى برلين •

وفى نفس اليوم بدأ نشاط « مجموعة أولبريخت » •

***

أول لقاء مع الشيوعيين فى برلين

انطلق رتل من السيارات الخاصة فى صباح يوم ٢ مايو من « بروخميلى » مارا بـ« كاولسدورف » و « بيسدورف » و « فريدريشفيلد » الى وسط مدينة برلين • جلس فى هذه السيارات « مجموعة أولبريخت » وبعض الضباط السوفييت من هيئة رئاسة أركان الجنرال « جلادشيييف » ثم اتخذت السيارات طريقها ببطء عبر « فريدريشفيلد » فى اتجاه « ليشتينبرج » • كانت صورة فظيعة : حرائق ، خرائب ، أناس جائعون هائمون على وجوههم ، وليس على أجسامهم ما يسترهم سوى خرق بالية ، جنود ألمانيون حائرون ، لم يفيقوا بعد من هول ما حدث • أفراد قوات الجيش الأحمر يغنون ويرقصون ، وبعضهم يتمايل من شدة السكر ، مجموعات من النساء ، تقوم بازالة الأنقاض • تحت مباشرة جنود الجيش الأحمر ، طوابير طويلة من البشر ، يقفون صابرين متحملين أمام طلمبات المياه ، ليحصلوا على دلو (جردل) ماء ، يرتدون خرقا بالية ويبدو عليهم البؤس والانهاك والجوع وتوتر الأعصاب — لقد كان منظرا متناقضا تمام التناقض مع ما رأيته فى المدينة الصغيرة الواقعة شرق برلين — وضع كثير من الناس أشرطة بيضاء على أذرعهم علامة على الاستسلام ، أو أشرطة حمراء تحية للجيش الأحمر ، وكان يوجد بعض الناس الذين كانوا حذرين جدا : حملوا شريطا أبيض وآخر أحمر • ورفرف على نوافذ المنازل الأعلام البيضاء — علامة الاستسلام — أو الأعلام الحمراء ، وكانت تبدو أنها مأخوذة من أعلام نازية سابقة •

أشار لنا الضابط المرافق ، لنسير فى طريق يؤدى الى حكمدارية « ليشتينبرج » التى اتخذت فى بادىء الأمر منزل سكنى مقرا لها •
حيانا الضابط تحية قصيرة ، فقد كان مشغولا بأشياء كثيرة فى يده • ضباط يخرجــون ، وآخرون يدخلون حاملين تقارير قصــيرة — بأسلوب التلغرافات — عما يحدث فى الحى • وعندما دخلنا الى الحجرة كان ضابط سوفييتى ثائرا ومزمجرا من تصرف بعض الجنود السوفييت ، يسبهم ويلعنهم وهكذا سمعت أول شكوى من تصرف جنود الجيش الأحمر فى برلين — من الجانب السوفييتى — • كان الحكمدار مسرورا جدا من « مجموعة أولبريخت » لأنه رأى فيها مساعدا ومعينا على بناء الادارة الألمــانية •

« ادارة ألمــانية ؟ لا ! •• لم نكونها بعد ، ولكن نرجوكم أن تجيئوا هنا غدا أو بعد غد لتساعدوننا على تكوينها » •

فوافق « أولبريخت » •

استأنفنا رحلتنا بعد وقت قصير ، بعد أن قرر « أولبريخت » أن يعمل كل اثنين من مجموعتنا معا • اتجهوا الى أحياء « كرويتسبرج » و « تريبتوف » و « تيمبيلهوف » وأحياء أخرى ، وبقيت أنا وحدى •

« الى أين أذهب » ؟

فقال « أولبريخت » : « ستبقى معى ، سنذهب معا الى « نويكولن » توقفنا بعد نصف ساعة أمام مبنى ضخم • صــعد « أولبريخت » الســلم هادئا مطمئنا ، كما لو كان من الأمور المسلم بها جدا أن يزور ادارة ألمــانية فى ٢ مايو ١٩٤٥ م بعد غياب اثنتى عشرة سنة • لم يكن عندى هذا الاطمئنان •

لم يكن موجودا من كل موظفى حى « نويكولن » سوى واحد فقط • تقدم نفسه لنا باسم « باجل » وشرح لنا باختصار ما فعله حتى الآن • وجد الجهاز الادارى الألمــانى نفسه فى حالة ميئوس منها ، فقد كان الوضع يتعلق بالمستشفيات والمياه والتيار الكهربائى ، والفحم والعمل لاخلاء الشوارع من الأنقاض واستخراج الأوراق الرسمية ولكن كان الواجب الضرورى هو : المواد الغذائية لسكان برلين الجائعين •

دون « أولبريخت » — وأنا كذلك — ملاحظات ، ثم تحول الحديث بعد نصف ساعة ببطء الى الموضوعات السياسية فأنصت « باجل » بكل جوارحه ثم قال : « لا مؤاخذة ! من فضلك ! من أنتم بالضبط » ؟

« فالتر أولبريخت » عضو سابق فى برلمـــان الجمهورية الفايمرية وأعمل الآن فى هيئة اعادة تكوين الجهاز الادارى فى برلين » •

أطلعنا « باجل » الذى قدم نفسه على أنه عضو فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى — على قائمة بأســماء المناهضين للفاشية فى حى « نويكولن » من الديمقراطيين الاشتراكيين ومن الشيوعيين ، الذين يجب الاستعانة بهم فى الادارة قائلا :

« ربمـــا يهمك هذا ، هذه هى قائمـــة الشيوعيين النشـــطين فى « نويكولن » • نظر اليها « أولبريخت » نظرة سريعة ، ثم قال بصوت كسول :

« لا •• أنا مهتم فقط بالادارة » ثم ودعناه وانصرفنا •

انطلقت السيارة بعد أن قال « أولبريخت » للسائق عنوانا •

« الى أين نذهب الآن » ؟

ضحك « أولبريخت » ضحكة فاترة ثم قال :

« الى الرفقـــاء طبعا ، فقد احتفظت فى ذاكرتى بعنوانين من القائمة » فتعجبت ! فلم أزل عاميا فى هذا المجال •

حاولت أثناء الطريق أن أرسم فى ذهنى صورة عن الشيوعيين الذين قاموا بنشاط سرى سنين عديدة فى ألمـــانيا • لقد قرأت عن كفاحهم فى القصص المناهضة للفاشية ، وفى تقارير الرفقاء • والآن ! أتحرق شوقا الى اللقاء مع « رفيق ألمـــانى حقيقى » •

أمر « أولبريخت » الســـائق أن يتوقف أمام باب مفتوح لأحـــد المنازل المصابة من آثار الحرب فى « نويكولن » فسمعنا أناسا يتناقشون بصوت عال داخل المنزل • طرقنا الباب ثم دخلنا ، كان بعضهم منهمكا بجوارحه فى المناقشة ، لدرجة أنهم لم يلحظوا دخولنا •

وفجأة قفز بعضهم صائحا بصوت عال : « أولبريخت » استقبلوه بالأحضان ، وانعكست المفاجأة والفرحة على وجوه الرفقاء ، ولكن « أولبريخت » بقى حتى فى هذه اللحظة صارما عمليا (١) •

حياهم — لاحظت أن تحيته كانت باردة — ثم قدمنى لهم على أنى زميل له فى العمل ، ثم استؤنف النقاش بعد دقيقة أو دقيقتين ولكنها الآن بقيادة « أولبريخت » •

---

(١) أى لم يتأثر بعواطف اللقاء • م • شامة •

والآن .. عندى فرصة للتأمل فيما حولى : كنا فى حجرة بسيطة فى شقة أحد العمال . على المنضدة « لمبة » جاز — لم يوجد فى هذا اليوم تيار كهربائى — وجلس اثنا عشر رفيقا فى الحجرة بعضهم على كنبة وبعضهم على كراسى ، والباقى على الأرض .

كان الجو مغايرا تمام المغايرة لجو منظمة الشـــباب السوفييتية وللاجتماعات الحزبية فى الاتحاد السوفييتى . سيطر على شعور يشبه ما تصورته فى الاجتماعات التى عقدت فى عصر ثورة أكتوبر والحرب الأهلية فى روسيا ، وما كنت أتمناه ، دائما للاجتماعات الحزبية . كنت أحس هنا حماسا صادقا ، مقترنا بواقعية سليمة ، فهم الرفقاء دون أن ينتظروا تعليمات من مستويات عليا أن المسألة المهمة الآن هى تنظيم توفير المواد الغذائية ، والمياه ، وتوفير الضروريات الملحة للشعب ، واعادة تكوين الادارة للخروج من حالة الاضطراب العامة والجوع .

جاءت الاقتراحات واضحة وقصيرة من كل الجوانب ، ثم نوقشت ، وأحيانا كانت تستبدل باقتراحات أخرى الى أن يتوصلوا الى قرار فى الموضوع المطروح للمناقشة ثم دون أحدهم التفصيلات : أسماء الرفقاء المراد البحث عنهم للاستفادة بهم ، تجنيد القوى العاملة لتفريغ المواد الغذائية وتوزيعها ، الاتصال بالمهندسين والفنيين ، لاعادة النور والمياه الى حالتها الطبيعية ، قيادة العمل لازالة الأنقاض ، واستخراج البطاقات الشخصية . بدون قائمة الأوامر والتعليمات ، وبدون صياح ، وبدون عبارات ، بدون هذا كله أنهى فى نصف ساعة ، ما يحتاج الى اجتماعات لا نهاية لها فى الاتحاد السوفييتى .. لم يعجبنى فقط تصرف « أولبريخت » وطريقته وأسلوبه ، فى معاملة الرفقاء الآخرين ، فبينما أقنعتنى الدقائق الأولى فى هذا اللقاء الحزبى المرتجل ، بأننا يجب علينا نحن القادمين من موسكو وليس عندنا فكرة عن الوضع أن نسمع لـــما يقوله هؤلاء ، تصرف « أولبريخت » كما لو كان رئيسا تجب له الطاعة .

انتقل الحديث — دون قصد — من الواجبات الضرورية الملحة ، الى المسائل السياسية — والى نضال الرفقاء فى عهد النازيين ، والى الاتجاه السياسى العام فى الوقت الحاضر والمستقبل . وعندما تناول الحديث تصرف الرفقاء تيقظ « أولبريخت » وألقى سؤال وراء آخر : كيف تصرف هذا ؟ وكيف تصرف ذاك ؟ أين كان ... ؟ ماذا فعل .. ؟ . أسماء لا حصر لها كان يحفظها « أولبريخت » كلها فى ذاكرته (تعجبت

فيما بعد من قدرته الخارقة على حفظ الأسماء) • لم أتوقع هذه الأسئلة ، فهى وان كانت لا تشبه تحقيقات الشرطة الا أنها ليست بالنغمة التى كنت أنتظرها من لاجىء سياسى يتقابل بعد اثنتى عشر عاما بمن بقوا على قيد الحياة من الذين قاسوا سنين عديدة من جبروت « هتلر » • وعندما شرح أخيرا الخط السياسى الجديد ، وضعه بنغمة لا تسمح بمعارضة ، وبأسلوب يمنع كل شك فى أنه هو — لا الشيوعيين فى برلين — الذى قام بأعمال سرية تحت ظروف صـــعبة ، وأنه هو الذى يرسم سياسة الحزب •

فكرت فى طريق العودة فى هذا اللقاء الأول مع الشيوعيين الألمانيين ، ألا يوجد نوعان من الشيوعيين ؟ لم أقابل حتى اليــوم — باســتثناء عدد قليل — سوى قياديين جامدين فى تصرفاتهم ، يكررون شعارات الحزب دائما • كيف ظهر لى هؤلاء الشيوعيون الذين تعرفت عليهم فى هذا المســاء ، فهم على الضد من الشيوعيين الذين تعرفت عليهم سابقا — أناس « عاديون » فيهم حيوية مع واقعية ، ممتلئون حماسة ، ومستعدون للتضحية •

انعقد اجتماع فى المساء ، بعد أن عاد جميع أعضاء « مجموعــة أولبريخت » الى « بروخميلى » فشرح كل واحد باختصار ما شاهده ، وتلقى سكرتيرنا الفنى أول عمل له : نسخ محضر الاجتماع فى عدد من النسخ ، حتى يكون عندنا من البداية تقارير مفصلة عن كل حى فى برلين •

كان الاجتماع الأول غير حازم نسبيا ، ولكن ابتداء من اليوم التالى بدأ العمل المنظم ، فكل حى فى برلين يجب أن يمر عليه رفيق أو رفيقان ، وبعد بضعة أيام نتبادل زيارة الأحياء مع بعضنا • وكنا مكلفين أولا بمعرفة الحالة العامة ، والبحث فى أحياء برلين كلها عن الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين ، والمستقلين المناهضين للفاشية ، وعمل تقرير عن كل ما يتعلق بهم لكى تعد قائمــة بأســمائهم ونقترح على حكمدارية الحى الاستعانة بهم فى الادارة • كذلك وجب علينا البحث عمن يمكن أن يعين عمدة للحى ونائبه ، ونقترح اسميهما لحكمدار الحى •

بدأنا العمل بحماس باحثين عن المناهضين للفاشـــية ، اللازمين للادارة ، وكان فى استطاعتنا فى هذه الحالة الاستعانة بالقياديين الذين كانوا يعرفون « أولبريخت » وعدد آخر من مجموعتهم السابقة وبقائمة الأسماء التى كان يبعثها الينا كل يوم الضباط المسئولون عن الأمور السياسية فى مركز حكمدارية الحى •

قال لى « أولبريخت » فى مساء اليوم الأول : « خذ ! هذه قائمة ، ابحث فيها ، واختر أسماء من تحتاج اليه منها » .

نظرت فى القائمة ، فقرأت فى أولها :

« فولف جانج هاريش » برلين ، حى « دالم » شارع « بودبيلسكى » رقم ١ . ظل هذا الاسم محفورا فى ذاكرتى دائما .

سافرت فى اليوم التالى الى برلين . تعرفت بالأمس على الأحياء الشرقية فى برلين واليوم أتجه الى الغرب ، الى ذلك الجزء الذى لا زلت أذكره من أيام طفولتى ، وعندما اقتربنا من ميدان « برايتنباخ » رأيت على بعد حى الفنانين عند ميدان « لاوبينهايم » . اذن ، يجب أن أراه رغم كل الأوامر الحزبية .

— « هل يمكنك أن تتجه هنا على الشمال » ؟

— « بكل سرور » .

وقفت العربة أمام المنزل رقم ١٢ فى شارع « بون » أمام المنزل الذى سكنت فيه وأنا طفل . شعرت بالذنب . لم آت الى هنا لأعيد الذكريات . كان المنزل مصابا اصابة بسيطة ضحك السائق وقال لى :

— « هل كنت تسكن هنا » ؟

— « نعم .. عندما كنت طفلا ، فى عامى ٣١ — ١٩٣٢ م ، هناك فى الدور الثالث على اليمين » .

— « اذن ، اصعد الى هناك ، يمكنك أن تعمل استراحة قصيرة ، وتشاهد مسكنك السابق » .

ولكنى تذكرت القائمة التى معى ، وتذكرت المهمة الحزبية ، فرفضت

توقفنا بعد بضعة دقائق أمام « فيلا » جميلة ، لم يصبها الدمار فى شارع « بودبيلسكى » رقم ١ ، فرأيت علمين مجهولين لاحدى الدول الأجنبية معلقين على شباكين . يبدو أن « الفيلا » كانت مقر سفارة أجنبية وكيفما كان الأمر ، فقد تخيلت لقائى الأول — وأنا وحدى — مع ألمانى مناهض للفاشية بصورة أخرى . كنت — ككل الناس الذين عاشوا فى الاتحاد السوفييتى زمنا طويلا — ممتلئا رعبا من الاقتراب من مبنى سفارة أجنبية .

طفت بالمبنى وأنا متردد فاكتشفت يافطة مكتوبا عليها بالألمانية والانجليزية والروسية ، ويفهم من هذه الكتابة . أن هذه سفارة « تايلاند » (سيام) سفارة دولة محايدة .

يجب على البحث عن أول ألمـانى مناهض للفاشية فى سـفارة « سيام » ! هل أدخل أم لا ؟ سرت هنا وهناك وأنا مضطرب ثم فتح شباك .

— « هل تريدنا » ؟

— « قيل لى ان السيد « فولف جانج هاريش » يسكن هنا » .

— « نعم .. هذا صحيح ، ادخل » .

كانت هذه الفيلا التى أدخلها متباينة تباينا كبيرا عن كل ما رأيته قبل وقت قصير فى شارع « فرانكفورت » لقد كانت فى الحقيقة ، بالضبط مثل السفارات الأجنبية ، التى عرضت فى الأفلام السوفييتية .

قادنى رجل بأدب بالغ الى الطابق الثانى ، حيث قدمت نفسى لـ« فولف جانج هاريش » . كان شابا يرتدى ملابس جيدة .

— « ماذا تريد » ؟

شرحت له — باختصار — الوضع فى برلين ، والصعوبات والضرورات الملحة فى الاستعانة بمجهود المناهضين للفاشية . ومن واجبى أن أقربهم للعمل فى الادارة التى ستكون حديثا .

ولكن كان « فولف جانج هاريش » مرتابا فى بادىء الأمر :

« يسأل عنى الآن فجأة كثير من الناس ، ويحاولون الاتصال بى ولم أرهم قط قبل هذا الانهيار . لابد أن تفهم أنى أعمل فى المقام الأول مع أولئك الذين شاركوا أثـناء حكم النازيين فى اتجـاهنا المناهض للفاشيـة » .

بدأ يحكى لى رغم البداية المريبة . عن المجموعات السرية فى محيط الطلبة فى برلين ، وعن الهاربين من الجيش الذين استخرجت لهم أوراق رسمية أخرى .

أنصت اليه باهتمام . واستطعت بعد لحظات أن أتأكد أن الأمر يدور حول نشاط آخر ليست له صلة بالحزب الشيوعى الألمـانى ، بل قامت به دوائر أخرى مناهضة للفاشية فدفعنى هذا الى الاهتمام أكثر بسماع أخبار نشاط هذه القوى الأخرى .

ولكن ربما كان اهتمامى الواضح بسماع ما يقوله سببا فى أن يأخذ حذره « لا تؤاخذنى اذا سألتك سؤالا مباشرا ، من أنت بالضبط ؟ هل أنت مكلف بشىء ما » ؟

« كنت أثناء الحرب مذيعا فى اذاعة « ألمـانيا الحرة » فى موسكو ،

وأنا الآن فى برلين للاتصال بالدوائر المناهضة للفاشية ، ومحاولة اقناعهم بالعمل فى الادارة الجديدة •

أثار هذا اهتمامه ، فأصبح متشوقا الى سماع الكثير منى ، بالضبط كما كنت أنا قبل لحظات • أتشوق الى سماع الكثير منه ، حاولت بكل جهدى الهروب من أسئلته — وكان ذكيا فى صياغتها — عن الاتحاد السوفييتى ، فليس من واجبى أن أتناقش فى سفارة « سيام » عن المشاكل النظرية فى الاتحاد السوفييتى ، بل العثور بسرعة عن المناهضين للفاشية للادارة • وعندما سألته عما اذا كان مستعدا لهذا قال : « لا •• فنادرا ما أهتم بهذا ، ولكنى مستعد بكل سرور للاسهام فى مجال الثقافة أو فى الصحافة أو فى الأنظمة الطلابية » •

ودعته وانصرفت وفى المساء كتب فى قائمتنا : « فولف جانج هاريش » طالب ، مناهض للفاشية ، مثقف يهتم بالعمل فى المنظمات الثقافية ، أو الصحافة أو الحركات الطلابية • وتحققت غايته بالضبط كما طلب ، ففى اجتماع تأسيس الرابطة الثقافية — فى أوائل يوليو ١٩٤٥ م — تحدث « فولف جانج هاريش » بوصفه ممثلا للطلبة وانضم فيما بعد الى هيئة تحرير القسم الثقافى فى جريدة Die Tagliche - Rundschau وحضر فى عام ١٩٤٨ م دورة المحاضرين الدراسية فى المعهد العالى للحزب ، وكان محاضرا فى جامعة « هومبولد » حتى قبض عليه فى نوفمبر ١٩٥٦ م •

تعرفت فى نفس اليوم على كثير من المناهضين للفاشية فى برلين ، وكان الأعضاء الآخرون فى نفس الوقت فى مهمات مماثلة • وبعد بضعة أيام جمعنا فى كل حى فى برلين مجموعة من « العاملين » وكان معظمهم من أعضاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمانى السابق وهم قد أحضروا بدورهم مجموعة أخرى من المناهضين للفاشية •

تقدم العمل كل يوم خطوات الى الأمام فازداد باستمرار عدد المناهضين للفاشية الذين عرضوا خدماتهم فاستعنا بهم فى تكوين ادارات الأحياء •

* * *

نحن نعين عمدة الحى وموظفى ادارته

عين الحكمداريون الروسيون فى أول مايو عمد وموظفى الأحياء بأنفسهم ولم يكن من النادر تعيينهم الأشخاص بدافع من محض ارادتهم

الخاصة ، فقد كانوا — مع عدم اجادتهم اللغة الألمانية — فى موقفه حرج • على أى كيفية ينبغى أن تسير الأمور ؟ فحلوا المشكلة بطريقتهم الخاصة ، وهذا ليس تجريحا اطلاقا : عينوا ببساطة أولئك الذين قالوا لهم انهم ضد الفاشية « كانوا نزلاء معسكرات الاعتقال » أو « شيوعيون قدامى » •

خرج أحد الحكمداريين الى الشارع بعد أن تسلم أمرا بتعيين عمدة للحى فرأى رجلا مارا بالصدفة ، أعجبه منظره فأمسك بذراعه وقال له : « تعال •• أنت الآن عمدة » وأصاب تقديره بطريق الصدفة أيضا اذ كان هذا الرجل كفئا لتولى هذا المنصب •

وللأسف لم يكن الوضع هكذا فى كل مكان ، أحيانا ظهر بعد أيام قليلة أن هذا الرجل الذى ادعى أنه مناهض للفاشية « نزيل معسكرات الاعتقال » أو « شيوعى قديم » ليس الا انسانا ضعيفا يسعى وراء المناصب وشخصا مشكوكا فيه وحتى فى بعض الحالات ظهر أنه نازى سابق •

كان واجبنا فى هذه اللحظة ازالة العجز عن الادارة التى تكونت بطريق الصدفة وتعيين أكفاء من المناهضين للفاشية •

كلفنا « أولبريخت » بمهمات جديدة ، يجب أن يرأس ادارة الحى عمدة واثنان وكلاء « يكون الوكيل الأول مسئولا عن قسم شئون العاملين » ويعين فى هذه الادارة مجموعة من رؤساء الأقسام للتغذية ، الشئون الاقتصادية ، والخدمات الاجتماعية ، الشئون الصحية ، المواصلات ، التعيينات ، التعليم ، المالية ، الشئون الدينية •• الخ •

كان تعيين هذه المجموعة البسيطة — فى عشرين حيا فى برلين مهمة صعبة جدا ، وبدت أكثر صعوبة عندما ألح « أولبريخت » على أن ننتهى من هذا العمل قبل مضى أسبوعين على أكثر تقدير ، ولكن الأمر ليس « تعيين أشخاص » أيا كان نوعهم •

فقد شرح لنا « أولبريخت » :

« يجب أن تكون الادارة مركبة تركيبا صحيحا من الوجهة السياسية فنحن لا نحتاج الى أن يتولى الشيوعيون فى مناصب العمد الا فى حى « فيدنج » أو فى حى « فريدريشهاين » فقط • يجب أن تكون العمد فى الأحياء العمالية من الديمقراطيين الاشتراكيين ، وفى الأحياء الوطنية :

« تسيليندورف » و « فيلمرسدروف » و « شارلوتينبرج » يجب أن يعين فى القمة رجل وطنى ، كان سابقا من الشخصيات المهمة فى

الحزب الديمقراطى ، أو فى حزب الشعب الألمـانى ، ومن الأحسن أن يكون دكتورا ولكن لابد أن يكون فى نفس الوقت مناهضا للفاشية ويمكننا أن نعمل معه » •

وسأل واحد منا : « والمناصب الأخرى » ؟

— « ليست مستعجلة كهذه •• فسيأتى دورها بعد ذلك مباشرة ويجب أن تتناسب أيضا مع تكوين أحياء برلين السياسى • فليس الوضع فى « تسيليندورف » مثله فى « فيدينج » أو فى « فريدريشهاين » ففى الأحياء العمالية يجب علينا فى المقام الأول تعيين كثيرين من الديمقراطيين الاشتراكيين أو المستقلين المناهضين للفاشية ، من الطبقة العمالية الذين يعملون معنا باخلاص • أما فى الأحياء الوطنية ، فيجب علينا البحث بقدر ما يمكننا عن كثير من الوطنيين ، ومن الأفضل أن نعين الديمقراطيين الاشتراكيين وكلاء للعمد ورؤساء أقسام : التغذية ، الشئون الاقتصادية ، والخدمات الاجتماعية ، المواصلات ، فهم يفهمون شيئا فى السياسة المشتركة ونعين للشئون الصحية أطباء مناهضين للنازية ، وللبريد وشئون الاتصالات أخصائيين مستقلين • وعلى كل يجب شغل نصف المناصب على الأقل بالوطنيين والديمقراطيين الاشتراكيين » •

تبادلنا نظرات حائرة ، لأننا لم نتعرف حتى الآن الا بالشيوعيين ، ولا نعلم أين نجد الديمقراطيين الاشتراكيين والوطنيين •

واصل « أولبريخت » حديثه :

« لقد تعرفتم الآن على عدد كاف من الناس ولذا فتستطيعون البدء غدا بتكوين الادارات • ابحثوا أولا عن العمدة ، فاذا وجدتم ديمقراطيا اشتراكيا أو وطنيا ، فستعثرون أيضا على أشخاص مناسبين للمناصب الأخرى •

والآن نأتى الى رفقائنا ، يجب أن يعين منهم الوكيل الأول للعمدة ورئيس قسم شئون العاملين والتعليم • كما يجب أن نبحث فى كل حى عن رفيق يعتمد عليه جدا لأننا سنحتاج اليه فى اعـادة تكوين جهاز الشرطة •

هذا فى كل الأحياء ، لأننا سوف نقتصر فى بعض الأحياء على أن يكون الشيوعى الوحيد هو رئيس جهاز الشرطة ، وربما يمكننا أن نزيد واحدا أو اثنين من رجالنا فى الأحيـاء العماليـة مثل « فيدينج » و « فريدريشهاين » و « نيونويكولن » و « ليشتينبرج » •

— « وماذا فى منصب المسئول عن الشئون الدينية » ؟

— « هذا يجب أن تبحثوا له عن رجال دين مناهضين للفاشية ، يمكن أن نتفاهم معهم وهذا مهم جدا الآن » •

فهمت الآن أن دراستى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لم تكن عبثا ، لأن ما تدربت عليه فى « بشكرين » قبل عامين ونصف يطبق الآن حرفيا — تكوين اللجان الشعبية تكوينا صحيحا ، غير أن هنا فرقا ، ألا وهو أن الأمر هنا لا يتعلق بلجان شعبية بل بادارات الأحياء •

ناقشنا توجيهات « أولبريخت » • وخاصة مسألة البحث عن هذا العـــدد الكبير من الوطنيين ، وأيضـــا البحث عن رجال دين ، ولكن « أولبريخت » أنهى المناقشة بعد نصف ساعة تقريبا ، ثم أعطانا آخر التعليمات بلهجة « زكيسينية كلاسيكية » :

« هذا واضح جدا ، لابد أن يبدو أنه ديمقراطى ، ولكن لابد أن نملك نحن كل شىء فى أيدينا » •

أصبح كل شىء الآن حقيقة واضحة •

ثم تبع ذلك مرة أخرى توزيع أحياء برلين علينا ، فتمنيت — فى نفسى — أن أحصل على حى ، أستطيع العثور فيه على ديمقراطى اشتراكى ليكون عمدة ، لأنه لم يزل العثور تلك الأيام من شهر مايو على ديمقراطى اشتراكى أسهل من العثور على وطنى ولكن لم تتحقق أمنيتى فقد جاء نصيبى فى حى « فيلمرسدورف » بالذات ، وهو الحى الذى يجب أن يكون عمدته وطنيا •

وقفت فى صباح اليوم التالى حائرا أمام باب الحكمدارية فى شارع « برلين » •• تعرفنا فى « فيلمرسدورف » على عدد من الرفقاء ففكرت فى الذهاب اليهم ليساعدونى فى البحث عن وطنى ليكون عمدة •• جاءتنى هذه الفكرة لانقاذى •

وقف أمام الحكمدارية حشد كبير من الناس أمام شباك مفتوح من شبابيك الدور الأرضى ، وكان أحد الضباط فى الحجرة خلف الشباك ووقفت فتاة سوفييتية ترتدى الملابس العسكرية فى الشارع أمـــام الشباك مباشرة •

أراد الناس أن يستفهموا من الضابط عن بعض المشاكل ، ولكنه كان يجيبهم اجابة غامضة ، وكانت ترجمة الفتاة أكثر غموضا فلم يفهم الناس شيئا •

وقفت بجانب الفتاة لأساعدها فى الترجمة ولم تمض لحظات الا وأحاطنى سكان الحى يمطروننى بوابل من الأسئلة •

وفى هذه اللحظة قال لى رجل يبلغ الخامسة والأربعين من عمره تقريبا : « هل يمكن أن أتحدث معك لحظة على انفراد » ؟

فانتحينا جانبا •

« لا تؤاخذنى فى هذا الرجاء • لقد لاحظت أنك على علم بهذه المسائل ، وعلاوة على ذلك فأنت تجيد الروسية • المسألة تتلخص فيما يلى : اعتقلت بتهمة الاشتراك فى مؤامرة ٢٠ يوليو ، وظللت فى معسكرات الاعتقال حتى قبل أيام قليلة ••• » أطلعنى على أوراقه وبعد سؤاله بعض الأسئلة عرفت أنه كان عضوا فى الحزب الديمقراطى وانضم فى عهد « هتلر » الى مجموعة معارضة يبدو أنها كانت مجموعة « وطنية » معارضة ، فهو بالضبط ما أبحث عنه • سألنى بعض أسئلة أخرى تتعلق بالخدمات ، فأجبته عليها بسرعة ثم أراد أن يودعنى شاكرا — فقلت له بعجلة :

« انتظر •• لا تؤاخذنى اذا وجهت لك هذا السؤال المباشر ، هل أنت مستعد أن تتولى منصبا رئيسيا فى ادارة الحى الجديدة ؟ نحن نبحث عن أكفاء مناهضين للفاشية ولاحظت من حديثنا القصير أنك مناسب لهذا المنصب » •

ضحك بأدب ، ولكنه رفع كلتا يديه رافضا :

« لا •• أعتقد أنى غير مناسب لهذا المنصب ، فأنا لا أفيد الادارة كثيرا ، ولكن اذا كنت حقيقة فى حاجة الى من يتولى هذا المنصب فان لى صديقا مستشار أول فى الحكومة سابقا ، وكان عضوا فى حزب الشعب الألمـانى ، وله خبرة واسعة فى مشاكل الادارة ، كان معارضا للحرب وقبض عليه بعد ٢٠ يوليو • سوف يعجبك حقا »

— « أين يسكن » ؟

— « ليس بعيدا من هنا ، ربما على بعد خمس عشرة دقيقة » •

أشرت له الى العربة المنتظرة وقلت :

« هل أضايقك اذا رجوتك أن تأتى معى الآن لنذهب اليه » ؟

وهكذا انطلقنا بالسيارة لنصطاد عمدة لحى « فيلمرسدورف » فى برلين •

وقفت العربة أمام « فيلا » صغيرة يبدو عليها الاهمال •

فتح لنا الباب رجل متقدم فى السن تعلو وجهه الابتسامة ويبدو أنه عاش أياما رخية لينة وقدم نفسه باسم الدكتور « فيللين بوشر » بدأنا الحديث بسرعة وبعد عشر دقائق توصلت بينى وبين نفسى الى قرار : يعين دكتور « فيللين بوشر » عمدة لحى « فيلمرسدورف » بدا لى من أول نظرة أنه طبيب وعلاوة على هذا فتعليمات « أولبريخت » تنطبق عليه بالضبط : فهو ينحدر من محيط وطنى وكان عضوا فى حزب وطنى ، مناهض للفاشية ، يحمل لقب دكتور وعلاوة على ذلك — وان لم يؤكد عليه فى بعض التعليمات ولكنه مهم جدا — فهو كمستشار أول للحكومة سابقا ، له خبرة طويلة فى المسائل الادارية .

— « هل أنت مستعد لقبول منصب عمدة حى « فيلمرسدورف » لو وافقت سلطات الاحتلال على ذلك » ؟

تمدد فبدا أكبر بضعة سنتيمترات من ذى قبل :

« انه شرف لى أن يسمح لى بوضع خبرتى الادارية المتواضعة فى خدمة الجهاز الحكومى » . لاح بخاطرى أعجوبة هذا الوضع : شاب شيوعى يبلغ من العمر ٢٣ عاما نشأ فى الاتحاد السوفييتى ، ولم يأت الى ألمـــانيا الا قبل ثلاثة أيام ، يعين مستشارا حكوميا سابقا فى منصب عمدة .

والآن يجب انهاء الاجراءات فى الناحية الأخرى — مع الحكمدار السوفييتى — ولكن الأمور سارت دون عقبات فقد سر الحكمدار جدا ، لأن واحدا حرره من الواجب الثقيل ، واجب تعيين عمدة وسط هذا الوضع المرتبك وقال :

« هات هذا العمدة الى بسرعة ، سوف نشرب كأسا معه ونصدر أمر تعيينه حالا » وبعد بضع دقائق كنت عند الدكتور « فيللين » مرة أخرى .

فبدا فى هذه المرة فى وضع آخر ، ارتدى أحسن حلله السوداء ولم يعد يمشى منحنيا ، بل انتصبت قامته ثم بدا على عينيه السرور المباغت عندما رجوته أن يركب العربة .

أما الحكمدار — الذى أخبرته من قبل أن المرشح لمنصب العمدة رجلا وطنيا يهتم بالرسميات — فقد حاول أن يعمل ما فى وسعه :

« يسرنى جدا أن أحييك هنا يا دكتور « فيللين بوشر » .

فأجابه الدكتور : « أنا مسرور أكثر » .

جلسنا فى حجرة مقبولة نسبيا فى هذه الأيام من مايو سنة ١٩٤٥ م

وسأل الحكمدار بعض الأسئلة الروتينية ، ثم أعلن بعد دقائق قليلة بنغمة رسمية أنه عين الدكتور « فيللين بوشر » عمدة لحى « فيلمرسدورف » فى برلين • وفى هذه اللحظة أحضر أحد المساعدين الكؤوس و « الفودكا » وفى جو ودى جدا رفع القائد الكأس قائلا :

« فى صحة العمل الموفق لادارة الحى الألمانية الجديدة فى « فيلمرسدورف » •

كنا راضين جميعا : الحكمدار ، لأنه حل المشكلة العويصة بطريقة سهلة ، والدكتور « فيللين بوشر » لأنه أصبح عمدة ، وأنا لأنى لم أنفذ تعليمات « أولبريخت » حرفيا فقط ، بل لأنى اعتقدت أيضا أنى وفقت فى اختيار أول عمدة •

وعينت فى نفس اليوم كل الأشخاص المطلوب تعيينهم فى الادارة ، طبقا للقائمة التى معى ، فقد عين نائب العمدة ورئيس الشئون التعليمية من الشيوعيين كما تولى شيوعى كفء كان عضوا فى الحزب الشيوعى الألمانى — رئاسة الشرطة ، وكان رؤساء الأقسام الأخرى من المستقلين أو من الديمقراطيين الاشتراكيين أو من الوطنيين •

قال الحكمدار : « كله تمام •• وشكرا جزيلا على هذا المجهود » •

وبدأت ادارة حى « فيلمرسدورف » فى مباشرة أعمالها • وهكذا عين عمد وموظفو ادارات أحياء برلين فى العشرة أيام الأولى بواسطتنا مع مساعدة الرفقاء الذين استدعوا للاستعانة بهم • ولم تحدث أى صعوبات مع الحكمداريين ، بل على العكس كانوا مستعدين للتوقيع على القائمة التى قدمناها لهم ، ثم وجهوا الينا الدعوة للطعام والشراب ، وكانت كمية المشروبات كبيرة جدا لدرجة أنه ظهرت بيننا مداعبة : تعيين عمدة سهل ، ولكن كيف يستطيع المرء شرب هذه الكميات التى قدمها الحكمدرايون •

* * *

حكمدار « كرويتسبرج » واللاجئون الروسيون

حلت مشكلة ١٩ حيا من ٢٠ حيا فى برلين بعد أيام قليلة ولم يبق سوى حى واحد لم ننجح فى حل مشكلته وهو حى « كرويتسبرج » •

عدنا الى الاجتماع ذات يوم مساء ، فوزعت علينا الأحياء مرة أخرى ، فرجوت أن يسمح لى بالذهاب ثانية الى « فيلمرسدورف »

لكي أنهي تكوين الادارة ولأساعد في حل بعض المشاكل التي تظهر بعد مباشرة العمل ، ولكن لم يحقق رجائي •

« فيلمرسدورف » سيسير العمل فيه ، ولكن أهم ما عندنا الآن هو حي « كرويتسبرج » فالمسألة هناك معقدة ، ومن الأحسن أن تسافر معنا الى هناك • وأشار « أولبريخت » الي والى « فريتس اربن بيك » :

— « أين ادارة هذا الحي » ؟

فقال « أولبريخت » : « نعم هذا حق ، ولكن ليس لدينا حتى العنوان » •

اتجهنا في اليوم التالي الى « كرويتسبرج » ونحن لا نعلم ما « هي العقبة » هناك • وعلى كل فيظهر أن أمامنا مسائل كثيرة معقدة ومتشابكة •

وأول ما واجهنا من المشكلات أن لا أحد استطاع أن يقول لنا أين هي ادارة الحي ! فكلما سألنا واحدا عنها يشير لنا الى الطريق المؤدي الى الحكمدارية • فنرد عليه :

« ولكن لا نريد الحكمدارية اطلاقا نحن نريد الوصول الى ادارة الحي الألمـــانية » •

فكانوا يجيبوننا : « أليست هي نفسها » ؟

بدا أن هناك شيئا خطأ !

لم نجد بدا من الذهاب الى الحكمدارية ، وكان مقرها في الطابق الثاني في منزل كبير ، وعندما صعدنا السلم قرأنا على الطابق الأول يافطة مكتوبا عليها : ادارة حي « كرويتسبرج » فهززنا رؤوسنا تأسفا • ما هذا الغباء : ادارة الحي الألمـــانية والحكمدارية في منزل واحد •

دخلنا الادارة للتعرف عليها ، فرأينا اثنى عشر رجلا يجلسون حول منضدة وبدوا وكأنهم في اجتماع • ولمـــا كان من المعتاد في ذلك الوقت أن زوار الادارة كثيرون • لم يهتم أحد منهم بنا • جلسنا في أحد الأركان نستمع • فدهشنا بعد سماع الكلمة الأولى ، فهم يتحدثـــون باللغة الروسية •

كنا حيارى ، ربما نكون الآن في الحكمدارية ؟ ولكن لمـــاذا يرتدي هؤلاء ملابس مدنية ؟ من هم هؤلاء الرجال ؟

قررنا مبدئيا الاستمرار في الانصات لمـــا يقولون ، ولم يكن متابعة حديثهم صعبا ، لأننا نعرف اللغة الروسية معرفة جيدة : مستشفيات •• اخلاء الشوارع من الأنقاض •• توفير المواد الغذائية •• ليس

هناك مجال للشك ! فالمناقشة تدور حول المهمات التى يجب أن تقوم بها ادارة الحى الألمـــانية •

وبعد ذلك بوقت قصير رفعت الجلسة لاستراحة قصيرة ، وبعد أن قدمنا أنفسنا لهم ، حاولنا حل لغز « كرويتسبرج » فسألناهم باللغة الروسية :

« لا تؤاخذوننا على هذا السؤال ! هل أنتم موظفون فى الحكمدارية ؟ أو أنتم هيئة استشارية » ؟

فأجاب رجل كان يجلس على رأس المنضدة ، ربما كان رئيس الجلسة — باللغة الروسية — :

« لا •• نحن الادارة الألمـــانية نفسها ، هل تسمحوا لى الآن أن أقدم لكم زملائى » ؟

كانوا كلهم روسيين ، وليس بينهم ألمـــانى واحد ! وظهـــر من الحديث أنهم لاجئون من روسيا •

بدا أنهم واثقون من أنفسهم ، ربما يتلقون التأييد من الحكمدار الروسى • عندما عبرنا لهم بأسلوب حذر أنه ينبغى أن تكون هنا ادارة ألمـــانية وليس من الممكن أن تكون ادارة حى ألمـــانى وموظفوها روسيون ، أجابوا بأدب وبطريقة حاسمة :

« لقد عيننا هنا الحكمدار الروسى ، فللحكمدارية الروسية الحق فى التعيين ، أليس كذلك » ؟

وكان محتما علينا أن نرد بالايجاب ، فليس « لمجموعة أولبريخت » من الناحية الرسمية سوى تقديم الاقتراحات لشغل مناصب الادارة الألمـــانية • غير أنه من الناحية العمليـــة أن الحكمداريين الروسيين وافقوا بسرعة على اقتراحاتنا • وهكذا واتتنا الشجاعة لاتخاذ القرار ، سوف نشرح الموقف ببساطة للحكمدار الروسى ونقترح عليه تكوين ادارة ألمـــانية وعزل الروسيين •

قدمنا أنفسنا الى الحكمدار كـ« ممثلين لمجموعة أولبريخت » ولكنه على خلاف العادة مع الحكمداريين حتى ذلك الحين — لم يدعنا للجلوس بل باغتنا بسؤال بطريقة باردة : « ماذا تريدون هنا » ؟

« لا تؤاخذنا •• لقد شرحنا لك أننا أعضاء فى « مجموعة أولبريخت » التى هى مكلفة بأمر من الجنرال « جلادشيبف » بمعاونة الحكمداريين الروسيين فى تكوين الجهاز الادارة الألمـــانى • هل عندك علم بوجود « مجموعة أولبريخت » ؟

ـ « نعم .. علمت بذلك ، ولكن عندنا الآن ادارة ولا نحتاج الى مساعدتكم » لا زلنا واقفين ، بدا أنه حكمدار صعب جدا .

فعلنا كما يفعل المرء غالبا فى مثل هذه الأحوال ـ أشعلنا السجائر .

ـ « لم أسمح لكم بالتدخين ، فمن المعتاد فى الجيش طلب الاذن للتدخين من الضابط ذى الرتبة الأعلى ، قبل أن تشعل السيجارة » .

لم أسمع مثل هذه النغمة منذ سنوات عديدة ـ منذ أيام « كاراجندا » لا نستطيع أن نفعل شيئا فى هذه اللحظة ، فالحق فى جانبه من الناحية النظرية .

أطفأنا سجائرنا بعصبية ، وركزنا جهودنا فى مشكلتنا .

ـ « نرجو أن تفهمنا أيها الرفيق الحكمدار ، لقد تأكدنا أن ادارة حى « كرويتسبرج » من الروسيين فقط ، بينما المفروض أن تكون الادارة فى برلين من الألمـــانيين المناهضين للفاشية والديمقراطيين » .

لم يتأثر أدنى تأثر بشرحنا هذا .

ـ « أنا أعمل مع هذه الادارة بطريقة ممتازة جدا ، فهم يفهموننى وأنا أفهمهم ، فهم ـ على الأقل ـ لا يتكلمون هذه اللغة الألمـــانية ، لغة الكلاب التى لا يفهمها أى انسان . أما ما يتعلق بماضيهم فلا شأن لى به ، فأنا أتصرف كما يجب بالضبط وبحذر » .

لم نستسلم وكررنا معارضتنا ، ولكن لم نصل الى نتيجة ، فقال بفظاظة : « ان من واجبكم المساعدة فى تكوين الادارة ، وعندنا الآن فى « كرويتسبرج » ادارة ، حلت التزاماتكم على أحسن وجه . عينتها بنفسى وأعمل معها على أكمل وجه وأعتقد أن المسألة قد حلت بهذا حلا ممتازا ، فلم يعد هناك ضرورة لمساعدتكم » .

لم نرتبك أيضا بل أخرجنا البطاقات الشخصية الموقع عليها من الجنرال « جلادشييف » ووضعناها على المنضدة على نحو مكنه من قراءة ما كتب فيها فقال بنغمة ودية :

« حسنا .. أنا مستعد أن أجعلكم تسلمون بهذا ، فستعقد الادارة اجتماعـــا معى بعد بضعة دقائق ، يمكنكم أن تحضروا هذا الاجتماع لتقتنعوا بأنفسكم بما تقوم به ادارة الحى » .

قبلنا الدعوة ، فأصبحت عندنا فرصة نادرة ، حضور اجتماع ادارة ألمـــانية ذاتية والتفاهم فيه باللغة الروسية .

تأكدنا بعد نصف ساعة أن ادارة الحى تبذل فعلا مجهودا كبيرا ؛

فقد قدم رؤساء الأقسام تقريرات مختصرة وموجزة جدا عن ازالة الأنقاض وتوزيع المواد الغذائية ، حالة المدارس ، تعزيز المستشفيات — كانت المسألة الاخيرة مهمة جدا بالنسبة لنا .

فبعد أن انتهى رئيس قسم الشئون الصحية من تقريره ، اتجه الى الحكمدار مترددا قائلا :

« أحب أن أقترح اقتراحا خاصا ، ولكنه يتعلق بمسألة غريبة » .

— « لا توجد مسائل غريبة ، فنستطيع أن نتحدث عن كل شيء بحرية ووضوح ، فقل ما عندك ، فنحن نجتمع هنا لنتخذ الاجراءات اللازمة فى هذه الحالة ، كى نعيد الحياة العادية ، فتحدث من فضلك » .

— « تدور المسألة حول العلاقة التى تنشأ بين الجنود الروسيين وبين النساء فى برلين ، فهذه الظاهرة تتسع بسرعة فظيعة ، لقد تحدثنا عنها فى الاجتماع السابق » .

— « ولماذا تعاود الحديث عنها ؟ لقد قلت لك أننى سأتخذ كل ما يلزم للتصدى لهذه الظاهرة ، وأنت تعلم أننى اذا جاءتنى شكوى ، سأسرع بارسال أحد معاونينا ، فاذا ثبتت جريمة فسوف يعاقب مرتكبها . ولكنك ترى أننى بهذه القوة الصغيرة من المساعدين — فى وضع لا يمكننى من ايقاف هذه الظاهرة فى أيام قليلة » .

— « سيدى الحكمدار .. لا أحب أن تفهم من اعادتى للكلام فى هذا الموضوع فهما سيئا عنى ، فأنا بوصفى طبيبا ورئيس قسم الشئون الصحية فى الحى يجب على أن أتوقع انتشار الأمراض ، ولذا أقترح أن تنظم هذه العملية تحت اشراف صحى » .

نظر اليه الحكمدار بدهشة : « كيف ترى هذا » ؟

— « يمكننا أن نقيم أماكن لهذا الاتصال تحت اشراف قسم الشئون الصحية فى الحى — وعندنا قوة كافية لتجنيدها فى هذا العمل — وبهذا نتقى الخطر فى الناحية الصحية فى حينها » .

فقال الحكمدار غاضبا :

« اذن فهو نوع من بيوت الدعارة تحت رئاســـة قسم الشئون الصحية » ؟

حاول الطبيب شرح وجهة نظره ولكن بدون فائدة .

— « لا يعرف الجيش السوفييتى بيوت الدعارة ، ولن نقيم مثل هذا مطلقا ، فلو لم أعرف أنك موظف كفء ومجتهد فى عملك ، لاعتبرت

اقتراحك استفزازا ، بل اهانة لشرف الجيش السوفييتى • أنا أعتبر هذه المسألة منتهية ، ولا أريد ذكرها مرة أخرى • ننتقل الى النقطة التالية » •

امتدت الجلسة ساعتين أخريين تقريبا ، وفى أثناء ذلك فكرنا — « فريتس أربن بيك » وأنا — فيما يمكن عمله لنمهد لالغاء الادارة المدنية الروسية فى « كرويتسبرج » •

قدمنا تقريرا عن الوضع فى مساء ذلك اليوم فى « بروخميلى » ، فدون ضابط الاتصـــال الروسى الذى يشترك دائما فى جلســـاتنا كل الملاحظات عن هذا الموضوع ، ثم وعدنا قائلا : « سوف نحاول التأثير على الحكمدار » ولكن الحكمدار العســكرى فى « كرويتسبرج » ظل متمسكا برأيه ولم يصغ لأى كلام وجه اليه — حتى من الادارة السياسية الرئيسية التى كان لها سطوة فى تلك الأيام من شهر مايو سنة ١٩٤٥ م •

ومرت أسابيع أخرى حتى حصل حى « كرويتسبرج » على ادارة ألمـــانية ، ولم أعلم من حل هذه المشكلة ، من استطاع أن يضع البندقة فى الكسارة • ولم أتبين فى مثال « كرويتسبرج » فقط عجز الحكمداريين عن مواجهة الحشود من سكارى الجنود السوفييت المزعجين ، المتحررين من كل رقابة ، بل أيضا عجز الادارة السياسية الرئيسية أمام جنود الجيش الأحمر الخارجة عن النظام ، وكذلك أمام تصرف الحكمداريين الدكتاتوريين •

❋ ❋ ❋

« شبالينجر » الحكمدار المريض

لم تكن « كرويتسبرج » البندقة الوحيدة المستعصية ، التى وجب علينا وضعها فى الكسارة • كانت الحالة الثانية أكثر اثارة وتسببت فى مفاجآت متتالية ، وفى اثارة محوجة من الشك والارتياب • كانت هذه هى حالة « شبالينجر » •

بدأت حالة « شبالينجر » بحادثة طريفة — لم يلتفت الى ما تحدثه من آثار — فى اليوم التالى من عملنا فى برلين فقد خفف « هانز مالى » من صلابة الجو فى الجلسة الأولى بحكاية حدثت فى حى « راينيكيندورف »

« تصوروا ! •• فتح الروسيون مستشفى الأمراض العقلية فى « فيتيناو » وأطلقوا سراح كل من فيه ، وفى أثناء تجولى بالسيارة فى

انحى مررت على مستشفى الأمراض العقلية مصادفة فوجدت بعض جنود الجيش الأحمر يقتحمون الباب ويصيحون فى المرضى : « تحطم هتلر » وانتهت الحرب ، فأنتم أحرار ! لم يتحرك المرضى بل نظروا اليهم مكتئبين ، ثم انضمت مجموعة أخرى من الجـنود الى المجموعـة الأولى ، وصاحوا فيهم من جديد « الحرب انتهت .. حرية ! » فاستمر المرضى فى سكونهم فغضب الجنود وأخرجوهم من المستشفى ، وأغلقوا الباب وراءهم وعينوا أمامه حارسا . ثم مررت هناك بعد الظهر فوجدت جنديا سوفييتيا مدججا بالسلاح ، واقفا أمام باب المستشفى ووقف حوله المرضى وهم يصيحون : « نريد الدخول » فيجيبهم الجندى وهو يطردهم بعيداً عن الباب :

« الآن حرية ! لقد تحطم « هتلر » » .

وبعد بضعة أيام وقعت حوادث غامضة فى أحياء مختلفة ، فقد وجه الينا مرارا وتكرارا هذا السؤال :

« هل معكم أمر تكليف من « شبالينجر » ؟

تساءل « أولبريخت » عندما علم بهذا الخبر : « شبالينجر » ! من هو « شبالينجر » ؟

ظهر اسم « شبالينجر » فى بادىء الأمر فى الأحياء الشمالية فقط ثم انتشر بعد أيام قليلة فى مختلف أحياء برلين ، تحدث الناس فى « تربيتوف » وفى « راينيكيندورف » وفى « ليشتينبرج » . وكان اسم « شبالينجر » معروفا حتى فى حى « تسيليندورف » .

وقفنا أمام لغز ..

راجعنا كل قوائم أسماء المناهضين للفاشية ، فلم نجد فيها اسم « شبالينجر » .

فطلبنا من الرفقاء المتقدمين فى السن أن يعصروا ذهنهم ، ويحاولوا أن يتذكروا ، عما اذا كانوا قد سمعوا مرة باسم « شبالينجر » ، فلم يتذكر أحد هذا الاسم .

قال « أولبريخت » :

« اذا ذهبتم غدا الى الأحياء ، فاهتموا بالبحث عن « شبالينجر » فاذا سمعتم أحدا يتحدث عنه ، فتتبعوا الخيط حتى تصلوا الى نهايته » .

كنت سىء الحظ فى هذا المجال ، فلم يصل اسم « شبالينجر » الى حيى ، وكنت دائما متشوقا الى سماع التقارير فى المساء عن هذا الحادث .

عندما اجتمعنا فى المساء سأل « أولبريخت » :

« والآن •• ماذا سمعتم عن « شباالينجر » ؟

فقال « جيبتنر » بصوت متهدج :

« لغز غامض جدا ، فعندما سألت عنه قيل : ان « شبالينجر » هو حكمدار برلين » •

وعقب انتهائه من التلفظ بهذه الجملة مباشرة ، انطلقت الأصوات من كل جانب :

— « هذا ما سمعته بالضبط » •

— « لقد صادفت هذا أيضا » •

دون السكرتير وكذلك ضابط الاتصال الروسى كل هذه الملاحظات •

تملكتنا الحيرة ، ماذا حدث ؟ « شبالينجر » حكمدار برلين ؟

فقد كنا نعلم جميعا أن حكمدار برلين هو الجنرال « بيرزارين » •

لم يبق أمامنا سوى الاستمرار فى البحث ، فمهمتنا الآن مضاعفة بناء الجهاز الادارى الديمقراطى فى الحى ، وبجانب ذلك البحث عن الحكمدار الثانى الذى يدعى « شبالينجر » •

تحولت قضية « شبالينجر » فى اليوم التالى تحولا لم يتوقعه أحد قبل ذلك ، فقد ظهرت أوامر مطبوعة فى ادارة بعض الأحياء ، جاء فيها — وأكتب ذلك من الذاكرة — :

الى سكان برلين ••

باسم العمـــال ، وباسم المجلس العسكرى أتولى السلطة فى برلين ! أصدر الأوامر التالية :

١ — القبض فورا على كل أعضاء الحزب النازى ومؤسساته •

٢ — ترفع الى شخصيا تقارير عن عملية القبض باستمرار •

٣ — تنظيف الشوارع ، تشغيل شبكة الكهرباء والغاز والمـــاء فورا ، ينفذ توزيع المواد الغذائية طبقا لتعليماتى •

ومن لم ينفذ أوامرى ستوقع عليه عقوبة صارمة ••

حكمدار برلين

توقيع « شبالينجر »

اشتدت حمى البحث عن الحكمدار المعارض ، ذى اللغز المحير • تسببت أوامره فى آثار مدمرة ، اذ أصبحت الادارة الجديدة فى حيرة من أمرها ، هل تنفذ أوامرنا أم أوامر « شبالينجر » فقلنا لهم يجب أن يهتموا بالضروريات الملحة للشعب : تنظيف الشوارع ، تشغيل شركة الكهرباء ، وتصليح مواسير المياه • ولكن قبل كل هذا تنظيم توزيع المواد الغذائية ، أما « شبالينجر » فقد كانت أوامره على الضد من ذلك اذ جعل فى المقام الأول « القبض على النازيين » •

بدا على بعض الادارات الجديدة أنها ترى أن أوامر « شبالينجر » أحسن من تعليماتنا ، فأنشأوا قسما خاصا ، وسجلوا فيه بحماس شديد أسماء النازيين • وبدا للمرء أن انهماكهم فى هذا العمل لم يدع لهم وقتا آخر للقيام بالأعمال الأخرى ، وانطلقت أصوات الآلات الكاتبة دون انقطاع ، واستمرت قائمة الأسماء فى ازدياد مطرد •

لم يستمر أثر « شبالينجر » وقتا طويلا • فبعد أيام قليلة عاد الينا أحد الرفقاء متوترة أعصابه : « عثر على « شبالينجر » •

فصدرت صيحات من كل جانب : « أين ؟ ومن هو » ؟

استطاع مكتشف « شبالينجر » حكاية القصة بصعوبة من كثرة الضحك : « هو من فيتيناو »(١) •

— « من فيتيناو ؟ وما هى وظيفته » ؟

« ليس له وظيفة ! « شبالينجر » كان نزيل مستشفى الأمراض العقلية فى « فيتيناو » وكان ضمن المجموعة التى أخرجتها جنود الجيش الأحمر من المستشفى » •

— « وما هى حكاية الأوامر المطبوعة » ؟

— « بسـيطة جدا ، عندما طرد « شبالينجر » مع المجانين من مستشفى الأمراض العقلية ، تسكعوا فى المنطقة فاكتشفوا غير بعيد من المستشفى مطبعة سليمة لم تصبها قنابل الحرب فدخل « شبالينجر » الى المطبعة وأملى هناك — ويبدو أن ذلك كان فى ذاكرته من الوضع فى عام ١٩١٨ م — أوامره ، فطبعت فى الحال ووزعت » •

ضحكنا كثيرا على حل اللغز المحير ولكننا كنا مشغولين بالعمل

---

(١) حى فى برلين له معنى ومغزى حى العباسية فى القاهرة ، فيمكن أن يفهم السامع أنه من سكان الحى ، كما يمكن أن يفهم أنه من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية الموجودة فى الحى • م • شامة •

لدرجة أننا لم نعد نهتم بمسألة « شبالينجر » ، ولم نسمع الا فيما بعد عن طريق الأشاعات — ولا يستطيع المرء سوى أن يأمل ألا تكون صحيحة — أن الروسيين ألقوا القبض على « شبالينجر » ، ثم سلموه للانجليز الذين احتلوا « راينيكيندورف » بعد ذلك بوقت قصير ، ثم بعد أن انتقل الحى الى يد الفرنسيين ، أودع « شبالينجر » فى السجن •

* * *

القيادة العامة فى شارع برينسين رقم ٨٠

تلقينا فى صباح أحد أيام الأسبوع الثانى من مايو هذا الأمر : لا ترجعوا بسياراتكم اليوم الى « بروخميلى » بل الى برلين حى « ليشتينبرج » شارع « برينسين » رقم ٨٠ ، فقد أخلى منزلا لكم هناك •

كانت قيادتنا العامة فى منتصف الطريق بين محطتى مترو الأنفاق « ليشتينبرج » و « فريدريشفيلد » • كان مبنى ضخما جديدا أوسع من منزلنا فى « بروخميلى » حصل كل واحد منا على حجرة فيه واستعمل الدور الأرضى للمكاتب فأخذ العمل صيغة منظمة •

وانضم الينا سكرتيرات ومختزلات ، لأن العمل يتسع كل يوم ويكبر •

كلفت بالسفر مرارا مع « أولبريخت » الى « كارلهورست » حيث كان يناقش معنا ممثلون من أركان حرب المـــارشال « شوكوف » ما قمنا به من منجزات بالتفصيل • وعلى الرغم من أن « أولبريخت » — بالنسبة لـ« فيلهيلم بيك » يعرف الروسية جيدا فقد كان لزاما على أن أترجم له ، ومن المحتمل أيضا أن الضباط الروسيين كانوا يجيدون اللغة الألمـــانية ، ولكنهم أخذوا عملية الترجمة لتتيح لهم وقتا للتفكير فى الاجابة أثناء قيام المترجم بترجمة السؤال •

وذات يوم دعينا للدخول الى صالة كبيرة بعد حديث طويل وقيل لنا : « مارشال شوكوف ، يريد أن يتحدث معكم » •

تبادل مارشـــال « شوكوف » التحية مع « أولبريخت » بطريقة

عرفت منها أن هذه المقابلة ليست الأولى بينهما • وقدمنى « أولبريخت » بوصفى من العاملين معه ، ثم دعينا للجلوس • توقعت محادثة سياسية ولكن لم نتحدث فى هذه المقابلة فى السياسة الا قليلا •

سأل المارشال « شوكوف » « أولبريخت » عما اذا كانت زوجته لا زالت فى موسكو ، ومتى ستصل الى برلين ، واستمر الحديث أيضا حول مسائل خاصة ، وبعد ربع ساعة بدأ « شوكوف » حديثه فى موضوع آخـــر :

« حدثت بعض الحوادث فى برلين فى الأيام الأخيرة توحى بأن هناك — وان كان ذلك ليس قويا — نشاطا للنازيين • وأعتقد أنه يجب على الرفقاء الألمـــانيين أن يكونوا أكثر يقظة لهذا الجانب » •

دافع عنهم « أولبريخت » :

« أيها الرفيق « شوكوف » •• وجدت حالات كثيرة ، أبلغ الرفقاء فيها الحكمداريين عن نشاط للنازيين • ولكن الحكمداريين كانوا يفرجون عن المبلغ عنهم بسرعة » •

فقال « شوكوف » : « هذا أمر مهم ، سوف أستعلم عن ذلك حالا » •

رفع السماعة وطلب الجنرال « سيروف » الذى كان مسئولا آنذاك عن شئون الأمن فى برلين ، وتولى فيما بعد رئاسة مجلس أمن الدولة فى الاتحاد السوفييتى •

بدأ حديثه فى التليفون بقوله :

« عندى الآن الرفيق « أولبريخت » ، ثم شرح له ما أخبره به « أولبريخت » •

ثم بعد برهة صمت والسماعة على أذنه قال :

« نعم •• نعم •• فهمت ، حسنا ! » ثم انتهت المكالمة ، ولكن « شوكوف » لم يقل لـ« أولبريخت » ما رد به « سيروف » ، غير أنه ألقى سؤالا لم أكن أتوقعه فى هذه اللحظة :

« ماذا حدث فى اصلاح التعليم ؟ هل انتهيتم من المشروعات ؟ هل بدأتم بأى استعدادات فى هذا الاتجاه » ؟

ظهر الارتباك على وجه « أولبريخت » وظهر لى من اجابته أنه لم يحدث شىء فى هذا المجال أكثر مما وضع فى موسكو من خطط وبرامج قبل حضورنا الى ألمـــانيا •

فقال « شوكوف » :

« أعتقد أن هذه المسألة مهمة جدا ، ومن الأفضل أن يبدأ الرفقاء الألمـــانيون فى هذا المجال بسرعة » •

لم تهمل اشارة « شوكوف » ، فتعيين « أوتوفينسر » — ومما لا شك فيه أن « أولبريخت » يعتبره أقوى شخص فى مجموعتنا — رئيس شئون التعليم فى مجلس بلدية برلين — بالاضافة الى أشياء أخرى — راجع الى هذه الاشارة •

كبرت مجموعة « أولبريخت » عن طريق انضمام قياديين من الحزب الشيوعى الألمـــانى اليها ، وهم من الذين كان « أولبريخت » يعرفهم من عهد نشاطه السابق :

١ — قابلنا فى بريتس « رومان شفاليك » وكان يبلغ من العمر آنذاك ٤٧ عاما • كان من زعماء نقابة العمال فى « أوبيلن » سنوات عديدة ، ثم عضو فى البرلمـــان الألمـــانى من عام ١٩٣٠ الى عام ١٩٣٣ م •

٢ — ووصلت فى نفس الوقت سيارة نقل تحمل بعض القياديين الذين لا زالوا على قيد الحياة من ليمان « براندينبرج » وكان من بينهم واحد يدعى « فالديمار شميت » انضم الى مجموعتنا فورا ، وأصبح فيما بعد رئيس شرطة برلين الشرقية ، ويتولى الآن منصب نائب العمدة •

٣ — « هانزيندرتسكى » ، جاء الى برلين من غرب ألمـــانيا ، مخترقا كل الحواجز ، حتى وجد طريقه الينا ، تولى فيما بعد رئاسة « رابطة النقابة العمالية الحرة » سنوات عديدة ، والسكرتير الأول للاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى برلين الكبرى •

٤ — « أوتومار جيشكى » ، كان عمره آنذاك ٦٣ عاما • عضو فى الحزب الشيوعى الألمـــانى منذ أوائل العشرينات ، وعضو فى اللجنة العليا لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٣٢ م • وقضى اثنى عشر عاما فى معسكرات الاعتقال أثناء حكم « هتلر » استقبلوه بحرارة ، وأسند اليه فى نفس الوقت عملا جديدا •

أبدى هؤلاء الجدد — الذين جاءوا من الليمانات أو من معسكرات الاعتقال بعد أن قضوا فيها سنين طويلة — استعدادهم للقيام بما يكلفون به من أعمال دون أن يأخذوا فترة راحة مما قاسوه فى هذه السجون •

غرقنا فى العمل لدرجة أننا لم نلحظ تسليم ألمـــانيا الهتلرية ،

واحتفالات النصر التى أقامتهـا القـوات السوفييتية • فقد كلفنا « أولبريخت » فى ذلك اليوم بالذات بمهمات جديدة •

يجب أن تترك ادارة الأحياء جانبا بصفة مؤقتة ، اذ يجب علينا الآن تكوين ادارة لكل أنحاء برلين ، فلها الأولوية الآن ، ولو اقتضى الأمر الى سحب أشخاص من ادارات الأحياء ووضعهم للعمل فى ادارة المدينة •

فسألنا : « هل ينبغى على كل فرد فينا المشاركة فى هذا العمل » ؟

ــ « لا •• ليس هذا ضروريا ، يكفى أن يركز « مارون » و « جيبتنر » جهودهما فى هذا العمل ، فاذا لزم الأمر استدعى آخرون للعمل معهما » •

وعندما وجه الينا « أولبريخت » هذه التعليمات الجديدة ، اعتقدنا أن عملنا هذا لن تكون له نهاية : سوف نغير عملنا الآن فى مساندة ادارة الأحياء •

يجب أن نركز أنفسنا كلية فى أحياء شمال غرب ، وجنوب غرب ، وغرب برلين • اذ من المنتظر وصول الحلفاء الغربيين بعد شهر تقريبا • وحتى ذلك الحين يجب أن تكون ادارات الأحياء التى سيتسلمونها من القياديين المخلصين » •

ــ « هل أستطيع أن أذهب بضعة أيام أخرى الى الأحياء الشرقية ، فذلك أمر ضرورى » قدم هذا الرجاء واحد منا يظهر أنه وقع فى علاقة غرام فى حيه الذى اشتغل فيه حتى الآن •

ــ « لا •• لا يمكن هذا اطلاقا ، فابتداء من اليوم ، لن يذهب أحد الى برلين الشرقية ، فلدينا فيما بعد وقت كاف لذلك » •

وهكذا بدأنا عملنا فى الأحياء التى سيتسلمها فيما بعد الأمريكيون والانجليز والفرنسيون • كان فى استطاعتنا فى كل مكان الحصول على « عاملين نشطين » وتنحصر واجباتنا الآن فيما يلى : تدعيم ادارات الأحياء التى كونت سابقا وحل المشكلات التى تظهر فى الادارات عند الحكمدار ، والقيام بعمل تغييرات وتعديلات هنا وهناك ، وتبديل القوى الضعيفة بقوى أشد صلابة •

كنت دائرا طوال اليوم « كالمكوك » وتعرفت على عشرات من الناس فامتلأت مفكرتى بعناوين المناهضين للفاشية من مختلف الاتجاهات وكذلك أيضا بأسـماء الأخصائيين فى الشئون الاداريــة ، والفنية ، والمهندسين •

كان جزءا فقط من مجموعتنا مشغول — بجانب العمل العادى — بالتجهيز لتكوين ادارة المدينة • عقد « أولبريخت » اجتماعات متعددة لبحث هذا الموضوع مع « مارون » و « فينسر » و « جيبتنر » • كذلك سحب « مالى » و « ماتيوس كلاين » اللذين انضما فى هذه الأثناء الى « مجموعة أولبريخت » — من العمل فى ادارات الأحياء •

سمعنا منهما ذات يوم أنهما أثناء سيرهما فى حى « تيجيل » عثرا على اذاعة ، وفى « شارلوتينبرج » شارع « مازورين » على مركز اذاعة برلين • ويجب أن نهتم بها لنبدأ بث برنامج اذاعى — ثم وجهت العواصف فى الجلسة الينا ، حتى قال « أولبريخت » : « حسنا •• فلتبدأوا » •

فهم « مالى » و « كلاين » أن ذلك « تفويض عام » • وبعد يومين اقتحم « أربن بيك » حجرتى فى الصباح وقال لى :

« سيبدأ العمل ظهر اليوم » •

فسألته والنوم لم يزل فى عينى : « ماذا » ؟

— « الاذاعــة طبعا » •

كان « مالى » و « كلاين » قد سحبا « أربن بيك » معهما فى الاذاعة •

— « ومالى بهذا » ؟

— « ينبغى أن تكتب النصوص للاذاعــة الأولى ! فـ« مالى » و « كلاين » مشغولان جدا مع الناس فى الاذاعة فى شارع « مازورين » لدرجة أنهم لا يستطيعون كتابة النصوص ، ويجب علينا — نحن الاثنين — تجهيز شىء وارساله فى الساعة الحادية عشرة الى الاذاعة » •

وهكذا أملى « أربن بيك » بالاشتراك معى على عاملة الاختزال عندنا نصوصا لاذاعة برلين • كان أمامنا آخر عدد من جريدة « برافدا » — لم يوجد آنذاك شىء آخر — فأخذنا منه أخبارا ترجمتها بأسلوب ديمقراطى مناهض للفاشية •

ثم سمعنا ظهرا أول اذاعة من راديو برلين • وفى اليوم التالى لم نعد بحاجة الى كتابة النصوص بأنفسنا ، فقد أخبرنا « مالى » أن كل الجهاز الاذاعى موجود • وأبدى جميع الأشخاص استعدادهم للعمل مستقبلا فى الاذاعة طبقا « للمقتضيات الجديدة » •

استمرت اعادة تشغيل الاذاعــة بواسطة « مالى » و « كلاين » أسبوعا تقريبا دون أن ينتبه أحد لذلك حتى هدر « أولبريخت » ذات يوم :

— « ماذا حدث ؟ أعطانى الأصدقاء السوفييت اليوم خبرا من راديو برلين استأنفت بث ارسالها فعلا قبل بضعة أيام » •

فدافع « مالى » عن نفسه : « ولكن •• لقد أخبرتك بذلك من قبل » •

فقال « أولبريخت » :

« آه •• حسنا ! فطبقا لما ورد فى اذاعة لندن ، يبدو الأمر الآن اوضحا ، فقد قيل ان اذاعة برلين قد تخلت عن كل دعاية شيوعية وتبث ارسالها الآن فى ثوب مناهض للفاشية • ولكن يجب عليكم فورا الاتصال بأصدقائنا الروسيين » •

وعد « مالى » و « كلاين » بذلك • وأصبحت الاذاعة « شيوعية » تقريبا • وبذلك فقدناهما فى عملنا فى ادارة الأحياء الى ما لا نهاية ، فقد ظلا فى الاذاعة ، ولم تكن مفاجأة لنا عندما عين — بعد وقت قصير — « هانز مالى » رئيسا لهيئة اذاعة برلين ، و « ماتيوس كلاين » رئيسا لقسم شئون العاملين فيها •

انعقد كل يوم أحد — بالاضافة الى الاجتماعات اليومية — قبل الظهر مؤتمر عام • اشترك فيه عدد من القياديين العاملين فى الحزب الشيوعى يتراوح بين ٨٠ ، و ١٠٠ شخص ، وكان معظمهم يعمل فى الادارات •

وهكذا كنا نحصل فى كل يوم أحد على صورة كاملة عن الوضع فى برلين ، فبعد أن يلقى القيــاديون تقــاريرهم عن أحيائهم • يعطى « أولبريخت » تعليماته •

كانت جلسات هذا المؤتمر عموما جادة وواقعية ، غير أنه فى أحدها تخلل الاجتماع ضحكات عالية ، حينما كان أحد القياديين — وكان كبيرا فى السن يتكلم بالرطانة الحزبية الأصيلة التى كانت سائدة فى العشرينات — يقدم تقريرا عن العمل فى ادارة الحى ، فلم يذكر كلمة عن نشاطه الخاص ، فسأله « أولبريخت » :

— « ماذا تعمل أنت ؟ أنت تتحدث باستمرار عن الآخرين ، وأنت بأى عمل تقوم » ؟

— « أنا رئيس الشئون الدينية » •

أصيب الجميع بدهشة •

— « وما دخلك فى هذا » ؟

— « هذا واضح أيهــا الرفيق « أولبريخت » ! فعندما وزعت

المناصب أخذت هذا المنصب لنفسى طبعا ، يجب أن يكون هناك شخص يراقب ما يفعله رجال الدين ، اذ يوجد بينهم بعض المـــاكرين » .

ضجت القاعة بالضحك ، ولكن « أولبريخت » كان غاضبا :

« يجب أن تستقيل حالا ، فلا يعين فى هذا المنصب الا « قس » ، ويجب علينا الآن أن نعمل مع القوى التقدمية فى الكنيسة ، ولن نسمح لك بأن تخرب سياستنا الدينية » .

هدأت القاعة بعد أن قال « أولبريخت » هذه الكلمات الحادة . فنظر الرفيق العامل فى حى « فيدينج » حوله حائرا متسائلا ، فلوحظ أنه لم يفهم ما حدث أمامه ، اذ لم يستطع ادراك تعبير « القوى التقدمية فى الكنيسة » .

رأى « أولبريخت » أنه ليس من الضرورى أن يشرح الخط السياسى باختصار للقيادى العامل فى حى « فيدينج » واقتصر على التعنيف القاسى .

وكان الحادث المفاجىء الثانى أكثر عنفا ، فقد اندلعت من كثيرين من قياديى برلين ذات يوم معارضة مباشرة وواضحة ضد « أولبريخت » .

اقتربت مناقشة يوم الأحد من نهايتها ، فقد انتهى عرض التقارير واعطاء التعليمات للادارات .

— « هل يوجد سؤال آخر » ؟

فقال رفيق كان يجلس فى احدى زوايا الصالة فى آخر صف :

« نعم .. هنا ! لقد سأل أحد الأطباء المناهضين للفاشية عندنا هذا السؤال : كيف يتصرف لو جاءته امرأة تعرضت لجريمة هتك العرض بالقوة ، وتريد اسقاط الجنين الذى جاء نتيجة لهذا ؟ لقد وعدته بأنى سوف آتيه بالرد ، ونرى نحن من ناحيتنا أن الموقف واضح فى مسألة الاجهاض فى مثل هذه الحالة » .

فأيده آخرون فى هذا الرأى :

— « هذه المسألة ملحة جدا ، ففى كل مكان يتحدث الناس عن هذا الموضوع ، ويجب علينا أن نعطى رؤساء الشئون الصحية خطا صحيحا وواضحا . ومن وجهة نظرى أنه يجب السماح رسميا بالاجهاض فى كل هذه الحالات » .

لم نسمع فى الصالة الا أصواتا مؤيدة لهذا الرأى .

قطع « أولبريخت » المناقشة وصاح بنغمة حادة :

— « هذا لا يمكن اطلاقا •• أنا أقفل باب المناقشة » •

غير أن الشيوعيين فى برلين فى مايو ١٩٤٥ ، لم يرضوا بالاستسلام المطلق ، واعتبروا المناقشة مستمرة ولم تنته بعد •

ولأول مرة فى حياتى أشهد ما لم أعتقد من قبل أنه ممكن الوقوع : صيحات معارضة مكشوفة ضد قيادى من أعلى طبقات الحزب :

« لا تعالج المسألة بهذا الأسلوب ، يجب أن نناقشها » •

« يجب علينا أن نتخذ موقفا من هذه المسألة » •

« يجب أن نعطى العاملات الحق فى الاجهاض » •

« لا يمكننا أن نتهرب دائما من كل المسائل المزعجة » •

كان « أولبريخت » واقفا على المنصة مقطب الجبين • تحدث واحد بعد آخر ، لم يعد الأمر قاصرا فقط على السماح بالاجهاض ، بل طلبه البعض بأنه يجب أساسا اتخاذ موقف واضح وصريح من تعدى الجنود السوفييت : لا يجوز التهرب بعد ذلك بل يجب علينا بوصفنا شيوعيين ألمانيين التبرؤ — على الأقل — من هذه الأعمال ، واذا تطلب الأمر معارضتها أيضا علنا •

وأخيرا عندما هدأ الغضب — بدأ « أولبريخت » فى الكلام فقال بصوت جاد :

« أكرر •• انتهت المناقشة فى هذا الموضوع ، ومن المستحيل من ناحيتنا السماح بالاجهاض كرخصة لازالة ما نتج عن جرائم الاغتصاب • وهؤلاء الذين يثورون اليوم على هذه الحوادث ، كان يجب عليهم أن يثوروا عندما بدأ هتلر بالحرب ولن نتراجع عن هذا الرأى مطلقا ، فأنا أعتبر أن هذه المسألة منتهية ولن أسمح بالكلام فيها مرة أخرى • وانتهى الاجتماع » •

انفض المشـــتركون فى هذا الاجتمـــاع غاضبين متذمرين • كان الحاضرون من الشيوعيين « البرلينيين » متعودين على نظام الحزب الصارم سنين ، بل عشرات السنين ، غير أنه كانت عندهم الشجاعة الكافية للمعارضة ، ولكنها لم تكن كافية للوقوف أمام أوامر الحزب ، فلم تذكر هذه المشكلة الغريبة فى أى اجتماع بعد اليوم •

* * *

المهمـــات الخاصـــة

قيــل لى ذات صــباح : يجب أن نســافر اليــوم الى حى « راينيكيندورف » فاترك كل ما فى يدك الآن » !

— « ماذا حدث » ؟

— « لا أدرى •• انزل حالا الى المكتب لمقابلة « أولبريخت » وضابط الاتصال السوفييتى ، فسوف يقولان لك كل شىء » •

شرح لى ضابط الاتصال السوفييتى :

« المســألة تتعلق بالآتى : ظهــر فى حى « راينيكيندورف » « تروتسكيون » ، اذ يوجد فى وسط الشيوعيين فى هذا الحى ميول نحو « التروتسكية » •

كنت متحيرا بدرجة لا تصور ، الآن ! فى مايو ١٩٤٥ ، وبعد أسابيع قليلة من هزيمة الفاشية الهتلرية ، حيث يوجد لدينا أسس شعبية قليلة جدا لبناء الكيان الوجودى ، أكلف أنا بالذات بالبحث عن « تروتسكيين » مجهولين • أردت أن أســأل عما اذا كان من الممكن الانتظــار على « التروتسكيين » حتى غد • ففاجأنى ضابط الاتصال السوفييتى بقوله : « هذه المسألة فى غاية الأهمية ! اذ تهتم بها أعلى المستويات • وينبغى أن أقدم تقريرا عنها بعد ظهر اليوم » •

وبعد دقائق كنت أجلس مع ضابط الاتصال السوفييتى فى العربة فى طريقنا الى « راينيكيندورف » لم أكن مهتما داخليا بهذه المسألة على الاطلاق ، فلو كانت هناك مطاردة لكانت مطاردة زعيم نازى عندى أفضل من مطاردة « تروتسكى » ، وهكذا فكرت فى الطريق لوضع خطة لحل هذه المسألة بأسرع ما يمكن دون أن نخلف آثارا سيئة •

« ربما كان من الأفضل أن أتحدث وحدى أولا مع الرفقاء فى ادارة الحى » •

وافق الضابط السوفييتى على ذلك •

وصلنا الى ادارة حى « راينيكيندورف » فتوجهت مباشرة الى نائب العمدة ، لأننا عينا فى هذه المناصب فى جميع الأحياء رفقاء نشطون ، ولأننى كنت أرى من الغباء الذهاب الى حى « راينيكيندورف » للبحث عن « تروتسكيين » ، فقد بدأت معه حديثا عاما عن الوضع فى الحى • ثم قلت له أخيرا :

— « على فكرة .. يوجد موضوع آخر ، لقد سمع الأصدقاء السوفييت بأنه قد ظهر هنا فى « راينيكيندورف » بعض « التروتسكيين » ، وهم مهتمون بالاستفسار عن حقيقة هذا الخبر ، وعلى كل فأنا أشك فى هذا الخبر ، ولكن أردت أن أستعلم عن مدى صحته » .

فقال الرفيق مبتسما :

« آه .. هذه المسألة ! نعم لقد مضى على ذلك الآن أسبوع . اجتمع بعض الرفقاء ، وفى أثناء المناقشة ، ذكر أحدهم اسم « تروتسكى » ولكن تحدث كل المشتركين فى الاجتماع ضد « تروتسكى » .

— « اذن .. أستطيع أن أبلغ بأنه لا يوجد هنا تنظيم « تروتسكى » أو ما يشبهه من منظمات ، ولم تكن هذه المسألة سوى سوء فهم فقط » .

— « طبعا .. لقد كانت حادثة عديمة الأهمية كلية » .

ودعته وانصرفت .

بدا السرور على وجه الضابط السوفييتى ، لأن المسألة قد وضحت ، وقال لى :

« سوف أشرح المسألة فى تقريرى كما وصفتها لى بالضبط » .

فوافقته على ذلك ، ولكن طافت بذهنى خواطر ونحن نقطع طريق العودة ، اذن دار حديث خاص بين بعض الرفقاء ، وظهر اسم « تروتسكى » فى هذه الجلسة ، فوصلت الأخبار الى أعلى المراكز السوفييتية ، فأثارت مثل هذا الاهتمام هناك ، حتى دفع ضابط الاتصال السوفييتى — وهو مسئول سياسى كبير — الى « مجموعة أولبريخت » لبحث هذه المسألة فورا !

كانت « المهمة الخاصة » التالية هامة لدرجة أنى لم أرسل اليها وحدى . ومرة أخرى باشر الضابط السوفييتى البحث عن هذه المسألة فقال بنغمة رزينة :

« يتعلق الأمر الآن بمسألة هامة وملحة جدا ، فقد وصلت أنباء بأنه هناك فى اذاعة برلين تسجيل لمحادثة « مولوتوف » التى أجراها فى برلين فى خريف عام ١٩٤٠ م ، وتفيد هذه الأخبار بأن هذا التسجيل موجود الآن فى أرشيف سرى فى مبنى الاذاعة فى شارع « مازورين » فى حى « شارلوتينبرج » ، وسوف يتسلم الانجليز هذا الحى ، ولست فى حاجة الى القول بان من المهم جدا ألا يقع هذا التسجيل فى يد الحلفاء الغربيين » .

شغلت هذه « المهمة الخاصة » بالنا جدا ، فوضع كل منا يده على قلبه •

واصل ضابط الاتصال حديثه :

« ولكن أقترح أن يأتى معى حالا اثنان من « مجموعة أولبريخت » لنذهب الى مبنى الاذاعة ، وهناك نبحث مع « هانز مالى » عن هذه الأشرطة ، فلم يعد وجود المـادة فى مكان آمين ، من واجبنا ، بل من المهم العثور عليها » •

أمر « أولبريخت » بأن أقوم أنا و « جيبتنر » بهذه المهمة ، وبعد نصف ساعة كنا سويا مع ضابط الاتصال فى مبنى الاذاعة فى شارع « مازورين » • وعندما أردنا دخول « الأرشيف » منعنا حارس سوفييتى يرتدى الملابس العسكرية • قال لنا باللغة الروسية :

« لا يجوز لكم دخول هذا القسم » •

نجح الضابط المرافق فى الحديث مع الحارس — كان ضابطا ، وعلى ما أذكر ، من جهاز الأمن السوفييتى — محاولا اقناعه ، وأطلعه على أوراقه الشخصية الرسمية ، ولكنه كان متصلبا جدا •

« عندى أوامر بعدم دخول أى انسان فى هذا القسم » •

أسر الضابط المرافق بشىء فى أذنه ، فانتحيا بعيدا عنا لمدة بضع دقائق ، ثم عاد الضابط المرافق وقال :

« انتهى كل شىء ، سنعود أدراجنا ، لا تؤاخذونى على ازعاجكم بهذه المهمة ، ولكنى كلفت بها من مركز خدمتى على أنها هامة وملحة جدا ، لقد سويت المسألة ، فقد عثرت جهة أخرى على التسجيل قبل بضعة أيام ، ونقلته الى مكان أمين » •

لم يكن من الصعب التخمين بمن هى « الجهة الأخرى » وعلى كل حال فقد نفذت المهمـة بسرعة ، وواضح أنها أسرع من الادارة السياسية الرئيسية للجيش الأحمر •

* * *

ميلاد ادارة مدينة « برلين »

« هذه هى حصص المواد الغذائية التى ستوزع ابتداء من ١٥ مايو ويجرى الآن طبع بطاقات التموين » • قال لنا « أولبريخت » ذلك وأعطى لكل واحد قائمة •

تأكدنا أن التوزيع الجديد للمواد الغذائية يشبه فى جوهره التوزيع السوفييتى ، فهنا أيضا فروق كبيرة بين العامل العضلى ، والعامل الفنى ، والمستخدم و « الآخرين » .

تتراوح الحصة اليومية فى الخبز بين ٣٠٠ و ٦٠٠ جرام ، وفى اللحم بين ٢٠ ، ١٠٠ جرام ، وفى الدهنيات بين ٧ ، و٣٠ جرام ، وفى السكر بين ١٥ و ٢٥ جرام ، أما الحصص الشهرية فهى عبارة عن ١٠٠ جرام قهوة ، و ٢٠٠ جرام شاى ، و ٤٠٠ جرام ملح .

وتساوى سكان برلين فى حصة البطاطس فكانت ٤٠٠ جرام يوميا .

أسند الى ادارة برلين الاشراف على تقـرير وتوزيع المقـررات التموينية الجديدة عندما تبدأ عملها . قال « أولبريخت » فى اليوم التالى :

« يجب أن ننتهى من تكوين ادارة برلين ، فلدينا الآن عدد كاف من الأكفاء » .

كان هذا الاجتماع ارتجاليا بصورة جعلتنى أعتقد أن الأمر يدور حول الوصول الى حل وسط .

قال « أولبريخت » :

« أول شىء هو تعيين العمدة ، كنتم عند الدكتور « فيرنر » ما رأيكم فيه » ؟

لم يتحمس « مارون » و « جيبتنر » و « فينسر » لهذا العرض ، فقال أحد الحاضرين : « لا أدرى يا « فالتر » ! يبدو أن الدكتور « فيرنر » ليس الرجل المناسب ، وهو أيضا كبير السن » .

وقال له أحد أعضاء ادارة المدينة :

« لقد سمعت أنه ليس معتدلا مائة فى المـائة من الناحية العقلية » .

فرد « أولبريخت » : « لا بأس من هذا ، فعندنا النائب » .

على أى أساس يختار عمدة برلين !

ولحسن الحظ ، فقد ثبت أن التحفظات التى وجهت ضد الدكتور « فيرنر » لا دليل عليها ، لأنه كان رجلا ضليعا قويا .

وجه « أولبريخت » الحديث الى « مارون » : « والآن .. الى الأهم ! النائب الأول ، ومن الأفضل أن تتولى هذا المنصب يا « كارل » .

بدت الدهشة على وجه « مارون » ، فلم يكن مسرورا لعرض هذا المنصب الكبير عليه ، ثم قال : « لم أقم بمثل هذا العمل قط » .

فرد عليه « أولبريخت » : « ولكنك سوف تقوم به خير قيام » .

فقال « مارون » : « موافق ، على شرط أن يأتى معنا « فولف جانج » .

— « لا .. لا يمكن أن نعطيك « فولف جانج » فى ادارة برلين ، فسوف يظل هنا مؤقتا للأمور الطارئة » .

وهكذا عين نائب العمدة ، وأصبح واضحا من المناقشة التالية ، أن ادارة مدينة برلين تكونت بنفس الطريقة التى تكونت بها ادارات الأحياء ، ربما بفرق واحد — كما عبر « أولبريخت » عن ذلك — وهو أن رجالنا يجب أن يمثلوا تمثيلا قويا فى ادارة المدينة ، تواترت الأسماء واحدا بعد الآخر ، وازداد طول القائمة شيئا فشيئا ، وبعد ساعة واحدة سجل كل واحد منا على الورقة الموضوعة أمامه تكوين ادارة برلين المقبلة .

تولى « رجالنا » الثلاثة المناصب المهمة ، وليس معنى كلمة رجالنا هنا أنهم من القياديين البسطاء فى الحزب الشيوعى الألمانى ، بل كانوا من هؤلاء الرجال الذين كانوا منفيين فى الاتحاد السوفييتى : « كارل مارون » النائب الأول للعمدة ، و « أرتور بيك » رئيس قسم شئون العاملين ، و « لورنس » و « أوتو فينسر » رئيس قسم شئون التعليم .

انضم الى هؤلاء القياديين « الموسكويين » الثلاثة الذين تولوا حقيقة ، المناصب الحساسة ، اثنان من قياديى الحزب الشيوعى الألمانى . « أوتومار جيشكى » ، و « هانز بيندرتسكى » اللذان قضيا فى معسكرات الاعتقال سنين عديدة . لوحظ أنهما توليا منصبين دانيين (مكتب العمل ، والشئون الاجتماعية) ، فدل ذلك على الفرق الكبير فى التقييم بين قياديى الحزب الشيوعى الذين كانوا فى موسكو والآخرين الذين ظلوا فى ألمانيا .

كان « باول شفينك » الذى تولى منصب النائب الثالث للعمدة ، ورئيس قسم التخطيط أيضا من المجموعة التى كانت فى موسكو . وعندما عينه « أولبريخت » فى هذا المنصب ، كان لا يزال فى موسكو ، وذكر فيما بعد أنه فوجىء بهذا التعيين — ثم استدعى ، فوصل الى برلين بالطائرة بعد أيام قليلة . أما نائب العمدة الرابع « كارل شولتس » ورئيس قسم الشئون التجارية « يوسف أورلوب » فقد عينا باعتبارهما من الديمقراطيين الاشتراكيين .

واعتبر العمدة الدكتور « فيرنر » ونائبه الثانى وفى الوقت نفسه رئيس قسم التموين الدكتور « هيرمس » ، ورئيس قسم الشئون

الصحية البروفيسور « زاوار بروخ » ورئيس قسم شئون الاسكان « شارون » ، ورئيس قسم الشئون الاقتصادية الدكتور « لاندفير » ، والقسيس « بوخ هولس » من « الوطنيين » .

أما القسمين الآخرين وهما شئون الأخبار ووسائل الاتصالات ، وشئون المؤسسات الحكومية ، فقد عين لهما رئيسين من المستقلين ، فأصبحت ادارة المدينـــة مركبة كالآتى : ٧ وطنيين ، و ٦ شيوعيين ، و ٢ ديمقراطيين اشتراكيين ، و ٢ مستقلين . وعلى عكس المجالس الاداريـــة والمنظمـــات التى تكونت من « أعضـــاء الحـــزب » فيـــما بعد ، فلم يكن تكوين ادارة برلين فى مايو ١٩٤٥ م ديمقراطيا فحسب ، بل لم يكن الديمقراطيون والوطنيون فى المجلس — طبقا لمـــا أخذته من ملاحظات : « مارون » و « فينسر » — رجالا من قش ، وانما كانوا شخصيات لها وزنها ، علما وخبرة فى مجال تخصصهم ، وعزة واستقلالا فيما يؤيدون أو يعارضون .

نشر تكوين ادارة برلين فى ١٧ مايو فى جريدتى ,(Tägliche Rundschau) (Berliner Zeitung) وهما الجريدتان الوحيدتان اللتان كانتا تظهران آنذاك فى برلين .

أقيمت مراسم الاحتفال ببدء عمل الادارة الجديدة فى مبنى أعيد ترميمه من آثار الحرب جزئيا فى شارع « باروخيال » وزينت الصالة بهذا الشعار : « وحدة المناضلين ضد الفاشية ضمان لميلاد الشعب الألمـــانى من جديد » .

طلب حكمدار برلين آنذاك الجنرال « بيرزارين » من ادارة المدينة أن « تعاد الحياة الطبيعية الى مدينة برلين بأقصى سرعة ممكنة » . فأجابه عمدة برلين الدكتور « فيرنر » على ذلك قائلا : « لا يوجد اليوم فرع من فروع الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية الا ويجب بناؤه من جديد ، فقد حول « هتلر » برلين الى مدينة الخراب ، وسوف تحول برلين الى مدينة التقدم » .

وختم الدكتور « فيرنر » كلمته بقوله :

« نشكر اخواننا المناهضين للفاشية الذين أيدوا أفكارنا أثناء حكم « هتلر » ، وكافحوا من أجلها ، وسوف ترفرف روح الحب الصادق والانسجام والوئام فى أرجاء الامبراطورية الألمـــانية . لقد قادتنا وحدة

نضالنا ضد الفاشية الى النصر الأول ، فهى ضمان لميلاد الشعب الألمانى من جديد » •

مما لا شك فيه أن كلمة الدكتور « فيرنر » تطابقت مع الآمال التى كانت عند المناهضين للفاشية آنذاك ، ولقد تأثرت أنا أيضا بها عندما سمعتها ، ولكن ظهرت أحداث فى الأيام التالية عارضت تمام المعارضة كلمة الدكتور « فيرنر » المفعمة بالأمل فى وحدة النضال ضد الفاشية •

* * *

حل المجالس المناهضة للفاشية

قال « أولبريخت » فى أحد الاجتماعات العادية :

« تكونت فى الأيام الأخيرة مكاتب ولجان ، وأنظمة مختلفة تسمى نفسها اللجان المناهضة للفاشية ، أو المجموعات المعادية للفاشية ، أو المكاتب الاشتراكية ، أو المجالس الوطنية ، أو ••• أو ••• الخ » •

ورأيت أنا أيضا هذه المكاتب ثناء سيرى بالسيارة ، عبر شوارع برلين وكنت متوقعا بأننا سنتلقى تعليمات من « أولبريخت » بأن نتصل بهذه المكاتب ، لنساعدها فى عملها •

« ثبت بالتجربة — لم يقل « أولبريخت » من الذى أثبت ولا كيف أثبت — أن النازيين يحركون هذه المكاتب ، فهى منظمات متخفية ، هدفها التشويش على التطور الديمقراطى ، يجب أن نجد كل الوسائل لحلها ، فهذا هو الواجب الأهم الآن ، ويجب على كل واحد منكم أن يبحث فى حيه ، أين توجد مثل هذه المجالس ويعمل على حلها بسرعة » •

بدا لى أن كلام « أولبريخت » غريب جدا ، ولكنى أعتقد أن تقاريره سليمة لا اعتراض عليها ، وعلاوة على ذلك ، فليس من المستبعد قيام النازيين بمثل هذه المناورة : ألم يطلب مؤتمر جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية السابع فى صيف عام ١٩٣٥ م من الشيوعيين الألمانيين بأن ينضموا الى المنظمات النازية ، ويخربوها من الداخل ؟ ربما — هكذا فكرت — يحاول النازيون • بالغت مجموعة « أولبريخت » آنذاك فى تقدير نشاطهم مبالغة كبيرة الى حد القيام بعمل مماثل غير أن المقابلة الأولى المباشرة مع أعضاء المجالس المناهضة للفاشية التى تكونت حديثا ، أثبتت أنه لا يوجد بينهم نازى ، بل هم مجموعة من الرفقاء

الذين كانوا أعضاء فى الحركات السرية فى ألمانيا ، واقتنعت اقتناعا لا شك فيه أنهم ليسوا نازيين مقتنعين ، بل رفقاء صادقين ومناهضين للفاشية •

وواضح أن انطباعات الزملاء الآخرين كانت متماثلة ، لأن كل التقارير اتفقت فى هذه النقطة • غير أن « أولبريخت » لم يتأثر بهذا أدنى تأثير ، فرد محاولات الدفاع — التى حاولها كل واحد منا بلا استثناء — حيث قال بلهجة حادة :

« يجب أن تحل فورا ، ولن نسمح بأن تعاد هنا فى برلين أخطاء الحزب اليونانى • فهناك اتحد الرفقاء فى مجالس ، وفى غضون ذلك كون الأعداء جهاز الدولة » •

ولما كنت من أولئك القياديين الذين يفكرون تفكيرا خاصا فى القرارات السياسية ، لم أستطع أن أبعد فكرى عن التأكد من أن فى أدلة وحجج « أولبريخت » تعارضا ، فقد قال فى بادىء الأمر أن هذه المجالس يجب أن تحل لأن أعضاءها نازيون مقتنعون ، ولكن سبب حلها الآن ، لأنها تبعد الرفقاء المخلصين عن العمل فى الادارة ونريد تجنب أخطاء الحزب اليونانى ، وأثناء الحملة ضد المجالس المناهضة للفاشية ، كنا نسمع من « أولبريخت » حججا مختلفة ، مرة هذه الحجج وأخرى تلك • ولم يبق ثابتا سوى شىء واحد فقط : الاصرار فى أوامره على حل المجالس المناهضة للفاشية ، وكل ما يشبهها من مجالس الأنشطة التى تكونت حديثا •

اعتبرت هذه الأوامر آنذاك خطأ ، ولكنى كنت قد تعودت اطاعة الأوامر ، بما يكفى لتنفيذ ما لا أقتنع به داخليا • غير أنى كنت أطمح أن ينفذ الحل بطريق متسمة بالحذر ما أمكن ، وأن يضم هؤلاء الرفقاء بقدر الامكان الى الجهاز الادارى •

تألمت جدا لحل المجلس المناهض للفاشية ، الذى كان يقوم بنشاط جبار فى حى « شارلوتينبرج » فى برلين ، وكان مقره آنذاك فى شارع « كورفور ستيندام » بالقرب من محطة مترو الأنفاق عند شارع « أولاند » كان معلقا فى مدخل المنزل يافطة مكتوبا عليها : « اللجنة الوطنية — ألمانيا الحرة » وكان الخط يشبه بالضبط خط جريدتنا التى كانت تظهر فى موسكو ، حتى الخطوط الملونة تحت الكتابة « الأسود — الأبيض — الأحمر » • لا يستطيع كتابة هذه اليافطة على هذه الصورة الا من قرأ جريدتنا « ألمانيا الحرة » •

كان المقر يأخذ دورا بأكمله فى هذا المنزل وكنت تسمع فى كل ركن أصوات الآلات الكاتبة ، وترى العاملين يجيئون ويروحون هنا وهناك . وكنت ترى على يفط الحجرات تحت كلمة « اللجنة الوطنية ــ ألمــانيا الحرة » هذه الكلمات : « قسم المياه » ، « قسم صيانة الشوارع » ، « قسم الكهرباء والغاز » .

اكتشفت على أحد الأبواب عنوانا لم يكن من الأمور العادية فى مايو ١٩٤٥ م وهو « قسم المناجم » . أعطانى الجو العام انطباعا ، بأن هذه الادارة التى تعمل على أكمل وجه ، لا يمكن أن يكون نشاطها قاصرا على حى « شارلوتينبرج » .

سألنى واحد بأدب : « الى أى قسم تريد ؟ وما هو موضوعك » ؟

ــ « أريد مقابلة رئيسكم » .

ارتاع الرجل وقال : « هذا غير ممكن فهو مشغول جدا » .

لا فائدة هنا من المناورة ، أو العمل من وراء قناع فقلت له مباشرة :

« أنا من « مجموعة أولبريخت » ، وكنت قبل وقت قصير من العاملين فى اللجنة الوطنية « ألمــانيا الحرة » فى موسكو » .

فحيانى الرجل بحرارة وقــال : « هذا رائع جدا » وسرعان ما استقبلنى الرئيس فشعرت بارتياح عندما رأيته ، أشيع فى الادارة أن واحدا من أعضاء اللجنة الوطنية فى موسكو قد وصل ، وسرعان ما تجمع العاملون الأكفاء ، وشرح الرئيس :

« كنا نسمع باستمرار اذاعة « ألمــانيا الحرة » ونكتب منهــا الأحاديث المهمة ونطبعها ونوزعها » .

تأكدت من الحديث القصير أن هذا ــ كما كان غالبا آنذاك ــ لم يكن اختراعا ، بل يطابق الحقيقة ، فلم يعرف كل الموجودين عنده أسماء أعضــاء اللجنة الوطنية فقط ، بل لا زالوا يتذكرون بعض البرامج الاذاعية بالتفصيل .

« نفذت لجنتنا الوطنية كل ما جاء فى بيانات ونداءات لجنتكم ، طبقا للظروف فى برلين » .

ثم أضاف بما يشبه الاعتذار :

« غير أنه لم يكن معنا جنرالات ، ولكننا بدلا من هذا قمنا بالاتصالات مع أوساط أخرى ، أسهمت فى مؤامرة ٢١ يوليو » .

وظهر من هنا أن المناهضين للفاشية فى هذه اللجنة الوطنية حققوا الفكرة الأساسية — وهى تكوين جبهة متحدة عريضة القاعـدة لكل المناهضين للفاشية ضد « هتلر » — تحقيقا نموذجيا : اذ يعمل معا فى هيئة القيادة أعضاء سابقون فى الحزب الشيوعى الألمـانى ، وفى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، وكذلك من الوطنيين ، ومن الأوساط الكنسية .

وكان الرئيس عضوا سابقا فى حزب العمال الاشتراكى ، وكان حزبا صغيرا تكون فى عام ١٩٣١ م وبذل أعضاؤه جهدا كبيرا أثناء حكم « هتلر » فى تكوين جبهة متحدة من المناهضين للفاشية .

بدأ التنظيم القيام بعمل الأشياء الضرورية الملحة بعد استسلام الجيش الألمـانى فى برلين مباشرة ، دون أن ينتظر تعليمات من أحد ، حتى ولا منا ، فاستدعى المهندسين ، والميكانيكيين والعمال الفنيين ، لمد المدينة بالغاز والمـاء والكهرباء . ونظمت عملية اخلاء الشوارع من الأنقاض ، وعينوا مشرفين على المستشفيات والمدارس — وباختصار عملت كل الأشياء التى كانت ضرورية فى تلك الأيام .

وبفضل القيادات النشطة الواقعية ، امتد نشاط اللجنة الوطنية سريعا الى خارج حى « شارلوتينبرج » ، ولم تشمل الاتصالات برلين كلها فقط بل وصلت مدنا أخرى .

بدأت التجهيزات بالتعاون مع بعض أساتذة كليات المهندسين ومع المؤسسات العلمية لتشغيل المرافق الصناعية والمناجم . وكذلك لم تنس المشاكل السياسية ، فقد أنشأت اللجنة الوطنية فى « شارلوتينبرج » — فعلا فى منتصف مايو ١٩٤٥ م — قسم الأرشيف حيث اجتمع أعضاء مؤامرة يوليو اجتماعات متوالية كى يسجلوا أحداثها بالتفصيل ، وكان الهدف من ذلك نشرها فى كتاب فى أقرب وقت ممكن .

كانت مقابلة لا تنسى أبدا . أفزعتنى الأفكار عندما تخيلت أن من المحتمل أن يهدم « أولبريخت » هذا التنظيم الحيوى الذى يعتبر نموذجا فيما قام به من جهود جبارة . فقلت لنفسى سوف أبذل كل ما فى طاقتى للحيلولة دون ذلك .

لم أقل لأصدقائى الجدد شيئا من تعليمات « أولبريخت » .

وفى المساء فى شارع « برينسين » قدمت تقريرى ورفعت فيه من جانبى شأن هذه اللجنة الى عنان السماء ، ولكن لم يأت هذا بنتيجة ، فقد قال « أولبريخت » :

« لابد أن يحل هذا الدكان الذى هو فى شارع « كورفورستيندام » •

فحاولت مرة أخرى مساعدة هؤلاء الأصدقاء المناهضين للفاشية ، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل أيضا ، اذ قال لى « أولبريخت » :

« تذهب الى هناك غدا ، وتخبرهم بأنهم لابد أن يوقفوا نشاطهم ، فنحن لا نحتاج الى لجنة ، فلو كنت مصرا على الاعتقاد بأنهم أكفاء فتستطيع أن تأخذ بعضا منهم فى ادارة حى « شارلوتينبرج »•

وهكذا اتجهت فى اليوم التالى الى « شارلوتينبرج » •

كان رئيس اللجنة الوطنية قد دعا كل الأعضاء العاملين ومجموعة من الرجال الذين اشتركوا فى مؤامرة ٢١ يوليو • وانتظر الجميع بأعصاب مشدودة ، متشوقين الى ما سيقوله ممثل اللجنة الوطنية القادم من موسكو ، فقد أخبروا — لسوء الحظ — بطريقة رسمية دعائية ، أن المحاضر — الذى هو أنا — سيتحدث عن أسس توسيع نشاط حركة « ألمــانيا الحرة » •

كان موقفا حرجا ، فقد كنت مقتنعا داخليا بأن هذا التنظيم المناهض للفاشية ليس له الحق فقط فى استمرار مباشرة نشاطه ، بل يجب أن نقدم له المساعدة وننضم نحن اللاجئين اليه ، وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك أوامر « أولبريخت » المشددة بألا يسمح لأى منظمة على الاطلاق ، وتحل كل المنظمات القائمة • لم أزل قريبا من النظام التربوى فى الاتحاد السوفييتى ، الذى أبعدنى عن فكرة عدم تنفيذ الأوامر ، والتصرف حسب اقتناعى • وضميرى الشخصى •

ولكنى قررت تنفيذ أوامر « أولبريخت » باحتراس وحذر حتى لا يصدم المناهضون للفاشية فى هذه اللجنة ، وحاولت جذب الكثير منهم — كلما أمكن ذلك — الى الادارات •

تحدثت عن تأسيس اللجنة الوطنية ، وعن نشاط اذاعة « ألمــانيا الحرة » وعن أهدافنا ، وأخيرا انتقلت الى الموضوع الأصلى : رغم كل الجهود الجبارة التى بذلناهــا ، لم يتحقق هدفنا الأصلى ، وهو الاطاحة بـ« هتلر » بقوتنا ، بل حققته جيوش الحلفاء ، فنتجت آثار عن هذا الوضع ، ومن بين هذه الآثار أن سلطة الاحتلال — وهى فى هذه الحالة الاتحاد السوفييتى — لا تسمح فى الوقت الحاضر بقيام أى منظمات فى برلين ، بل سمحت فقط بتكوين ادارات ألمــانية محلية

ومن هنا فيؤسفنى جدا اضطرارى الى ابلاغكم بأن استمرار نشاط اللجنة التى أسستموها ليس مسموحا به فى شكله الحالى •

سأل رجل كبير السن ، قدم نفسه على أنه أستاذ جامعى :

« هل معنى هذا أن لجنتنا الوطنية قد حلت » ؟

كان هادئا فى سؤاله ، ولكن لوحظ أنه كان يخشى سماع كلمة « نعم » • فقلت : « ليس من السهل على ، حقيقة ، أن أضطر الى أن أقول لكم هذا ، لأنى مقتنع بعمل هذا التنظيم الجبار ، ولكن التعليمات لا تسمح بوجود أى تنظيم على الاطلاق » •

فقال آخر ، ولكن كانت اللغة فى هذه المرة ثائرة :

« ولكنا لسنا أى تنظيم ، بل وحدة مناهضة للفاشية ، حددت هدفها فى مشاركة الجانب الألمـــانى ، ليس فقط فى حل المشاكل اليومية الضرورية بل أيضا فى تحويل التربية الفكرية والسياسية ، الى اتجاه ديمقراطى • نحن نريد تدعيم المبادىء التى وضعها الحلفاء للنضال ضد الفاشية ولتحويل تربية الشعب الى الأسلوب الديمقراطى » •

فهمت موقفه جدا ، لأنه كان يجب علينا أن نسر بقيام مثل هذا التنظيم ، ونحييه ، ونشجعه ، ونشترك فى تنشيطه — دارت بذهنى هذه الأفكار — ولكنى قلت له :

« أنا أفهم كل ما فى ذهنك ، ولكن أحب أن أشير مرة أخرى الى أن واجب المناهضين للفاشية بالذات هو الالتزام بتوجيهـــات قوى الاحتلال ، وأحب أن أؤكد لكم أن حل تنظيمكم لا يعنى بأى حال من الأحوال وقف نشاط كل فرد منكم ، فعملكم يجب أن يستمر فى اطار آخر •

أنت تعلم أنه قد تكونت فى كل مكان أجهزة ادارية جديدة مناهضة للفاشية غير أن هذه الأجهزة فى حاجة الى ذوى الكفاءات من المناهضين للفاشية • ومن الممكن جدا أن تعينوا جميعا فى هذه الادارات الجديدة » •

والآن •• رأيت وجوها ظهر عليها خيبة الأمل ، واستطعت أن أحس مشاعرهم • لا يريد هؤلاء أن يكونوا موظفين فى مكاتب • لقد اجتمعوا معا — متخطين كل مفاهيمهم السابقة عن الحياة — للكفاح سويا ضد « هتلر » ولتكوين وحدة متماسكة • واليوم ، بعد هزيمة الفاشية ، أرادوا أيضا أن يعملوا مشتركين فى منظمة نشطة مناهضة للفاشية فى بناء ألمـــانيا

جديدة ، وفى هذه اللحظة بالذات حيث تحقق الهدف الأول وهو فناء الفاشية ، يصدر أمر بحل تنظيمهم ! كانت خيبة أملهم كبيرة وأملى أيضا •

وأخيرا تقرر تنفيذ حل اللجنة الوطنية على مراحل • وكل من وافق على العمل فى الادارة ، يجب أن يعين ، وينبغى أن تنتهى اجراءات الحل والدمج فى الادارات الأخرى بعد ثلاثة أسابيع •

قال لى الرئيس عند توديعى ، بنغمة حزينة :

« آمل أن يسمحوا لنا على الأقل بهذا الوقت » •

رجعت مثقلا بالأحزان الى شارع « برينسين » ، وعندما وصلت كان الاجتماع قد بدأ منذ دقائق ، فسألنى « أولبريخت » :

« ماذا حصل فى هذا الدكان الهزلى فى « شارلوتينبرج » هل حللته اليوم » ؟

كان احتقار « أولبريخت » لهذا العمل الاستقلالى واضحا جدا فى هذا السؤال •

قدمت تقريرا عما حدث ، وبينت أنهم وافقوا على الحل فى مدى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع • فزفر « أولبريخت » زفرة طويلة ثم قال :

« أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ؟ هذا خبل ! سنرسل غدا رفيقا آخر » •

أرسل « أولبريخت » واحدا من جهاز الحزب المتصلين ولم يكن من الصعب تخيل ما حدث • وبعد أيام قليلة انتهى « العمل » فقد حلت اللجنة الوطنية ، وتراجع معظم الأعضـــاء يائسين الى حياتهم الخاصة •

قابلت بعضهم فيما بعد ، وكانوا قد عينوا فى الادارات ، فرأيت أنهم يقومون بأعمالهم فيها تنفيذا للأوامر فقط ، فأصبح نشـــاطهم روتينيا ، فقدوا الحماس والنشاط ، والحيوية ، وطبيعة المبادرة عندهم •

كان مصير اللجنة الوطنيـــة فى « شارلوتينبرج » مثالا فقط ، ففى نفس الوقت حلت فى برلين عشرات من اللجان المماثلة التى قامت من القـــاعدة ، ولم يحدث هذا فى برلين فقط ، بل فى كل المدن الكبرى مباشرة بعد أن توطدت الادارة فى المنطقـــة الألمـــانية الواقعـــة تحت الاحتلال السوفييتى ، وفيما بعد أيضا فى المنطقة التى تسيطر عليها قوى الاحتلال الغربية •

لن أنسى أبدا مقابلة قصيرة — فى تلك الأيام — بين « أولبريخت » وبين رفيق من مدينة « براندينبرج » •

— « كيف تسير الأمور عندكم فى الادارة » ؟

وجه « أولبريخت » هذا السؤال الى الرفيق مستفهما ، ولكنه كان بنغمة صادرة من الأعلى الى الأدنى . فرد الرفيق على ذلك بشرح موجز لنشاط الادارة ، ثم أضاف الى ذلك مفتخرا :

« وعلاوة على ذلك فقد كونا تنظيما مناهضا للفاشية » .

فسأله « أولبريخت » غاضبا : « كيف ذلك ، ماذا فعلتم » ؟

فأطلعه الرفيق على كتب عضوية لـ« لجنة مناهضة الفاشية » ، يشبه برنامجها تقريبا برنامج اللجنة الوطنية .

ثار « أولبريخت » :

« من سمح لكم بهذا ؟ كيف تفكرون فى مثل هذا العمل ؟ يجب أن تحل « لجنتكم المناهضة للفاشية » فورا ، ويجب اعدام كتب العضوية ! ويجب عليكم أن تنتظروا حتى تصدر لكم التعليمات من الجهة الرئيسية » .

حاول الرفيق — وقد فزع من عنف « أولبريخت » تبرير موقفه :

« ولكن أيها الرفيق « أولبريخت » .. نحن لا نريد تجاوز أوامر الجهة الرئيسية » . ثم أشار الى تذكرة العضوية « طبعنا على بطاقة العضوية كلمة « مؤقت » ، كذلك كتب على كتب العضوية أنها محددة بزمن تنتهى بعد أنقضائه » .

— « مؤقتة أو غير مؤقتة ، لابد من حل « دكانكم » وفى أسرع وقت »

علمت فيما بعد عن حوادث مماثلة فى « تورينجن » وفى « زاكسن » ؛ ففى « تورينجن » كون الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال بعد الافراج عنهم مباشرة حزبا اشتراكيا اتحاديا تحت اسم « حزب العاملين » ، وحل هذا الحزب أيضا . وعندما تأسس طبقا لأوامر عليا — الحزب الاشتراكى الألمـــانى ، والحزب الشيوعى الألمـــانى ، فى منتصف يونيو ، طلب العضوية نصف أعضاء حزب العاملين المنحل ، وامتنع عن الانضمام كثيرون — من الذين كانوا أعضاء فى حزب العاملين المنحل ، لأنهم رفضوا العودة الى الأحزاب القديمة .

تكون فى « دريسدين » منظمة باسم « اللجنة الشعبية المناهضة للفاشية » وانضم اليها عدد يتراوح بين ٢٠ر٠٠٠ و ٣٠ر٠٠٠ عضوا . أما الآخرون الذين كانوا على استعداد للاسهام فى لجان مناهضة الفاشية ولكنهم لم يريدوا العمل فى حزب معين ، فقد تراجعوا الى الاهتمام بحياتهم الخاصة ، ومن المؤكد أنه حدث فى المدن الأخرى أمثلة شبيهة .

وهكذا قضى فى الفترة من أول مايو الى منتصف يونيو على كل الأنشطة التى جاءت من القاعدة ، اعتبرت هذا آنذاك خطـأ فى بعض جوانب المشكلة • وحاولت تبريره ، بالضبط كما حاولت تبرير النواحى السلبية فى الاتحاد السوفييتى بأنها « خطأ مؤقت » • ولم يتضح لى الهدف من التعليمات التى صدرت آنذاك — ضد اللجان المناهضة للفاشية التى تكونت ذاتيا ، الا بعد انفصالى عن « الستالينية » ! لم يكن خطأ فى بعض جوانب المشكلة ، بل خطوة جوهرية فى سياسة « الستالينية » • اذ لا تستطيع « الستالينية » أن تسـمح بقيام حركات ، ومنظمات شيوعية بدافع ذاتى مستقل من القاعدة ، لأن الخطر سيكون متوقعا دائما ، ألا وهو أن تحاول هذه المنظمات التحرر من رقابة « الستالينية » ، وتعلن عصيانها ضد التعليمات التى توجه اليها من الجهات العليا • ومن هنا لم يكن حل اللجان المناهضة للفاشية سوى تدمير أول لبنة فى بناء حركة اشتراكية مناهضة للفاشـية ، من المحتمل أن تزداد قوتهـا فتستقل بارادتها • كان هذا هو أول انتصار للجهاز على أول حركة مستقلة للطبقات اليسارية المناهضة للفاشية فى ألمـانيا •

كذلك كان لهذا الاجراء « الستالينى » جانب تكتيكى آخر ، اذ يبدو أن « أولبريخت » تلقى تعليمات من موسكو بالاستعداد لاعادة تكوين الحزب الشيوعى الألمـانى • ولكن اللجان المناهضة للفاشية واللجان الشعبية صورت آنذاك الرغبة المتسلطة عند المناهضين للفاشية فى تكوين حزب اشتراكى موحد • تسلطت هذه الرغبة بنوع خاص على أولئك الذين قاموا بنشاط سرى ، أو الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال • وسوف نعرف تفاصيل تعليمات موسكو الجديدة فى الأيام التالية •

* * *

« فيلهيلم بيك » و « الخط الجديد »

انتزعنا نحن « مجموعـة أولبريخت » من العمال فى الأسبوع الأول من يونيو ، فذات يوم قبل الظهر وقف أمام منزلنا رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » عدد كبير من العربات الخاصـة الكبيرة ، فقد وصـل القياديون من موسكو : « فيلهيلم بيك » و « فريد أولسنر » و « باول فانديـل » و « يوحنا • ر • بيشر » و « ايدفن هورنل » و « مارتا أربنوس » • وآخرون لم أعرفهم معرفة تامة • وجاء معهم أيضا بعض

خريجى مدرسة المناهضين للفاشية ، الذين حازوا الآن الثقة الكاملة ، ولفت نظرى من بينهم — بصفة خاصة — « برنارد بيشلر » وهو رائد سابق فى هيئة الأركان ، أعيد تثقيفه فى الاتحاد السوفييتى ، فاعتبر من المخلصين لـ« لينينية » ، واشترك حتى فى الاجتماعات الخاصة ، وأصبح عقب هذا مباشرة وزيرا للداخلية فى مقاطعة « براندينبرج » •

لم يكن هناك سوى وقت قصير للتحية وللأحاديث الخاصة ، اذ بعد وصول المجموعة مباشرة ، بدأ اجتماع خاص اشترك فيه من مجموعتنا « أولبريخت » فقط • وحجزت حجرتان بصفة مستمرة لهذه الاجتماعات •

لم يكن من الصعب ادراك أن المناقشات ليست مقصورة على برلين ، بل تتعداها الى آفاق بعيدة • وبعد يوم واحد من وصول زعماء القمة من موسكو وصل أيضا من « دريسدن » « أنتون آكارمان » و « هيرمان ماتيرن » و « كورت فيشر » • وهم من أعضاء « مجموعة آكارمان » التى غادرت موسكو بعدنا بيوم واحد وتوجهت الى منطقة عمليات قوات المارشال « كونجيف » ، لينفذوا هناك عملا مماثلا لما كلفنا بعمله فى برلين •

استمرت الاجتماعات يومين ثم أخبرنا بالقرارات :

« لن يوجد حزب اشتراكى موحد ، وسيكون الحزب الشيوعى الألمانى منفصلا عن الحزب الاشتراكى الألمانى ، وينبغى أن يكون الحزب الشيوعى الألمانى فى غضون أيام قليلة ••

يجب البدء فورا فى الاستعداد لاصدار جريدة خاصة تنطق بلسان الحزب •

يلتمس تكوين الأحزاب الوطنية ، ويجب أن تكون مطابقة للحزب الديمقراطى السابق والمحور السابق ••

وبعد ذلك يجب تكوين رابطة ديمقراطية مناهضة للفاشية من الأحزاب الجديدة •

يجب على كل القوى أن تركز جهودها أولا لتأسيس الحزب الشيوعى • وبعد التأسيس مباشرة يجب البدء باصلاح نظام التعليم •

وأخيرا يجب عمل كل الاستعدادات لتنفيذ برنامج الاصلاح الزراعى وذلك فى صيف عام ١٩٤٥ م » •

أصبح منزلنا رقم ٨ فى شارع « برينسين » — الذى كان العمل فيه حتى الآن نشطا — خلية نحل ، فاجتماع ينفض وآخر ينعقد ، وعربات

جديدة تصل ، لتؤمن سير اتصالات زعماء القمة بالزعماء النشطين فى مختلف الجهات • وأملى « فريد أولسنر » — بعد وصوله بيومين — الكراسة التعليمية للحزب الشيوعى الألمـانى الذى لم يؤسس بعد ، وبعد التأسيس مباشرة أعلن الخط الجديد على كل الأعضاء •

قال « أولسنر » :

« ان التعليم أهم شيء الآن ، يجب أن نعلم أكثر مما فعلناه فى أى وقت مضى • وقد تقرر — فعلا — عقد اجتماع أسبوعى لكل الأعضاء الذين سيعملون فى حقل التعليم فقط • يجب أن نهيىء الرفقاء للقيام بالواجبات الجديدة التى تختلف كلية عن واجبات ما قبل عام ١٩٣٣ م » •

انعقد اجتماع فى اليوم التالى ، واشترك فيه بعض الرفقاء النشطين فى برلين و « براندينبرج » و « بوتسدام » والمدن الأخرى ، وقيل فى هذا الاجتماع :

« الواجب الأساسى الآن هو الاستعداد لتأسيس الحزب ، وسيصدر بعد أيام قليلة أمر من المـارشال « شوكـوف » بالسماح للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية ، والى أن يحين ذلك الوقت يجب علينا أن نكون قد انتهينا من وضع الحجر الأساسى • فالوقت من ذهب • وسيصدر — بعد الأوامر بالسماح للأحزاب مباشرة — بيان تأسيس الحزب الشيوعى الألمـانى ويذاع على الشعب •

لم يكن تكوين الحزب الشيوعى الألمـانى ، والحزب الاشتراكى الألمـانى منفصلين ، معارضا فقط للتعليمات التى تلقيناها من موسكو فى مارس ١٩٤٥ م ، بل كان معارضا أيضا معارضة مباشرة لقرار مؤتمر الحزب الشيوعى الألمـانى الذى انعقد فى « برن » فى أوائل عـام ١٩٣٩ م • فقد ذكر بوضوح فى هذا القـرار الرسمى الأخير للجنة المركزية أنه يجب انشاء حزب ثورى موحد من الطبقة العاملة الألمـانية • ووجه نداء آنذاك الى الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين بتكوين تنظيمات موحدة للحزب الموحد الذى سينشأ مسـتقبلا من الطبقات العاملة •

لم يغب عن فكرى أن المسائل الأخرى فى التعليمات الجديدة التى أحضرها معه « فيلهيلم بيك » ، كانت متعارضة مع تلك التعليمات التى تلقيناها فى أوائل عام ١٩٤٥ م ، فقد قيل لنا آنذاك أن النشاط السياسى للشعب الألمـانى يمكن مبدئيا أن ينبسط فى اطار حركة كبيرة تشمل

كل المناهضين للفاشية فى « الرابطة الديمقراطية المناضلة » • والآن عكس ذلك فقد تحدثوا عن تأسيس أحزاب سياسية •

وقيل آنذاك بأن الاصلاح لن ينفذ قبل صيف عام ١٩٤٦ والآن ينبغى أن ينفذ الاصلاح الزراعى بعد تأسيس الحزب مباشرة فى صيف عام ١٩٤٥ م • حتى فى أوائل مايو بعد وصولنا الى برلين ، قيل لنا : انه لن يسمح فى الفترة الأولى الا باصدار الجرائد المناهضة للفاشية غير الحزبية ، والآن عكس ذلك ، فقد صدرت الأوامر بالاستعداد لاصدار جريدة تنطق بلسان الحزب •

« انتهى عمل « مجموعة أولبريخت » بوصول الزعماء من موسكو ، وبالتأسيس المرتقب للحزب الشيوعى الألمانى • وكان قد تغير وجهها عن طريق انفصال بعض الرفقاء عنها ، بتعيينهم فى ادارة مدينة برلين ، وانضمام آخرين اليها •

أعلنت — فى اجتماع لمجموعة خاصة — الواجبات الجديدة ، ثم وزع علينا العمل ، فلم يعد « لمجموعة أولبريخت » وجود بعد أن نفذت مهمتها •

حصل أعضاء « مجموعة أولبريخت » — كلهم تقريبا — بعد حلها على مناصب كبيرة فى الحزب وفى أجهزة الدولة فى المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى ، ولكن لم يذكر فى ملفاتهم أنهم عملوا فى « مجموعة أولبريخت » • واستمر الاعتقاد سنين عديدة بأن الحزب الألمانى الشيوعى — مثل كل الأحزاب الاخرى — لم يتكون الا بعد صدور أمر المارشال « شوكوف » فى ١٠ يونيو ١٩٤٥ •

بدا أنه لم يكن من المستحسن — على الأقل فى الفترة الأولى بعد عام ١٩٤٥ — التحدث عن نشاط « مجموعة أولبريخت » والا وضح الاتصال الوثيق باللاجئين السياسيين الذين كانوا فى موسكو • لم يظهر شىء عن نشاطها الا بعد سبع سنوات ، فقد كسر جدار الصمت فى مايو ١٩٥٣ م عندما نشرت خطب « أولبريخت » ورسائله تحت عنوان « فى تاريخ الحركة العمالية الألمانية » اذ يوجد فى الجزء الثانى — والكتاب ثلاثة أجزاء — خطاب من « فالتر أولبريخت » الى « ديمتروف » بتاريخ ٩ مايو ١٩٤٥ م يبين فيه نشاط « مجموعة أولبريخت » •

« ومن خطاب الى الرفيق « ديمتروف » : ٩ مايو ١٩٤٥ م :

ركزنا عملنا بالدرجة الأولى على الاختيار من المناهضين للفاشية

لادارات الأحياء ولادارة برلين • وقد حيل مبدئيا فى كثير من الأحياء بين الشيوعيين الذين قاموا بأعمال سرية ضخمة وبين ادارات الأحياء •

ظهرت اليوم علنا منظمات كانت تباشر نشاطا سريا فى الماضى مثل : مكاتب الحزب الشيوعى الألمانى ، واللجان الشعبية ، ولجنة « ألمانيا الحرة » ، ولجان ٢٠ يوليو ، وقد ألغينا هذه المنظمات ، وأفهمنا الرفقاء أنه يجب على كل القوى تركيز جهودها فى العمل فى ادارة المدينة • وان يصفوا هذه المنظمات • وبالنسبة لتكوين جهاز الادارة ، فقد أمكن تجميع مجموعة كبيرة من القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية •

لم يزل عدد من الأوساط والاتجاهات السياسية مغلقا أمامنا ، اذ ليس للشيوعيين سوى اتصال بسيط بأفراد هذه الأوساط والاتجاهات السياسية ، وسوف يستمر البحث عن الرفقاء وقتا طويلا ، لأنه لا يوجد الآن جرائد ولا تثقيف سياسى •

ونحن نرى أن نبدأ باصدار جريدة ديمقراطية مناهضة للفاشية • بعد تنظيم ادارة المدينة بأسبوع تقريبا • خرجت مجموعة كبيرة من القياديين من السجن » •

(ف • أو W. U)

هذه هى الوثيقة الوحيدة التى نشرت رسميا حتى اليوم عن « مجموعة أولبريخت » فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

* * *

اعادة تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى

لم يحضر زعماء القمة معهم من موسكو تعليمات فقط ، بل أحضروا البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمانى الجديد أيضا ، فعقدوا اجتماعا بعد وصولهم بيومين فى مقر خاضع لقيادتنا — كان على ما أذكر فى شارع « برينسين » ناحية شارع « هوهينلوهى » — مع أعضاء الحزب العاملين ، وكان عدد الحاضرين ٨٠ رفيقا تقريبا ، كانوا قد استدعوا للعمل معا فى الأربعة أسابيع الماضية •

كان الجميع ينتظر بأعصاب مشدودة لما سيقال فى هذا الاجتماع ، لأنه قد أشيع أن البحث سيدور فى هذا اليوم حول اعادة تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى •

وبعد تمهيد قصير قرأ « أولبريخت » البيان التأسيسى الذى

سيعلن به فى اليوم التالى قيام الحزب الشيوعى الألمــانى • بدأ البيان بشرح آثار حكم « هتلر » وما خلفته الحرب • ثم تساءل عن المذنب والمسئول • وتوصل منطقيا — استقبل الحاضرون هذا الاستنتاج بتصفيق حاد — الى أن وباء الفاشية استطاع الانتشار فى ألمــانيا « لأن مجرمى حرب عام ١٩١٨ والمسئولين عنهــا لم يعــاقبوا ، ولأنه لم يكن هناك نضــال لتحقيق ديمقراطية حقيقية » • ومن المفروض الآن عدم تكرر خطأ عام ١٩١٨ م ، والتغلب على انقسام الشعب الخلاق ، وعدم التسامح اطلاقا مع النازية والرجعية •

تقول البنود الهامة فى بيان التأسيس :

« أصبح من الأمور المشروعة ، بعد القضاء على الهتلرية مسألة اعادة الديمقراطية فى ألمــانيا ، ومسألة اعادة بناء الديمقراطية الشعبية ، والبدء باتمام ثورة عام ١٨٤٨ م ، وازالة البقية الباقية من الاقطاع ازالة تامة ، والقضاء على عسكرية بروسيا الرجعية ، وذوائبها السياسية والاقتصادية • ونرى أن من الخطأ اجبار ألمــانيا على انتهاج النظام السوفييتى ، لأنه لا يتفق مع ظروف التطور الحالية فى ألمــانيا •

ونرى أكثر من هذا ، أن مصالح الشعب الألمــانى فى الوضع الحالى لألمــانيا يحتم انتهاج طريق آخر ، وبالذات طريق اقامة نظام ديمقراطى مناهض للفاشية ، فى ظل جمهورية ديمقراطية برلمانية ، تؤمن فيها كل الحقوق الديمقراطية والحرية للشعب » •

ثم بدأ « أولبريخت » يقرأ مبادىء الحزب الشيوعى الألمــانى التى صيغت فى عشر نقاط ، ولم تخرج عن برنامج عام ديمقراطى مناهض للفاشية ، فلم يذكر « ماركس » ولا « انجلز » حتى لم يرد مفهوم الاشتراكية فى هذا البيان التأسيسى للحزب الشيوعى •

فقد ورد فى مقدمة البنود اتمام ازالة ما تبقى من نظام « هتلر » وتطهير الجيش من النازيين النشطين ، وعقــاب كل مجرمى الحرب الكبار ، والنضال ضد الجوع والبطالة والتشرد ، والعمل على عودة الحياة الطبيعية ، واعادة تشغيل مرافق الانتاج •

وكانت مفاجأة ، عندما قرأ « أولبريخت » :

« اطلاق التجارة الحرة اطلاقا تاما ، والنشاط التعاقدى على أساس الملكية الخاصة » •

وطالبت ثلاثة بنود أخرى باعادة الحريــة الديمقراطية • وبناء

الأنظمة الادارية الديمقراطية المستقلة . كذلك تنظيم تعريفة الأجور وشروط العمل ، والانتخابات الديمقراطية لممثلى العمال والمستخدمين والموظفين ، وعلاوة على ذلك ، فقد طالب البيان بمصادرة كل أملاك النازيين ومجرمى الحرب وتسليمها الى الدولة ، على أن تديرها ادارة مستقلة ، وبالاصلاح الزراعى . وبنقل ملكية كل الشركات التى تركها أصحابها الى الدولة على أن تديرها ادارة مستقلة .

وتحدثت النقطتان الأخيرتان فى البيان عن التعاون الأخوى المشترك مع الشعوب الأخرى ، والالتزام بدفع التعويضات :

« يجب أن توزع الالتزامات توزيعا يضمن أن يتحمل الأغنياء الجزء الأكبر منها » .

وختم البيان بالاشارة الى أن هذا البرنامج يمكن أن يؤخذ أساسا لاقامة رابطة الأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية .

وعندما انتهى « أولبريخت » من قراءة البيان ، خيم السكون على أنحاء القاعة ، وكان واضحا أن الرفقاء وخاصة أولئك الذين عاشوا فى ألمـانيا أثناء الحكم النازى ــ وكانوا أغلبية الحاضرين ــ كانوا يتوقعون من هذا البيان أكثر من ذلك .

كانت المناقشات الحرة لا تزال موجودة بين الشيوعيين فى ألمـانيا فى ذلك الوقت ، فعبر الرفقاء بصراحة عن آرائهم دون تزويق أو تنميق فى الكلام .. طلب الكلمة رفيق من « فينينج » :

ــ « أيها الرفيق « أولبريخت » ! هذا البيان مضبوط وضرورى ــ والكل متفق فى هذا ــ ولكن هناك نقطة غامضة : ما هو الفرق بين هذا البرنامج وبين برنامج حزب ديمقراطى آخر » ؟

ضحك « أولبريخت » ضحكة فاترة ، ثم قال بلهجة « زاكسينية كلاسيكية » :

« سوف يتبين لنا هذا سريعا أيها الرفيق ! انتظر قليلا ! » . وبعد الغمز بهذه الكلمات أعطيت التعليمات : البدء فورا بتجميع القياديين المخلصين فى كل جزء من أجزاء المدينة وأحيائها ، وتجهيز كل الترتيبات حتى يمكن عقد اجتماعات الحزب مباشرة بعد اذاعة البيان التأسيسى ، الاستعداد للاجتماعات استعدادا كاملا ، وتعيين القيادة التى تقترح فى كل اجتماع على حدة ، ولكن ينبغى أن ينفذ ذلك « دون ضوضاء » حتى

يصدر أمر سلطة الاحتلال السوفييتية بالسماح للأحزاب السياسية الديمقراطية المناهضة للفاشية .

فسأل أحد الحاضرين :

— « كم من الوقت عندنا الآن ؟ ومتى سيسمح بالأحزاب رسميا » ؟

— « نتوقع أن يصدر الأمر فى ١٠ يونيو ، وفى اليوم التالى سنذيع بياننا التأسيسى وسيظهر العدد الأول من « جريدة الشعب الألمانية » . Deutsche Volksxeitung ، — وهى التى تنطق بلسان الحزب — فى ١٣ يونيو ! » .

لم يبق الا ثلاثة أو أربعة أيام . انفض المجلس ، وسافر الرفقاء الى أحياء المدينة المختلفة للقيام بكل الاستعدادات . وجندنا جميعا للتحدث فى الاجتماعات الحزبية ولم أنس اجتماعا فى أحد أجزاء المدينة فى حى « شارلوتينبرج » حيث ألقيت محاضرة فيه كان عدد الحاضرين ١٢٠ رفيقا تقريبا ، بدا على وجوههم الرضا والفخر والسرور لأنهم أخيرا سيعودون الى الحزب الشيوعى .

وبعد الانتهاء من المحاضرة بدأت المناقشة ، وسرعان ما ذكر فيها أيضا تعدى الجيش الأحمر على الأعراض ، الذى سبب آنذاك قلقا كبيرا للشيوعيين فى برلين ، وفى هذه اللحظة طلب الكلمة رفيق كان يجلس فى زاوية خلفية فتحدث بعصبية عن الحوادث التى شاهدها بنفسه ، وعن الأضرار التى لحقت الشيوعيين الألمانيين بسبب تصرف الجيش الأحمر وعن النتائج الحتمية التى ستنال الشيوعيين الألمانيين من جراء هذا التصرف .

لم تظهر مثل هذه الكلمات فى المناقشة ، فسيطر على القاعة توتر محموم ، ربما كان الجو الذى يقود الرفقاء الى أن تصيح أفكارهم السرية بما يقتنعون به داخليا « .... وأقول لكم يجب أن نبنى الاشتراكية فى ألمانيا بدون الجيش الأحمر ، واذا لزم الأمر ، حتى ضد الجيش احمر » .

جلس الجميع لحظات كالأحجار ، لا يتحركون ، ثم سمعت من جوانب مختلفة همسات تخوف ، وأيضا صيحات احتجاج أشد قسوة .

قطع رئيس الجلسة النقاش حول هذا الموضوع بسرعة حين قال : « الكلمة الآن للرفيق « ليونهارد » » .

كنت فى هذه اللحظات لا أزال وفيا للحزب .

— « آمل ألا تكون صيحة هذا الرفيق تعبيرا عن رأى الحاضرين هنا .

فليس من واجبنا التحدث عن تصرف قوات سلطة الاحتلال ، بل مناقشة واجباتنا العملية الخاصة » •

صفق معظم الحاضرين ، وتحولت المناقشات الى واجبات الحزب فى الحى •

تذكرت وأنا فى طريق العودة جملة هذا الرفيق : « يجب أن نبنى الاشتراكية فى ألمانيا بدون الجيش الأحمر ، واذا لزم الأمر ، حتى ضد الجيش الأحمر » •

« ضد الجيش الأحمر » ـ هكذا فكرت فى هذا المساء ـ هذا خطأ طبعا ، فقد قال الرفيق هذه الجملة وهو ثائر الأعصاب ، ولكن بدون الجيش الأحمر ؟ ولم لا ! ألم آمل أنا أيضا أن يسير تطور الاشتراكية فى غرب أوروبا على نحو يغاير ما فى الاتحاد السوفييتى ؟ ألم يكن هذا رأيى فى أوائل عام ١٩٤٣ م ، عندما حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ولكن لم يكن عندى وقت للتفكير فى هذا ، فقد أسدلت الأيام التالية الستار على كل ما شاهدنا فى أسابيع « مجموعة أولبريخت » المليئة بالأحداث •

وعندما سمح للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية فى ١٠ يونيو كما جاء فى الأمر الذى أصدره المارشال « شوكوف » كانت حروف البيان التأسيسى قد جمعت فى المطبعة ، ويمكن أن يبدأ الطبع بين لحظة وأخرى • وجه « أولبريخت » الكلام الى والى « أربن بيك » :

ـ « من الأفضل أن تظلا فى الجريدة حتى يمكننا العثور على من يقوم بعملكما ولكن يا « فولف جانج » لا تمكث طويلا فى الجريدة ، فسوف تتولى شيئا آخر فى الحزب » •

اتجهنا الى المطبعة التى كانت فى بيت متهدم فى وسط المدينة ، لتجهيز اللازم • وقبل البدء فى الطبع بلحظات وصل الينا « آكارمان » وقال : « سوف يأتى « داليم » الى برلين فى الأيام القادمة ، ويجب أن يوضع اسمه على البيان التأسيسى » •

ـ « فى أى مكان » ؟ ـ لقد عشنا فى الاتحاد السوفييتى وقتا كافيا ، تعلمنا فيه أن ترتيب الأسماء له أهمية كبرى ـ •

ـ « فى المكان الثالث ، بعد اسم « أولبريخت » مباشرة وقبل اسمى » •

وقع على البيان ستة عشرة ، عاش ثلاثة عشرة منهم أثناء عهد « هتلر » كله فى الاتحاد السوفييتى ، تصدر الموقعين « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « أنتون آكارمان » • وكان أيضا من ضمن مجموعة اللاجئين أعضاء الحزب الشيوعى السابق الذين عادوا من موسكو « هيرمان ماتيرن » عضو سابق عن الحزب الشيوعى فى برلمان مقاطعة شرق بروسيا (Ospreussen) و « جوستاف سوبوتكا » عضو سابق عن الحزب الشيوعى فى برلمان مقاطعة منطقة الرور (Ruhrgebiet) ويهتم بنوع خاص بمسائل الفلاحين ، والشاعر « يوحنا • ر • بيشر » و « ايللى شميت » زوجة « أنتون آكارمان » آنذاك ، ووقعت على البيان باسمها الحركى « أرينى جيرتنر » الذى كانت تعرف به فى موسكو ، و « مارتا آريندسى » كانت رفيقة النضال مع « كلارا ستكين » ، كذلك « بيرنارد كونين » مدرسى السابق فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • وانضم اليهم من « مجموعة أولبريخت » اثنان فقط هما « أوتو فينسر » و « هانز مالى » •

وبجانب الثلاثة عشرة اللاجئين ، وقع ثلاثة من القياديين الذين كانوا يقومون بنشاط سرى فى ألمانيا ، أو كانوا فى معسكرات الاعتقال • وكان اثنان منهم — وهما « أوتومار جيشكى » و « هانز بيندريتسكى » — يعملان فى « مجموعة أولبريخت » منذ الأيام الأولى من مايو • كان « فرانس داليم » — وكان الأمريكيون قد أطلقوا سراحه من معسكر الاعتقال — متوقعا حضوره فى الأيام التالية •

دلت التطورات اللاحقة على أن مجموعة من الموقعين على البيان — مثل « سوبوتكا » و « ايدفين هورنل » و « ميخائيل نيدركيرشنر » و « مارتا أريندسى » — قد ذكرت أسماءهم فقط على أساس أنهم شيوعيون معروفون من عهد ما قبل عام ١٩٣٣ م فلم يقوموا بدور يذكر فى التطورات اللاحقة فى الحزب •

وضعنا البيان فى آلات الطباعة ، وبدأنا فورا بالعمل التالى : تجهيز « جريدة الشعب الألمانية » وعندما اشتغلت آلات الطباعة ركبت السيارة مع « باول فانديل » و « فريتس أربن بيك » وانطلقنا ، ثم توقفت السيارة أمام مبنى متهدم فى وسط المدينة ، فى شارع « ماورا » على ما أذكر •

— « هل سنكون هيئة التحرير هنا » ؟

لم تبد عليـه الأبهـة ، اذ وضعت فى الحجرات بعض المكاتب والكراسى ، ولم يكن له شبابيك •

ولم نكد ننتهى من القاء نظرة على الحجرات حتى حيانا رفيق كان قد أسند اليه قبل بضعة أيام حل المشاكل الفنية فى الجريدة الجديدة ، وأثبت هذا الرفيق جدارة ، فقد اسـتطاع فى اليوم الأول بمساعدتنا تأثيث الحجرات نسبيا ، وأحضر فجأة أعدادا كبيرة من الآلات الكاتبة ، ورفوف الكتب • مضت ساعة أخرى ثم وصلت فتاتان لأعمال الاختزال والكتابة على الآلات الكاتبة ومن المحتمل أنهما أرسلتا عن طريق هذا الرفيق الذى يبذل جهودا جبارة لتجهيز مقر الجريدة •

هىء كل شىء لبدء العمل ، واتفقنا سريعا على أن يكتب كل منا شيئا فى موضوع معين ، فكلفت بقراءة أعداد آخر سنة من جريدة « ألمـانيا الحرة » واستخراج شىء منها يناسب احتياجاتنا الحالية ، وبعد ساعة أوضحت أصوات الآلات الكاتبة أن تحرير جريدة الحزب الشيوعى الألمـانى تقفز الى الأمام نحو الظهور •

ظهر فى العدد الأول من « جريدة الشعب الألمـانية » ـ كما كان مقررا قبل ذلك ـ البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمـانى • وفى نفس اليوم تلقيت التكليف الكبير أيضا : « يجب علينا غدا أو بعد غد جمع كلمات التأييد للحزب الشيوعى الألمـانى • سافر بالسيارة فى برلين شرقا وغربا ، ودون كل الكلمات التى يعبر بها الشعب عن البيان • ولكن لا تجمع كلمات رفقائنا ، بل أسئلة ومقابلات مع الناس العاديين فى الشوارع • توجد عربة فى الخارج فيمكنك أن تأخذها » •

ـ « ان المقابلات الصحفية مع الناس فى الشوارع أسهل من تعيين عمدة » • قلت ذلك لنفسى ، وعزمت على البدء فى هذا العمل ! وعندما سرت بالعربة بضعة دقائق تبخر تفاؤلى • كيف العمل بالضبط ؟ هل أفاجىء الناس العاديين بالأسئلة ؟ لم أكن فى يوم ما محررا صحفيا ، أجمع أقوال الناس من الشوارع ـ ولكن تكليف الحزب هو تكليف الحزب ! كلما رأيت مجموعة من الناس واقفين فى الشارع أوقفت العربة وتغلبت على الخوف وسألتهم عن رأيهم فى البيان التأسيسى للحزب الشيوعى •

كانت الاجابات كوارث :

« أى بيان ؟ وأى حزب » ؟

« لم أسمع بمثل هذا البيان » !!

« ماذا ؟ هل يعود حزب مرة أخرى ؟ لقد طفح الكيل من الحزب السابق » .

« لا أهتم اطلاقا ببيانكم » .

« أليس عندك ما يشغلك غير هذا أيها الشاب » ؟

وعندما رجعت الى العربة دونت كل الأجوبة ، وان كنت لا أحتاج اليها وبعد البحث ثلاثة ساعات فى ستة أحياء من أحياء برلين عن رد فعل البيان التأسيسى للحزب الشيوعى الألمانى عند الشعب ، توقفت متعبا أمام دار بلدية « شارلوتينبرج » .

قابلت أحد القياديين الذين عينتهم فى ادارة الحى فقصصت عليه حظى السىء .

— « هل تريد آراء تأييد من الشعب بالاسم والعنوان ؟ ليس من الرفقاء بل من أفراد الشعب » ؟

— « نعم .. وينبغى أيضا أن يكون من بينهم أفراد من الطبقة المتوسطة » .

— « حسنا .. سأرسل لك كل شىء » .

وبعد وقت قصير وصلت الاجابة التى جمعها ، فرأينا أنه قد التزم فيها افتراض « بأن يكونوا من الطبقة المتوسطة » حرفيا . ثم جلست فى مقر هيئة التحرير مشغول البال أمام أسماء من القصابين والعمال الحرفيين — وبالذات من شارع « كورفورستيندام »(١) — عبروا بحماس عن الحزب الشيوعى الألمانى ، كتبت — متضايقا — مقدمة كبيرة ، وخاتمة طويلة ليس فيها شىء مما جاء فى كلام هؤلاء الناس ، ولكن من المفروض أن يشرح آراءهم . وظهر المقال بعنوان مثير — ولكننى قررت ألا أقوم بعد هذا اليوم بعمل صحفى يجمع آراء الناس حول موضوع ما .

أذيع بيان تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى رسميا فى ١٢ يونيو ١٩٤٥ م فى القاعة الكبرى فى ادارة مدينة برلين ، وكان عدد الحاضرين ٢٠٠ شخصا تقريبا ، كان معظمهم من موظفى ادارة برلين ، ومجموعة كبيرة من المناهضين للفاشية . وكان هذا هو الاجتماع الرسمى الأول فى برلين بعد الحرب . تحدث فى هذا الاجتماع « فالتر أولبريخت »

---

(١) سكان هذا الشارع من الطبقة الراقية . م . شامة .

و « جوستاف داريندورف » • فألقى « أولبريخت » خطبة قصيرة حيا فيها قرار السماح بتكوين الأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية ، واقترح أن تؤخذ البنود العشرة فى بيان الحزب الشيوعى الألمانى لرابطة مشتركة للأحزاب الديمقراطية المناهضة للفاشية •

ثم قدم « جوستاف داريندورف » بوصفه ممثلا للحزب الديمقراطى الاشتراكى المقبل ، فعبر فى خطابه الحماسى القصير عن أمل المناهضين للفاشية : تكوين حزب اشتراكى موحد • وللأسف — هكذا استمر فى خطابه — ان هذا ليس ممكنا ، لأن زعماء الحزب الشيوعى رفضوا ذلك ورغبوا فى أن تكون هناك فترة للوعى السياسى قبل طرح مسألة الوحدة ، لهذا السبب سيتكون الحزب الديمقراطى الاشتراكى مستقبلا ، وسيذاع بيان تأسيسه فى الأيام المقبلة •

ثم بدأت المناقشات فعبر الخطباء الذين اشتركوا فيها عن رغبتهم فى تكوين حزب اشتراكى موحد •

وعندما عدت الى مقر هيئة تحرير الجريدة ، كتبت تقريرا لجريدة الشعب الألمانية ، غير أن كل الاشارات التى وردت فى المناقشات الى ضرورة تكوين حزب اشتراكى موحد ، شطبت ولم يسمح بنشرها •

انعقد أول مؤتمر رسمى لقياديى الحزب الشيوعى الألمانى — بقيت كل الاجتماعات التى عقدناها مع قياديى الحزب الشيوعى الألمانى فى شارع « برينسين » فى الفترة من أول مايو حتى منتصف يونيو سرية لم يعلن عنها — فى ٢٥ يونيو فى مسرح « متروبول » فى برلين • وأعلن أنه مؤتمر لقياديى الحزب الشيوعى فى برلين ، ولكن كان أكثر من ثلث المشتركين فيه من مقاطعة « براندينبرج » كانت هناك مظاهر الفرح والسرور باللقاء قبل الاجتماع بساعة ، فقد تعانق الرفقاء الذين لم يتقابلوا منذ سنين عدة ، وقابلت هناك كل أصدقائى الجدد الذين تعرفت عليهم فى مقابلات واجتماعات عديدة منذ الأيام الأولى من مايو ١٩٤٥ م • اخترقت القاعة بحثا عن مكان ، فأشار الى « رومان شفالك » فجلست بجانبه •

بدأ المؤتمر الأول لقياديى الحزب الشيوعى الألمانى بعزف الموسيقى الكلاسيكية ، عزفتها فرقة « أوركسترا » أحد المسارح ، كان كل شىء منظما تنظيما دقيقا ووضح من ذلك أنهم كانوا يهدفون بذلك الى أن يضربوا المثل للقياديين ليتخذوه فى كل مؤتمراتهم القادمة ، وبهذا تزال

من الأذهان الصورة الركيكة لمؤتمر الحزب الشيوعى الألمـانى قبل عام ١٩٣٣ م ويضعوا الخط الجديد الحازم لعام ١٩٤٥ م •

وعندما تحرك لسان « أوتومار جيشكى » معلنا افتتاح المؤتمر الأول لقياديى الحزب الشـيوعى الألمـانى فى برلين الكبرى ، دمعت عينا « رومان شفاليك » الذى كان يجلس بجوارى ولم يستطع منع نفسه من الانفجار بالبكاء الا بشق الأنفس • وحدث ذلك أيضا لآخرين وخاصة أولئك الذين كانوا فى معسكرات الاعتقـال أثناء حكم « هتلر » أما « أولبريخت » فكان على العكس ، اذ ظهر أنه لم يتأثر أدنى تأثر ، وكان خطابه الجاف معاكسا لشعور معظم الرفقاء ، فقد تحدث عن توقع نصر الاتحاد السوفييتى فى النضال ضد ألمـانيا الهتلرية ، وبين أن الاتحاد السوفييتى أكثر تقدما سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، كما أكد أن ادراك الاشتراك فى الجريمة والمسئولية سوف يحتم على الشعب أن يقطع صلته بالماضى الرجعى ، ويخط طريقا جديدا • ثم أشار — دون لف أو دوران حول العبارات المنمقة — الى فصل مناطق « أودر — نايسى » ، وطالب بالتعاون التام مع سلطات الاحتلال المتحالفة • ووصف مبادىء الحزب الواضحة — متبعا فى ذلك التعليمات التى تلقيناها فى موسكو — بأنها تكميل لثورة عام ١٨٤٨ م الشعبية الديمقراطية واقامة نظـام ديمقراطى مناهض للفاشية ، ورد فى هذه النقطة على رأى العمال الذين يريدون « تطبيق الاشتراكية فورا » •

وتحدث « أولبريخت » عن الرغبة الأكيدة فى اقامة علاقة اخلاص وود بين الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ولكن عارض الاندماج السريع فى حزب اشتراكى موحد • ومن أجل هذا تكون بعض الالتزامات ضرورية وفى مقدمتها « الادراك العلمى لقوى التقدمية من الطبقة العمالية والشعب العامل ، عن الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ، وعن مفهوم الحياة فى « الماركسية — اللينينية » •

وفى النهاية أعلن « أولبريخت » عن تعريف جديد للحزب الشيوعى ، علمت فيما بعد أنه من عمل « فريد أولسنر » فبدلا من الصيغة القديمة التى سادت فى فترة ما قبل عام ١٩٣٣ م ، والتى كانت تتحدث عن الحزب « البوليتارى » الثورى ، تغيرت النغمـة الآن ، فأصـبحت الشعارات : الحزب الوطنى ، وحزب الشعب ، وحزب السلام • وينبغى

أن يضم الحزب « أحسن الرجال والنساء من طبقات الشعب الخلاق وكل المناضلين الشرفاء ضد الفاشية » •

وانتقد « أولبريخت » الوضع فى بعض المناطق حيث قبل عدد قليل من الراغبين الجدد فى الانضمام الى الحزب ، لأن بعض القياديين « وضعوا شروطا قاسية للانضمام الى الحزب » وهذا خطأ جسيم •

سمع هتاف عال ، عندما قال « أولبريخت » بأعلى صوته « يسمح بالانضمام الى الحزب لكل المناهضين للفاشية ، سواء أكانوا كاثوليكيين أو بروتستانتيين ، أو يهـود ، فليس للعقيـدة أدنى تأثير فى شروط الانضمام الى الحزب » •

وعندما انتهى « أولبريخت » من خطابه ، غنى الحاضرون أناشيد عالمية ، ورفع كثيرون قبضة أيديهم تحية للجبهة الحمراء القديمة ، وهى تحية أعضاء الحزب القدامى قبل عام ١٩٣٣ م ، ولكن « أولبريخت » وأعضاء هيئة الزعامة ، وكل أولئك الذين كانوا فى الصالة من المخلصين « للخط الجديد » لم يرفعوا أيديهم ، وعندما لوحظ ذلك أنزل كثيرون أيديهم ، كان هذا مثالا صغيرا ، ولكنه ذو طابع خاص على تغيير ما كان قبل عام ١٩٣٣ م فى الحزب الشيوعى الألمـانى ، فقد تغير من حزب ثورى معارض مكافح للوصول الى هدف ديكتاتورية « البوليتاريا » ، الى حزب دولة ، يدعو الى الديمقراطية المناهضة للفاشية ، والى نظام برلمـانى ديمقراطى •

* * *

الجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية

نفذ الجزء الأول من التعليمات التى أحضرها « فيلهيلم بيك » والزعماء الآخرون معهم من موسكو فى أوائل يونيو • وكان الجزء الثانى أكثر صعوبة ، وهو تأسيس أحزاب أخرى ديمقراطية مناهضة للفاشية ، وتكوين جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية • أعلن فى ١٧ يونيو ١٩٤٥ البيان التأسيسى للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، الذى كان أبعد منا درجـة الى اليسار وأيضا جريدة تنطق بلسانه أطلق عليها اسم : « الشعب » ، وكانت فى صورتها وحجمها أصغر من جريدة الشعب الألمـانية (Deutsche Volkszeitung)

وبعد تأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى بأيام قليلة ، اتفقت هيئة الزعامة فى كلا الحزبين على تكوين مجلس عمل مشترك ، يمثل فيه خمسة من المراكز الرئيسية فى كلا الحزبين ، وتكون مهمته العمل المشترك فى النضال ضد البقية الباقية من النازية ، وبناء جمهورية برلمانية ديمقراطية مناهضة للفاشية ، كذلك افساح المجال لتوضيح المسائل الأيديولوجية ، عن طريق تنفيذ اقامة المؤتمرات المشتركة واللقاءات الجماعية •

وقع على الاتفاق من الحزب الديمقراطى الاشتراكى « ايريش ف • جنيفكى » و « أوتو جروتيفول » و « جوستاف داريندورف » و « هلموت ليمان » (وكلهم كانوا فى ألمانيا أثناء الحكم النازى) ، ومن الحزب الشيوعى « فالتر أولبريخت » و « أنتون آكارمان » و « أوتومار جيشكى » و « أوتو فينسر » (ثلاثة من اللاجئين السياسيين فى موسكو ، وواحد من الحركة السرية المناهضة) •

وبعد تأسيس الحزب الشيوعى الألمانى ، وتأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى ، وتكوين لجنة العمل المشترك بين الحزبين • أصبحت مسألة الأحزاب الأخرى المناهضة للفاشية ضرورية • كنا معتقدين أن الحزب الديمقراطى القديم ، وحزب « الوسط » سوف يظهران من جديد باسميهما القديمين • صدرت التعليمات الى رفقائنا فى الأحياء المختلفة ، بأن ينظموا جبهة متحدة من ممثلى كلا الحزبين ، وحدث هذا أيضا فى أجزاء مختلفة من برلين ، ونشرت فى « جريدة الشعب الألمانية » عن مؤتمر موحد لممثلى « الحزب الديمقراطى » وحزب « الوسط » رغم أنهما لم يتكونا بعد •

مضى أسبوعان ولم تتكون الأحزاب الوطنية التى ينبغى أن تتكون معها جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية ، فقد اصطدمنا هنا للأسف بقوى لا تريد أن ترسم لها خطوط محددة •

وأثناء الساعات القليلة التى لم أقضها فى هيئة التحرير ، بل فى مقر حزبنا فى شارع « برينسن » ، كانت الأحزاب الوطنية هى الموضوع الرئيسى للحديث • كان « أولبريخت » عصبيا :

— « يجب أن نتيقظ ، فـ« هرمس » ينحرف بالعملية ، فهو لا يريد تنظيم حزب « الوسط » بل تنظيم حزب وطنى متحد » •

تلقى أعضاء « مجموعة أولبريخت » السابقة — الذين لم يرسلوا

كـ« مارون » و « فينسر » الى ادارة برلين ، ولا كـ« مالى » الى الاذاعة ، أو مثلى الى الجريدة — واجبات جديدة كل الجدة : يجب عليهم تركيز جهودهم فى مسألة تأسيس الأحزاب الوطنية ، وكان فى ذلك التكليف روح معارضة ، فـ« جيبتنر » ذو الطابع « الستالينى » الخالص ، يتلقى هو بالذات تعليمات بأن يتصل « بالأوساط الليبرالية » .

ظهر حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ببيانه التأسيسى فى ٢٥ يونيو وأصدر جريدته « العصر الحديث » بشكل مماثل لجريدتنا ، وسرعان ما ظهرت معارضة الديمقراطيين الاشتراكيين ، الذين لم يعودوا مسرورين من شكل جريدتهم الصغير ، ولكن حلت المشكلة بسرعة : فلم يسمح لجريدة « الشعب » بتكبير حجمها بل خرجت جريدة « العصر الحديث » بالحجم الصغير ، وبقينا نحن محافظين على حجم جريدتنا الكبير .

أثار تكوين حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى الاهتمام بمسألة تكوين « الحزب الوطنى الثانى » .

استفسر « أولبريخت » من « جيبتنر » :

— « يا « ريتشارد » .. كيف الحال الآن مع الليبراليين » ؟

— « نعم يا « فالتر » .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ كنت عندهم مرات عديدة ، وتكلمنا كثيرا ، ولكنهم لا يريدون الآن تأسيس حزب » .

فحثه « أولبريخت » قائلا : « حاول اقناعهم يا « ريتشارد » !

لم أعلم عما اذا كان « جيبتنر » قد نجح فى اقناعهم أم لا ؟ ولكن على أى حال ، فقد أعلن فى يوليو تأسيس « حزب ديمقراطى ليبرالى » .

وبعد ذلك بأسبوع واحد — أى فى ١٤ يوليو — صدر بيان عن تكوين جبهة ديمقراطية متحدة مناهضة للفاشية . من الحزب الشيوعى الألمانى ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى .

قرر زعماء الأحزاب النضال المشترك لتطهير ألمانيا من بقية الهتلرية ، وطالبوا ببناء الدولة على أساس ديمقراطى مناهض للفاشية ، والعمل سويا على اعادة بناء الاقتصاد بأسرع ما يمكن ، وارساء قواعد علاقة احترام وتعاون مع الشعوب الأخرى ، وتنفيذ الاجراءات التى تتخذها سلطات الاحتلال . وفى نفس الوقت « تلزم الأحزام الأربعة » باقامة العدالة القانونية على أسس دولة قانونية ديمقراطية ، وتأمين

حرية الفكر والضمير ، كذلك احترام كل العقائد الدينية والآداب والتقاليد الناشئة عن النظرة الى مفهوم الحياة » •

نشر خبر تكوين الجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية بالخط العريض على الصفحة اولألى فى « جريدة الشعب الألمـــانية » ، وبهذا نفذ بعد شهرين ونصف من وصول « فيلهيلم بيك » تكوين الأحزاب ، وأنشئت هيئة العمل المشترك • كما رسمت خطوطها من الجبهة المركزية العليـــا •

وكان هذا مبدئيا فى برلين فقط •

لم يوجد فى الريف فى بادىء الأمر سوى الحزب الشيوعى ، بينما لم يؤسس الحزب الديمقراطى الاشتراكى الا بعد أسابيع ، والأحزاب الوطنية الأخرى بعد أشهر عديدة • أخبرت الادارة السياسية الرئيسية الحكمداريين السوفييت بتأسيس الأحزاب الأربعة ، وتكوين الجبهة المتحدة ، وأمرتهم بمساعدتها • وقعت فى غضون ذلك حادثة « تروتسكين » فقد حكى أحد الرفقاء من مركز ناء فى مقاطعة « براندينبرج » كيف استدعاه الحكمدار بعد تكوين الجبهة المتحدة للأحزاب الأربعة وقال له :

« وصلتنا أنباء هامة من برلين ، بأنه تأسست أربعة أحـــزاب ديمقراطية مناهضة للفاشية ، وتكوين جبهة متحدة ، ويجب أن أعرف الوضع الآن فى المركز ، هل يوجد عندنا حزب اشتراكى » ؟

ــ « لا •• لم يوجد بعد أيها الرفيق الحكمدار » !

ــ « سىء جدا •• لابد أن يكون عندنا حزب ديمقراطى اشتراكى • هل عندنا حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » ؟

ــ « لا •• أيها الرفيق الحكمدار » •

ــ « ولم لا ؟ مكتوب هنا : الاتحاد الديمقراطى المسيحى • هل يوجد عندنا حزب ديمقراطى ليبرالى » ؟

ــ « لا •• أيها الرفيق الحكمدار » •

غضب الحكمدار غضبا شديدا :

ــ « أيضا لا ؟ سىء ! لابد أن يكون هنا حزب ديمقراطى ليبرالى • أنت مكلف بتأسيس كل الأحزاب كما هو مكتوب هنا » •

ــ « ولكن لا يتأتى هذا أيها الرفيق الحكمدار ، فأنا سكرتير الحزب الشيوعى الألمـــانى فى المنطقة ولا أستطيع أن أؤسس حزبا آخر » •

فتنبه الحكمدار :

ــ « هل تعرف الديمقراطيين الاشتراكيين » ؟

ــ « نعم •• أيها الرفيق الحكمدار ، ولكنهم انضموا الى الحزب الشيوعى » •

ــ « لا بأس ، يجب أن ينفصلوا ويؤسسوا الحزب الديمقراطى الاشتراكى كما هو مكتوب هنا » •

وقد حدث ، وأخيرا وجد أيضا اثنان وطنيان نظمـا مجموعات الحزبين الآخرين •

فرك الحكمدار يده مسرورا :

« الآن •• جيد » ! قالها بصوت عال ، ثم دعا السكرتير ليتناول معه كأسا من « الفودكا » • « والآن يمكننا أن نرسل تقريرا بأنه عندنا كل الأحزاب كما هو مكتوب فى التعليمات التى وصلتنا من برلين ؛ وعلينا الآن أن نكون فورا الجبهة المتحدة » •

من المسلم به أن هذه كانت حالة غريبة ، ولكن ــ كما ظهر لى ــ لم يكن من المشكوك فيه أن الأحزاب الأربعة تأسست من أعلى ، من الجبهات المركزية • وفى يوليو ١٩٤٥ م ــ بعد ما شوهد تصرف القوات الروسية ــ اختفى النشاط الذاتى فجأة كما ظهر فجأة فى مايو عندما تكونت اللجنة المتحدة المناهضة للفاشية • وكانت هذه حركة حقيقية من القاعدة أفسدت البذرة • بدأت زعامة الأحزاب التى تأسست فى البحث عن أعضاء باخلاص ونشاط كبير ، ولكن الآمال الكبيرة التى فجرت النشاط العملاق والمبادرات الذاتية عند المناهضين للفاشية كانت قد اختفت ولم يعد لها أثر •

أما ظاهريا ، فقد سار كل شىء طبقا لمـا هو مرسوم • نعم كان هناك تردد ضد تأسيس الأحزاب الوطنية ، وكانت أسماؤها تختلف أيضا عن الأسماء التى اخترناها ، ولكن ما يتعلق « بالخط » ، فقد تطابقت التطورات بالضبط مع التعليمات ، التى أحضرها « فيلهيلم بيك » معه من موسكو •

* * *

الباب الثامن

عضو في السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكي الألماني

فى ضحى أحد الأيام المشمسة من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ وقفت اثنتا عشرة سيارة نقل أمام المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » لنقل الأثاث اللازم لتأثيث مبنى الحزب الجديد • كان الرأى يتجه أساسا الى تأثيث منزل « كارل ليبكنيشت » السابق ، ليكون المقر المركزى للحزب الشيوعى الألمـــانى ، ثم تبين أن ذلك غير ممكن ، فتقرر اتخاذ مبنى أكبر فى شارع « فـــال » رقم ٧٦ — ٧٩ فى وسط مدينة برلين •

استمر العمل ليلا ونهارا لتجهيز وتجديد المبنى ، فانتهت هذه العملية بعد وقت قصير ، وأمكن البدء فى التأثيث •

تقرر أن يكون فى الدور الأول فى مقر الحزب الجديد ، مكاتب أعضاء القمة الأربعة « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « فرانس داليم » و « أنتون آكارمان » •

انهمك النجارون فى عملهم ، فجاء « فيلهيلم بيك » وهو نجار سابق ، ولم يكن قد أصبح رئيسا بعد ، بل كان عضوا مسرورا جدا لأنه عاد الى برلين — وارتدى بدلة العمل ، وساعدهم بنفسه ، ولم أره — الا نادرا — مسرورا مثل ما كان فى تلك الأيام •

انتهت عملية النقل من المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » الى مقر الحزب الجديد بعد أسبوع ، وفى نفس الوقت انتقلت أنا و « فالديمار شميت » الى سكن خاص فى شارع « فروشهايم » فى حى « بانكوف » •

تصادقت مع « فالديمار » — الذى ظل فى معسكرات الاعتقال طوال عهد النازيين ، اثنى عشر عاما ، والآن رئيس الحزب الشيوعى فى برلين — منذ الأيام الأولى من مايو • دبر السكن واقترح على أن أنتقل معه •

كذلك بحث قياديون آخرون — ومعظمهم فى « بانكوف » — عن

سكن خاص • ولم يبق الا « المخلصون للخط » فى المنزل رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » الذى عرف من الآن فصاعدا على أنه « مبنى سكن العاملين فى اللجنة المركزية » •

انتهت فترة حمى الانتقال — وبدأت الحياة العادية • سكنت مع رئيس الحزب فى برلين ، وكان مقر العمل يدعى : اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمـــانى ، فى شارع « فـــال » رقم ٧٦ — ٩٩ •

قسم العمل بعد النقل مباشرة الى أربعة أقسام تابعة « للأربعة الكبار » ، فأسند الى « فيلهيلم بيك » القيادة العليا ، وكان مسئولا أيضا عن السياسة العامة ، والى « فالتر أولبريخت » الاقتصـــاد ، والزراعة ، والنقابات وجهاز الدولة ، والى « فرانس داليم » أنظمة الحزب ، والى « أنتون آكارمان » الصحافة ، والتعليم ، والتثقيف الشعبى ، والثقافة الحزبية •

كان « أولبريخت » رئيسى حتى ذلك الحين ، ولكن أظهرت « قيادتى » فى هيئة تحرير جريدة الحزب بأنى سأستمر فى العمل الصحفى ، وفى العمل السياسى الحزبى ، وتحقق ذلك أيضا : لم يكن قد استكمل تأثيث منزلنا ، حين استدعانى « أنتون آكارمان » :

— « لقد رأينا أن تكون نائب رئيس قسم الصحافـــة فى اللجنة المركزية ، مسرور » ؟

— « طبعا •• جدا ، ومن رئيس قسم الصحافة » ؟

— « ليس عندنا الآن رئيس قسم صحافة ، فستكون وحدك مؤقتا » •

وسرعان ما كثر العمل ، فامتلأت فى الأيام القليلة الأولى رفوف الكتب ، وخزائن المجلات ، حتى التقارير والبحوث التى لم تكن متعلقة تعلقا مباشرا بتلك المسائل التى تهتم بها الأقسام الأخرى ، أرسلت ببساطة الى قسم الصحافة ، كذلك كثر الزوار ، فبدأت أحس بأنى أتولى رئاسة قسم مشغول بكل الأشـــياء ، التى لا تريد الأقســـام الأخرى انهاءها وأصبحت عادة مألوفة أيضا أن يرسل الى المندوبون السوفييت ولم يكن عددهم قليلا — الذين يريدون أن يأخذوا « صورة عامـــة » عن سير العمل • وكان لزاما على صابرا أن أشرح للزوار — يوميا أكثر من مرة — أهمية البيان التأسيسى للجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية وأهدافها ، واعادة تكوين النقابات من جديد ، و « الخط العـــام » •

وأضيف الى ذلك الاتصال بـ« جريدة الشعب الألمـــانية » • وعلاوة على ذلك فقد تحتم على الاشتراك فى الاجتماعات ، والقيام بمهمات خاصة ، والسفر مع « أولبريخت » و « آكارمان » وترجمة بحوث من الروسية ، وكتابة تقارير للجريدة الناطقة بلسان الحزب ، أو تجهيز خطبة ، وكتابة بيان اللجنة المركزية الذى سيذاع فى ٧ نوفمبر •

وهكذا كان يوم العمل مملوءا ، وكان يوم عمل طويل ! كانت فترة العمل الرسمية آنذاك فى اللجنة المركزية ، للحزب الشيوعى الألمـــانى عشر ساعات فى اليوم ، فالزمن الرسمى للعمل من ٩ صباحا حتى ٧ مساء ، ولكنها كانت تزيد عن ذلك فى معظم الأيـــام ، وكنت ترى كثيرا من القياديين فى ساعة متأخرة من الليل فى مقر الحزب •

* * *

« تكليف خاص » الاصلاح الزراعى

استدعانى « أولبريخت » ذات يوم بعد الظهر :

« اعمل حسابك على أن تنتهى من عمل ما فى يدك اليوم ، حتى لا يكون عندك عمل غدا ، فسوف تسافر معى الى مقاطعة « براندينبرج » •

وعندما وصلت فى صباح اليوم التالى الى مقر اللجنة المركزية ، كان « أولبريخت » على اســتعداد للسفر ، فعرفنى على اثنين من كبار أعضاء الحزب الشيوعى الروسى المتخصصين فى الشئون الزراعية :

— « سوف نسافر سويا مع هذين الرفيقين » •

ثم تحركنا بعد دقائق قليلة ، فى العربتين الأنيقتين الـ« ليموزين » الخاصتين باللجنة المركزية • وشرح لى « أولبريخت » فى الطريق طبيعة هذه المهمة •

— « يجب أن ندرس بعض مسائل تسليم الانتاج الزراعى ، ونهيىء الوضع لقانون الاصلاح الزراعى » •

دارت مناقشات فى أماكن مختلفة فى مقاطعة « براندينبرج » — ومناقشة موسعة بشكل خاص فى « كيرتس » — مع الحكمداريين والعمد ، ومع الأخصائيين الزراعيين ، فتعجبت من معلومات « أولبريخت » التفصيلية المضبوطة عن حصة تسليم المحاصيل الزراعية للحكومة فى

عهد النازية • وازدادت دهشتى أيضا عندما فتح المرافقان السوفييتيان — وكانا يتحدثان اللغة الألمانية بطلاقة — حقيبتيهما ، وأخرجا منها رزما من الاستمارات والأوامر والوثائق عن حصة تسليم المواد الزراعية للحكومة فى عهد النازية ، ووضعاها على المنضدة • ازدادت حدة المناقشة بنوع خاص مع أخصائيين « هواهما مع الامبراطورية » • كان لدى « أولبريخت » معلومات تفصيلية عن كل شىء ، فتواترت الأسئلة واحدا بعد الآخر ، وكانت اجابة موظفى الامبراطورية السابقين مختصرة جدا ، فشرع « أولبريخت » أجنحته ، كعادته عندما تتعلق المناقشة بمسائل تنظيمية عملية •

لم أفهم كثيرا من هذا الموضوع كله ، فنحن لم نتعلم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية هذه المسألة بدقة ، ولكن على قدر ما أمكننى تابعت المناقشة ، فقد كانت تدور حول كيفية امكان تعديل تسليم المحاصيل الزراعية ، كى تتناسب مع الظروف الجديدة • ونوقشت بالتفصيل مسألة عدم القسوة على المزارعين فى اللجنة التى يفرض عليهم تسليمها ، وأعتقد أنهم قرروا فى ذلك اليوم مقدار « الكمية التى تترك للفلاح » وكانت قليلة جدا •

قضينا اليوم كله فى مناقشات مع الأخصائيين حول مشاكل تسليم المحصول الزراعى الى الحكومة ، ولم نتحدث فى موضوع الاصلاح الزراعى الذى كان يثير اهتمامى جدا •

وقبل مغادرة « كيريتس » عقدت محادثة بين « أولبريخت » والضابطين ، فقال أحدهما :

« الأشياء واضحة جدا الآن ، فنستطيع تجهيز الاقتراحات اللازمة وربما يكون من الأفضل التوقف فى أى قرية صغيرة ، لنتحدث مع بعض الفلاحين عن الاصلاح الزراعى » •

توقفنا فى طريقنا من « كيريتس » الى برلين فى قرية صغيرة ، فذهل رئيس الناحية من زيارة الضيوف الكبار المفاجئة ، فقال له « أولبريخت » : « هل يمكن أن نجمع كل الفلاحين » ؟

— « طبعا » •

— « كم من الوقت يستغرق هذا » ؟

— « قريتنا ليست كبيرة ، فسيكون كل الفلاحين هنا فى مدى ربع ساعة » •

وفى غضون ذلك تجمع بعض الفلاحين أمام منزل رئيس القرية ، فقيل لهم : « اذهبوا بسرعة ، واجمعوا كل الناس ، فالمسألة هامة جدا » •

وفى هذه الفترة استفسر « أولبريخت » بطريقته المختصرة من رئيس القرية عن الوضع العام فيها ، عن الملكية ، وعن نوعية خصوبة الأرض وعن أشياء زراعية أخرى •

اجتمع الفــلاحون بعد حوالى ١٥ — ٢٠ دقيقة ، وتمتم بعضهم بكلمات غيرمفهومة ، ولكنها رنت فى الأذن مثل « نهاركم سعيد » ونظر البعض الآخر نظرة ارتياب وشك •

سأل « أولبريخت » عن المحصول وعن تسليم الحصة الى الحكومة ، ولكن لم يجب اجابة ذاتية الا ثلاثة فقط بعد تردد طويل ، فكان بعضهم ينظر مرتابا الى كلا الضابطين اللذين وقفا فى أحد أركان الحجرة •

ولم يزدد اشتراكهم فى النقاش الا بعد أن سأل الضابطان — وهما يبتسمان — بعض الأسئلة باللغة الألمــانية ، وقدما أيضا بعض السجائر للفلاحين • وشيئا فشيئا بدأ الفلاحون من أنفسهم يتحدثون عن خصوبة الأرض • وعندئذ أدار « أولبريخت » دفة الحديث الى الهدف المحدد : الاصلاح الزراعى • تحدث « أولبريخت » عن توزيع أراضى الاقطاعيين ، فذكر أن الفلاحين سيحصلون على مساحات أكبر •

— « اشرحوا لنا مغزى هذا الكلام » !

أعادوا النظر الينا بارتياب ، وساد صمت تام • وأخيرا قطع أحد الفلاحين هذا الصمت :

— « نعم •• لن يكون الوضع سيئا ، لو حصلنا على أرض أكثر » •

وبعد أن شرح رئيس القرية ، الموضوع مرة أخرى ، وافق أيضا بعض الفلاحين ، وهز الصامتون رؤوسهم بالموافقة •

لم يكن الوضع كما تصورت بأن الفلاحين سيتحمسون تحمسا شديدا للاصلاح الزراعى ، ولكن عبر كل الحاضرين عن موافقتهم ، وان اختلفت طرق التعبير •

كنت أتمنى أن أمكث مع الفلاحين وقتا أطول ، ولكن « أولبريخت » نظر الى ساعته ، فاقترح الضابطان السوفييتيان الاكتفاء بهذا •

توقعت أن نتوقف فى قرية أخرى لنختبر رد فعل الفلاحين على مشروع الاصــلاح الزراعى فى أماكن عــدة ، ولكن « أولبريخت » والضابطين السوفييتيين رأوا أن ذلك غير ضرورى •

وصلنا الى برلين فى المساء ، ثم وضح لى بعد أيام قليلة أنه لم تقتصر نتيجة هذه الرحلة على تحديد ما يترك للفلاحين من الانتاج الزراعى ، بل كان من نتيجتها أيضا قرار البدء فى تنفيذ الاصلاح الزراعى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى (١) •

قال لى « آكارمان » بعد أيام قليلة :

« يجب أن تعمل اليوم مدة أطول ، وعليك أن تدبر اثنين من عاملات الاختزال على الآلة الكاتبة ليظلا معنا لأننا مكلفون بترجمة مهمة » • تلقيت نصا روسيا مكتوبا على الآلة الكاتبة لترجمته ، وطلب منى « آكارمان » أن أرسل له أولا بأول كل صفحة بمجرد الانتهاء من ترجمتها • كان هذا النص هو مشروع قانون الاصلاح الزراعى •

ينص مشروع القـرار على ضرورة الاستيلاء على كل أملاك الاقطاعيين الزائدة على مائة هكتار (الهكتار يساوى ثلاثة أرباع الفدان) بكل ما عليها من مبانى ، وما فيها من آلات وحيوانات ، ومصادرة كل أراضى مجرمى الحرب ، والمسئولين فى الحزب النازى ، وتضم أيضا الأراضى التابعة للدولة الى الاصلاح الزراعى ، اذا لم تكن تابعة لمعاهد الأبحاث الزراعية ، أو مراكز تعليمية ، أو حقول تجارب •

ولا يسرى قانون الاصلاح الزراعى على المساحات التابعة لادارة المدينة وتكون لازمة لتموين سكانها ولا على الأراضى التابعة للمجالس المحلية فى المقاطعات ، ولا على أراضى الجمعيات التعاونية ، والمدارس الزراعية ، كذلك لا يسرى على أراضى المؤسسات التابعة للكنيسة •

ويتولى تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى لجان محلية فى القرى ، يجرى انتخابها فى اجتماع عام للعمال الزراعيين ، والمعدمين والفقراء من الفلاحين • ويرأس لجنة المركز مدير الاقليم أو نائبه • ويبدأ تنفيذ القانون بعد اعلانه مباشرة ، وتنتهى اجراءات تنفيذه فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م •

---

(١) من المسلم به أن موافقة الفلاحين فى القرية الصغيرة الواقعة بين « كيريتس » وبين برلين لم يكن له تأثير اطلاقا على قانون الاصلاح الزراعى ، لأنه كان قد اتخذ فيه قرار مبدئى ، اذ أن من طابع « الستالينية » أن يسمع رأى « الشعب » بطريقة أو بأخرى ، قبل تنفيذ الاجراءات التى تقرر تنفيذها قبل عملية سماع الآراء •

خطر ببالى وأنا أترجم مشروع القــانون أن التقديرات كانت « سليمة » نسبيا ، فحين علمت فى الأسبوع الأول من يونيو أن قانون الاصلاح الزراعى سينفذ فى عام ١٩٤٥ م بدأت أجمع كل المعلومات عن الاصلاح الزراعى فى بولندا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا .. الخ . وكتبت مقالات عديدة عن هذا الموضوع فى « جريدة الشعب الألمــانية » والناطقة بلسان الحزب الشيوعى الألمــانى ، فالحد الأقصى للملكية الزراعية فى بولندا ورومانيا خمسون هكتارا ، وفى بلغاريا ويوغسلافيا ٣٥ هكتارا ، فأوضح الفرق فى التحديد أننا لم نجبر على اتباع نموذج موسكو ، بل استطعنا أن ننهج ســياسة أسست طبقا لظروف البلد الخاصة . ولم يغير من رأيى هذا ، أن قانون الاصلاح الزراعى ترجم من اللغة الروسية ! فقد اقتنعت آنذاك — أما اليوم فلا ! — أن القانون من عمل رفقائنا الألمــانيين ، ثم أعطوه لسلطة الاحتلال لبحثه ، وهناك ترجم الى الروسية ، وأنا أعيد ترجمته الى الألمــانية .

رأيت النص الذى ترجمته مرة أخرى فى سبتمبر قانونــا تحت عنوان : قانون الاصلاح الزراعى فى مقاطعة « زاكسين » ، وتبع ذلك صدور قوانين مشابهة للمقاطعات الأخرى فى المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى . انعقد اجتماع آخر للجنة المركزية بعد أسبوعين من صدور قانون الاصلاح الزراعى ، ودعيت أيضا لحضور هذا الاجتماع . وكان الجهاز لا يزال آنذاك صغيرا ، فسار كل شىء سهلا دون تعقيد روتينى .

كان عدد المجتمعين فى صالة اجتماعات اللجنة المركزية يتراوح بين ٢٥ — ٢٦ قياديا ، جلسوا حول منضدة ، وضعت فى الوسط ، وجلس على رأسها « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » وحضر من « زاكسين — انهالت » « برنارد كونين » ومن « ميكلينبرج » « هيرمان ماتيرن » ولم يحضر من القياديين السابقين — الذين انضموا فى هذه الأثناء الى العاملين فى الادارة المركزية — سوى « ادفين هورنل » و « باول فانديل » .

كان الموضوع الرئيسى فى جدول الأعمال هو الاصلاح الزراعى . ألقى الواحد بعد الآخر تقارير عن الوضع فى المقاطعات المختلفة ، وكان الحديث مفتوحا آنذاك فى هذا الوسط ، فأمكن للمرء أن يأخذ صورة دون رتوش ، سواء أكانت عن تلك المناطق التى نفذ فيها الاصــلاح

الزراعى بنجاح ، أو عن الشوائب والأخطاء ، ونقاط الضعف التى ظهرت عند التنفيذ .

تحولت الجلسة بعد ساعتين الى حوار ، انتهى « برنارد كونين » من تقريره عن الاصلاح الزراعى ثم قال : « وأخيرا أود أن أبدى رجاء هاما يتعلق مباشرة بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، ففى شركة « لوينـــا »[1] تقرر ازالة آلات عنبرين لهما أهمية كبيرة فى تجهيز السماد ، وأحب أن أسأل عما اذا كان من الممكن استثناء هذين العنبرين من قرار الازالة » !

فقاطعه « أولبريخت » قائلا : « لا شأن لنا هنا بمســألة فك المــاكينات » .

— « ولكنى أود أن أشير هنا الى أهمية هذا الانتاج بالنسبة للاصلاح الزراعى ، وقد اتخذت كل الاحتياطات لمنع انتاج المواد الحربية ، ولو كانت غير مباشرة وتعهدت للعمال فى الاجتماعات .... » .

قاطعه « أولبريخت » بنغمة حادة : « لقد قلت : ان هذه المسألة ليست من اختصاصنا » .

ولكن لم ينثن « برنارد كونين » عن عزمه ، واستمر فى اصراره على بحث الموضوع قائلا :

« هذا لا يمكن ، يجب أن نصل هنا الى حل فى هذه المسألة ، لقد وعدت العمال بأن أبذل كل ما فى وسعى لابقاء كلا العنبرين اللذين ليس لهما علاقة بالانتاج الحربى ... » .

ولكن لم يتركه « أولبريخت » حتى ينتهى من كلامه ، اذ رفع صوته مهـــددا : « أنا لا أحب أن أسمع شيئا عن هذا الموضوع بعد الآن . سوف نتحدث فيه معا على مستوى آخر » .

فصمت « برنارد كونين » وكان للتهديد أثره ، فلم يسمع شىء عن عنبرى شركة « لوينـــا » بعد هذا اليوم .

استمرت الجلسة ، ولكن هذا الحوار حفر فى ذاكرتى قنوات . وكما حدث فى عام ١٩٤٢ م فى عملية النقد الذاتى ، وقرار طرد الرفيق « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وفى مايو سنة

---

(١) كانت احدى شركات الانتاج الحربى فى عهد «هتلر» ، فقررت سلطات الاحتلال فك ماكيناتها ، وتعطيل الشركة عن الانتاج . م شامة .

١٩٤٥ م عند لقاء « أولبريخت » بالشيوعيين فى برلين ، كنت هنا أيضا بجانب القيادى الذى شعر بأنه مرتبط بحياة العمال ، وليس فى جانب المسئول فى الجهاز الذى ينفذ فقط الأوامر التى تصدر من الجهات العليا •

كان موضوع الاصلاح الزراعى فى خريف عام ١٩٤٥ م هو العمل الرئيسى فى حقل نشاطنا ، فمنذ منتصف أغسطس والاجتماعات تعقد يوميا لمناقشة هذا الموضوع ، وبعد أن جهز قياديونا — أو كما كنا نسميهم « قوادنا » — بالتعليمات والارشادات ، عقدت فى كل القرى ، والكفور مؤتمرات للعمال الزراعيين وصغار الفلاحين ، وكان الشعار الأول هو : « أرض ذرية الاقطاعيين فى يد الفلاحين » واستخدمت كلمة « جوته » : « قف مع الشعب الحر على أرض حرة » فى حملة الدعاية للاصلاح الزراعى ، فانهالت علينا قرارات المؤتمرين التى تطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين •

بلغت موجة المؤتمرات ذروتها فى نهاية أغسطس ، ثم أعلن فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، فدخلت الاجراءات مرحلة جديدة ، اذ لم يعد الأمر يتعلق بالدعاية له ، بل بتنفيذ ما جاء فيه • انتهت مهمة قسم الدعاية السياسية عند هذا الحد ، فمسألة تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، هى فى المقام الأول من اختصاص قسم الزراعة ، وقسم التنظيمات فى الحزب •

ومن العجيب أن اجراءات توزيع الأراضى انتهت فى زمن قصير ، فقد أعلن « ادفين هورنل » فى ٥ سبتمبر باسم الادارة الألمانية لشئون الزراعة والغابات ، أنه قد تم توزيع أراضى كبار الملاك • وذات يوم — للأسف نسيت التاريخ — استدعانى « أولبريخت » : « سيعقد اجتماع فى « كارلسهورست » ، وسيشترك فيه رؤساء وزارات المقاطعات ، ورؤساء الادارات المركزية • وأرجوك أن تحضر هذا الاجتماع ، وتدون ملاحظات ، ثم تكتب لى تقريرا مفصلا ما أمكن ، وتعطيه لى فى المساء » • ثم أعطانى بطاقة شخصية ، وقدمنى لضابط الاتصال السوفييتى •

— « سنتحرك من هنا غدا فى الساعة التاسعة صباحا ، الى « كارلسهورست » •

وبعد أن تخطينا نقاط رقابة متعددة ، واجتزنا حواجز ، قادنى ضابط سوفييتى الى قاعة الاجتماعات • وعندما دخلت القاعة كانت الجلسة قد بدأت • جلس على منصة الرئاسة المارشال « شوكوف » وحوله خمسة أو ستة جنرالات روسيون ، كانوا — كما فهمت من المناقشة — المفوضين السوفييت فى المقاطعات والمراكز • واشترك فى هذا الاجتماع عدد يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ شخصا ، من بينهم رئيس وزراء مقاطعة « زاكسين » السابق ، والدكتور « فريدريش » وألقى تقريرا مفعما بالخبرات والتجارب بهدوء ووضوح ، ورئيس وزراء « تورينجن » السابق الدكتور « باول » الذى هرب الى الغرب فى عام ١٩٤٧ م ، وعمدة برلين السابق الدكتور « فيرنر » واشترك من رئاسة الادارات المركزية « باول فانديل » وكان مختصا بالتثقيف الشعبى ، و « ادفين هورنل » وكان مسئولا عن الزراعة •

وبعد دقائق قليلة من دخولى القاعة قام رئيس وزراء احدى المقاطعات ليلقى تقريره :

— « لا أحب أن أبدأ بالقاء تقريرى قبل التعبير عن الشكر للجيش السوفييتى الشجاع ••• » •

فقاطعه المارشال « شوكوف » :

— « دع هذا من فضلك ، فلسنا هنا فى مؤتمر عام ، أرجوك ألا تخرج عن موضوع تقريرك ، حتى نستطيع أن نصفى هذه الأشياء » •

بلع رئيس الوزراء ريقه ، وانكمش • وكنت مندهشا أيضا ، فلم أشهد فى مجتمع قط مقاطعة انسان أراد مدح الجيش الأحمر • وسرعان ما تمالك رئيس الوزراء نفسه ، وتنازل عن الاستمرار فى المديح •

أنصت « شوكوف » وجنرالاته باهتمام ، وكان يلقى أسئلة بين الحين والآخر ، وغالبا ما كان يسأل هذا السؤال :

« هل تقترح شيئا معينا لازالة هذه العيوب » ؟

وبعد أن انتهى رؤساء الوزارات من القاء تقاريرهم ، طلب من رؤساء الادارات المركزية ابداء آرائهم •

— « سيكون من الأفضل ، لو ناقشنا الاحتياجات التى عبر عنها رؤساء الوزارات فى بياناتهم » •

ومن الطبيعى أنهم تحدثوا بتفصيل مسهب عن الاصلاح الزراعى ، وهنا سأل « شوكوف » سؤالا سياسيا :

— « هل تستطيع أن تعرفنى بالتقريب ، كيف تكونت لجان تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، وأى الأحزاب أكثر نشاطا ، وأيها أقل نشاطا فى تأييد الاصلاح الزراعى » ؟

وكانت الاجابة كما توقعت :

« يمثل الشيوعيين أكبر عدد فى اللجان ، ثم يأتى بعدهم الديمقراطيين الاشتراكيون ثم المستقلون ، أما ممثلو حزب الاتحــاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فعددهم قليل • وفى كثير من المناطق لا يبدون أى حماس أو نشاط » •

خيم السكون لحظة ثم قال المــارشال « شوكوف » مبتســما : « حسنا •• استمر » !

تحدث أحد رؤساء الادارات المركزية عن أن فى ادارته مجموعة من الموظفين ، لديهم خبرة واسعة فى تخصصاتهم ، ولكنهم يرتكبون أخطاء نتيجة الارتجال فى العمل •

فابتسم المــارشال « شوكوف » ابتسامة سخرية ، ولكنها لم تكن ملاحظة سيئة النية على الموظفين البروسيين •

ثم أعلن عن المتحــدث التالى ، وكان « فرديناند فريدينسبرج » رئيس الادارة المركزية لصناعة مواد الوقود ، فخطى الى المنصة بخطوات ثابتة ، ثم بدأ حديثه :

« على الرغم من أنى عضو فى ذلك الحزب الذى ذكر عنه قبل لحظات أنه لم يبد نشاطا فى الاصلاح الزراعى مثل الحزب الشيوعى ، وعلى الرغم من الملاحظة الساخرة على الموظفين البروسيين ، أحب أن أشير هنا بوصفى موظفا بروسيا سابقا •••• » •

فنظر المــارشال « شوكوف » باندهاش •

قال الدكتور « فريدينسبرج » هذه الجملة بهدوء وواقعية • وعلى الرغم من أنى كنت متفقا تماما مع رأى المــارشال « شوكوف » فى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى وفى الموظفين البروسيين ، فقد كنت معجبا بشجاعة الدكتور « فريدينسبرج » فقد أثر فى نفسى أكثر من أولئك الناس — وللأسف لم يكن عددهم قليلا — الذين لم يستطيعوا منع أنفسهم من نفاق رجال السلطة السوفييتية آنذاك ، بينما هم اليوم يعبرون عن الحقد والكراهية لهم •

ألقى الدكتور « فريدينسبرج » تقريرا وافيا عن وضع صناعة مواد الوقود ، وقال فى ختام تقريره :

« أحب أن ألفت نظر السيد المـــارشال الى الصعوبات التى تعترض عملنا ، سيلحق الضرر انتاج صناعة مواد الوقود بسبب أن الحكمداريين لا ينفذون التعليمات الثابتة ، ويصدرون بدلها تعليمات أخرى » •

فسأله المـــارشال « شوكوف » :

ــ « أى الحكمداريين ؟ هل تقصد حكمداريى المنطقة » ؟

ــ « لا •• أقصد العسكريين السوفييت المكلفين فى المصنع ، الذين يسمون أنفسهم حكمداريون ، ويتصرفون تصرف الحكمداريين » •

ــ « يا سيد « فريدينسبرج » •• سنعمل كل شىء لمنع معاكسة الموظفين السوفييت فى منطقة عملك ، حتى نضمن تطور صناعة مواد الوقود طبقا للخطة المرســومة ، وســوف أطلب معلومات كافية عن تصرف الحكمداريين فى المصنع » •

وعندما سمعت هذا ، فكرت فى هذا الوعد ، فأنا لا أشك فى نيته الصادقة ، غير أنى أعرف تكوين نظام الحكم السوفييتى معرفة تكفى لأن أعلم أن هناك ادارات لا تخضع لأوامر المـــارشال « شوكوف » ، بل تخضع مباشرة للادارة الاقتصادية فى موسكو ، وعلمت أيضا عن تطاحن الادارات السوفييتية مع بعضها فى اصدار التعليمات وتنفيذها •

كنت قبل هذا ببضعة أيام فى سيارة ضابط سوفييتى من الادارة السياسية الرئيسية للجيش الأحمر ، وكنا نسير فى المنطقة السوفييتية فى برلين فقال لى : « هنا يسكن أعداؤنا » وأشار الى منازل فى مستعمرة جديدة •

ــ « من •• النازيون » ؟

ــ « لا •• أسوأ من هؤلاء ! قوات التطهير السوفييتية » •

* * *

الكراريس الثقافية

استدعانى « فرانس داليم » فى النصف الثانى من أكتوبر سنة ١٩٤٥ م :

ــ « أوضح لى « فريد أولسنر » أن قسم التثقيف الحزبى عندنا فى موقف حرج ، فقد عينوا رفيقا لتجهيز المـــادة العلمية الأسبوعية ، ولكن

يبدو أنه لم يتقدم فى هذا العمل ، وينبغى أن تجهز الكراسة التالية فى ظرف ستة أيام . هل تستطيع — بصفة استثنائية — كتابتها » ؟

— « فى أى موضوع » ؟

— « عنوان الموضــوع : فى الذكرى الشــامنة والعشرين لثورة أكتوبر » .

— « حسنا .. سوف أجهزها » .

كتبت الكراســة التعليميــة المطلوبة ، دون ادراك لنتيجة هذه « المساعدة الخارجة عن دائرة عملى » ، وألقيت محاضرة ارشادية على القائمين بالتدريس فى أنظمة الحزب فى برلين .

وبعد أن انتهيت من كلا العملين على وجه مرض ، تقرر خط سير عملى فى الحزب مؤقتا : فقد تركت عملى — ابتداء من هذا اليوم — كنائب لرئيس قسم الصحافة فى اللجنة المركزية ، وعينت محررا مسئولا عن المواد الثقافية فى الحزب .

كانت قيادة العمل الثقافى كله فى الحزب فى يد « فريد أولسنر » الذى جاء الى برلين فى أوائل يونيو ١٩٤٥ م مع « فيلهيلم بيك » . كنت قد قابلت « فريد أولسنر » فى موسكو ، وكان معروفا بالاسم الحركى « لاريف » ، وكان رئيس هيئة تحرير الاذاعــة الألمـــانية فى راديو موسكو . ودرس — مثل « آكارمان » — فى مدرسة « لينين » فى موسكو .

ظهرت سلسلة المحاضرات — التى عرفت فى دوائر الحزب باسم الكراسة التعليمية ابتداء من يونيو بدقة وفى مواعيد مضبوطة ، مدهشة بالنسبة للظروف فى ذلك الوقت ، فكانت تصل الى أيدى أنظمة الحزب فى المواعيد المحددة . وفرض على كل وحدات الحزب فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، عقد ندوات ثقافية فى مساء كل ثلاثاء لدراسة هذه الكراسة . وقبل أن ينعقد مؤتمر « بوتسدام » ، وقبل أن يدرك الحلفاء الغربيون ، ما ينبغى عمله فى ألمـــانيا ، درس مئات الآلاف من أعضاء الحزب الشيوعى فى المنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى مسائل سياسية معينة أسبوعيا أو — كما كان يقال آنذاك — وضعوا على الخط الصحيح .

كان الحديث مع « فريد أولسنر » عن عملى قصيرا :

— « يتلخص عملك فى تجهيز مسودة الكراسة الثقافية أسبوعيا فى الموعد المحدد » .

— « ومتى أعرف الموضوعات » ؟

— « سوف يتفق عليها فى اجتماع مشترك مع « آكارمان » وستحضر أيضا هذا الاجتماع ، وسيكون ذلك قبل البدء باصدار سلسلة الكراسات بعشرة أيـــام » •

فرض على أن أكتب أسبوعيا فى موضوع ثقافى جديد ، وكانت الموضوعات متنوعة ، فقد كتبت عن نشاط الحزب فى الريف ، والجمعيات التعاونية الاستهلاكية والسياسية والتموينية ، ومساواة المرأة ، واصلاح التعليم ، وبناء أجهزة الحزب ، والنضـــال ضد العسكرية الرجعية البروسية •

نظمت العمل بعد أسابيع قليلة ، اذ قيمت وفهرست كل الكتب والبحوث والمواد العلمية ، والجرائد التى تصدر ، حسب الموضوعات ، التى يمكن أن يكتب ذات يوم عنها فى الكراسة الثقافية • وبنفس النظام والفهرسة فعلت أيضا بالنسبة للنصوص التى اقتبست من مؤلفـــات « ماركس » و « انجلز » و « لينين » و « ســتالين » و « فيلهيلم ليبكنيشت » و « أوجست ببيبل » و « كارل ليبكنيشت » و « روزا لوكسمبرج » ويستفاد منها فى المسائل التى تعالج فى الكراسة الثقافية ، لدرجة أنى كنت أستطيع استخراج النص المطابق للموضوع الذى أكتب فيه من المراجع الكلاسيكية « للماركسية ــ اللينينية » •

وسرعان ما تعودت على هذا العمل ، حتى أن الكراســـة كانت تذهب الى المطبعة بعد تعديل بسيط جدا ، أو بدون تغيير اطلاقا • ولم يحدث اعتراض من الرقيب الا مرة واحدة ، ولم يكن بسبب تعبيرى الخاص ، بل كان يتعلق بنص استشهدت به من « ماركس » ، فقد كان الموضوع : مساواة المرأة • وبعد أن كتبت الرأى المعاصر ، حاولت البحث عند « ماركس » عن نص يدعمه ، فوجدت جملة فى خطاب أرسله « ماركس » الى « كوجيلمان » فى ديسمبر سنة ١٨٦٨ م :

« يقاس التقدم الاجتماعى بوضع الجنس اللطيف فى المجتمع ، واحتوائه مع الجنس القبيح » •

كنت جالسا فى اليوم التالى مع « أولسنر » بعد الانتهاء من اعداد الكراسة ، فقال وهو يقطب جبينه : « وقعها غريب على السمع » •

— « هذه من « كارل ماركس » ولا يمكن تغييرها » •

لم تأت هذه الحجة بنتيجة ، فقد تناول « أولسنر » القلم وشطب على جملة « واحتوائه مع الجنس القبيح » .

أصبح « أنتون آكارمان » بعد وقت قصير . هو الرقيب المسئول ، وهو ألطف رقيب قابلته حتى ذلك الحين ، ولما كان من المفروض أن تسلم الكراسة يوم الاثنين صباحا الى المطبعة ، فقد أصبح من العادات المألوفة أن أزور « آكارمان » فى « فيلته » فى « نيدرشونهاوزن » ، وأتناول معه طعام العشاء ثم يقرأ الكراسة ويصرح بالطبع موقعا عليها بالحرفين « أ . أ » .

ثم يأتى الى فى صباح الاثنين مندوب من دار نشر « ديتس » ويتناول المسودة فيضع عليها تأشيرات الطباعة أمامى ، ثم يكتب فى أعلاها على الجانب الأيسر ١٢٠٫٠٠٠ ، وهو العدد الذى كان يطبع آنذاك من الكراسة الثقافية .

وبجانب الكراسة الثقافية فى مساء الثلاثاء ، فقد فتحت أيضا فى خريف عام ١٩٤٥ م مدارس الحزب الريفية الأولى فى « ميكلينبرج » و « براندينبرج » و « زاكسين — أنهالت » و « زاكسين » و « تورينجين » و « برلين » وكان معظمها فى قصور الاقطاعيين السابقين .

تثقف عدد يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دارسا فى هذه المدارس الليلية فى دورة دراسية كانت تستغرق أسبوعا . فلو زرت فى تلك الأيام « أنتون آكارمان » فى مكتبه لرأيته منحنيا على خريطة للمنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وقد صلب بالخط الأحمر على أماكن عدة فيها . فقد كان الأمر يتعلق بالبحث عن مبانى مناسبة لمعاهد الحزب العليا المركزية ، التى وضعت خطة انشائها . وطلب من كل أنظمة الحزب فى المقاطعات أن يبلغوا اللجنة المركزية عن القصور أو المبانى التى تتناسب مع هذا الهدف . وأخيرا عثرنا فى « ليبينفالدى » — وهى تبعد حوالى ٣٥ كيلومترا شمال شرق برلين — على مبنى مناسب ، وأمكننا — فعلا فى نهاية عام ١٩٤٥ — بدء العمل أيضا فى معهد الحزب العالى .

كذلك أنشأت الادارة العسكرية السوفييتية — بالاضافة الى مدارسنا — مدرسة سياسية كبيرة فى « كونيجسفوسترهاوزين » وكان مدرسوها ، ورواد قاعات البحث فيها من الضباط السوفييت ، وعينت معهم مدرسة هى « لينى بيرنر » التى كنت معها فى عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . لم تنضم هذه المدرسة رسميا

الى الحزب ، وكان من بين تلاميذها كثير من القياديين الشبان فى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى . وكانت رغبة القيادة السوفييتية — على ما يبدو — تكوين قاعدة ثابتة لسياسة التحالف ، ولكن فى نفس الوقت محاولة التأثير على قياديى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى بطريقـة غير مباشرة ، وتحويلهم الى الاتجاه المطلوب .

كانت مقررات الندوات الثقافية الأسبوعية المسائية مختلفة عن مقررات مدارس الحزب المطبق فيها نظام المدارس الداخلية ، غير أنه كانت هناك وحدة بينهما : فقد اهتمت الندوات المسائية السياسية ، بتحويل الثقافة السياسية عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمـانى القدامى الذين رجعوا الى حزبهم بعد عام ١٩٤٥ م ، وتوجيههم الى « الخط الجديد » ، وتهيئتهم للقيام بواجباتهم الجديدة ، كما هيأت قوى الشباب الجديدة التى تدفقت على الحزب الشيوعى سـياسيا ، وغرست فى أفكارهم مبادىء الحزب ، وكانت مهمة مدارس الحزب — المطبق فيها نظـام المدارس الداخلية ، وكان عدد الدارسين فيها يزداد باستمرار — اعداد القياديين الجدد فكريا وسياسيا .

* * *

رأى « آكارمان » المنقذ

عندما كنت فى مساء أحد أيـام الآحاد عند « أنتون آكارمان » فى « نيدرشونهاوزن » لاحظت أنه يسرح أثناء قراءة الكراسة الثقافية ، وظهر عليه التوتر العصبى من شدة الفرح ، كان فكره فى ناحية أخرى ، وبعد أن انتهى من قراءة المسودة ، وأعطى الاذن بالطبع ، بدأ يتحدث عما استولى على مشاعره آنذاك — وليس فقط آنذاك — كليـة .

نحن على أبواب تشكيل جديد هام « لمبادئنا الرئيسية » ، ثم تحدث عن الوضع الجديد بعد الحرب العالمية الثانية ، وعن امكانية انتهاج طريق جديد الى الاشتراكية ، وعن البحث عن طرق خاصة الى الاشتراكية على أساس الارتباطات الجديدة ، مختلفة عما كان فى روسيا بعد ثورة أكتوبر . كان « آكارمان » قد كتب فى فبراير سنة ١٩٤٥ حديثا لاذاعة « ألمـانيا الحرة » فى موسكو تحت عنوان : « ثمانى دول — مذهب واحد » ، ونشر فيما بعد أيضا فى جريدة اللجنة الوطنية ، ومما جاء فية :

« البلشفية نظام سياسى داخلى للاتحاد السوفييتى ، ويمكن أن تختلف الآراء حول هذا النظام الاجتماعى » .

ثم بالنسبة للنظرة الى دول شرق وجنوب شرق أوروبا :

« فالتطور فى تفصيلاته متفاوت جدا فى الدول المختلفة ، ويشير هذا بالذات الى ضرورة عدم تأثير سلطة دولة أجنبية فى تحديد الاتجاه » .

والآن .. فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، يحاول « آكارمان » تهذيب اشارته السابقة الى المبدأ الرئيسى للحزب ، حول امكانية اتخاذ طريق ألمانى خاص الى الاشتراكية ..

قرأ على مسودة مقال مكتوبة بخط اليد ، كان قد انتهى من كتابة نصفه فى هذا المساء .

كانت نقطة انطلاق « آكارمان » أن « كارل ماركس » حصر قيام فترة الانتقال الثورية الى الاشتراكية فى دول القارة ، أما فى انجلترا وفى أمريكا ، فكان يرى أن المرحلة الانتقالية الى الاشتراكية مرحلة سلمية ، لأن أسلوب الحكم الديمقراطى الوطنى فى هاتين الدولتين لا تسيطر عليه عسكرية متطرفة ، ولا « بيروقراطية » كبيرة . فخرج « آكارمان » من هذا بنتيجة ، هى أن من الخطأ انكار امكانية المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية « تحت كل الظروف ، وفى كل الدول ، وفى كل العصور » :

« اذن .. فهذه المرحلة الانتقالية ممكنة بالطريق السلمى نسبيا ، لو لم تتصرف الطبقة « البورجوازية » تحت ظروف خاصة فى سلطة الدولة العسكرية والبيروقراطية ... » .

كانت هذه الأفكار جديدة على مفاهيم أعضاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمانى . ولم يكن النص الذى استشهد به من « ماركس » و « انجلز » حتى ذلك الحين معروفا فى الاتحاد السوفييتى ، ولا عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى القدامى ، فلم يظهر فى المحاورات السياسية ، ولا فى الدراسات النظرية ، حتى لم نتحدث نحن عنه فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م ثم بين « آكارمان » أن ظروف ألمانيا بعد عام ١٩٤٥ مهيأة لمثل هذا التطور السلمى :

« .. فلو تحولت الدولة الديمقراطية الجديدة الى أداة سيطرة جديدة فى يد القوى الرجعية ، لأصبحت المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية غير ممكنة ؛ ولكن اذا تحولت الجمهورية الديمقراطية

المناهضة للفاشـــية ، الى دولة كل العاملين تحت قيادة الطبقة العاملة ، فيكون الطريق السلمى الى الاشتراكية ممكنا مائة فى المائة .. لا أحد بتمنى أكثر منا فى أن يتفادى النضال الجديد اراقة دماء جديدة » .

وتحدث فى آخر جزء من مقاله عما كنت أفكر فيه منذ زمن بعيد ، ولكن لم يسمح لى بالتعبير عنه صراحة وهو : أن من الضرورى أن نسلك طريقا مستقلا الى الاشتراكية يختلف عن طريق روسيا ، فقد قرأ « آكارمان » وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

« لم يشدد أحد غير « لينين » على أن من الخطأ الفاحش المبالغة فى حقيقة عمومية شرعية التجربة الروسية ، وبسطها « بأكثر من المبادىء الأساسية لثورتنا (يقصد الثورة الروسية) .. وطبقا لهذا المفهوم يجب أن نوافق على اتخاذ طريق ألمـــانى مستقل الى الاشتراكية » .

أشـــار « آكارمان » — وان كان ذلك بأسلوب حذر نسبيا — الى تباين التطور الاشتراكى فى ألمـــانيا عنه فى روسيا ، « فروسيا كانت فى عام ١٩١٧ م متخلفة جدا عن الدول المتقدمة ، وكان انتاج العمال منخفضا نسبيا ، وتطور الصناعة ضعيفا ، وعدد القوى العاملة ضئيلا . ولكن على العكس من ذلك فى ألمـــانيا ، اذ يمكن أن يصل الانتاج فى ألمـــانيا الى مستوى عال بسرعة ، ويوجد عدد كبير من القوى العاملة المؤهلة ، ولا وجه لمقارنته بما كان عند روسيا فى عام ١٩١٧ م .

ويمكن أن يكون لهذا التباين أثره ، فما سقط من ضحايا فى روسيا فى طريق بناء الاشتراكية ، لن يقع عندنا الا بنسبة ضئيلة جدا نسبيا ، وسوف يرتفع مستوى المعيشة الاشتراكية تحت ظروف خاصة بسرعة عندنا » .

« وتختلف ألمـــانيا عن روسيا فى عام ١٩١٧ م فى أن الطبقة العمالية فى ألمـــانيا تمثل أكثرية مجموع السكان .

« وسوف يكون لهذا أهمية كبيرة بعد انتصار الطبقة العاملة فى ألمـــانيا ، لأنه يسهل النضال السياسى الداخلى ، ويقلل من عدد الضحايا ، ويعجل بالديمقراطية الاشتراكية » .

تناقشت كثيرا مع « آكارمان » حول موضوعات سياسية ، ولكن لم أشعر قط أن الأفكار والآراء التى عبر عنهـــا فى هذا المقال تختلط بمشاعره كانت هذه هى نفس حالتى ، فالأفكار التى كتبها الآن « آكارمان » كانت تدور بذهنى منذ وقت طويل . لقد كانت أمنيتى منذ زمن بعيد

أن البلاد الأخرى ينبغى أن تسلك طريقا الى الاشتراكية غير طريق الاتحاد السوفييتى • والآن التزم « آكارمان » بأن يكتب ذلك فى مقال ينشر فى مجلة رسمية تنطق بلسان الحزب وهى « الوحدة » ، وينبغى أن يكون ذلك هو الخط الرئيسى للحزب !

دفعنا التغيير الرسمى لخط الحزب فى هذه المسألة الهامة الى أن نرى أشياء كثيرة بصورة مختلفة تماما عن التى رأيناها بها قبل التغيير : فاعتداء الجيش الأحمر على النساء عند الاحتلال ، وفك آلات المصانع ، والرقابة السياسية بواسطة الضباط السوفييت — كل هذا كان بالنسبة لنا مظاهر وقتية لفترة انتقالية تستمر أعواما غير محددة • فهى بلا شك تصيبنا بأضرار ولكننا سوف نتغلب عليها فيما بعد • ثم ! — هكذا كان أملى واعتقادى آنذاك — سيأتى اليوم الذى ستنسحب فيه سلطة الاحتلال ، وعندها يستطيع الاشتراكيون الألمانيون أن يشقوا طريقهم الى الاشتراكية دون وصاية أجنبية ، طبقا لتقاليدهم وظروفهم الخاصة •

رجعت الى سكنى فى « بانكوف » فى الساعة الرابعة صباحا وأنا مفعم بهذه الآمال الجديدة • أخيرا — هكذا بدا لى — سيتحقق ما كنت أريده دائما : طريق مستقل الى الاشتراكية ، دون المظاهر التى آلمتنى فى معظم الأحيان فى الاتحاد السوفييتى •

وبعد أسابيع قليلة — فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ — ظهر مقال لـ« آكارمان » تحت عنوان : هل يوجد طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ؟

كان للمقال دوى القنابل ، فقد قوبل — باستثناء عدد ضئيل من القياديين المخلصين لموسكو ، الذين يعارضون كل فكر جديد — بارتياح عام من الرفقاء ، والآن — هكذا بدا لى — أخيرا وجد طريق • لم نتبرأ علنا من اجراءات سلطات الاحتلال السوفييتية ، ولكن ظهر شىء آخر كان أهم وأعمق : انفصال مبدئى عن التطور فى الاتحاد السوفييتى • وبدأ رأى « آكارمان » يكتسب أصواتا بين مستويات الحزب المختلفة •

* * *

بدء حملـــة الوحـــدة

لعبت نظرية الطريق الألمـــانى المستقل الى الاشتراكية دورا هاما — وخاصة عند القياديين — فى حملة الدعاية للوحدة فى المنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، فقـــد رغب فى عام ١٩٤٥ م كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين والشـــيوعيين — تحت تأثير التجـــارب المريرة مع الديكتاتورية الفاشية — فى التغلب على الانقسام فى الحركة العمالية ، بتأليف حزب اشتراكى يكون أحسن من الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى اللذين كانا فى عهد الجمهورية الفايمرية • التحمت نظرية « الطريق الألمـــانى المستقل الى الاشتراكيـــة » بهذه الفكرة ، وفهمتها الزعامة السوفييتية آنذاك على أنها أسلوب جديد لتبديد مخاوف الديمقراطيين الاشتراكيين (ولم تكن مخاوف الشيوعيين أقل) الذين كانوا يخشون الارتباط الأساسى بموسكو •

رفض « أولبريخت » بعد تأسيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى مباشرة كل الاقتراحات التى تطـــالب بتكوين حزب اشتراكى موحد ، بحجة أنه يجب أن يقـــوم اتحاد تنظيمى قبل ذلك ، بتوضيح المسائل الأيديولوجية • ثم يحين بعد ذلك دور كلا الحزبين فى تكوين جهازهما التنظيمى • ومما لا شك فيه أن حالتنـــا فى الحزب الشيوعى كانت أحسن ، فقد أسسنا منظماتنا فى المدن والقرى قبل الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، وامكانياتنا كانت أكبر ، وعدد توزيع جريدتنا أعلى ، وعندنا — وكان ذلك شيئا هاما جدا آنذاك بالنسبة لتأسيس المنظمات — سيارات كثيرة ، نستطيع بها أن نتصل بالوحدات المحلية بطريقة أسرع •

لم تقتصر الحماية السوفييتية على تقديم المساعدات الفنية بكميات كبيرة ، بل كان الحزب الشيوعى مفضلا أيضـــا سياسيا عند ســـلطة الاحتلال • ومن ناحية أخرى فقد تدخلت الادارة السوفييتية أيضا تدخلا مباشرا فى الشئون الداخلية للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، كى تخمد عن طريق الضغط السياسى والاجراءات المخوفة كل أصوات المعارضـــة المستقلة •

كانت العلاقات مع الحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى لم يزل فى فترة التكوين متباينة ، فعلى المستوى المركزى تكون مجلس عمل مشترك

فى يونيو سنة ١٩٤٥ أى بعد اعادة تأسيس الحزبين مباشرة كما تكونت مجالس مماثلة أيضا فى بعض القرى •

وكانت العلاقات فى بعض القرى والمراكز والمقاطعات علاقة زمالة ، أو علاقة صداقة ، ووجد فى بعضها الآخر توتر بين أعضاء الحزبين ، وأحيانا جو عدائى ، لأن الديمقراطيين الاشتراكيين لاحظوا فى حالات لا حصر لها انحياز سلطات الاحتلال السوفييتى الى جـانب الحزب الشيوعى •

ورغم هذا فقد ظهر أن الحزب الديمقراطى الاشتراكى تطور بأسرع مما توقعته زعامة الحزب الشيوعى الألمـانى فى يونيو سنة ١٩٤٥ م • استمرت مسافة تقدم الحزب الشيوعى فى نقص مستمر ، ففى الجهات التى كان يوجد فيها الحزب الديمقراطى الاشتراكى كان يتحول اليه باستمرار أعداد كبيرة من أعضاء الحزب الشيوعى •

كان من المفروض فى ٧ نوفمبر — ذكرى ثورة نوفمبر — أن يقام احتفال مركزى مشترك من الحزب الشـيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، غير أن اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى رفضت اقامة حفل مشترك ، وأجلت احتفالها بهذه المناسبة الى ١١ نوفمبر • أرسلوا الينا بعض تذاكر دعوة ، فدعانى « فيلهيلم بيك » :

— « سنذهب سويا الى احتفال الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فسوف يتحدث « جروتيفول » » •

حيانا قياديو الحزب الديمقراطى الاشتراكى بحرارة ، ثم قادونا — أنا و « فيلهيلم بيك » — الى « لوج » كان محجوزا للضيوف •

بدأ « جروتيفول » يتحدث ، فلاحظت بعد دقائق قليلة أن هذه الخطبة لا تلتزم « الخط » اطلاقا ، اذ بدلا من أن يتحدث عن « التنظيم الديمقراطى المناهض للفاشـية » الذى رسمنا خطوط الدعاية له ، تحدث كثيرا وبالتفصيل عن الاشتراكية ، تلك الطريقة التى كنا نتجنبها آنذاك ، بل نكافحها ، لأنها — طبقا لمفهومنا — لا تتفق مع مرحلة التطور الحاليـة ، ولأنها يمكن أن تضر وحدة كل القوى الديمقراطية المناهضة للفاشـية وتسىء الى مفهوم الاشتراكية • وكانت مطالب « جروتيفول » الاقتصادية أكثر اثارة للارتياب عندنا : فهو وان لم يتحدث مباشرة ضد آلات المصانع ، والتعويضات ، الا أنه عالج هذه المسائل بطريقة مكنت

كل الحاضرين من أن يفهموا بوضوح المغزى الحقيقى لكلماته • فبان التغير على وجه « فيلهيلم بيك » •

وأخيرا وصف « جروتيفول » التزامــات الحــزب الديمقراطى الاشتراكى فى السياسة الداخلية ، بأنها موقف وسط بين الحزب الوطنى والحزب الشيوعى ، وفى السياسة الخارجية يلعب الحزب دور الوسيط بين الاتحــاد السوفييتى والديمقراطية الوطنية الغربية • ولم يذكر « جروتيفول » فى خطبته شيئا عن ضرورة تقوية العمل المشترك مع الحزب الشيوعى الألمــانى أو عن التطور نحو وحدة كلا الحزبين •

وعندما انتهى « جروتيفول » من خطابه ، صفقنا مع المصفقين بضعة ضربات بالكف تأدبا • ثم قال لى « فيلهيلم بيك » بصوت منخفض : « هيا بنا » • كان متأثرا جدا •

كنت قد توقعت أن زعماء الحزب الديمقراطى الاشتراكى سيدعوننا بعد الانتهاء من الاحتفال للجلوس معهم بعضا من الوقت ، ولكن ذلك أصبح غير ممكن بعد هذه الخطبة •

وبعد دقائق قليلة كنا فى العربة متوجهين الى « بانكوف » ولم يزل « فيلهيلم بيك » صامتا ، ثم قطع الصمت قائلا :

ـ « لم أتوقع هذا ! كيف يكون الوضع مع « جروتيفول » بعد الآن » ؟

ـ « لقد تحدث « جروتيفول » اليوم بوضوح وعلى رؤوس الأشهاد ضد الوحدة » •

وفى اليوم التالى كانت خطبة « جروتيفول » موضــوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية ، وأشيع أن هذه الخطبة ليست من تأليفه بل كتبها له « كلينجينهوفر » •

لم تنشر خطبة « جروتيفول » فى أى جريدة من جرائد المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولم تنشر أيضا فى مجموعة خطبه التى نشرت فى عام ١٩٤٨ م ، ولا فى مؤلفاته التى جمعت ونشرت فيما بعد فى مجلدات عدة •

أعلن فى نهاية نوفمبر ١٩٤٥ نتيجة الانتخابات البرلمــانية الأولى بعد الحرب فى النمسا ، فكانت فاجعة للحزب الشيوعى النمساوى : اذ فاز الحزب الوطنى بـ ٨٥ مقعدا ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى بـ ٧٦ مقعدا ، والحزب الشيوعى بـ ٤ مقاعد فقط •

وصل الينا تقرير من النمسا قبل اعلان النتيجة ، يفيد بأن الرفقاء النمساويون يتوقعون أنهم سيحصلون على عدد من الأصوات يساوى ما سيحصل عليه الديمقراطيون الاشتراكيون .

كانت الانتخابات النمساوية ونتائجها موضوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية :

« لقد ارتكب الرفقاء النمساويون خطأين كبيرين ، ويجب أن نتعلم منهما ، وكان أهمهما مساعدة الديمقراطيين الاشتراكيين .... » .

بدأت حملة الدعاية للوحدة من هذا اليوم ، ولم يوجد سوى موضوع واحد : الوحدة . فقد وضعت مسألة الوحدة على رأس القائمة فى كل الاجتماعات والمحاورات ، وكان هذا ضروريا ، لأنه ظهرت فى الأسابيع الأولى مخاوف لدى عدد كبير من أعضاء الحزب الشيوعى من الوحدة مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وتكوين حزب موحد .

وكان من واجبنا فى قسم الثقافة تحويل أعضاءنا تحويلا نهائيا الى « الخط » . وفوجىء كثير من أعضاء الحزب بتوزيع مئات الآلاف من نسخ برامج الحزب الديمقراطى الاشتراكى القديمة — برنامج « أيزيناخر » ١٨٦٩ م ، وبرنامج « جوتر » ١٨٧٥ م ، وبرنامج « ارفورتر » ١٨٩٠ م — على الأعضاء ، ووجدنا أنفسنا فى قسم الثقافة والتعليم فجأة مشغولين بمشكلة غريبة ، ألا وهى جمع نصوص من مؤلفات : « أوجست ببييل » و « فيلهيلم ليبكنيشت » ، وأحيانا اذا أمكن من مؤلفات « كاوتسكى » و « هيلفردينج » لتستخدم فى حملة الدعاية للوحدة . ثم تلقينا بعد ذلك اشارة بامتيازات أكبر للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فبينما كنا ننسب حتى الآن هزيمة الحركة العمالية فى الجمهورية الفايمرية الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ولكنا كنا نعترف ببعض الأخطاء « التكتيكية » للحزب الشيوعى (فى الاستفتاء الشعبى فى عام ١٩٣١ م فى تقدير المسائل الوطنية ، وفى تشكيل الموقف فى مواجهة الحزب الديمقراطى الاشتراكى) ، أصبحت الأخطاء الهامة الآن تنسب الى كلا الحزبين .

فقد كانت الهزيمة ممكنة — هذا هو التفسير الحالى — لأنه لم توجد حركة عمالية موحدة[١] .

---

(١) غير أن هذا التفسير سحب فى عام ١٩٤٨ م .

تعود أعضاء الحزب الشيوعى على الوضع الجديد نسبيا ، فلم توجد صعوبات لدى الشبان فى هذا التحويل ، لأن أفكارهم نبتت فى الوحدة .

انعقد اجتماع مشترك بين زعماء الحزبين فى ٢٠ — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وأطلق عليه « مؤتمر الستين » وتوصل المجتمعون الى قرار رسمى .. جاء فيه :

« سيكون الحزب الموحد حزبا اشتراكيا ألمـانيا مستقلا ، ويمثل مصالح العاملين فى المدينة والقرية ، تبعا للظروف المتاحة فى ألمـانيا » .

« ويتكون الحزب الموحد على أسس ديمقراطية ، ومن حق الأعضاء الحرية فى ابداء الرأى ، وحرية انتخاب كل الممثلين .. » .

« ويريد الحزب الموحد جمهورية ديمقراطية برلمـانية ، وهدفه تحقيق الاشتراكية فى ديمقراطية اشتراكية ، وسيهيىء التفاهم الأخوى والعمل المشترك طريق الوحدة فكريا » .

وافق الديمقراطيون الاشتراكيون آنذاك فقط تحت شرط أن مسألة الوحدة ستتقرر فى مؤتمر عام لأعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى الامبراطورية .

بعث تكوين حزب اشتراكى ألمـانى مستقل ، والتأكيد على حرية التعبير لـكل أعضـاء الحزب أمـلا جـديدا عند أعضـاء وقياديى الحزب الشيوعى الألمـانى المستقلين فى تفكيرهم ، فتردد آنذاك : « ستكون بعض النواحى فى الحزب الجديد مغايرة تماما لما هى عليه حتى الآن فى الحزب الشيوعى الألمـانى » . وبعد أسبوعين — فى يناير سنة ١٩٤٦ م — بلغ « فيلهيلم بيك » السبعين من عمره ، فزين قصر الأدميرال (Admirals - Palast) — الذى كان يحتاج الى ترميم عاجل — فى شارع « فريدريش » وضع على المنصـة أربعة أو خمسـة صفوف من الكراسى ، وحضر كل الذين لعبوا دورا فى الحياة السياسية آنذاك . قابلت فى طريقى الى الصالة « ايللى فينسر » بنت « فيلهيلم بيك » فهمست فى أذنى :

« سيصبح « فيلهيلم » ، اليوم المواطن الأول لمدينة برلين » .

قدمت التهانى المختلفة واحدة بعد الأخرى ، فكان اذا تحدث الرفقاء الكبار ، الذين عرفوا « فيلهيلم بيك » من عصر النضال يبدو عليـه الانتعاش ، وما عدا ذلك ، فقد لاحظت أن كل شىء لم يحز رضاء كبيرا

لديـــه • تحدث عمدة برلين الدكتور « فيرنر » ، فعبر عن تهنئته بكلمات عامة ، ثم قدم اليه شهادة المواطن الأول • ثم أعلن مقدم الخطباء اسم « أوتو جروتيفول » بوصفه مهنئا باسم اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى • لم يكن قد مضى شهرين على خطبته التى ألقاها فى ١١ نوفمبر ولكن تغير الكثير منذ ذلك التاريخ ! ختم « جروتيفول » تهنئته بهذه الكلمات :

« •• اذا لم يكن لدينا أيضا شهادة مواطن أول نقدمها ، فان لدينا فى هذا المقـــام تصافيا ، نقدمه نابعا من القلب اليك يا عزيزى « فيلهيلم بيك » ، •• نقدم يدا ، لا ينحصر مغزاها فى هذا اليوم فحسب ، بل يدا تستمر ممدودة مدة طويلة ، بحيث لا تنفصل الأيدى بعد اليوم •• » •

التقطت بعض الصور لتنشر فى كل الجرائد والمجلات ، ثم أقيم حفل فى قصر « هوهينشونهاوزين » على شرف « فيلهيلم بيـــك » • استمر القـــاء خطب التهنئة فيه ساعتين ، ثم انتهى الجزء الرسمى ، وبدأت الفرقة تعزف ألحان الرقص ، فتحول هذا المجتمع المتزمت الى التحلق فى مجموعات • ولم تتح تلك الفرصة النادرة ، التحدث مع كل زعماء الحزب الشيوعى فقط ، بل أيضا مع كبار الموظفين السوفييت ، وكان عدد كبير منهم حاضرا فى هذا الحفل • فانتهز هذه الفرصة كثير من السياسيين ، وخاصة من أعضاء حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فى المنطقـــة الألمـــانية الواقعـــة تحت الاحتلال السوفييتى •

قيل لى :

« من فضلك •• اذهب الى المسئول السياسى فى حكمدارية برلين • لأنه يتحدث مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى « كولتس » ويريد مترجما » ! كنا نجلس على مائدة جانبية ، بدأت فى أول الحديث أترجم كلمة كلمة ، ثم تيقظ عندى جانب الاهتمام بالسياســـة • بدا لى أن حكمدار برلين لم يكن مؤدبا بصورة كافية مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى ، وكان يعبر أحيانا أيضا تعبيرات سياسية غير مناسبة ، فبدأت أصيغ جمله صياغة أكثر تأدبا ، ثم أضفت اليها فيما بعد بعض الجمل الفرعية ، تعبيرا عن أفكار من عندى • وتوقعت أن « كولتس » سيسر بهذه التعبيرات الجميلة ، وطريقة الاجابة السريعة من الموظف السوفييتى الكبير ، ولكن نظرته كانت تزداد صرامة وعنفا •

وعندما وقف الحكمدار ليطلب مشروبات ، همس « كولتس » فى أذنى : « أشكرك على محاولتك صياغة كلام الحكمدار بأسلوب مؤدب ، وكذلك التأكيد على جبهة الوحدة ، ولكنى احب أن أشير لك الى أننى أفهم شيئا من اللغة الروسية ، ومن الأفضل عندى فى هذه الحالة أن أسمع رأى الحكمدار حرفيا » •

كلفت بمهمة خاصة بعد يوم عيد ميلاد « فيلهيلم بيـك » بوقت قصير :

— « يجب أن تصدر كراسة ثقافية خاصة عن مؤتمر وفود النقابات المقرر عقده فى فبراير سنة ١٩٤٦ م » •

اندهشت ، لأنى لم أكن أتوقع حتى هذه اللحظة الأمر باصدار كراسة عن مؤتمر « رابطة النقابات العمالية الألمـانية الحرة » ولم أفهم فى بادىء الأمر ، لمـاذا يهتم بهذه الأشياء فجأة !

ازدادت دهشتى بعد أيام قليلة ، حتى نحن العاملين فى اللجنـة المركزية ، نزلت الينا التعليمات ، أين ، ومتى يجب أن نسهم فى انتخابات النقابة ، وقيل لنـا :

« هذه الانتخابات أهم وأصـعب معركة انتخابيـة حتى الآن ، فكل صوت له وزنه » •

حول بعضنا بسرعة — وأنا من بينهم — أسماءهم الى كشوف نقابات أخرى لنستطيع الادلاء بأصواتنا هناك •

اهتم الكل بأعصاب مشدودة بانتخابات النقابات !

دعانى « فالديمار شميت » لحضور اجتماع قادة الحزب الشيوعى فى برلين :

« تعال معنا اليوم وغدا ! فنحن ننظم سياسة العمل الآن » • وفى حجرة صغيرة جلس القياديون الكبار فى أنظمة برلين ، ومعهم بعض المتخصصين فى شئون النقابات فى اللجنة المركزية ، وجلس « أولبريخت » فى وسط الحجرة •

وأقيم فى حجرة جانبية خدمات تليفونية وعين فى كل حى بعض القياديين ليكونوا على أهبة الاستعداد للاتصال بقيادة الأحياء فى برلين وصدرت اليهم التعليمات بأن يبلغوا بسرعة عن كل ما يحدث فى الحى • فتوالت التقارير دون انقطاع عن التيارات والوضع فى المصانع والمؤسسات العماليـة • كان « أولبريخت » مشحونا طاقة ، فدار العمل كما لو كانت معركة حربية •

— « بلغ حـــالا — الى الكل •• انتخب الشيوعيين فقط ! فقط الشيوعيين ، فالآن سيحسم كل شيء » !

وبعد دقائق قليلة خرج أحد القياديين من الحجرة الجانبية :

« لا يريد الرفقاء تنفيذ هذا الأمر ، فهم يقولون ، انهم اتفقوا مع الديمقراطيين الاشتراكيين على تكوين قيادات النقابات بنسب متساوية • ولهذا يريدون اعطاء أصواتهم أيضا للديمقراطيين الاشتراكيين » •

— « لا يمكن هذا الآن اطلاقا ، يجب انتخاب الشيوعيين فقط » •

بلغ الرفيق هذه التعليمات ، ثم عاد مرة أخرى بعد ربع ساعة :

« الرفقاء غير راضين ، فهم يقولون : اذا لم نحافظ على اتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، فسنحطم الوحدة » •

فأجابه « أولبريخت » :

« ستكون الوحدة أكثر صلابة ، على قدر كثرة الشيوعيين فى قيادة « رابطة نقابات العمـــال الحرة » •

كانت تعليمات الحزب أقوى من رغبة وشعور العمال ، الذين كانوا على استعداد للعمل المشترك الشريف فى كل أنحاء برلين ، فحصل الحزب الشيوعى على الأغلبية فى انتخابات « رابطة نقابات العمـــال الحرة » • فسر « أولبريخت » من ذلك ، ولكن العمال فى أحياء برلين كانوا غاضبين •

« لن يغفر لنا الديمقراطيون الاشتراكيون هذا أبدا ، فلم يغب عنهم أننا أعطينا أصواتنا للشيوعيين فقط ، وقد أفسدنا بهذا الانتخاب ثمار شهور عديدة من العمل المشترك » •

ولكن عندمـــا « تكونت » قيادة النقابات فى برلين قـــدم الى الديمقراطيين الاشتراكيين باسم الحزب الشيوعى فرصـــة المشاركة المتساوية بسخاء •

قال لى قيادى فى أحد الأحياء :

« مادام قد رسم ذلك ، فكان لزاما علينـــا أن نلتزم باتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكنا قد توصلنا الى نفس النتيجة ، دون أن تهدم الثقة بين أعضاء الحزبين فى المصانع » •

لم يفكر « أولبريخت » فى هذا ، وناور فى كل شيء ليتظاهر بقوة الحزب الشيوعى فى النقابات ثم بعرض المساواة ، كى يكسب القياديين الكبار فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى •

وبعد ذلك بأيام قليلة — فى ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ — حضرت مؤتمرا كبيرا لوفود النقابات العمالية من جميع أنحاء المنطقة الألمـانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، غير أن المسائل النقابية لم تبحث فى هذا المؤتمر ، بل كان الهدف هو الوحدة ، فتقررت مسألة الوحدة فى هذا المؤتمر ، وأكثر من هذا ، فقد نجحت أغلبية اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى فى ١١ فبراير فى اتخاذ قرار يقضى باستفتاء أعضاء الحزب فى وحدة كلا الحزبين • وتقرر عقد مؤتمر حزبى فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وبهذا تنازلوا عن فكرة عقد مؤتمر حزبى لجميع أنحاء ألمـانيا •

قال لى « فالديمار » فى اليوم التالى مفتخرا :

« كل شىء واضح الآن يا « فولف جانج » ، فستتم الوحدة فى ٢٢ ابريل مساء » •

فقلت له : « هكذا وصلتك الأنباء بهذه الدقة » •

— « نعم •• كان عندنا منذ لحظات اجتماع مع الأصدقاء السوفييت ، وحددنا فيه كل شىء فقد أتاح « مؤتمر رابطة النقابات العمالية الحرة » الفرصة لنا لتحديد ذلك » •

— « والديمقراطيون الاشتراكيون » ؟

— « سوف نتغلب على هذه المسألة » •

شعرت بعدم الارتياح ، اذ لم أرد الوحدة بهذا الأسلوب — هل كان صوابا حقا ، أن يتقرر فى اجتماع صغير فى منتصف فبراير تحديد اليوم والساعة — قبل شهرين من حلولها — التى ينبغى أن يتحد فيها مئات الآلاف من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين من جميع أنحـاء المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى فى حزب واحد ؟

ثم وضعت المبررات : أحيـا الحزب الموحـد من الشـيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين أملا كبيرا فى أن سوف يتغلب على ما كان مخيبا لآمالى حتى الآن فى الاتحاد السوفييتى ، وفى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى هل تكون كل النظريات المستخدمة فى مثل هذا القرار التاريخى صحيحة مائة فى المـائة حقيقة ؟

ألم يوافق رأى « آكارمان » فى انتهاج طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية ؟ ألم يكن كل هذا — هكذا قلت لنفسى — أهم من خطوات « تكتيكية » مشبوهة ؟

* * *

الطريق الى الوحدة

عقد فى ٢٦ فبراير سـنة ١٩٤٦ مؤتمر مشترك لقيـادة الحزبين الديمقراطى الاشتراكى والشيوعى فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى • وتقرر فى هذا المؤتمر ، الذى اشترك فيه ثلاثون عضوا من قيادة الحزبين ، الدعوة الى مؤتمر الوحدة بين الحزبين فى ٢١ ، ٢٢ ابريل • وأعلنت فى نفس الوقت مسودة المبادىء الأساسية وأهداف ــ وكذلك صيغة ــ الاتحاد الاشتراكى الألمـانى •

وبهذا بدأت ــ كما عبرت الصيغة الرسمية ــ « المرحلة الثالثة » للوحدة • « فالمرحلة الأولى » ــ وهى فترة العمل المشترك ــ استمرت من يونيو سنة ١٩٤٥ حتى مؤتمر ديسمبر سنة ١٩٤٥ • وحددت « المرحلة الثانية » بالفترة من ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ م حتى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ م • كل ما شاهدته حتى الآن من حملات الدعاية للوحدة ، لم يكن شيئا بجانب ما بدأ الآن •

تركز عملنا فى الوحدة فقط فاشتدت الدعاية السياسية بين الجماهير ، وكان يشرف عليها آنذاك « رودولف دوللينج » الذى أصبح فيما بعد رئيسا للقسم السياسى فى الشرطة • فتوالى طبع المنشورات والاعلانات دون انقطاع ، ولم يعالج فى كراستى الثقافية سوى موضوع واحد : الوحدة •

لم تمر ندوة ولا اجتماع ولا مؤتمر ، أيا كان الموضوع الذى من أجله عقدت هذه اللقاءات دون أن يطالب المجتمعون بالوحدة فورا بين الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فتواترت القرارات والتوصيات بكميات كبيرة على اللجنة المركزية ، وهيئة تحرير « جريدة الشعب الألمـانية » •

وفى وسط زحام هذه الحملة الدعائية للوحدة ، استدعى « فريد أولسنر » كل العاملين فى القسم السياسى والدعاية • فرأينا على المنضدة نسخا من مشروع رسم كبير ملون لعلم وشعار الاتحاد الاشتراكى الألمـانى المقبل •

« هاهى ذى الاقتراحات الأولى لشعارنا الجديد ، لقد كلفنا عددا كبيرا من الرسامين برسم شعار للاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، بحيث يحتوى على رمز الأيدى المتشابكة » •

كان أمامنا ثمانية أو عشرة رسومات تقريبا ، مرسوما عليها الأيدى المتشابكة بشكل دائرى ، والكلمات : الاتحاد الاشتراكى الألمانى •
قال أحد القياديين من قسمنا — وكان فى معسكرات الاعتقال فى ألمانيا أثناء عهد هتلر — :

— « لا يعجبنى الشكل الدائرى ، اذ من الممكن أن يذكر بالرسم النازى » • فأيده الآخرون بسرعة ، ثم دارت مناقشة طويلة حول أى شكل نختار ، وأخيرا اتفقنا على الشكل البيضاوى • فبلغ الرسامون بالتعليمات الجديدة ، وبعد أيام قليلة اجتمعنا مرة أخرى ، لنشاهد عددا من رسومات الرسامين •

كان أحسن رسم حاز قبولنا عبارة عن خلفية بيضاء رسمت فيها الأيدى المتشابكة ولكن لم نستطع أيضا الاتفاق عليه ، فاقترح « أوتو جروتيفول » — وهو رسام هاو — أن يرسم علم أحمر على الخلفية البيضاء ، فوافق الجميع على اقتراحه ، فأعيدت الرسومات مرة أخرى الى الرسامين مع الاقتراح الجديد ، ثم توصلنا فى الاجتماع التالى الى قرار حول الرسم :

ينبغى أن يرسم علم أحمر على الأرضية البيضاء ، وأمامه أيدى متشابكة باللون الذهبى وحول الاطار ، على الأرضية المشمعة باللون الأزرق ، يكتب باللون الذهبى كلمات : الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

والآن •• أصبح عندنا نظام أساسى ، وشعار دعائى قصير ، ورسم ، ولم يبق سوى شىء واحد : الحزب الموحد •

تركزت كل الجهود الآن على تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى كل أنحاء المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى وفى برلين فى الوقت المحدد •

ازدادت فى هذه الأثناء المعارضة فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ضد الاندماج الفورى للمنظمات ونما الشك فى حسن نية الحزب الشيوعى الألمانى •

وبينما لم يكن من الممكن ظهور هذه المعارضة علنا فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، توصل المعارضون فى برلين الى قرار باجراء استفتاء عام لكل أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى مسألة الوحدة ، وتقرر أن يجرى هذا الاستفتاء فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ م •

رفضت اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى — وكانت آنذاك برئاسة « جروتيفول » قد أقرت الوحدة — الاستفتاء • كما منع الحكمداريون السوفييت اجراءه فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

انتقد بعض قياديى الحزب الشيوعى المعروفون هذا الاجراء ، وسمعت من أحد الرفقاء قوله :

« من الطبيعى أن يوجد فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ارتياب كبير فى الوحدة ، ولكن الشك سيزداد حدة ضد الوحدة ، بسبب منع اجراء مثل هذا الاستفتاء ، اتركوا الرفقاء الديمقراطيين الاشتراكيين يفصلوا فى هذه الأشياء » • فوافقته على هذا الرأى •

منع اجراء الاستفتاء فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وبرلين الشرقية ، ولم يجر الا فى المناطق الغربية من برلين التى تسيطر عليها قوات الحلفاء الغربيين ، فأدلى ٣٢ر٥٤٧ عضوا ديمقراطيا اشتراكيا من سكان برلين الغربية بأصواتهم • وكانت النتيجة كما يلى :

١ — ٢ر٩٣٧ صوتا أيدوا الوحدة الفورية مع الحزب الشيوعى •

٢ — ١٤ر٧٦٣ صوتا أيدوا تحالف الحزب الديمقراطى الاشتراكى مع الحزب الشيوعى فى العمل المشترك والنضال الأخوى •

٣ — ٥ر٥٥٩ صوتا عارضوا كل وحدة وكل تحالف فى العمل مع الحزب الشيوعى — كان من المسلم به أن الغالبية العظمى من الديمقراطيين الاشتراكيين فى برلين ترفض الاندماج الكلى الفورى مع الحزب الشيوعى •

وبعد أن عرفت هذه النتيجة فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، تلقينا تعليمات بأن نضاعف حملة الدعاية للوحدة ، فعقدت الاجتماعات والمؤتمرات ، وساد فى كثير منها حماس صادق وأمل فى أن يتغلب أخيرا على هذا الانقسام البغيض ، وفى أن تتوحد التقاليد العريقة فى كلا الحزبين فى الحزب الجديد •

استخدم الضغط على كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين الذين كانوا يعارضون الوحدة — ولكن حتى نحن العاملين فى قسم الشئون السياسية والدعاية فى اللجنة المركزية ، تركنا فى غفلة عن أحداث وقعت فى تلك الأيام ، فلم أعرف عن عملية القبض على معارضى الوحدة فى

صـــفوف الديمقراطيين الاشـــتراكيين الا فى حـــالة واحـــدة فى حى « برينسلاوبرج » أغضبت بعض القياديين فى الحزب الشيوعى فى برلين غضبا شديدا •

« لا يضر هؤلاء الروسيون بعمليات القبض التى يقومون بها أحد الا الشيوعيين ، فاذا لم يرد بعض القياديين الآن ، فدعوهم وشأنهم ، فسوف يقتنعون بصواب الوحدة فيما بعد » •

لم تزل الخيالات تسيطر علينا آنذاك ••

اذ نشرت قصة من أحد مراكز « ميكلينبرج » بين كل القياديين فى تلك الأيام ، وقصها « فالديمار شميت » لى : « دعا حكمدار المركز سكرتيرى الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى فجأة فى يوم الثلاثاء من الأسبوع المـــاضى لتناول العشاء عنده فى الساعة السابعة مساء ، فوصلا فى وقت واحد ، فحياهما الحكمدار بحرارة ، وتقمص شخصية رسمية على مستوى عال وقادهما الى صالة الطعام ، وكانت المـــائدة معدة اعدادا كما فى الاستقبالات الدبلوماسية • وكان عليها كل ما لذ وطاب ، وكان الحكمدار يحييهما بين الحين والآخر ويحثهما على المزيد من الأكل : « تفضلا •• كلا •• » فأكل سكرتيرا الحزبين فى المركز • ثم دعاهما الى الشراب : « تفضلا •• اشربا •• » وصب لكل واحد منهما كأسا من « الفودكا » ، فتردد الرجلان ، ولكن الحكمدار أصر على ذلك وقال لهما : « لابد أن تشربا » •

فشرب الرجلان بتضرر كأسيهما من الفودكا •

« والآن تصافحا » !

فنفذ الرجلان الأمر وتصافحا •

فصاح الحكمدار مسرورا :

« جميل جدا •• أستطيع الآن أن أبعث بتقرير بأن الوحدة قد تمت فى مركزنا » •

عقدت مؤتمرات مشتركة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٦ فى المراكز ، وفيما بعد فى كل مقاطعات المنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، واندمجت المدارس المسائية ، وصدرت جريدة مشتركة فى « زاكسين » وفى « تورينجن » وفيما بعد فى المقاطعات الأخرى ، وأعلنت « زاكسين » و « ميكلينبرج » فى مؤتمرهما الحزبى الذى عقد فى ٨ ، ٩ ابريل أن الوحدة قد تمت عندهما • وفى ١٣ ، ١٤ ابريل عقد الحزب الشيوعى

والأعضاء المؤيدون للوحـــدة من الديمقراطيين الاشتراكيين مؤتمرهما الحزبى فى برلين • وحضرت هـــذا المؤتمر حيث ألقى فيه « فالديمار شميت » رئيس الحزب فى برلين آنذاك المحاضرة الرئيسية •

وعقب عليها « أولبريخت » • لقد كان الخطاب الأول الذى بين فيه بوضوح وعنف التباين والتعارض مع المنطقة الألمـــانية الغربية ، فبدأ مقارنته بقوله :

« فعندهم فى المناطق الغربية — وعندنا فى الاتحاد السوفييتى •• ضحك الجميع بصوت عال — لم تكن عبادة « أولبريخت » قد وجدت آنذاك بعد — عندما سبق لسان « أولبريخت » فقال : « عندنا فى الاتحاد السوفييتى ••• » وعندما أدرك ذلك خجل وقال : « أنا أقصد طبعا : عندنا فى المنطقة السوفييتية •••» •

وبعد أيام قليلة بدأ مؤتمر حزبى مركزى لأعضاء الحزب الشيوعى الألمـــانى وأعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى لتقرير الوحدة • ولم أعلم الا فيما بعد ، كيف أظهر مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى الاتجاه الحقيقى بين أعضاء هذا الحزب فى المنطقة السوفييتية وفى برلين ، وأن الوفود التى لم تكن موافقة على الوحدة ، أنزلت عنوة من القطارات وهى فى طريقها الى الاجتماع وألقى القبض عليها • وكنت قد اعتقدت آنذاك أن هـــذا المؤتمر يمثل الغالبيـــة العظمى من أعضـــاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى •

وفى صباح يوم ١٩ ابريل اتجهت مع الزملاء الآخرين العاملين فى اللجنة المركزية الى المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى الألمـــانى الذى عقد فى المسرح الألمـــانى فى شارع « شومان » •

كانت المنصة تلمع باللون الأحمر الفاتح ، وكتب وراءها على الحائط بالخط العريض : سلام — بناء — تقدم •

حيا « فيلهيلم بيك » الحاضرين باسم اللجنة المركزية ، ومن بينهم أيضا ممثلون عن سلطات الاحتلال المتحالفة ، ثم عبر عن الأمل فى أن يلقى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، الذى سيتكون — اعترافا وتأييدا من الحلفاء • كانت الخطب لم تزل قصيرة آنذاك ، فتحدث « أولبريخت » عن سياسة الحزب ، و « فرانس داليم » عن المنظمات ، فأعلن أن أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ عضوا جديدا طلبوا الانضمام الى الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، وأكد « داليم » بنوع خاص على الديمقراطية

داخل اطار حزب الاتحادِ الاشتراكى الألمـانى المقبل : « ستتاح الحرية الكاملة فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى للأعضاء فى التعبير عن آرائهم » •وتحدث « أنتون آكارمان » عن المسائل الأيديولوجية ، فعبر مرة أخرى عن نظرية اختلاف الطرق الى الاشتراكية فى البلاد المختلفة :

« •• غير أن من الخطأ الفاحش ، — ذلك الخطأ الذى بدأنا ارتكابه فى المـاضى — استخراج مبادىء « لينين » و « ستالين » التى وضعت لحالات خاصة فى بلدهما ، ومحاولة تطبيقها حرفيا فى ظل ظروف مختلفة ، أو تقليدهما فيما فعلاه فى أوضاع مختلفة تماما عن أوضاعنا • يجب أن نتجنب هذه الأخطاء اذا أردنا أن نتجنب ارتطام السفينة » •

ولوحظ أنه كان رزينا عندما قال ضاغطا على مخارج الحروف :

« •• سيكون حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى حزبا مستقلا ، لأنه سيكون حرا حرية كاملة فى اتخـاذ قراراته ، ولأنه لا ينظر الى المبادىء الأساسية فى « المـاركسية » على أنها دستور ، ولا على أنها مبادىء عقيدية جامدة ، بل سيستخدمها فى ظل ظروف ألمـانية خاصة ، وعلى الطريق الألمـانى الخاص فى التطور » •

فقوبل هذا التفسير بتصفيق حاد •

وفى اليوم التالى تحدث « فيلهيلم بيك » عن الحزب الموحد ، فلم يقتصد فى نقده زعامة الحزب الشيوعى الألمـانى السابق حيث قال :

« كنا نحن الشيوعيين نطمح دائما الى أن نطبق تجربة ثورة أكتوبر حرفيا فى ألمـانيا ، وبهذا تجاهلنا الخواص الوطنية الألمـانية • وحركة العمال الألمـانيين » •

ثم جرت عملية انتخاب مجلس الادارة فى نهاية المؤتمر ، فانتخب أربعون قياديا سينضمون بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى الى مجلس ادارته الذى سيضم ٨٠ عضوا ، وكان الأمل السائد أن فروع حزب الاتحاد الاشتراكى ستتأسس فى جميع أنحاء ألمـانيا بعد ذلك بوقت قصير ، فانتخب اثنى عشر من الأربعين من سكان ألمـانيا الغربية •

وافق المؤتمر فى النهاية على قرار بالاجماع ، جاء فيه :

عقد مؤتمر الحزب الشيوعى الألمـانى مع مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى جلسات مشتركة فى يومى ٢١ ، ١٢ ابريل سنة ١٩٤٦ فى قصر « أدميرال » فى برلين لاتمام وحدة الحزبين وتأسيس حزب الاتحاد الاشتراكى ••••

***

تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى

بدأ مؤتمر الحزب الموحد فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢١ ابريل سنة ١٩٤٦ فى قصر « أدميرال » فى برلين • فتدفق أكثر من ألف وفد ومئات الضيوف الى داخل المبنى — المؤتمر الحزبى المشـــترك الأول للشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين •

تجمع أمام قصر « أدميرال » آلاف من الناس — لم يجمعوا بالقوة كما أصبح عادة فيما بعد ، بل جمعهم حب الاستطلاع وميلهم الطبيعى لاظهار التأييد — يلوحون لنا بأيديهم ، ويصيحون بكلمات التشجيع •

وأخيرا وجدنـــا مكانـــا •• جلس الشـــيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون فى الصفوف مختلطين مع بعضهم ، وتبادل التحية منهم مع من يعرفه من الحزب الآخر ، وعرف بعضهم نفسه لمن لا يعرفه كلما سمح الموقف بذلك • ثم عزفت الفرقة افتتاحية « فيدليو » لـ« لودفيج فان بيتهوفن » ، وبعد دقائق قليلة دخل « فيلهيلم بيك » و « أوتوجروتيفول » الى المنصة من جانبين متقابلين ، فتقابلا فى الوسط ، وتصـــافحا بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، استمر دقائق ، ثم قال « جروتيفول » : « عندما خطونا نحن الاثنين منذ لحظات على هذه المنصة ، وضح عندى المغزى الرمزى لهذا العمل ، فقد جاء « فيلهيلم بيك » من اليسار وجئت من اليمين ، ولكن جاء كلانا لنتقابل فى الوسط » •

اندلع التصفيق الحاد ، وارتفعت صيحات الاستحسان ••

وهذا ما حدث أيضا مرارا فيما بعد ، ففى ضحى يوم ٢١ ابريل سنة ١٩٤٦ م سيطر الحماس الصادق الحر — غير المنظم من قبل الجهات العليا — على مشاعر الوفود •

انقضى اليوم الأول من المؤتمر فى القـــاء كلمات الترحيب والتأييد ، واشترك فيها بنوع خاص كثير من الشيوعيين ، والمؤيدين للوحدة من الديمقراطيين الاشتراكيين من الأجزاء الغربية فى ألمـــانيا •

وبدأ اليوم الثانى — وهو اليوم الحاسم فى مؤتمر وحدة الحزبين — بمفاجأة •• فقد أعلن مقدم الحفلة :

« أحب أن أقدم لـــكم الرفيق « أمبورن » من « ليبزج » ليقدم هدية ، ويلقى كلمة توضيح قصيرة لها » •

فوقف واحد من الصفوف الخلفية ، واتجه الى المنصة بخطوات بطيئة ، وكان يمسك فى يده عصا كبيرة ، منظرها مخيف • وأخيرا وصل الى المنصة وعيون الوفود تلاحقه •

ثم أعطى العصا الكبيرة لـ« جروتيفول » الذى مد بدوره طرفهـا الآخر لـ« فيلهيلم بيـك » بحيث أمسكا بها ، كل من طرف •

ثم شرح « أمبورن » حكاية العصا :

« هذه ذكرى من « أوجست بيبيل » خرطها بيده ، وترأس بهـا مؤتمر الحزب فى عام ١٨٩٠ م •

كانت المعارضة موجودة آنذاك ، التى كانت تسمى « الشباب » ، قال الذين حضروا المؤتمر ان « أوجست بيبيل » ضرب الشباب بهذه العصا عندما اشتد النزاع •

فضجت القاعة بالضحك ، ثم واصل « أمبورن » كلامه : « وبعد انتهاء المؤتمر أعطى « أوجست بيبيل » العصا لـ« باول رايسهاوس » ليحتفظ بها • وكان « رايسهاوس » من المؤيدين للوحدة ، فأراد أن يضع هذه العصا تحت تصرف مؤتمر الحزب ، اذا تحققت الوحدة ، ثم قـال « أمبورن » : « ولمـا كنت وصيا على ميراث « رايسهاوس » رأيت لزاما على أن أسلم هذه العصـا لمؤتمر الحزب ، وبالتالى لمجلس الادارة الجديد للحزب الموحد » •

وعلى الرغم من أن هذه التمثيلية كانت معدة من قبل ، فقد ظهر التأثر والانفعال على وجه « فيلهيلم بيك » • هل تذكر شبابه فى الحركة العماليـة الألمـانية ؟ ألا يزال يشعر فى هذه اللحظة بالارتباط القلبى بها ؟ — رغم كل التغيير الفكرى ، والنظام الحزبى والنفى فى الاتحـاد السوفييتى ؟

عرفت « فيلهيلم بيك » معرفة جيـدة ، تمكننى من التفرقة بين الشعور الأصلى عنده وما يتظاهر به من انفعالات •

ثم قدمه « جروتيفول » لالقاء كلمته ، فعدد « فيلهيلم بيك » مرة أخرى كل الأسس التى تدعو الى الوحدة ، وذكر كل المؤتمرات والقرارات التى طالبت بالوحدة • وانحرف عن التفسير الموضوعى مرة واحدة فقط ، وذلك عندما تحدث عن مؤتمر معارضى الوحدة فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، الذى عقد فى « تسيلندورف » وعن الاستفتاء ، فوصف المؤتمر فى « تسيلندورف » — متجاهلا تماما قوة الديمقراطية الاشتراكية

ـ بأنه « مهزلة » وأطلق على الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى برلين الذى أسس هناك : « نادى مستشفى تسيلندورف » • ولم يفكر أحد من الموجودين فى القاعة أن « نادى مستشفى تسيلندورف » سيثبت بعد ستة أشهر ، أنه أقوى حزب فى برلين •

كانت خطبة « فيلهيلم بيك » ـ بصرف النظـر عن تهكمه بهذه المجموعة ـ تذكيرا بالعمل المشترك المنسجم ، الذى سيقوم به الشيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون ، فى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ويجب أن يكون الهدف هو الاندماج التام « حتى تذوب الفوارق فلا يكون هناك ديمقراطى اشتراكى وشيوعى » •

وناشد كل الوفود وأعضاء الحزبين : « بأن يتسموا بروح الاخوة والصداقة والصبر » •

كذلك لم يتحدث « جروتيفول » آنذاك بتلك الرصانة التى أصبحت اليوم جزءا ثابتا فى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، بل صاغ كلمته صياغة رائعة دون اغراق فى المسائل العقائدية ، فتحدث فيها عن حاضر ومستقبل ألمـانيا ، وبين أن الاتحاد الاشتراكى الألمـانى يرفض مناهضة البلشفية ، « •• ولكن هذا الرفض بعيد كل البعد عن الارتباط الداخلى بنفوذ أجنبى » • وقوبل « جروتيفول » بتصفيق حاد لم يحدث فى المؤتمر كله حين قال :

« أنا أعتقد أن رجال سلطة الاحتلال السوفييتى ، سيأخذون كلمتى على محمل سىء اذا قلت : ان الاتحاد الاشتراكى الذى يخلق اليوم ، يكفل بواسطة قوته السياسية ـ على الأقل فى المنطقة السوفييتية ـ ضمانا كبيرا فى المنطقة السوفييتية ، يجعلنـا لا نحتاج الى البنادق الروسية » •

عبر التصفيق الهادر الذى اسـتمر دقائق عديدة ، وصـيحات الاستحسان عن الأمل فى أن الاشتراكيين الألمـانيين سيصبحون قريبا أسيادا فى وطنهم بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى فى اتخاذ طريق مستقل الى الاشتراكية ، يرتكز على تقاليدهم الخاصة •

أكد « جروتيفول » بنوع خاص على ضرورة الحرية الشخصية فى الحزب الجديد فقال :

« ان من واجبات الحزب تطوير الحرية الشخصية ، وتوسـيع

دائرتها ••• يسود احترام حقوق حياة الانسان فى الأحزاب الألمانية الصغيرة بصورة أقوى وأسمى مما هى فى الحزب الاشتراكى » •

ثم جاءت نقطة الذروة : الاستفتاء على قرار تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى وبرنامجه ، وهيكل تشكيله الأساسى •

تضمنت « مبادىء وأهداف الاتحاد الاشتراكى الألمانى » — بجانب مطالب العصر التى صيغت فى ١٢ نقطة — نصا قصيرا عن الهدف الاشتراكى الأخير : « هدف حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى هو التحرر من كل استغلال واستعباد ، ومن الأزمة الاقتصادية ، والفقر والبطالة ، والتهديد بالحرب الاستعمارية • ولن يتحقق هذا الهدف — وهو حل مشاكل الحياة الوطنية والاجتماعية لشعبنا — الا عن طريق الاشتراكية ••

ويتيح الوضع الحالى فى ألمانيا — بانهيار جهاز سلطة الدولة الرجعى ، وقيام دولة ديمقراطية على أساس اقتصادى جديد — امكانية منع القوى الرجعية من استخدام القوة والحرب الأهلية ، للوقوف فى طريق التحرير النهائى للطبقة العمالية ••

ان حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى سيبذل ما فى وسعه للسير فى الطريق الديمقراطى الى الاشتراكية ، ولكنه سيستخدم الوسيلة الثورية ، اذا تركت الطبقة الرأسمالية طريق الديمقراطية ••• » •

« من يوافق على هذه المبادىء والأهداف المقترحة للاتحاد الاشتراكى الألمانى » ؟ فرفع كل الحاضرين أيديهم •

وبهذا ووفق على البرنامج بالاجماع ، ثم تلا ذلك التصويت على هيكل التشكيل الأساسى • تلفت حولى مندهشا : فقد رأيت بالقرب منى مباشرة بعض الوفود لم ترفع يدها •

ثم نودى على المعارضين ، فرفع أعضاء ٢١ وفدا أيديهم •

« الممتنعون عن التصويت » ؟ فرفع ٤ وفود أيديهم •

أعجبت بهذه النتيجة ، اذ لم أر حتى اليوم — لا فى منظمة الشباب ولا فى الحزب الشيوعى الألمانى — صوتا معارضا فى المسائل السياسية « اذن سيكون الاتحاد الاشتراكى الألمانى شيئا آخر مغايرا لما رأيته حتى اليوم » هكذا فكرت مرتاح النفس ، ولم أكن أدرى آنذاك : أنها كانت الأولى ، ولكنها فى نفس الوقت المرة الأخيرة أيضا فى تاريخ الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى أن يصوت وفد فى مؤتمر الحزب ضد

اقتراح القيادة • ثم أخذ « أولبريخت » الجلسة فقرأ — بصوت عال ، وبلكنته « الزاكسية » المعروفة — قرار الوحدة :

« قرر المؤتمر الأربعون للحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى والمؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى الألمانى فى جلستيهما المنعقدتين فى ١٩ ، ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٦ م ، وحدة كلا الحزبين بأغلبية الأصوات •

يتكون من الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى والحزب الشيوعى الألمانى ، ابتداء من اليوم حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى » •

منع التصفيق الحاد « أولبريخت » من الاستمرار فى القراءة ، ثم بعد انتهاء التصفيق واصل قراءته :

« من يوافق على قرار الوحدة يتفضل مشكورا برفع يده » كانت الموافقة اجماعية فى هذه المرة •

وأخيرا أعلن أن مجلس الحزب يتكون من ٨٠ عضوا يمثل كل حزب بأربعين ، وهم الذين اختيروا أمس فى كل من مؤتمر الحزب الديمقراطى الاشتراكى والحزب الشيوعى •

لم يبق الا انتخاب الرئيس • ابتسم كثير من الوفود عندما لم يكتف « أولبريخت » بالتصفيق ، وصيحات الاستحسان بعد أن أعلن اسمى « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » — وكانت هذه أول مرة ، وآخر مرة تحدث فى مؤتمر للاتحاد الاشتراكى الألمانى — بل طلب — بهدوء وموضوعية — من الجميع ابداء أصواتهم :

« أرجو من الرفقاء الموافقين رفع أيديهم » !

فارتعت الأيدى عالية ، كأشجار الغابات •

« المعارضون •• الممتنع عن التصويت » لا أحد •

« استقر انتخاب الرفيقين « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » رئيسين للحزب بالاجماع » فاندلع التصفيق الحاد قاطعا ختام كلمة « أولبريخت » •

« ابتداء من اليوم ، لا يوجد ديمقراطيون اشتراكيون ولا شيوعيون ••• بل يوجد اشتراكيون فقط •• لا تتعلق أحداث اليوم بتوحيد الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين فحسب ، بل أيضا بميلاد جديد للحركة العمالية الألمانية ••• » •

ثم غنى الجميع بصوت واحد أغنية : « اخوة ، الى الشمس ، الى الحرية » • قام الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

اجتمع فى المساء كل الوفود وكثير من القياديين فى قصر مدينة « فريدريسن » لحضور « حفلة ختام سعيدة » •

لم يكن هناك مقعد واحد من مقاعد الصالة التى يبلغ عددها ثلاثة آلاف خاليا ، ووقف مئات أخرى من الرفقاء فى المدخل • فقد انتهى اليوم المليء بالأحداث ، والكل مفعم بالآمال ، اذ بدا كل شيء ناطقا بتحقيق رغباتنا : تقسيم مناصب الرئاسة ، كلمات التذكير بالزمالة ، والثقة التى وجهها « بيك » الى الشيوعيين ، وتأكيد « جروتيفول » على الحرية الشخصية فى الحزب الجديد ، والانتخاب الأول ، الذى حطم عادة : باجماع الأصوات ، ولم يعتبره أحد شرا ، أو ضررا تجب مكافحته ودعوى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ، التى سجلت فى برنامج الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، واشارة « جروتيفول » الى احتمال نهاية الاحتلال السوفييتى •••

لم يخطر ببالى فى ذلك المساء أن نصف الذين اشتركوا فى مؤتمر الوحدة ، سيبعدون من نشاطهم ، أو يعزلون ، أو يشى بهم ، أو يقعون ضحية تطهير بعد أعوام قليلة •

حتى الذين أسهموا بنشاط كبير فى تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، لم يستثنوا من الوقوع فى هذا المصير •

فمن أعضاء السكرتارية المركزية الأربعة عشرة ، استقال « أوجست كارستين » لأسباب صحية ، وهرب « ايريش • ف جنيفكى » فى أكتوبر سنة ١٩٤٨ الى ألمانيا الغربية ، ووصفه « أولبريخت » فيما بعد بأنه « عنصر طبقى معادى » — ونقل « أوتو ماير » و « كيتى كيرن » و « هلموت ليمان » فى يناير سنة ١٩٤٩ م الى مناصب لا وزن لها ، واتهم « باول ميركير » فى أغسطس سنة ١٩٥٠ م « بعدم الثقة فى الزعامة السوفييتية ، وأنه نفذ أوامر الاستعماريين الأمريكيين فى المنفى » وبناء على هذه التهمة جرد من جميع المناصب • ولم يكن حال « فرانس داليم » بأحسن منهم ، اذ وجه التوبيخ اليه ، بأنه « غفل تماما عن محاولة عملاء الاستعمار التسلل الى الحزب » • وعزل « ماكس فيشنر » من السكرتارية المركزية فى يناير ١٩٤٩ م ، ثم عزل من الحزب فى يوليو سنة ١٩٥٣ م بتهمة أنه « عدو الحزب والشعب » ، ثم قبض عليه بدعوى

أنه كوزير للعدل ، استخدم وظيفته فى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣[١] لحماية مثيرى الشغب الفاشيين من العقاب • كذلك أبعد « ايلى شميت » من الزعامة ، وعين فى منصب عديم الأهمية نتيجة شبهات حامت حوله فى حوادث ١٧ يونيو • وفرض على « آكارمان » — وهو بلا شك عقلية لها أهميتها فى السكرتارية المركزية — ممارسة عملية النقد الذاتى فى خريف عام ١٩٤٨ م ، وأنزلوه درجة الى المكتب السياسى فى يناير سنة ١٩٤٩ م وبعد حوادث ١٧ يونيو عزل من اللجنة المركزية لأنه كان يمثل « موقف التصالح » •

وهكذا فقد عشرة من الأربعة عشر عضوا فى السكرتارية المركزية الذين انتخبوا فى مؤتمر الوحدة بين تصفيق الوفود ، مراكزهم فى غضون أعوام قليلة ، وأنزلوا الى درجات دانية ، واتهم البعض بأنه « عدو الحزب » فطرد منه • لم يكن الضحايا أقل بين الأعضاء الثمانية عشر فى مجلس الحزب ، ولا بين القياديين البالغ عددهم أكثر من ألف ، الذين اشتركوا فى مؤتمر الوحدة ، فقد وقع الجزء الأكبر منهم — بنوع خاص — ضحايا حملات التطهير التى شنت بعد عام ١٩٤٨ م ، فبعضهم نزل من مركزه بطريقة لينة نسبيا ، والبعض الآخر طرد من الحزب ، أو قبض عليه •

لو علمت كل هذا فى مساء ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٦ م لتبخرت فرحتى وتهليلى ولكن لم يكن قد خطر ذلك ببالى بعد — بالضبط مثل كل الذين حضروا هذا المساء ، وكانوا سعداء ، وغـادروا « القصر » مفعمين بالأمل والفرحة معتقدين أنهم شاركوا فى عمل وحدة الحركة العماليـة الألمـانية الكبير •

* * *

موسكو تعترف برأى « آكارمان »

تسلمت مسودة روسية من ضابط الاتصال السوفييتى بعد أسابيع قليلة من تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمـانى :

---

(١) ثار الشعب فى ألمـانيا الشرقية فى ذلك اليوم ضد الحكومة ، فنزلت الدبابات الروسية فى الشوارع وقمعت الثورة بالقوة • ووقعت ضحايا كثيرة فى هذا اليوم • م • شامة •

« أيها الرفيق « ليونهارد » •• من فضلك ترجم هذه ترجمة دقيقة الى اللغة الألمانية •• فهى تتعلق بمسألة هامة جدا » •

كان العنوان مخيبا للأمل : « ما هى الديمقراطية » ؟ غير أنى عندما قرأتها لاحظت أنها تتعلق بفهم سياسى جديد تماما ، اذ يدعو المقال الى صيغة ديمقراطية وسط لألمانيا ، « تكون بين الديمقراطية الوطنية ، والديمقراطية الاشتراكية •• وتكمن خاصية هذه الديمقراطية فى الرغبة فى سيادة أغلبية السكان مع الاحتفاظ بأسس نظام الاقتصاد الرأسمالى ، والاحتفاظ بوسائل الانتاج الخاصة » ، وينبغى أن ينحصر التغيير فى تصفية عصابات الاحتكار الرأسمالى ، وتنفيذ الاصلاح الزراعى ، والقضاء على البقية الباقية من الفاشية ، دون تطبيق صيغة ومضمون النظام السوفييتى ويبدو لنا أن هذا النموذج من الديمقراطية أكثر قبولا لألمانيا فى المرحلة الحاضرة » •

ازداد اهتمامى عندما ترجمت بعد دقائق قليلة من الروسية : « فالاتحاد الاشتراكى الألمانى ضد الاقتباس الآلى من النظام السوفييتى كما هو ضد الاقتباس الآلى من النظام الانجليزى أو الأمريكى ، أو الفرنسى وتطبيق ما يقتبسه فى ألمانيا » • تلقى حزبنا بهذا اشارة من أعلى المراكز السوفييتية بألا نقلد النظام السوفييتى حرفيا ، بل نطبق صيغة تكون بين الديمقراطية الوطنية فى الغرب وبين النظام السوفييتى !

انتظرت بأعصاب مشدودة ما يحدث مع هذه الديمقراطية • هل كانت اشارة داخلية فقط للقياديين الكبار ؟ هل ستنسخ منها أعداد وتوزع كتعليمات الى عدد أكبر من القياديين ؟

وعندما تسلم ضابط الاتصال الترجمة قال لى : « سينشر هذا المقال » •

تعجب كثير من القياديين عندما ظهر لأول مرة فى العدد التالى من مجلة النظريات « العصر الحديث » — ولم يحدث مثل هذا اطلاقا ، لا قبلا ولا بعدا — مقال لم يوقع عليه كاتبه ، بل وضع عليه ثلاثة نجوم صغيرة • ومن الطبيعى أن كل قيادى عرف أنه مقال من أعلى المستويات • ولم يمر مساء فى الأسابيع التالية ، دون أن يدور الحديث حول هذا المقال ، وقد دل هذا على أن الطريق الألمانى الخاص الى الاشتراكية لم يعد النظرية الرسمية للحزب الألمانى فقط ، بل نظرية موسكو •

أصبح الطريق المختلف الى الاشتراكية فى عام ١٩٤٦ م جزءا لا يتجزأ من « الخط » فى الأحزاب الشيوعية فى البلاد الأخرى •

ولا يرجع التقدم الكبير للأحزاب الشيوعية فى كل البلاد فى الفترة من عام ١٩٤٥ م الى عام ١٩٤٨ م الى مشاركة الشيوعيين فى حركات المقاومة فحسب — وان كان ذلك عملا هاما — بل أيضا الى حقيقة أن هذه الأحزاب أعلنت فى ذلك الوقت أنها ضد التقليد الحرفى للطريق السوفييتى •

بقى هذا السؤال مفتوحا :

هل كانت موافقة « ستالين » والزعامة السوفييتية آنذاك على دعوى اتخاذ طريق خاص الى الاشتراكية صادقة ؟

هل كانوا مقتنعين حقا بينهم وبين أنفسهم بضرورة سلوك طريق مستقل الى الاشتراكية فى البلاد المختلفة ؟

أو أوحوا بهذه الدعوى فقط ، وطالبوا بها بهدف ترك الأحزاب الشيوعية تقوى ، ويشتد ساعدها ، ثم القاء هذه الدعوى فى سجل المحفوظات عندما يتحقق الهدف ؟

* * *

الانتخابات الأولى

تركز عملنا كله فى الأربعة أشهر الماضية على تحقيق الوحدة ، وقام الآن الحزب الموحد ، فماذا بعد ذلك ؟

شعرنا نحن القياديين — الذين لا يتصور لديهم حياة بدون نشاط سياسى أو حملات دعائية — بالفراغ ، فلأول مرة لا يوجد ما نقوم به سوى الأعمال الروتينية •

كان جهاز الحزب المركزى مشغولا فى ذلك الوقت بأعماله الداخلية فقط : بتأثيث وتقسيم الحجرات فى مبنى الحزب الجديد الضخم ، الذى يطلق عليه « منزل الوحدة » فى شارع « لوترينج » رقم ١ ، وبجمع هيئات تحرير جريدة الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابقة « الشعب » وجريدة الحزب الشيوعى السابقة « جريدة الشعب الألمانية » ، وكذلك بتوزيع المناصب على أعضاء السكرتارية المركزية •

أصبح مقرنا فى شارع « فال » رقم ٧٦ — ٧٩ — الذى كان يضم

سابقا السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى الألمـانى — مقرا للقسم السياسى والدعاية ، الذى تغير اسمه الى قسم الثقافة والاعلام ، ولدار نشر الحزب أيضا •

أصبح كل منصب الآن مشغولا باثنين : قيادى من الحزب الشيوعى السابق ، وآخر من الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وبهذا تضاعف عدد العاملين ، فصار العمل فى جهاز الحزب ثقيلا وبطيئا ، وسار كل شىء أكثر تمهلا منه فى الحزب الشيوعى الألمـانى •

وبعد أسبوعين عقد اجتماع لقسمنا « الثقافة والاعلام » فشرح فيه « أوتو جروتيفول » اقتراحا من السكرتارية المركزية : « فكرنا فى أن نجعل الدروس الثقافية مرتين فى الشهر بدلا من مرة فى الأسبوع •• وأحب أن أقول ، ان ارهاق الرفقاء ••• » •

أعطانى « أولسنر » حق القاء الكلمة الأولى فى المناقشة ، ولكن لم تأت كلمتى فى الدفاع عن الدروس الثقافية الأسبوعية بنتيجة ، وكما جرى فى كل مكان فى أجهزة الحزب ، فقد استبدلت طريقة العمل المحمومة نشاطا التى سادت فى أجهزة الحزب الشيوعى السابق ، بطريقة العمل الهادئة للحزب الديمقراطى الاشتراكى •

مضت أسابيع عدة ، ثم لوحظ بوضوح انخفاض درجة الحماس فى الدروس الثقافية الأسبوعية ، وفى الأنظمة الخاضعة للحزب • لا شىء أكثر خطرا على مثل هذا الحزب من الركود فى بعض الأسابيع • لم يكن هناك واجبات ضرورية ، تشد أنفاس العاملين فى أجهزة الحزب •

ثم أضيف الى ذلك خيبة أمل كبيرة : التباطؤ فى الاعتراف بالاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، فلم يعترف به فى برلين الا فى ٢٩ مايو — أى بعد خمسة أسابيع من التأسيس — فى الاجتماع السابع والخمسين لحكمدارية الحلفـاء • ولكن اعترف أيضـا فى نفس الوقت بالحزب الديمقراطى الاشتراكى الذى تأسس حديثا فى أوائل العام •

تسرب الشك شيئا فشيئا الى بعض الذين يميلون الى التروى قبل الاقدام على العمل ، ربما كان ينبغى علينا الانتظار فترة أخرى ؟ ربما تمت الوحدة بأسرع مما يجب ؟ ألم يكن فى امكاننا التوصل الى اندماج المنظمات اندماجا حقيقيا لو كان التطور أشد بطئا من هذا ؟

كان التباطؤ فى الاعتراف بالحزب الجديد فى برلين ، وشغل كل منصب باثنين ، وتضخم أجهزة الحزب ، وقبل هذا كله عدم العمل أسابيع ، سببا فى احداث عواقب سيئة على الحزب ، فلم يكن الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى يونيو سنة ١٩٤٦ م هو نفسه الذى كان فى نهاية ابريل . لم نكلف بواجبات جديدة الا فى النصف الثانى من يونيو ، فقد تقرر استفتاء شعبى فى مقاطعة « زاكسين » فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م حول نزع ملكية مجرمى الحرب والأعضاء المسئولين فى الحزب النازى ، ولم يكن الهدف من اجراء هذا الاستفتاء تدعيم قرار نزع الملكية ، فقد تقرر من قبل نقل ملكية مؤسسات الزعماء النازيين والمسئولين عن الحرب الى يد الدولة ، بل كان الغرض منه فى المقام الأول أخذ صورة عن الرأى السائد عند الشعب .

نزل الحزب — الذى أصابه الكسل والتعب من جراء عدم العمل أسابيع طويلة — بقلبه فى هذه المعركة ، فتألم القياديون فى جهازنا الذين رجعوا من « زاكسين » : « ان الموقف فظيع جدا .. فقد أصبح الناس سلبيين بدرجة لا تتصور » .

تحرك الحزب شيئا فشيئا ، ولكن عاد النشاط فى قسمنا الى عهده الأول قبل بدء عملية الاستفتاء — يجب أن نعمل شعارات ولافتات لمقاطعة « زاكسين » : « قولك نعم من أجل السلام » ، « مؤسسات مجرمى الحرب والنازية فى يد الشعب » ..فطبع منها مئات الآلاف ووزعت فى مقاطعة « زاكسين » .

أعلنت نتيجة الاستفتاء الشعبى فى ٢ يونيو : فما يقارب ٧ر٢ مليون صوتا (٧ر٧٧ ٪) « نعم » ، وقريبا من ٠٠٠ر٦٠٠ صوتا (٥ر١٦ ٪) « لا » ، وأكثر من ٠٠٠ر٢٠٠ صوتا غير قانونية ، فصرف النظر عن اجــراء استفتاء فى المقاطعــات الأخرى ، وقامت أول مؤسسة يملكها الشعب .

وبعد النتيجة المرضية نسبيا تقرر اجراء أول انتخاب للمجالس المحلية فى المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولأننا كنا نتوقع نتيجة طيبة فى « زاكسين » فقد تقرر أن يجرى الانتخاب فيها فى أول سبتمبر ، وفى « تورينجن » وقرى « زاكسين » فى ٨ سبتمبر ، وفى « براندينبرج » و « ميكلينبرج » — حيث كنا نتوقع صعوبات —

فى ١٥ سبتمبر • وحرم من الادلاء بصوته أفراد الـ (S S)(١) السابقين ، وأفراد الـ S D (٢) « الجستابو »(٣) كذلك القياديون السابقون فى N. S. D. A. P.(٤) ابتداء من رئيس اللجنة المحلية فى القرية فما فوق

دارت مناقشات واسعة عندنا حول هذه المسألة : هل ينبغى أن يقتصر الترشيح على الأحزاب الثلاثة — حزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمـــانى ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى — ، أو ينبغى أن نحاول بواســطة رجالنـــا دفع المنظمات الجماهيرية — مثل اللجنة النسائية ، ورابطة نقابات العمال الحرة ، ومنظمة الشباب الألمـــانى الحر — الى تقديم قائمة مرشحين ، كى نكسب بذلك أصواتا بطريق غير مباشر ؟

أيد معظم القياديين — الذين قاموا بنشاط فى ألمـــانيا فى عهـــد « هتلر » — أن تشترك الأحزاب فقط فى الانتخابات • « •• فليس لموضوع ادخال المنظمات الأخرى فى الانتخابات أى معنى ، اذ قل أن ينتخب أحد هذه المنظمات » • كان « أولبريخت » هو المدافع الوحيد عن اشتراك هذه المنظمات الجماهيرية ، واستعمل نفوذه لتنفيذ هذا الرأى •

قدمت مراسم التودد والتقرب الى كل ، لينجح الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى الانتخابات ، ورجع من روسيا قبل الوقت المحدد أسرى الحرب ، الذين حولوا فكريا هناك الى مناهضين للفاشية ، ليساعدوا الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى حملته الانتخابية •

وكان أهم من ذلك اتخاذ اجراء آخر ، ففى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م عندما أعلنت مواعيد اجراء الانتخابات ، ظهر بيـــان مجلس الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى يبين موقفه من أعضاء الحزب النازى السابق العاديين ، وكان معدا قبل هذا بوقت طويل •

« لا يجوز لنا تكرار الخطأ الذى ارتكبه الحزب الشيوعى النمساوى فى انتخابات خريف عام ١٩٤٥ م فقدر كل الرفقـــاء النمساويون جمهور الحزب النازى بواسطة طريقتهم البدائية فى محاربة النازية ، فعزلوا بذلك عن الجماهير » كانت هذه هى الحجة الداخلية (أى التى لم تنشر)

---

(١) قوات ماليشيا الحزب النازى •

(٢) جهاز أمن الدولة • (٣) المخابرات العامة •

(٤) حزب العمال الوطنى الاشتراكى : الحزب النازى •

الحاسمة للموقف الجديد ، وعلى الضد من ذلك أعلن رسميا : « يرى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى أن الوقت قد حان لقبول الأعضاء الصغار السابقين فى الحزب النازى ، والذين شايعوه آنذاك ، قبولهم الآن فى أجهزة بناء الديمقراطية » •

فهبت عاصفة من السخط والغضب فى صفوفنا ، لم نكن نتوقعها بهذا الحجم ، فأيما كان الموضوع الذى يعالج فى أى اجتماع للحزب ، كان أول المناقشين يتحدث أولا بغضب عن مسألة النازية •

ولم يبق سوى شىء واحد فقط : الثقافة •

« يجب أن نكتب حالا كراسة ثقافية عن مسألة علاقة الاتحاد الاشتراكى بأعضاء الحزب النازى السابق العاديين • فأجل الموضوع الذى كان مقررا من قبل أن تعالجه الكراسة فى أسبوعين لأن هذا الموضوع الجديد أهم من كل شىء آخر الآن » • وبعد ذلك بأسبوعين قضيت مع « آكارمان » فترة ما بعد ظهر يوم الأحد ومساءه ، لنضع الصيغة الأخيرة ، لأكثر الكراسات تعقيدا حتى الآن ، وأخيرا وقع عليها مصرحا بالطبع •

« أولسنر » فى « زاكسين » ، ولا تكفى الكراسة الثقافية ، ولذا يجب عليك أن تكتب مقالا فى نفس الموضوع فى جريدة « ألمانيا الحرة »

— « تحت أى عنوان » ؟

— « اتجاه الحزب الواضح فى مسألة النازية » •

بدت لى المبالغة فى هذا ، وأخيرا تقرر أن يظهر المقال الثقافى تحت عنوان « مجرمو الحرب والمسئولين فى الحزب النازى ، وأعضاؤه العاديون » وختمت مقالى بهذه الفقرة :

« •• تحديد حاسم واضح ، ليس طبقا للظواهر ، بل للمواقف ، عقاب سريع رادع لمجرمى الحرب الذين صدر منهم هذا الاجرام ، واجراءات تكفير عن السيئات ضد أولئك الذين كانوا نشطين فى الحزب ، الذين كانوا حملة السياسة والمدافعين عن الأعمال الاجرامية فى الحزب النازى ، ويحاولون اليوم تشويش الجو على حركة البناء الجديدة ، ولكن يعفى من هذا كله أولئك الملايين العديدة من أعضاء الحزب النازى السابق ، الذين يريدون بصدق واخلاص اتخاذ طريق جديد ••

وهكذا ، وفقط بهذا الأسلوب يمكن أن تحل مسألة معاملة النازيين حلا صحيحا » •

اقتنعت شخصيا بهذا ، ولكن لم يكن من السهل أن يقتنع الرفقاء بهذا الرأى فى الحلقات الثقافية ، وقد جند لها كل القياديين السابقين ، فقد كان المعارضون للنازية — الذين لا يفرقون بين النازيين المذنبين حقيقة وبين النازيين العاديين — أقوياء لدرجة ، أنه لم يكن من الممكن اقناعهم بالفرق الواضح الا بشق الأنفس •

ثم بدأت بعد هذا مباشرة اجتماعات — أوحى بها ونظمها الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى — مع أعضاء الحزب النازى السابق •

« لقد زادت المسألة عن حدها » قال ذلك بعض القياديين ، وعارضهم آخرون ، تأثروا بهذه الاجتماعات قائلين : « ان من بينهم أناسا مدهشين جدا ، ويمكن أن يصبحوا عندنا من الممتازين نشاطا ونجاحا ، فلا تتذمروا كثيرا » •

رجع « فالديمار شميت » — الذى قضى عشر ســـنوات تقريبا فى معسكرات الاعتقال — الى المنزل ذات مساء من أحد الاجتماعات مع الأعضاء العاديين فى الحزب النازى السابق ضاحكا وقال لى : « لقد شاهدت كثيرا ، ولم أحلم بمثل هذا قط ، فالناس متحمسون لبيان الاتحاد الاشتراكى تحمسا شديدا ، وختم أحدهم خطابه الحماسى بشعار صاغه بنفسه » •

نظر الى « فالديمار شميت » مبتسما ، ثم قال : « لقد ألفت بنفسك شعارات كثيرة ، ففكر قليلا ، وقل لى بأى شعار صاح هذا الخطيب » ؟

ذكرت له بعض الشعارات ، ولكنه هز رأسه ، ثم قال :

« كان شعار هذا النازى الصغير أحسن بكثير ، لقد صاح بأعلى صوته : يحيا الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، الصديق الحميم للنازى الصغير » !

بعد أن سكنت عاصفة خطنا الجديد بالنسبة للأعضاء العاديين فى الحزب النازى السابق ، وجه الأعضاء والقياديون كل قواهم فى حملة الدعاية لانتخاب المجالس المحلية • وكان وضعنا ممتازا جدا : لا يستطيع أى حزب ترشيح أحد من أعضائه فى أى منطقة الا اذا كان له أكثر من فرع فيها ، فلحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فرع فى كل مركز ، وكل قرية ، أما حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فلم يصلا الى هذا الحد فى انشاء فروعهما ، ولهذا لم يرشح أحد فى كثير من المناطق سوى عضو الاتحاد الاشتراكى • ولم يكن من

المفاجآت أن يحصل الاتحاد الاشتراكى فى انتخابات « زاكسين » التى جرت فى أول سبتمبر على أصوات أكثر من مجموع ما حصل عليه حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى والحزب الديمقراطى الليبرالى من أصوات ، اذ حصل الاتحـاد الاشتراكى على ٨٥١ر٦٠٠ر١ صـوتا ، والحزب الديمقراطى الليبرالى على ٢٧١ر٦٧١ صوتا ، وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى على ١٤٧ر٦٥٥ صوتا ، ولم يحصل ما كان يسمى « بالمنظمات الجماهيرية الا على ٠٠٠ر٦٠ صوتا مجتمعة .

كانت الحملة الانتخابية فى قرى « زاكسين » وفى « تورينجن » أكثر احتداما ، فقد كان نشاط الأحزاب الوطنية أكبر مما توقعنا . وحدث اضطراب ، عندما علقت أوساط معينة فى الحزب الديمقراطى الليبرالى فى « هاللى » يافطة دعائية على ترام يسير فى شوارع المدينة قبل الانتخاب بيوم واحد ، كتب عليـها : « من أجل الارتباط بالاتحـاد السوفييتى ، انتخبوا الاتحاد الاشتراكى » .

كانت انتخابات أغسطس فى « زاكسين — أنهالت » وفى « تورينجن » أكثر صعوبة بالنسبة للاتحاد الاشتراكى الألمـانى منها فى « زاكسين » . وتضاعفت الجهود أكثر بالنسبة للانتخابات التى ستجرى فى ١٥ سبتمبر فى « براندينبرج » وفى « ميكلينبرج » .

أخبرنا الرفقاء بعد أن قاموا برحلة عبر المنطقة عن المناقشة الحادة حول موضوع : خط « أودر — نايسى » . وحدث هذا خاصـة فى « ميكلينبرج » لأنه استوطنها عدد كبير من اللاجئين القادمين من المناطق الواقعة فى الطرف الآخر من « أودر — نايسى » ، وقيل هناك : « يجب عمل شىء فى هذا الموضوع » .

نشر « ماكس فيشنر » بيانا فى آخر يوم قبل اجراء الانتخابات : « أحب أن أوضح الوضع بالنسبة للحدود الشرقية لألمانيا ، ان الاتحاد الاشتراكى الألمـانى سيقف فى وجه أى محاولة تستهدف استقطاع أجزاء من ألمـانيا ، فالحدود الشرقية هى حدود مؤقتة فقط ، ولا يمكن أن تثبت الا فى مؤتمر سلام ، تشترك فيه كل الدول الكبرى المنتصرة »(١) فتنفس أعضاء الحزب الصعداء ، وتلى تفسير « فيشنر » فى كل مؤتمرات الحملة الانتخابية ، بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، غير أن من

---

(١) جريدة ألمـانيا الحرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

الواضح أن ذلك استمر فى التصعيد دون توقف ، وفضلا عن ذلك فلم يبد من المستحسن أن يظهر قيادى من طبقة القمة فى الاتحاد الاشتراكى بمثل هذا التفسير ، ويتباهى به فى الحملة الانتخابية • ولهذا ظهر بعد ذلك بوقت قصير بيان رسمى من مجلس الحزب الأعلى ، أضعف من صيغة التفسير السابق : « سوف يفعل الاتحاد الاشتراكى الألمانى كل شىء ، كى يسمع صوت الشعب الألمانى أيضا حول مسائل حدود ألمانيا الجديدة فى مؤتمر السلام »(١) •

انتهت انتخابات المجالس المحلية — كما كان متوقعا لها — بانتصار كبير لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد حصل فى كل المقاطعات الخمسة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى على ٧٦ر٢ ٪ ، وكان مجموع أصواته مع مجموع أصوات ما يسمى « بالمنظمات الجماهيرية » ٨٢ ٪ تقريبا •

لم ننخدع فى قسم الثقافة والاعلام بهذه النتيجة ، فقد علمنا أنها لا تتطابق مع الأصوات الحقيقية ، بل يرجع الفضل فيها الى وضعنا المفضل ماديا وسياسيا •

كانت انتخابات مجالس المراكز وبرلمانات المحافظات أكثر صعوبة ، فقد وجدت قوائم تمكن الناخب فى كل من مكان انتخاب الحزب الديمقراطى الليبرالى وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى بجانب حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فجندت كل القوى المتاحة حتى آخر شىء موجود عندنا فى هذه المعركة • ورغم كل الجهود التى بذلت ، فلم يحصل الاتحاد الاشتراكى فى المتوسط الا على ما يقرب من نصف الأصوات ، فقد فاز بـ ٢٤٩ مقعدا من مجموع المقاعد وعددها ٥١٩ مقعدا ، وساعدت « المنظمات الجماهيرية » فى هذا الموقف فقد كان عدد نوابها ١٦ ، منهم ١٢ من أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، وبهذا ارتفع عدد أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمانى الى ٢٦١ عضوا ، ففاز بأغلبية ضئيلة فى برلمانات المحافظات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

ينص قانون الانتخابات على اجراء انتخابات المجالس المحلية كل

---

(١) « موقف الاتحاد الاشتراكى الألمانى من مسألة الحدود » — بيان مجلس الحزب الأعلى للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى جريدة « ألمانيا الجديدة » فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ •

سنتين ، أى يجب أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٨ م ، وانتخاب مجالس المراكز وبرلمانات المحافظات بعد ثلاث سنوات ، أى يجب أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٩ م •

قال القياديون المتفائلون بعد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ : « سيكون الوضع أحسن فى الانتخابات القادمة » ولكن لم تجر انتخابات بعد ذلك •

كانت انتخابات أكتوبر سنة ١٩٤٦ أول ، وآخر انتخابات تجرى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، يوضع فيها الناخب أمام اختيار سياسى ، اذ لم يوجد منذ ذلك التاريخ سوى قائمة موحدة •

* * *

الهزيمة فى برلين

كان واضحا لنا أن انتخابات المجالس المحلية وبرلمانات المحافظات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى كانت مقدمة تمهيدية ، وسيكون القرار الحاسم فى انتخابات برلين التى ستجرى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م •

كان الرأى السائد فى « منزل الوحدة » أنهم متأكدون من النصر •

أصدر « فيلهيلم بيك » بيانا فى ٢٦ سبتمبر ، كان من الممكن أن يكون له أثر فى حصول الاتحاد الاشتراكى الألمانى على أغلبية الأصوات ، أو على أقل تقدير سيتقدم كل الأحزاب الأخرى •

لم يكن هناك تفاؤل فى هيئة قيادة الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد حصلت على صورة واضحة — بدون رتوش — للموقف ، عن طريق المناقشات العديدة مع « فالديمار شميت » عندنا فى المسكن • كذلك استعملت المواصلات العامة فى الأسابيع السابقة على اجراء الانتخابات ، وردت المطاعم والمحلات فى مناطق غرب برلين ، وأنصت الى أحاديث كثيرة ، فاندهشت جدا من التعارض الشديد بين الرأى العام وبين التفاؤل الذى ساد « منزل الوحدة » !

اقترح أحد القياديين أثناء لقاء أخوى ودى للقياديين المسئولين فى برلين : « نريد أن نرى تقدير الموقف الصحيح ، فما رأيكم فى أن يكتب كل واحد منا على ورقة نسبة الأصوات التى سيحصل عليها كل حزب حسب تقديره للموقف » ؟

وعندما قرأت عليهم ورقتى ، اندهشوا جميعا : فقد كتبت فيها ٣٠٪ للحزب الديمقراطى الاشتراكى و ٣٠٪ لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، و ٢٥٪ لحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، و ١٥ ٪ للحزب الديمقراطى الليبرالى • كان تقديرى لما سيحصل عليه الاتحاد الاشتراكى من نسبة الأصوات أكثر تشاؤما من تقديرات كل الحاضرين ، رغم أنها كانت لا تزال بعيدة عن الوضع الحقيقى •

قضيت مساء ٢٠ وليلة ٢١ أكتوبر فى مقر هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الجديدة » ، وتوالت التقارير فى هذه الليلة ، فاستطعنا الحصول على صورة للوضع أولا بأول •

وتوقعا للانتصار فى الانتخابات ، وضعت مكبرات الصوت على مبنى هيئة تحرير الجريدة من الخارج لنتمكن من اذاعة النتائج فور وصولها على الجماهير التى تجمعت خارج المبنى •

كانت نتائج الانتخابات الأولى التى وصلتنا من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات فى أحياء برلين الشرقية غير مشجعة لنا ، فقد كان متوسطها كما توقعت سابقا ٣٠ ٪ للاتحاد الاشتراكى الألمانى • ثم جاءت الأخبار السيئة واحدا بعد الآخر ، فازدادت مظاهر الاكتئاب على وجوهنا شيئا فشيئا ، وشد المذيع — الذى كان مكلفا باذاعة النتائج على الجماهير المنتظرة خارج المبنى — شعر رأسه ، فبحث يائسا بين الأخبار المتدفقة عن خبر حسن بالنسبة للاتحاد الاشتراكى الألمانى • فحاول انقاذ نفسه بتكرار اذاعة النتائج الأولى التى جاءت من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات فى أحياء برلين الشرقية ولكنه عندما استمرت صيحات الاحتجاج فى الخارج فى ازدياد مطرد : « سمعنا هذا من قبل ، نريد أن نعرف الجديد » ، قال أحد الأعضاء الكبار فى هيئة التحرير : « كفوا عن هذا الهراء وأوقفوا هذه الاذاعة الحمقاء » •

حاولنا تهدئة أنفسنا ، فقال واحد : سترفعنا الأحياء العمالية ، « فريدريش — أنهالت » و « فيدينج » و « ليشتينبرج » و « نويكولن » ولكنى لم أعد أعتقد فى هذا •

كان الموقف يزداد سوءا فى كل ربع ساعة ، وأظهر مجموع التقارير الأولى هزيمة منكرة للاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ونصرا ساحقا للحزب الذى سميناه « نادى مستشفى تسيليندورف » ، وفى الأسبوع الأخير سميناه « فضلات الحزب الديمقراطى الاشتراكى » •

أصبح « فضلات الحزب الديمقراطى الاشتراكى » فى غضون فترة قصيرة أقوى حزب فى برلين بلا منازع • ازداد الصمت فى حجرة هيئة التحرير ، فسارت الأخبار فى طريقها فى صمت عبر مراحل تجهيزها فى الجريده ، ولم يقطع الصمت الا نداء أخير يائس : « ماذا ينبغى أن أكتب » ؟

لم أنتظر النتائج النهائية ، بل ذهبت الى قيادة المنطقة فى « بانكوف » فرأيت بعض القياديين فى المنطقة متحلقين حول جهاز الراديو ، ولكنهم حيونى ببشاشة دون انطق بكلمة • كان هناك كثير من العاملين فى اللجنة المركزية الذين يقيمون فى حى « بانكوف » ، ولكنى كنت الوحيد الذى ذهب اليهم فى هذا المساء • قال لى أحد الحاضرين همسا :

« انتهى الراديو توا من اذاعة مجمل النتائج التى ظهرت فى كل مناطق برلين ، فكان الاتحاد الاشتراكى فى المرتبة الثالثة ، حتى بعد حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » • وكان الآخرون صامتون ، لم ينطقوا بكلمة واحدة •

سمعت فى الصباح الباكر النتائج النهائية : حصل الحزب الديمقراطى الاشتراكى على ٤٨ر٧٪ وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى على ٢٢ر١٪ وحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى على ١٩ر٨٪ والحزب الديمقراطى الليبرالى على ٩ر٤٪ من مجموع الأصوات •

كان سبب الهزيمة واضحا لى ، كما كان واضحا لكثير من القياديين ، فنحن معروفون عند الشعب بأننا « حزب روسى » • نعم •• لقد رسمنا طريقا ألمانيا مستقلا الى الاشتراكية ، ولكن لم يكن هذا معروفا ومفهوما الا فى محيط صغير ضيق جدا بين أفراد الشعب • ومن الناحية العملية ، فقد أيدنا ودافعنا عن كل اجراءات سلطة الاحتلال السوفييتى ، وحصلنا منهم على أوراق ، وعربات ، ومنازل ، ومواد تموينية خاصة • وأقام قياديونا الكبار فى « فيلات » كبيرة ، وانعزلوا بعيدا عن بقية الشعب ، تحرسهم قوات الجيش السوفييتى ، وركبوا عربات يحمل بعضها الأرقام السوفييتية •

كانت نتيجة الانتخابات منطقية لارتباطنا بسلطة الاحتلال السوفييتى ، فلم يصوت سكان برلين ضدنا — هكذا قلت لنفسى — لأنهم لا يؤيدون الاشتراكية ، وهم لم يصوتوا أيضا ضد تضحية « الأعضاء بالنفس والنفيس » ، ولا ضد القياديين الذين فعلوا — بقدر ما أمكنهم —

كل شيء ، ليخففوا أحوال الضيق المعيشية على الشعب ، صوتوا ضدنا؛ لأنهم — وللأسف لم يكن هذا صوابا — اعتبرونا حزبا مرتبطا بالاتحاد السوفييتي •

ولم يكن ينقذنا سوى شيء واحد : فصل واضح من سلطة الاحتلال السوفييتي ، والاقرار الواضح بارادة العمل ، كحزب اشتراكي ألماني مستقل • ربما — هكذا فكرت في تلك الليلة — تدفع هزيمة إنتخابات أكتوبر الى اتخاذ هذه الخطوة ، فنصل بهذا الى نهاية أخيرة ايجابية • رجوت أن يشرح زعماء الحزب أسباب الهزيمة الحقيقية بأسلوب مفتوح ، ويتخذون القرارات اللازمة لذلك •

تألق هذا العنوان في عدد جريدة « ألمانيا الجديدة » الصادر في صباح ٢٢ أكتوبر : « نصر انتخابي ساحق للاتحاد الاشتراكي الألماني في المنطقة السوفييتية » •

بعد نتائج الانتخابات في المنطقة السوفييتية — هكذا كانت المبالغة في التفسير — جاء أخيرا ما كان ينتظره كل القراء في هذا الصباح : التعقيب على الانتخابات في برلين « النتائج الكلية في برلين •• تعكس الاهتزاز السياسي عند جزء كبير من طبقات المنتخبين الوطنية الصغيرة • لم يعبر عن المفهوم السياسي لانتخابات برلين بوضوح كاف • فلم يأت القرار ملبيا رغبة الاتحاد الاشتراكي السياسية والاقتصادية ، ولا مطابقا للجهود ، التي بذلت حتى الآن في التعمير والبناء ، بل نتيجة لحملة الصحافة الرجعية ، التي شنت ضد الاتحاد الاشتراكي أسابيع عدة ، واعتراضاتها التي سارت بجانب الآراء السياسية الكبرى » •

لم تذكر كلمة واحدة عن أنه لم يصوت المنتخب الوطني فقط ضد الاتحاد الاشتراكي ، مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، بل أيضا الغالبية المطلقة من عمال الصناعة في برلين ، ولم يصدر أي بيان عن أسباب استطاعة الصحافة الغربية التأثير على الناخب بهذه الدرجة الكبيرة ، ولم تظهر أي اشارة بسيطة الى أن هذه الهزيمة ، يمكن أن يكون لها علاقة بارتباط الاتحاد الاشتراكي الألماني بالاتحاد السوفييتي ، وبسلطة الاحتلال السوفييتي •

ألقيت الجريدة من يدي خائب الرجاء ، بل يائسا ، فأنا أعرف أن

رئيس هيئة التحرير — صديقى « ليكس ايندى »(١) الذى أقدره كثيرا — لا يملك من الأمر شيئا ، فقد عبر فى مقاله عن التعليمات التى وصلته من الجهات العليا • كذلك لم يحلل بيان الحزب الموقف ، ولا وضح الأسباب الحقيقية للهزيمة •

وبعد أيام قليلة تلقيت دعوة من أحد كبار الضباط فى الادارة السياسية للقيادة العسكرية السوفييتية ، وهو أحد أولئك القياديين السياسيين الذين أعدوا ثقافيا أثناء الحرب اعدادا كاملا ، وتعرفت عليهم فى أوائل مايو سنة ١٩٤٥ فى « بروخميلى » •

لم يكن قد مضى على الهزيمة فى برلين سوى أيام قليلة ، ولكنه تحدث بعدم اهتمام ، كما لو كان قد مضى على ذلك زمنا طويلا • حيث قال بنغمة كسولة : « لقد قضيت الأيام الأخيرة فى تحليل نتائج الانتخابات ، فهى مثيرة للاهتمام بدرجة كبيرة جدا » •

لم أدر ماذا أقول تعقيبا على هذا الكلام ، فصمت متوقعا أن يقول هو شيئا عن سياسة الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ولكنه قال شيئا آخر : « هل تعلم أيها الرفيق « ليونهارد » أنه لا يمكن الوصول الى تحليل حقيقى ، الا اذا كان هناك حزب خامس فى الانتخابات » !

— « حزب خامس » ؟

— « نعم •• حزب خامس — ولنقل حزب الـ« تليغراف » — فالـ ٤٨٫٧٪ التى حصل عليها الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ليسوا كلهم أصواتا ديمقراطية اشتراكية أصيلة ، فهم انتخبوا الديمقراطيين ، لأن التليغراف قال لهم ذلك ، وأحب أن أعرف بالضبط ، كم عدد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكم عدد أنصار حزب « التليغراف » •

لم يكن هذا ما توقعته من ضابط سوفييتى كبير بعد يومين من هزيمة الاتحاد الاشتراكى الساحقة ، ولكن أفكاره أثارت اهتمامى ، بل كانت أكثر اهتماما من البيان الرسمى الذى أصدرته زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت •

---

(١) كان « ليكس ايندى » محررا عبقريا ممتازا ، أصدر قبل عام ١٩٣٣ « البريد الأحمر » وأثناء نفيه فى باريس « الهجوم المضاد » — طرد من الحزب مع « باول ميركر » وآخرين من « المنفيين الغربيين » فى قضية « نويل فيلد »، لأنهم قدموا مساعدات على نطاق واسع للعدو الطبقى ، ذهب « ليكس ايندى » بعد طرده من الحزب الى مدينة « أوى » ومات هناك كمدا بعد أشهر قليلة •

ـــ « ألاحظ أيها الرفيق « ليونهارد » أنك مندهش لأنى لم آخذ الأمر مأخذ المأساة ، ألا ترى ! لقد توقعت هذه النتيجة بالضبط ، فلماذا أتعجب الآن » ؟

ثم تحول الحديث الى أشياء أخرى • هل دعانى حقيقة ليقول لى عن تفكيره فى حزب التليغراف ؟ •

وعندما هممت بالانصراف قال لى مبتسما : « آه •• أريد أن أسألك عن شىء » •

والآن يجب أن يأتى الشىء الحاسم •

ـــ « فكرت فى هذه الأيام مع بعض الأصدقاء فى مسألة هامة • تصور أيها الرفيق « ليونهارد » ! لو جرت انتخابات فى برلين وفى المنطقة السوفييتية ، لا تخضع لأى تأثير اطلاقا ـــ يعنى بدون دعاية ، وبدون توزيع منشورات خاصة ـــ وسيكون السؤال المطروح هو : هل تؤيد الغرب أم الشرق ؟ ماذا ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لتقديرك الشخصى » ؟

ترددت قليلا ـــ فلاحظ الضابط الذكى ذلك •

ـــ « الآن •• الآن أيها الرفيق « ليونهارد » لا تردد هنا ، فنحن وحدنا ويهمنى جدا معرفة رأيك الحقيقى » •

ـــ « حسنا •• هاهو ذا رأيى الحقيقى : ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لفهمى الحالى كما يلى : من ١٥ ـــ ٢٠ ٪ للشرق ، ومن ٨٠ ـــ ٨٥ ٪ للغرب » • لم يتقبل اجابتى بهدوء فقط ، بل بابتسامة اخوة وصداقة قائلا :

« عندك احساس صادق بأصوات الجماهير ، لقد توصلنا الى نفس النتيجة أيضا » •

* * *

تعليم •• تعليم •• تعليم

احتل قسمنا فجأة مركز الاهتمام بعد أيام قليلة من هذا الحديث ، فقد أصبح مركز الثقل فى العمل السياسى موضوعا الآن على التعليم •

أظهرت الانتخابات أن مواجهة الأعداء باغراق الجماهير بملايين المنشورات لا توصل الى الهدف ، فبدأ الآن التراجع المؤقت ، لتنظيم القوى وتدعيمها ، وكان التعليم المكثف ضروريا فى هذه الخطوة •

أعلن فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م قرار خاص من زعامة الحزب ،

يتعلق فقط بالنشاط التعليمى ، اذ استنكر أن « النشاط فى حقل التعليم أهمل فى الأشهر الأخيرة » ، وأن القرارات التى صدرت حتى اليوم فى هذا الموضوع « لم تنفذ بطريقة مرضية » . ثم تلت التعليمات الحاسمة : « ونظرا لهذا الوضع ، فان لجنة رئاسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ترى أن أهم واجبات الحزب كلها الاهتمام من الآن فصاعدا بالنشاط الثقافى والتعليمى ، بطريقة مكثفة » .

وكان من المسلم به أن حضور الدروس الثقافية المسائية كان « واجبا على كل عضو فى الحزب » . فبدأت حملة دعاية منظمة فى كل صحافة الحزب للمواظبة على حضور هذه الدروس .

وفرض على هيئة زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى فى المقاطعات الستة انشاء مدارس على نظام المدارس الداخلية فى جميع المراكز المائة والثلاثين المنتشرة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، حيث يدرس فى المدرسة الواحدة عدد يتراوح بين ٦٠ ، ٨٠ دارسا — حسب حجم المركز — لمدة أسبوعين . وامتدت مدة الدورة الدراسية فى مدارس المقاطعات الست من أربعة أسابيع الى ثلاثة أشهر .

لم يستطع قسمنا — الذى زحزح الى الصف الأخير فى الأشهر الأخيرة قبل الانتخابات — انقاذ نفسه من الاجتماعات المتعددة ، والتعليمات الكثيرة والواجبات التى كلف بها .

جاء الينا « جروتيفول » فى نفس اليوم الذى أعلن فيه قرار التعليم ، لكى يشرح لنا العمل بالتفصيل : « لقد وضعنا خطة تقضى بأن نعلم فى مدى عام واحد ١٨٠٫٠٠٠ من أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى مدارس المراكز فى دورات دراسية ، تستغرق الواحدة ١٤ يوما ، ويجب أن ينفذ هذا ، وسينفذ » .

تعليم ١٨٠٫٠٠٠ فى عام واحد ! — لقد تعودت على بعض الأشياء ، ولكن ظهر لى أن هذا من الصعب تنفيذه . هل تكفى مدارس المراكز المزمع فتحها ؟

بينما كان « جروتيفول » يواصل حديثه ، قمت بعملية ، حسابية : ١٣٠ مدرسة بمتوسط ٦٠ دارسا فى ١٤ يوما مدة الدورة الواحدة ، اذن نحتاج الى ٢٤ دورة دراسية فى العام .

كانت عملية الحساب بسيطة ، لو نفذ هذا الاقتراح مائة فى المائة ، لتخرج ١٨٧٫٨٠٠ دارس .

كانت الكلمة الأخيرة : « الى العمل » !

سـافر سكرتاريو المدارس الى المراكز ، واستولى على مبانى ، ونظمت عملية توريد المواد الغذائية ، ثم وصلت الأخبار الأولى عن فتح مدارس المراكز بعد أسبوعين .

كنا فى أثناء ذلك مشغولين بتجهيز كتب تعليم سياسية لـ ١٨٠٫٠٠٠ دارسا ، وهم الذين ينبغى أن يثقفوا فى غضون الاثنى عشر شـهرا القادمة .

لم نعرف يوم العمل العادى ، فقد كنا نعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد عشرة أيام — أى فى الميعاد المحدد — انتهى العمل من مسودة الكتاب التعليمى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، وراجعه « أولسنر » و « آكارمان » ثم أرسل الى دار « ديتس » للنشر ، مصحوبا بالتعليمات الآتية :

« يجب التوقف عن الاستمرار فى طبع الكتب والمذكرات ، التى ابتدأ العمل فى طبعها ولم تكمل بعد ، فلابد من الانتهاء من طبع الكتاب التعليمى لحزب الاتحـاد الاشتراكى فى الميعاد المحـدد ، مهما كانت الظروف » .

اجتمعت لجنة الحزب العليـا بعد ثلاثة أشهر ، وأصدرت بيـانا آخر عن التعليم : « ترى اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى الألمـانى بارتياح أن تنفيذ القرار الصادر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م بشأن العمل الثقافى ، قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام » .

امتدت فترة الدراسـة فى مدارس المقاطعات الى ثلاثة أشهر ، وفتحت مدارس فى كل المراكز تقريبا ، وفى ديسمبر سـنة ١٩٤٦ تم اعداد المدرسين الذين سيدرسون فى هذه المدارس ، وكان مفروضا على كل مدارس المراكز الالتزام بكتابنا التعليمى ، وكلفت هيئة تحـرير الجريدة من جديد بتكثيف حملة الدعاية للعمل الثقافى ومساندتها أكثر من ذى قبل . وكلفت لجان الاتحاد الاشتراكى فى المقاطعات الست بتنظيم حلقات دراسية — بجانب مدارس المراكز ، ومدارس المقاطعات — على مستوى عال لاعداد القياديين من أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمـانى .

وصل تقرير عن الجهد المبذول فى هذا المجال الى قسمنا فى منتصف ابريل سنة ١٩٤٧ فاستطاع « أولسنر » أن يذكر لنا أعدادا ضخمة ،

فقد طبع من كراستنا التعليمية أكثر من ٢ مليون نسخة فى طبعة واحدة ، ودرست مدارسنا فى المقاطعات الستة كل الـ ٢٤ موضوعا المحددة فى الخطة ، فخرجت أعداد كبيرة من المدرسين للتدريس فى مدارس المركز • ونظم معهد الحزب العالى المسمى « معهد كارل ماركس » دورات دراسية مدة الواحدة ستة أشهر لاعداد قياديى الحزب من الطبقة العاليـــة ، وانتهت الاستعدادات لتثقيف قوى متخصصة فى النواحى السياسية العلمية • وستبدأ فى الأسابيع القادمة دورة دراسية مدتها سنتين فى معهد الحزب العالى •

ورغم كل هذه الجهود التى بذلت ، فلم يتركنا « أولسنر » نلتقط أنفاسنا حين قال : « نجاحنا ناقص وضئيل ، اذا قارناه بما يطلبه الحزب اليوم منا » •

لم تكن هذه الكلمة عشوائية ، فقد ازداد نشاط العمل فى الحقل الثقافى منذ أوائل عام ١٩٤٧ م ، واتسعت مجالاته ، ولم تخلق المسائل المـــالية أى عقبة ، فقد هيئت كل الاحتياجات بسخاء • ولم يلتفت الى القياديين فى مجال التعليم حتى نفذت الخطة الدراسية الى آخر حرف ، فتخرج أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ دارس فى مدارس المراكز ، ولكن بذل أيضا أكثر من ألف من المشتركين فى مدارس المحافظات مجهودا جبارا •

ظهرت نتيجة هذا العمل بسرعة ، فكلما زرت بصفة مستمرة مدرسة المقاطعة فى برلين و « براندينبرج » لالقاء محاضرات ، كنت أحس بالتقدم فى المستوى السياسى •

وهكذا كون حزب الاتحاد الاشتراكى نفسه خطوة خطوة ، دون أن يؤثر فيه الفشل أو الهزيمة فى الانتخابات ، وهيأ صابرا جيلا من القياديين المثقفين الخاضعين لتعليمات الجهات العليا •

* * *

بدء التحول الى السوفييت

كلما ازداد نشاطى فى العمل الثقافى ، وفرحى بالنجاح فى هذا المجال ، كلما اشتد قلقى تجاه سياسة حزب الاتحاد الاشتراكى بعد الهزيمة فى انتخابات ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م ، فلم يسلك الطريق الى تحقيق استقلال أوسع ، بل سار فى طريق معاكس : فقد قوى الارتباط بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى •

أقام الاتحاد الاشتراكى احتفالا ضخما فى ٧ نوفمبر ، بمناسبة يوم العيد الرسمى السوفييتى ، وعلى العكس مما حدث فى عام ١٩٤٥ م فقد نشر فى هذه المناسبه النص الحرفى للخطب التى ألقاها الزعماء السوفييت .

كذلك بولغ فى الاحتفال بيوم الدستور السوفييتى فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ م ، ونشر فى ٢١ ديسمبر — وهو يوم عيد ميلاد « ستالين » السابع والستين — مقال طويل ، كتبه « فيلهيلم بيك » ، ومما جاء فيه :

« ان بعد النظر الحاد عند الزعيم السوفييتى ، يرى الشعب الألمانى الطريق أيضا » .

ثم جاءت الخطوة التالية فى منتصف يناير سنة ١٩٤٧ م فقد استدعى المارشال « سوكولوفسكى » ووكلاؤه ، وكذلك رئيس الادارة السياسية العقيد « تولبانوف » ، استدعوا زعماء الاتحاد الاشتراكى : « بيك » و « جروتيفول » و « أولبريخت » ، و « فيخنر » لاجراء محادثة معهم ، ثم أعلنت نتيجة تلك المحادثة فى ١٦ يناير :

« بناء على طلب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد توقفت عملية فك وازالة ماكينات المصانع نهائيا ، اذ بعد أن أزيلت آلات الانتاج الحربى الهامة ، فلن تستمر عملية فك وازالة الآلات » .

وكما كان هذا الوعد مفرحا لنا جدا — غير أنه تأكد فيما بعد ، أنهم لم ينفذوا هذا الوعد — بدا مقلقا أيضا ، ووضح لى — ولبعض القياديين الآخرين — أن زعامة حزبنا أكدت ارتباطها الوثيق بسلطة الاحتلال أكثر وأكثر بواسطة خطاب الشكر البالغ الخنوع والخضوع .

ثم صدر بيان رسمى من « فيلهيلم بيك » وبعده بيان من « أولبريخت » ، وأخيرا خطاب شكر جماعى أيضا من جميع أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى الألمانى الى سلطة الاحتلال السوفييتى . قال لى أحد القياديين :

« أنا مسرور بتوقف فك آلات المصانع ، ولكن لا أدرى بالضبط ما اذا كان مفيدا لحزبنا أن يبدو راجيا شاكرا بهذه الطريقة الرخيصة » .

وكان جوابى :

« أرجو أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى نلعب فيها هذا الدور » .

كانت المرة الأولى ، ولكنها لم تكن بأى حال من الأحوال المرة الأخيرة . فقد أصبحت هذه الطريقة من العادات المألوفة ، كان زعماء

« رابطة نقابات العمال الحرة » عند « سولوكوفسكى » فى نهاية يناير سنة ١٩٤٧ ، فاستجيب للرجاء مرة أخرى ، فتبع ذلك خطاب شكر ملىء بعبارات الخنوع والخضوع • ثم جاء دور « شباب ألمـانيا الحر » • وأخيرا بولغ فى الشكر — حتى للتحسن البسيط فى امدادات الخضار ، اذ جاء ذلك عقب مشاورة من المشاورات — فى بيانات وخطابات الاتحاد الاشتراكى ، وظهر الارتباط — الذى كان يزداد ويقوى يوما بعد يوم — بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى فى أحداث أخرى •

ففى أوائل عام ١٩٤٧ م تنازل الاتحاد الاشتراكى الألمـانى عن موقفه المستقل فى مسألة الحدود الشرقية لألمانيا ، فخلافا لما أعلن رسميا قبل انتخابات المقاطعات فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ م أعلن « فرانس داليم » بتكليف من زعامة الاتحاد الاشتراكى : « ضياع المناطق الشرقية صعب على الشعب الألمـانى ، ولكن لابد للحياة من الاستمرار »(١) •

لم تزل دعوانا ، الى اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية ، خط الحزب الرسمى ، ولكن هل ذهب كل شىء هباء بواسطة تمجيـد « ستالين » وبرقيـات التحيـة والتهانى الى الاتحـاد السوفييتى ، والخضـوع فى الرجاء والمشـاورات وخطابات الشـكر الى الادارة السوفييتية ، والتنازل عن الرأى المستقل فى مسألة الحدود الشرقية ؟

ازداد شكى شيئا فشيئا ، وبعد أسابيع قليلة ، سيطر ثوران عنيف على القياديين الكبار — وليس على الكبار فقط — فقد كان حديث الساعة هو ما سمى بمؤتمر « ميونيخ » ، فقد دعا رئيس وزراء مقاطعة « بايرن » الى عقد مؤتمر لكل رؤساء وزارات المقاطعات الألمـانية فى أوائل يونيو سنة ١٩٤٧ ودعى اليه أيضا رؤسـاء وزارات المقاطعات فى المنطقـة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

ثم صدر الرد الرسمى من المنطقة السوفييتية عقب توجيه الدعوة مباشرة : « لا ينبغى أن يعقد المؤتمر فى « ميونيخ » بل فى برلين ، وينبغى أن يشترك فيه أيضا ممثلون عن الأحزاب والنقابات العمالية » • فرفض الجانب الغربى هذا الاقتراح ، فاختلفت الآراء فى أوساط قياديى حزب الاتحاد الاشتراكى :

---

(١) « فرانس داليم » فى مسألة الحدود الشرقية ، جريدة « ألمـانيا الجديدة » ، ١٩٤٧ •

« يستوى الأمر ، أين يعقد ، ومن يحضره ؟ فالمهم أن ينعقد المؤتمر ، ويجب ان يرسل ممثلونا لحضوره » • كان هذا أحد الرأيين ، وكنت من بين الموافقين عليه • أما الرأى الآخر فهو :

« اذا لم يوافقوا على مطالبنا ، فينبغى ألا نذهب الى هناك » •

انتظرت متشوقا اجابة زعامة الحزب ، فسررت عندما أعلن أن وفدا شرقيا سيسافر الى المؤتمر ، وهو يتكون من الدكتور « فريدريش » (زاكسين) والدكتور « هوبينر » (زاكسين — أنهالت) و « هوكير » (ميكلينبرج) ، غير أن فرحتى تبخرت عندما علمت أنه بسبب مرض رئيس وزراء مقاطعة « زاكسين » الدكتور « فريدريش » ، فقد اختير للسفر الى « ميونيخ » نائبه « كورت فيشر » ، فانى أعرف « فيشر » من أيام اقامتنا فى موسكو • وقلت لنفسى آنذاك : لو ملك « فيشر » السلطة ذات يوم فى يده ، فلا أحب أن أكون من رعاياه •

بدا لى مرض « فريدريش » فى هذا الوقت بالذات مثيرا للتكهنات ولم أؤمل فى المشتركين الآخرين — وكان اعلان حضور « فيشر » المؤتمر نوعا من الرقابة عليهم — خيرا •

فشل المؤتمر بعد يومين ، ونشر نبأ عودة كل الألمانيين الى المنطقة الشرقية فى الجريدة الناطقة بلسان الحزب بالعناوين الضخمة • وظهر أن الممثلين الشرقيين سافروا الى « ميونيخ » بتعليمات صارمة ، تقضى بأن يطالبوا بأن تكون النقطة الأولى فى جدول الأعمال ، هى بحث تكوين ادارة ألمانية مركزية ، تختارها الأحزاب الديمقراطية ونقابات العمال لتكون نواة الدولة الألمانية الموحدة فرفض الممثلون الغربيون ذلك ، فانسحب ممثلو المنطقة السوفييتية فورا من المؤتمر وعادوا الى برلين •

كانت حجة عودة رؤساء وزراء المقاطعات فى المنطقة السوفييتية :

« أن المشرفين على المؤتمر استخدموا أزمة الشعب الألمانى الاقتصادية استخداما سيئا ليصلوا الى أهدافهم السيئة ، التى رسموها لأنفسهم ، وأريد استخدام ممثلى المنطقة الشرقية ، لخدمة هذه المجموعة من الناس ، أعداء الشعب » •

وضاعت الفرصة الكبيرة فى الوصول الى تفاهم عن طريق مؤتمر مشترك ، يضم رؤساء وزراء مقاطعات المنطقة الغربية ورؤساء وزراء مقاطعات المنطقة السوفييتية •

ذهبت فى نفس اليوم الى « منزل الوحدة » ، فقال لى أحد العاملين

هناك : « أنا لم أعد أفهم شيئا اطلاقا ، فقد ضاعت الفرصة الكبيرة لتوحيد ألمـانيا ، ولكن « أولبريخت » مسرور جدا ، سرورا من النادر أن يحدث له • ويتحدث هو وبعض القياديين عن نصر كبير ، ويظهر أنهم مسرورون لفشـل المؤتمر » • وتأكد هذا الظن عندى بعد دقائق قليلة ، فقد قابلت « جيبتنر » الذى أعرفه من أيام العمل فى « مجموعة أولبريخت » • وكان فى هذه اللحظة رئيس السكرتارية المركزية • فقال وعلامات السرور تلمع على وجهه :

« لقد وصلنا الى الهدف ، كنا محظوظين عندما سارت الأمور على هذا النحو ، ولكن كانت هناك بعض الصعوبات فى سكرتارية اللجنة المركزية » •

— « صعوبات » ؟

— « أردنا فى بادىء الأمر عدم السفر اطلاقا الى المؤتمر ، ولكن ألح على السفر الديمقراطيون الاشتراكيون ، وحتى بعض رفقائنا • وبناء على ذلك تقرر سلوك هذا الطريق : أظهرنا النية الحسنة ، ولكن فى نفس الوقت لم يقم المؤتمر على قدميـه » •

لم أقل شيئا ، فقد واصل « جيبتنر » حديثه :

« تصور ماذا حدث ؟ لقد أشـار « أولبريخت » فى الاجتمـاع الى أنه تحدث مع الأصدقاء السوفييت ، وأنهم أشاروا عليـه بهذه النصيحة وعند ذلك وقف أحد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وأعلن ببساطة ساذجة أن مؤتمر « ميونيخ » مسألة ألمـانية داخلية ، ولسنا بحاجة الى الأخذ بالاقتراح السوفييتى » •

هذا صحيح مائة فى المـائة ، هكذا قلت لنفسى ، ولكنى لم أصرح به لـ« جيبتنر » •

هز « جيبتنر » رأسه متأسفا :

« تصور يا « فولف جانج » أن هذا الغبى يجلس معنا فى السكرتارية المركزية ! وأننا ينبغى أن نقود الحزب مع أمثال هؤلاء الناس ! » •

— « ثم ماذا حدث » ؟

— « أخذت الأصوات » •

فقلت لنفسى : يا للأسف •• ولكنى ارتعبت فى نفس الوقت ، لأن معارضتى قطعت شـوطا بعيدا •

وعندما عدت من « منزل الوحدة » الى مقر عملى فى مبنى الثقافة ؟

فاجأنى « أولسنر » بقوله :

— « سننظم دروسا ثقافية فوق العادة عن مؤتمر « ميونيخ » ويجب علينا أن نجهز كراسة خاصة فورا ، ومن الأحسن أن تبدأ فيها الآن » •

فترددت •

— « ما الخبر » ؟

— « أتعلم يا « فريد » لست متمكنا من هذه المسألة ، وبالاضافة الى ذلك فهناك — بصراحة — أشياء غير واضحة تماما » •

— « ماذا •• ماذا •• هل أنت أيضا من أولئك الذين يصابون ازاء هذه المشاكل بمغص سياسى » ؟

مغص سياسى — كان هذا تعبيرا عن أمزجة وآراء القياديين التى لا تتفق مع الخط الرسمى •

فأجبته : « مهلا •• مهلا •• وعلى أى حال فلا أحب أن أكتب هذه الكراسة مهما كانت الظروف » •

ولحسن الحظ ، لم يستمر « أولسنر » فى حديثه عن المغص السياسى :

— « أنت محق يا « فولف جانج » ، فقد اشتغلت كثيرا فى الأيام الأخيرة ، فارتح قليلا ، فسوف أكتب بنفسى كراسة عن مؤتمر « ميونيخ »

فتنفست الصعداء ، ولكن عندما صعدت الى مكتبى ، أدركت وضعى الغريب : هل زاد الأمر عن حده ، حين ابتعدت — وأنا من العاملين فى قسم الثقافة والاعلام فى السكرتارية المركزية ، والمحرر المسئول عن الكراسة الثقافية — عن الخط الحزبى ، ازاء مسألة معينة ، وأننى لم أعد أستطيع الكتابة عن هذه المسألة باقتناع حقيقى ؟ •

***

رحلة قصيرة الى يوغسلافيا

اتصل بى قسم التدريب العسكرى تليفونيا بعد أيام قليلة من أحداث مؤتمر « ميونيخ » المحزنة :

— « يرغب المجلس المركزى للشبيبة الشعبية اليوغسلافية الاتصال بأحد القياديين الشبان ، وقد اقترحوا الاتصال بك ، وليس هناك مانع من جانبنا ، فهل توافق على السفر الى يوغسلافيا » ؟

— « طبعا » •

كدت أطير من الفرح •

كنت قبل أسابيع قليلة فى البرلمـان الثانى « للشباب الألمـانى الحر » الذى عقد فى « مايسين » ، فتعرفت هناك على مندوبين من يوغسلافيا ، قدموا الى « الشباب الألمـانى الحر » هدية باسم « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » وعبروا عن أمنيتهم فى أن تأخذ منظمة « الشباب الألمـانى الحر » مكانها كعضو كامل الحقوق فى « الرابطة العالمية للشباب الديمقراطى » •

كانت « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » منظمة الشباب الأجنبية الأولى ، التى احترمت منظمة « الشباب الألمـانى الحر » وأرسلت اليها مندوبين ، وقوبل بيانها بتصفيق حاد • ولم يفكر أحد آنذاك أن هذه الخطبة الترحيبية التى عبر فيها عن الرغبة فى قبول منظمة « الشباب الألمـانى الحر » فى « الرابطة العالمية » ستكون سببا فى توجيه اللوم الى « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » ، لأنها تصرفت فى أمور تتعلق بالرابطة العالمية دون مشاورة منظمة الشباب السوفييتية •

نشأت علاقة صداقة بينى وبين المندوبين اليوغسلافيين ، واقترحوا على فى « مايسين » أن أزورهم فى يوغسلافيا ، ولكنى لم أفكر طبعا أن ذلك سيتم بهذه السرعة •

كنت أجلس — بعد ما يقرب من مضى شهر واحد على هذا اللقاء — فرحا مع قيادى يوغسلافى فى عربة جميلة متجهين الى يوغسلافيا عن طريق « دريسدين » ، و « براغ » و « براتيسلافا » و « بودابست » ، كان ذلك فى آخر يوم من شهر يونيو سنة ١٩٤٧ م •

وصف كثير من الصحفيين الأجانب يوغسلافيا فى ذلك الوقت — قبل الانفصال عن موسكو بسنة واحدة — بأنها أقرب البلاد شبها بالاتحـاد السوفييتى •

كان هذا الوصف صحيحا من الناحية الظاهرية ، فلم يكن التأميم قد قطع مثل هذه الخطوات فى أى بلد ديمقراطى شعبى مثل ما قطعه فى يوغسلافيا ، ونفذ الاصلاح الزراعى بدقة ، ولم تتشكل الحياة العامة بواسطة سياسة الشيوعيين فى أى مكان خارج الاتحاد السوفييتى الا فى يوغسلافيا ، فلم توجد أى أحزاب سوى الحزب الشيوعى ، ولم ير المرء فى أى مكان آخر هذا العدد الكبير من الأعلام الحمراء • غير أن استنتاج المراسلين الأجانب جانب الحقيقة الجوهرية ، التى كانت ظاهرة على الأقل لصحفى أجنبى شيوعى •

وعند زيارتى الأولى للمجلس المركزى للشبيبة الشعبية اليوغسلافية فى بلغراد بدأت مناقشة هادئة ، وهامة حول « الشبيبة اليوغسلافية » و « الشباب الألمـــانى الحر » ، وحول نواحى الاتفاق والاختلاف بين كلتا المنظمتين ، فتوالت الأسئلة عن ألمـــانيا ، فاندهشت من كثرة معلومات هؤلاء الشبان فى هذا المجال • وقلت لنفسى :

وضع مختلف عن روسيا ، فهو أوسع حرية ، وأبعد اطلاقا للعنان ، وأكثر استقلالا • زرت فى الأيام التالية متحف حرب التحرير ، والمصانع ، ومدينة الجوالة بالقرب من بلغراد ، وهيئات تحرير الجرائد ، والقسم الألمـــانى فى اذاعـــة بلغراد • كانت هناك أشياء كثيرة هامة ، ولكنى لم أر شيئا •

فسألت المرافق :

ــ « كيف الوضع عندكم ؟ فلم أر حتى الآن مكتبا واحدا للحزب الشيوعى ، والناس لا يحملون هنا الشارة الحزبية » ؟

ــ « ليس عندنا مكاتب حزبية كبيرة ، وليس عندنا أيضا شارة حزبية أيها الرفيق « ليونهارد » ، اذ تقوم الجبهة الشـــعبية بالعمل السياسى ، وأنت بالتأكيد رأيت كثيرا من مكاتبها » •

ــ « ولكن كيف يعلن الحزب عن نفسه » ؟

فابتسم مرافقى ، ربما لم أكن أول زائر شيوعى أجنبى يسأل هذا السؤال •

ــ « لماذا ؟ •• لسنا فى حاجة الى شارة حزبية ، ولا الى مكاتب حزبية كبيرة ، لتثبيت السياسة المرسومة ، فكل أعضاء الحزب ، هم فى نفس الوقت أعضاء فى الجبهة الشعبية ، وكل أعضاء رابطة الشباب الشيوعى ، هم فى نفس الوقت أعضاء فى الشبيبة وهم يعلنون عن أنفسهم بواســـطة أنهم يعملون بطريقة تظهرهم بأنهم أعلى النمـــاذج وأكثر المجموعات نشاطا » •

أعجبتنى طريقتهم فقلت لنفسى :

انهم أذكى بكثير من الروسيين ، ومن الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى •

ــ « اذا كانت عندك رغبة ، فتستطيع أن تسافر غدا ، لتشاهد مشروع خط سكك حديد الشباب اليوغسلافى ، فسيأتى معنا أيضا اثنان من القياديين الشبان من بلغـــاريا » •

سمعت كثيرا عن خط السكك الحديدية ــ « شاماز ــ ساراييفو »

الذى يقوم ببنائه الشباب اليوغسلافى • بدأ العمـــل فى هذه المسافة التى تبلغ ٢٧٤ كيلو متر فى أول ابريل سنة ١٩٤٧ ، وقدر أن يعمل فيه ١٨٫٠٠٠ شاب على دفعات متعددة ، وكانت مدة عمل الفرقة هناك شهرين •

لم يكن لبناء هذا الخط الحديدى هدف اقتصادى فقط ، بل هدف سياسى أيضا فقد نشأ تعارف بين شباب القوميات المختلفة فى يوغسلافيا أثناء العمـــل المشترك ، واقتربوا من بعضهم ، وقد كان التعارض بين تلك القوميات عائقا للتطور فى هذا البلد • لم يشترك فى هذا العمل شباب من كل مناطق يوغسلافيا فقط ، بل أيضا شباب من ايطاليا ، وبولندا ، وبلغاريـــا ، وبريطانيا العظمى وتشيكوسلوفاكيا ومن بلاد أخرى •

كذلك كانت مجموعتنا عالمية ، فقد كانت تتكون من اثنين من بلغاريا ، واثنين من ايطاليا ، ويونانى ، وانجليزى ، وكانوا يتجهون كلهم الى خط الشباب الحديدى كلما اقتربنا من الهدف المتجهين اليه — وهو مدينة : « زينيسا » عاصمة خط الشباب الحديدى — كلما رأينا مجموعات أكبر من الشباب ، يشتغلون فى بناء الخط وتركيب القضبان • وكانت الحواجز الخشبية مزينة بالورود والأعلام المصنوعة من الورق الملون ، والشعارات •

وصلنا •• هاهى ذى « زينيسا » •• سرت مندهشا عبر هذه المدينة الفريدة من نوعها ، حيث يتزاحم فيها القديم والجديد ، والماضى والمستقبل • معظم سكانها من المسلمين ، فيلبس الرجال عمامة حمراء ، وترتدى النساء حجابا أسود ، وملابس بيضاء وزرقاء أو سمراء طويلة حتى القدمين • ثم علمت بعد أيام قليـــلة أن اختيـــار الألوان ليس عشوائيا ، اذ هى تبين عمر المرأة •

تعود السكان المسلمون على رؤية العاملين فى بناء الخط الحديدى ، فلم يعد يتطلع الرجال ذوو العمائم الحمراء ، والنساء ذوات الحجاب ، اذا مرت عليهم عربات الجيب الأمريكية الصنع ، أو سيارات النقل المزركشة بأعلام « الشبيبة الشعبية » المثلثة الحمراء ، حاملة الشباب وهو يغنى الى مقر عملهم •

كان مقر الرئاسة المركزية فى منزل جديد ، ويدور العمل فيها ليلا ونهارا ، لأن كل مناطق العمل على اتصال دائم بها ، فهى تمسك بكل الخيوط المتصلة بالعمل فى بناء الخط الحديدى •

يصل يوميا فرق شباب ، ووفود ، وصحفيون من كل بلاد العالم

تقريبا ، ويسمع المرء هناك لغات مختلفة ، الانجليزية ، والصربية ، والتشيشية ، والمجرية ، والفرنسية ، واليونانية ، والألمانية ، والعربية ، والعبرية ، فبجانب الشباب الأوروبى والأمريكى والاسترالى ، كان هناك أيضا الشباب العربى واليهودى الذين جاءوا من فلسطين وللتأكيد على معنى « الاخوة » و « الوحدة » فقد كونوا منهم فرقة واحدة ، وساد التفاهم بينهم بطريقة ممتازة •

دولة واحدة فقط هى التى لم تمثل : الاتحاد السوفييتى •

فسألت أحد أعضاء اللجنة القيادية : « لماذا لا يوجد هنا شباب سوفييتى » ؟

فأجاب : « ان الشباب السوفييتى مشغول ببناء بلده » •

لم تكن حجة مقنعة ! ألم يكن فى الامكان ارسال بضعة عشرات من الـ ١٠ مليون شاب الأعضاء فى منظمة الشباب السوفييتية ؟ من المؤكد أن هناك أسبابا أخرى ، ولم يكن من الصعب الكشف عنها •

أصبح واضحا لى بعد أيام قليلة أن الحماس والاعجاب هنا فى عام ١٩٤٧ م أكثر أصالة ، وأقوى ، والحرية أكثر ، والمناقشة أكثر بعدا عن النموذج المصبوب ، وحياة الشباب كلها أقل قيودا مما فى الاتحاد السوفييتى • فماذا يمكن أن يقول عضو منظمة الشباب السوفييتية ، اذا أقام هنا شهرين ؟

من الجائز أن يكون هذا هو السبب الحقيقى •••

تكرر فى المحاضرات السياسية ثلاث كلمات وهى : « بعد الاتحاد السوفييتى » ، فكلما تحدث اليوغسلافيون فى ذلك الوقت عن نجاحهم ، وضعوا هذه الكلمات الثلاث ، ليؤكدوا أنهم لا يفرقون اطلاقا فى مقارنة وضعهم بالاتحاد السوفييتى •

دار حديث فى طريق العودة الى بلغراد بينى وبين شباب يوغسلافى ، فسألتنى فتاة يوغسلافية ، والاهتمام يبدو فى عينيها : « أنت كنت فى الاتحاد السوفييتى ؟ لابد أن يكون هناك أشياء مدهشة » !

فقلت لها بلهجة الواثق : « عندكم فى يوغسلافيا أحسن » •

فنظر الشباب الى مندهشين •

— « لقد رأيت وشاهدت فى يوغسلافيا فى أسبوعين أشياء هى فى نظرى أحسن مما فى الاتحاد السوفييتى » •

حاولت أن أدلل لهم على ذلك بالأمثلة ، ولكنهم هزوا الرؤوس فقط •

— « لا .. لا أعتقد ذلك ، نحن متاخـرون جـدا عن الاتحـاد السوفييتى » قالت فتاة يوغسلافية ذلك ، ووافقها الاخرون على هذا الراى .

ربما فهموا موقفى فهما صحيحا فيما بعد .

التقيت فى « بلغراد » لقاءا أخيرا مع كبار قادة « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » .

— « نحن مسرورون جدا على زيارتك لنا ، وعلى أننا وطدنا الاتصال الشخصى ، مع « الشباب الألمـانى الحر » . الذى من المؤكد أنه لن ينفصل بعد اليوم . لقد رسمنا خطة اقامة مشروع كبير فى العام القادم ، ونريد أن ندعو أيضا فرقة من « الشبا بالألمـانى الحر » للاشتراك فى هذا العمل » .

— « متى سيكون ذلك تقريبا » ؟

— « لا نستطيع أن نقول الآن الموعد بالضبط ، ربما فى يونيو أو فى يوليو سنة ١٩٤٨ .... » .

وقبل أن أعود الى برلين بيوم واحد ، قابلت فى المساء قياديا حزبيا كبيرا ، كان محرر جريدة « بوربا » أثناء حرب التحرير ، وهو من أعضاء اللجنة المركزية للحزب . كان يتحدث الألمـانية بطلاقة ، وعاش فى ألمـانيا ، ولهذا فهو يعرف الظروف الألمـانية ، ويعرف أيضا كثيرا من القياديين فى الاتحاد الاشتراكى الألمـانى .

سألته عددا من الأسئلة عن يوغسلافيا ، التى لم يجبنى أحد عليها ، وسرعان ما غرقنا فى مناقشة ، وفجأة وجه الى هذا السؤال :

— « قل لى .. ما الذى لم يعجبك هنا ؟ فاننا سنهتم جدا بمعرفة انطباعات الرفقاء الأجانب ، وخاصة نواحى النقد ، التى ينتقدوننا فيها » .

— « يوجـد شىء واحـد عندكم ، لا يعجبنى ، وأرى أنه غير صحيح » .

— « ماذا » ؟ ونظر الى باهتمام .

— « سمعت هنا محاضرات سياسية كثيرة ، كذلك ترجمت لى بعض الخطب الهامة والمقالات الصحفية ، فلاحظت أنكم تكررون القول بأنكم متخلفون جدا عن الاتحاد السوفييتى . لقد عشت عشر سنوات فى الاتحاد السوفييتى ، ومن هنا فلدى بعض امكانيات المقارنة . لا أوافقكم على هذا الرأى ، فالقياديون فى حزبكم أوسع ثقافة ، وأكثر تعليما فى النواحى السياسية من زملائهم فى الاتحاد السوفييتى ، وشبابكم أكثر

حماسا واهتماما من أعضاء منظمة الشباب السوفييتية . نعم .. ليس لحزبكم مبانى ضخمة ، ولكن له فى مقابل ذلك تأثير كبير فى الشعب ، وأنا مقتنع بأنكم تسلكون طريقا أحسن من طريق الاتحاد السوفييتى » .

وصلت الى النقطة الحساسة ، وألقيت كل ما كان عندى ، فتنفست بارتياح . نظر القيادى الى نظرة جد وتفكير ، ثم قال :

« من الأحسن ألا نتحدث فى هذا الموضوع » .

كنت مضطرا — للأسف — أن أسافر فى صباح اليوم التالى عائدا الى برلين ، الى عملى فى قسم الثقافة فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمـانى .

بعثت الرحلــة الى يوغســلافيا فى صيف ١٩٤٧ فى قوة جديــدة ونشاطا جديدا ، ولكنها فى نفس الوقت زادت فى ترددى تجاه « المثال السوفييتى » .

* * *

مؤتمر الحزب الثانى

زرت بعد عودتى من يوغسلافيا صديقى « ميشا فولف » الذى أعرفه من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو معروف الآن باسم « ميخائيل شتورم » ويعمل معلقا فى قسم السياسة الخارجية فى اذاعة برلين الشرقية ، غير أن الأهم من هذا هو عمله كمراقب مسئول عن البرامج السياسية الهامة .

يسكن « ميشا » — الذى له علاقة وثيقة بالمراكز السوفييتية العليا فى شقة « لوكس » من ٥ حجرات ، فى شارع « بايرن » قريبة من مبنى الاذاعة فى برلين الغربية .

تزوج « ايمى شتينسر » تلك الفتاة الشقراء ذات العيون الزرقاء ، التى كانت بارعة فى تكوين المجالس الشعبية على الورق فى مدرســة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والتى نقلت كلامى الى قيادة المدرسة ، حيث تسبب ذلك فى ممارستى عملية النقد الذاتى الأولى .

— « رائع جدا أن حضرت فى هذه الساعة ، فتستطيع أن تسافر معنا حالا الى منزلنا الريفى » .

توقفنا بعد ساعة أمام « فيلا » جميلة بالقرب من بحيرة « جلينيك » كانت هذه « الفيلا » ملكا لـ« ميشا فولف » الذى يبلغ من العمر ٢٥ عاما .

وفى احدى مرات تجوالنا على شاطىء البحيرة قال « ميشا »

ببساطة : « فى الحقيقة ، يجب عليكم فى هذا الوقت أن تتنازلوا عن نظريتكم فى اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية ، « فالخط » سيتغير قريبا » •

فضحكت ، ثم قلت له :

— « يا « ميشا » •• وضعك وعبقريتك فى الاعتبار ، ولكنى أعرف أحسن عن الخط السياسى ، فأنا أعمل فى السكرتارية المركزية ، وأكتب الكراسات الثقافية ، التى هى المقياس لكل أعضاء وقياديى الحزب كله » •

أشعل « ميشا » لنفسه سيجارة ، وقال ضاحكا بسخرية :

— « توجد مراكز أعلى من سكرتاريتكم المركزية » •

يبدو أنه سر من التلفظ بكلمة « سكرتاريتكم المركزية » •

— « ولكن يا « ميشا » •• دعوى اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية تحتوى فى أساسها على أهداف الاتحاد الاشتراكى الألمـانى وتؤكدها » •

لم يتأثر « ميشا » بأسس وأهداف الاتحاد الاشتراكى الألمـانى أدنى تأثر •

— « اذن •• يجب تغييرها » •

نظرت اليه مندهشا !

— « فولف جانج » •• أنا لا أقول ان ذلك لابد أن يحدث غدا ، فلا أريد سوى تنبيهك فى الوقت المناسب على بعض المتغيرات فقد تحدثنا حول هذا الموضوع مع « تولبانوف » فقال — طبعا كان ذلك فى محيط ضيق جدا — : ستختفى قريبا نظرية اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية • فلو كنت مكانك لتوقفت عن الكلام والكتابة فى هذا الموضوع ، فسيخفف ذلك من تحولى فى المستقبل » •

قال ذلك ببساطة ، دون أن يدرك أن هذا الرأى يحطم آمالا كبيرة عندى ، أما بالنسبة له فبدا أنه وسيلة فقط للوصول الى الهدف •

من تذكرت آنذاك ؟ عرفت : كان « ميشا » من نفس طراز الضابط السوفييتى الكبير ، الذى تحدث بنغمة بطيئة ، عن المخرج من انتخابات ٢٠ أكتوبر • كان طراز القيادى الذكى الهادىء الذى يقف فى الخلف يرقب كل ما يفكر فيه الرفقاء الآخرون تفكيرا جديا ، ويرقب ما يسعون لتحقيقه ولأى شىء يتحمسون • كان « ميشا » ألمـانيا ، ولكن انتماءه الى الجنسية الألمـانية لا يلعب دورا فى هذا المجال • كانت له نفس النغمة ؛

ونفس الطريقة فى اشعال السيجارة لنفسه ، ونفس الضحكة الساخرة الخفيفة على القياديين المتحمسين ، ونفس الجدية فى الدفـــاع عن الشعارات والتعليمات الجديدة • مثل الضابط السوفييتى ، الذى زرته فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٦ م •

ظهر أن « القياديين الواقفين فى الخلف » لا يتحمسون لشىء ، ويبدو من ظاهرهم أنهم لا يتخلون أيضا عن هدوئهم • فقد حصروا أنفسهم فى دراسة الخطوة الجديدة بحـــذر واحتراس ، ثم يعطون توجيهاتهم للقياديين الكبار ، الذين يتحدثون فى المؤتمرات الكبيرة فى العالم ، والذين يبحثون بهـــذا عن المتحمسين ، ويكتبون المقـــالات الحماسية •

تقرر أن يبدأ مؤتمر الحزب الثانى للاتحاد الاشتراكى الألمـــانى بعد أيام قليلة فاذا كان « ميشا » على حق ، فسوف تقلل زعامة الحزب من الكلام عن الطريق الألمـــانى المستقل الى الاشتراكية ، وتكثر من الحديث عن الارتباط بالاتحاد السوفييتى عن ذى قبل •

جلست فى دار الأوبرا الألمـــانية فى ٢٠ سبتمبر ســـنة ١٩٤٧ م مشدود الأعصاب ، متشوقا الى ما سيقال فى هذا المؤتمر •

افتتح المؤتمر الثانى للاتحاد الاشتراكى بعزف قطعة « بيتهوفن » الموسيقية : « تدشين المنزل » ، وبعد الانتهاء منها ، انتظرت — متلهفا — خطب زعماء القمة ، فسوف يلقى « فيلهيلم بيـــك » التقرير السياسى ، و « ايريش ف • جنيفكى » بيانا عن المنظمـــات ، وسيتحـــدث « أوتو جروتيفول » عن مشاكل الوحدة الألمـــانية ، و« فالتر أولبريخت » عن النهضة الاقتصادية ، وتشييد الدولة فى المنطقة الألمـــانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

لم تلغ رسميا — أثناء أيام مؤتمر الحزب الخمسة — نظرية الطريق الألمـــانى المستقل الى الاشتراكية ، ولكن أظهر التركيز المستمر على « انجازات الاتحاد السوفييتى الرائعة » الانعطاف الذى أقلقنى ، وأصبح تبريره ثقيلا على باستمرار • حاول « ماكس فيشنر » فى خطابه الافتتاحى ايجاد أسلوب وسط بين عمل مشترك ، أشد التحاما مع الاتحاد السوفييتى وبين السياسة المستقلة : « •• لا يدل اقرار العمل المشترك مع الاتحاد السوفييتى فى النواحى الاقتصادية والثقافية ، على

التخلى عن ممارسة سياسة مستقلة ، ولا تشير ممارستنا سياسة ألمانية ، الى أننا نعادى الاتحاد السوفييتى » •

وذهب « أوتو جروتيفول » الى أبعد من هذا : « •• تتمتع قوة النظام الديمقراطى الجديد ، الذى قام فى شرق وجنوب أوروبا ، وكذلك أيضا فى المنطقة التى يحتلها السوفييت ، بمساندة الاتحاد السوفييتى » •

لاحظت فى اليوم التالى مباشرة مغزى هذا التفسير بالنسبة للتطبيق السياسى ، فقد اتخذ « فيلهيلم بيك » فى تقريره السياسى الكبير موقفا من مشكلة ، طالمـــا أزعجتنا جميعا آنذاك ، ألا وهى : فك آلات المصانع •

ففى أوائل عام ١٩٤٧ م أكد المـــارشال « سوكولوفسكى » لزعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، أن هذه العملية توقفت ، فهلل لهذا القرار فى المؤتمرات ، واعتبر نصرا ، ونجاحا للاتحاد الاشتراكى ، فقدموا الشكر الخنوع الى الادارة العسكرية السوفييتية على هذا الكرم البالغ !

ولكن بعد هذا ، ـــ أى بعد أسابيع قليلة ـــ استؤنفت عملية فك آلات المصانع ، فكان هذا نقضا سافرا للوعد • علت أصوات فى الحزب تطالب باستنكار اجراءات فك المصانع ، ولو بصيغة مؤدبة ومقتضبة •

لم يسمح لنا بذلك ، ووجد كل القياديين ـــ الذين كان من واجبهم التحدث فى المصانع ، أو فى الاجتماعات العامة ـــ أنفسهم فى موقف حرج •

تحتم على « بيـــك » فى مؤتمر الحزب الثانى أن يبرز نقض رجال السلطات السوفييتية للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمام الاتحاد الاشتراكى بوقف عملية فك المصانع :

« لقد قام المجلس الأعلى للحزب بتقديم الشكر على وعد الادارة العسكرية السوفييتية الكريم ، واعتبره دليل ثقة فى الشعب الألمـــانى » •

ورغم هذا فقد انتشرت فى الأيام الأخيرة أخبار عن فك خطوط السكك الحديدية مما سيسبب مشاكل كبيرة لشئون النقل والمواصلات ، وقد طالبنا هنا أيضا بحصر هذه العملية فى أضيق الحدود ، فبين المارشال « سوكولوفسكى » أن الماكينات التى تحل الآن من مجموعة عديدة من شركات المناجم ، ليست استئنافا للعمل الذى أعلن عن وقفه فى السابق ، بل تكميلا لفك منشآت المناجم ، التى تركت مؤقتا عند تنفيذ عملية فك سابقة ••• » •

خيم صمت مطبق عند سماع هذه الكلمات ، اذ كان كل الحاضرين

يعلمون أن شرح « بيك » لا يطابق الحقيقة ، لأن عملية الفك كانت قد استؤنفت على نطاق واسع فى ذلك الوقت •

أوضح لى هذا التفسير من جديد ، قوة ارتباطنا فى كل المشاكل السياسية الراهنة بتعليمات وقرارات الادارة العسكرية السوفييتية ، وأعلن الآن — على خلاف ما كان فى عامى ٤٥ — ١٩٤٦ م — عن الارتباط الوثيق بالاتحاد السوفييتى •

كان الوقت هو مساء اليوم الثالث فى المؤتمر ، وقف « هيرمان ماتيرن » عند منصة الرئاسة ، وصاح فى الصالة : « الآن لى الشرف الكبير فى أن أذيع من بين الرسائل العالمية الكثيرة الى المؤتمر الرسائل الهامة جدا » •

ثم قرأ الرسالة السوفييتية التى وقع عليها « سوسلوف » سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ، فاتجهت كل الأنظار الى « اللوج » الذى كان يجلس فيه « سوسلوف » كضيف فى المؤتمر ، وعند ذلك وقف « سوسلوف » وصاح باللغة الألمانية : « عاش الاتحاد الاشتراكى الألمانى » ! وبعد أن هدأ التصفيق لهذه التحية ، صاح « ماتيرن » فى الصالة من على منصة الرئاسة : « عاش الحزب الشيوعى السوفييتى •• عاشت لجنته المركزية •• عاش زعيمه « ستالين » » •

تغير الاتحاد الاشتراكى الألمانى كثيرا فى عام ونصف ، أى منذ مؤتمر الوحدة ، فقد كان مثل هذا الهتاف مستحيلا فى مؤتمر الوحدة ••

كنت فى يوم الأحد بعد المؤتمر راكبا فى عربة مع قيادى كبير فى المنطقة السوفييتية فسنحت الفرصة لحديث بيننا ، وقررت ألا أتركها تمر دون استغلالها :

— « يقال — وأنت تعلم بالتأكيد أحسن منى — أن عملية فك الآلات قائمة على قدم وساق • لقد أجريت المشاورات حول توقف هذه العملية باسم الحزب ، ولاقت تأييدا شعبيا كبيرا • لا تستطيع أن تتصور مغزى هذا بالنسبة لنا الآن • فهل سدت كل الطرق حقيقة للوصول الى وقف عملية فك الآلات ؟ أو ليس فى امكان الحزب — على الأقل — التبرؤ منها رسميا » ؟

نظر القيادى الكبير الى بهدوء ثم قال : « لا •• ليس فى الامكان هذا » ؟

— « ولكن •• ماهو رأيك الشخصى » ؟

أخذ نفسا عميقا ، فكان أشبه بالتأوه ، ثم أخرج الكلمات بصورة متقطعة وبصوت منخفض :

— « هم لا يعملون لنا أى حساب » •

وكان المقصود بضمير « هم » الزعامة السوفييتية • ولكن ، انتصر — أيضا فى هذا الحديث المحصور بيننا نحن الاثنين — الالتزام الذاتى ، الذى حقن به كل قيادى عن طريق التثقيف ، والعمل سنين طويلة فى أجهزة الحزب :

— « من الأحسن ألا نتحدث فى هذا الموضوع » •

لكننا عدنا بعد ربع ساعة الى « الحديث الساخن » مرة أخرى : تصرف الجنود السوفييت ومنع الاتحاد الاشتراكى الألمانى من الكلام فى هذا الموضوع ، ومن أن يتخذ منه موقفا •

حاولت الكلام معه من جديد :

— « أستطيع فهم هذه الأشياء كلها ، ففى كل احتلال يحدث مثل هذا ، وخاصة مع التكوين الحالى لقوات الاحتلال السوفييتية فى ألمانيا ، فقد سقط فى الميدان أحسن المدربين فى عام ١٩٤١ م ، وينحدر معظم الجنود الموجودين الآن من قرى نائية ، فلم يأخذوا قسطا كبيرا من التربية ، ولكن يمكن أن نتحدث عن هذه الأشياء بوضوح ، وأن نحاول بيانها ونقدها ، فنتفادى بذلك ضياع هيبة حزبنا • فلو لم نتحدث عن هذا الموضوع ، فسيرتكب ذلك آخرون ، وستستخدم هذه الوقائع لتحريض وطنى عام » •

هز القيادى رأسه ، وظهر أنه يوافقنى فى هذا الرأى ، ولكنه لم يقل شيئا •

— « كنت فى العام والنصف الماضيين ، مرات عديدة فى موسكو ، ألم تحدث — على الأقل — محاولة لاثارة هذه المشكلة » ؟

— « نعم •• قمنا بمحاولة مع « ستالين » •

ثم صمت مرة أخرى ، ولكنى لم أتركه :

— « والى أى شىء توصلتم » ؟

— « أجاب « ستالين » بمثل روسى قديم : « يوجد خروف أسود فى كل أسرة » • ولم يقل شيئا أكثر من هذا ، ثم عندما بدأ واحد منا فى شرح المسألة ، واستنباط ما يترتب عليها من عواقب ، قاطعه « ستالين »

قائلا : « أنا لا أتحمل أحدا يسىء الى الجيش الأحمر » وبهذا انتهى الحديث » •

لم أفتح حديثا فى موضوع آخر من المواضيع الحساسة ، ولكنى أدركت فى هذا اليوم — يوم الأحد — من سبتمبر سنة ١٩٤٧ م أننا ربطنا بالاتحاد السوفييتى بسلسلة ربطا محكما •

* * *

معهد الحزب العالى « كارل ماركس »

من الأمور العادية فى الجهاز الستالينى ، أن القيادى فى زعامة الحزب يمكث فى وظيفته مدة تتراوح بين عام ونصف ، وثلاثة أعوام فقط ، ثم ينتقل الى مركز آخر • وأنا أعمل منذ عامين فى جمع المواد الثقافية وتأليف كراريسها ، والقاء محاضرات فى المعهد العالى للحزب ، وفى مدارس الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى المحافظات ، وفى المدرسة المركزية لمنظمة « الشباب الألمانى الحر » — وكان مقرها فى « الفيلا » التى كان يسكن فيها « جوبلز » عند بحيرة « بوجين » — •

وعندما استدعيت فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ م لمقابلة رئيسى المباشر « أنتون آكارمان » ومقابلة رئيس قسم التدريب فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، أدركت أننى سأكلف بعمل جديد •

تشابه قول كليهما :

— « تهتم زعامة الحزب اهتماما كبيرا بتوسيع العمل فى المعهد العالى للحزب ، معهد « كارل ماركس » ، ولهذا أقترح تدعيم هيئة التدريس ، بأن تعمل لمدة سنتين تقريبا فى المعهد ، وتستطيع أن تختار القسم الذى تحب أن تعمل فيه ، موافق » ؟

— « موافق » •

سررت بهذا الاقتراح ، فمن الآن — هكذا قلت لنفسى — لم أعد مجبرا على الدعاية للقرارات السياسية ، والاجراءات ، التى يتخذها الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، بل سوف أتمكن من الابتعاد قليلا عن السياسة المرسومة ، وأشغل نفسى — فى هدوء — بالمشاكل النظرية •

كان المعهد العالى للحزب آنذاك فى « ليبنفالدى » على بعد ٣٥ كيلومترا تقريبا شمال برلين • ذكرنى المبنى بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « كوشنارينكوفو » • استقبلنى « رودولف لينداو »

مدير المعهد آنذاك ، وكنت قد تعرفت عليه فى موسكو باسمه الحركى « باول جريتس » ، فهو من الذين لا زالوا على قيد الحياة من المحاربين القدامى : كان عضوا فى لجنة تأسيس رابطة « سبارتاكوس » فى عام ١٩١٦ م ، ومن مؤسسى الحزب الشيوعى الألمـانى • كان مشغولا فى أيام نفيه فى الاتحاد السوفييتى بكتابة تاريخ الحزب الشيوعى الألمانى •

حيانى « رودولف لينداو » بحرارة ، وشرح لى طبيعة العمل فى المعهد العالى للحزب : « عندنا الآن دورات دراسية ، مدة الواحدة ستة شهور ، ولكننا سنبدأ من الآن أول دورة دراسية تستغرق سنتين ، وستستمر بجانبها أيضا دورة النصف سنة ، ولكن بأسلوب آخر » •

— « كنوع مختصر لدورة السنتين » ؟

— « لا •• هناك فرق هام : نقبل فى دورة السنتين ، رفقاء شبان ذى قدرة على التطور ، انضموا للحزب بعد عام ١٩٤٥ م ، وأتموا دراستهم فى مدارس المراكز ، ومدارس المحافظات ، ونهيئهم لمراكز أساسية ، ليقوموا بأعمال ذات مسئولية فى الحزب • أما دورة النصف سنة ، فهى على العكس من ذلك ، اذ يقبل فيها فى المقام الأول ، رفقاء كبار السن ، كانوا عاملين فى الحزب الشيوعى ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى قبل عام ١٩٣٣ م ، لنهيئهم لتقبل الواجبات والمعارف السياسية الجـديدة ، ونرفعهم بذلك درجـة أعلى فى الحزب ، ويجب أن نهتم بصفة خاصة بالرفقاء من غرب ألمـانيا » •

— « من غرب ألمـانيا » ؟

— « نعم •• فربع المشتركين تقريبا فى الدراسة ، سواء فى دورة السنتين ، أو فى دورة النصف سنة ، هم أعضاء فى الحزب الشيوعى الألمـانى من غرب ألمـانيا • تكفلنا بتثقيفهم • ومن المفهوم طبعا أنهم يدرسون هنا بأسماء مستعارة ، ونفس الوضع بالنسـبة للرفقـاء النرويجيين ، الذين تكفل حزبنا بتثقيفهم ، لأن الحزب فى النرويج ليس عنده سوى المدارس الأسبوعية » •

أطلعنى « رودولف ليندا و » على المكتبة الغنية بالمراجع ، ثم قادنى الى « قسم وسائل التدريس » حيث كان بعض العاملين منهمكين فى ذلك الوقت فى طبع المـادة الدراسية •

فشرح لى :

— « هنا تطبع كل المواد الدراسية عندنا ، فيحصل كل دارس قبل

كل محاضرة على برنامج مختصر لها ، مبين فيه قائمة مراجع الموضوع الذى ستعالجه ، وبعد الانتهاء من المحاضرة يحصلون على نسخ تدور حول هذا الموضوع ، ويستطيعون أن يذهبوا الى صالة المطالعة أو الى حجراتهم ، ويستذكرون المحاضرة وحدهم ، وفى اليوم التالى — وأحيانا تمتد المدة ، حسب الموضوع — تعقد قاعة بحث لمـدة ثلاث ساعات للمناقشة • ويعقد امتحان تحريرى كل ثلاثة أشهر ، وبعد كل فصل دراسى يعقد امتحان شفوى وتحريرى فى كل مادة » •

أطلعنى العاملون على بعض المطبوعات ، فرأيت هذه الملاحظة مكتوبة على الصفحة الأولى من كل نسخة :

« للاستعمال الدراسى الداخلى فقط »

وكتب فى آخر النص أسماء القياديين المسئولين عن اختيار المـادة والتصحيح اللغوى وتحرير النص • وبهذه الطريقة يمكن معرفة المسئول عن الخطأ السياسى •

لم يكن من النادر أن تأخذ المواد الدراسية ، والمصادر ، والنصوص التى تتعلق بمحاضرة واحـدة عشرات الصفحات ، المكتوبة على الآلة الكاتبة ، على مسـاحة ضيقة بين السـطور • وعلى العكس من ذلك فى برنامج المحاضرة ، اذ يقتصر فيه على اشارات وتلميحات للموضوع فقط •

* * *

وهذا مثال لبرنامج محاضرة المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى :

للاستعمال الداخلى فقط

F. I. 43 - D - 1 - 9 - 4 - 8

فلسـفة ، برنامج المحاضرة :

الجدلية والمنطق الشكلى •

أهمية موضوع ادراك جوهر التناقض الجدلى والنظرية الجدلية •

الاشارات الكلاسيكية فى هذا الموضوع : « انجلـز » ، عن المنطق الشـكلى كجزء من الفلسـفة • « لينين » ، عن ضيق المنطق الشكلى وعن جوهر الجدلية ، المنطق ونظرية المعرفة •

بأى التأويلات يكون المنطق الشكلى مسـوغا وضروريا ؟ الفرق بين التناقض الجدلى واللامعقول .

أنواع مختلفة للتناقض الجدلى (جوانب متعددة ، اتجاهات ، قوى فى الظواهر الطبيعية ، مراحل ، حركات ، عدم الدوام ، التناقض بين جوهرين) . الخ .

التناقض فى ضوء علم الطبيعة الحديث (تركيب الذرة ، الطبيعة المزدوجة من النور والمـادة) .

عدم وفاء القانون المنطقى بالغرض ، كوسيلة لتوضيح الحقيقة .

الأهمية العملية للعلاقة بين الجدلية ، والمنطق الشكلى (وحـدة فى الجوانب المتعددة ، والخواص المزينة ، وقابلية التحرك ، والكلية مع اليقين ، والوضوح ، والعمق فى الجدلية) .

المسئول « فكتور شتيرن » .

المراجع « هانز — يؤاخيم مينكى » .

* * *

قدمنى « رودولف لينداو » فى اليوم التالى لرؤساء الأقسام الأربعة فى المعهد العالى للحزب .

كان يتولى رئاسة قسم التاريخ « ايريش باتيرنا » الذى اشتغلت معه فى خريف عام ١٩٤٥ م فى قسـم الدعاية السياسية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وكان مسئولا آنذاك عن شئون التعليم .

كان « ايريش باتيرنا » — وهو من المدافعين المتحمسين عن اصلاح التعليم — عضوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى عهد الجمهورية الفايمرية ، ولكنه انضم الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٣١ م . قضى سنوات عديدة مسجونا فى ليمان « براندينبرج » أثناء العهد النازى ، وأخيرا أتيحت له الفرصة لتحقيق أهدافه التربوية ، وهو يعمل بحماس شديد لا يعرف الكلل فى تاريخ الحركة العمالية الألمـانية ، وفى التأملات الماركسية فى التاريخ العام ، فقد كان طرازا للباحث العالم الثورى .

فرحت أيضا بلقـاء « فريدا روبينر » التى تشرف على قسـم « أسس الماركسية اللينينية » مرة أخرى ، فقد تعرفت عليها فى الاتحـاد السوفييتى ، عندما كانت تعمل فى القسم السابع فى الادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر . وهى تحاول الآن اقناعى بالعمل معهـا فى القسم ، اذ قالت لى بوضوح :

— « أنا أحتاج الى ثقل ضد الديمقراطيين الاشتراكيين » •

عرفت « فيكتور شتيرن » أيضا من موسكو • لعب « شتيرن » فى العشرينات دورا كبيرا فى الحزب التشيكوسلوفاكى ، وكان عضوا فى البرلمان التشيكوسلوفاكى • وعندما كنت أتردد عليه فى منزله زائرا فى عام ١٩٤١ م — كان من القياديين القلائل ، الذين لم يقيموا فى فندق « لوكس » — لم يكن واضحا ، فى أى بلد سيستأنف نشاطه بعد الانتصار على « هتلر » وكيفما كان الأمر ، فلم يرسل الى تشيكوسلوفاكيا بل الى ألمانيا ، مرفوعا الى وظيفة أستاذ •

ألف كتابا عن المادية الجدلية[1] ، وفيما بعد كتابا آخر عن « ستالين كفيلسوف » وهو رئيس قسم الفلسفة فى المعهد العالى للحزب •

لم أكن أعرف « ألفريد ليمنيتس » رئيس قسم الاقتصاد السياسى من قبل ، فقد قضى عهد النازية مسجونا فى ألمانيا •

كان رؤساء الأقسام الأربعة من الحزب الشيوعى • كان المعهد العالى للحزب هو أحد المؤسسات القليلة ، التى لم يوجد فيها آنذاك مساواة بين أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وأعضاء الحزب الشيوعى السابق • وكان أقل شىء للتدليل على « المساواة الرمزية » هو نائب عميد المعهد ، فقد عين فى هذا المنصب ديمقراطى اشتراكى ، هو « باول لينسر » ، وكان يعمل سابقا فى القسم الثقافى ، فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى سنين عديدة ، ولكنه لم يكن طبعا قوة أمام سيطرة أعضاء الحزب الشيوعى فى المعهد العالى للحزب ، فاضطر الى أن يحصر عمله فى القاء محاضرة بين الحين والآخر ، وفى تنظيم الحفلات الثقافية فى المعهد •

قابلت أيضا « فالتر كوبى » — وهو من « مجموعة أولبريخت » — وكان قد نقل من العمل السياسى الى وظيفة مشرف خدمات فى المعهد العالى للحزب • وهو يشعر هنا بالارتياح ، غير أنه كان يحب أن يخاطب دائما بلفظ « أيها الرفيق المدير » ! كما كان الحال فى وظيفته السابقة •

قررت بعد تفكير أن أعمل فى قسم التاريخ ، فتعرفت على أسلوب عمل « أعلى طبقات الحزب » •

---

(١) صودر هذا الكتاب فيما بعد ، وسحب من السوق •

لاحظت فى الأيام الأولى نواحى الاختلاف فى المعهد عن مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالميـــة ، فقد كانت تجهيزات المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى فى « ليبينفالدى » فى عام ١٩٤٧ م نموذجية ، حتى أحسن منها فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عامى ٤٢ — ١٩٤٣ م .

كانت كميات الطعام — رغم أننا كنا فى عصر نعانى فيه من نقص المـــواد الغذائية — كبيرة . ويأخذ كل الدارسين فى المعهد مصاريف جيب ، وتستمر الأسرة فى صرف مرتب أو أجر عائلها الذى سحب من عمله ليدرس فى المعهد (١) .

لم يكن النظام آنذاك — فى خريف عام ١٩٤٧ م — شديدا مثل ما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كان مسموحا للدارسين بكتابة الخطابات ، وبالسفر فى نهاية الأسبوع الى برلين . كذلك كان مسموحا لهم أثناء الأسبوع بمغادرة حرم المعهد . نعم .. كان هناك « نقد ، ونقد ذاتى » ، ولكنه لم يكن شيئا بالنسبة لمـــا شاهدته فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

كذلك لم تكن قاعات البحث صعبة ، نعم .. انتقدت فيها أيضا بشدة الآراء « الخاطئة » والتعبيرات « الخاطئة » ، ولكن لم يؤد ذلك آنذاك الى الطرد من المدرسة أو من الحزب .

كنت أرى أن هذا المعهد — بالمقارنة مع مدرســـة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — حر تقريبا ، أما الدارسون الذين لم يكن لديهم امكانية هذه المقارنة ، ولم يكن عندهم أى فكرة عن وضع المعهد العالى للحزب فى بعض السنين ، فقد كان لهم رأى آخر ، تذمر أحد أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق قائلا : « أنا أشعر هنا ، كما لو كنت فى سجن » . وحكى لى عن مدارس التثقيف فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ففهمت شعوره .

لم يكن الاختلاف بين المعهد العالى للحزب « معهد كارل ماركس » ، وبين مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى الجو الحر نسبيا فقط ، بل فى نوع الدراسة أيضا ، اذ لم يوجد فى المعهد العالى لحزب

---

(١) طبقت قاعدة عامـــة فى عام ١٩٥٢ : فيتقاضى الدارس المتزوج ٨٠٠ ماركا ، وغير المتزوج ٦٠٠ ماركا .

الاتحاد الاشتراكى الألمانى تدريبات عسكرية ، ولا تعليم أساليب العمل غير المشروع — وعلى الضد من ذلك ، فقد كانت الدراسة النظرية أوسع مما كانت فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية : يأخذ الطلبة فى مادة الفلسفة أولا نظرة عامة عن تاريخ الفلسفة ، ثم يدرسون الفلسفة الماركسية — اللينينية بالتفصيل .

ويدرسون فى الاقتصاد السياسى كتاب « رأس المال » لـ« كارل ماركس » ، فقرة فقرة ، ونصوصا من مؤلفات « هيلفيردينج » و « روزا لوكسيمبرج » الاقتصادية ،والنظرية الاستعمارية اللينينية ، والاقتصاد السياسى فى الاشتراكية .

وألزمنا نحن المدرسين فى قسم التاريخ بتدريس نظرة عامة فى تاريخ العالم ، والتركيز على عهود الانتقال : التحول من مجتمع العبيد الى الاقطاع ، والتحول من الاقطاع الى الرأسمالية ، ثم يعقب ذلك محاضرات وقاعات بحث عن حرب الفلاحين الألمانيين ، وحركة « الهوسيتين »(١) ، والثورة الانجليزية ، والثورة الفرنسية ، وحرب نابليون ، وحرب الاستقلال فى أمريكا — وبتفصيل كبير — ثورة عام ١٨٤٨ م فى مختلف البلاد الأوروبية ، وبعد هذه النظرة العامة ، ندرس تاريخ ألمانيا ، ابتداء من قيام « براندينبرج » ، وتطور الدولة البروسية ، ودور « فريدريش الثانى » ، وتوحيد ألمانيا بقيادة « بسمارك » .

لم يدرس تاريخ الحركة العمالية الألمانية كمادة مستقلة ، بل فى اطار التاريخ الألمانى العام من سنة ١٨٤٨ م حتى اليوم . ومن المسلم به أن هذه الحقبة أخذت الجزء الأكبر من مقرر التاريخ فى المعهد العالى للحزب .

كانت محاضرات مادة « أسس الماركسية — اللينينية » مشابهة لما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كانت هى الموضوعات العادية التى تدرس فى كل مدارس الأحزاب الشرقية ، من « أيزيناخ » حتى بكين : الطبقة والكفاح الطبقى — نظرية الدولة — أشكال وحقائق الديمقراطية — دور الطبقة العمالية — نظرية الحزب — النضال ضد

---

(١) أسسها المصلح « يوحنا هوس » فى القرن السادس عشر . م شامة .

الاستغلال — الاصلاح والثورة — الاستراتيجية والتكتيك — مشاكل الفلاحين — المشكلة الاستعمارية العالمية •

وكما كان الحال فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالميـــة ، فقد اعتنى عناية كبيرة بالرد على النظريات « المعادية » والمفاهيم « المضادة » •

كان مقررا أيضا فى قسم التاريخ بيان — مع موضوعات أخرى — الطبيعة العسكرية لمنطقة « مارك — براندينبرج » وطرد السلافيين — لم تكن قد وجدت « الجبهة الوطنية » آنذاك — وتوضيح الطبيعة الرجعية فى البروسية ، وبنوع خاص شجب الأساطير التى كتبت عن « فريدريش الأكبر » •

لم يركز — مراعاة للقياديين من الحزب الديمقراطى الاشتراكى — على دراسة انحراف « رودولف هيلفردينج » ، و « كارل كاوتسكى » عن طريق الاصلاح فى الأعوام المتأخرة • وكان نفس الوضع بالنسبة لـ« لاساللى » • نعم •• لقد نقد رأيه ، ولكن لم يصور دوره فى الحركة العمالية الألمـــانية تصويرا سلبيا بمثل ما سمعته فى مدرســـة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

لم يزل « أوجست ببيل » — الذى مدح فى مؤتمر الوحدة فى عام ١٩٤٦ م — مقدسا فى ذلك الوقت ، وتهامس المدرســـون من الحزب الشيوعى مع بعضهم : « يجب أن نكون حذرين فى دراسته مثل حذرنا فى معالجة بيضة نيئة » •

اعتنى أيضا فى المعهد العـــالى فى ذلك الوقت بألا نكتفى بشرح الدعوى ، بل بالتدليل على صحتها أيضا ، كما طلب من الدارسين قراءة ودراسة الآراء المعارضة •

درست الآراء المعارضة والمعادية بتركيز خاص فى قسم الفلسفة ، فقد كان الدارسون يتلقون باستمرار كيفية دحض المفاهيم الخاطئة لـ« الحتمية المـــاركسية » ، ويدرسون بالتفصيل العلاقة بين المنطق والجدلية ، وكانت تطبع لهم آنذاك مذكرات تحت عنوان : « الهجوم العصرى على المـــاركسية » تضمنت نصوصا من مؤلفات وطنية ، وديمقراطية اشتراكية ، غير أنه وجد — كما كان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — استثناء هام : فلم توجـــد فى مكتبة المعهد مؤلفـــات « تروتسكى » و « بوخارين » ولا مؤلفات أعضاء المجموعات المعارضة الهامة ، ولا كتب الأعضاء الشيوعيين السابقين ، الذين اختلفوا مع « الســـتالينية » ،

كذلك لم ينقل أى نص من هذه الكتب فى المذكرات التى كانت تطبع فى المعهد ، فقد اعتبر أعطاء هذه المؤلفات للطلبة والمدرسين فى المعهد العالى للحزب لدراستها ، اعتبرت عند زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى برلين الشرقية فى عام ١٩٤٦ م أمرا خطيرا ، بالضبط كما كان ذلك بالنسبة لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م فى « أوفا » •

ازداد هذا الاجراء حدة فيما بعد ، فلم يعد يسمح حتى بذكر أسماء أعضاء الحزب الشيوعى السابقين ، الذين انفصلوا فيما بعد عن « الستالينية » فعندما ذكر « آرتور دورف » — مدرس فى قسم « أسس الماركسية — اللينينية » ، ومقاتل سابقا فى أسبانيا — مرة فى احدى الدروس اسم « باول فروليش » — أحد رفقاء النضال مع « كارل لبكنيشت » ، و « روزا لوكسيمبرج » وانضم للمعارضة فى أواخر العشرينات — ، اندفعت رئيسة القسم « فريدا روبينر » كـ« آلهة الانتقام » الى المنصة ، وصاحت : « أنا لا أسمح بأن يذكر هنا أسماء الخونة المعارضين » •

كان أعضاء هيئة تدريس المعهد يقومون بالقاء ثلثى المحاضرات تقريبا ، ولما كان هناك فى كل قسم من الأقسام الأربعة — بجانب رئيس القسم — ثلاثة أو أربعة مدرسين ، وبعض المعيدين ، كان عند كل مدرس وقت كاف لتحضير المحاضرات •

لم تكن الرقابة آنذاك — أما اليوم فشىء آخر كما علمت ذلك — صعبة ، فقد اكتفى فى اجتماع القسم ببيان عناصر المحاضرات وقاعات البحث ، وترك للمحاضر وللمشرف على قاعات البحث مجال واسع نسبيا يتحرك فيه بحريته • ولم يطلب تقديم المحاضرة مكتوبة الا من عدد قليل — وهم الذين كان يطلق عليهم « المحاضرون الضعفاء » — وكذلك من المعيدين •

كان هناك — بجانب أعضاء هيئة التدريس — محاضرون من سكرتارية اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ومن هيئة تحرير مجلة « الوحدة » ، ومن جامعة برلين الشرقية ، كذلك كان يلقى — فى مناسبات — كبار القياديين فى الدولة غير المستقلة بعض المحاضرات ، فكان بعضها داخل المنهج العام وبعضها الآخر فى موضوعات خارج المنهج ، تتناول مجالات ضرورية للتثقيف العام •

فقد تحدث — مثلا — « كلاوس تسفايلينج » عن « مدخل إلى

مشاكل علم الأحياء » ، والأستاذ « ماير » عن « التطور التاريخى للآلات الموسيقية » ، والدكتور « بولاك » عن « المسائل القانونية » وعن « مشكلة العدالة فى الادارة الشعبية » ، والأستاذ « مويزيل » — وهو استاذ فى جامعة برلين — عن « مسائل فردية فى تاريخ القرن التاسع عشر » •

كذلك عولجت الأحداث الأيديولوجية فى العالم الغربى بالتفصيل ، فعلى سبيل المثال ، عقدت ندوة كبيرة للطبيعيين والفلاسفة فى أوائل ابريل سنة ١٩٤٨ م فى « كلاوستال » — فى منطقة « هارتس » — ، فلم نحصل فقط على تقرير دقيق ، بل ألقيت أيضا محاضرات كثيرة فى مشاكل هذه الندوة •

لم يكن من السهل على كثيرا من الدارسين فهم المسائل الدقيقة فى العلوم الطبيعية ، وما شابهها •

كانت المحاضرات الاضافية عن المشاكل العالمية مهمة جدا ، فقد ألقى فى ذلك الوقت محاضرات عن الوضع فى الشرق الأوسط ، وعن الثورة فى الصين — ألقاها قيادى عاد لتوه من الصين — ، وألقى « داراماليف » — وهو عضو فى هيئة زعامة الحزب البلغارى — تقريرا مفصلا عن الوضع فى بلغاريا ، تجاوز ما قرأناه فى الصحافة •

كان الحديث فى المحاضرات الاضافية التى ألقاها قياديون من طبقة القمة عن بعض مسائل السياسة الراهنة لحزب الاتحـاد الاشتراكى الألمـانى فى المعهد العالى أكثر حرية من الكلام فى الاجتماعات العامة ، وبهذا حصلنا على صورة واضحة للوضع فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وللصعوبات داخل الحزب — منع فى بعض الحالات عدم كتابة أى شىء مما يقوله المحاضر •

أخبرنا بعد أسابيع قليلة من وصولى — أى فى نهاية خريف عام ١٩٤٧ — فى اجتماع لأعضاء هيئة التدريس :

— « اقترحت الجهات المسئولة تطوير المعهد العالى للحزب وتوسيعه ، ولا تتسع المبانى الحالية فى « ليبينفالدى » لهذا الغرض ، ولذا فيجرى العمل فى الوقت الحاضر ، لتجهيز مقر للمعهد العالى فى « كلاين — ماخنوف » بالقرب من برلين • وسـيتم الانتقـال اليه فى أوائل عام ١٩٤٨ م » •

يبدو أنه عندما اتخذ هذا القرار ، لم يحسب أحد بعد ، أن العلاقة

بين الاتحاد السوفييتى ، وبين القوى الغربية ستتدهور بسرعة ، اذ لا يبعد المبنى الجديد لمعهدنا سوى كيلو متر واحد عن حدود المنطقة الأمريكية فى برلين •

دعانى « رودولف ليندلو » فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٤٧ م :

— « سأسافر اليوم لمشاهدة المبنى الجديد ، فاذا أردت ، فتستطيع أن تأتى معى » •

لقد فاق ما رأيته فى عصر هذا اليوم من ديسمبر أقصى ما توقعته :

خمسة مبانى حديثة ضخمة بالنوافذ الكبيرة ، فى وسط منتزه ، وجراجات ، وممرات تحت الأرض ، تصل الخمسة مبانى ببعضها ، ومئات من حجرات السكن المؤثثة بأثاث حديث • كل طالبين أو ثلاثة فى حجرة •

وكانت هناك « فيللات » صغيرة لسكن رؤساء الأقسام ، واذا كان عضو هيئة التدريس متزوجا ، يحصل على « فيلا » فى « كلاين — ماخنوف » واذا كان غير متزوج يأخذ شقة جميلة فى منزل جديد •

انتقلنا فى الأيام الأولى من يناير سنة ١٩٤٨ • فاتسع النشاط فى المعهد العالى للحزب ، اذ زاد عدد الدارسين فى الدورة الدراسية ، التى تستمر ستة أشهر ، والتى يعد فيها القياديون المسئولون • وفى نفس الوقت أنشىء عدد من الدورات الدراسية القصيرة •

بدا لنا فى أوائل عام ١٩٤٨ م — ولم يكن قد مر ثلاث سنوات كاملة على هزيمة ألمـانيا الهتلرية — أن هذه المبانى الضخمة ، التى يتخرج منها مئات من القياديين ، هى أقصى حدود ما يمكن انشاؤه ، ولكنها كانت البداية فقط •

امتدت الدورة الدراسية ذات الستة أشهر — التى تعد القياديين المسئولين — فى عام ١٩٤٩ م الى تسعة أشهر ، ومنذ عام ١٩٥٠ م أنشئت دورة أخرى مدتها عام ، وبدأ فى خريف عام ١٩٥٠ م دراسة بالمراسلة فى المعهد العالى للحزب •

وامتدت مدتها فيما بعد من ثلاثة أعوام ، الى خمسة أعوام ، وفى فبراير سنة ١٩٥٣ بدأت دورة دراسية مدتها ثلاث سنوات ، ويعقد فى نهايتها امتحان عام • وأصبح — فيما بعد — للمعهد العالى الحق فى منح درجة الدكتوراة والأستاذية أيضا •

تخرج فى هذه الدورات الدراسية — وكانت تزداد باستمرار كل

عام — مئات وآلاف القياديين ، الذين تثقفوا ثقافة عالية ، فصاروا بذلك من المدافعين المتحمسين لأيديولوجية وتعاليم الحزب .

* * *

زيارة « أولبريخت » و « تولبانوف »

لاحظنا بعد أسابيع قليلة من انتقالنا الى المقر الجديد — وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٤٨ م — أننا أمام تحول فى « الخط » ، فقد كثرت زيارات « جروتيفول » و « بيك » و « أولبريخت » للمعهد .

وألقى « أولبريخت » فى ١٦ ابريل سنة ١٩٤٨ محاضرة — استمرت خمس ساعات — عن الوضع العام فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، للتلميح لنا بالتغييرات القادمة . تكلم « أولبريخت » بصراحة عن أشياء ، بعضها لم يذع رسميا الا بعد نصف عام . كانت الملاحظات الهامة فى هذه المحاضرة التلميحية ما يلى :

— لم يمكن معالجة كثير من المشاكل بصراحة فى الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ م ، ولذا اضطر حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى أن يتقدم خطوة ، خطوة ، سواء أكان ذلك على أساس اعتبارات سياسية أيديولوجية ، أو مراعاة لوضع السياسة الخارجية ..

— تم ارساء أسس النظام الديمقراطى المناهض للفاشية حتى عام ١٩٤٧ م . والآن .. فى أوائل عام ١٩٤٨ م — حيث أصبح ٤٠ ٪ من الانتاج فى أيدى المؤسسات الشعبية ، وضعفت الرأسمالية ضعفا شديدا — يمكن أن تعتبر هذه المرحلة قد انتهت .

— ومثل ذلك فى مجال الزراعة ، فقد نفذ قانون الاصلاح الزراعى ، فقسمت مساحات الاقطاع الكبيرة ، فولت هذه الظاهرة الى غير رجعة . والآن .. يمكن الاعتماد على صغار الفلاحين ، والطبقة المتوسطة منهم فى تكوين منظمة ، للحيلولة دون رجوع الاقطاعيين الى السيطرة مرة أخرى ..

بين « أولبريخت » أن النضال الطبقى وصل الى ذروته بواسطة هذه المتغيرات الواسعة فى الأحوال الاجتماعية ، ولكن أصبحت صيغ وطرق النضال الطبقى شيئا آخر : « فلدينا الآن امكانية تنفيذ مطالبنا بمساعدة جهاز الدولة ، ويجب علينا من ناحية أخرى زيادة نشاط المنظمات الجماهيرية ، كى تغير سياسة الكتلة طبقا لجوهرها » ..

أصبح حزبنا حزب دولة ، يتحمل المسئولية الكاملة لحل مشاكل الشرطة ، والخطة الاقتصادية ، والزراعة ، والسياسة الثقافية ..

لعبت « سياسة الكتلة »(١) دورا كبيرا فى مرحلتها الأولى ، غير أن القوى الرجعية دبت فيها الحياة الآن فى الأحزاب الوطنية ، كى تعطل تنفيذ اجراءاتنا بحجة « دراستها وتمحيصها » ..

ولا نريد الآن سلوك الطريق المؤدى الى نظام الحزب الواحد ، ولكن نسعى الى أن يكون حزبنا ، هو القوة الرائدة ، والمتحملة للمسئولية فى الدولة . غير أنه يجب علينا فى المرحلة الجديدة أن نتعاون مع كلا الحزبين الآخرين « ربما كان من الأفضل أيضا تأسيس بعض الأحزاب الجديدة » ..

لم يلق هذا الكلام عشوائيا ، فقد أعلن بعد شهرين عن تأسيس « الحزب الديمقراطى الوطنى » ، و « حزب الفلاحين الديمقراطى » . وكان الهدف من تأسيسهما اضعاف الحزبين الوطنيين « حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » و « الحزب الديمقراطى الليبرالى » الموجودين فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وتفتيت القوى السياسية الموجودة خارج حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

أخذنا استعدادنا — بعد سماع محاضرة « أولبريخت » فى المعهد العالى للحزب فى منصف ابريل — لذلك التغيير السياسى ، الذى غير الحياة بأكملها فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى فى خريف عام ١٩٤٨ م ، فتحولوا بذلك عن « كبح » موجة التطور فى المنطقة السوفييتية ، الذى كان سائدا حتى نهاية عام ١٩٤٧ م مراعاة للوضع فى بقية مناطق ألمانيا ، ومراعاة للعلاقة مع الحلفاء الغربيين ..

وضعت بداية « المرحلة الجديدة » — التى أنبأنا بها « أولبريخت » — مشكلة « الديمقراطية الشعبية » فى قائمة جدول أعمال ذلك النظام الذى تكون فى دول الكتلة الشرقية . كان تحديد مضمون وجوهر مفهوم « الديمقراطية الشعبية » حتى أوائل عام ١٩٤٨ م من المشاكل القليلة التى لم تحل ، ولم يصدر بعد بشأنها أى توجيه رسمى .

ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور تشوقنا الى ما سيحدث ، عندما أعلن « رودولف ليندا و » بعد أيام قليلة من القاء « أولبريخت » محاضرته :

---

(١) وهى الكتلة الشرقية .

— « سيلقى الرفيق العميد « تولبانوف » — المستشار السياسى للادارة العسكريه السوفييتية — محاضرة عن موضوع « الديمقراطية الشعبية » •

درس العميد « تولبانوف » الفلسفة فى « لينينجراد » ثم كان قياديا فى الحزب سنوات عديدة ، وسيلقى محاضرته باللغة الألمـانية » •

وعلى الرغم من أن المحاضرة كانت مكتوبة وموضوعة أمامه ، فقد ارتجل الحديث وأخذ نصف وقت المحاضرة التى استغرقت ست ساعات ، فى تحليل قيام الديمقراطية الشعبية •

تحدث « تولبانوف » بالتفصيل عن « خاصتين من خواص قيام الديمقراطية الشعبية » — وجود الاتحاد السوفييتى ، والكفاح المشترك ضد الفاشية — ، وعن « الطبيعة المزدوجة للثورة الديمقراطية الشعبية » — لأنها فى نفس الوقت ثورة ديمقراطية وطنية — ، وعن الصفة المميزة للقوى الطبقية — تحالف الطبقة العمالية — والفلاحين ، والمثقفين ، والوطنية الصغيرة ، وبعض البرجوازيين المتحمسين للوطن • ثم جاءت النقطة الحاسمة ، فقد وصفنا — حتى الآن — الديمقراطية الشعبية — وهى نظام دول الكتلة الشرقية — بالتقدميــة ، وأحيــانا أيضا بأنها الديمقراطية « الحقيقية » ، ولكن بين « تولبانوف » الآن أن الثورة الديمقراطية — « اذا سارت فى تطورها دون عقبات — تتحول مكرهة الى ثورة اشتراكية » •

فالديمقراطية الشعبية ، تهيىء للتطور الاشتراكى • ويأخذ النضال الطبقى فى بلاد الديمقراطية الشعبية أشكالا جديدة ، ويمكن أن يتحدث المرء عن نضـــال طبقى من أعلى ، ومن أسفل ، لأن الحزب يضع جهاز الدولة فى خدمة نضاله • فالديمقراطية الشعبية ، هى ديكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية ، التى تمارس فى شكل صيغة حكومة ائتلافية • ثم صاح « تولبانوف » بأعلى صوته :

— « •• اذا كان البورجوازيون قد نجحوا فى ممارسة ديكتاتوريتهم عن طريق الحكومات الائتلافيــة ، فقد نجحنا اليــوم فى ذلك بطريق معاكس • دعوا البورجوازيون يعملون ضد الدولة فالديمقراطية الشعبية ستتطور الى ديكتاتورية « البروليتاريا » ، وليس ذلك عن طريق ثورة جديدة ، بل عن طريق التطور المستمر ، حيث يصبح تكوين حزب واحد

من الأمور المسلم بها ، وبنهاية الثورة الديمقراطية الشعبية ، يكون قد بدأ تحويل هذه الثورة الى ثورة اشتراكية » •

كانت ملاحظاته عن الوضع فى دول شرق أوروبا المختلفة فى أوائل عام ١٩٤٨ م هامة جدا :

— « •• لو تصورنا أن هناك نهرا كبيرا ، والديمقراطية الرأسمالية الوطنية على أحد شاطئيه ، وشكل الدولة الاشتراكية على الشاطىء الآخر ، فاننا نستطيع أن نقول : بلغت يوغسلافيا الشاطىء الآخر فعلا ، وتسبح بلغاريا الآن لقطع المسافة الأخيرة ، لتصل الى الشاطىء الآخر • أما بولندا وتشيكوسلوفاكيا فلا زالتا فى وسط النهر تقريبا ، وتأتى بعدهما المجر ورومانيا اللتان لا زالتا فى الثلث الأول ، بينما المنطقة السوفييتية فى ألمانيا ، فقد بدأت توا فى السباحة من الشاطىء الوطنى » •

فكرت فى اشارة « ميشا فولف » الى أن « تولبانوف » كان قد عارض رأى « آكارمان » فى خريف عام ١٩٤٧ م فى دوائر ضيقة ، فانتظرت متشوقا الى ما سيقال حول موضوع الطريق المختلف الى الاشتراكية •

والآن •• فى منتصف ابريل سنة ١٩٤٨ م ، يصرح « تولبانوف » علنا — فى مجمع عام ، فلم يعد مكان للحذر الآن — أن الوقت قد حان لتضييق دعوى الطريق المختلف الى الاشتراكية •

توجد أشكال خاصة تتطابق مع الظروف الوطنية ، ويمكن أن تكون الأشكال والطرق مختلفة ، ولكن المضمون سيكون — بل يجب أن يكون — متشابها ••• ، اذ تدل التجارب على أنه لا يوجد طريق وطنى خاص للمرحلة الانتقالية الى الاشتراكية فى يوغسلافيا ، يختلف عن الطريق الوطنى فى بولندا ، أو فى المجر ، أو فى تشيكوسلوفاكيا (١) •

طرحت محاضرته سيلا من المشاكل الجديدة ، فأبدى استعداده

---

(١) نشرت محاضرة « تولبانوف » التى ألقاها فى المعهد العالى للحزب ، بصيغة مختصرة ، لينة النغمة ، فى مجلة « العالم الجديد » موقعا عليها باسم مستعار هو « ا • برلينج » ونزلت التعليمات الى كل ادارات وهيئات الحزب ومنظماته ، بدراسة هذا المقال دراسة دقيقة ، ما كلفت مدارس المراكز ومدارس المحافظات بادراجه فى مقرراتها الدراسية • وطبعا لم يذكر أن وراء اسم « ا • برلينج » يختفى المستشار السياسى للادارة العسكرية السوفييتية •

للحديث مع محاضرى ومدرسى المعهد العالى عن بعض مسائل « اضافية » والاجابة على الأسئلة •

كنا نجلس ــ بعد نصف ساعة من انتهاء المحاضرة ــ مع « تولبانوف » فى حجرة العميد ، فوجه الينا تحذيرا هاما :

ــ « كل ما يقال هنا هو للمدرسين فقط ، فلا يجوز التحدث به فى الحلقات الدراسية » •

أعطانا « تولبانوف » تلميحات الى قرب حدوث توتر فى العلاقات الدولية ، والى « الاسراع فى التطور السياسى » فى المنطقة السوفييتية •

وفى النهاية روى لنا شيئا عن الاستعدادات القائمة لتكوين حزب جـديد :

ــ « قمنا فى الادارة العسكرية السوفييتية بسلسلة من البحث عن أحوال الأعضاء والقياديين فى الحزب النازى السابق ، فاقتنعنا بأنه يوجد قوى يمكن الانتفاع بها ، انضمت هذه القوى انضماما لا قيمة له الى منظمات الحزب والمنظمات الجماهيرية ، وقد رأينا الآن فصلهم من هذه المنظمات ودفعهم الى نشاط آخر ــ وتحدثت مع بعضهم حديثا مفصلا ــ ، ألا وهو انضمامهم الى حزب جديد ــ رأينا أن من الأفضل تكوينه ــ يكون فى المنطقة السوفييتية ، يجمع هذه القوى ويوحدها ، لتستغل فى تطور واسع فى المنطقة السوفييتية ، وسيطلق على هذا الحزب اسم : « الحزب الديمقراطى الوطنى » ، وسوف ينبغى أن تعطى هذه القوى امكانية ظهور أكبر فى المنطقة السوفييتية • وانتقلنا فى هذا المجال أيضا الى « مرحلة جديدة » •

❋ ❋ ❋

ظهر الحزب الديمقراطى الوطنى بعد شهرين تقريبا ، وبالتحديد فى ١٦ يونيو سنة ١٩٤٨ م • وعندما كنت أتجول فى « كلاين ــ ماخنوف » مع أحد المدرسين ، اكتشفنا اليافطة الكبيرة الأولى للحزب الجديد على مسافة قريبة جدا من المعهد العالى للحزب ورأينا هذا الشعار مكتوبا عليها بالخط العريض : « ضد المـاركسية ــ من أجل الديمقراطية » وكتب أسفل اليافطة بالخط الصغير جدا : « بتصريح من الادارة العسكرية السوفييتية » • تلك الادارة التى لم تصرح فقط بهذه اليافطة ، بل من المحتمل أنها حثت على كتابتها وتعليقها ليراها الجمهور •••

جاء الينا العميد « تولبانوف » مرة أخرى بعد بضعة أسابيع من القاء محاضرته عن « الديمقراطية الشعبية » ، غير أنه لم يكن محاضرا فى هذه المرة ، لقد جاء ليحضر اجتماعا صغيرا مع ممثلى اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية الأجنبية ، ومن بينهم ممثلون من النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنرويج • وكان « بيك » و « داليم » ضمن المشتركين فى هذا الاجتماع ، عن اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، كذلك اشترك فيه من المعهد العالى للحزب ، « رودولف ليندلو » واثنان من المدرسين ، كنت أحدهما •

ألقى قياديو اللجنة المركزية من البلاد الأخرى ، تقارير قصيرة عن الوضع فى بلادهم • ووجه « فيلهيلم بيك » فى آخر الاجتماع كلمة شكر الى العميد « تولبانوف » ، والى سلطة الاحتلال السوفييتى ، ولم يكد ينتهى من هذه الا وعقب « تولبانوف » مبتسما :

— « أيها الرفقاء •• يشرفنى أن يكون لدى رفيقنا « بيك » هذا الظن الحسن بسلطة الاحتلال السوفييتى ، ولكنى أحب أن أقول : ان سلطة الاحتلال السوفييتى ارتكبت أخطاء فظيعة وشنيعة فى ألمانيا ، ومن الصعب جدا — للأسف — اصلاحها ، ولا أستطيع أن أقدم سوى عذر واحد ، هو أننا لم نهتم اطلاقا من قبل بالاحتلال الاشتراكى •

— الاحتلال الاشتراكى ! كان هذا شيئا جديدا كلية بالنسبة لنا • ربما أستطيع أن أؤكد فى هذا المحيط أنه اذا اضطرنا عدونا فى المستقبل الى تنفيذ احتلال اشتراكى ، فسوف نتصرف تصرفا أحسن ، بناء على ما تعلمناه من تجارب — فى ألمانيا » •

رجعت الى منزلى مفكرا ، جزعا من هذا التعبير « الاحتلال الاشتراكى » الذى صرح به « تولبانوف » بطريقة لينة مقبولة •

مضى عام ١٩٤٦ م ، وازداد عندى الشك فى أشياء كثيرة •

احتلال اشتراكى — ألم تكن النهاية الأخيرة لمفهومين انفصلا عن بعضهما ؟ ألم يكتب « فريدريش انجلز » :

— « لا تستطيع « البروليتاريا » المنتصرة اكراه شعب أجنبى على أى ابتهاج ، دون أن تدفن بذلك انتصاره الذاتى » ؟ (١) •

أصيب شكلى « الموزاييكى » وترددى بحجر جديد !

---

(١) فريدريش انجلز : خطاب الى « كارل كاوتسكى » فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ •

الباب التاسع

انفصالى عن الستالينية

يوجد تعبير خاص فى محيط القياديين الشرقيين للشك والتردد ، وللآراء التى لا تتفق مع الخط الرسمى ، ذلك التعبير هو : « مغص سياسى » ، فمعظم القياديين يحرصون على عدم ظهور « مغصهم السياسى » ، وبعضهم يخبر به أصدقاءه المقربين فى ظل تكتم شديد •

ومن الطبيعى أن نوع « المغص السياسى » يختلف باختلاف عمل المصاب به داخل الحزب ، أو فى المجال الاقتصادى ، أو فى الادارة • ولنوع ثقافته السياسية و « رتبته » فى سلم طبقات الحزب دخل فى ذلك أيضا • وهكذا توجد أنواع من « المغص السياسى » داخل طبقات القياديين المختلفة ، ولكنها كلها تتفق فى صفتين :

الأولى : ليس له علاقة بالاعتراضات « الغربية » ، ولا بمفهوم الحياة عند « الغربى » ، بل هو تعبير عن المعارضة ، وآراء داخل النظام نفسه ، تعبير عن التناقض بين نظرية « ماركس ولينين » من ناحية ، وبين النظرية والتطبيق « الستالينى » من ناحية أخرى •

الثانية : لا يخبر بهذا « المغص السياسى » أحد ، لا يكون عضوا فى الحزب ، ولا حتى الاشارة اليه أمامه • ومن الممكن أن يحدث — وقد شاهدت هذا مرارا — أن يدافع القيادى المصاب « بالمغص السياسى » فى مناقشته مع أناس من الغرب دفاعا مستميتا عن خط الحزب الرسمى • فيعتقد الغربى الذى يتناقش معه بأنه « ستالينى » مائة فى المائة ، ويرى أن المناقشة كلها لا فائدة فيها ، ولا معنى لها ، بينما الحقيقة ، أن القيادى المعارض ينقل حديثه الى الأوساط المعارضة بالتفصيل ، ويتناقشون فيها ساعات طويلة •

* * *

المغص السياسى

كلما زاد توترى آنذاك ، كلما ملأت وقتى كله بالنشاط الحزبى — كما هو الحال عند كل القياديين الشرقيين ، اذا اعترتهم هذه الحالة —

غير أنه لم يمكن منع ظهور الشك والأفكار الانتقادية . ولم يكن من النادر أن تستيقظ الذكريات والأحداث المؤلمة ، التى دخلت العقل الباطن منذ وقت طويل :

القبض على أمى ، والطرق على بابها دون فائدة .

بلبلة الأفكار ، والخوف الذى تسلط على أعصابى سنين عديدة ، بسبب القضايا ، وعمليات القــاء القبض ، ورعب الناس فى موسكو فى عامى حركة التطهير الكبرى من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م ، وأخيرا — وهو أسوأ من كل شىء — اصابتهم باللامبالاة .

القبض على صديقى « رولف » من عنبر النوم فى بيت الأطفال فى مارس سنة ١٩٣٨ م .

المعاهدة مع ألمــانيا الهتلرية ، وما أعقبها من اقصاء كل المؤلفات المناهضة للفاشية .

اجراءات العقاب الصارم ضد العمال فى صيف عام ١٩٤٠ م .

نظرة الخوف والرعب التى لاحظتها فى عيون الطلبة الذين أخبرونى فى تكتم تام أنهم أجبروا على العمل لحساب (N.K.W.D.) — وزارة الداخلية السوفييتية .

الجائعون فى « كاراجندا » ، وفى « أوفا » ، فى حين أن القياديين من الطبقة العالية ، لم يشعروا بهذه الأزمة فى التموين .

الجو المرعب فى أمسيات « النقد الذاتى » فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وخاصة عندما طرد الرفيق « فيلى » .

عيون القيادى — الذى طرد من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — الحزينة ويده التى امتدت الى فى « أوفا » راجية اعطاءه قطعة من الخبز .

تكبر « أولبريخت » على الرفقاء فى ألمــانيا ، الذين ناضلوا هناك فى حركات سرية ، وقسوته وعنفه فى النزاع مع « كونين » فى جلسة اللجنة المركزيــة ، وخبثه وخداعــه الذى هزم بهمــا الديمقراطيين الاشتراكيين فى انتخابات النقابات العمالية فى برلين .

كان هناك بعض الأشياء الأخرى أزعجتنى ، ولكنى كنت أبعدها عن تفكيرى ، وأحاول عدم ذكرها ، لأنها لا تناسب الصورة ، التى تربيت عليها ، ولأنى لم أرد أن أفسح لها المجال لتضايقنى فى عقيدتى ، وفى نشاطى ، وفى آمالى .

كلما زادت كمية ثقافتى ، كلما زادت الوسائل التى توضع فى يدى لتبرير كل شكوكى على مستوى « عال » ، بواسطه التفوق النظرى المعقد ، الذى يفوق الدعاية الرسمية للجماهير .

ولكن ازدادت شكوكى فى جانب آخر ، اذ سرعان ما تأكدت أنى لست وحدى — وخاصة آولئك القياديين الذين تلقوا دروسا سياسية ، فقد قطع هؤلاء شوطا بعيدا فى الزندقة . كانت آمالنا متجهة أولا الى ألا ينفذ التطور الاشتراكى فى ألمـانيا بنفس الأسلوب والشكل الذى عرفناه فى الاتحاد السوفييتى . كنا نرغب فى الاستقلال عن الاتحـاد السوفييتى ، وفى انتهاج طريق مستقل الى الاشتراكية .

وكنا ندعم هذا الاتجاه باشارة من « ماركس » ، و « انجلز » ، و « لينين » ، كان يعرفها كل واحد منا ، وكنا نلقنها للآخرين ، فانتقلت من واحد الى آخر .

كنا جميعا نعرف اشارة « ماركس » من خطابه فى « امستردام » فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ م حيث قال فيه :

« يجب أن يملك العمال يوما ما السلطة السياسية فى أيديهم ، ليؤسسوا نظاما جديدا للعمل .. ولكننا لم ندع أن الطريق للوصول الى هذا الهدف واحد فى كل مكان ، فنحن نعلم أنه يجب مراعاة المؤسسات والعادات والتقاليد فى المناطق المختلفة » .

كذلك أشار « لينين » فى خريف عام ١٩١٩ م الى أن الشعوب « لا تصل بطريق مماثل » الى الاشتراكية ، بل تضفى خواصها على الجوانب المختلفة فى الحياة الاجتماعية .

وفى المؤتمر الثامن للحزب الذى عقد فى مارس ١٩١٩ م ، أنذر « لينين » وفود الأحزاب البلشفية :

« لا ينبغى للمرء أن يتلقى الأوامر من روسيا » .

وفى خطابه فى المؤتمر الثالث لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية بين الرفقاء الأجانب : « أنه لا يجوز للشيوعية العالمية أن تقلد الروسيين تقليدا أعمى » .

أعجبتنى بنوع خاص كلمة « لينين » فى المؤتمر الرابع للشيوعية العالمية فى عام ١٩٢٢ م ، عندمـا اسـتهزأ بالقياديين الأجانب الذين يعتبرون الثورة الروسية « صورة مقدسة يعلقونها فى ركن ، ويصلون أمامها » .

لم يكن رأى « آكارمان » الذى نشر فى نهاية عام ١٩٤٥ م والذى دعا فيه الى اتخاذ طريق ألمـــانى مستقل الى الاشتراكية ، كافيا عند بعض القياديين القلقين على الوضع فى المنطقة السوفييتية ، لأنه على الرغم من هذه الدعوى ، فقد كنا فى الجـــانب العملى ، نؤيد الطريق السوفييتى ، وندعم الاجراءات السوفييتية .

كلما زاد الارتباط بسلطة الاحتــلال السوفييتى ، وبالاتحــاد السوفييتى وضوحا ، كلما اشتد ألم « المغص السياسى » ، واتسع الحديث حول هذا الموضوع بين « الأصدقاء المقربين » . آلمنا التفكير فى احتمال أن نتحول الى الطريق ، الذى سلكه الاتحاد السوفييتى فى عهد « ستالين » ، ووجهت الأسئلة الينا — نحن الذين شاهدنا الوضع فى الاتحاد السوفييتى بأعيننا — من بعض القياديين الآخرين — فى جلساتنا الخاصة — عن حقيقة الوضع فى الاتحاد السوفييتى . ولم ينقطع التقاء اللاجئين السياسيين السابقين ، مع المناضلين فى الحركات السرية فى ألمـــانيا ، ومبادلة الأفكار التى تقلقهم حول بعض الاجراءات .

هل كانت معاهدة « هتلر — ستالين » اتفاق ضرورى فى السياسة الخارجية فقط ؟ ماذا كان الوضع بالنسبة لتحرير غرب « أوكرانيا » وروسيا البيضاء ؟

ألم يمتنع تحقيق ذلك نتيجة الاتفاق مع ألمـــانيا الهتلرية ؟

ألم يكن ذلك — يخجل المرء من الحديث فى هذا الموضوع — فى حقيقته ، تقسيما استعماريا لبولندا ؟

والحرب فى فنلندا ؟ ألم يكن الاتحاد السوفييتى ، هو الذى هاجم هذه الدولة ؟ ألم تكن عبادة الزعيم ، والتركيز المستمر على « قيادة ستالين العبقرية » و « عصمته من الخطأ » شيئا يتعارض مع الأفكار الأصلية لحركة اشتراكية حية ؟

ألم يطالب « ماركس » عند انضمامه لـ« رابطة الشيوعيين » أن يزال من النصب كل ما يوحى بسيطرة العقائد الخرافية ؟

ألم تبين « روزا لوكسمبرج » ظهور الأخطــاء « التى ترتكبهــا الحركات العمالية الثورية الحقيقية ، وهى من الناحية التاريخية أكثر خصوبة وأعلى قيمة من عصمة أحسن اللجان المركزية من الخطأ ؟

ألم تتعارض النظريات ، التى يطبقها « ستالين » فى الحزب مع

أفكار « ماركس » و « انجلز » عن حزب العمـــال ؟ « كل الأعضاء أخوة متساوون ، ويجب عليهم مساعدة بعضهم فى كل المواقف » .

هذا ما جاء فى دستور رابطة الشيوعيين التى أسسها « ماركس » و « انجلز » . ولكننا نقرأ عند « ستالين » :

« يوجد فى صفوف حزبنا — اذا نظرنا الى طبقة القيادة — عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ زعيما كبيرا ، هؤلاء هم هيئة اللواءات فى حزبنا .

ثم يأتى بعد ذلك عدد يتراوح بين ١٠٠٫٠٠٠ ، و ١٥٠٫٠٠٠ تحت القيادة ، ويمكن أن نطلق عليهم هيئة مساعدى الضباط فى حزبنا » .

لم نستطع — فكريا — هضم هذا التعارض الواضح بين الرأى « المـــاركسى » القـــائل بالأخوة داخـــل الحـــزب ، وبين التقسيـــم « الستالينى » لأعضاء الحزب الى ضباط ومساعدى ضباط .

ألم تتعارض أيضا دعوى زعامة الحزب الشيوعى السوفييتى ، الانفصال عن « الدور السابق » للاتحاد السوفييتى تعارضا مباشرا مع أسس الحركة العمالية ومع مبادىء « ماركس » و « لينين » ؟

ألم يكتب « فريدريش انجلز » فى مقدمة كتابه « حرب الفلاحين الألمـــانية » فى عام ١٨٧٤ م :

« ليس من مصلحة هذه الحركة اطلاقا ، أن عمال أى أمة بذاتها يسيرون فى المقدمة » .

نتذكر أيضا كلمة « لينين » فى ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ م :

« انه لشرف كبير للبروليتاريا أن تبدأ .. سلسلة الثورات ، غير أن التزام أفكار البروليتاريا الروسية فى انتقاء البروليتاريا من بين عمال البلاد الأخرى غريب علينا » .

وسياسة « ستالين » ؟ !

ألم تكن المبالغة فى كل ما هو روسى ، واظهار الشعب الروسى على أنه « زعيم كل الأمم » ابتعادا كليا عن مبادىء الاشتراكية فى السياسة الدوليـــة ؟

ناقشنا موضوع « التطهير » مرارا ، وخاصة حركة التطهير الكبرى فى الأعوام من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م . مضى عليها عشر سنوات الآن ، ومع ذلك كنا نعود الى مناقشتها بين الحين والآخر .

ألم يكونوا رفقاء « لينين » فى النضال ، وأبطال ثورة أكتوبر ، حصدتهم وزارة الداخلية الروسية ؟

ألم يكن مئات الآلاف الذين وقعوا ضحايا حركة التطهير الكبرى ، من المناضلين فى الحرب الأهلية ، ومن قدامى البلشفيين ؟

أيمكن أن يكون من المصادفة أن يحرم الاجتماع على البلشفيين القدامى قبل التطهير ، اذا رجعت اليوم بذاكرتى الى « أحاديثنا الخاصة » فى ذلك الوقت ، فأعتقد أن « مغصنا السياسى » يتلخص فى النقاط التاليـــة :

١ — خضوع الاتحاد الاشتراكى الألمانى — أو الحزب « الستالينى » فى بلد آخر — للاتحاد السوفييتى ، والحزب الشيوعى السوفييتى ، معارضـــا بذلك مساواة الحركات العمالية فى كل البلاد ، تلك المساواة التى طالب بها « ماركس » و « انجلز » •

٢ — الدعوى « الستالينية » بأن تقتفى البلاد الديمقراطية الشعبية — ويقصد بها الدول الشرقية ، الدائرة فى محور الاتحاد السوفييتى — طريق الاتحاد السوفييتى ، معارضة بذلك اعلان « ماركس » و « انجلز » بأن التطور الى الاشتراكية فى كل بلد ، يجب أن يســـير مطابقا للظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية الخاصة بتلك البلد •

٣ — المبدأ الذى نادى به « ستالين » بتقوية سلطة الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بلاد الكتلة الشرقية ، معارضا بذلك نظرية « ماركس » و « لينين » ، التى تقرر بأن التطور الاشتراكى ، يؤدى الى اضعاف الدولة ، ثم فى النهاية الى انزوائها •

٤ — السلطة المطلقة لمديرى مؤسسات الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بـــلاد الكتلة الشرقية ، وهو أمر يتعارض مع ما طالب به « ماركس » و « لينين » من أن قيادة المؤسسات الصناعية الاشتراكية يجب أن تكون فى يد مجالس عمالية منتخبة •

٥ — دعوى عصمة الزعامة العبقرية من الخطأ ، وخرافة السيادة فى « الستالينية » التى تتعارض مع الاستعداد والنية الخالصـــة فى معالجة المشاكل بحرية تامة ، كما نجدهـــا فى مؤلفـــات « ماركس » و « انجلز » وكذلك عند « لينين » •

٦ — اضطهاد حرية الرأى فى الحزب ، التى وضحت عندنا بصفة

خاصة عندما قرأنا فى مؤلفات « لينين » عن المناقشات الحرة المفتوحة ، كما كانت العادة سابقا فى الحزب البلشفى •

٧ — التمييز الكبير بين القياديين فى الحزب والدولة ، وفى المجالات الاقتصادية ، وهو يعارض نظريه « ماركس » و « انجلز » و « لينين » التى تقضى بأنه لا يجوز لأحد فى المجتمع الاشتراكى أن يتقاضى مرتبا أعلى من أجر العمل الذى يقوم به •

٨ — الازدياد المستمر فى اجراءات الاضطهاد وكبت الحريات ، وهو يعارض المبادىء التى وضحها « ماركس » و « انجلز » بأن تحـديد الحريات يجب أن يكون اجراء مؤقتا فقط ضد مستغلى الطبقات ، ثم يرفع بعد تجريدهم من سلطتهم ، ويستبدل باجراءات تضمن الحرية الكاملة لكل العاملين فى الدولة •

ظهر هذا « المغص السياسى » — الذى لخصت أسبابه — عند أولئك الناس الذين انتقدوا هذه الظواهر على أساس تجاربهم الخاصة ، ومشاهداتهم الشخصية ، وكونوا لأنفسهم رأيا خاصا بهم • وكيفما كان الأمر ، فقد كانت مشاكل حركتنا ، فتحدثنا عنها فى أحاديثنا الخاصة • ولم يكن من النادر أن يجد المرء فى مكتبة المعهد العالى للحزب خطوطا عريضة تحت هذه النصوص ، التى استشهدنا بها هنا ، وطبعا تحت نصوص أخرى ، تتعارض مع السياسة الستالينية •

كانت هذه النصوص بالنسبة لنا — نحن الذين تعلمنا فى الشرق ، وشكلت أيديولوجية طباعنا — تجارب شخصية مؤلمـة ، فهى التى أكدت شكنا ، وعمقت قلقنا ، وكانت دليلا على صحة أفكارنا المناوئة • بدأت المعارضة عند الذين نشأوا داخل النظام « الستالينى » ، وعند القياديين الذين تربوا على أيديولوجية من الموقف « المـاركسى » كدفـاع عن نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ضد التحريف التى تقوم به « الستالينية » •

***

الطرود الخاصة والطبقة المفضلة

كان تمييز القياديين وتفضيلهم على الآخرين احدى المسـاوىء الكبيرة ، والسبب الدائم « للمغص السياسى » ، فلم أعرف أنا وأصدقائى — نحن الذين نشأنا فى الاتحاد السوفييتى — هناك شيئا آخر ، ولا

رأينا فى بادىء الأمر غضاضة فى التفضيل المـادى لقيادى الحزب فى الدولة ، وفى المجالات الاقتصادية : نعم •• تبين لى قبل ذلك — فى عام ١٩٤٢ م فى « كاراجندا » — أن من الظلم أن يكون هناك فى زمن الحرب فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمـال — وكذلك أيضا كثير من أعضاء الحزب — يعانون من ألم الجوع القاتل ، بينما لا يشعر بعض القياديين بأى نقص فى المـواد الغذائية عندهم ، ولكنى اعتبرت تفضيل القياديين بأنه مبالغة فقط ، وليس هو الحقيقة بذاتها •

دفعت مصادفة الى التفكير فى هذه المظاهر ، كنا فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م فى بداية الحملة الدعائية الكبيرة للوحدة • كنت آتيا من مكتبى وأردت الذهاب الى صالة الطعام فى اللجنة المركزية ، فاستوقفنى على السلم رجل حسن المظهر والملبس ، متوسط العمر قائلا :

— « لا تؤاخذنى أيها الرفيق •• هل تشتغل هنا » ؟

— « نعم •• فى قسم الدعاية السياسية » •

— « هذا ما أريده بالضبط ، فأنا قيادى فى الحزب الشيوعى الألمـانى من الغرب ، وجئت الى هنا بناء على دعوى وجهت الى • وقد أعطيت منذ لحظة « ماركـة » للأكل ، ولكنى لا أعرف أين صالة الطعام » ؟

— « هذا يتوقف على نوع « الماركة » التى معك » •

نظر الى مندهشا ، ثم أطلعنى على نوع « ماركته » ، لقد كانت واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى « للعاملين غير المهمين » • فشرحت له كيفية الوصول الى مكان تناوله الطعام •

— « قل لى •• هل يوجد أنواع مختلفة من « الماركات » ؟

— « طبعا •• يوجد أربعة أنواع مختلفة من « الماركات » تبعا لعمل القيادى ، فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين » •

— « نعم ! ولكن •• أليس الكل رفقاء » ؟ !

— « طبعا •• — أيضا عاملات النظافة ، والسائقون ، والحراس ، كل أولئك أعضاء فى الحزب ، انضموا اليه بعد اختيار » •

نظر الى فزعا ، ثم قال :

— « ماركات » مختلفة ، وطعام مختلف •• ولكن الكل رفقاء » !

أدار ظهره دون أن يحيينى وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الرئيسى ، لقد غادر الرفيق مبنى اللجنة المركزية •

اتجهت الى صالة الطعام ممعنا التفكير فيما حــدث ، فاخترقت الحجرات التى يتناول فيها الطبقتان ٣ ، ٤ — الطبقتين السفليتين — طعامهما ، فاعترانى شعور بالانقباض ، عندما فتحت باب القسم الخاص بطبقتنا • فهنا •• على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء يتناول العاملون من الطبقة العالية طعامهم المكون من أصناف متعددة • غريب أنى لم ألحظ ذلك قبل اليوم قط !

ثم فكرت فى « الفيللات » الفخمة فى « نيدرشونهاوزن » حيث يسكن « بيــك » و « جروتيفول » و « أولبريخت » و « داليم » وآخرون • وكنت أذهب الى هناك زائرا كل أسبوع تقريبا • وأرى السور المضروب حول الحى كله ، وقد وقف على مدخليه حراس من الجنود السوفييت •

قلت ذات يوم لأحد القياديين الذين يسكنون هناك :

— « حسنا •• أوافق على أن اجراءات الأمن ضرورية ، ولكن هل يلزم أن يكون الحراس من الجنود السوفييت ؟ طبعا أنتم تحتاجون الى سكن فسيح ، ولكن هل يلزم أن يكون « فيلا » فاخرة ؟ هذه ليست المشكلة الأساسية ، ولكن يمكن أن تثير الامتيازات فى زمن القحط العام مرارة وحقدا عند الشعب » •

فضحك القيادى ضحكة ساخرة :

— « ماذا تفعل ، لو أمكنك فعل شىء » ؟

— « أقترح أن يسكن كل أعضاء السكرتارية المركزية فى شقق — مكونة من ثلاث أو أربع حجرات — فى أى مكان داخل الحى ، الذى يوجد فيه مقر عملهم • ويمكن أن يسكن فى الدور الأرضى بعض الرفقاء — ربما من الأعضاء السابقين فى رابطة مناضلى الجبهة الحمراء — ليقوموا بأعمال الأمن الضرورية ، بالضبط كما يقوم بها جنود الجيش الأحمر » •

بدت علامات الجد على وجه القيادى •

— « لم أتوقع منك هذا الرأى المتخلف ، هذا يعنى التراجع أمام الدعاية المعادية ، فهذا ليس شيئا آخر سوى الرجوع الى فهم الفرد العادى بأن كل شىء متساويا • لمــاذا لا يسكن زعماؤنا فى هذه الفيللات ؟ هل تريد أن تعيدهم الى النازية ؟

فأجبته : « لم أقل هذا اطلاقا ، أنا ضد هذه « الفيللات » الفاخرة فى زمن القحط العام ، فى وسط الصراع السياسى فى برلين ، حيث من المعروف

للجميع أن الزعماء الديمقراطيين الاشتراكيين فى الغرب يعيشون حياة أكثر تواضعا ، وحتى العجوز « كولس » من الحزب الديمقراطى الليبرالى يعيش فى مكان ما فى شقة بالايجار مكونة من ثلاث حجرات » •

— « أحيانا يعترينى شعور بأنك — على الرغم من مركزك المهم — ثورى مشاغب » •

تلفظ بكلمة « ثورى مشاغب » بالتردد البارد المعروف عن المتحمسين للجهاز • توقفت عن الكلام • ومن الطبيعى أن « الفيلات » بقيت ، وكذلك الحراس السوفييت • وكلاهما أصبح أغنية انتخابية رددها أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى حملته الدعائية فى انتخابات أكتوبر سنة ١٩٤٦ م فى برلين •

ويجب أن أذكر هنا أن بعض الرفقاء رفضوا السكن فى حى « الفيلات » ولكن الاشارة بأن ذلك من مصلحة الحزب ، كانت قوية وكفيلة باخضاعهم لارادة الحزب ، وقبول السكن فى الفيلات • وبعضهم لم يشعر بالراحة من السكن فى منازل فاخرة ، وشعر — كقيادى عامل — بوخز الضمير ، أما الآخرون فقد اعتادوا على الوضع الجديد بسرعة ، وألفوا أوضاع حياتهم الجديدة • سرت نكتة ظريفة — همسا — بين القياديين الذين يفكرون تفكيرا مستقلا : « بعد وجبة طعام دسمة ، تمطع قيادى كبير ، وصاح فجأة : ان من الجميل حقا أن تكون فردا من الطبقة الحاكمة » !

لم تكن « الفيلات » ، وتركيب الطبقات فوق بعضها فى توزيع الطعام هما فقط مميزات القياديين الكبار ، اذ لم يمض وقت طويل على تأثيث مبنى اللجنة المركزية فى شارع « فال » وافتتاحه ، حتى علمنا أن منزلا هيىء ليقضى فيه أعضاء جهاز اللجنة المركزية فترات استجمام ، ويوجد هذا المنزل فى « بيرنيكى » بالقرب من « بيرناو » ، وأثث — بالنسبة لذلك الوقت — تأثيثا فاخرا ، ويحيط به منتزه كبير ، وهو معزول تماما عن العالم الخارجى • كان الطعام هنا فاخرا بدرجة تجعل الطعام فى اللجنة المركزية — بالنسبة له — يبدو متواضعا جدا • هنا نقضى أيام الأجازات ، وأحيانا يرسل بعض القياديين بعد القيام بعمل خاص الى « بيرنيكى » ، كى يسمنوا مرة أخرى •

ويجب ألا ينسى شىء هنا : كلما كانت الامتيازات كبيرة ، كلما كانت الأعمال التى يطلبها الحزب من القيادى كبيرة أيضا ، وغالبا ما كانوا

يخدمون الحزب حتى ينهكون تماما ، فاذا تعبوا جسمانيا وعصبيا ، يجوز لهم أن يستجموا وقتا قصيرا • ولكن هؤلاء القياديين الذين لا يستطيعون القيام بالمهمات التى يكلفون بها لأسباب صحية ، أو بسبب التقدم فى السن — باستثناء قياديى الطبقة العليا — يلفظون كما تلفظ الليمونة بعد أن تعصر • كان هذا مبدأ النفعية بأعلى أشكاله •

نظمت الامتيازات بعناية طبقا لدرجة القيادى ، فكان بيت الاستجمام فى « بيرنيكى » فى بادىء الأمر لكل القياديين فى جهاز اللجنة المركزية ، غير أنه حدث تفريق بينهم فيما بعد ، فقد جهز بيت استجمام على مستوى عال فى « زيهوف » للأعضاء الكبار فى سكرتارية اللجنة المركزية •

كان نظام التفريق بين الطبقات مطبقا أيضا فيما كان يطلق عليه Fajoks تلك الطرود الكبيرة من المأكولات ، والتبغ ، والمشروبات الكحولية ، والشيكولاتة التى كنا نحصل عليها بصفة مستمرة ، علاوة على بطاقات المواد الغذائية ، وتموين اللجنة المركزية ، ولما كانت هذه الطرود غير مقصورة على القياديين الكبار والمتوسطين فقط ، بل كانت أيضا للقياديين فى الجهاز الادارى والاقتصادى ، وللعلماء والأخصائيين والشعراء والفنانين ، فقد تدرجت بدقة تامة ، ويحدد ذلك أهمية الحاصل على الطرد ، ونوع العمل الذى يقوم به •

لم يوجد بيان رسمى بذلك اطلاقا ، فاذا تحدث المرء مع « أحد المخلصين اللينينية » حول هذا الموضوع ، يجيبه ببساطة : « حماة الدولة ! فالرفقاء مكلفون بعمل كثير ، ولذا من المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية » •

من الممكن أن يكون هذا صحيحا ، ولكنه لا يفسر اطلاقا تدرج توزيع الطرود حسب الطبقات ، بعضها فوق بعض • وبالاضافة الى ذلك ، ألم يكلف العمال فى المصانع والمناجم ، والقياديون من الطبقة الدنيا « الذين لا يحصلون على طرود » أيضا بعمل شاق يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟

قابلت فى « زاكسين » أحد القياديين فى الحزب ، وكان يعمل فى « رابطة النقابات العمالية الحرة » ، ويعرف الوضع فى المصانع معرفة جيدة • وثق بى ، وأراد ذات مرة أن يفرغ كل ما فى قلبه •

قال لى :

— « حديث خاص بينى وبينك • نحن نشعر هنا فى الطبقة الدنيا

بالارتباط الروسى أكثر منكم فى الطبقة العليا ، حيث تسير الأمور بشكل أكثر أدبا ، فللطرود الخاصة سنارة ••• » •

— « أستطيع ادراك هذا ، فالعمال حانقــون بالتأكيد على هذه الظاهرة » •

— « هذا أيضا •• ولكن هناك شىء آخر » •

وروى لى مصير أحد « قياديى الطرود » :

رفيق ممتاز ، كان فى اللجنة المركزية أعواما طويلة ، ثم عاد الى مصنعه ، فحياه العمال بحرارة ، فأصبح بسرعة قياديا ، واعتبر « الرجل الأول » فى المصنع • ثم جاءت عملية فك وازالة آلات المصنع ، فبين الروسيون له ، أنه يجب عليه أن يبرر عملية الفك للعمال ، فاذا انتهت هذه العملية — هكذا وعده الروس — فيكون قد زلل كل شىء ، ويستطيع العمال أن يباشروا عملهم دون عقبات •

صــــدق الرفيق ذلك ، ووثق العمـــال بكلامه ، فنفذت عملية فك الآلات ، واعتقد العمال أن كل العقبات قد زالت ، فذهبوا متحمسين الى المصنع ، وأحضروا من مكان ما آلات ، وبنوا المصنع • ليس بالدرجة التى كان عليها سابقا ، ولكن على أى حال سار العمل فى المصنع •

مضت بضعة أشهر ، ثم استدعى الرفيق مرة أخرى لمقابلة الروسيين ، فأخبروه بأن ماكينات مصنعه ستفك من جديد • ناقشهم فى ذلك ، وذكرهم بوعدهم عند عملية الفك الأولى ، وبوضعه فى المصنع ، وبسمعة الحزب ، ولكن كل ذلك لم يفد شيئا ، فالروسيون مصرون على تنفيذ عملية الفك الثانية ، فرفض أن يقوم بمحاولة اقناع العمال بقبول هذا العمل •

ضحك الضابط الروسى ضحكة استهزاء ثم قال له :

— « اذا لم تفعل هذا فسوف أخبر العمال بما أخذته من طرود وبالامتيازات الخاصة التى حصلت عليها » •

ثم أخرج قائمة فى أثناء ذلك ، كتب فيها كل شىء ، وقد تجمع فى العام والنصف أعداد كبيرة مما حصل عليه ، ولم يدرك الرفيق مغزى اعطاء الطرود الا فى هذه اللحظة •

وفى اليوم التالى برر أيضا فك المــاكينات وأخذها أمام العمال ، ولكنه لم يكن الرفيق المعهود سابقا ، فقد أصبح انسانا محطما •

بعدما سمعت هذه القصة ، فهمت أيضا أن الطرود لم تكن فقط

مساعدة اضافية للرفقاء الذين يضحون فى العمل ، ولم تخدم فقط حماة الدولة ...

* * *

الدعايـــة الغربيـــة

يندهش الناس فى الغرب عندما أقول أننى منذ عام ١٩٤٥ م وأنا أقرأ الجرائد الغربية كل يوم . ثم يوجه الى هذا السؤال :

ــ « ثم ماذا ؟ .. كيف أثرت عليك » ؟

وللأسف لا أستطيع أن أجيب الا بـ: « لم تؤثر اطلاقا . اذا استطاع المرء أن يتحدث عموما عن تأثير ــ بصرف النظر عن استثناءات قليلة جدا ــ فليس الا أن هذه القراءة أخرت انفصالى عن « الستالينية » .

كانت ثلاثة أرباع مساحة الجرائد الغربية ــ التى اضطرت الى الملاءمة مع مزاج القارىء الغربى ــ لا تزال موقوفة على أحداث لا تهم القياديين المعارضين ، فقد كتبت معظم المقالات والتعليقات بلغة يفهمها القيادى ، الذى تثقف فى الشرق ، ويستطيع بطريقة ما أن يدخل بفكره فيها ، ولكنها لا تخاطبه اطلاقا .

اذا تحدثنا عن المقالات « الغربية » استقبحنا الصياغة غير العلمية فى الصحافة الغربية . ولما كانت كل الاصطلاحات السياسية مثل : الشعب ، والديمقراطية ، والحرية ، والأمة ، والاشتراكية ، محدد معناها عندنا تحديدا دقيقا ، فقد بدا لنا أن كل استعمال لا يطابق تحديدنا فهو غير علمى ، كتبه أناس ــ هكذا عبرنا آنذاك ــ ليس لديهم الثقافـــة الأساسية فى السياسة .

وطبيعى أن اهتمامنا كان مركزا على الأخبار والمقالات التى كانت تتعلق بالمنطقة الألمـــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، أو بالاتحاد السوفييتى ، والبلاد الديمقراطية الشعبية . لم نستطع آنذاك سوى هز الرؤوس أسفا على ذلك ، وغالبا ما خاب أملنا بدرجة لا تتصور ، فلم تذكر ــ فى معظم الأحوال ــ الأحداث الهامة التى كانت تثير نقاشا كبيرا بيننا ، والتى كنا نتمنى بحرارة أن نقرأ عليها تعليقات جدية فى الصحافة الغربية .

ــ « يبدو أنهم لا يعلمون شيئا عما يدور هنا » .

كانت هذه الجملة ، هى النغمة الوحيدة ، اذا تحدثنا حول هذا الموضوع • وبدلا من هذا تحدثت الجرائد فى برلين الغربية وألمانيا الغربية بالتفصيل عن نقص وأخطاء الادارات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

لم تشتد معارضة أحد من أصدقائى أو من معارفى ضد النظام عن طريق قراءة مثل هذه المقالات ، ولم توقظ فيهم أفكار المعارضة ، بل بالعكس : لقد كنا — بلا استثناء — ثائرين على المبالغة فى الاستهزاء بالعمال الذين يعملون الآن فى أجهزة الدولة ووقعوا مرة فى خطأ لغوى •

وهكذا أصابتنا دائما خيبة أمل مزدوجة : فالأحداث الكبيرة التى كانت تحركنا ، وكنا نتناقش فيها الليالى الطوال ، والتى سببت لنا « المغص السياسى » ، لم تمسها الصحافة الغربية اطلاقا ، فى حين أنها أسهبت فى الكلام عن نقص صغير ، لا يمكن تجنبه • وقد ظهر لنا هذا بالذات أنه موقف غير سليم ، وشعرنا فى مثل هذه الحالات ، أننا فى موقف الدفاع عن النظام ضد هذا الهجوم الموجه اليه •

كنا نريد أن نسمع أدلة جادة ، تساعدنا فى موقفنا المعارض لظواهر النظام ، وبدلا من هذا سمعنا ، الى أى مدى يرتفع مستوى معيشة العامل فى الغرب عن مستوى معيشة زميله فى الاتحاد السوفييتى وفى بلاد الكتلة الشرقية • وكان رد الفعل عندنا :

— « ولكنهم يكتشفون كل شىء أيضا ! كما لو كنا لم نعرف ذلك بأنفسنا ! من الطبيعى أن مستوى المعيشة فى بلاد غرب أوروبا أعلى من مستوى المعيشة فى بلاد الديمقراطية الشعبية • هذا واضح جدا — فالتاريخ يبين أن النظم الاجتماعية الآيلة للسقوط يكون مستوى معيشتها أعلى من النظم الاجتماعية الصاعدة » •

أما المقالات القليلة التى عالجت مشاكل البلاد الشرقية بأسلوب جدى ، فقد خرجت من المناقشة — فى معظم الحالات — بمدح نشاط الرأسمالية الخاصة وابتكاراتها ، أو الاشادة « بالعالم الغربى المسيحى » ، فلم تقنعنا هذه الحجج اطلاقا ، لأن شباب الجيل ، الذى تثقف سياسيا ، لا يفكر فى الاعتراف بالنظام الغربى ، عند معارضته المتزايدة للنظام « الستالينى » • حاول الجميع خلخلة الأيديولوجية « الستالينية » بواسطة دعاية النظام « الغربى » ، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير علينا تأثيرا ذا قيمة • كنا أعداء « الستالينية » ، ولكننا لم نكن على استعداد

أن نستبدل به النظام الرأسمالى القديم ، فحمينا أنفسنا من دعاية تدعو الى تعويض الاقطاعيين ، ورد الشركات الى أصحابها السابقين ، واعادة الأحزاب السابقة ، وتطبيق النظام الغربى تطبيقا حرفيا فى البلاد الشرقية •

أثرت النغمة الساخرة ــ تأثيرا سيئا جدا ــ التى تحدثت بها الجرائد والاذاعات الغربية عن أشياء ، كانت فى نظرنا ــ نحن القياديين المعارضين ــ مقدسة ، فمثلا عندما توصف ثورة أكتوبر بأنها « انقلاب » ، أو يهاجم « لينين » شخصيا ويستهزأ به •

كذلك لم تستطع محاولة « نقد الماركسية » بأسلوب ملتو فى الصحافة والاذاعات أن تؤثر علينا نحن القياديين • فقد كان معظمها تفسيرات « للعامة » وكانت بدائية لدرجة أننا لم نأخذها مأخذ الجد •

ولم يكن من الأمور النادرة ، أن توصف الظروف فى الاتحاد السوفييتى بأنها « تطبيق للماركسية » ، ولكن « مغصنا السياسى » نابع أصلا من الشك المدعم بالأدلة فى أن التطور السياسى فى الاتحاد السوفييتى ، وفى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى يتفق مع مبادىء الماركسية : فالصحافة الغربية تقرر لنا الآن ــ وان كان ذلك باشارات أخرى ــ أن الدعوى الرسمية للحزب صحيحة •

غير أنه كان هناك بعض الاستثناءات ، وهى لا تزال فى ذاكرتى ، ولن أنساها أبدا • فعندما ذهبت للتجول فى برلين الغربية ، اكتشفت فى كشك لبيع الجرائد عند دار بلدية « شتيجلتس » كتيبا يحمل عنوانا موضوعيا : « النقابات وسياسة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى » وكان اسم المؤلف : « سالومون شفارتس » مجهولا لى حتى ذلك الحين • وعند تصفحى له رأيت بيانا مفصلا عن « الجريدة الجديدة » ، وكانت الجريدة الأمريكية الرسمية فى ألمانيا حتى عام ١٩٥٥ م •

قلت لنفسى : سيكون هذا هراء كله ، فالأمريكيون هم الناشرون • وعندما رجعت الى سكنى فى المعهد العالى للحزب ، أحضرت ورقة وقلما ، لأدون كل التحريفات الموجودة فى الكتاب ، وكنت مقتنعا أن فيه الكثير من تزييف الحقائق •

بدأت فى القراءة ، فلم أجد هجوما ، بل أسلوبا موضوعيا مدعما بنصوص كثيرة ، وقوائم ، ومادة احصائية ــ بالضبط كما كان معروفا فى الأبحاث العلمية •

قارنت الأرقام والنصوص التى استشهد بها ، فوجدتها كلها صحيحة ، ولا زال قلمى موضوعا على استعداد للكتابة ، ولكن لم يكن هناك شىء يكتب ، وانتهيت من الكتيب بعد ساعتين ، ولم يكن عندى اعتراض — باستثناء علامتين أو ثلاث علامات استفهام — على ما أورده من احصائيات ، ونصوص نقلها من الصحافة السوفييتية • فقد كنت أعرف كل هذا من قبل ، ولكنى لم أقرأه قط فى أسلوب محكم كهذا الأسلوب ، ولم أر ترابطا بهذا الوضوح •

وبعد بضعة شهور تنقل كتيب آخر بين أيدى القياديين المعارضين ، وكان موضوعه مختارات من كتاب « كوستلر » :

Der Yogi und der Kommissar

نشرت الجريدة الجديدة هذا الكتيب بعنوان : « أساطير سوفييتية وحقائق » • تسمرت عينى على الكتاب بسرعة ، لأن الحديث فى الصفحة الأولى كان عن ثورة أكتوبر ، ولكنها لم تهاجم فى هذه المرة — كما هو الغالب فى الكتابات الغربية — الثورة ، أو يسخر منها ، ولهذا شد الكتاب اهتمامى حتى قرأته كله • اذ كان من عادتنا ألا نكمل قراءة المقالات والكتب التى يكون فيها اساءة الى ثورة أكتوبر — التى يعتبرها القياديون ، حتى المعارضون منهم ، حدثا كبيرا فى تاريخ الانسانية — أو تصفها بأنها « انقلاب » • ولكن كان اعجابى يزداد كلما قرأت فى كتيب « أساطير سوفييتية وحقائق » كلمات « كوستلر » عن الثورة الروسية ، وعصر بطولات الاستيلاء على السلطة بواسطة الشعب ، وسيادة العمال والفلاحين ، والموجات الثورية ، التى تفور وراء سفينة الثورة الروسية على القارة •

جمع الكثير مما كنت أعرفه حتى الآن جمعا مترابطا فى هذا الكتيب • كان الكتاب الذى وردت فيه « الستالينية » كمعنى مضاد للماركسية موضوعا أمامى ، وصور فيه النظام الحالى فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه ليس تابعا لثورة أكتوبر ، بل دلل على أن النظام « الستالينى » خان انجازات ثورة أكتوبر ، وقلبها رأسا على عقب •

ثم جاء الكتاب الثالث من الغرب ، فبين أننا لا نقف وحدنا فيما نفكر فيه • كان الكتاب بعنوان : « الجانب الآخر للرأسمالية » ، وكتبه : « باول سيرينج » وكتب تحت العنوان الأصلى : « محاولة لتوضيح اشتراكى جديد » •

اهتم الجزء الأكبر من الكتاب بالاتحاد السوفييتى ، فأثر فينا — على الرغم من أن بعض القياديين المعارضين لا يتفقون معه فى بعض النقاط — تأثيرا كبيرا ، لأنه كان فى اطار المراجع التى كانت لدينا آنذاك ، ولأنه كان المحاولة الأولى لتحليل الاتحاد السوفييتى ، محاولة الاجابة على هذا السؤال :

— لماذا قاد هذا التطور الى ذلك الطراز من الدولة ، وكيف اتسع نطاق التناقض مع النظرية الأصلية للماركسية الكلاسيكية !

كانت هناك أجهزة راديو فى كثير من حجرات الطلبة فى المعهد العالى للحزب ، وكذلك كان عندنا نحن المدرسين أجهزة استقبال جيدة • ولم يكن من النادر سماعنا للاذاعات الغربية ، ولم يكن الحال معها أحسن من الحال مع الجرائد •

كنت أجلس ذات مرة مع اثنين فى مسكنى نسمع اذاعة « رياس » فكانت تأتى كلمة الحرية بعد كل كلمتين ، فقام أحدنا وأغلق الراديو ، ثم قال : « يتشدقون دائما بحريتهم ، فأولا : لا توجد حرية فى الغرب ، وثانيا : نحن نعلم أن ما فى الغرب ليس حرية » •

فوافقناه على هذا الرأى •

لم يكن هذا الرفيق من المتعصبين « للينينية » ، بل كان من القياديين المعارضين ، ولكن هذه المعارضة — وقد نسيت فى الغرب — كانت تتحرك فى عالم تصورنا ، داخل مصطلحاتنا ، وتهتم بمشاكلنا ، وليس لها أى علاقة بالميول الغربية ولا بمفاهيم الحرية الغربية •

كانت الحرية عندنا ادراك للضرورة التاريخية • ولما كنا الوحيدين الذين يوجد عندهم هذا الادراك على أساس نظرية علمية ، فقد كنا أحرارا ، بينما الناس فى الغرب — الذين ليس عندهم هذه النظرية العلمية ، ولهذا يقفون حيارى جاهلين أمام التطور التاريخى ، بل أصبحوا كرة اللعب فى هذا التطور — غير أحرار •

ولكن وجدت بعض الاستثناءات فى هذه البرامج الاذاعية : فقد كان الاستثناء الأول تمثيلية عن كتاب « كوستلر » : « كسوف الشمس » • لم أسمع شيئا عن هذا الكتاب ، حتى وقت سماع هذه التمثيلية ، ولكن لأنى كنت قد عرفت كتيبا من تأليف « كوستلر » فقد أسرعت بفتح الراديو • فتسمرت بجانبه بعد سماع الجمل الأولى • فهى تمثيلية عن بلشفى قديم محجوز فى سجن « وزارة الداخلية السوفييتية » ! وعندما

انتهت التمثيلية ، تجولت بضعة ساعات ، وكنت غارقا فى التفكير أثناء هذا التجول • ثم تأكدت فى اليوم التالى أن قياديين آخرين سمعوا هذه التمثيلية ، وتأثروا بها تأثرا عميقا •

واظبت — ابتداء من هذا اليوم — على سماع محطات الاذاعات الغربية ، ولكنى توقفت عن ذلك بعد أسبوع تقريبا ، اذ تبين ألا فائدة من ذلك ، فقد كانت هذه التمثيلية شاذة •

كنت جالســا مع مجموعة من القياديين فى منتصف يناير سـنة ١٩٤٩ م ، وكان أحدهم ضابط شرطة ، فقال واحد منهم : ستذيع اذاعة « رياس » بعد نصف ســاعة برنامجا بمناسبة موت « روزا لوكسيمبرج » •

— « برنامج أمريكى عن « روزا لوكسيمبرج » ؟

فتح ضابط الشرطة المذياع ، وهو مرتاب فى ذلك ، ولكن سرعان ما تلاشى ارتيابنا • فقد وصفت الثائرة الألمــانية بانصاف ، بل حتى بكلمات تقدير واعجاب ، وفى نفس الوقت تليت مختارات من كتابها : « الثورة الروسية » ، وهو كتاب لم يذكر منه شىء فى أى صحيفة من صحف المنطقة الألمــانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولم يذكر أيضا ضمن المراجع فى أى مدرسة من مدارس الحزب ، حتى لم يذكر شىء فى الجزئين الكبيرين اللذين جمعت فيهما خطب ومؤلفات « روزا لوكسيمبرج » •

تنقل هذا الكتاب بين أيدى القياديين المعارضين فى حزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمــانى ، وحصلت عليه من قيادى ، أثناء لقائى معه ، فى مبنى رئاسة حزب الاتحاد الاشتراكى نفسه فى احدى المقاطعات • والآن •• سمعنا هذه المختارات منه فى اذاعة « رياس » :

« وبكبت الحياة السياسية فى جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، وحرية الاجتماعات والصحافة المطلقة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحياة فى كل مؤسسة عامة ، وتصبح حياة ظاهرية ، تكون البيروقراطية فيها هى العنصر الوحيد الذى يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المتوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لا حد لها ، وتقود حفنة من بينهم — يتمتعون

بذكاء خارق — جماهير العمال من وقت لآخر الى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالاجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة . هى مجموعة نفعيـــة ، وهو ديكتاتور لا شك فى هذا ، ولكن ليس ديكتاتور البروليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين » .

بعد بضعة تعليقات جاءت نهاية البرنامج كالصاعقة :

« أين موقف « روزا لوكسيمبرج » الآن » ؟

ثم خيم الصمت على أرجاء الغرفة ، صمتنا ، وسأل كل واحد نفسه : « فيم يفكر الآخر » ؟

لم يكن الأمر بسيطا هذه المرة ، فلم أكن أعرف ثلاثة من الحاضرين ، ولهذا كنت حذرا : « من المؤكد ألا يكون موقفها مع الأمريكيين » .

فقال واحد من الذين لا أعرفهم : « ولكن ليس معنا أيضا » .

فأومأ الآخرون برؤوسهم علامة الموافقة على هذا الرأى — كذلك ضابط الشرطة ...

لم أنس هذه الكتب ، والبرامج القليلة فى الدعاية الغربية ، فبقيت فى ذاكرتى بحرفيتها لأنها طابقت ما كنا نبحث عنه : بحث طبيعة طبقات النظام ، بمفاهيم واصطلاحات فهمناها ، البحث فى مدى انحراف النظام « الستالينى » عن أسس الماركسية . كيف يمكن أن يكون الوضع فى الاتحاد السوفييتى ، لو تطور فى الاتجاه الماركسى !

ولمـــا لم تعالج الجرائد والاذاعات الغربية المسائل الهامة والحاسمة بالنسبة لنا ، فقد اضطررنا — نحن المجموعـــة المســـتقلة فى التفكير ، الاشتراكيين المتعرضين للاصابة « بالمغص السياسى » كثيرا — أن نجاهد بشق الأنفس ، وخطوة خطوة ، لحل مشاكلنا وحدنا ، دون أن نحصل من أى جهة — فى مناقشاتنا — على التحريض أو الاثـــارة ، التى قد تساعدنا فى جهادنا على مواجهة الاشتراكية .

* * *

ماذا حدث ليوغسلافيـــا

ظهرت أحداث فى فبراير سنة ١٩٤٨ م أثارتنا اثارة ، لم نعهد مثلها منذ تأسيس الحزب . بدأت أولا بوقائع غير ذات ضرر ، بدت لا أهمية لها ، ولم تكن مفهومة ، ولم تشرحها أى جهة .

كانت هناك مسألة المائة وخمسين عضوا من أعضاء منظمة « الشباب الألمانى الحر » ، اذ بعد زيارتى ليوغسلافيا ، سلمت تقريرا عنها لـ« هونيكر كورس » رئيس منظمة « الشباب الألمانى الحر » ، فبدأ الاتصال بينها وبين « الشبيبة الشعبية اليوغسلافية » وانطلقت — ابتداء من خريف عام ١٩٤٧ م — حملة دعائية تحت شعار : « ١٥٠ عضوا من أعضاء منظمة « الشباب الألمانى الحر » يسافرون الى يوغوسلافيا فى صيف عام ١٩٤٨ م » •

ونشرت جريدة المنظمة : « عالم الشباب » مقالات طويلة ، وجرى البحث فى اجتماعات القياديين عن البحث عن أحسن أعضاء « الشباب الألمانى الحر » للسفر الى يوغوسلافيا •

ثم توقفت الحملة فجأة ، بين عشية وضحاها ، فلا مقالات فى الجرائد ولا أى اشارة — كان الوضع كما لو لم توجد مثل هذه الحملة قط — فسألت أحد أعضاء اللجنة المركزية : « ماذا جرى للحملة الدعائية للمسافرين الى يوغوسلافيا » ؟

— « لا أدرى بالضبط ، فالوضع غريب جدا ، فقد قيل لنا فى اجتماعنا الأخير مع الأصدقاء السوفييت : « ينبغى وقف هذه الحملة ، فلن يستطيع الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمانى الحر » السفر فى صيف عام ١٩٤٨ الى يوغوسلافيا » • ولم يعطوا سببا لهذا ، فقد قالوا فقط : ينبغى أن نترك كل شىء يتسرب فى الرمل بهدوء » •

ثم سمعت بعد ذلك بوقت قصير ، أن الأربعة الكبار فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى سيزورون الدول الديمقراطية الشعبية فى الأسابيع القادمة ، وبعد ذلك ببضعة أيام أعلن نبأ الرحلة رسميا ، ولن يسافر أحد منهم الى يوغسلافيا •

وعدت اليوغسلافيين — عندما كنت عندهم فى صيف عام ١٩٤٧ — أن أعود فى الصيف القادم • كنا فى مايو سنة ١٩٤٨ م واقتربت أيام أجازتى ، فذهبت الى البعثة العسكرية اليوغوسلافية ، لأسألهم عن رحلتى •

— « تستطيع أن تسافر الى بلدنا فى كل وقت ، فأنت مدعو رسميا من اللجنة المركزية للشبيبة الشعبية ، وسنسر جدا بزيارتك » •

كان الرفقاء اليوغوسلافيين مؤدبين جدا ، ولكن عندما لمحت بحذر الى مسألة الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمـانى الحر » تهربوا من الاجابة قائلين :

— « لا نستطيع أن نتحدث عن هذا بالضبط ، فمن ناحيتنا ، لا زالت الدعوة قائمة » •

ولم يقولوا شيئا أكثر من هذا ، ولكن كان فيه الكفاية •

علمت الآن : لا زال اليوغوسلافيين موافقين على سفر الـ ١٥٠ عضوا من « الشباب الألمـانى الحر » ، ومنظمة « الشباب الألمـانى الحر » موافقة أيضا ، فلم يبق الا احتمال واحد : كان الممثلون السوفييت ضد هذا السفر •

ولكن لمـاذا ؟ ما هو السبب ؟

ذهبت فى صباح ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٨ — كما هى عادتى فى كل صباح — الى قسم توزيع الجرائد على المدرسين ورؤساء الأقسام ، واضطررت الى الانتظار لحظة ، لأن الأستاذ « فيكتور شتيرن » كان يأخذ جريدته فى هذه اللحظة • كانت جريدة « تليغراف » موضوعة فوق الجرائد ، فظهر عنوان صفحتها الأولى بالخط العريض : « ستالين يقطع العلاقات مع تيتو — تيتو يتهم بالتروتسكية » •

— « وصل الهراء الى هذا الحد ! هذا اللغو الذى يكتبونه دائما ! ما معنى هذا ؟ تيتو يتهم « بالتروتسكية » ! جنون ! لقد طرد تيتو « التروتسكيين » من الحزب » • ثم طوى « فيكتور شتيرن » جريدته غاضبا ، وذهب •

ألقيت نظرة سريعة على العناوين المهمة فى الصحافة الغربية ، فعلمت :

لم تخطىء « التليغراف » ، فقد كان تفسيرا للوقائع الغريبة التى حدثت فى الأسابيع الأخيرة ، ولم ينشر شىء عن هذا الموضوع فى الجرائد الشرقية فى هذا الصباح •

أسرعت الى حجرتى ، فقرأت بعناية كل الأخبار التى نشرت فى الجرائد الغربية • كانت مختصرة جدا ، لدرجة أنى لم أستطع الحصول على صورة دقيقة للوضع ، غير أنه كان هناك شىء واضح : نشر قرار من مكتب الاستعلامات الشيوعى ، يتهم يوغوسلافيا بأخطاء وانحرافات سياسية •

ومن هذه اللحظة لزمت الجلوس بجانب الراديو ، فلم أتركه لحظة .
وبعد ساعتين وصلت صديقتى « الزى » ، وهى من « مجموعتنا الخاصة » ، وتعمل فى مبنى سكرتارية اللجنة المركزية . جاءت تزورنى فى « كلاين — ماخنوف » ومن الطبيعى أنها سمعت كل شىء ، ومرت على أصدقاء فى هيئات تحرير جرائد مختلفة : « لم يأت النص الحرفى بعد ، ولكن لابد أن يظهر فى جريدتنا غدا ، ويسيطر قلق كبير فى كل مكان ، ولكن لم يعرف شىء بالتحديد حتى الآن » .

جلسنا حتى ساعة متأخرة من الليل بجانب الراديو ، فلم يتضح شىء بعد .

وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٨ م — حصلت أخيرا على نص قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، فقرأت باهتمام الاتهامات الموجهة ضد الشيوعيين اليوغسلافيين ، فكان غضبى يزداد كل لحظة من بدائية هذه الاتهامات التى ليس لها أساس اطلاقا .

لم يكد يمضى على زيارتى ليوغسلافيا عشرة شهور الآن ، ولم أهتم منذ ذلك التاريخ فقط — بل قبل ذلك — بقراءة كل ما ينشر عن يوغسلافيا بصفة مستمرة ومن هنا لم يكن من الصعب ادراك أن هذه الاتهامات كانت خاطئة .

اتهم الشيوعيون اليوغسلافيون بالقومية الوطنية ، فقد شعرت — سواء كان ذلك فى الأحاديث مع الشيوعيين اليوغسلافيين ، أو أيضا فيما ينشرونه — بالروح العالميـــة ، التى كنت أبحث عنها فى الاتحاد السوفييتى ، فلم أجدها .

وقرأت فى القرار :

« حماية العناصر الرأسمالية فى القرية » .

فى حين أنى علمت أن الشيوعيين اليوغسلافيين لم يطبقوا قانون الاصلاح الزراعى بطريقة أكثر جدية من كل البلاد الأخرى فحسب ، بل كانت الدولة الأولى التى كونت جمعيات ديمقراطية شعبية لعمـــال الزراعة .

« موقف عدائى تجاه الاتحاد السوفييتى » .

فكرت عند ذلك : كيف تكتب النشرات اليوغسلافية عن الاتحـــاد السوفييتى ، وكيف يتخذ اليوغسلافيون الاتحاد السوفييتى نموذجا

لهم ، وكيف يضعون انجازاتهم الضخمة — بتواضع — فى مركز يلى وضع الاتحاد السوفييتى !

لم أستطع سوى الضحك على قولهم :

« النظام « البيروقراطى العسكرى » فى الحزب اليوغسلافى » •

يدافع الحزب السوفييتى اليوم عن ديمقراطية الحزب ، وهو الذى يتحكم فيه النظام البيروقراطى العسكرى ، والذى لم يعقد مؤتمرا حزبيا — مناقضا بذلك دستوره الخاص — منذ عام ١٩٣٩م ، أى منذ تسعة أعوام •

ثم عاد الهجوم ضد السياسة الزراعية اليوغسلافية ، وكانت هذه المرة بسبب :

« الانحراف المزعوم عن اليسار » •

فوصفت بأنها « لا تحتمل » ، بعد ما اتهموا الشيوعيين اليوغسلافيين قبل ذلك ببضعة فقرات بـ « النفعيين » •

قلت لنفسى : من يمكن أن يأخذ هذه الحجج مأخذ الجد ، أو يصدقها — ولكنى أخذتها مأخذ الجد فى اللحظة التالية ، غير أن ذلك ليس بسبب ما جاء فيها من أدلة ، بل بسبب التهديد والوعيد الذى ورد فى نهايتها :

« تنحصر واجبات القوى السليمة فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى الاعتراف بأخطائها بصراحة وصدق ••• أو اذا أثبتت الزعامة الحالية للحزب الشيوعى اليوغسلافى فى أنها غير كفء لذلك ، فيجب أن تنحى ، ويعين مكانها زعامة جديدة عالمية للحزب الشيوعى اليوغسلافى » •

كان هذا واضحا — بل بالغ الوضوح جدا • فالدولة الوحيدة فى أوروبا التى قامت بثورة ناجحة فى العشرين سنة الأخيرة ، ويتزعمها حزب شيوعى ، ينبغى أن ترغم الآن على الطاعة • وضح لى هذا بسرعة ، فقد عرفت السياسة السوفييتية معرفة كافية — أن الأمر لا يتعلق بالاتهامات الواردة فى القرار ، بل يتعلق بأن الشيوعيين اليوغسلافيين سلكوا طريقا مستقلا فى سياستهم الخاصة •

وقفت من أول لحظة — عن اقتناع تام — فى جانب الشيوعيين اليوغسلافيين المعتدى عليهم ، وضد أولئك الذين أصدروا ودافعوا عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى •

لم أكن الوحيد ، فلحسن الحظ ، لم يكن عندى عمل فى ذلك اليوم

الا فى فترة الصباح ، ثم سافرت الى برلين لزيارة أصدقائى • تحدثوا كلهم عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ولم يذكر أحد حصار برلين — الا نادرا — ذلك الحصار الذى كان قد بدأ فى ذلك اليوم ، على الرغم من أن كل الأحاديث كانت فى برلين •

دارت كل الأحاديث حول هذه المشكلة : ماذا سيفعل اليوغسلافيون ؟ هل سيخضعون ، فيعترفون بأخطـــاء لم يرتكبوها ، استسلاما لهذا التهديد ؟ أو سيكون عندهم الشجاعة لمعارضة هذا القرار ؟ •

جلس كثيرون حول الراديو بالتناوب ، حتى لا يفوتهم شىء : فقد كانوا ينتظرون رد اليوغسلافيين •

— « رفضوا بأدب » •

كانت هذه الجملة التى تناقلتها مجموعتنا همسا • رجعت صديقتى « الزى » فى المساء من المنزل المركزى للوحدة :

— « ان قصر الزجاج » مثل خلية النحل الآن ، فكلهم مضطربون اضطرابا فظيعا • بعضهم متعاطف مع اليوغسلافيين • ليتهم يرفضون ! »•

ثم جلسنا مرة أخـــرى حول الراديو ، مضت نصف ساعة ••• ساعة ••• وأخيرا سمعنا صوت مذيع الأخبار فى لندن :

« رفضت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى اتهامات مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ووصفتها بأنها غير صحيحة » •

لم تكهربنى أى أنباء قط مثل هذا النبأ • تعلن هيئة الاذاعـــة البريطانية :

« اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى ، ونقضت بنود الاتهام بندا ، بندا ، وأعلنت ، أنه لا يمكن الاعتراف بالأخطاء التى لم ترتكبها يوغسلافيا » •

كدنا نطير من الفرحة • أخيرا •• وأخيرا وجد الحزب الشجاعة لمعارضة زعامة ستالين ! ولكن سرعان ما ظهر قلقنا أيضا •

— « هل سيستطيع اليوغسلافيين الصمود ؟ من المؤكد أنه لن يكون اصرار على القرار » •

— « ربما تنحاز بلغاريا ، أو بلد ديمقراطى شعبى آخر الى جانب يوغسلافيا ، وربما أيضا بولنــدا ، وربما يحدث شقاق داخلى فى أحزاب الدول الديمقراطية الشعبية » •

تناقشنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحاولنا أن نسمع محطة بلغراد ، ولكن لم ننجح فى العثور عليها هذا المساء • ثم علمنا فى اليوم التالى أننا لم نكن الوحيدين ، الذين جلسوا حول الراديو مضطربين ، كى يحصلوا على توضيح لهذه الحقيقة الرائعة ، وهى أن حزبا شيوعيا رفض قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وبالتالى عارض ستالين • ولكن لم يزل شىء غائبا عنا : نص الرد اليوغسلافى على مكتب الاستعلامات الشيوعى • توقع المتفائلون أن تنشر جرائد حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الرد اليوغسلافى — وخاب ظنهم • اشترينا كل الجرائد التى كانت تصدر آنذاك فى برلين الغربية ، وسمعنا كل محطات الاذاعات الغربية ، وللأسف كانت كلها تذيع ملخصا للرد • صببنا اللعنات : « لو يذيعوا مرة النص الحرفى » ! •

وأخيرا حصلنا على الرد بعد ثلاثة أيام ، فقد طبع فى نشرة لوكالة « تانيوج » وكانت حتى ذلك الحين احدى النشرات الصحفية الكثيرة التى كانت ملقاة فى مكاتب هيئة تحرير الجرائد • وسرعان ما أصبحت نشرة وكالة الأنباء اليوغسلافية • أهم وأكثر النشرات — التى انتشرت آنذاك فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى — اثارة •

الآن •• نقرأ الحقيقة واضحة ، نقرأ ما لم نعتبر حدوثه قبل ذلك فى حدود الممكن : ترفض زعامة الحزب الشيوعى اليوغسلافى الاعتراف بقرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وتعلن أنه خطأ • فقد بنى النقد فى هذا القرار على ادعاءات غير دقيقة ، ولا أساس لها اطلاقا ، فهو محاولة للاساءة الى سمعة الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى الداخل والخارج ، عن طريق اشاعة الاضطراب فى الداخل ، وكذلك فى الحركة العمالية •

نقدت كل ادعاءات قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى بطائفة كبيرة من الحقائق الدامغة ، كما صيغ النقد بأسلوب واقعى هادىء •

ومما أثار اهتمامى بنوع خاص الرد على الاتهام المزعوم برقابة الخبراء المدنيين والعسكريين السوفييت فى يوغسلافيا ، فلم يرفض اليوغسلافيون الاتهام فقط ، بل أعلنوا من جانبهم أن المخابرات السوفييتية حاولت أن تستخدم عملاء لها فى الحزب الشيوعى المؤاخى لهم ، وقد أشار عدد كبير من أعضاء الحزب اليوغسلافى فى بياناتهم

لمنظمات الحزب الى أن منظمة هيئة الاستعلامات السوفييتية ، حاولت استخدامهم كعملاء لها • وترى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى أن هذا التصرف ازاء بلد ، يكون الشيوعيون هم الحزب الحاكم فيه غير مسموح به ، فهو يتعارض مع الاشتراكية ، ويؤدى الى افساد شعب جمهورية يوغسلافيا الاتحادية ، والى اضعاف وموت الحزب والدولة •

« ينبغى أن تقول زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ذلك أيضا » — كان هذا رد الفعل عند أحد القياديين فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، الذى وضع — مثلى — خطا عريضا تحت هذه الجملة •

وضح اليوغسلافيين فى النهاية أنهم ليسوا على استعداد للاعتراف بالاتهامات التى وجهها اليهم مكتب الاستعلامات الشيوعى ، ولكن فى نفس الوقت — وكانت هذه نقطة مهمة جدا بالنسبة لنا — سيستمر العمل فى بناء الاشتراكية بنشاط أكبر من ذى قبل •

ان من الصعب على الانسان فى الغرب أن يتصور ، مدى تأثرنا بهذه الجمل ، التى وردت فى الرد اليوغسلافى ، التى أدانت تبعية العبيد ، والتى رفض بها الاعتراف بالخطأ الذى لم يرتكب — وهذا يمس نظام النقد والنقد الذاتى بأكمله ، وبالتالى النظام الستالينى عموما • بدت لى كومضة ثورية ، عندما قرأت هذه الكلمات : « لا ترى اللجنة المركزية ، والحزب الشيوعى اليوغسلافى ، أن وحدة الجبهة الشيوعية قد تصدعت بواسطة رفض المناقشة حول أخطاء لم ترتكبها ، اذ لم تقم وحدة هذه الجبهة على الاعتراف بأخطاء ووشايات مفتعلة ، و « مفبركة » ، بل على واقعية عما اذا كانت سياسة الحزب عالمية حقيقة أم لا • غير أنه لا يمكن الازورار فى صمت عن الأمر الواقع ، وهو أن مكتب الاستعلامات الشيوعى قد نقض المبادىء التى أسس عليها ، والتى أوصت بحرية كل حزب فى قبول قراراته • لم يجبر مكتب الاستعلامات زعامة الحزب الشيوعى اليوغسلافى على الاعتراف بأخطاء لم ترتكبها فقط ، بل حث أعضاء الحزب الشيوعى اليوغسلافى على التمرد فى الحزب ، وعلى تصدع وحدة الحزب ، لا يمكن للجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى أن توافق على أن تناقش سياستها على أساس علاقات مبتدعة ، غير أخوية ، وبدون ثقة متبادلة •

كان لرد الشيوعيين اليوغوسلافيين دويا مثل دوى القنابل ، فحيثما توجهت وجدت الكل يتناقش فى هذا الموضوع • وكثير منهم كان يخرج نشرة أنباء وكالة « تانيوج » من جيبه ويقول لزميله هامسا : « نشرة أنباء وكالة « تانيوج » ، ولكن تعيدها لى غدا ، لأن زملاء آخرين يريدون قراءتها » • وانتقلت الأوراق من يد الى أخرى •

لم يكن هذا حتى الآن عملا غير شرعى ، اذ لم يتخذ حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى موقفا معينا ازاء هذه الأحداث حتى الآن ، وكان أمل البعض فى أن يقف على الحياد ، ولكن سرعان ما خاب أملهم •

***

حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى يتدخل

نشرت كل جرائد حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى فى ٤ يوليو سنة ١٩٤٨ م على صفحاتها الأولى ما أطلق عليه : « بيان حول المسألة اليوغوسلافية » •

أيد الاتحاد الاشتراكى قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، على الرغم من أنه ليس عضوا فيه :

« اتخذت السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمـانى موقفا من بيان مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية ، فاعترفت بأن ما جاء فيه من ادانة سياسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغوسلافى صحيح » •

وضح سبب الخلاف الحقيقى فى هذا القرار أكثر من وضوحه فى بيان مكتب الاستعلامات الشيوعى :

« تظهر أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، هدف الاتجاه ! عندما يتخلى حزب عمالى عن الأسس المسلم بها فى العلاقة الأخوية مع الاتحاد السوفييتى الاشتراكى ومع حزب « لينين » و « ستالين » • ومما هو كامل الوضوح أن أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى تظهر لحزبنا أن تأييد الاتحاد السوفييتى اليوم تأييدا كاملا هو الموقف الممكن الوحيد لكل الأحزاب الاشتراكية ••• » •

تصببت عرقا ، فقد عرفت — بسبب تعودى على اللغة الحزبية — مغزى هذا الكلام : زيادة تبعية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى للاتحاد السوفييتى ، وللسياسة السوفييتية ، ونهاية دعوى اتخاذ طريق ألمـانى مستقل الى الاشتراكية •

ثم جاءت كلمة الختام :

« وأخيرا •• تلوم السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمــانى ما قام به بعض الشيوعيين اليوغوسلافيين من توزيع منشورات فى برلين موجهة ضد البيان • وترى السكرتارية المركزية أن هذا عمل يتنافى مع آداب الحركة العمالية العالمية » •

كان هذا قمة عدم الوفاء ، اذ لم يتنازل حزب الاتحاد الاشتراكى فقط عن القيام بواجبه الذى يحتم عليه فى حالة الخلاف بين حزبين شيوعيين أن ينشر آراء كلا الجانبين ، بل احتج أيضا عندما فعل ممثلو الشيوعيين اليوغوسلافيين — من تلقاء أنفسهم — كل ما فى وسعهم ، لكى يبينوا موقف حزبهم •

أصبحت نشرات وكالة أنباء « تانيوج » الآن « عدائية » طبقا للموقف الرسمى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى ، ولكن كثيرا من قياديى الحزب اعتبروا ذلك تصرفا غير لائق : هل تعتبر منشورات حزب شيوعى « عدائية للحزب » ؟ وظهرت منشورات أخرى من وكالة أنباء « تانيوج » ، بينت بالتفصيل جوانب النزاع ، وأرسلت الينا باسم مستعار وفى ظروف مختلفة للتمويه • قال أحد قياديى الحزب تعليقا على هذه الطريقة بنغمة المسرور : « الخبرة خبرة ، فاليوغوسلافيون يفهمون هذه الأشياء » •

لم يكن الحصول على منشورات « تانيوج » من الأمور العسيرة ، فقد ظهرت كل المقالات اليوغوسلافية ، فورا باللغة الألمــانية ، ووصلت الى قياديى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى عبر قنوات متعددة •••

كان الوضع خطيرا لدرجة أنه دفع زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى الى اتخاذ قرار « لتقوية أنظمة الحزب ، وتطهيره من العناصر الفاسدة والمعادية » •

وطولب فى هذا القرار باتخاذ اجراءات طرد سريع ضد الفئتين التاليتين من فئات الأعضاء :

١ — الأعضاء الذين يجاهرون بموقف عدائى للاتحاد السوفييتى •

٢ — الأعضاء الذين يقفون موقفا عدائيا للحزب •

كان كل واحد يعلم طبعا أن المقصود بهذا فى المقام الأول ، أولئك الذين — كما كان يطلق عليهم فى الحزب آنذاك — « وضعوا أنفسهم

وضعا منحرفا فى المسألة اليوغوسلافية كان كثير من القياديين — الذين نحدثت معهم فى تلك الأيام — فى جانب اليوغوسلافيين — وان التزم بعضهم جانب الحذر التام — ولكن كان من رأيهم — على أقل تقدير — أنه لم يكن ينبغى أن يقف الاتحاد الاشتراكى كلية بجانب مكتب الاستعلامات الشيوعى • حتى المؤيدين لهذا المكتب ، لم يذهبوا الى حد تأييد كل ادعاءات القرار •

كان من الأشياء المهمة جدا ، حديث مع « باول فانديل » الذى كان آنذاك رئيس الادارة المركزية للتثقيف الشعبى ، ومنذ عام ١٩٥٣ م سكرتير اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

عرفت « فانديل » باسم « كلاسنر » من أيام مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقررت ألا أبوح برأيى •

اعتقد أنى من المؤيدين لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فى موقفه من المسألة اليوغوسلافية فبدأ يشكو لى من تأثير نشرة « تانيوج » :

— « تصور يا « فولف جانج » •• شىء غير معقول اطلاقا •• ذهبت أمس الى مكتبى ، وناديت على سكرتيرتى مرتين بصوت عال ، دون أن تتحرك اطلاقا ، ماذا كانت تعمل ! كانت تقرأ نشرة « تانيوج » ، هى رفيقة ممتازة ، كانت توصل لى — حتى ذلك الحين — كل النشرات المعادية للحزب » •

كان من الصعب على اخفاء سرورى ، وقلت لنفسى : اذن ، لا تقرأ نشرة « تانيوج » فى جهاز الحزب فقط ، بل فى الادارة المركزية أيضا •

أنا موجود الآن فى حجرة مدرسى السابق فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، علمنى لأصبح قياديا • كيف يمكنه الآن أن يشرح لى هذه المسألة برمتها ؟

— « لو تحدثنا عن هذا الموضوع بجدية ، يا « فولف جانج » ، فالمنشور فى القرار هو للجماهير طبعا • فلا ينبغى أن تؤخذ الأشياء حرفيا ، بل ادراكها بالحاسة السياسية » •

حاول « باول فانديل » تبرير قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى على مستوى عال ، لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن أن يوضع مثل هذا القرار أمام قيادى ، تلقى قسطا كبيرا من الثقافة السياسية •

— « كنت مهتما بمسائل البلقان سنين عديدة أيام عملى السابق فى سكرتارية البلقان يجب أن يتصور المرء هذه الأشياء على نحو آخر •• »

ثم بدأ بالقرن التاسع عشر ، بالصفات الخاصة للعلاقات الطبقية هناك ، ودور المثقفين الثوريين الوطنيين ، الذين هم حقيقة ثوريون ، ولكنهم لم يكونوا قط ماركسيين حقيقيين ، غير أن لهم نفوذا فى الحزب • وتحدث عن « التروتسكيين » الذين طردوا من الحزب اليوغوسلافى ، ولكن أفكارهم لم تختف اطلاقا ، وعن زعماء الحزب اليوغوسلافى ، الذين هم مناضلون مثاليون ، ولكنهم — لأنهم ظلوا طول حياتهم تقريبا مقيمين فى بلدهم — لا يملكون القدرة على « التثقيف الجاد » ومن كل هذه الأسباب مجتمعة — تحدث « باول فانديل » عن هذه الأسباب أكثر من نصف ساعة — نتجت الحالة التى أدت الى الوضع الراهن اليوم • كانت محاضرة قيمة ، ولكنها لم تقنعنى •

ربما يستطيع « أنتون آكارمان » توضيح هذه المشكلة لى ؟ فأنا أعتبره أذكى عقلية فى زعامة الحزب ، وهو الوحيد ، الذى يوصف بحق بأنه عبقرى الحزب — وان كنت أعلم أنه سيدافع أمامى عن القرار •

كنا نجلس فى « فيللته » ، فى حجرة أبدع الذوق الفنى فى تأثيثها •

— « مرحبا •• نأخذ أولا كأسا من « الكونياك » ! يبدو على وجهك أن عندك « مغص سياسى » •

— « نعم •• عندى •• أقصد ••• » •

— « لست فى حاجة الى الاستمرار فى الكلام ، فأنا أعرف السبب موضوع يوغوسلافيا » !

لم يترك لى الفرصة لأقول شيئا ، وبدا لى ، كما لو كان يخشى أن أقيم الأدلة على صحة موقف يوغسلافيا ، تجعل الدفاع عن موقفه أشد صعوبة •

انتصب واقفا ، وذرع الحجرة جيئة وذهابا • لم يحاول — مثل « فانديل » — سرد أسس تاريخية أو اجتماعية أو غير ذلك •

— « يا « فولف جانج » •• على الرغم من صغر سنك ، فلديك خبرة واسعة فى الحزب • لابد للمرء أن يتعود على بعض الأشياء ، اذا كنت مسافرا على سفينة ، قادها قبطانها بسلام — حتى الآن — بين الصخور والمخاطر ، ثم انحرف بها فجأة الى اتجاه آخر ، لا تعرف له سببا — أو ظهر لك أنه خاطىء — فيجب عليك فى هذه الحالة أن تثق فى القبطان ، لأنه يعرف بالتأكيد ، لماذا فعل هذا ! ويجب على المرء أن يظن أنه ربما كان عنده رؤية أحسن ، لأبعاد الموقف ، ويرى أن هذا التغيير فى

الاتجاه لا يضر ، بل يحميه — حتى ولو لم يتضح هذا التغيير بعد » •
لم ينظر الى أثناء حديثه ، بل كان نظره موجها الى أرضية الحجرة •
عندما أفكر اليوم فى هذا الحديث ، يبدو لى — فى كثير من النواحى — الصراع الداخلى فى « الأيديولوجية الستالينية » ، فهى أيديولوجية تدعى أنها تطبق النظرية الجدلية منطقيا ، وهى فى حقيقة الأمر تستخدمها كوسيلة لتبرير لاحق ، وهى أيديولوجية ينتسب اليها كل توجيه وثقافة ، من ناحية المبدأ الأساسى ، ويلتزم بتعريفاتها المحددة بدقة فى تدعيم كل الاجراءات تدعيما منطقيا ، لكى يدخل فجأة ، وبدون مقدمات — وبالذات عند مثل هذا الانحراف فى السياسة السوفييتية ، التى لم تعد قائمة على أساس منطقى — البواعث اللامعقولة الى الاعتقاد الأعمى فى « عصمة القبطان » •

* * *

الحملة ضد أيديولوجيـــة تيتو

واصلت القاء محاضراتى فى المعهد العالى للحزب بطريق روتينى فقط ، دون أن يكون عندى احساس قلبى نحو هذا العمل • وكانت أفكارى تتأرجح دائما نحو يوغوسلافيا ، نحو ذلك الحزب الذى حقق الآن ، ما كنت أحلم به فى معظم الأوقات : اقامة المجتمع الاشتراكى المستقل عن موسكو • كانت أفكارى وميولى وآمالى ، وتمنياتى مع الشيوعيين اليوغوسلافيين ، الذين هاجمهم مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وافترى عليهم •

زرت بعد يومين معارفى فى البعثة العسكرية اليوغوسلافية ، الذين تحدثت معهم قبل عام عن رحلتى الى يوغوسلافيا • قررت الانتظار حتى حلول الظلام ، والذهاب سيرا على الأقدام •

كلما اقتربت من شارع « فايـــل » — حيث توجد « الفيللات » التى يسكن فيها اليوغوسلافيون — كلما ازدادت حركة تلفتى ورائى ، لأرى ما اذا كان أحد يتبعنى •

وفجأة خطرت ببالى أفكار جديدة :

انسان تربى فى الاتحاد السوفييتى ، وأعد هناك ليكون قياديـــا فى الحزب ، وهو مدرس فى المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، يريد أن يزور شيوعيا يوغوسلافيا ، كان محاربا فى جيش

العصابات ، فيتحتم عليه أن يقوم بهذه الزيارة تحت جنح الظلام .
كان يمكن أن تفزعنى هذه الأفكار ، لو خطرت ببالى قبل بضعة أسابيع ، ولكنها الآن تحزننى فقط ، فقد هدأ شعورى الداخلى — أصبح واضحا لى تماما الآن ، معنى كونى قياديا فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

يسكن « باول ماركجراف » على الجانب الأيسر من شارع « فايل » وكان رئيس الشرطة فى برلين حتى عام ١٩٤٩ م . جاء من موسكو بالطائرة فى نفس اليوم الذى جئت فيه . نظرت الى الحارس الواقف أمام منزله ، عندما مررت به ، فاعترتنى احساسات مختلفة .

بدا التعب الشديد على صديقى اليوغوسلافى ، فقد أنهك فى هذين الأسبوعين ، منذ اذاعة قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى . عندما علم أنى من أولئك القياديين ، الذين لم يشكوا فقط فى صحة قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، بل يرفضونه كلية ، مد يده الى وسلم بحرارة ، ثم تعانقنا .

— « سيكون عندنا بعد بضعة أسابيع — فى ٢٩ نوفمبر — احتفال بذكرى ثورتنا ، وسنقيم حفلة فى السفارة بهذه المناسبة ، ويسرنى جدا لو شرفتنا بحضور هذه الحفلة » قبلت الدعوة .

وعندما عدت فى نهاية الأسبوع التالى من المعهد العالى للحزب الى سكنى فى « بانكوف » كانت هناك مفاجأة سارة لى ، وصل طرد من سويسرا ، ففتحته بسرعة متلهفا على معرفة ما بداخله ، فوجدت فيه مجموعة من الكتيبات باللغة الألمانية : خطب « تيتو » و « كارديلى » ومواد أخرى عن المؤتمر الخامس للحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، الذى عقد فى بلغراد بعد أسابيع قليلة من الانفصال عن موسكو .

لا شىء كان يمكن أن يدخل السرور على نفسى فى هذا اليوم مثل ما سرنى هذا الطرد . وبعد بضعة دقائق كنت غارقا فى قراءة هذه الكتيبات .

انتفضت فجأة فزعا ، عندما دق طارق على الباب ، وكانت هذه أول مرة يصيبنى مثل هذا الفزع فى برلين الشرقية عند سماعى طرقا على الباب .

كان فزعى غير ضرورى ، فقد وقف أمام الباب زائر جاء على غير ميعاد .

وعندما عدت الى سكنى فى المعهد العالى للحزب ، أحكمت الاغلاق

على هذه الكتيبات ، وكل النشرات التى وصلتنى حتى الآن من وكالة « تانيوج » ولأول مرة أخفى شيئا — وأنا مدرك لهذا العمل — بعيدا عن أعين رقباء الحزب • لم أشعر بأى ذنب اطلاقا وأنا أقوم بهذا العمل ، لأنى عرفت أن الحق فى جانب الشيوعيين اليوغوسلافيين — وليس فى جانب مكتب الاستعلامات الشيوعى • ولا يمكن أن تكون هناك أى محاولة أخرى للتبرير فى هذه المسألة ، فقد وصلت الى قرار حاسم •

لم يكن بيان اللجنة العليا للحزب فى ٣ يوليو ، وقرار موقفه بالتفصيل من النزاع الذى صدر فى ٢٩ يوليو هما النهاية ، بل كانا بداية الحملة ضد الشيوعيين اليوغوسلافيين ، وضد « أيديولوجية تيتو » •

عقدت ندوة خاصة للجنة العليا للحزب فى سبتمبر سنة ١٩٤٨ لمناقشة هذه المسألة • كانت هى الندوة الثالثة عشر ، وكان الهدف الوحيد لعقدها هو ادانة الشيوعيين اليوغوسلافيين • أيد قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى من جديد — وللمرة الثانية — فى بيان رسمى ذليل ، وأعلن الانحياز التام الى الاتحاد السوفييتى •

أعلن بعد انتهاء الندوة بيان طويل تحت عنوان ضخم : « الدلالة النظرية والعملية لقرار مكتب الاستعلامات الشيوعى عن الوضع فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، ونظرية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى » •

شكرت اللجنة العليا لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى بطريقة مؤسفة « المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى ، وخاصة الرفيق « ستالين » لأنهم « كشفوا فى الوقت المناسب أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى » • ووصف القرار البدائى الملىء بالمفتريات ، الذى أصدره مكتب الاستعلامات الشيوعى ، بأنه « خدمة رائعة للنظرية الماركسية » •

ولوحظ أن مدلول وثائق مكتب الاستعلامات الشيوعى لم يدافع عنها سوى قيادات الحزب فى الاتحاد الاشتراكى •

انتقد البيان « ظواهر التقهقر أمام الأيديولوجية المعادية » — والمقصود من ذلك بيان الشيوعيين اليوغوسلافيين — ، ويرى أنه « لم يفعل ما فيه الكفاية » لتبصير أعضاء الحزب بتجارب الكفاح من أجل الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ، وبالدروس المستفادة من تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، وبالدور القيادى للاتحاد السوفييتى من

أجل السلام ضد الاستعمار ، وبدور الجيش السوفييتى فى معارك التحرير •

ثم سلب منى آخر شىء كان يربطنى بالحزب : نظرية الطريق المستقل الى الاشتراكية : « تأكدت اللجنة العليا أن فى الاتحاد الاشتراكى الألمانى « نظرية » خاصة ، تدعو الى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ••• ان محاولة تشييد مثل هذا الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية ، يمكن أن يؤدى الى اهمال المثال السوفييتى الكبير » •

عبر كثير من قادة القمة الكبار فى الحزب عن آرائهم حول « هذا الخط الجديد » ، وصمت « آكارمان » — الذى ارتبط اسمه بنظرية اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية — عن الكلام فى بادىء الأمر ، فلم يعلق بشىء ، ولكنه خرج عن صمته فى ٢٤ سبتمبر ، فنشر مقالا طويلا تحت عنوان : « حول الطريق الممكن الوحيد الى الاشتراكية » وصب فيه كل ما عنده حتى الآن من المفهوم الماركسى حول طريق ألمانى خاص الى الاشتراكية : ومما جاء فيه : « تتضمن هذه النظرية عناصر تحديد الطبقة العاملة ، وتحديد الحزب البلشفى السوفييتى » •

أدت ادانة الشيوعيين اليوغوسلافيين عندى الى انفصال داخلى من حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد قطعت هذه الادانة الخيط الأخير ، الذى كان يربطنى بذلك الحزب ، الذى اشتركت بحماس زائد فى تأسيسه ، وفى الاستعدادات التى سبقت هذا التأسيس • كانت أسابيع وأشهر ثقيلة ، فقد استمرت الحملة ضد اليوغوسلافيين ، والاساءة الى أولئك الذين روجوا لنظرية الطريق الألمانى المستقل الى الاشتراكية فى ازدياد مطرد •

ألقى « فريد أولسنر » المحاضرة الفاصلة ، وهو الذى بدأ يظهر — بعد النقد الذاتى لـ« آكارمان » — بطريقة واضحة ، كممثل أيديولوجية حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى • وبعد الانتهاء من المحاضرة ، تحدث عدد من المعقبين ، فسار كل شىء كما هو مرسوم من قبل ، ولاحظت أن المناقشة كانت معدة ومنظمة من قبل ، لأنى كنت أعرف هذه الطريقة من بعض الاجتماعات فى الاتحاد السوفييتى • لم تحدث مثل هذه الطريقة من قبل فى المعهد العالى للحزب ، فدل هذا على أن

الاتحاد الاشتراكى الألمانى قد مضى خطوات فى طريق تطبيق نفس أسلوب الحزب الشيوعى السوفييتى •

ومن هنا لم يكن من الصعب على معرفة ما سيأتى من خطوات ، فسوف يتلو ذلك — طبقا لخطة السير المرسومة — دعاية لتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، ثم يتلوها تطبيق عملية « النقد الذاتى بشكلها الستالينى » •

وفى النهاية ستبدأ عملية « تطهير » داخل الحزب ، فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى : سيطرد القياديون ، أصحاب الآراء الذاتية الصادقة ، من وظائفهم ، ويطردون من الحزب أيضا ، وسيقبض عليهم بعد توجيه اتهامات باطلة اليهم ، بأنهم عملاء •

* * *

عودة اللقاء مع أمى

قضيت أجازتى فى أغسطس عام ١٩٤٨ م فى بيت استجمام «مخصص لطائفة معينة » فى « سينوفيتس » عند بحر البلطيق •

كنت مستلقيا على الرمل ناعسا ، عندما سمعت صوتا يصيح من ورائى : « تليفون من برلين » •

تحدث على الطرف الآخر من التليفون أحد القياديين فى قسم التدريب : « وصلت أمك •• عد بسرعة الى برلين » !

وبعد بضعة ساعات كنت جالسا فى العربة متوجها الى برلين ، كى ألتقى بأمى مرة أخرى بعد انفصال دام ١٢ عاما •

ماذا حدث منذ ذلك المساء ، عندما رأيتها آخر مرة فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٣٦ ! بينما أنهيت فى هذه المدة دراستى فى المدرسة السوفييتية ، والتحقت بالمعهد العالى ، وانضممت لمنظمة الشباب السوفييتية ، ثم تخرجت من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فأصبحت قياديا مسئولا فى حزب الاتحاد الاشتراكى • بينما حدث لى ذلك كله ، رأت أمى الحياة فى الاتحاد السوفييتى من جانب آخر : لقد قضت اثنى عشر عاما فى معسكرات العمل الاجبارية السوفييتية •

كان محكوما عليها من الناحية الرسمية بخمس سنوات « فقط » وكانت تلك أبسط العقوبات فى فترة التطهير ، التى امتدت من عام

١٩٣٦ حتى عـام ١٩٣٨ م • وكان المفروض أن تنتهى عقوبتها فى أكتوبر سنة ١٩٤١ م ، ولكن توقف الافراج بعد بداية الحرب عن كل المسجونين السياسيين ، الا فى بعض الحالات الاستثنائية النادرة •

وأخيرا ! بدا — بعد نهاية الحرب — أن وقت الافراج عنها قد حان ، فحاولت مرارا القيام بعمل أى شىء مع الادارة العسكرية ، ولكنى كنت أتلقى فى كل مرة صدودا واعراضا • وأخيرا اتجهت الى « فيلهيلم بيـك » — عندما كنت ضيفا عنده ذات مساء — الذى كان يعرف أمى من أيام رابطة « سبارتاكوس » ، وانقلاب « كاب » فى عام ١٩٢٠ م •

قال لى « بيـك » : « لا يمكن عمل شىء الآن يا « فولف جانج » ! ولكننا سنستمر فى المحاولة فاذا لاحت فرصة ، فسوف أخبرك » •

وأخيرا طلب منى « بيـك » فى فبراير سنة ١٩٤٧ م الحضور اليه فى « فيللته » ، فى « نيدرشونهاوزن » •

— « توجد الآن فرصة للافراج عن والدتك ، وحضورها الى هنا ، ويستحسن أن تكتب رجاء بهذا المعنى » •

أعطيت فى اليوم التالى طلب الرجاء لسكرتارية « فيلهيلم بيـك » وانتظرت مؤملا أن يأتى يوم اللقاء ، ولكنى وضعت فى تجربة صعبة جدا ، وان كان وضع أمى أكثر صعوبة •

فالشىء الوحيد الذى سمعته ، أن المسألة « أخذت مجراها » • ولم أكن أعلم آنذاك أن أمى نفيت فى هذه الأثناء الى مزرعة حكومية صغيرة فى منطقة « ألتير » حيث كافحت كفاحا مريرا مع رجال السلطة المحلية التابعين لوزارة الداخلية السوفييتية ، لتنفيذ ما وافقت عليه موسكو ، ومضى أسبوع وراء أسبوع ، وشهر عقب شهر ، حتى حصلت أمى فى يوليو سنة ١٩٤٨ م على التصريح بالسفر من وزارة الداخلية السوفييتية ، فوصلت بعد ستة أسابيع — فى أغسطس سنة ١٩٤٨ م — الى برلين • قضت ثلاثة عشر عاما فى الاتحاد السوفييتى ، ومنها اثنى عشر عاما تقريبا فى السجون والمعسكرات وفى مناطق النفى • عندما وصلت الى مبنى الحزب ، استقبلنى أحد القياديين وقال لى :

— « أمك تنزل الآن فى منزل الضيافة التاسع للسكرتارية المركزية » •

لم أرها منذ اثنى عشر عاما ، ولذا لم أستطع الانتظار لحظة ، فاندفعت جريا الى هناك • وعندما فتحت باب حجرتها ، انتفض جسمها

فزعها ، ونظرت الى بابتهاج مشوب بالارتياب • لا زالت صورة ابنها فى ذاكرتها ، صورته قبل اثنى عشر عاما •

ولكنها هى الأخرى تغيرت كثيرا : فهى تثير المشاعر التهابا ، ويبدو عليها مظاهر الآلام ، التى تحملتها هذه السنين الطويلة • وعندما سمعت وقع أقدام شخص يصعد على السلم يصيح بأعلى صوته ، انتفض جسمها من شدة الفزع • لاحظت أثناء تجاذبى معها أطراف الحديث أنها تحطمت ، وأن الفزع والرعب مستول على مشاعرها ، وكثرت أسئلتها التى تنبىء عن الخوف والقلق عندها : هل يجوز هذا ؟ هل يسمح لى بذلك ؟ أين ينبغى على أن أثبت حضورى ؟ ، ولم ترو لى الا فيما بعد عما حدث لها منذ مساء يوم ٢٥ وليلة ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، عندما قبض عليها فى موسكو •

احتجزت أولا فى سجن موسكو ، ثم حكم عليها بعد ثمانية أشهر — أى فى يونيو سنة ١٩٣٧ م — بخمسة أعوام ، فأرسلت الى جمهورية « كومى » ثم وصلت أخيرا بعد قضاء مدة طويلة فى عدة معسكرات حجز احتياطى ، الى « كوتشميس » فى يناير سنة ١٩٣٨ م ، وهو تابع لمنطقة معسكر « فوركوتا » وقضت هناك وفى معسكر « العجزة » أكثر من ثمانية أعوام من حياتها ، ثم أفرج عنها أخيرا فى ابريل سنة ١٩٤٦ م — أى بعد تسعة أعوام ونصف من تاريخ القبض عليها — ولكنها أرسلت مع ألمانيين آخرين الى « كوشفا » عند « بيتشورا » ، حيث فرضت عليهم الاقامة الجبرية فى تلك المنطقة ، وأخبرت بأمر وزارة الداخلية ، بأنه لا يجوز لأى ألمانى الرجوع الى محل اقامته السابق ، بل سيرحلون جميعا الى سيبيريا •

خير الألمانيون بين الاقامة فى منطقتين فقط هما : « أومسك » و « ألتاى » ، فاختارت الاقامة فى القرية الصغيرة « كالمانكا » فى سلسلة جبال « ألتاى » • وصلت أمى الى هناك فى مايو سنة ١٩٤٦ م ، ولكن حالتها اشتدت سوءا ، أكثر مما كانت فى معسكر « فوركوتا » • وأخيرا حصلت — بعد أكثر من عامين — على تصريح بالخروج فى ١٩ يوليو سنة ١٩٤٨ م فعادت مع امرأتين أخريين الى برلين عن طريق موسكو (١) •

---

(١) كتبت أمى كتابا عن حياتها بعنوان : « الحياة المسروقة » ونشرته دار النشر الأوروبية فى « فرانكفورت — ماين » •

قضى كلانا — وان كان تحت ظروف مختلفة — جزءا كبيرا من حياته فى الاتحاد السوفييتى ، ولعبت مشاكل النظرة الى الحياة دورا حاسما فى حياة أمى ، كما لعبت أيضا فى حياتى ، ولهذا كان من المسلم به أن ما تناولناه فى حديثنا السياسى الأول هو موضوع « مشكلة النظرة الى الحيـــاة » •

كانت بداية حديثنا عسيرة ، فقد باعدت الاثنى عشر عاما — التى قضتها فى السجن ، والتى قضيتها كعضو فى منظمة الشباب السوفييتية ، وكقيادى — بين وجهتى نظرنا • فرفضت بشدة أول تعبير معارض ، تفوهت به فى حديثنا الأول ، اذ لم أرد بأى حال من الأحوال ، أن أتأثر فى تفوقى السياسى بواسطة مصير أمى • ولم أتنازل عن هذا الموقف الا بعد مضى أسبوع ، فعندما زارتنى فى المنزل ، قررت التنازل عن ترددى الذى تمسكت به حتى هذه اللحظة ، فأردت مصارحتها بأننى — الذى أبدو ظاهريا مقتنعا بالخط ، وبأنى القيادى الذى تربى فى الاتحـــاد السوفييتى — أقف موقف المعارضة فى السر ، وأتعاطف مع يوغوسلافيا •

نظرت الى بعين مندهشة ، مبهورة بما سمعت ، ثم قالت وهى تنفث زفرة ارتياح : « لقد ظننت أنك أيضا من المتعصبين للحزب » •

رويت لها عن الآمال التى راودتنى فى موسكو فى عام ١٩٤٤ م ، وعن دعوة « آكارمان » الى اتخاذ طريق ألمـــانى مستقل الى الاشتراكية ، وعن « مغصى السياسى » ، وقبل هذا كله عن يوغوسلافيا ، التى انفصلت عن موسكو ، لتسلك طريقها الذاتى الى الاشتراكية •

كان كلانا من المعارضين « للستالينية » ، ولكن معارضتى تتصل بجذور مختلفة عن جذور معارضتها ، وتتعلق بمشاكل أخرى •

كانت تتخيل آلام ، ومآسى الذين كانوا معها فى السجن أمام عينيها ، فكانت ثورتها بالتأكيد أشد من ثورتى ، تحدثت عن ملايين الناس الموجودين فى معسكرات العمل الاجبارية ، وعن عشرات الآلاف ، ومئات الآلاف من الثوريين القدامى الذين اتهمهم « ستالين » بأنهم أعداء الثورة فقبض عليهم ، وعن الضحايا التى لا يمكن لأى عقل أن يتصورها وعن المثالية التى حرقت حتى طمست معالمها •

— « ان الاتحاد السوفييتى ليس بلدا اشتراكيا » !

كان هذا أكثر بعدا مما عندى ، فقد كانت معارضتى محصورة فى مسألة الطريق المســتقل الى الاشتراكيــة ، والمســاواة بين الدول

الاشتراكية • ولم أزل — رغم كل ذلك — مقتنعا بأن الاتحاد السوفييتى بلد اشتراكى • فقرب هذا الحديث بعد المسافة بيننا •

تعودت أمى على الحياة بعد وقت قصير جدا ، فأرادت أن تستأنف العمل •

قالت لى : « لقد قدمنا — أنا والسيدتين اللتين وصلتا معى من الاتحاد السوفييتى — طلبات الى ادارة التدريب ، وسوف نتلقى الرد فى الأيام القليلة القادمة » •

كانت رغبة أمى أن تحصل على عمل « محايد » ، أى بعيد ما أمكن عن الحقل السياسى ، وأخيرا عينت فى دار النشر : « الثقافة والتقدم » ، أما زميلتاها فقد انضمتا مباشرة الى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى وحصلتا على عمل سياسى ذو مسئولية كبيرة •

لم تكن هذه حالة فردية ، فقد تعرفت منذ عام ١٩٤٥ م على عدد كبير من القياديين الذين قاسوا كثيرا فى الاتحاد السوفييتى ، أو الذين طحن عضو من أفراد أسرهم تحت وطأة الجوع والقسوة فى معسكرات العمل فى الاتحاد السوفييتى ، ومع ذلك ظلوا على حالهم السابق ، مخلصين لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى وللاتحاد السوفييتى •

كانت أول مقابلة لى مع هذا النوع من الناس فى يونيو سنة ١٩٤٥ م • كنت جالسا ذات يوم قبل الظهر مع « باول فانديل » فى المبنى رقم ٨٠ فى شارع « برينسين » ، عندما دخل علينا قيادى فى الحزب الشيوعى كان يعرف « باول فانديل » من قبل ، فحياه بحرارة • كان ابن هذا القيادى قد سافر الى الاتحاد السوفييتى ، وتربى هناك •

— « متى يعود ابنى » ؟ سأل القيادى الذى قضى سنوات عديدة فى معسكرات الاعتقال النازية ، ويريد أخيرا أن يرى ابنه •

فأجابه « باول فانديل » بهدوء : « لن يعود » •

— « كيف ذلك ؟ ماذا حدث » ؟ لا زالت قصة هذا القيادى الفظيعة فى ذاكرتى حتى اليوم ، ولن أنساها •

— « لقد ارتكب هناك بعض الحماقات ، ولكنى آمل ألا يؤثر ذلك عليك » •

ذرفت الدموع من عينى قيادى الحزب الشيوعى ، ولكنه مسحها بسرعة •

— « لا •• لا •• طبعا لن يؤثر » •

قال ذلك بصوت متقطع وحزين ، ثم واصل حديثه بنغمة مختلفة تماما : « والآن •• نريد أن نتحدث عن العمل » •

فعين فى وظيفة ذات مسئولية كبيرة ، ودافع أيضا عن اقتناع تام عن سياسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، وعن الصداقة مع الاتحاد السوفييتى ، على الرغم من أن هذا النظام أخذ منه ابنه •

تعرفت أيضا على قياديين وقياديات كانوا هم أنفسهم فى السجون أو فى معسكرات العمل الاجبارية السوفييتية ، ثم عادوا الى برلين الشرقية بعد الافراج عنهم ، وهناك خدموا حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، والاتحاد السوفييتى باخلاص •

فالارتباط بالحزب — وخاصة عند القياديين الذين تلقوا ثقافة سياسية — قوى الى درجة لا يستطيع انسان فى الغرب — مطبوع بمصيره الذاتى ، ويتأثر بالأحداث الشخصية أكثر من أى شىء سواها — أن يتصوره ، فالقياديون الذين تلقوا ثقافة سياسية فى مدارس الحزب يظلون فى معظم الأحوال بعيدين عن التأثر — على خلاف وضع الانسان فى الغرب — بتجـاربهم الشخصيـة ، ويتمزق ارتباطهم بالحـزب و « بالستالينية » فقط ، عندما يتوصل التفكير النظرى العميق الى لب الأيديولوجية « الستالينية » •

أقامت أمى فى حجرة على مسافة قريبة من سكنى فى « بانكوف » وكنت أقضى دائما نهاية الأسبوع عندها •

تعودت على الأحوال الجديدة بسرعة مدهشة ، وكنت أستطيع هنا فقط أن أفرغ كل ما فى قلبى بصراحة ، فبحت لها لأول مرة عن خطتى للهرب الى يوغوسلافيا •

فقالت لى : « اذا هربت ، فيجب أن أسرع بالرحيل من هنا » •
لم نتناقش طويلا ، فقد كانت موافقة •

وسألت فقط : « متى » ؟ ، تعودت فى حياتها على أشياء كثيرة •
— « سأمكث بقدر ما أستطيع ، فأنا أريد أن أبين قبل ذلك حقيقة النزاع مع مكتب الاستعلامات الشيوعى ، لأكبر عدد ممكن من الرفقاء » •
— « هذا الأسبوع ؟ •• الأسبوع القادم » ؟ سألتنى فقط عندما زرتها فى نهاية الأسبوع •

— « انتظرى قليلا •• وأعدى كل شىء ، وسوف أخبرك فى الوقت المناسب » •

— « اذا جاء موعد السفر مفاجئا ، وبسرعة ، فأرجو أن تتصل بى تليفونيا وقل لى فقط ، متى سترسل مقالك الى ادارة تحرير الجريدة ، فسوف أفهم من ذلك موعد هروبك » •

تحدثت أمى بتلك النغمة التى كانت تتحدث بها أيام عملها فى الجهاز السرى • فقلت لها : « موافق » •

فوضحت هذه المسألة •

● ● ●

طبقا لجدول مواعيد السفر السوفييتية

— « تغييرات كبيرة فى الطريق » •

همس « فريد أولسنر » فى أذنى بهذه الكلمة ، بعد اجتماع فى المعهد العالى للحزب ، ألقى فيه محاضرة •

لم يستطع « فريد أولسنر » أن يشعر بقوة « المغص السياسى » عندى فى ذلك الوقت ، فقد وثق بى ، لأنى زميله فى العمل سابقا ، ولأنى المدرس الوحيد فى المعهد العالى « كارل ماركس » ، الذى تثقف فى الاتحاد السوفييتى •

أخرج بحذر شديد برقيتين من حقيبته ثم قال : « اقرأ » !

كانا مرسلين من « بوخارست » من مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية •

كان فى أحدهما : بيان بالمنشورات التى صدرت حتى الآن عن تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى والعدد الاجمالى المطبوع • وأصدر الآخر — فى صيغة سؤال — تعليمات للعناية بصورة أكبر بدراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى •

— « المسائل واضحة بما فيه الكفاية ، أليس كذلك » ؟

هذا أمر لا شك فيه • ثم ظهر بعد عشرة أيام قرار مطابق من اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، عن تقوية دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى : « فالطبقة العمالية الألمـــانية •• يجب عليهـــا أن تتعلم بنوع خاص من تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ••

فلم يوجد فى التاريـــخ قط ، حزب أحرز نصرا عظيـــما مثل الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى « البلشفى » ، فهو بهذا النصر ، أصبح زعيم الحركات العمالية العالمية بلا منازع ، وزعيم الكفاح العالمى ضد الاستعمار » •

انقضت التعليمات لدراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى على الاتحاد الاشتراكى كالمقرعة ، فألزم كل القياديين بحضور دورة دراسية قصيرة • ووجهت صحافة الحزب لشن حملة اعلامية لهذه الدراسة ، وأنشىء مكتب خاص للاستشارات فى دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، ونشرت المقالات فى الكراسة الثقافية ، الاشتراكية — وكم كان فرحى ، لأنى لم أعد المحرر المسئول فيها — حول هذا الموضوع وتغيرت الخطة الدراسية التى وضعناها فى عام ١٩٤٦ م لمدارس المراكز ، لكى يفسح فيها « مجالا كبيرا » لدراسة تاريخ الحزب الشيوعى ، فوجب على الدارسين فى هذه الدورة الدراسية الصغيرة دراسته بتعمق • وأصابتنا هذه الموجة بصفة خاصة : يجب انشاء دورة دراسية قصيرة فى المعهد العالى للحـــزب « كارل ماركس » تكون الأســـاس للخطط الدراسية •

كنت راضيا دائما ، لأن مستوى الدراسة فى المعهد العالى للحزب كان عاليـــا • ولكن ماذا سيحدث الآن ، لو ألزمنا بجعل الكتاب البدائى والمحرف تاريخيا — كما عرفت آنذاك ، وان لم يكن من كل الجوانب — أساسا للمناهج الدراسية • لم أكن الوحيد الذى نفذ هذه التعليمات وهو كاره لها • فقد هز كثير من الدارسين والمدرسين — باستثناء المتعصبين للحزب — رؤوسهم أسفا ، وصرح بعضهم بمعارضته لأصدقائه المقربين • وصف أحـــد المدرســين — وكان من حزب الديمقراطيين الاشتراكيين — تاريخ الحزب الشيوعى ، بأنه كتاب أساطير ، وبين آخر : « يمكن أن تستخدم الدورة الدراسية القصيرة كمدخل على أكثر تقدير ، ولكن يجب أن تهتم الدراسة فى المعهد العالى للحزب فى المقام الأول بالمصادر الأصلية » •

ولم أستطع أنا أيضا أن أغلق فمى ، فقد أجبت على سؤال وجه الى من طالب فى قاعـــة البحث : « يجب علينا عند بحث مسألة الدورة الدراسية القصيرة فى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى أن ننظر الى الأشياء فى اطارها التاريخى ، فقد ألف الكتاب فى عام ١٩٣٨ م للعامة من

الشعب السوفييتى ، وقد لعب بلاشك دورا هاما • فاذا قيمنا ما فى الكتاب اليوم — بعد عشر سنوات من صدوره — من أحداث ، فسنرى أنها وقعت — طبقا للمقياس الطبيعى — بصورة أخرى • ومما لا شك فيه أن من الأحسن فى وضعنا الحالى أن نأخذ هذه الدورة الدراسية كمقدمة فقط لدراسة هذه الأحداث من منابعها » •

اقتنع الطلبة بهذه الاجابة ، ولكنى لم أحس بأن نظام التجسس وجد مدخلا الى المعهد العالى للحزب ، واستخدم بعض الدارسين للتجسس على ما يقال فى المحاضرات وما يدور فى المناقشات •

انتشر خبر مؤسف بعد يومين بين المدرسين : « سينعقد اجتماع هام للمدرسين • ستجرى فيه عملية نقد ونقد ذاتى بسبب تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى » •

ففكر كل واحد فيما صدر منه فى الأيام الأخيرة •

انعقد فعلا اجتماع فوق العادة للمدرسـين ، وألقى « رودولف لينداو » كلمة الافتتاح ، وكانت نغمتها حادة ، تلك النغمة التى لم أسمعها فى محيط القياديين الكبار منذ بضـعة أعوام • ذكرتنى كلمته بتلك الأمسيات التى عقدت فيها جلسات النقد والنقد الذاتى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • ورنت كلمات فى أذنى كالمطارق : « الدور التحريرى الكبير ، الذى قام به الجيش السوفييتى •• لا تراجع أمام الأصوات الوطنية ••• خيانة زعامة الحزب اليوغوسلافى ••• نظرية الطريق الألمـانى المستقل الى الاشتراكية ، معادية للحزب ••• تقوية دراسة تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ••• الظواهر المريبة بين أعضاء هيئة التدريس ••• ضرورة النقد والنقد الذاتى ••• بخس الانتاج الكبير فى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى •••• — » ثم بضغط كبير على مخارج الحروف — « الاشارة بوضوح •••• نقلتها جهات موثوق بها ••• الى أن « ستالين » هو الذى ألف تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ••• » •

جلس المدرسون ورؤساء الأقسام فى المعهد العالى للحزب يسمعون هذا الكلام بأعصاب متوترة • وتكهرب الموقف عندما أعلن أنه قيل : ان مؤلف تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى هو « ستالين » •

ولكنى عرفت أن هذا كذب ، فعندما سمعت هذا لأول مرة قبل بضعة أسابيع خيل الى أنى قرأت فى موسكو أثناء فترة حركة التطهير خطابا

من « ستالين » الى مؤلفى « الدورة الدراسية القصيرة » • وبعد البحث طويلا ، وجدت هذا الخطاب ! نشرت « برافدا » هذا الخطاب فى ٦ مايو سنة ١٩٣٧ م • قرأت — وأنا أهز رأسى أسفا — بخطاب الرفيق « ستالين » الى مؤلفى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ؛ فلم يكن هناك مجال للشك : لم يكن « ستالين » هو المؤلف ! وطبيعى أنى احتفظت بهذا لنفسى ، فلم أخبر به أحدا ، ولم أشر اليه أدنى اشارة فى الاجتماع •

بدأت أول جلسة للنقد والنقد الذاتى لمدرسى معهد « كارل ماركس » العالى • انتهى « رودولف لينداو » من كلمته ، وظهـر البعض فى « المناقشة » التى جرت بعدها ، كما لو كانوا قد استعدوا لها قبل ذلك ، ونظموا تنظيما دقيقا فى مناقشتهم ، فقد تلا « رودولف لينداو » مدرس كان من الديمقراطيين الاشتراكيين ••

جلس هؤلاء الذين لم يشاهدوا هذه العملية من قبل مندهشين ، وبدا أنهم لا يصدقون أعينهم فيما ترى • ولمـا كانوا غير متعودين على النظام الستالينى فى عملية النقد والنقد الذاتى ، فقد حاولوا تبرير موقفهم ، ووصل الحد بواحد منهم الى أن يقول : « يجب أن تنظر الى هذه الأشياء نظرة واقعية » • كنت مشفقا عليهم ، فليس عندهم أى فكرة عن هدف عملية النقد والنقد الذاتى •••

سرى التحول الى الطريق السوفييتى بخطوات واسعة ، فبعد الهجوم على نظرية اتخاذ طريق ألمـانى خاص الى الاشتراكية ، وتقرير دراسة تاريخ الحزب الشـيوعى السوفييتى كمادة أسـاسية فى كل المناهج الدراسية ، وتطبيق عملية النقد والنقد الذاتى ، « اكتشفت » فى منتصف أكتوبر سنة ١٩٤٨ م « شتاخانوف ألمـانى » طبقا للنموذج السوفييتى •

ففى ١٣ أكتوبر طلب « أدولف هينيكى » أن يرفع الانتاج اليومى فى منجم « كارل ليبكنيشت » فى منطقة الفحم فى « سفيكاو » الى ٣٨٠ ٪ • وسرعان ما صار هذا — مماثلا لعام ١٩٣٥ م فى « شتاخانوف » — انطلاقا « لحركة قوية » لا زلت أذكر جيدا ، كيف درسنا فى المدارس السوفييتية رقم « شتاخانوف » القياسى فى الانتاج فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٥ م فى منجم « ارمينو » بالقرب من « ستالينو » — وصل انتاج « شتاخانوف » الى ١٤٠٠ ٪ — مرارا وتكرارا حتى الملل •

كان طلب « هينيكى » متواضعا ، فلم ينتج ١٤٠٠ ٪ ، بل ٣٨٠ ٪ ، ولكن ما عدا هذا فقد كان كل شىء متشابها •

عرفت فى الاتحاد السوفييتى شيئا مشابها عن خلفيات حركة « شتاخانوف » : كم يحتاج المرء من الزمن لتجهيز منطقة عمل معينة ، وخاصة خلق ظروف العمل المطلوبة ، اذ تعمل فرقة بأكملها فى انجاز متطلبات العمل ، كى يصلوا الى الرقم القياسى •

لم يعد عندى سراب خادع حول هذا العمل ، ولذا كنت مندهشا من بساطة الأسلوب ، الذى أخبرنا به « رودولف لينداو » فى اجتماع خاص بأعضاء هيئة التدريس عن « حركة — هينيكى » الناشئة :

نريد أن نتحدث هنا بوضوح • نحن الآن فى مرحلة تؤكد ضرورة — بواسطة الموقف الجديد تجاه العمل — تحقيق نهضة كبيرة جديدة فى انتاج العمل • وطبعا لن يحدث هذا من تلقاء نفسه ، بل يجب أن يخطط له بعناية ، وينظم تنظيما دقيقا • بدأ الحديث فعلا حول هذا الموضوع قبل أكثر من شهرين ، ويجب أن نحدد المكان الذى ينبغى أن تنطلق منه هذه الحركة •

تقرر بعد نقاش طويل أن تبدأ الحركة من منطقة « زاكسين » ، ثم اتفق الرأى على الفرع الصناعى ، فتقرر أن يكون المنجم — كما هو الوضع فى الاتحاد السوفييتى — هو نقطة الانطلاق الملائمة •

هل ينبغى أن يختار لهذا العمل عامل شاب أو متقدم فى السن ؟

تقرر فى الاتحاد السوفييتى أن يكون من أعضاء منظمة الشباب السوفييتية ، ولكن يختلف الوضع عندنا فى المنطقة السوفييتية •

سوف يكون من الأسهل جذب الجيل الجديد من العمال لحركة « سياسية » فالمسألة الأساسية عندنا هى تحقيق نهضة بين عمال المصانع والعمال الفنيين المتقدمين فى السن ، ولهذا رؤى أن نختار عاملا منهم •

وأخيرا كان هناك سؤال يحتاج لتوضيح : هل ينبغى أن يكلف بهذا عامل مستقل ، أو لابد أن يكون عضوا من أعضاء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ؟

تقرر — بعد مشاورات طويلة — أن يكون عضوا فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، كى يمثل دور الحزب بوضوح فى هذه المسألة المهمة •

وبعد الاجابة على هذه الأسئلة الجوهرية ، أمكن البدء بعملية

الاختيار ، فسافربعض الرفقاء المسئولين الى منطقة مناجم الفحم فى « زاكسين » مع العمال الموثوق فيهم ، ومع سكرتاريى الحزب فى المنطقة ، ومع مديرى العمل ، للبحث عن العامل المناسب من أعضاء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى • فقابلوا فى هذه الوردية العامل « أدولف هينيكى » الذى وجدت فيه الأوصاف المطلوبة • كان عمره فى ذلك الوقت ٤٣ عاما ، ويعمل فى مناجم الفحم منذ عشرين سنة ، وعضو فى حزبنا ، ودرس أيضا فى مدرسة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى •

غير أنه وجدت صعوبات لم تكن متوقعة : لم يرد « أدولف هينيكى » فى بادىء الأمر ، ولم يبد استعدادا للقيام بهذا العمل الا بعد أن شرح له المغزى السياسى ، وفرصة تحسن وضعه الذاتى ، وارتفاع مركزه •

ثم نجح فى الوصول الى رقمه القياسى فى ١٣ أكتوبر ، وبهذا نقف الآن عند نقطة انطلاق الى « حركة سياسية » •

وبعد بضعة أيام نشرت الجرائد فى المنطقة الألمـانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى خطاب السكرتارية المركزية عن « أدولف هينيكى » فتحدث عن « عمله المثالى » وعن « المجهود الثورى لتنفيـذ الخطة الاقتصادية » •

وكان هذا « اجابة على سياسة مشروع المـارشال فى الغرب » •

ولمـا كنت أعلم حقيقة هذه التمثيلية ، فقد خجلت عندما قرأت فى الخطاب : يتضح من هذا أن عملك نتيجة للتقاليد الثورية للحركة العمالية الألمـانية ، التى أصبحت حية فيك ، تلك التقاليد التى تجسـمت فى « كارل ليبكنيشت » ، التى يحمل منجمك اسمه بفخر • وهو نتيجة للوعى بالمسئولية الاشتراكية أمام حزبك وطبقتك ، وأمام شعبك •

* * *

منشورات تيتو فى المعهد العالى للحزب

فوجئت فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٨ م بشىء غير سار ، فقد علق العدد الجديد من مجلة الحائط فى مدخل المبنى الرئيسى للمعهد العالى للحزب ، فاكتشفت فيـها مقالا بعنوان : « يوغوسـلافيا والرفيق ليونهارد » وعندما اقتربت منها ، قرأت المقال التالى موقعا عليه باسم « رودولف فريتشى » :

« ستناقش أخطاء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى هنا بين المدرسين والطلبة فى المعهد وستطرح للمناقشة المواقف الخاطئة والآراء الغير مسلم بها ، حتى نصل بذلك الى موقف موحد •

وسيكون قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، وبيان السكرتارية المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى أساسا لهذه المناقشة •

كان يمكن للمرء أن يعتبر هذا الموضوع منتهيا لولم تفتقد الآراء الواضحة ، حوله فى المعهد ، وليس المقصود بها رأيى فقط ، بل رأى الرفيق « ليونهارد » •

لا زلت أذكر محاضرة ألقاها الرفيق « ليونهارد » صور فيها — على أساس خبرته الواسعة ومعلوماته الغزيرة — الوضع فى يوغوسلافيا ، وتحدث — عن اقتناع — عن المجهود الضخم الذى قام به الشـعب اليوغوسلافى وتيتو • ووصف عمل الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بأنه عمل فريد من نوعه • يوغوسلافيا تسير فى مقدمة كل الدول الديمقراطية الشعبية على طريق الاشتراكية • ويكفى هذا الآن ، فلا أريد رواية هذه الأشياء ، فأنقب عن القديم البعيد ، الذى أسدل عليه ستار من النسيان • غير أن من المهم جدا لنا كلنا وللرفيق « ليونهارد » أن نسمع منه رأيا واضحا ينقد فيه اليوغوسلافيين ، وهو الرأى الذى افتقدناه حتى الآن » •

وضح لى أن الطالب « رودولف فريتشى » — الذى يدرس فى قسم الاقتصاد — لا يمكن أن يكون قد كتب هذا المقال بدافع ذاتى • لقد كان « طلقة انذار » من جهات عليا • كان الاتجاه واضـحا ، فقد أريد استفزازى لعملية نقد ذاتى • ماذا أفعل ؟ فكرت فى هذا الموضوع طويلا ، وعاودت التفكير فيه مرارا ، ولم تخرج هذه المشكلة من رأسى أياما عديدة •

وأخيرا أعددت الرد — فى سـطور قليلة ، وأشرت فيه الى أن المشكلة اليوغوسلافية معقدة ، لا يمكن أن تناقش فى مقال ينشر فى جريدة حائط • ولكنى على استعداد أن أتحـدث أمام المهتمين بهذا الموضوع •

سلمت الرد لأحد المسئولين عن تحرير مجلة الحائط ، فقرأه بسرعة ، ثم نظر الى غير مصدق قائلا : هل تعتقد أنهم سيقتنعون بهذا أيها الرفيق « ليونهارد » ؟ أدهشنى ضغطه الغريب على مخارج الحروف ، وكلمة « هم » • وسرعان ما غرقت مع المسئول عن تحرير جريدة الحائط فى حديث عميق الأغوار ، فلاحظت أنه أيضا مصاب « بالمغص السياسى » من مسألة يوغوسلافيا •

كان هذا المحرر شابا شيوعيا من ألمـانيا الغربية ، وكان معروفا فى المعهد العالى للحزب بالاسم الحركى « فوندرليش » ولكن اسمه الحقيقى هو « هيرمان فيبر »(1) •

وضح مقال جريدة الحائط لى أن اجراءات سوف تتخذ ضدى ، لو لم أعلن رأيى بسرعة فى قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى • ولكن لم يوجد أمامى خيار فى هذه المسألة ، ولا أى مسوغ بعد ذلك • وهكذا أعددت كل شىء للهروب الى يوغوسلافيا •

وبعد أيام قليلة — أى فى ٢٩ نوفمبر — أقامت السفارة حفلة بمناسبة يوم التحرير الوطنى ، ودعيت لحضور هذه الحفلة •

لم تكن هناك مغامرة فى تلبية هذه الدعوة ، لأن من المتوقع أن يحضر ممثـلون عن الاتحـاد السوفييتى أيضـا ، ولكن لابد أن أوضـح لليوغوسلافيين أننى أقف بجانبهم فى مسألة النزاع بينهم وبين مكتب الاستعلامات الشيوعى •

حضر الحفل دبلوماسيون من كل البلاد غير السوفييتية ، كما حضرها بعض الممثلين السوفييت • لم يشعر أحد من الضيوف أنه يوجد فى هذا المحيط معارض من حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـانى ، وهو مدرس فى معهد « كارل ماركس » العالى التابع للحزب ، ومن المسلم به أنه لم تصدر منى أدنى اشارة تبين موقفى ، فاذا اضطررت عند « البوفيه » أو فى المجموعات الصغيرة الى حديث لا يمكن الهروب منه ، تحدثت بالانجليزية ، ومع اليوغسلافيين بالروسية •

---

(١) انفصل « هيرمان فيبر » عن الستالينية بعدى ببضعة أعوام ، ويعيش الآن فى ألمـانيا الاتحادية ، ولا زالت النسخة الأصلية من مجلة الحائط عنده •

انتهى الحفل فى حوالى الساعة الثانية عشرة ، أى فى منتصف الليل •

ــ « انتظر قليلا ، فسوف نتحدث بعض الشىء » دعيت للبقاء بهذه الجملة ، فكان الحديث فى قمته ، لأنه لم يكن معنا أحد • كنا نجلس مجموعة صغيرة ، وفجأة انتصب يوغسلافى واقفا ، وتحدث بكلمات من قلبه عن الثورة والنضال الذى لا زال أمامنا واستهزأ باتهامات مكتب الاستعلامات الشيوعى • ولأول مرة أسمع هنا تلك الكلمات التى سمعتها فيما بعد فى يوغوسلافيا مرارا : « لابد للحق أن ينتصر » •

جاء قيادى يوغوسلافى الى المنضدة التى كنت جالسا عندها وقال :

ــ « أيها الرفيق « ليونهارد » •• لقد سمعنا أنك تريد أن تأتى الينا ، وليس هناك أى مانع من جانبنا ، يسرنا جدا أن تكون معنا فى هذا الوقت ، ولكن أرجو ألا تتخيل صورة خاطئة ، فليست الحياة سهلة الآن فى يوغوسلافيا ، وربما تشتد صعوبة فى الأشهر القادمة ، وربما لسنوات ، فلا تتخيل ورودا ، اذ تنتظرنا مصاعب جمة ، ربما تحب أن تعيد التفكير مرة أخرى » ؟

ــ « لا •• لا أحتاج الى تفكير بعد هذا ، لقد فكرت بما فيه الكفاية ، فأنا مصمم على القرار الذى اتخذته • أقف بجانبكم ، وأريد أن أكون معكم » •

ابتسم ، ثم ضغط على يدى :

ــ « حسنا •• موافقون ، والى اللقاء فى يوغوسلافيا » !

اتجهت أفكارى بعد هذا اليوم ــ ٢٢ نوفمبر ــ فقط نحو يوغوسلافيا • ولكن أردت ــ فى الوقت الذى أبقى فيه فى المعهد العالى للحزب ــ محاولة نشر ما أنا مقتنع به بقدر ما يمكننى •

لم تنقطع المناقشة حول يوغوسلافيا • فكان عدد القادمين الى من طلبة المعهد ومن القياديين فى برلين يزداد كل يوم •

ــ « قل لى يا « فولف جانج » ما رأيك ؟ كنت هناك فى يوغوسلافيا ، فماذا ترى فى هذه المشكلة » ؟

لم أستطع التخفى وراء غطاء عام فى الموافقة على أخطاء الشيوعيين اليوغوسلافيين ، ولم أنجح فى سلوك هذا الطريق ، ومن ناحية أخرى

لم أستطع أن أقول رأيى بصراحة لكل أحد ، وهكذا اضطررت الى تمثيل المواقف المختلفة ، ذلك الأسلوب الذى تستعمله الاشتراكية عند الضرورة .

فأعطيت للمخلصين لـ« لينينية » اجابة مراوغة ، وألمحت للقياديين الذين يفكرون تفكيرا حرا الى أننى أعتبر موقف مكتب الاستعلامات خاطئا ، وأعطيت للمعارضين ترجمة للمنشورات اليوغوسلافية .

نجحت الفكرة ، ووجه معظمهم الى الحقيقة التى أثرت فيهم تأثيرا خاصا : نشر كلا الرأيين فى يوغوسلافيا ، قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، والرد اليوغوسلافى عليه . وهكذا استطاع كل واحد أن يحكم بنفسه .

ولكن لم ينشر عندنا الا قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى فقط ..

قابلت قياديين معارضين ، حيث لم أتوقع ذلك ، فقد خرجت ذات مرة أتجول مع قيادى فى الحزب أنصت الى بكل « ريبة » ، فأعطيته المنشورات ورجوته — محذرا اياه — أنها للعلم فقط « لأننا من النوع الذى يقرأ مثل هذه الأشياء بهدوء » .

ثم تقابلنا فى حرم المعهد بعد ثلاثة أيام ، فنظر الى — ولم يكن أحد بالقرب منا — وقال بصوت عال : « لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ، فالمسألة اليوغوسلافية سفالة ، فليست هى الاتهامات السياسية فقط ، بل يوجد فى الخلفيات شىء آخر ، اذ يقف « ستالين » وراء ذلك ، هذا النصف مثقف ، هذا المتوحش الذى لا يستطيع احتمال أن حزبا آخر — هو الحزب اليوغوسلافى — وزعيما آخر — هو تيتو — محبوبان فى الغرب أكثر منه . آه .. لو تعلم مدى كرهى لـ« ستالين » — نعم .. أكره « ستالين » .

تملكنى الخوف ، وامتلأت رعبا فلم أسمع مثل هذه الكلمات قط ، وبالاضافة الى ذلك أسمعها الآن فى حرم المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى — تمالكت أعصابى .

مد يده الى . فأجبته : « سيظل سرا » .

ذهبت فى ضحى هذا اليوم أتجول وحدى ، فتذكرت أنى قرأت فى

مكان ما أنه ليس من النادر أن يخرج الزنادقة المكافحون من المدارس اليسوعية •

هل سيتكرر هذا ؟ هل سيجلب المعهد العالى « معهد كارل ماركس » لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى مزيدا من الزنادقة الخطرين ؟

ظل قياديو الطبقة العليا ملتزمين « الخط » التزاما حرفيا • ذهبت — للمرة الأخيرة — فى نهاية الأسبوع الى حى « الفيللات » المسور فى « نيدرشونهاوزن » حيث يسكن زعماء حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى الكبار العشرة • تحدثت فى الأسابيع والشهور الأخيرة كثيرا مع المعارضين لدرجة أنه أصبح ثقيلا على أن أجلس فى « فيلا » هذا الزعيم الكبير ، الذى تظهر صورته كثيرا فى جريدة « ألمــانيا الجديدة » •

قدم لى زعيم حزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى الكونياك والسجائر • ثم اتجه الى قائلا : « التأثر ظاهر على وجهك ، هل عندك « مغص سياسى » بسبب يوغوسلافيا » ؟

— « قرأت بعض ما نشرته يوغوسلافيا فى الأيام الأخيرة و••• » •
فقال مبتسما :

— « ينبغى ألا تقرأ كثيرا عن هذا الموضوع » • ولكننى أحسست بالخطورة وراء كلماته •

— « لم يركز الكتيب الجديد فقط على بيان ما اذا كان قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى صحيحا أو غير صحيح ، بل وضع أيضا بعض الأسئلة الأساسية ، التى لا يمكن لأحد أن يتخلص منها بحركة من يده » •

نظر الزعيم الى بهدوء وبرود :

— « يوجد فى السياسة أحيانا أوضاع يخلط فيها الشىء الجيد بالأدلة الضعيفة ، والشىء الضعيف بالأدلة الجيدة » •

تصورت مرة أخرى مندهشا متحسرا — بأى نوع من أنواع الكلام يحاول بعض القياديين تبرير التعارض الواضح لغيرهم ، وربما فى المقام الأول لأنفسهم ذاتهم • فتقدمت خطوة أخرى بحذر •

— « يبدو لى أن الأمر لا يتعلق هنا بأدلة قوية أو أدلة ضعيفة ، بل بمبدأ أساسى ماركسى معين • فقد أشار اليوغوسلافيون فى نشرتهم الى أن وضعا جديدا نشأ بقيام الدول الديمقراطية الشعبية ، وتتواجد هذه البلاد فى الطريق الى الاشتراكية ، وبهذا يطرح هذا السؤال نفسه : على أى وضع ينبغى أن تكون علاقة هذه البلاد مع الاتحاد السوفييتى ؟ ويرى اليوغوسلافيون — وأظن أن ذلك مطلب ماركسى صحيح — أن العلاقة بين البلاد الديمقراطية الشعبية والاتحاد السوفييتى يجب أن تكون على قدم المساواة ، وأنه لا يوجد هناك دولة زعيمة ، وأخرى تابعة ، بل دول متساوية » •

ثارت أعصاب الزعيم ، فأشار بيده قائلا :

— « ولكن يا « فولف جانج » فلنقف مرة على أرض الحقيقة العارية ، ما معنى المساواة هنا ؟ أعرنى انتباهك فالنضال الذى انتشر فى العالم هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة » •

وأشار بيده الى لوحة الشطرنج :

— « يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة باختلاف شكلها وطريقة حركتها على اللوحة • ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط •• أو — وقال ذلك ساخرا — هل تريد أن تضع بلغراد مكان موسكو » ؟

تذكرت « ماركس » و « انجلز » اللذين كانا ضد وجود حزب زعيم داخل الشيوعية العالمية ، وتذكرت « لينين » الذى رفض بعد انتصار الثورة فى روسيا فكرة زعامة الحزب البلشفى المنتصر ، وهاجمها •

فسر الزعيم صمتى تفسيرا آخر ، فقد اعتقد أن نظرية التمثيل بلعبة الشطرنج أثرت فى نفسى فقال :

— « يجب أن نقترب من الموضوع مجردين من أى اتجاه ، فلست قياديا جديدا فى الحزب • هل لاحظت مرة شيئا خاصا فى سمات الاتحاد السوفييتى واتحاد الجمهوريات السوفييتية » ؟

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال • واستطرد قائلا :

— « لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات ؛ وليس هذا من باب المصادفة ، وبهذا مهد الطريق للبلاد التى تتحول فيما بعد الى الاشتراكية ، للانضمام لهذا الاتحاد • هل تعتقد أننا — اذا وصلت البلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية — نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا ترتبط بالاتحاد السوفييتى ؟ يجب أن نمارس سياسة واقعية فى هذه الأشياء • لا نستطيع هنا — فيما بيننا — أن نتحدث بصراحة » •

وعلى الرغم من أننا كنا وحدنا فى الحجرة فقد انخفض صوته وهو يقول : « من الممكن — لا أقول يجب أن يكون هذا — أن تنضم البلاد الديمقراطية الشعبية فيما بعد كجمهوريات جديدة الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الشعبية • وطبعا لن نقول هذا اليوم ، ولا ينبغى أن نذكر ذلك لأحد اطلاقا ، ولكن يجب أن تعلم ذلك على الأقل • هذه هى الحقائق ، وليست المناقشة على أسس متساوية بين البلاد الاشتراكية » •

أكد لى هذا الحديث أنه لا يوجد مكان لى فى هذا الحزب ، فلم يكن هدفى اتحاد جمهوريات سوفييتية جديدة ، بل دولة ألمانية اشتراكية مستقلة •

لا يمكن أن يظل التعارض بين عملى الرسمى فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى وبين توزيع المنشورات اليوغوسلافية ، على القياديين وقتا طويلا فى طى الكتمان ، فأنا أعلم أنى لن أستطيع الاستمرار طويلا فى هذا العمل ، ولهذا أسرعت فى تجهيز كل شىء للهروب •

فكرت مرارا فى أن أقول الحقيقة عن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى فى محاضرة عامة أمام كل الدارسين والمدرسين فى المعهد العالى للحزب ، وأدلل على افتراءات هذا المكتب ، وأتحدث عن الطريق المستقل الى الاشتراكية • وعندما فكرت بهدوء فى هذا الأمر ، تبين لى أن هذه الأفكار كانت جنونا •

ماذا يمكن أن أصل اليه بهذا العمل ؟ فسوف أمنع من الكلام بالقوة بعد الجمل الأولى ، وأختفى فى مكان لا أستطيع أن أقول فيه شيئا أبدا •

فقلت لنفسى : « ثورى رومانتيكى » • سيكون كلاما صادقا ، ولكن « لا طائل من ورائه » • ولهذا بدا لى أن ما يخدم الهدف هو

البقاء ما أمكن فى المعهد العالى للحزب ، وتوضيح الوضع لعدد أكبر من القياديين بحذر شديد فى أحاديثنا الخاصة ، وتحريكهم ، واذا وجدت قبولا لديهم ، أعطيهم المنشورات ، فلو اكتشفت هذه الطريقة ، فيمكننى أن أحاول الهرب الى يوغوسلافيا • وسيؤثر مثل هذا الهروب الى يوغوسلافيا على عدد كبير من الرفقاء ، فيجعلهم يفكرون فيما يدور حولهم من أحداث — لقد كنت القيادى الوحيد فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمـــانى ، الذى زار يوغوسلافيا بعد عام ١٩٤٥ م زيارة رسمية •

كنا فى فبراير ســـنة ١٩٤٩ ، ازدادت خطوات حـــزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمـــانى سرعة نحو « النموذج الروسى » ، ففى مؤتمر الحزب الأول الذى عقد فى الفترة من ٢٥ — ٢٨ يناير سنة ١٩٤٩ م ألغيت المساواة بين أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وبين أعضاء الحزب الشيوعى السابق ، ففضل بذلك — بنوع خاص — أعضاء الحزب الشيوعى الألمـــانى ، الذين عاشوا فى موسكو فترة كلاجئين سياسيين ، وحلت السكرتارية المركزية لحزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمـــانى ، وأنشىء بدلا منها مكتب سياسى يتكون أعضاؤه من تسعة ، ستة منهم من قادة الحزب الشيوعى السابق ، وثلاثة من الديمقراطيين الاشتراكيين السابقين ، كما أنشئت « سكرتارية صغيرة » تحت قيادة « أولبريخت » •

ثم تبع ذلك انشاء مجلس رقابة مركزى فى الحزب بقيادة « هيرمان ماتيرن » •

وسار هذا كله تحت شعار التطور الى « النموذج الجديد للحزب » — ولكنه لم يكن سوى خطوات أوسع ، نحو تقريب حزب الاتحـــاد الاشتراكى الألمـــانى من الحزب « الستالينى » فى الاتحاد السوفييتى • ولم تظل الأحزاب الشيوعية فى غرب أوروبا بعيدة عن هذا التيار ، فقد طلب من زعماء تلك الأحزاب فى نهاية فبراير سنة ١٩٤٩ م التصريح علنا بأن الأحزاب الشيوعية ستساعد القوات السوفييتية فى حالة وقوع نزاع عسكرى وأذاع المكتب السياسى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى بيانا بهذا المعنى فى ٢ مارس سنة ١٩٤٩ ، وبهذا اختفت آخر ظاهرة للاستقلال ، فقد أعلن الحزب علنا أنه وحدة مساعدة للجيش السوفييتى •

كان هذا آخر بيان لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى عاصرت ظهوره فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

زارنى — بعد أيام قليلة — أحد القياديين فى مسكنى فى المعهد العالى للحزب • كان مترددا فى الافصاح عما عنده :

— « أريد أن أتحدث معك فى موضوع سرى » •

— « مغص سياسى » ؟

— « نعم •• وخطير » !

— « موافق •• سيظل سرا ، ما الخبر » ؟

تحدثنا ما يقرب من نصف ساعة باشارات كلها حذر ، وفجأة قال :

— « هل تعلم •• أحيانا يصيبنى شعور بأن ما يقال عن يوغوسلافيا ليس صحيحا » مددت يدى اليه ، وسلمت عليه بحرارة •

— « لم يخدعك شعورك ، فأنا مقتنع بأن الحق فى جانب اليوغوسلافيين » •

نظر الى مندهشا ، فلم يكن يتوقع هذا ••

فتحت درج مكتبى المقفول دائما ، وأخرجت منه مجموعة كبيرة من النشرات اليوغوسلافية المطبوعة باللغة الألمانية ، ووضعتها على المنضدة •

انقض على الكتيبات انقضاضا ، وقال لى : « أعطنى هذا لأقرأه ، فلم أحصل على شىء حتى الآن ، وكنت أبحث عن هذا بالذات » •

— « مهلا •• مهلا •• » •

اذ يجب على كبح جماح الأعضاء الجدد المشتركين معى فى التفكير •

— « خذ أولا الرد اليوغوسلافى على قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى وخطاب « تيتو » فى مؤتمر الحزب الخامس ، فاذا انتهيت من قراءتها ، أعدها وخذ غيرها ، ولكن كن حذرا » ! وعدنى بذلك ، ووضعها فى جيبه الداخلى وانصرف •

شيعته قلقا ؟ فعنده حاسة سياسية جيدة ، ولكن هل عنده أيضا خبرة فى التخفى ؟ فقد كان — على الرغم من أنه كان يتولى مركزا عاليا فى الحزب — أصغر منى ببضع سنوات • ولم يتلق دراسات ذات أنظمة شديدة فى التكتم •••

عاد الى فى صباح اليوم التالى مبكرا جدا ، وكان معجبا بهذه النشرات •

— « أخيرا وجدت رفيقا ، أستطيع أن أتكلم معه بصراحة » •

هزنى بأفكاره التى تعارض سياسة الحزب ، ولكن ازداد قلقى • كانت صراحته مجردة للسلاح ، ولكن طريقته الغريبة ، يمكن أن تصبح خطيرة علينا • وبعد بضعة أيام رأيته فى صالة مطعم المعهد العالى للحزب جالسا على منضدة وحوله مجموعة كبيرة من القياديين ينظرون اليه باهتمام • كان من بينهم بعض المتعصبين للحزب — ولكنه كان يتكلم ••• فخرجت مسرعا • ثم علمت فيما بعد أن الخطر بدأ فى ظهر هذا اليوم على مائدة الغداء ، فقد تحدث علنا فى صالة مطعم المعهد العالى للحزب عن يوغوسلافيا ، وعن قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى وأجاب عن كل الأسئلة — ومنها أيضا أسئلة مثيرة — التى وجهت اليه ، فهو يعرف النشرات ، فباح بحقيقة الوضع الصحيح • ثم ماذا •• ففى لحظات الانفعال ذكر اسمى باعتبارى الشاهد الأول •

قال : « فولف جانج ليونهارد » أيضا انه ••• » ثم حاول فى اللحظات التالية أن يتدارك ما وقع منه ، ولكن الكلمات كانت قد خرجت ، وسبق السيف العزل •

***

النقد الذاتى الأخير

ذهبت فى اليوم التالى الى محاضرتى العادية ، دون أن أعلم بما حدث ، فقيل لى : « يجب أن تذهب حالا الى « رودولف لينداو » • فتوجهت اليه ، فوجدته واقفا أمام مكتب العميد •

قال بغضب دون أن يمد يده الى كعادته :

— « أريد أن أتحدث معك بعد الانتهاء من قاعة البحث » •

لم أشعر بثقل الاشراف على المناقشة فى قاعة البحث قط مثل ما شعرت فى هذا اليوم ، فقد كنت أنظر الى الساعة فى كل دقيقة ، وأخيرا مضت الثلاث ساعات •

ذهبت الى « ليندا و » فتقدمنى الى مكتب العميد دون أن يقول كلمة ، فوجدت هناك خمسة من القياديين جالسين فى المكتب وأمامهم أوراق وأقلام رصاص • كان المنظر يشبه ما كان فى خريف عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • مضى على هذا المنظر ست سنوات ونصف ، والآن •••

فى أوائل عام ١٩٤٩ أقف مرة أخرى أمـــام تحقيق ، يقوم به المتعصبون للحزب ، أقف أمام نقد ونقد ذاتى •

نظرت بهدوء الى القياديين الذين يجلسون أمامى ، ومما لا شك فيه أنى لم أشعر بارتياح ، ولكنى لم أعد متأثرا نفسيا بمراكزهم ، فهم ليسوا شيوعيين اطلاقا — هكذا فكرت فى نفسى — ، فالشيوعيون الحقيقيون هم أولئك الذين يكافحون ضد الوضع المهين فى ركاب الاتحاد السوفييتى ، وضد الطريقة اللا انسانية التى تدفع الشعوب بها دفعا الى طريق الاتحاد السوفييتى •

بدأ التحقيق !

كنت أعرف — ما عدا « رودولف ليندا و » مدير المعهـــد — من الموجودين واحـــدا فقط • لم أصـــدق عينى : هنا يجلس « هيربرت هينيشكى » الذى كان معى فى عام ١٩٤٢ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وكان أضعف تلميذ آنذاك ، فكلفنى « باول فانديل » (كلاسنر) أن أساعده أيام الاستعداد للامتحان •

بدأ التحقيق بنفس الطريقة التى شاهدتها قبل ست سنوات ونصف فسمعت مقدمة سياسية طويلة تحطم الأعصاب ، تناولت الوضع ، والثقة فى الحزب وفى الاتحاد السوفييتى ، وضرورة النضال ضد الانحرافات ، ولكن ما أثر فى نفسيتى تأثيرا عميقا فى عملية النقد والنقد الذاتى الأولى

ليس له أى أثر عندى الآن ، فقد كنت أشعر آنذاك بأنى مرتبط بالحزب برباط وثيق •

ولكن الوضع الآن شىء آخر ، اذ انقطعت عن الحزب داخليا ، فلم تعد مناظره المسرحية تؤثر فى نفسى • سرحت أفكارى بهدوء أثناء عملية التحقيق كلها : دعوى اتخاذ طريق مستقل الى الاشتراكية قائمة على نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، فالحق فى جانب اليوغوسلافيين الذين يسلكون طريقا خاصا يتفق مع ظروف بلادهم • أما أولئك الذين يهاجمون الشيوعيين اليوغوسلافيين ، فقد تركوا أساس « الماركسية ـ اللينينية » •

تتفق دعوى مساواة الأحزاب الشيوعية داخل الحركة العمالية الشيوعية مع نظرية « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، أما أولئك الذين يستبدلونها بنظرية « الدور القيادى » للاتحاد السوفييتى ، فقد انحرفوا عن « الماركسية » • وفى غضون ذلك انتهت كلمة « رودولف لينداو » وتحدث اثنان آخران طبقا للتقليد المعروف •

وعندما بدأ الثالث فى الحديث ـ وبه يبدأ التحقيق الأصلى ـ أدركت موقفى ادراكا سليما ، لا فائدة من المناقشة مع هؤلاء المتعصبين للحزب ، فلم يكونوا من مناضلى الطبقة العاملة ، وان كانوا لا زالوا يدعون ذلك ، ولم يكونوا « ماركسيين ـ لينينيين » وان كانوا يكررون ذلك دائما • لم يكن هناك أمامى سوى شىء واحد : كسب الوقت ، لكى أتمكن من الهرب الى يوغوسلافيا ! وهذا معناه التصرف بأسلوب « تكتيكى » ، علمونى هذا « التكتيك » ، والآن أستخدمه ضدهم • قررت الاعتراف ببعض الأخطاء ، ووضع نفسى كمرتاب ، وبهذا أستطيع الوصول الى وضع لا يمكنهم ازاءه اتخاذ اجراء ضدى ، بل تقرير عقد جلسة أخرى • كسبا للوقت •• ربما أستطيع الهروب الى يوغوسلافيا قبل ذلك •

ـ « أعتقد أننا نستطيع الآن الانتقال الى المشكلة ذاتها » كان هذا هو صوت « لينداو » •

كان « ماخنوفا صغيرا » فى برلين فى أوائل عام ١٩٤٩ م ، ولكنه كان نفس الصوت والنغمة التى سمعتها فى خريف عام ١٩٤٢ م فى

« كوشنارينكوفو » فى « بشكيرين » البعيدة : أصوات المتعصبين للجهاز (أذيـــال الجهاز) متشابهة فى كل مكان •

أمطرت بوابل من الأسئلة :

— « هل صحيح أنك أعطيت المنشورات اليوغوسلافية المعادية للحزب لأحد الرفقاء لقراءتها » ؟

— « نعم » •

انكبت الرؤوس على الأوراق ، تدون الملاحظات فى فترة الاستراحة القصيرة بعد اجابتى •

— « هل صحيح أنك تحدثت مع طلبة المعهد العالى للحزب عن نموذجين من القياديين ، أحدهما : هم أولئك الذين ناضلوا فى تنظيمات سرية ، والآخر : هم أولئك الذين كانوا ممثلين للحزب فى الاتحـــاد السوفييتى » ؟

— « نعم •• ولكنى قصدت بذلك •• » •

— « سيكون عندك وقت فيما بعد للتعبير عما عندك ، وليس لك الآن سوى الاجابة « بنعم » أو « لا » » •

— « نعم » •

— « هل صحيح أنك وصفت أولئك الذين كانوا يقومون بنشاط داخل الوطن فى ذلك الوقت بأنهم نماذج ، وادعيت أنهم مناضلون من أجل سياسة أكثر استقلالا ؟ وهل ذكرت فى هذا الصدد الأسماء التالية : « تيتو » و « جومولكا » و « ماركوس » و « ماو تسى تونج » ؟

— « ماو تسى تونج » أيضا » ؟

تساءل « هيربرت هينيشكى » الذى كنت أعلى منه فى النفوذ السياسى فرمقه الآخرون بنظرات حادة ، فخجل •

— « هل صحيح أنك صرحت لطلبة آخرين بارتيابك فى تزكيـــة وجود شركة سوفييتية فى المنطقة الألمـــانية ، وهاجمت الخبراء السوفييت فى البلاد الديمقراطية الشعبية » ؟

— « نعم » • قلت ذلك مدركا أنى لا أستطيع أن أفعل غير هذا • أصابنى رعب عند سماع الجملة الأخيرة ، فلم أتحدث عن هذا مع الصديق الذى كان متحمسا • ولكنى صرحت به لاثنين آخرين ، فأخبرا القيادة بذلك •

— « هل صحيح أنك أعطيت ملخصا للكتاب الردىء ، الذى ألفه « كوستلر » ؟

— « نعم •• ولكنى لم أوافق « كوستلر » فى آرائه » •

— « لم نسأل عن هذا ، يكفى أنك أعطيت هذا الكتاب الردىء • هل كان من رأيك فى حديثك مع الطلبة ، أن المنشورات المعادية للحزب ، التى نشرها المعارضون والوطنيون اليوغسلافيون يجب أن تنشر فى صحافة الحزب ، وتعقد ندوات لمناقشتها » ؟

— « نعم » •

كسب الوقت •• كسب الوقت • — كان هذا هو الشىء الوحيد الذى فكرت فيه فى ذلك الوقت •

انتهى التحقيق المباشر ، ويأتى « التقييم » و « التحليل » الآن • أعطيت الكلمة لممثل قسم التدريب :

— « لست فى حاجة الى أن أقول لك أيها الرفيق « ليونهارد » ان هذه الأشياء خطيرة جدا • — (كانت نغمته تهديدية ، ورغم هذا فقد شعرت بارتياح ، لأنه لا زال يخاطبنى بكلمة « رفيق » • اذن •• لن يتخذ اجراء فورى ، وربما يحكم بفترة اختبار •) — هذه الأشياء أشد خطورة ، لأنها صدرت من رفيق نشأ فى الاتحاد السوفييتى • وسوف نناقش موقفك وتعبيراتك العدائية للحزب فيما بعد ، ولكن لا يحتاج الحزب اليوم الى التفصيلات • وعلى الرغم من خطورة حالتك ، فسوف يعطيك الحزب فرصة — نظرا لعملك الذى قمت به حتى الآن — لكى تصحح أخطاءك الفظيعة بزيادة نشاطك زيادة كبيرة ، ولكن لا ينبغى أن ينسيك هذا أنك استخدمت ثقة الحزب فيك استخداما سيئا » •

ثم أخذ المتعصب للحزب استراحة ، ونظر الى نظرة شزراء هازا رأسه • — يبدو أنه كان من الصعب عليه أن يفهم « وضعى » اذ لم يقابل

حتى ذلك الحين سوى ديمقراطيين اشتراكيين سابقين ، أو شيوعيين قدامى ، يحاولون التخلص من التهم الموجهة اليهم — •

— « والآن •• قل لى أيها الرفيق « ليونهارد » كيف يبدو الوضع عندك فى هذا الطريق الذى سلكته ؟ كيف أضلتك المشكلة اليوغوسلافية هذا الضلال » ؟

قلت لنفسى : احذر •• كن على حذر !••
اتجهت كل الأنظار الى ••

— « نعم •• المسألة كما يلى •• ليس من المسائل العادية أن يقع حزب فى نزاع مع الاتحاد السوفييتى ، ومع مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية ، فهى مشكلة خطيرة ، يضطر المرء الى التفكير فيها ، هل يكون عجبا أن يفكر المرء فى هذه المسألة » ؟

قاطعنى أحد المتعصبين للحزب الذى ظل صامتا حتى الآن :

— « قل لى بوضوح ودون دوران •• ما رأيك فى قرار مكتب استعلامات الأحزاب الشيوعية والعمالية ، وفى بيان حزبنا عن يوغوسلافيا ، أو ، هل تعترف بهذه الزعامة الخائنة فى يوغوسلافيا » ؟

كنت أتمنى أن أبوح بكل شىء ، وأروى لهم ما قرأته فى أشهر عام ١٩٤٨ م ، وما فكرت فيه حول هذا الموضوع وأى قرار توصلت اليه ، ولكنى تراجعت :

— « هناك بعض أشياء غير واضحة ، وأحب أن تكون لدى فرصة لمناقشتها • تبدو المشكلة خطيرة ، لدرجة أنى أرى أن من الضرورى معالجتها جذريا » •

— « ماذا تقصد من المعالجة الجذرية » ؟ سأل واحد آخر ، لم يفهم أعجوبة القيادى الذى تثقف سياسيا فى الاتحاد السوفييتى ، وهو الآن زنديق •

— « لا أفهم ألا يتحمل المرء فى الوضع الحالى للحزب مسئولية نشر منشورات كلا الجانبين • ربما لا يمكن وضع المشكلة على هذا النحو فى المعهد العالى للحزب أمام الطلبة ، ولكن ألا يمكن لأعضاء هيئة التدريس فى المعهد العالى للحزب أن تقرأ المنشورات اليوغوسلافية ،

وتناقش هذه الأشياء بالتفصيل ؟ وتتعلق المسألة هنا أخيرا بنظرية سياسية أيديولوجية وحتى جزء منها يتعلق بمشلكة نظرية » •

قاطعنى أول المتعصبين للحزب :

— « أنت مخطئ أيها الرفيق « ليونهارد » •• فالمسألة اليوغوسلافية ليست سياسية ، بل ادارية » • قال ذلك بنغمة قاطعة •
« ادارية » — أعرف هذه الكلمة ، فقد نقدت عمليات القبض الواسعة فى الفترة من عام ١٩٣٦ م — ١٩٣٨ م تحت ستار هذه الكلمة • كانت الاشارة واضحة • لقد تجاوزت الحدود الممكنة فى مثل هذه الظروف ، ولم يبق سوى درجة واحدة ، فاذا وصلتها ، فلن أترك حرا بعد هذا التحقيق •

— « نقترب الآن من النهاية • ان من المعروف لك أيها الرفيق « ليونهارد » أن كل المسائل السياسية والشخصية لهيئة التدريس فى المعهد العالى للحزب ، يفصل فيها مباشرة ، فى المكتب السياسى للحزب • وينطبق هذا الاجراء على هذه الحالة بنوع خاص ، ولذا فسوف يرفع تقرير عن التصريحات العدائية للحزب وعن جلسة اليوم الى المكتب السياسى • وسوف تخبر فى مدى أيام قليلة بالقرار الذى سيتخذ فى حالتك » •

❋ ❋ ❋

هروبى الى بلغراد

« فى مدى أيام ••• » قال ذلك ، اذن ، فعندى فسحة من الوقت • دخلت اللجنة الى مكتب العميد ، وبقيت وحدى •

غادرت المبنى الرئيسى للمعهد بخطوات بطيئة متجها الى سكنى ، وهو يقع فى « فيللا » مباشرة أمام مدخل يقف عليه الحراس دائما • من الممكن أنى وضعت الآن تحت الحراسة المشددة ، ولهذا قررت ألا أعمل شيئا يمكن أن يثير الشكوك حولى • أخذت معى من سكنى أصغر حقيبة ، وهى ما يحملها عادة كل مدرس غالبا ، اذا ذهب الى محاضرته •

ألقيت نظرة أخيرة على الحجرة ، فقد كان لا يزال هناك بعض

الأشياء المهمة ، بعض الرسومات من أيام العمل فى « مجموعة أولبريخت » وعشرون صفحة تقريبا من محضر جلسة مع المـارشال « شوكوف » ، وخطابات من والى قياديين ، ولكن ليس فيها شىء سياسى مضر . لا يمكن أن آخذها معى ، ربما يفتشوننى عند بوابة المعهد الرئيسية ، فلو وجدت هذه الأشياء معى ، لخسرت كل شىء . ولم أستطع احراقها . وهكذا تركتها كما هى ، ثم ارتديت معطفى وعزمت على الخروج .

قابلت فى الطريق أحد السائقين ، وهو الذى كان يوصلنى دائما الى المدينة . لم يكن يعلم شيئا حتى هذه اللحظة ، فلا زلت بالنسبة له قياديا يشار اليه بالبنان .

— « أيها الرفيق « ليونهارد » .. أنا ذاهب الآن الى منزل الوحدة ، هل تحب أن تأتى معى » ؟

— « نعم » . أجبته بنغمة رزينة . وهكذا بدأت رحلة هروبى فى احدى عربات المعهد . وقفنا عند البوابة ، فنظر الى الحارس ، ثم أعطى للسائق اشارة باستئناف السير . اذن ، لم يبلغ بشىء بعد .

أوصلتنى السيارة الى محطة مترو الأنفاق « دوبل » التى تقع مباشرة عند الحدود بين قطاع برلين الغربى وبين المنطقة السوفييتية .

فقلت للسائق : « أريد أن أنزل هنا » .

— « الى اللقاء أيها الرفيق « ليونهارد » » .

— « الى اللقاء » .

لم أعلم الا بعد مرور عام عن طريق طالب فى المعهد انفصل عن « الستالينية » بعدى ، أن هذه الرحلة بالسيارة وصفت بأنها كانت رحلة غاية فى السرية ، وأعلن فى اجتماع فى المعهد بعد هروبى : « أن مما يفوق كل شىء ، أن بلغت به الصفاقة حدا جعله يهرب بسيارة المعهد العالى » !

واصلت السيارة طريقها ، فاختفت عن نظرى ، ثم سافرت بالمترو الى سكنى الثانى فى « بانكوف » ، فارتديت شيئا ثقيلا ، وحزمت اللوازم

الضرورية فى حقيبة صغيرة ، وقلت للقياديين الذين أسكن معهم ، أنى مسافر لانجاز مهمة خاصة ، وأنى سأتغيب عن السكن أسبوعا •

وبهذا بدأت رحلة الهروب — التى أعد لها منذ وقت طويل — من حى « بانكوف » فى برلين الى بلغراد •

دخلت أولا « كابينة » التليفون واتصلت بثلاثة أرقام : « سينتهى مقالى فى مساء اليوم » قلت ذلك فى حديثى التليفونى لأمى ، لأننا كنا قد اتفقنا على هذه الاشارة كدليل على الهروب •

وقلت نفس الجملة لصديقتى « الزى » التى كانت استعدادات هروبها هى الأخرى قد تمت ، وسافرت بعدى مباشرة فى احدى السيارات هاربة الى يوغوسلافيا • ثم جاءت المحادثة الثالثة ، كلمة السر لبدء رحلة الهروب • كانت عقارب الساعة تشير الى الخامسة مساء •

وصلت سيارة الى المكان المتفق عليه بعد خمس عشرة دقيقة •

— « مستعد » ؟

— « مستعد » •

— « حسنا » •

كانت الساعة فى ذلك الوقت هى الخامسة والربع • وبعد ذلك بخمس ساعات ونصف — أى فى الساعة الحادية عشرة الا ربعا — كنت على بعد بضعة كيلومترات من الحدود • كانت هذه هى الحدود بين المنطقـــة الألمـــانية الواقعة تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى وبين تشيكوسلوفاكيا •

— « هنا » • قال مرافقى ذلك ، فنزلنا من السيارة ، ودخلنا مقهى صغير ، فسار أمامى متجها الى منضدة يجلس عندها رجلان • تبادلنا التحية ، وتكلمنا بعض جمل لا ضرر فيها •

— « أعتقد أننا نستطيع الذهاب الآن » قال أحدهما ذلك ، بعد أن وازنا بين حساباتنا ، أعدت التجهيزات الأخيرة فى منزل صغير • أخذ أحد الرجلين الذى سيوصلنى الى الجانب الآخر من الحدود « رزمة » من ورق البنكنوت • لم يعرف من أنا •• ولم يهتم بى أيضا ، فلم ير سوى توصيلى بسلام الى الناحية الأخرى من الحدود ، ويعود هو

نفسه الى هذا المكان ، لأن فى انتظاره مبلغا كبيرا ، سيأخذه بعد اتمام العملية بنجاح •

نظر الى نظرة فاحصة ، فارتاحت نفسه ، عندما رأى أننى أرتدى حذاء برقبة عالية ، وقد هيأت نفسى تهييئا كاملا لمثل هذه الرحلة •

— « هل تستطيع التحمل » ؟

— « نعم •• فقد تعودت على مثل هذه الأشياء » •

—« ماذا ؟ •• فلا زلت صغيرا ، اذن لننطلق » !

رجعت السيارة التى أحضرتنى بمرافقى • والآن •• أصبحت كلية فى يد قائد تهريب عبر الحدود •

تركت المعهد العالى للحزب منذ سبع ساعات ، فاذا لاحظوا اختفائى ، فسوف يسألون عنى — هكذا قدرت — أولا عند القياديين الذين يسكنون معى فى « بانكوف » ، وسوف يخبرونهم بما قلته لهم : « أنا فى مهمة خاصة » • وقبل اتمام البحث فى مراكز الحزب المختلفة ، سوف تنقضى أيام عديدة • ولحسن الحظ تحاط المهمات الخاصة بسرية تامة • فلدى امكانية التقدم فى رحلة الهروب •

— « يجب علينا الاسراع فى المشى » همس مرافقى فى أذنى • لا زال باقيا على الحدود أربع كيلومترات ، ثم بعد ذلك يجب علينا الحذر التام •

كنا — بعد ساعة — أمام الحدود مباشرة • لم نتلفظ بكلمة • كان مرافقى ينظر بين الحين والآخر الى ساعته • كانت الواحـــدة بعد منتصف الليل ، وكان يجب علينا أن نصل الى الجانب الآخر قبل بزوغ الفجر ، وفجأة احتضننى مرافقى ، وانبطحنا أرضا • كانت قناة صغيرة لا ماء فيها أمامنا ، وكانت هى الحدود •

— « تشيكوسلوفاكيا » همس فى أذنى مشيرا بيده الى شاطىء القناة الآخر • مشينا على أطراف أصابعنا ، وعبرنا القناة ، وفجأة رفع مرافقى رأسه ، وأعطانى اشارة ، فانبطحنا على الثلوج •

استطعت سماع أصوات فى هذه اللحظة ، وبدت قريبة منا • مضت دقيقة أو دقيقتان ثقيلتان ومؤلمتان جدا • هم بالتأكيد حراس الحدود ، فهم يتحدثون باللغة الألمـــانية ، ما العمل ؟ ودارت بذهنى الأفكار ! ماذا

أقول لو ضبط فى هذه اللحظة ؟ هل ينبغى أن أعرفهم بأنى مدرس فى المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمــانى ؟ ماذا ينبغى أن أقول ؟

كيف أفسر وجودى هنا ليلة الأحد بالذات على الحدود بين المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى وبين تشيكوسلوفاكيا •

وفجأة نظرت مرتعبا ! لمــاذا وقف مرافقى ؟ الآن ـــ هكذا بدا لى ـــ جاءت نهايتى ، ولكنه أشار لى أن أتبعه بهدوء :

ـــ « لا تخف •• فهم أيضا هاربون عبر الحدود مثلنا ، أعرفهم »

قال هذا واتجه الى المجموعة ، وسرت خلفه ، فمدوا لى أيديهم مسلمين دون أن يقولوا كلمة • جاءوا من تشيكوسلوفاكيا ببضائع مهربة • قدم أحدهم سجائر •

سيدخنون هنا على مسافة لا تبعد خمسة مترات من الحدود ؟ ـــ قلت هذا لنفسى عندما بدأ أحدهم يشعل لنا السجائر •

حاولت أن أسحب مرافقى بعيدا عنهم ، ولكن لم أستطع •

ـــ « لا تخف •• ففى هذا الوقت هدوء تام فى المنطقة » وأمن آخر ـــ يبدو أن عنده خبرة واسعة فى عبور الحدود بطريقة غير شرعية ـــ على هذا الكلام بايماءة من رأسه • لم تهدأ أعصابى بهذه الحجة • اذا ضبطت هنا فسوف أنال من العقاب أكثر مما يناله المهربون •

تحدثوا فى أثناء ذلك عن الأماكن التى يحصل فيها المرء على البضائع المطلوبة بأرخص الأسعار ، وفى أى مكان فى المنطقة الألمــانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى يستطيع المرء بيعها بثمن أكبر •

لم تنته استراحة شرب السجائر ، وبدت لى طويلة ، طول الدهر كله ، وكنت دائم المحاولة لجذب مرافقى لنكمل رحلة الهروب عبر الحدود ، ولكنه كان متصلبا ، مثل عابر الحدود المحنك •

وأخيرا انتهت تلك الدقائق المرعبة • فاستحثنى مرافقى قائلا :

ـــ « أسرع •• فأمامنا ساعتان سيرا على الأقدام ، حتى نصل الى المنزل الذى ينتظرنا فيه أصدقاؤنا » •

كانت الساعة الثالثة صباحا ، والهواء البارد يلفح وجوهنا ـــ واصلنا سيرنا فى الطريق الصحيح •

— « زال الخطر الآن ، فلا نحتاج هنا الى اتخاذ حذر شديد ، فحرس الحدود التشيكية يتكاسلون فى هذا الوقت » • هدأ مرافقى أعصابى بهذه الجملة • تشجعت الآن ، لأن الخطر زال ، ولأننا أصبحنا على مسافة قصيرة من الهدف المتجهين اليه ، وهو منزل أصدقائه •

وبعد ساعة ونصف رأينا قرية صغيرة مكسوة بالثلوج البيضاء • كانت عقارب الساعة تشير الى الرابعة والنصف •

— « يجب أن نسرع حتى نصل هناك قبل الساعة الخامسة حتى لا يرانا أحد » •

وعندما اقتربنا سمعنا نباح الكلاب ، فأشار مرافقى بأن أنبطح على الأرض ، فانبطحت •

— « هناك يكون المنزل » همس فى أذنى مشيرا الى منزل خشبى صغير فى أطراف القرية • والآن •• نتحرك بحذر شديد مثل ما فعلنا عند الحدود التشيكوسلوفاكية •

— « لا أحد هنا •• أسرع » • اتجه بخطوات سريعة نحو المنزل ، وسرت وراءه على مسافة قريبة • ثم سمعت طرقا معينا فانفتح الباب ، فتنفست الصعداء • وصلنا بسلام ، فحيت ربة البيت وابنتها مرافقى بحرارة ، وكانتا تتحدثان باللغة الألمـــانية •

ثم خلعنا ملابسنا المبتلة ، فنشرت لتجف ، وقدم لنا الشاى الساخن •

أراد مرافقى أن يعود أدراجه بعد بضعة ساعات ، فسألتنى ربة البيت : « وأنت » ؟

ظللت صامتا ، ولكنه أجابها نيابة عنى : « يجب أن نوصله الى « بودموكلى »(١) حيث ينتظره صديق هناك سيساعده على اتمـــام رحلته » •

— « متى يجب أن يكون فى « بودموكلى » ؟
— « بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ظهرا » •
— « ولكن هذا صعب جدا ، فقد انقطع مرور السيارات فى الأيام الأخيرة من هنا الى « بودموكلى » •

---

(١) الاسم التشيكى لمدينة « بودينباخ » •

كانت هذه ضربة كبيرة لى ، فلا زالت أفكارى معلقة بأن أصل الى « بودموكلى » فى أمان •

ــ « ألا توجد وسيلة أخرى » ؟ ترددت ربة البيت ، ثم قالت :

ــ « سوف يسافر اليوم أحد أعضاء المجلس المحلى للجبهة الوطنية بالعربة المتزحلقة على الجليد الى مدينة « تيبليتس » وربما يكون من الممكن أن يأخذك معه ، ثم تستطيع أن تسافر بالقطار من هناك الى « بود موكلى » •

لم يكن اقتراحا سارا ــ بل من الممكن أن يكون خطيرا ــ لكن لم يكن لى خيار • وفجأة سمعنا طرقا على الباب •

فقالت ربة البيت همسا : « ادخلا هنا » ، وقبل أن أدرك حقيقة ما حدث ، وجدت نفسى فى حجرة صغيرة ، وقد أغلق علينا بابها •

دخل الزائر المنزل ، ووقف قريبا من الباب الذى كنا خلفه ، ومرة أخرى قضيت دقائق مرعبة •• وأخيرا انصرف الزائر •

ــ « يجب أن أذهب الى « بودموكلى » • كررت هذه الجملة مرارا • كانت ابنة ربة البيت قد ذهبت للبحث عن وسيلة للسفر •

وعادت أخيرا بعد ساعة •

ــ « وافق الرجل ــ الذى هو عضو فى المجلس المحلى للجبهة الوطنبة ــ على أن يأخذ معه أمى الى مدينة « تيبليتس » وكذلك القريب الذى عندنا » • قالت ذلك مبتسمة ، وهى تشير الى •

كان شعورى نحو هذه الرحلة متضاربا ، وخاصة أنى لا أعرف كلمة واحدة من اللغة التشيكية • ولكن ربة البيت طمأنتنى :

ــ « لا تخف ، فهو رجل صامت جدا ، فلن يسأل عن شىء اطلاقا ، وليس عليك سوى أن تسلم عليه ، ثم اذا وصلنا تودعه » •

قضيت الساعة التالية فى حفظ العشرين كلمة من اللغة التشيكية عن ظهر قلب •

وبعد ساعة كنت قد حفظتها تماما •

ــ « هل هذا نطقا صحيحا » : « ناسكلادونا » ؟

— « ممتاز •• فأنت تتحدث مثل تشيكى أصيل » •

وعندما وصلت العربة المتزحلقة على الجليد ، حييت القيادى المحلي باللغة التشيكية ، ونجحت فى ذلك ، فلم يشك فى شىء •

وصلنا الى « تيبليتس » بعد ساعة •

« ناسكلادونا » ، قلت له هذه الكلمة عند الوداع ، كما لو لم أودع أحدا فى حياتى كلها بغير هذه الكلمة •

سيتحرك قطار بعد دقائق قليلة الى مدينة « بودينباخ » ، وبدا لى أن الحظ يحالفنى ، فسوف أقابل صديقى بعد وقت قصير ، اذ من المتفق عليه أن ينتظرنى عند محطة السكك الحديدية على اليمين • وستكون الخطوات التالية أسهل مما سبق •

« بودموكلى » كتبت بالخط العريض على المحطة •

أسرعت مع ربة البيت التى لا زالت ترافقنى الى خارج المحطة •

لم يكن صديقى موجودا هناك •

نظرت الى الساعة فوجدتها تشير الى الخامسة والنصف ، تأخرت أربع ساعات تقريبا عن الموعد المتفق عليه •

— « ربما ذهب لقضاء حاجة ، وسيعود » حاولت مرافقتى تهدئتى •

تسكعنا فى شوارع المدينة ساعة ونصف ، وكنا نعود بين الحين والآخر الى محطة السكك الحديدية •

لم يظهر أى أثر لصديقى •

— « ما العمل الآن » ؟

قالت مرافقتى : « سأعود أدراجى » لقد نفذت مهمتها ، فأوصلتنى الى « بودينباخ » • لن أعتبر تصرفها تصرفا سيئا ، لو تركتنى الآن •

استبدلت منها بعض النقود ، فأصبح معى على الأقل بعضا من العملة التشيكية فى جيبى ، كى أشعر بالاطمئنان نوعا ما •

قضيت نصف ساعة أخرى ، أتمشى أمام المحطة جيئة وذهابا ، دون أن أقرر ماذا أفعل ! ثم قررت السفر الى بلغراد بمجهودى الخاص •

وعندما كنت أحاول معرفة ماتدل عليه لوحة الاشارة التشيكية فى المحطة ، اتجه الى موظف فى المحطة وخاطبنى باللغة التشيكية •

فقلت له باللغة الروسية : « لا أفهم اللغة التشيكية ، وأرجوك أن تساعدنى فى الحصول على تذكرة الى براغ » •

انحنى موظف المحطة انحناءة قصيرة ، ثم أخذنى الى شباك التذاكر ، وطلب لى تذكرة من عامل الشباك •

سيتحرك القطار بعد دقيقتين ••

أخذنى بأدب وذهب بى الى الرصيف الذى يقف عليه القطار ، ثم تحرك القطار بعد ذلك مباشرة ، وبعد دقائق قليلة استغرقت فى نوم عميق ، بعد أن قضيت أربعا وعشرين ساعة مثيرة للأعصاب •

ـ « براها » ـ لكمنى أحد المسافرين ، فنزلنا جميعا ، كانت عقارب الساعة تشير الى العاشرة والنصف مساء •

لا زال فى رأسى شيئا واحدا : اسم الشارع ورقم المنزل • كان هذا هو العنوان فى براغ ، أخذته احتياطيا للاستعانة به فى حالة عدم التوفيق فى « بودينباخ » •

كانت معرفتى ببراغ قليلة ، أخذت صورة عنها فى صيف عام ١٩٤٧ م ، ولكن لم يكن من الصعب العثور على المنزل •

كلما اقتربت من المنزل قوى أملى • بعد دقائق قليلة ، سوف أعثر أخيرا على حلقة الاتصال مع صديقى الذى سيساعدنى على مواصلة السفر الى بلغراد •

هناك ! يكون السكن المنقذ •

طرقت الباب •• فلم يرد أحد ••

مرة أخرى •• لا جواب ••

عاودت طرق الباب مرارا ••

لا أمل فى الجواب •

أصبح وضعى الآن خطيرا • كنت وحدى فى براغ ، وليس معى من النقود التشيكية الا شيئا قليلا نسبيا ، ولا أحد هناك أستطيع الذهاب اليه ، وخاصة : جاوزت الساعة الحادية عشرة مساء •

ما العمل ؟

أأذهب الى فندق ؟ مستحيل ، فلا أعرف اللغة التشيكية ، وليس معى أوراق رسمية تشيكية • وظهور أجنبى هناك ، سيبلغ عنه فورا •

هل أتجول طول الليل ، فى الشوارع ؟ خطر جدا ، وخاصة بعد الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، ذ يمكن جدا أن ألفت النظر ، فأستوقف ويطلب منى أوراقى الرسمية •

هل أسافر الى ضاحية ، فربما أجد هناك فرصة المبيت عند فلاح ؟ كان الوقت متأخرا جدا لتنفيذ هذه الفكرة •

حاولت أن أعصر ذهنى لتذكر كل الارشادات التى تعلمتها فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى مادة « النشاط السرى » ، ماذا يفعل انسان فى عاصمة بلد ليس معه منها أوراق رسمية ، ولا يجيد لغتها ، فى الساعة الحادية عشرة مساء وليس معه سوى نقود قليلة • لم نتعلم مثل هذه الارشادات آنذاك •

اتخذت قرارا بعد دقائق قليـلة ، يجب أن أخرج أولا من المنطقة والشوارع الخالية من الناس ، وأذهب الى أى مكان آهل بالناس ، وهناك أحاول — وفى هذه المحاولة مغامرة كبيرة — أن أجد مكانا أقضى فيه هذه الليلة •

من الأحسن أن أعود الى محطة السكك الحديدية • وعندما وصلت الى هناك كانت عقارب الساعة تشير الى الثانية عشرة الا ربعا • شعرت بالاطمئنان هناك ، فلم أكن وحدى • ولم تكد أعصابى تهدأ بهذا الشعور ، الا وأصابنى الفزع مرة أخرى ، عندما نظرت بطريق المصادفة من فناء المحطة الى صالة الانتظار ، فرأيت اثنين من الشرطة التشيكوسلوفاكية منكبين على فحص أوراق رسمية •

تحطمت أعصابى • هدوء •• هدوء •• لا تظهر قلقا ! سرت بخطوات بطيئة الى « التواليت » وأغلقت الباب ورائى • وطبعا أننى كنت أعلم أنه ليس مكانا أمينا • ولكنى استطعت أن أفحص حقيبتى ، وأمزق كل ما من شأنه أن يثير الشكوك •

وعندئذ سمعت طرقا على باب المرحاض ، وصوتا يصيح باللغة

التشيكية ، وعندما فتحت الباب ، رأيت — لحسن الحظ — أنه لم يكن شرطيا ، بل موظفا من موظفى السكك الحديدية •

وضعت يدى على جبهتى ، وتحدثت متوجعا باللغة الروسية :

« آسف •• فأنا متعب جدا ، لأنى قد شربت كثيرا » •

انفرجت شفتا الموظف ، كما لو كان يريد الضحك ، فمنع نفسه ، ثم رافقنى حتى خرجت من المحطة •

هربت من التفتيش على الأوراق الرسمية ، ولكن كم عدد المجموعات المنتشرة هذه الليلة فى المدينة تفتش على الأوراق الرسمية ؟ •

أشعلت لنفسى سيجارة على السلم أمام المحطة ، وكان يقف بجانبى رجل فى منتصف العمر ، فقدمت له سيجارة دون أن أتلفظ بكلمة ، فأخذها ، وقال شيئا باللغة التشيكية •

— « للأسف •• لا أعرف التشيكية ، بل الروسية والألمانية فقط » ، قلت ذلك باللغتين وراء بعضهما •

ففضل أن يتحدث معى باللغة الألمانية •

— « من أى البلاد أنت » ؟

— « من برلين » لم أكن — بعد ما حصل لى كل هذا — فى وضع أستطيع فيه رواية قصة مختلقة •

ربما يستطيع أن يدلنى على مكان أبيت فيه هذه الليلة ، فبدأت الحديث بحذر :

— « فى الحقيقة ، كان ينبغى على أن أواصل السفر هذا اليوم ، ولكن الأمور لم تجر كما أردت • وعليه فلا أستطيع السفر الا غدا ، ولا أدرى أين أستطيع قضاء هذه الليلة » •

— « الى أين تريد أن تسافر » ؟

قررت أن أضع كل شىء على ورقة واحدة ••

— « الى بلغراد » •

— « الى بلغراد » ؟ همس بهذه الكلمة مضطربا ، وهو ينظر حوله •

— « تعال معى •• لقد انتظرت شخصا اليوم ، ولكن على كل حال لن يأتى • تستطيع أن تنام عندى » •

أسرعت فى الابتعاد عن المحطة • كنت أبذل مجهودا كبيرا للمحافظة على المسافة بيننا وهو يسير أمامى بسرعة • هل كان هذا رعونة كبيرة منى ، أن أقول لانسان لا أعرف عنه شيئا ، أنى أريد السفر بالذات الى بلغراد ؟

الى أين يقودنى ؟ هل سيأخذنى حقيقة الى بيته ؟ هل أهرب منه ؟ ولكن الى أين أذهب ؟ ••

قضينا ربع ساعة تقريبا سائرين على الأقدام ، ثم وجدت نفسى فى شوارع خالية من الناس •قال هامسا : « ليس بعيدا من هنا » •

وأخيرا وقف أمام منزل ، وأخرج المفتاح من جيبه ، وفى هذه الأثناء بحثت بنظرة سريعة عما اذا كان هناك أى لافتة تشير الى أن هذا المنزل مقرا لادارة حكومية • لا ! كان منزل سكن ، ولكن هل كنت — لهذا — مطمئنا ؟ ألم تكن أشد الادارات الحكومية خطرا هى التى لا تعلق عليها « لافتات » من الخارج ؟ ولكن على كل ، كان عندى شعور بالاطمئنان فى أن أتبعه •

وقف فى الدور الثالث ، وفتح الباب ، وعندما دخلنا ، لاحظت أننا فى مسكن بسيط يتكون من حجرتين •

وفجأة خرج رجل من احدى الحجرتين ، فانكمشت رعبا •
فطمأننى قائلا : « لا تخف •• فهو صديقى » •
فسأل الرجل : « ألمـــانى » ؟
— « نعم •• يريد السفر الى يوغوسلافيا » •
فرأيت مرة أخرى الاندهاش ، والنظرة السارة •

— « آمل أن تصل بسلام » • لاحظت أثناء استمرار الحديث أن كلا الرجلين لا يصدقان — مثلى — اتهام يوغوسلافيا الرسمى •

أشار الرجل الذى جاء معى من المحطة لصديقه بالكف عن الحديث الذى تحول الى مناقشة •

— « دعه يرتاح •• فهو يقطع طريق هروبه الى يوغوسلافيا ، ولاشك أنه قاسى كثيرا فى الأيام المـــاضية وهو يقطع هذا الطريق ، فلنتركه ينام » •

هيئا لى مكانا للنوم ، وتمنيا لى نوما هادئا •

استطعت أن أرقد مستريحا من هذا الكابوس ، الذى كان يجثم على صدرى ، قبل أن أقابل هذا الرجل • ماذا حدث لى فى مدى الأربع وعشرين ساعة الماضية ؟ الهروب من المعهد العـــالى للحزب ، وعبور الحدود ، والسفر الى « بودموكلى » وبراغ ، والليلة المرعبة التى استولى الرعب فيها على أعصابى — قطعت كل هذا حتى الآن • كنت منهك القوى ، فراحت عينى فى النوم بسرعة ، ولم أفكر فيما سيحدث فى اليوم التالى • نودى على فى الصباح الباكر : « هالو •• أيها المسافر الى يوغوسلافيا •• انهض ، فنحن مضطرون الآن الى الذهاب الى العمل » •

ارتديت ملابسى بسرعة •

— « هل ستواصل سفرك اليوم » ؟

— « نعم •• فأنا متأكد أن كل شىء سيتحقق ، وأشكركم جدا جدا ، فلو لم أقابلك ما اهتديت الى مكان أنام فيه » •

— « لا شىء يستوجب الشكر ، يجب على المرء فى عصرنا هذا تقديم المساعدة للذين يهربون ، وأتمنى لك رحلة طيبة الى يوغوسلافيا ، فاذا وصلت الى هناك ، فقل انه لا زال يوجد تشيكيون يحافظون على صداقتهم مع يوغوسلافيا » •

وعدته بذلك •

سرت فى المدينة بخطوات بطيئة ، فالتجول الآن فى شوارع براغ ليس خطيرا ، فالشوارع مليئة بالناس ، ولن يلفت وجودى نظر أحد •
طرقت — فى الساعة التاسعة صباحا — الباب الذى انتظرت أمامه ليلة أمس دون فائدة • فتح الباب فى هذه المرة وسلم على صديقى ، فخف العبء الذى أحمله على كاهلى •

— « رائع وجودك هنا •• فقد اعتقدت أن المسألة فشلت » •

رويت له ما حدث لى ، فأخبرنى بأنه انتظر عند محطة السكك الحديدية فى « بودينباخ » حتى الساعة الخامسة ، ثم رجع الى براغ بالعربة على اعتقاد أنه سيقابلنى هناك • وعندما لم يجدنى فى براغ ، عاد سريعا الى « بودينباخ » وهكذا لم نقابل بعضنا •

— « المهم أنك الآن هنا • وسوف نرتب الأمور لاستمرار العملية بنجاح ، وسوف تصل فى أقرب وقت الى بلغراد » •

كان تاريخ اليوم هو ١٤ مارس • هدأت الآن ، فقد عثرت على الاتصال بأحد القياديين المعارضين لسياسة الحزب ، الذى له خبرة واسعة فى هذا المجال ويعتنق المبادىء التى أعتنقها •

مضت على أيام ، شدت فيها أعصابى حتى كادت تتمزق ، ولم أعلم قط ، ماذا ستأتى به الساعات القادمة ، ولكنى أقترب رويدا من الهدف : بلغراد •

ولن أنسى ما حييت هؤلاء الناس الذين ساعدونى فى طريق هروبى الى يوغوسلافيا • لقد كانوا أعضاء معارضين فى الحزب • فوقفوا بجانبى عن اقتناع ، ومن المسلم به أننى لن أذكر أسماءهم ، ولا الأماكن التى حللت بها •

وأخيرا وصلت الى بلغراد فى يوم ٢٥ مارس ١٩٤٩ فى تمام الساعة السادسة مساء • كان هذا محط رحالى • استمرت رحلة هروبى ثلاثة عشر يوما ، كنت كمن انزاح عن صدره كابوس كاد يودى به •

أخيرا فى يوغوسلافيا •••

اتصلت تليفونيا بأحد معارفى ، وهو قيادى فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، فوصل الى بعد نصف ساعة ، وأخذنى فى العربة الى مسكنه •

— « تستطيع أن تقيم عندى ، استرح أولا ، ثم نتحدث عن كل شىء فيما بعد » •

استدعيت بعد يومين الى الذهاب الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغوسلافى • قالت لى احدى السكرتيرات : « فليكو فلاهوفيك » ينتظرك » •

كان « فليكو فلاهوفيك » — كما عرفت — عضوا بارزا فى اللجنة المركزية ، ورئيس قسم الشئون الخارجية فى زعامة الحزب •

قال باللغة الروسية : « أنا مسرور جدا أيها الرفيق « ليونهارد » لوصولك بسلام » •

نظرت اليه باهتمام ، فخيل لى أنى رأيته قبل ذلك فى مكان ما ، ولكنى لم أتذكر بالضبط أين رأيته •• أما هو فقد عرف ذلك •

— « أنا أعرفك من قبل ، فقد كنت فى عامى ٤٢ — ١٩٤٣ م فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى « كوشتارينكوفو » • ثم نظر الى مبتسما : « ألم يكن اسمك فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية « ليندين » ؟

اندهشت جدا ، فعلى طول السنين السبعة التى مضت منذ ذلك التاريخ ، لم أخبر أحدا باسمى الحزبى ، الذى كنت أنادى به فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

— « والآن •• أيها الرفيق « ليونهارد » كيف تخيلت ما ستقوم به من عمل فى يوغوسلافيا » ؟

— « أريد أولا أن أبين للرفقاء المعارضين فى ألمـــانيا أسباب وتطور النزاع بين الحزب اليوغسلافى ، وبين مكتب الاستعلامات الشيوعى ، فقد عالجت النشرات التى ظهرت حتى الآن مشاكل لا يعلم عنها من الرفقاء الا القليلون ، ومن هنا فأحيانا يكون من الصعب عليهم تكوين صورة عن الموضوع » •

— « حسنا •• اكتب هذا ، وسوف نطبعه فى يوغوسلافيا باللغة الألمـــانية » •

اتجهت اليه سائلا : « هل من الممكن هنا أن نجد كاتبة اختزال تعرف اللغة الألمـــانية » ؟ أومأ برأسه ، فحلت هذه المشكلة •

— « حسنا •• سيكون هذا عملك فى الفترة التالية ، ولكن أى عمل دائم فكرت فيه » ؟

— « هل يمكن أن أعمل فى قسم اللغة الألمـــانية فى اذاعة بلغراد » ؟

رفع سماعة التليفون ، وتحدث حديثا تليفونيا قصيرا •

— « تستطيع أن تقابل فى الأيام التالية مدير اذاعة بلغراد ، وعقب انتهائك من كتابة الكتيب الذى ستعالج فيه موضوع النزاع ، ستتسلم العمل هناك » •

انتهت المقابلة وحل كل شيء فى لحظات قليلة .

لم يكن هناك تحقيق ، بل ترحيب برفيق أجنبى ، انفصل عن « الستالينية » . بعد نزاع داخلى دام فترة طويلة . كان اليوغوسلافيون يعرفوننى من قبل ، وكانوا يعلمون من تجاربهم الخاصة ، كيف يحدث مثل هذا الانفصال . لم أسحب أمام لجنة ، ولم توجد أسئلة مريبة ، ولا « بنزيون » يتحتم على المرء فيه كتابة تقارير ، ولا ضغط لانتزاع أى اعتراف » .

كنا فى نهاية مارس سنة ١٩٤٩ ، مضت سنتان تقريبا على زيارتى الأولى ليوغوسلافيا ، وتسعة أشهر منذ اعلان قرار مكتب الاستعلامات الشيوعى ، والانفصال عن موسكو . كانت آثار النزاع مع موسكو ظاهرة ، فقد تسبب الحصار الاقتصادى المضروب من البلاد الشيوعية على يوغوسلافيا فى قلة وجود البضائع . فسوف أعانى بعض الصعوبات هنا . لقد استبدلت الحياة الرغدة لقيادى كبير ، يتمتع بالحصول على الطرود الخاصة ، والسكن ، والعربة ، حياة مليئة بالتحريضات والأكاذيب ، استبدلت هذه الحياة بحياة تكتنفها بعض الصعوبات ، وربما أيضا — لم يستطع أحد أن يستكشف آنذاك ، ما ينتظر يوغوسلافيا مستقبلا — محفوفة بأخطار كبيرة . ورغم هذا كنت مسرورا جدا ، لأنى عثرت على بلد أهرب اليه ، بلد هدفه تحقيق بناء مجتمع اشتراكى دون تحكم جهاز طبقى ، واقامة اقتصاد مركزى موجه دون ارتكاب أعمال النظام الستالينى اللاانسانية ، واقامة مجتمع محرر من الطغيان و « موجات التطهير الستالينية » ، ومن تعليمات الحزب والفنانين والعلماء ، وعبادة الزعماء والتعصب المذهبى وخرافة السيادة .

غادرت مبنى الحزب فى بلغراد ، وأنا لا زلت غارقا فى التفكير ، فرأيت على حائط المنزل المقابل صور « ماركس » و « انجلز » و « لينين » ، ولم تكن صورة « ستالين » معلقة مع صورهم ...
وانتهت حياتى مع « الستالينية » .

* * *

[لم يمكث فى يوغوسلافيا طويلا ، بل هاجر الى النمسا وتجنس بالجنسية النمساوية ، ولا زال يعيش هناك حتى الآن ..] م . شامة .

الكشـــاف(1)

(1) لم يذكر فى النص الألمـانى من هذا الكشاف سوى فهرس غير كامل للأعلام ، فأكملته ، وأضفت اليه فهرس الأماكن والبلدان .

فهرس الأعــلام

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة

(E)

(F)

(G)

(H)

(I)

(J)

الصفحة

(K)

الصفحة

الصفحة

* * *

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الباب الأول

فى المدرسة السوفييتية

(٢٣ ـ ٨٢)

الباب الثانى

حياتى كطالب سوفييتى

(٨٣ ـ ١٢٩)

الباب الثالث

موسكو فى بداية الحرب

(١٣٠ ـ ١٦٧)

الباب الرابع

الترحيل الاجبارى الى « كاراجندا »

(١٦٨ ـ ٢١٧)

الباب الخامس

فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

(٢١٨ ـ ٣٢٦)

البــاب السادس

اللجنــة الوطنية « ألمــانيا الحرة »

(٣٢٧ ـ ٣٩١)

البــاب السابع

مع أولبريخت الى برلين

(٣٩٢ ـ ٤٧٠)

الباب الثامن

عضو فى السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكى الألمانى

(٤٧١ ـ ٥٦٢)

الباب التاسع

انفصالى عن الستالينية

(٥٦٣ ـ ٦٣٦)

الكشاف :

❋ ❋ ❋

كتب للمؤلف

١ ــ الاسلام قوة الغد العالميــة
ــ باول شـــمتز ــ مترجم
٢ ــ الاسلام فى الفكر الأوروبى
ــ هربرت جوتشـــالك ــ مترجم
٣ ــ حقائق عن النظام الشيوعى
ــ فولفجانج ليونهارد ــ مترجم
٤ ــ بين الاسلام والمسيحية
ــ أبو عبيدة الخزرجى ــ تحقيق
٥ ــ أثر البيئة فى ظهور القاديانية .
٦ ــ الخطر الشيوعى فى بلاد الاسلام .

* * *

تحت الطبع

١ ــ الاسلام كما ينبغى أن نعرفه .
٢ ــ بحوث فى علم الأديان .

رقم الايداع بدار الكتب : ٤٦٢٨ / ١٩٨١
الترقيم الدولى ٢ ـ ٣٤ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧

مطابع دار التراث العربي
ت ٩٣٦١٤٥ - القاهرة